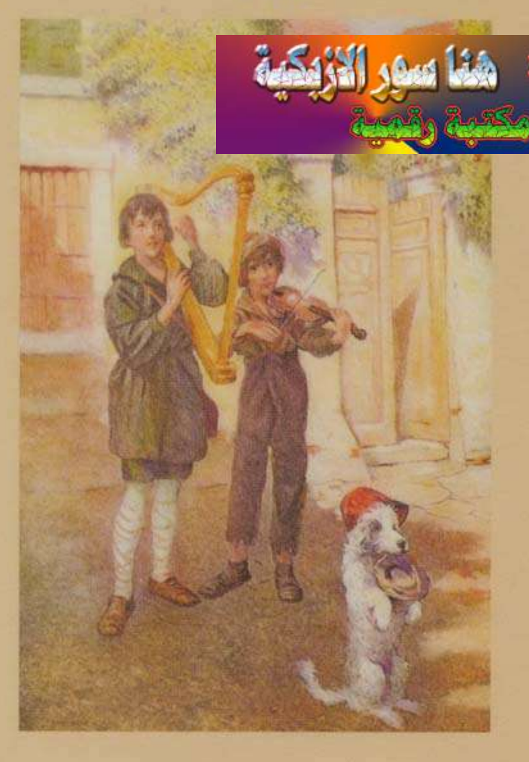
هكتور مالو

بلا عائلة



رواية



ترجمتها عن الفرنسية
سيلفانا الخوري

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

هكتور مالو

بلا عائلة

رواية

ترجمتها عن الفرنسية
سيلفانا الخوري

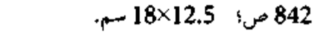
مراجعة
كاظم جهاد



بلا عائلة

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PQ2346 .S2212 2013
Malot, Hector, 1830-1907
[Sans famille]
بلا عائلة : رواية / هكتور مالو ؛ ترجمة سيلفانا الخوري ؛ مراجعة كاظم جهاد.–أبوظبي:
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.


842 ص؛ 18×12.5 سم.
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ.
ترجمة كتاب : Sans famille
تدمك: 978-9948-17-197-3
أ– الخوري، سيلفانا. ب–جهاد، ك

يتضمّن هذا الكتاب ترج
ctor Malot
s famille

لوحة الغلاف للرسّام الأمريكيّ جوني غروويل
الرّسوم الداخليّة للرسّام الفرنسيّ إميل بايار (1837-1891) Emile Bayard



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق – القصيص دبي – الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

المحتوى

القسم الأوّل

القسم الثاني


Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخٍ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كان أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري-كاترين دَونوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثَرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنّيات، بل صار يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوِّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر

دوماً والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر: كاظم جهاد

مقدمة المترجمة

يُعتبر هكتور مالو أحد أبرز كتّاب القرن التّاسع عشر الفرنسيّين. وُلد في 19 أيّار 1830 وتوفّي في 18 تمّوز 1907. على غرار بالزاك، لجأ إلى الكتابة الواقعيّة لرسم صورة عن القرن التّاسع عشر بشتّى شرائحه وقضاياه الاجتماعيّة، تاركاً نحو ستّين رواية تظلّ أشهرها تلك التي خصّصها للصّغار وعلى رأسها **بلا عائلة**.

نُشرت هذه الرّواية للمرّة الأولى في 1878، وسرعان ما عرفت نجاحاً كبيراً وأصبحت من أمّهات أدب النّاشئة، وألقت بتأثيرها على أجيالٍ من القرّاء والمبدعين، فقال عنها الكاتب الفرنسيّ فرانسوا مورياك (1885 -1970) François Mauriac في كتابه **مذكّرات حميمة** (1959) *Mémoires intérieurs*، الذي يروي فيه ذكريات طفولته: «هذا الكتاب جميلٌ لأنّه أبكاني». أمّا الكاتب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (1905 -1980) Jean-Paul Sartre، فيروي في سيرته الذّاتيّة **الكلمات** (1964) *Les Mots* كيف تعلّم القراءة بمفرده بفضل رواية مالو: «كنتُ أصعد سريري-القفص ومعي رواية **بلا عائلة** لهكتور مالو، التي كنتُ حفظتُها عن ظهر قلب، وأروح أجوب الصّفحات كلّها الواحدة تلو الأخرى، أفكّ رموز الكتابة حيناً وأتلو غيباً في أحيان أخرى: ولمّا قلبتُ الصّفحة الأخيرة كنتُ أجيد القراءة».

نالت **بلا عائلة** جائزة الأكاديميّة الفرنسيّة عام صدورها،

وتُرجمت إلى عدّة لغات كالألمانيّة والإنجليزيّة والتّركيّة ولغة التّامول والفارسيّة واليابانيّة والرّوسيّة وسواها، وقد حُوّلت أكثر من مرّة إلى أفلام سينمائيّة وتلفزيونية وإلى أفلام رسوم متحرّكة.

يقودنا مالو بصحبة ريمي، الصبيّ ذي الأعوام الثّمانية في رحلة عبر فرنسا وانكلترا وسويسرا القرن التّاسع عشر. رحلة تلقينيّة يتعلّم فيها الصّغير أن يكبر مكتشفاً ذاته والآخرين والعالم.

تبدأ الرّواية بانفصال ريمي عن السيّدة باربُران التي ربّته حتّى تلك اللّحظة واكتشافه أنّها ليست أمّه الحقيقيّة. وإذ «يؤجّره» زوجها لرجل يُدعى فيتاليس، وهو موسيقيّ جوّال كهل يجتاز فرنسا مقدّماً مع قرده وكلابه الثّلاثة عروضاً موسيقيّة ومسرحيّة في الشوارع، يغادر ريمي بصحبته القرية التي نشأ فيها لتبدأ حياته الجوّالة على قوارع الطّرُق. ومع فيتاليس، الرّجل ذي الماضي الغامض، يتعلّم ريمي القراءة والموسيقى، ويعرف البرد والجوع والنّوم في العراء، ويختبر قيم الصّداقة والحبّ والأمومة، ويحقّق لقاءات مختلفة.

وعلى امتداد الصّفحات والمغامرات، يسلّط الكاتب الضّوء على نماذج إنسانيّة ومواضيع اجتماعيّة لم يكن طرْقها في القرن التّاسع عشر مسألةً عابرة، مثل تشغيل الأطفال واستغلالهم، والبؤس المدقع الذي تعيش فيه فئة واسعة من الفقراء والمهمّشين، فضلاً عن ظروف العمّال في تلك الفترة والفروق الطّبقيّة. ولئن كانت الرّواية تعمل على إبراز قتامة ذلك العالم وشروره المتربّصة بالأبطال، إلاّ أنّها لا تفعل ذلك إلاّ لتشدّد على ضرورة تسلّحهم بالطّيبة والإرادة والعمل المُجِدّ إذ هي وحدها الكفيلة بإيصالهم إلى برّ الأمان.

ابتداءً من العنوان، تجعل الرّواية من العائلة قيمةً بحدّ ذاتها والبحث عن الأمّ جزءاً من البحث عن الذّات. وهي تعتمد مساراً مخالفاً لمسار النّضج المعتاد، أي ذاك الذي يبدأ في كنف العائلة وينتهي بالانفصال عنها وقطع حبل السّرّة كدليل على تحقُّق النوع الشّخصيّ. فمسار ريمي يبدأ بالانفصال وينتهي بالاجتماع العائليّ، وبين اللّحظتين مجموعة من الاختبارات المتتالية والمتزامنة تكون فيها استعادة الفردوس العائليّ المفقود ذروة المسار التّلقينيّ. اختبارات هي على غرار لحظة الانفصال الأولى معقودة على الفقدان أساساً. كأنّي بالكاتب يريد القول إنّ بناء الذّات والنّضوج العاطفي والنّفسي لا يتمّان إلاّ بتعلّم الخسارة. واختبارات الفقدان والخسارة هذه تطال مختلف جوانب شخصيّة الفرد النّفسيّة منها والجسديّة. بدءاً بفقدان الطّعام (اختبار الجوع) وصولاً إلى فقدان الأحبّاء (اختبار الموت). ولا ينحصر هذا الفقدان بريمي وحده بل يكاد يكون السّمة الجامعة لأبرز شخصيّات الرّواية: فيتاليس فَقَدَ مجده القديم، والصّغيرة ليز فقدت القدرة على الكلام، والصّبيّ آرثر فقدَ القدرة على المشي، والطّفل ماتيا يفتقر إلى الوسامة... ولكنّ جميع هذه الشّخصيّات، ولا سيّما الأطفال منها، يتمتّعون بإرادةٍ صلبة وبالقدرة على جعل الفقدان قيمةً مُضافة تساهم في صقل شخصيّاتهم وتمهّد لدخولهم عالمَ الكبار.

سيلفانا الخوري



إلى لوسي مالو

أثناء كتابة هذه الرواية، كنت أتذكّرك باستمرارٍ يا صغيرتي. كان اسمكِ حاضراً في كلّ لحظة على شفتيّ: فيمَ ستفكّر ابنتي لوسي عندما تقرأ هذا السّطر؟ أسيثير هذا المقطع اهتمامها؟ لوسي، دوماً لوسي. اسمكِ الذي ظللتُ أستعيدُه، ينبغي أن يكون مدوّناً في مقدّمة هذه الصّفحات. صفحات لا أعرف أيّ مصير ستلقاه، لكن مهما يكن الأمر فهي قد منحتني أفراحاً تساوي النجاحات كلّها: الرّضا إذ أفكّر أنّكِ ستتمكنّين من قراءتها وفرح إهدائها لكِ.

هكتور مالو



القسم الأوّل


Twitter: @ketab_n

في القرية

أنا طفلٌ لقيط.

لكن حتّى سنّ الثّامنة ظللتُ أعتقد أنّ لي كسائر الأطفال أُمّاً. عندما كنتُ أبكي كان هناك امرأة تضمّني بحنان بالغ بين ذراعيها وتهدهدني حتّى تكفّ دموعي عن الانهمار.

لم أنَمْ يوماً في سريري من دون أن تأتي امرأة لتقبّلَني. وعندما كانت رياح كانون تُلصقُ الثّلج على النوافذ المبيضّة، كانت تلك المرأة تأخذ قدميّ بين يديها طويلاً حتّى تُدفئهما وهي تغنّي لي أغنية لا يزال لحنها وبعض كلماتها تتردّد في ذاكرتي.

عندما كانت تفاجئني أمطارٌ عاصفةٌ فيما أرعى بقرتنا على امتداد الطرقات المعشوشبة أو في البراري، كانت المرأة تسرع إليّ وترغمني على الاحتماء بملابسها الصوفيّة التي كانت ترفعها بعناية لتغطّي رأسي وكتفيّ.

وأخيراً، عندما كنتُ أتخاصم وأحدَ رفاقي، كانت تستمع إليّ أروي أحزاني، وتجد دوماً الكلمات المناسبة لمواساتي ودعمي.

هذا كلّه، فضلاً عن أمور أخرى كثيرة، كطريقتها في التكلّم معي، في النّظر إليّ، في مداعبتي، في الرّقة التي تبثّها في توبيخها لي، جعلني أعتقد أنّها أمّي.

لكنّها لم تكن سوى مربّيتي. إليكم كيفَ عرفتُ الأمر.

قريتي، أو بالأحرى، ولكي أكون دقيقاً، القرية التي ترعرعتُ فيها- ذلك أنه لم يكن لي يوماً قريةٌ خاصّة بي، ولا مسقط رأسٍ، ولا أبٌ ولا أمٌّ- أقول إنّ القرية التي أمضيتُ فيها طفولتي تُدعى «شافانون». وهي إحدى أفقَر قرى وسَطِ فرنسا.

ذلك الفقر لم يكن سببه بلادة السّكان أو كسلهم، بل وقوع القرية في منطقة قليلة الخصوبة. لم تكن الأرض معطاء بما يكفي، ولكي تهبَ محصولاً جيّداً كان يلزمها أسمدة وإصلاح، وهو ما لم يكن متوفّراً في منطقتنا.

هكذا لم نكن نعثر، على الأقلّ في الفترة التي أتحدّث عنها، إلاّ على القليل من الحقول المزروعة، بينما كانت تمتدّ في جميع الأرجاء مساحات شاسعة من البراري التي لا ينبت فيها سوى الخَلَنج والوزّال. وعندما تغيب البراري تظهر الأراضي البور. وعلى تلك الأراضي المرتفعة كانت الرّياح القارسة تعيق نموّ الأشجار الهزيلة التي تمدّ أغصانها العوجاء والملتوية كيفما اتّفق.

للعثور على أشجار جميلة، ينبغي الابتعاد عن المرتفعات والهبوط صوب المنْعرَجات الأرضيّة عندَ ضفاف السّواقي، حيث تنبت في مروجٍ ضيّقةٍ أشجارُ الكستناء الكبيرة والسّنديان القويّ.

في أحد منْعرَجات الأرض تلك، على ضفاف ساقية تصبّ مياهها الدفّاقة في أحد روافد نهر الـ «لْوار»، يرتفع المنزل الذي أمضيتُ فيه السّنوات الأولى من حياتي.

حتّى سنّ الثّامنة، لم أرَ في المنزلِ قطُّ رجلاً. ما كانت أمّي أرملةً،

إلاّ أنّ زوجها كان، على غرار الكثير من عمّال المنطقة، قاطعَ حجارةٍ يعمل في باريس، ولم يعُدْ إلى المنطقة منذ كنتُ في سنّ تسمح لي برؤية ما يحصل حولي وفهْمه. من وقتٍ لآخر كان يرسلُ أخباراً عن أحواله مع أحد رفاقه العائدين إلى القرية.

«أيّتها السيّدة باربُران، إنّ زوجكِ بخير. ولقد كلّفني إبلاغكِ أنّ الشّغل يسير بوتيرةٍ جيّدة. تفضّلي خُذي النّقود التي بعث لكِ بها معي. أتريدين عدّها؟».

هذا كلّ شيء. كانت السيّدة باربُران تكتفي بهذه الأخبار: زوجُها بصحّة جيّدة، والشّغل يُعطي مردوداً، وهو يكسب رزقه.

إذا كان باربُران أمضى كلّ تلك السنوات في باريس، فليس لخلافٍ مع زوجته. لا علاقة للخلاف بالموضوع. لقد مكثَ بباريس لأنّ ظروف العمل كانت تفرض ذلك وكفى. عندما سيهرم سيعود للعيش قرب زوجته العجوز، والمال الذي يكونان جمَعاه سيقيهما العوز يومَ يكون العمر سلبَهما الصّحّة والقوّة.

ذات يوم من تشرين الثّاني، لدى حلول المساء، توقّف رجلٌ لم أكن أعرفه أمام سياج بيتنا. كنتُ واقفاً عند عتبة المنزل مشغولاً بتكسير حزمةٍ من العيدان. لم يدفع الرّجل السّياج، بل مدّ رأسه من فوقِه متطلّعاً إليّ وسألني إذا كانت السيّدة باربُران تعيش في المكان.

قلتُ له أن يدخل.

دفع الرّجل السّياج فأصدرت أحزمته القصبيّة أزيزاً قويّاً، وبخطوات بطيئة تقدّم صوب المنزل.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها رجلاً ملطّخاً بالوحل

بهذه الشّاكلة. بقعُ الطّين التي لا يزال بعضها رطباً تغطّيه من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه، والنّاظر إليه يدرك أنّ الرّجل مشى لوقت طويل في الطّرُقات الوعرة.

ما إن سمِعَت السيّدة باربُران أصواتنا، حتّى أسرعت نحونا فوقعَتْ على الرجل وجهاً لوجه في اللّحظة التي كان يجتازُ فيها عتبةَ المنزل.

- أحملُ أخباراً من باريس، قال.

كانت كلماته في منتهى البساطة. كلمات سمعناها مراراً. إلاّ أنّ النّبرة التي بها لُفِظَتْ لم تكن تشبه في شيءٍ تلك التي كانت تصاحب في الماضي الكلمات نفسها: «زوجكِ بخير، والشّغل يسير بوتيرة جيّدة».

- آه! يا إلهي! صرخت السيّدة باربُران وهي تضمّ يديها، لقد وقع لجيرومَ مكروه!

- في الواقع... أجل، لكن لا داعي للخوف كثيراً. الحقيقة أن زوجَكِ تعرّض لإصابة، لكنّه لم يمت. إلاّ أنّه قد لا يتمكّن من مزاولة العمل من جديد. هو الآن في المستشفى. كنتُ جاره في السّرير المقابل، ولّما كنتُ عائداً إلى المنطقة طلب منّي أن أبلغكِ الأمر في طريقي. لا يمكنني البقاء، لا يزال أمامي ثلاثون فرسخاً والليل يحلّ بسرعة.

كانت السيّدة باربُران تريد أن تعرف المزيد من التفاصيل. لذا رَجَتِ الرّجلَ أن يبقى للعشاء، فالطّرُق خطِرة، وقد حُكيَ عن ذئابٍ شوهدت مؤخّراً في الغابات، ومن الأفضل أن يبقى حتّى صباح اليوم التّالي.

جلس في زاوية قريباً من المدفأة. وفيما يأكل راح يخبرنا كيف وقعت

المأساة: انهارَت الصّقالات وسحقَتْ تحتها نصفَ جسم باربُران. ولمّا أُثبِتَ أنّه ما كان يُفترَضُ به التّواجدُ في المكان الذي أصيبَ فيه، رفض المتعهّد أن يدفعَ له تعويضاً.

- يا لَسوء الحظّ! يا للمسكين باربُران، يا لَسوء الحظّ! ردّدَ الرّجل. بعض المحتالين سواه كانوا سيجدون في الحادثة فرصةً للحصول على تعويضٍ ماديّ، لكنّ زوجكِ لن يحصل على شيء.

وفيما يجفّفُ ساقَيْ سرواله اللّتين راحتا تتصلّبان تحت طلائهما الطّينيّ المتجمّد، شرعَ يردّد من جديدٍ: «يا لسوء الحظّ!». يردّدها بألمٍ صادق كما لو كان هو نفسه لا يمانع في أن يُصاب بعاهةٍ على أمل أنْ يكسب تعويضاً جيّداً.

- مع ذلك نصحتُه بمقاضاة المتعهّد، قال الرّجل مُنهِياً روايته.

- لكنّ الدّعوى القضائيّة أمرٌ مكلفٌ جدّاً.

- صحيح، لكنْ عندما يكسبُها المرء...!

كانت السيّدة باربُران ستذهب عن طيبة خاطر إلى باريس، لكنّ رحلة طويلة ومكلفة كهذه ستكون شديدة الهول.

في صباح اليوم التّالي، نزلنا إلى القرية لكي نستشيرَ الكاهن. لم يشأ هذا الأخير أن يدَعَها تذهب قبل التأكّد من أنّها ستكون مفيدةً لزوجها هناك. لذا بعثَ برسالة إلى المرشد الرّوحيّ للمستشفى الذي يُعالَجُ فيه باربُران. وبعد بضعةِ أيّامٍ جاءه جوابٌ يقول أنْ ليس ما يوجب سفر السيّدة باربُران إلى باريس، لكنّ عليها بالمقابل أن ترسلَ مبلغاً من المال إلى زوجها لأنّه يعتزم مقاضاة المتعهّد الذي أُصيبَ هو أثناء العمل عنده.

مرّت الأيّام والأسابيع، ومن وقتٍ لآخَر كانت تصلنا رسائل من باربُران يُطالب فيها بإرسال مبالغَ إضافيّة. كانت الرّسالة الأخيرة أكثر إلحاحاً من سواها، وتقول إنّه إذا لم تبقَ هناك نقود فيجب بيع البقرة.

وحدهم الذين عاشوا في الرّيف بين القرويّين يعرفون كم من الشّقاء والألم تنطوي عليهما هاتان الكلمتان: «بيعُ البقرة».

بالنّسبة لعلماء الطّبيعة، البقرة حيوانٌ مُجترّ. للمتنزِّهين، هي بهيمةٌ تُضفي على المشهد الطّبيعيّ جمالاً عندما ترفع خَطْمَها الأسود الذي يرطّبه النّدى فوق الأعشاب. أمّا أبناء المدن فيَروْن فيها مصدر القهوة بالحليب والجُبنة القشديّة. لكن بالنّسبة للقرويّ هي أكثر من هذا كلّه، وأفضل بكثير. فمهما اشتدَّ فَقرُه وكبرت عائلته، يظلّ هو واثقاً من أنّ شبح الجوع بعيدٌ عنه طالما كان في زريبته بقرة. يكفي حبلٌ طويل أو حتّى رِباطٌ بسيطٌ يُعقَد حول قرنَيْها، ليقودها ولدٌ فتروح ترعى على امتداد الطّرقات المعشوشبة حيث المرعى لا يملكه أحد. وفي المساء يكون لدى العائلة كلّها زبدةٌ في الحساء وحليبٌ تطرّي به البطاطس. الأب والأمّ والأطفال، الكبار والصّغار، الجميع يعيشون من البقرة.

كنّا، أنا والسيّدة باربُران، مكتفين بما تدرّه علينا بقرتنا تمام الاكتفاء، حتّى أنّني لم أذق اللّحم إلاّ نادراً حتّى ذلك الحين. بيد أنّها لم تكن مصدر غذائنا فحسب، كانت كذلك رفيقتَنا وصديقتَنا. إذ ينبغي عدم الاعتقاد بأنّ البقرة حيوانٌ غبيّ، فهي لديها قدْر من الذّكاء ومزايا معنويّة تكبر وتتطوّر وفقاً لتربيتنا لها. من جهتنا، كنّا نداعب بقرتنا ونكلّمها وكانت هي تفهَمُنا، وبعينيها المدوّرتين الواسعتين

المفعمَتين رقّةً كانت بدَورها تعرف كيف تُفهِمُنا ما تحتاجُ إليه وما تشعرُ به.

باختصار، كنّا نحبّها وكانت تحبّنا.

مع ذلك وجبَ علينا التخلّي عنها، إذ لم يكن ممكناً تلبية طلب باربُران إلاّ بـ «بَيْع البقرة».

حضرَ تاجرٌ إلى البيت وفحص «صُهَيبة»[1]. وبعدما جسّها طويلاً وهو يهزّ رأسه تعبيراً عن عدم رِضاه؛ وبعدما قال وردّد مئات المرّات إنّها لا تلائمه إطلاقاً، وإنّها بقرةُ أناسٍ فقراء ولن يتمكّن من إعادة بيعها، وإنّها لا تُعطي حليباً، والزّبدة التي تمنحها رديئة؛ بعد هذا كلّه قال إنّه مستعدّ لشرائها، لكنْ فقط بدافعٍ من كرم أخلاقه ولكي يُسدي إلى السيّدة باربُران معروفاً، ذلك أنّها امرأة طيّبة.

«صُهيبة» المسكينة، كما لو كانت تفهم ما يحدث، رفضت الخروج من الإصطبل وشرعت بالخوار.

- اذهبْ خلفها وأرغِمْها على الخروج، قال لي التّاجر وهو يناولني السّوط الذي كان يحمله حول عنقه.

- لا ليس هكذا، قالت السيّدة باربُران، ثمّ أمسكتْ بالبقرة من الحبل وراحت تكلّمها بهدوء.

- هيّا يا جميلتي، تقدّمي، تقدّمي.

فكفّت «صُهيبة» عن المقاومة، ولمّا بلغت الطّريق، ربطَها التّاجر خلفَ عربته، فلم يعد لديها خيارٌ إلاّ أن تتبع الحصان.

بعدما دخلنا المنزل ظللنا نسمع خوارها حتّى وقتٍ طويل.

---

(1) سُمّيت البقرة هكذا تحبّباً، بباعث من لون جِلدها الأصهب (المترجمة).

لا حليب بعد اليوم، ولا زبدة. في الصّباح نأكلُ قطعةً من الخبز، وفي المساء بطاطس مملّحة.

بعد بيعِ «صُهيبة» بوقت قصير حلّتْ ثلاثاء المرْفع[1]، التي تسبق عندنا فترة الصّيام. في السّنة التي سبقتْ، حضّرت لي أمّي السيّدة باربُران بهذه المناسبة رقائق لذيذة وفطائر مقليّة ظللتُ آكل منها وآكل، ممّا أفرحها كثيراً.

لكنْ آنذاك كنّا لا نزال نملك «صُهيبة» التي أعطتنا الحليبَ لتحضير العجينة، والزّبدةَ للقلي.

أمّا في غياب «صهيبة» فلا حليب ولا زبدة ولا عيد، هذا ما قلتُه في نفسي بِحُزن.

إلاّ أنّ السيّدة باربران هيّأت لي مفاجأة. فمع أنّها لم تكن من النّوع الذي يستلِف من الجيران، فقد طلبتْ من إحدى جاراتها كأساً من الحليب، ومن جارةٍ أخرى قطعةً من الزّبدة. وعندما عدتُ إلى البيت حوالى الظُّهر وجدتُها تسكب الطّحين في قِدْر كبيرة من الفخّار.

- هذا طحين! قلتُ مستغرباً وأنا أتقدّم صوبها.

- طبعاً، أجابتْ مبتسمةً، هذا بالفعل طحينٌ يا صغيري ريمي، طحينُ قمحٍ جميل. اقتربْ، أترى كم أنّ رائحته طيّبة؟

لم أتجرّأ وأسألها ما ستفعل بالطّحين، مع أنّني كنتُ أتحرّق شوقاً لأعرف. كما لم أشأ القول إنّني كنت منتبهاً إلى أنّ ذلك اليوم كان يومَ عيدٍ حتّى لا تحزن السيّدة باربُران.

- ماذا نصنع من الطّحين؟ سألَتْ وهي تنظر إليّ.

---

(1) ثُلاثاء المرْفَع: عيد مسيحيّ يسبق أربعاء الرّماد التي تفتتح فترة الصّيام (المترجمة).

- نصنع خبزاً.
- وماذا أيضاً؟
- عصيدة.
- وبعد؟
- أوه... لا أعرف.
- بلى، أنت تعرفُ جيّداً ولكنّك لا تجرؤ على قول ذلك، لأنّك صبيّ طيّب. أنت تعلم أن اليوم هو ثلاثاء المرْفع، يومُ الرّقائق والفطائر المقليّة. لكنّك تعلم أيضاً أنْ لا زبدة عندنا ولا من حليب، ولذا فإنّك لا تجرؤ على التحدّث بالموضوع، أليس كذلك؟
- أوه! يا أمّي...
- ولأنّني توقّعتُ كلّ هذا مسبقاً، تدبّرتُ الأمر حتّى لا يخذلك العيد. انظر في صندوق المؤونة وسترى!

رفعتُ الغطاء بحماسٍ فرأيتُ حليباً وزبدةً وبيضاً وثلاث تفّاحات.

- ناوِلْني البيض، قالت لي، وفيما أكسرُه قشّرْ أنتَ التّفاح.

وفيما أقطّع التّفاح إلى شرائح، كسرَتْ هي البيض في الطّحين وراحت تخفق المزيج مضيفةً إليه الحليب شيئاً فشيئاً.

عندما جهزت العجينة، وضعت السيّدة باربُران الإناء على رماد الموقد السّاخن فلم يبقَ علينا إلاّ انتظار المساء لنأكل الرّقائق والفطائر خلال العشاء.

بصراحة، عليّ الاعتراف بأنّ النّهار بدا لي طويلاً، وأكثر من مرّة رفعتُ القماش الذي يغطّي الإناء متفقّداً العجين.

فكانت أمّي السيّدة باربُران تنبّهني:

- سيبردُ العجين ولن يختمر كما ينبغي.

لكنّه كان يختمر بصورة جيّدة وتظهر على سطحه انتفاخات شبيهة بالفقّاعات في حين تفوح من الإناء رائحة بيضٍ وحليبٍ لذيذة.

- اكسرْ حزمة عيدان، كانت تقول لي، تلزمنا نارٌ جيّدة لا دخانَ فيها.

وأخيراً، حلّ المساء فأضيء السّراج!

- ضعْ حطباً في النّار! قالت لي.

لم تكن بحاجة لتكرّر طلبها فأنا كنتُ أنتظر هذه الكلمات بفارغ الصّبر. بعد قليلٍ ارتفعَ في الموقد لهيبٌ قويٌّ انتشر وميضُه المتمايل مالئاً المطبخ.

عندئذٍ تناولتِ السيّدة باربُران المقْلاة المعلّقة على الجدار ووضعَتْها فوق اللّهب.

- ناولْني الزّبدة.

ثمّ أخذَتْ بطرف سكّينها قطعةً من الزبدة لا يتعدّى حجمُها حجمَ حبّة جوز ووضعتها في المقلاة فراحت تذوب مُفرقِعةً.

آه، ما أشهى تلك الرّائحة! رائحةٌ دغدغت أنفَيْنا بلذّة مُضاعَفة لأنّنا لم نتنشّقها منذ زمن طويل.

وما أجملَ الموسيقى التي كان يُحدِثها أزيز الزّبدة وصفيرها!

لكن رغم تركيزي الشّديد على تلك الموسيقى، بدا لي أنّني سمعتُ في الحوش وقعَ خطوات.

من كان يمكن أن يأتي ويزعجنا في مثل هذه السّاعة؟ لا بدّ أنّها

إحدى الجارات جاءت تطلبُ ناراً.

لكنّني لم أتوقّف مطوّلاً عند هذه الفكرة. فالسيّدة باربُران كانت في تلك اللّحظة قد غمست المغرفة في الإناء وقامت بسكبِ طبقةٍ من العجين الأبيض في المقلاة، ولم يكن ممكناً تضييع ذلك المشهد بالاستسلام للشّرود.

لكن سرعان ما اصطدمتْ عصاً بالعتبة وانفتح الباب فجأةً.

- مَن هناك؟ سألتْ السيّدة باربُران دون أن تلتفت.

دخلَ رجلٌ، والشّعلة التي أنارته أظهرتْ لي أنّه يرتدي قميصاً أبيضَ ويحمل في يده عصا غليظة.

- أرى أنّكم تحتفلون! لا تنزعجوا من أجلي، قال بنبرة قاسية.

- آه! يا إلهي! صرختِ السيّدة باربُران وهي تضعُ المقلاة بسرعةٍ على الأرض، هذا أنت يا جيروم؟

ثمّ أمسكتْ ذراعي ودفعتني صوبَ الرّجل الذي قد كان توقّف عند العتبة:

- هذا أبوك.


Twitter: @ketab_n

الفصل الثّاني

أبٌ مُرَبٍّ

دنوتُ منه لأقبّله بدوري لكنّه أوقفني بطرف عصاه:

- من يكون هذا؟

- إنّه ريمي.

- لكنْ ألم تقولي لي...

- بلى ولكن... لم يكن ذلك صحيحاً لأنّ...

- آه! ليس صحيحاً! ليس صحيحاً!

تقدّم بضع خطواتٍ نحوي رافعاً عصاه فتراجعتُ بشكلٍ تلقائيّ.

ماذا فعلتُ؟ بمَ أذنبتُ؟ لمَ استقبلني هذا الاستقبال وأنا كنتُ أدنو منه لأقبّله؟

لم يُتَح لي الوقت للتفكير في هذه الأسئلة التي كانت تتزاحم في ذهني المشوَّش.

- أرى أنّكما كنتما تحتفلان بثلاثاء المرفع. هذا ممتاز، فأنا أتضوّر جوعاً. ماذا لديكِ للعشاء؟

- كنتُ أحضّر رقائق.

- أجل، أرى ذلك. أتظنّين أنّه بالرّقائق وحدها يمكن أن تُرضي نهمَ رجلٍ قطعَ ماشياً على قدميه عشرة فراسخ؟

- لكن ليس عندي شيء، لم نكن نتوقّع مجيئك.

- كيف لا شيء، لا شيء للعشاء؟

ثمّ تطلّع حوله وقال:

- هاكِ، هذه زُبدة.

ثمّ رفع رأسه إلى السّقف حيث كنّا في الماضي نعلّقُ الشّحمَ المجفّف، لكنّ الخُطّاف كان فارغاً منذ زمنٍ طويل، ومن العارِضة الخشبيّة لم تعد تتدلّى إلاّ بضع جدائل من البصل والثّوم.

- وهذا بصل، قال وهو يُسقط بعصاه جديلة منه. أربع أو خمس بصلات وقطعة من الزّبدة تكفي لصنع حساء جيّد. ارفعي الرّقاقة



من المقلاة واطهي لنا البصل عِوَضاً عنها.

أن ترفع الرّقاقة من المقلاة! لم تعترض السيّدة باربُران، بل بالعكس سارعتْ لتنفيذ ما يطلبه زوجها، فيما كان هو يتّخذ له مكاناً على المقعد عند زاوية المدفأة.

أمّا أنا فلم أجرؤ على التزحزح من المكان الذي دفعتني إليه عصاه، ورحتُ أنظر إليه مستنداً إلى الطّاولة.

كان رَجلاً في حوالى الخمسين، ملامحُه قاسية ورأسه يميل صوب كتفه اليمنى إثْرَ الإصابة التي تعرّض لها، وكان هذا التشوّه يساهم في جعل مظهره مُقلِقاً.

أعادت السيّدة باربُران المقلاة إلى النّار.

- أبهذه القطعة الصّغيرة من الزّبدة ستحضّرين لنا الحساء؟ قال.

ثمّ تناول بنفسه طبق الزّبدة وأسقطَ الكتلة بكاملها في المقلاة.

لم يعدْ من زُبدة، ما يعني أنّه لم يعدْ من رقائق أيضاً.

في العادة كانت تلك الكارثة ستؤلمني. لكن في تلك اللّحظة لم تكن الرّقائق تشغل تفكيري ولا الفطائر، كلّ ما كنت أفكّر فيه هو أنّ هذا الرّجل الذي يبدو شديد القسوة كان هو أبي.

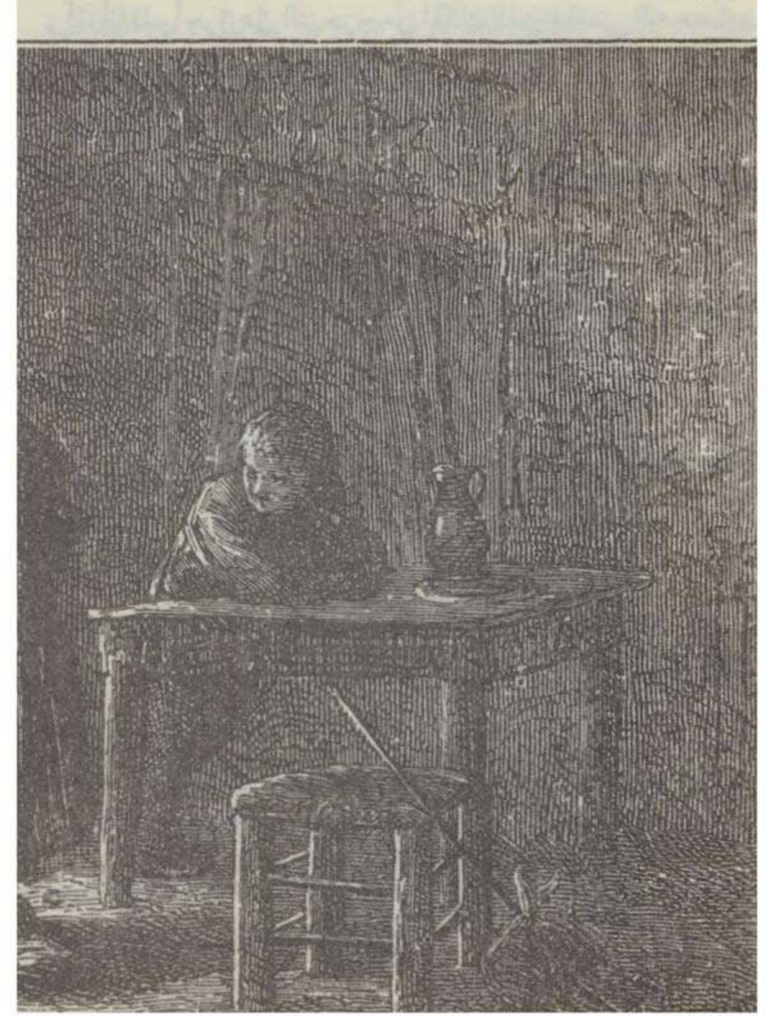
«أبي، أبي!» رُحتُ أردّد هذه الكلمة تلقائيّاً في نفسي.

لم أتساءل يوماً ما يعني أبٌ تحديداً؛ وبشيء من الغموض ومتّبعاً حدسي خلتُ أنّه أمٌّ لها صوتٌ غليظ. لكن عندما كنت في تلك اللّحظة أنظر إلى ذلك الأب الذي ظهر لي فجأةً كان ينتابني فزعٌ أليم.

كنتُ أريد أن أقبّله لكنّه أبعدَني بطرف عصاه. لماذا؟ ما كانت السيّدة باربُران تصدّني أبداً عندما أذهب لأُقبّلَها، بل بالعكس كانت تأخذني بين ذراعيها وتضمّني إليها.

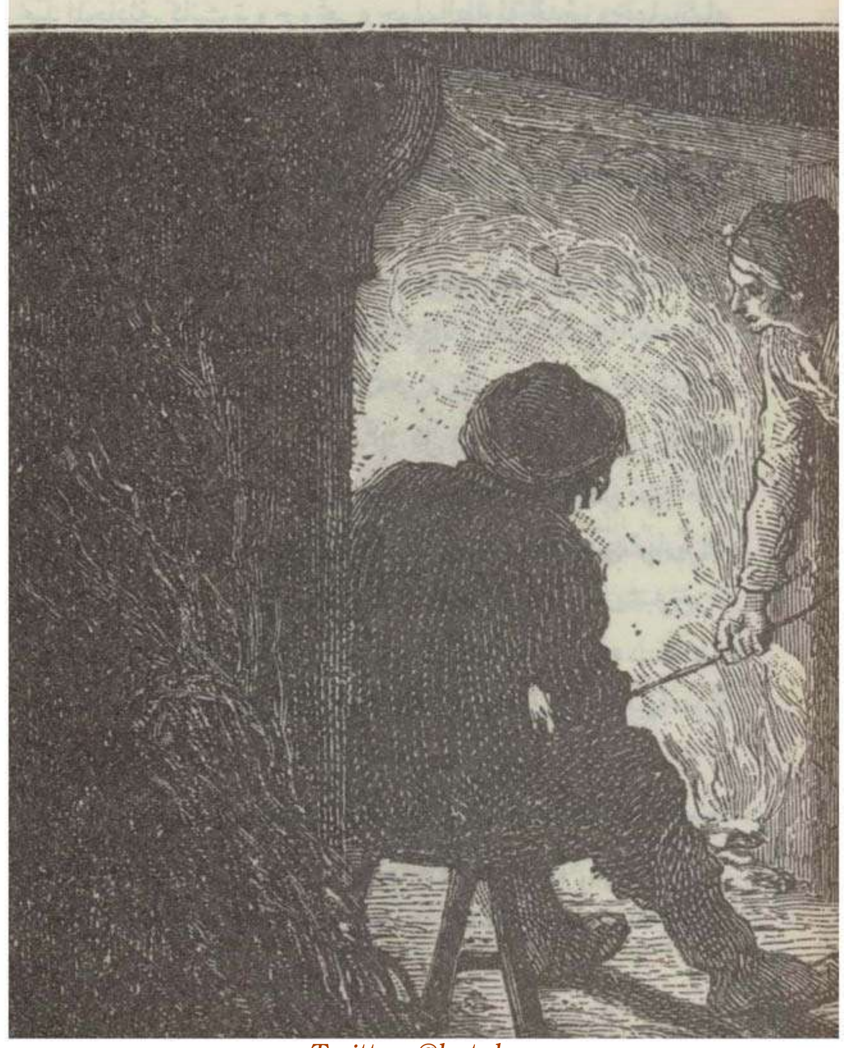
- ضعِ الصّحون على الطّاولة بدلَ البقاء في مكانكَ كالصّنَم، قال لي.

سارعتُ لتنفيذ طلبه. الحساء صارَ جاهزاً فسكبتْه السيّدة باربُران في الصّحون.



فتركَ مقعده إلى جانب الموقد وجلسَ إلى الطّاولة وبدأ يتناول الطّعام متوقّفاً من حينٍ لآخر لينظرَ إليّ.

كنتُ من الارتباك والقلق بحيثُ عجزتُ عن الأكل. وبدوري رحتُ أسترقُ النّظر إليه خافضاً عينيّ كلّما تلاقت نظراتنا.



- ألا يأكل أكثر في العادة؟ سأل باربُران فجأة مشيراً إليّ بملعقته.
- آه! بلى، هو يأكل بشهيّة.
- وما شأني! حتّى لو لم يأكل إطلاقاً!

طبعاً لم يكن لي رغبة في الكلام. ولا السيّدة باربُران كان مزاجُها يحبّذ المحادثة. كانت تروح وتجيء حول الطّاولة تخدمُ زوجها بانتباه.

- ألستَ جائعاً؟ سألني.
- كلاّ.
- حسناً، اذهب إلى النّوم، ومن الأفضل أن تغفو فوراً وإلاّ لغضبتُ.

حدجتْني السيّدة باربُران بنظرة تحثّني فيها على الطّاعة دون اعتراض. ولم تكن توصيتها ضروريّة، فأنا لم أكن أفكّر في العصيان.

مثلما في الكثير من بيوت الفلاّحين، كان مطبخُنا غرفةَ نومِنا في آنٍ معاً. إلى جانب الموقد، كان هناك كلّ ما نحتاجه للأكل: الطّاولة وصندوق المؤونة وخِزانة الصّحون. وفي الطّرف الآخر من الغرفة كلّ الأثاث الخاصّ بالنّوم: في إحدى الزّوايا سرير السيّدة باربُران، وفي الزّاوية المقابلة سريري الذي كان محشوراً داخل ما يشبه خزانة مُحاطة بسِتارة قطنيّة حمراء.

بدّلتُ ملابسي بسرعة ومضيتُ إلى الفراش. لكنْ هيهات أن يأتيَني النّوم.

فالنومُ ليس إيعازاً يمكن تنفيذه. النومُ لا يأتي إلاّ إذا كنتَ نعسانَ ومرتاح البال.

وأنا لم أكن أشعر بالنّعاس ولا براحة البال.

كنتُ بالعكس شديد القلق وأشعر بتعاسة كبيرة.

إذا كان هذا الرّجل هو أبي، فلمَ يعاملني بمثلِ هذه القسوة؟

التصقتُ بالحائط وبذلتُ جُهداً لطرد هذه الأفكار والاستسلام للنّوم كما أمرَني به. لكن عبثاً، فالنومُ لم يكن ليأتي، وأنا كنتُ أشعر بالصّحو أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

لا أعرف كم من الوقت مرّ عندما بدا لي أنّ أحدهم كان يدنو من سريري.

كانت الخطوات بطيئة وثقيلة، فعرفتُ فوراً أنّ تلك لم تكن السيّدة باربُران.

لامسَ شعري لهاثٌ دافئ.

- هل غفوتَ؟ سألني صوتٌ مخنوق.

حاذرتُ أن أجيبَ، فعبارته «وإلاّ لغضبتُ» كانت ما تزال ترنّ في أذنيّ.

- لقد غفا، قالت السيّدة باربُران. من عادته أن يغفو ما إن يخلد إلى النّوم. يمكنك التكلّم دون أن تخشى أن يسمعَك.

ربّما كان عليّ أن أقول إنّي لم أكن نائماً، لكنّني لم أجرؤ على ذلك. لقد طُلبَ منّي أن أغفو، وإذا لم أفعل فسأكون في موقع المُخطئ.

- أين صارت الدّعوى؟ سألتِ السيّدة باربُران.

- خسرتُها! اعتبرَ القُضاة أنني كنتُ مخطئاً بالوقوف تحت الصّقالات وأنّ المتعهّد ليس مُلزَماً بأن يدفع لي تعويضاً.

ثمّ ضرب على الطّاولة وبدأ يشتم ويهذي بكلمات غير مفهومة.

وأردفَ بعد حين:

- خسرتُ الدّعوى وخسرتُ نقودَنا وصرتُ معوَّقاً! يا للبؤس! وكما لو كان كلّ هذا لا يكفي، إذا بي أعود لأجدَ هنا ولداً. هل ستشرحين لي لِمَ لمْ تفعلي ما طلبتُه منكِ؟

- لأنّي لم أقدِرْ.

- لم تقدري أن تذهبي به إلى ملجأ الأطفال اللّقطاء؟

- لا يمكن التخلّي هكذا عن طفلٍ أرضعتُه وأحبُّه.

- لكنّه ليس طفلكِ.

- كنتُ أريد أن أنفّذَ ما طلبتَه، لكنّه مرِضَ في تلك الفترة.

- مرِضَ؟

- أجل، مرِضَ. ولم يكن ممكناً اصطحابه إلى الملجأ في تلك الحال، كان سيموت هناك.

- وعندما شُفيَ؟

- الواقع أنّه لم يُشفَ فوراً. بعد مرضِه اعتلّ مرّة أخرى: كان الصّغير المسكين يسعل على نحوٍ يقطّع القلب. هكذا مات ابنُنا نيكولا، وفكّرتُ في أنّني إذا ما عهدتُ بهذا الطّفل إلى الملجأ فسيموت هو الآخَر.

- لكن بعد ذلك؟

- بعد ذلك كان الزمن قد مرّ. وبما أنّني انتظرتُ كلّ تلك السّنوات، كان بوسعي الانتظار أكثر.

- كم عمره الآن تحديداً؟

- ثماني سنوات.

- حسناً! سيذهب في سنّ الثّامنة إلى حيث كان يجدر به الذّهاب

وهو بَعدُ رضيعٌ، وسيكون الأمرُ بالنّسبة إليه أصعب. هذا ما سيكون قد جناه!

- آه! جيروم، أنت لن تفعل هذا.

- لن أفعل هذا؟! ومَن ذا الذي سيمنعُني؟ أتظنّين أنّه يمكننا الاحتفاظ به إلى الأبد؟

خيّم الصّمتُ لحظةً تمكّنتُ فيها أنا من استعادة أنفاسي، فقد كاد الانفعال يخنقني.

ثمّ قالت السيّدة باربُران:

- آه! كم غيّرتكَ باريس! كان يستحيلُ أن تتكلّمَ بهذه الشّاكلة قبل ذهابك إلى باريس.

- ربّما! قد تكون باريس غيّرتني لكنّ الأكيد هو أنّها جعلت منّي مُعاقاً. كيف سيسعُني العمل بعد اليوم؟ كيفَ أُعيلكِ وأُعيلُ نفسي؟ لم يعد لدينا نقود، والبقرة بِعناها. أيجب علينا، ونحنُ لا نملكُ ما نسدّ



به رمقنا، أن نُعيلَ ولداً ليس ابنَنا؟

– إنّه ابني أنا.

– هو ليس ابنكِ ولا ابني. هذا الصّبيّ ليس ابنَ فلاّحين. كنتُ أراقبه أثناء العشاء: إنّه هشّ وضعيف، ليس له ساعدان ولا ساقان.

– لكنّه أكثر الأولاد وسامةً في المنطقة بأسرها.

– لا أنكر وسامته. لكن هل هو قويّ البنية؟ هل دماثته هي ما سيجلبُ له القوت؟ أتظنّين أنّ من له كتفين ككتفيه قادرٌ على العمل؟ إنّه ابنُ مدينة ولا نحتاج هنا إلى أبناء مُدُن.

– لكنّني قلتُ لكَ إنّه طفلٌ شهمٌ، فضلاً عن أنّه ذكيٌّ كالقططِ، وإلى هذا فقلبُه طيّب. سوف يعمل من أجلنا.

– لكن في انتظار ذلك سيكون علينا العمل من أجلِه، وأنا ما عدتُ قادراً على العمل.

– ماذا لو ظهرَ أهله وطالبوا به؟ ماذا ستقول لهم؟

– أهله؟! وهل لهُ أهل؟! لو كان له أهل لَبَحثوا عنه ولَكانوا وجدوه في ثماني سنوات! آه ما أحمقني عندما اعتقدتُ أنّ له عائلةً ستُطالِبُ به ذات يوم وتعوّضنا عن تعَبِنا في تربيتِه! كم كنتُ غبيّاً وأبله! صحيح أنّه كان ملفوفاً بقماطٍ جميل ومخرّم، لكنّ هذا لا يعني بالضّرورة أنّ أبوَيه كانا سيبحثان عنه. كما أنّهما قد لا يكونان في عداد الأحياء.

– وماذا لو كانا على قيد الحياة؟ ماذا لو جاءا يطالباننا به ذات يوم؟ إنّني أعتقد أنّهما سيأتيان.

– يا لعنادكنّ أنتنّ النّساء!

– ما نفعل يا ترى إنْ أتَيا؟

- إنْ أتَيا دلّلناهما على الملجأ. لكن كفى جدالاً. كلّ هذا الحديث يزعجني. غداً أصطحبه إلى العُمدة. أمّا اللّيلة فسأذهب لأسلّم على فرانسوا، وسأعود بعد ساعة.

فُتِح الباب ثم أُغلقَ. لقد رحل.

فنهضتُ بسرعة ورُحتُ أنادي أمّي السيّدة باربُران.

- ماما!

فأقبلتْ مسرعةً.

- أستتركينني أذهبُ إلى الملجأ؟

- كلاّ يا صغيري ريمي، كلاّ، قالت ثمّ قبّلتني بحنانٍ وهي تضمّني بين ذراعيْها.

جعلتني مُداعبتها أستعيد شجاعتي فكفّت دموعي عن الانهمار.

- لم تكن نائماً إذن؟ سألتني بهدوء.

- ليس هذا ذنبي.

- أنا لا أوبّخُكَ. أيعني هذا أنّكَ سمعتَ كلّ ما قاله جيروم؟

- أجل، سمِعتُ أنّكِ لستِ أمّي. لكنّه هو أيضاً ليس أبي!

لم أنطقْ بهذه الكلمات المعدودة بالنّبرة ذاتِها. فرغم حزني لمعرفة أنّها لم تكن أمّي، كنتُ بالمقابل فرِحاً وشبْه فخورٍ بأنّ ذلك الرّجل لم يكن أبي. وهذا التّضارب في مشاعري انعكسَ في صوتي.

لكن بدا أنّ السيّدة باربُران لم تنتبه للأمر.

- ربّما كان يجدر بي أن أُطلعَك على الحقيقة من قبْل؛ لكنّك كنتَ لي ابناً حقيقيّاً فكيفَ يسعُني أنْ أقولَ لك إنّني لستُ أمّك الحقيقيّة؟! مثلما سمعتَ يا صغيري المسكين، أمُّكَ لا نعرفُها. أهيَ حيّة أم ميّتة؟

لا أحد يدري. ذات صباحٍ في باريس، كان جيروم يعبرُ شارعاً عريضاً ومُشجَّراً يُدعى جادّة «بْروتويْ» وهو في طريقِه إلى العمل، فسمعَ بكاءَ طفل. بدا له أن الصّوت كان ينبعث من فُتحة بابٍ حديقة. كنّا في شباط وكان الوقتُ فجراً، ولمّا كان يتطلّع حوله ليُنادي مَن هناك، رأى رجلاً يخرج من خلف شجرة ضخمة ويلوذ بالفرار. ربّما كان الرّجل يختبئ هناك ليرى ما إذا كان أحدهم سيجد الطّفل الذي وضعَه هو بنفسه عند فتحة الباب. ألفى جيروم نفسه في موقفٍ حَرِجٍ، فالطّفل يبكي بملء قواه، كما لو أنّه أدركَ أنّ النّجدةَ وصلت إليه وأنّه ينبغي عدم تضييعها.

راح جيروم يفكّر في ما سيفعله، وفي تلك الأثناء لاقاه عمّالٌ آخرون واتّخذ القرار باصطحاب الطّفل إلى مفوّض الشّرطة. كان الصّغير يبكي دون انقطاع. ربّما كان يؤلمه البرد. لكنّ مكتب المفوّض كان دافئاً جدّاً ومع ذلك فهو لم يكفّ عن البكاء. ففكّروا أنّه جائع واستُدعيَتْ إحدى الجارات التي قبلَت بأن تُرضِعَه، فانكبّ على ثديِها يرضع منه بنهم شديد. كان الصّغير جائعاً فعلاً. بعد ذلك نزعوا عنه ملابسه أمام النّار، فرأوا طفلاً جميلاً له خمسة شهور أو ستّة، زهريّ اللّون بضّاً ينبض بالعافية. كانت الشّراشف والأقمطة التي تلفّه تُظهِر بشكلٍ لا لبسَ فيه أنّه ابن عائلة ثريّة. كان إذن طفلاً سُرِقَ من أهله ثمّ تخلّى السّارق عنه. كان هذا تفسير المفوّض على الأقلّ. ماذا سنفعل به؟ سجّل المفوّض إفادةَ جيروم ومواصفات الطّفل وأقمطته التي لم تكن تحمل علامة خاصّة، ثمّ قال إنّه سيرسله إلى ملجأ الأطفال اللّقطاء إذا لم يشأ أحدُ الحاضرين أن يتكفّل به. كان طفلاً جميلاً وقويّاً

وممتلئاً عافيةً لن تَصعبَ تربيته، وأهلُه الذين سيبحثون عنه بلا شكّ سيكافئون بسخاءٍ من سيكون اعتنى به. فاقترب جيروم وقال إنّه لا مانع لديه من أخذِه على عاتقه. فَسُلِّمَ له. كان لي طفلٌ في السنّ ذاتها، ومع ذلك لم يكن إطعام طفلَين اثنين بالنسبة إليّ مسألة سهلة. وهكذا صرتُ أمّك.

- آه، يا أمّي.

- بعد ثلاثة شهور فقدتُ طفلي وبدأ تعلّقي بك يزداد. نسيتُ أنّك لم تكن ابننا حقّاً. لكن جيروم لم ينسَ ذلك للأسف. وعندما رأى أنّ ثلاثة شهور قد مرّت ولم يأتِ أهلك للبحث عنك، أو على الأقلّ لم ينجحوا في العثور عليك، فكّر في إرسالكَ إلى الملجأ. لكنّني لم أنفّذ ما طلبَ، وقد سمعتَ منّي سبب ذلك.

- آه لا، لا أريد الذّهاب إلى الملجأ! رحتُ أصرخ متمسّكاً بها، أرجوكِ يا أمّي لا أريد الذّهاب إلى الملجأ!

- لا يا صغيري، لن تذهب إلى الملجأ. سأسوّي كلّ شيء. جيروم ليس رجلاً شرّيراً، سوف ترى. إنّهما الحزن والخوف من العوز يُفقِدانه صوابه. سوف نعمل، وسوف تعمل أنتَ أيضاً.

- أجل، سأفعل كلّ ما تشائين. لكن لا أريد الملجأ.

- لن تذهب إلى هناك، لكن بشرط واحد هو أن تنامَ الآن فوراً. ينبغي ألاّ يراكَ مستيقظاً عندما يعود.

بعدما قبّلتني، أدارت رأسي إلى جهة الحائط. كنتُ أريد النّوم لكنّني كنتُ أكثر اضطراباً وتأثّراً من أن أتمكّن من إيجاد النّوم والرّاحة كما أشاء.

وهكذا، فالسيّدة باربُران بكلّ طيبتها ورقّتها تجاهي لم تكن أمّي الحقيقيّة! لكن في هذه الحال، كيف تكون الأمّ الحقيقيّة؟ أتكون أفضل؟ أهي كثر رقّة؟ آه لا، هذا مستحيل.

لكنّ ما كنتُ أفهمُه بوضوح، وما كنتُ أشعرُ به هو أنّ والداً حقيقياً سيكون أقلّ قسوةً من باربُران، وما كان سينظر إليّ بتَينِكِ العينين الباردتيْن رافعاً في وجهي عَصاه.

هو كان يريد إرسالي إلى الملجأ، فهل ستنجحُ السيّدة باربُران في منعه؟ ثمّ ما هو الملجأ؟

كان في القرية ولدان كنّا نسمّيهما «ولَدَي الملجأ». في عنق كلّ منهما كانت تتدلّى صفيحة معدنيّة صغيرة تحمل رقماً. كانا وسِخيْن ويرتديان أسمالاً ويتعرّضان دوماً للهزء والضّرب. كان الأولاد الآخرون أشراراً في معاملتهما، وغالباً ما كانوا يتسلّون بملاحقتهما كما لو كانوا يلاحقون كلباً ضالاً لا أحد يُدافِع عنه.

آه، لم أكن أريدُ أن أكون مثل ذينك الولدين، ولا أن يُعلَّقَ في عنقي رقمٌ، ولا أن يلاحقني باقي الأولاد صارخين: «إلى الملجأ! إلى الملجأ!».

هذه الفكرة وحدها كانت كافية لِجعْلي أرتجف رعباً ولِجعْلِ أسناني تصطكّ.

لم أكن غفوتُ بَعدُ وكان باربُران على وشك العودة.

لكنّه لحسن الحظّ لم يرجع باكراً كما قال، ولقد غشاني النّعاس قبلَ رجوعه.

الفصل الثّالث

فرقة السّينيور فيتاليس[1]

لا بدّ أنّني نمتُ طوال اللّيلة تحت تأثير الحزن والخوف. لأنّني عندما استيقظتُ في صباح اليوم التّالي، فإنّ أوّل ما فعلتُه كان تلمّس سريري والتّطلّع حولي للتأكّد من أنّهم لم يقودوني إلى الملجأ.

طوال الصّباح لم يقلْ لي باربُران شيئاً، فبدأتُ أعتقد أنّه تخلّى عن فكرته بإرسالي إلى الملجأ. ربّما كلّمته السيّدة باربُران وجعلتْه يقرّر الإبقاء عليّ في منزله.

لكن عندما انتصف النّهار قال لي باربُران أن أعتمر قبّعتي وأتبعه.

التفتُّ صوب السيّدة باربُران مرتعباً ألتمسُ نجدتها. لكنّها أومأت لي موارَبةً بأنّ عليّ أن أطيع. في الوقت نفسه، بإشارةٍ من يدها طمأنتني بأنْ لم يكن هناك ما أخشاه.

فتبعتُ باربُران من دون اعتراض.

المسافة بين بيتنا والقرية كبيرة. يلزمُ للوصول إليها ساعة من المشي. مرّت السّاعة دون أن يتوجّه إليّ بكلمة. كان يمشي أمامي بهدوءٍ جارّاً رجليه جرّاً، في حين كان رأسه ثابتاً لا يتحرّك. ومن حينٍ لآخَر كان يستدير بكامل جسمه ليرى ما إذا كنتُ أتبعه.

---

(1) سينيور: تعني بالإيطاليّة «سيّد»، وهذا اللّقب يرافق في الرّواية اسم فيتاليس لأنّه هو نفسه من أصل إيطاليّ (المترجمة).

إلى أين كان يقودني؟

كان هذا السّؤال يُقلقني رغم إشارة السيّدة باربُران المُطَمْئنة. ففكّرتُ في الهرب، لكي أنفذَ من خطرٍ كنتُ أشعر بأنّه يُحْدق بي دون أن أعرف ماهيّته على وجه التّحديد.

لذا اجتهدتُ للبقاء في الوراء: عندما أصير بعيداً عنه بما فيه الكفاية سوف أقفز في المنخفَض ولن يكون له أن يلحقَ بي.

في البداية طلبَ منّي أن أقفو أثره، ثمّ خمّن على الأرجح نواياي فأمسك بي من معصمي.

لم يعد أمامي إلاّ أن أتبعه، وهذا ما فعلتُ.

على هذه الشّاكلة دخلْنا القرية، فكان النّاسُ في طريقِنا يستديرون لينظروا إلينا لأنّني كنتُ أبدو مثلَ كلبٍ مُشاكِس يُساق من سلسلته.

لدى مرورِنا أمام أحد المقاهي، إذا برجلٍ واقفٍ عند الباب ينادي باربُران ويدعوه للدّخول.

أمسكَ بي هذا الأخير من أذني ودفعني أمامه. وعندما صرنا في الدّاخل أغلقَ الباب.

تنفّستُ الصّعداء، فالمقهى لم يكن يبدو لي مكاناً خطيراً؛ أضِفْ أنّه المقهى، ذلك المكان الذي كنتُ أرغبُ في دخوله منذ زمنٍ طويل.

المقهى! مقهى نُزُل «السيّدة»! ماذا يوجد خلفَ هذا الباب؟

كم من مرّة طرحتُ على نفسي هذا السّؤال.

كنتُ رأيتُ من قبلُ أشخاصاً يخرجون من المقهى وجوهُهم متورّدة وأرجُلُهم ترتجف. عندما كنتُ أمرّ أمام بابه، غالباً ما كنتُ أسمع صِياحاً وأغانيَ ترتجّ لها النّوافذ.

ما الذي يفعلون يا ترى في الدّاخل؟ ماذا يجري خلف السّتائر الحُمر؟

كنتُ على وشك أن أعرف.

وفيما كان باربُران يتّخذ مكاناً إلى إحدى الطّاولات قربَ مدير المقهى الذي دعاه للدّخول، ذهبتُ أنا للجلوس قرب الموقد ورحتُ أتطلّع حولي.

في الزّاوية المقابلة لتلك التي كنتُ أشغلُها كان يجلس رجلٌ طاعنٌ في السنّ، طويل القامة وذو لحيةٍ بيضاء، يرتدي بذلةً غريبة لم أرَ مثلها يوماً.

على شعره الذي تنسدلُ خصلاته الطّويلة فوق كتفيه، كان يضع قبّعة عالية من اللّبد الرّماديّ تزيّنها رياشٌ خضراء وحمراء. وكانت مشدودةً إلى خصره صدريّة من فروة الخروف، صوفُها إلى الدّاخل. كانت بلا كمّين، ومِنَ الثّقبين المفتوحَين عند الكتفين تخرج ذراعان يغطّيهما قماشٌ مخمليّ كان على الأرجح أزرقَ اللّون ذات يوم. ويرتفع حتّى ركبتيه كساءان صوفيّان طويلان مشدودان بشرائط حمراء تتشابك عدّة مرّاتٍ حول ساقيه.

كان يجلس على كرسيّه بارتياحٍ، مُسنِداً ذقنه إلى يده اليمنى فيما يستقرّ مِرْفَقه على ركبته المَثنيّة.

لم أرَ قطّ كائناً حيّاً يتحلّى بمثل ذلك الهدوء. كان في جلسته أشبه ما يكون بمنحوتات القدّيسين الخشبيّة في كنيستنا.

كان إلى جانبه ثلاثة كلاب محشورة تحت كرسيّه تلتمس الدّفء بلا حراك: كلب أبيض صغير وكثيف الوبر، وكلبُ صيدٍ أسوَد، وكلبة

صغيرة رماديّة تبدو عليها أمارات الرّقّة والمكر. على رأس الكلب الأبيض طاقيّة شرطيٌّ قديمة يثبّتُها حزامٌ جلديّ مربوطٌ تحت ذقنه.

وفيما أنظرُ إلى الشّيخ بفُضولٍ تملأه الدّهشة، كان باربُران ومدير المقهى يتحادثان بصوتٍ خافتٍ، وكنتُ أفهمُ أنّ الأمر إنّما يتعلّق بي.

كان باربُران يُخبرُ مدير المقهى بأنّه جاء إلى القرية لاصطحابي إلى العُمدة كي يطلب هذا الأخير من مسيِّري الملجأ أن يدفعوا له راتباً مقابلَ احتفاظه بي.

هذا إذن ما نجحت السيّدة باربُران في نيله من زوجها! فَفَهِمتُ أنّه إذا ما وجدَ باربُران فائدةً من الاحتفاظ بي فلن يعود هناكَ ما أخشاه.

كان الشّيخ يستمع هو أيضاً إلى ما يُقال، دون أن يبدو عليه ذلك. فجأةً مدّ ذراعه اليُمنى صوبي وقال متوجّهاً إلى باربُران:

– أهذا هو الصّبي الذي يُزعجُكَ؟ سأله بلكنةٍ أجنبيّة.

– هو ذاته.

– وأنت تعتقد أنّ إدارة الملجأ في منطقتكَ سوف تدفع لكَ مقابل الشّهور التي ربّيته فيها؟

– طبعاً! لأنّه لا أهل له ولأنّني أرعاه يجب على أحدٍ أن يتحمّلَ التكاليف. يبدو لي هذا مُنصفاً.

– أنا لا أقول عكس ذلك، لكن أتعتقد أنّ كلّ ما هو منصف ممكن تحقيقه دوماً؟

– كلاّ، لا أعتقد بذلك.

– إذن أنا واثق من أنّك لن تحصل على النّفقة التي تطلبها.

– في هذه الحال سيذهبُ إلى الملجأ. ليس هناكَ أيّ قانونٍ يجبرني

على الاحتفاظ به تحت سقفي إذا كنتُ لا أريد ذلك.

- لقد رضيتَ في الماضي بأن تستقبلَه، ممّا يعني أنّك التزمتَ بالاحتفاظ به.

- لن أحتفظَ به! وعندما يكون عليّ طرده فسأتخلّص منه.

- ربّما كان هناك طريقةٌ لتتخلّص منه فوراً، قال الشيخ بعد برهةٍ من التّفكير وأضاف: بل يمكن حتّى أن تكسبَ شيئاً مقابلَ ذلك.

- دلّني على هذه الطّريقة وستكون ضيفي في هذا المقهى بكلّ سرور.

- أطلبِ الشّرابَ واعتبرْ أنّ مسألتك قد حُلّت.

- أنت متأكّد؟

- متأكّد.

غادرَ الشّيخ مقعده وجاء يجلسُ مقابلَ باربُران. فحصل في تلك اللّحظة أمرٌ غريب: ففيما يقومُ ارتفعَت صدريّته في حركة لم أجد لها تفسيراً، كما لو كان يحمل في ذراعه اليُسرى كلباً.

ما الذي سيقوله؟ ما الذي سيحصل؟



كنتُ قد تبعتُه بنظراتي الملأى انفعالاً وقسوةً.

- ما تُريدُه هو ألاّ يقاسمك هذا الولدُ خبزَك بعد اليوم، أليس كذلك؟ أو إذا ما استمرّ بذلك أن يتكفّل أحدٌ بدفع ثمن هذا الخبز، قال.

- تماماً، لأنّ...

- أوه، إنّ الدّافع لا يعنيني، ولا أحتاج لمعرفتِه. يكفيني أن أعرف أنّك ما عدتَ تريدُ بقاء الصّبيّ عندك. في هذه الحال، أعطِني إيّاه وأنا أتكفّل به.

- أعطيكَ إيّاه!؟

- أجل! ألستَ تريدُ التخلّص منه؟

- أعطيكَ ولداً بمثلِ هذه الوسامة؟! انظرْ إليه، إنّه صبيّ وسيم، ألستَ توافقني؟

- لقد رأيتُه.

- ريمي! تعال إلى هنا.

اقتربتُ من الطّاولة وأنا أترجف.

- هيّا، لا تخَفْ يا صغير، قال الشّيخ.

- انظرْ، أردفَ باربُران.

- لم أقلْ إنّه ولدٌ دميمٌ، لو كانَ كذلك لَمَا رغبتُ في أخذه، فأنا لا شأنَ لي بالمُسوخ.

- آه! لو كان مسخاً برأسين أو حتّى قزماً...

- لما فكّرتَ في إرساله إلى الملجأ. فأنت تعرف أنّ للمسخ قيمة ويمكن الإفادة منه، إمّا بتأجيره أو بتشغيله بنفسك. ولكنّ هذا الولد

ليس قزماً ولا مسخاً، إنّه كسائرِ النّاس ولا ينفع في شيء.

- إنّه مناسبٌ للعمل.

- إنّه ضعيفُ البنية.

- ضعيف؟! هيّا! إنّه قويٌّ كالكبار، وصلبٌ ومُعافى. هاكَ، انظرْ إلى ساقيه، أرأيتَ يوماً ساقين بمثل هذه الاستقامة؟ قال باربُران ورفعَ سروالي.

- نحيفتان جدّاً، قال الشيخ.

- وساعِداه؟ ألا ترى ساعِديه؟ أكمل باربُران.

- إنّ ساعدَيه مثلُ ساقيه، لا بأس بهما، لكنّهما لن يصمدا أمام التّعب والبؤس.

- كيف؟! لن يصمدا؟! تلمّسْ بنفسك، انظرْ وتلمّسْ.

مرّر الشيخ يده الهزيلة على ساقيّ وهو يجسّهما هازّاً رأسه وماطّاً شفتيه دليلاً على عدم الرّضا.

سبقَ أن عشتُ مشهداً مشابهاً عندما جاء التّاجر ليشتري بقرتنا. هو أيضاً تلمّسها وجَسَّها. هو أيضاً هزّ رأسه ومطّ شفتيه مدّعياً أنّها ليست بقرة جيّدة ولن يكون بوسعه إعادة بيعها، ومع ذلك اشتراها وأخذها.

هل سيشتريني الشّيخ ويأخذني؟ آهٍ، يا أمّي السيّدة باربُران، يا أمّي السيّدة باربُران!

للأسف لم تكن السيّدة باربُران حاضرةً لتُدافِعَ عنّي.

لو تجرّأتُ لقلتُ إنّ باربُران لامَني عشيّة ذلك اليوم تحديداً لكوني ضعيفَ البنية لا أملك ساعدين ولا ساقين. ولكنّني فهمتُ أنّ

اعتراضاً كهذا لن يجلبَ لي إلاّ التّوبيخ فسكتّ.

- إنّه طفلٌ مثل سواه، قال الشّيخ، هذه هي الحقيقة. ولكنّه ابن مدينة. لذا فمن المؤكّد أنّه لن يكون صالحاً أبداً للعمل في الأرض. ضعْه أمام محراث ليهمزَ الأبقار وسترى أنّه لن يحتمل.

- بل سيبقى عشر سنوات.

- ولا حتّى شهراً واحداً.

- ولكن انظرْ إليه.

- انظرْ إليه أنت.

كنتُ واقفاً عند طرف الطّاولة بين باربُران والشّيخ، يدفعُني أحدهما ويصدّني الآخر.

- باختصارٍ، آخذُه كما هو. لكن بالتأكيد لن أشتريه منك. سأستأجره مقابل عشرين فرنكاً في السّنة، قال الشيخ.

- عشرون فرنكاً؟!

- إنّه سعرٌ جيّد، ثمّ إنّني سأدفعُ مُقدّماً. أعطيكَ أربع قطعٍ جميلة من فئة المائة فلس، وهكذا تتخلّص من الصّبيّ.

- ولكن إن احتفظتُ به، فسيدفع لي الملجأ أكثر من عشرة فرنكات شهريّاً.

- قلْ سبعة أو ثمانية في أفضل الأحوال، فأنا أعرف الأسعار. كما أنّه سيكون عليك إطعامه.

- سوف يعمل.

- لو كنتَ تعتقد أنّه قادرٌ على العمل لما رغبتَ بطرده. فأطفال الملجأ لا يؤخَذون من أجل المال بل من أجل العمل، ليصيروا خدَماً

يُدفَع عنهم ولا يُدفَع لهم. أمرٌ أخير: لو كان هذا الصّبيّ في حالةٍ تسمح له بخدمتك لاحتفظتَ به.

- في كلّ الأحوال، ستكون لي الفرنكات العشرة.

- ماذا لو أعطاه الملجأ لسواك بدل تركِه لك؟ عندئذٍ لن تحصل على شيء. أمّا معي فلا مجازفة، وكلّ ما سيكون عليك فعله هو أن تمدّ يدك وتأخذ المال.

ثمّ فتّش في جيبه وأخرجَ منه حافظةَ نقودٍ جلديّة أخرجَ منها أربع قطع نقديّة وألقاها على الطّاولة فأحدثَتْ رنيناً.

- هيّا فكّرْ، لا بدّ أنّ والدَي الصّبيّ سيظهران يوماً! صاح باربُران.

- ما يهمّ؟

- سيكون في الأمر مكسبٌ لمن قام بتربيته. لو لم أعوّل على هذا الأمر، لما تكفّلتُ به أبداً.

جعلتْني كلمات باربُران الأخيرة هذه أكرهه أكثر. يا له من رجلٍ شرّير!

- لكنّك تريد التخلّص منه تحديداً لأنّك ما عدتَ تعوّل على إمكان ظهور والدَيْه. في النّهاية، فكّرْ، بمن سيتّصل أهله لو ظهروا يوماً؟ بك، أليس كذلك؟ بكَ لا بي أنا، فهم لا يعرفونني.

- وماذا لو قمتَ أنتَ بالبحث عن والدَيه ووجدتَهما؟

- حسناً، فلنتّفق على هذه المسألة: إنْ ظهر والداه ذات يومٍ، فسنتقاسمُ الأرباح. هاكَ ثلاثين فرنكاً!

- اجعلها أربعين.

- لا، هذا غير ممكنٍ إذا ما نحن أخذنا بعين الاعتبار الخدمات

التي سيؤدّيها ليَ الصبيّ.

- وما نوع الخدمات التي تتحدّث عنها؟ أنا مصرٌّ على أنّ ساقيه قويّتان وساعديه صُلبان، لكن فيمَ تراه أنت نافعاً لك؟

نظر الشيخ إلى باربُران نظرةً ساخرة، ثمّ قال وهو يُنهي مشروبه بجرعات صغيرة:

- سوف يُلازمُني. لقد صرتُ شيخاً وأحياناً تنتابُني أفكارٌ حزينة في المساء، بعدَ نهارٍ مُرهِقٍ، عندما يسوء الطّقس. وهو سيسلّيني.

- الأكيد أنّ ساقيه قويّتان بما يكفي من أجل عملٍ كهذا.

- لكن ليس كثيراً، إذ سيكون عليه أن يرقص ويقفز ويمشي، ثمّ بعد المشي أن يعاود القفز. باختصارٍ، سوف يكون جزءاً من فرقة السّينيور فيتاليس.

- وأين هي هذه الفرقة؟

- أنا هو السّينيور فيتاليس كما لا بدّ أنّك خمّنت. أمّا الفرقة فسأقدّمها لك بما أنّك تريد التعرّف إليها.

ثمّ فتحَ فروة الخروف التي كان يرتديها وتناول بيده حيواناً غريباً كان يحمله تحت ذراعه اليسرى مضموماً إلى صدره.

كان ذلك الحيوان هو الذي جعلَ فروة الخروف التي يرتديها الشّيخ ترتفع غيرَ مرّة. ولكنّه، خلافاً لما تصوّرتُ، لم يكن كلباً.

ما يكون ذلك الحيوان؟

وهل هو حيوانٌ أصلاً؟

لم أجدْ اسماً لذلك المخلوق العجيب الذي كنتُ أراه للمرّة الأولى وأنظرُ إليه بذهول.

كان مرتدياً صدريّة حمراء يعلوها شريطٌ مذهّب. إلاّ أنّ ذراعيه وساقيه كانت مكشوفة. كانت تلك فعلاً ذراعين وساقين لا قوائم، لكنْ بدلَ البشرة البيضاء أو اللّحميّة كانت تغطّيها بشرةٌ سوداء.

أسودَ كان أيضاً رأسُه الذي هو بِحَجمِ قبضةِ يدي. أمّا وجهه فكان عريضاً وقصيراً، وأنفه أخنسَ[1] ومنخراه متباعدين وشفتاه صفراوين. ولكنّ أكثر ما أثار انتباهي هو عيناه الشّديدتا التقارب والفائقتا الحركة واللاّمعتان مثل المرايا.

- آه! يا لهذا القرد الملعون! صاح باربُران.

هذه الكلمة أخرجتني من ذهولي. فمع أنّني لم أكن رأيتُ القِرَدة قبلَذاكَ، إلاّ أنّني سمعتُ عنها. لم يكن ذلك المخلوق إذن ولداً أسودَ البشرة بل قرداً.

- إليكم أوّل عضوٍ في فرقتي، اسمه «جولي-كور»[2]. يا صديقي جولي-كور ألقِ التحيّة على الجَمْع، قال فيتاليس.

وضع جولي-كور يده المُغلقة على شفتيه وأرسلَ لنا جميعاً قُبلة.

ثمّ أكمل فيتاليس وهو يشير بيده إلى الكلب الأبيض:

- الآن سيتشرّفُ السّينيور كابي بتقديم أصدقائه إلى الحضور الكريم.

وإذا بالكلب الذي لم يكن حتّى تلك اللّحظة قام بأدنى حركةٍ يستجيب للأمر فوراً وينهض بسرعة، واقفاً على قائمتيه الخلفيّتين، وكاتفاً الأماميّتين إلى صدره، ليحيّي معلّمه بانحناءة جعلت قبّعة

---

(1) أي قصير ومرتفع الطّرَف (المترجمة).

(2) معنى الاسم هو «طيّب القلب» (المترجمة).

الشرطة التي يعتمرها تلامسُ الأرض.

بعدما أتمّ واجب التّهذيب هذا، استدار صوب رفيقَيه، ومُبقِياً إحدى قائمتيه الأماميّتين إلى صدره، أشار لهما بالأخرى أن يقتربا.

وعلى الفور نهض الكلبان اللّذان كانت نظراتهما لا تفارق رفيقَهما. أمسك كلّ منهما بقائمة صديقه الأماميّة كما يمسك الناس بعضهم بأيدي بعض، وقاما بستّ خطوات إلى الأمام، ثمّ أتبعاها بثلاثٍ إلى الخلف وحيّيا الحضور.

ثمّ أضافَ فيتاليس:

- إنّ مَن أدعوه كابي، أي «كابيتانو» (القبطان) بالإيطاليّة، هو رئيس الكلاب. فلكونه الأذكى بينهم، هو من ينقل لهم أوامري. أمّا هذا الشابّ الأنيق الأسوَد فيُدعى السّينيور دْزَرْبِينو، ومعنى اسمه «المُهذّب»، وهو اسمٌ على مسمّى. أمّا هذه الشّابة التي يبدو عليها التّواضع فإنّها السّينيورة دولتشي، إنّها إنجليزيّة فاتنة، معنى اسمها «الرّقيقة»، وهو اسمٌ تستحقّه تمامَ الاستحقاق. إنّهم أفراد فرقتي المتميّزون في أكثر من ميدان. معهم أجول العالم كاسباً رزقي على نحو مقبول، على هوى صُدَف الحظّ المتفاوتة. كابي!

صالبَ الكلب الصّغير قائمتيه الأماميّتين.

- كابي، تعالَ إلى هنا يا صديقي وتلطّفْ من فضلك - إنّهم أشخاصٌ حسنو التّربية، أخاطبهم دوماً بتهذيب - تلطّف وقلْ لهذا الشّاب الصّغير الذي ينظر إليك بعينين مندهشتين كم هي الآنَ السّاعة.

أنزلَ كابي قائمتيه واقترب من معلّمه. أزاح فروة الخروف وفتّش في جيب الصّدريّة ثمّ أخرج منها ساعة فضيّة ضخمة. تطلّع إلى

ميناثها ثمّ نبح مرّتين. كان ذلك نباحاً قويّاً وواضحاً، نبح بعده ثلاث مرّات أخرى لكن بصوتٍ خفيض.

كانت السّاعة الثّالثة إلاّ ربعاً.

قال فيتاليس:

- هذا جيّد، شكراً يا سينيور كابي. والآن أرجو منك أن تدعو السّينيورة دولتشي لترقص لنا قليلاً على الحبل.

ففتّش كابي في جيب سترة معلّمه وأخرج منها حبلاً. ثمّ أشار إلى دزربينو، فجاء هذا الأخير فوراً ووقف قبالتَه. فرمى له كابي طرف الحبل وبدأ الاثنان يدوّرانه بكلّ تركيز.

عندما انتظمت الحركة، وثبَتْ دولتشي إلى الدّائرة وبدأت تقفز بخفّة فيها نظراتها العذبة لا تحيد عن عينَي معلّمها.

قال فيتاليس:

- أنتم ترون كم أنّ تلامذتي أذكياء. لكنّ الذّكاء لا يُقدَّر إلاّ بالمقارنة. لهذا السّبب أُدخِل هذا الصّبيّ في فرقتي. سيلعب دور الغبيّ، وبهذه الطّريقة يُقدَّر ذكاءُ تلامذتي أكثر.

فقاطعَه باربُران:

- أوه! حتّى يبدو غبيّاً...

- ... ينبغي أن يكون ذكيّاً، أكمل فيتاليس العبارة وأضاف: وأنا أعتقد أنّ هذا الصّبيّ لن ينقصه الذّكاء بعد بضعة دروسٍ يتلقّاها. بالنسبة للباقي، سوف نرى. هاكم برهاناً فوريّاً: إذا كان هذا الصّبيّ ذكيّاً، فسيفهم أنّه، برفقة السّينيور فيتاليس، سيتمكّن من التّجوال والسّفر عبر فرنسا وعشرات البلدان الأخرى. ستكون له حياة حرّة،

بدل البقاء خلف الأبقار يجتاز كلّ يومٍ الحقلَ ذاته من الصّباح إلى المساء. أمّا إذا لم يكن ذكيّاً فسيبكي ويصرخ، وبما أنّ السّينيور فيتاليس لا يحبّ الأطفال السّيّئي الطّباع فلن يصطحبه. وآنئذٍ سيذهب الولد السيّئ الطّباع إلى الملجأ حيث العمل شاقٌّ والطّعام قليل.

كنتُ ذكيّاً بما يكفي لأفهم هذه الكلمات، لكنّ بين الفهم والتنفيذ مسافة شاسعة.

كان واضحاً أنّ تلامذة السّينيور فيتاليس ظرفاء ومُسلّون. كما أنّ التّنزّه كلّ يوم سيكون أمراً ممتعاً جدّاً. لكن من أجل مرافقتهم والتنزّه معهم سيكون عليّ الانفصال عن السيّدة باربُران.

صحيحٌ أنّني إنْ رفضتُ فقد لا أبقى معها، إذ سيُرسلونني إلى الملجأ.

ظللتُ مرتبكاً والدّموع تنهمر من عينيّ، فما كان من فيتاليس إلاّ أن ربّت بإصبعه بخفّة على خدّي ثمّ قال:

– هيّا، يبدو أنّ الصّغير فهمَ لأنّه لا يبكي. سيَعقل، وغداً...

– أوه سيّدي، اتركْني مع أمّي باربران، أتوسّل إليك! قلتُ له صارخاً.

لكن قبل أن أتمكّن من قول المزيد قاطَعني نباح كابي الرّهيب.

في الوقت نفسه وثبَ الكلب صوب الطّاولة التي كان جولي-كور قد بقي جالساً عليها.

كان هذا الأخير قد اغتنم فرصة انشغال الجميع بي ليأخذ بهدوءٍ كأسَ معلّمه المملوءة شراباً ويشرع بإفراغها. إلاّ أنّ كابي، الحارس اليقظ، انتبه إلى فعلة القرد المحتال، وكخادمٍ أمينٍ همَّ بِمنعه.

فقال فيتاليس بصوتٍ قاسٍ:

- يا سيّد جولي-كور، يا لكَ من جشعٍ ومحتال! اذهبْ إلى الزّاوية وأدِرْ وجهَك إلى الحائط. وأنت يا دزربينو قمْ بحراسته، وإذا ما تحرّك فلتصفعْه صفعةً قويّة. أمّا أنت يا سيّد كابي، فإنّك كلبٌ شاطر، دعني أصافحك.

وفيما ينفّذ القرْدُ الأمرَ مُصدراً صرخاتٍ صغيرةً مكتومةً، كان الكلبُ يمدّ قائمته الأماميّة إلى سيّده سعيداً وفخوراً.

ثمّ أكمل فيتاليس:

- والآن فلنعد إلى موضوعنا. أعطيكَ إذن ثلاثين فرنكاً.

- لا، أربعين.

بدأ حينها نقاشٌ سرعان ما قطعه فيتاليس:

- لا بدّ أنّ هذا الصّغير يضجر هنا. فليذهبْ ليتمشّى في باحة النُّزُل ويتسلّى، قال هذا وهو يغمز ناحيةَ باربُران.

- أجل، هو كذلك، قال هذا الأخير، اذهب إلى الباحة، والويل لك إن تحرّكتَ من هناك قبل أن أناديك.

لم يكن أمامي إلاّ الامتثال لأمره، ففعلت.

فذهبتُ إلى الباحة، لكنّني لم أكن بمزاجٍ يسمح باللّهو. فجلستُ على حجرٍ ورحتُ أفكّر.

كان مصيري يتقرّر في تلك اللّحظة بالذّات. ماذا سيحصل لي؟ كنتُ أرتجف من القلق والبرد.

طال النّقاش بين فيتاليس وباربُران، ومرّت أكثر من ساعة قبل أن يخرج هذا الأخير إلى الباحة.

أخيراً رأيتُه يظهر. كان وحيداً. هل أتى ليأخذني ويسلّمني إلى

فيتاليس؟

- هيّا، إلى البيت، قال لي.

البيت! أكان ذلك يعني أنّني لن أنفصل عن السيّدة باربُران؟

كنتُ أريد أن أطرح عليه السّؤال لكنّني لم أجرؤ إذ بدا لي معتكر المزاج جدّاً.

ظللنا صامتَين طوال الطّريق.

لكن قبل وصولنا بنحو عشر دقائق، توقّف باربُران الذي كان يمشي في المقدّمة، وقال لي وهو يشدّ أذني بقسوة:

- حذارِ أن تقول كلمة واحدة ممّا سمعتَه اليوم، وإلاّ فستدفعُ الثّمن غالياً!



الفصل الرّابع

منزل الأمّ

ما إن دخلنا حتّى سألتنا السيّدة باربُران:

- إذن، ماذا قال العُمدة؟

- لم نرَه.

- كيف؟! لم ترَياه؟!

- كلاّ، لقد التقيتُ بأصدقاء لي في مقهى «السيّدة»، وعندما خرجنا كان الوقت متأخراً. سنرجعُ غداً.

وعليه، فلا بدّ أن يكون باربُران تراجعَ عن الصّفقة مع الرّجل صاحب الكلاب.

عندما كنّا في الطّريق رحتُ أتساءل عمّا إذا كان في العودة إلى المنزل حيلة ما. إلاّ أنّ كلمات باربران الأخيرة طردت الشّكوك التي كانت تتزاحم بارتباكٍ في فكري المضطرب. فبما أنّنا كان علينا العودة في اليوم التّالي إلى القرية لرؤية العمدة، فلا بدّ أنّ باربُران لم يقبل عرضَ فيتاليس.

مع ذلك، ورغم التّهديد، كنتُ مستعدّاً لإخبار السيّدة باربُران بشكوكي إذا ما تمكّنتُ من الانفراد بها ولو لحظة. إلاّ أنّ باربُران لم يغادر المنزل طوال الأمسية، ونمتُ قبل أن أجد الفرصة التي كنت أنتظرها.

نمتُ قائلاً في نفسي إنّي سأفعل ذلك في الغد.

لكن عندما استيقظتُ في اليوم التّالي لم أجد السيّدة باربُران.

– ماما؟

– إنّها في القرية، ولن تعود قبل العصر.

أقلقني غيابها دون أن أعرف السّبب. فهي لم تقل لي في اليوم السّابق إنّها تنوي الذّهاب إلى القرية. ثمّ لماذا لم تنتظر لترافقنا ما دمنا سنذهب بعد الظّهر؟ هل كانت ستعود قبل ذهابنا؟

خوفٌ غامضٌ جعل قلبي ينقبض. كنت أستشعر الخطر المُحدق بي، وإنْ لم أكن أدرك ما طبيعته.

كان باربُران ينظر إليّ بطريقةٍ غريبة راحت تزيدني قلقاً.

فلجأتُ إلى الحديقة هرباً من نظراته.

تلك الحديقة التي لم تكن واسعة، كانت تكتسي بالنّسبة إلينا بأهميّة بالغة، فهي كانت مصدر غذائنا. باستثناء القمح، كانت تمنحنا أغلبَ ما نأكله: البطاطس والفول والملفوف والجزر واللِّفْت. وعليه، فلم يكن فيها أيّ شبرٍ ضائع. مع ذلك، كانت السيّدة باربُران قد منحتني ركناً صغيراً زرعتُ فيه عدداً هائلاً من النّباتات والأعشاب والطّحالب التي كنتُ أقتلعها في الصّباح عند أطراف الغابة أو على امتداد سياج النّباتات الشّائكة فيما أرعى بقرتنا، ثمّ أعود لأزرعها عصراً في حديقتي كيفما اتّفق، بلا هدف، الواحدة بجانب الأخرى.

بالتأكيد لم تكن تلك حديقة جميلة تتوزّع فيها ممرّاتٌ رمليّةٌ وصفوفُ نباتٍ مقسّمة بشكل دقيق ومنتظم، ومزروعة أزهاراً نادرة. المارّون أمامها ما كانوا يتوقّفون لينظروا إليها من فوق سياج الأشواك

المجزوز بالمقصّ. لكنّها على علاّتها كانت لي، وبهذه الصّفة كانت تَسحرني. كانت مُلكي، صنيعتي. كنتُ أرتّبها كما أشاء على هوى اللّحظات، وعندما أتحدّث عنها - وكان ذلك يحصل نحو عشرين مرّة في النّهار الواحد - كنتُ أسمّيها «حديقتي».

كنتُ في الصّيف السّابق قطفتُ مجموعة من النّباتات وأعدتُ زرعها في حديقتي. ما يعني أنّ الأنواع الأكثر إبكاراً كانت ستنبت في الرّبيع ولن تنتظر نهاية الشّتاء، وستلحق بها الأخريات تباعاً.

لذا كان فضولي في ذلك الوقت في أوجه.

فقد كانت أزهار النّرجس قد بدأت تُظهِر براعمَها الصفراء. أمّا اللّيلك فكان يمدّ سيقانه المنقّطة بالبنفسجيّ، ومن قلب أوراق أزهار البلّيس المتجعّدة كانت تبرز براعم تبدو على أهبة التّفتّح.

كيف ستُزهر كلّ تلك النّباتات؟ هذا هو ما كنت آتي لرؤيته كلّ يوم بفضول.

ولكنّ هناك جزءاً آخر من حديقتي كنت أراقبه بشعورٍ أقوى من الفضول، أي بنوعٍ من القلق.

في ذلك الجزء كنتُ زرعتُ صِنفاً من الخضار أعطانيه أحدهم وكان شبه مجهول في قريتنا، ألا وهو القلقاس الرّوميّ. قيل لي إنّه يُعطي عساقيل أفضل بكثير من البطاطس، إذ أنّ لها طعم الأرضي-شوكي واللّفت وأنواع أخرى عديدة من الخضار. كانت هذه الوعود الجميلة قد أوحت لي بفكرة تهيئة مفاجأة لأمّي السيّدة باربُران. فتخيّلتُني أزرع القلقاس في حديقتي دون أن أسرّ لها بشيء

عن الهديّة. وعندما نبتت أعناقه تركتها تعتقد أنّها زهور. وذاتَ يومٍ جميلٍ، عندما آنَ أوان ينوع القلقاس، استغللتُ غياب السيّدة بارْبُران لأقلعه وأطبخه بنفسي. كيف؟ لم أكن أعرف، إلاّ أنّ خيالي لم يكن يقلقه تفصيل صغير كهذا. عندما تكون أمّي عادت للعشاء سأقدّم لها الطّبق الذي كنتُ قد حضّرته.

من الذي سيتفاجأ عندئذٍ؟ الأمّ بارْبُران.

من الذي سيكون سعيداً؟ الأمّ بارْبُران أيضاً.

ذلك أنّه سيكون لدينا أكلةٌ تحلّ محلّ البطاطس التي لم نكن نأكلُ سواها، ولن تتألّم الأمّ بارْبُران كثيراً بعد ذلك لبيع المسكينة «صُهَيبة».

كان مخترع تلك الأكلة الجديدة هو أنا، أنا ريمي؛ كنتُ إذن نافعاً للعائلة.



مع مشروعٍ كهذا في رأسي، يمكن فهم مدى انتباهي الشّديد لنموّ القلقاس. فقدْ كنتُ آتي كلّ يوم لتفحّص البقعة التي زرعتُه فيها،

وكنتُ من نفاد الصّبر بحيث بدا لي أنّه لن ينمو أبداً.

كنتُ راكعاً على الأرض، مستنداً إلى يديّ ورأسي، غارقاً في نبات القلقاس الرّوميّ، عندما سمعتُ صوتاً يناديني بإلحاح. كان ذلك باربُران.

ما الذي يريده منّي يا ترى؟

سارعتُ بالدّخول إلى المنزل.

وهناك كانت المفاجأة! رأيتُ أمام الموقد فيتاليس وكلابه!

أدركتُ على الفور ما كان يريده منّي باربُران.

لقد جاء فيتاليس لاصطحابي، وحتّى لا تتمكّن السيّدة باربُران من الدّفاع عنّي كان باربُران أرسلها صباحاً إلى القرية.

عرفتُ تماماً أنّني لن أجدَ لدى باربُران عوناً ولا رأفة، ولذا ركضتُ صوب فيتاليس صارخاً به:

- أوه سيّدي! أرجوك ألاّ تأخذني!

وانفجرتُ بالبكاء. فقال لي بهدوء:

- هيّا يا صغيري، لن تكون تعيساً برفقتي، فأنا لا أضرب الأطفال البتّة، ثمّ إنّك ستحظى برفقة تلامذتي، وهم مسلّون جدّاً. ما الذي تتأسّف عليه؟

- أمّي السيّدة باربُران! أمّي السيّدة باربُران!

فقال لي باربُران وهو يشدّ أذني بقسوة:

- أنتَ لن تبقى هنا على أيّة حال! إمّا أن تذهب مع هذا السيّد أو نعهد بك إلى الملجأ. إخترْ!

- كلاّ! أريد أمّي السيّدة باربُران!

فصاح غاضباً:

– آه، أنتَ تتعبُني! لو توجّبَ عليّ طردكَ من هنا بالعصا فسأفعل ذلك.

– الولدُ يتحسّرُ على أمّه السيّدة باربُران، قال فيتاليس. وهذا لا يستحقّ الضّرب، بل يعني أنّه وفيّ، وفي هذا دلالة جيّدة.

– لو أشفقتَ عليه فسيصرخُ أكثر.

– فلنعُدِ الآن إلى اتّفاقنا، قال فيتاليس، ثمّ بسط على الطّاولة ثماني قطع من فئة الخمسة فرنكات اختفت بلحظة في جيب باربُران.

– أين الصرّة؟ سأل فيتاليس.

– ها هي، أجاب باربُران وهو يشير إلى منديلٍ قطنيّ أزرق معقود من أطرافه الأربعة.

حلّ فيتاليس الصرّة ونظر إلى محتواها: كان هناك قميصان من قمصاني وسروال من الكتّان، فقال:

– لم يكن هذا ما اتّفقنا عليه. اتّفقنا على أن تعطيني أغراضه ولا أجد هنا غير أسمال.

– هذا كلّ ما لديه.

– أنا واثقٌ أنّني إذا ما سألتُ الصبيّ فسيقول لي إنّ هذا ليس صحيحاً. لكنّني لا أريد أن نتجادلَ في هذه المسألة. لا وقتَ لديّ. يجب الانطلاق. هيّا يا صغيري. ما اسمه؟

– ريمي.

– هيّا يا ريمي، تناول صرّتك وامشِ أمام كابي. إلى الأمام، تقدَّمْ!

مددتُ يديّ صوبه ثمّ صوبَ باربُران، لكنّ كليهما أشاح بوجهه،

ثمّ أحسستُ بفيتاليس يمسك بي من معصمي.

كان يجب أن نمشي.

آه، بدا لي وأنا أخطو خارج عتبة ذلك البيت المسكين آنّني كنت أترك فيه جزءاً منّي.

رحتُ أتلفّتُ حولي بإلحاح، إلاّ أنّ عينيّ اللّتين غشيَهما الدّمع لم تجدا أحداً تستنجدان به: لا أحد على الطّريق، ولا أحد في الحقول المجاورة.

فبدأتُ أنادي:

- ماما! أمّي السيّدة باربُران!

إلاّ أنّ أحداً لم يستجب لندائي الذي راح يخمد وسطَ النّحيب.

كان عليّ أن أتبع فيتاليس الذي لم يترك معصمي.

- رحلة سعيدة! هتف باربُران ثمّ دخل المنزل.

للأسف، انتهى كلّ شيء!

- هيّا يا ريمي، فلنمشِ يا بنيّ، قال فيتاليس واجتذبني من ساعدي. فرُحتُ أسيرُ إلى جانبه. لحسن الحظّ لم يكن يحثّ الخطى، لا بل أظنّ أنّه كان يمشي على إيقاعي.

كانت الطّريق التي اتّخذناها ترتفع في منعرجات على طول الجبل، وعند كلّ منعطف كنتُ ألمحُ منزل السيّدة باربُران يتضاءل أكثر فأكثر. غالباً ما اجتزتُ تلك الطّريق، وكنتُ أعرف أنّني، عند بلوغ المنعطف الأخير، سأرى المنزل مرّة أخرى، ثمّ ما إن نخطو بضع خطوات داخل الهضبة حتّى ينتهي الأمر. ولا شيء بعد ذلك. لن يكون أمامي إلاّ المجهول. أمّا ورائي، فالمنزل الذي عشتُ فيه سعيداً حتّى تلك

اللّحظة والذي قد لا أراه أبداً بعد ذلك اليوم.

كان الصّعود طويلاً لحسن الحظّ، إلاّ أنّنا ظللنا نمشي حتّى وصلنا إلى القمّة.

وطوال الوقت لم يُفلِت فيتاليس معصمي.

- أتسمحُ لي بأخذِ قسطٍ من الرّاحة؟ سألتُه.

- بكلّ سرور يا بنيّ.

وللمرّة الأولى، أفلتَ يدي.

لكن في الوقت نفسه، رأيتُ نظراته تتوجّه إلى كابي وتومئ له بإشارة فَهِمَها هذا الأخير. سريعاً، ومثلَ حارسٍ قطيعٍ، ترك كابي موقعه في مقدّمة الفرقة وجاء يقف خلفي.

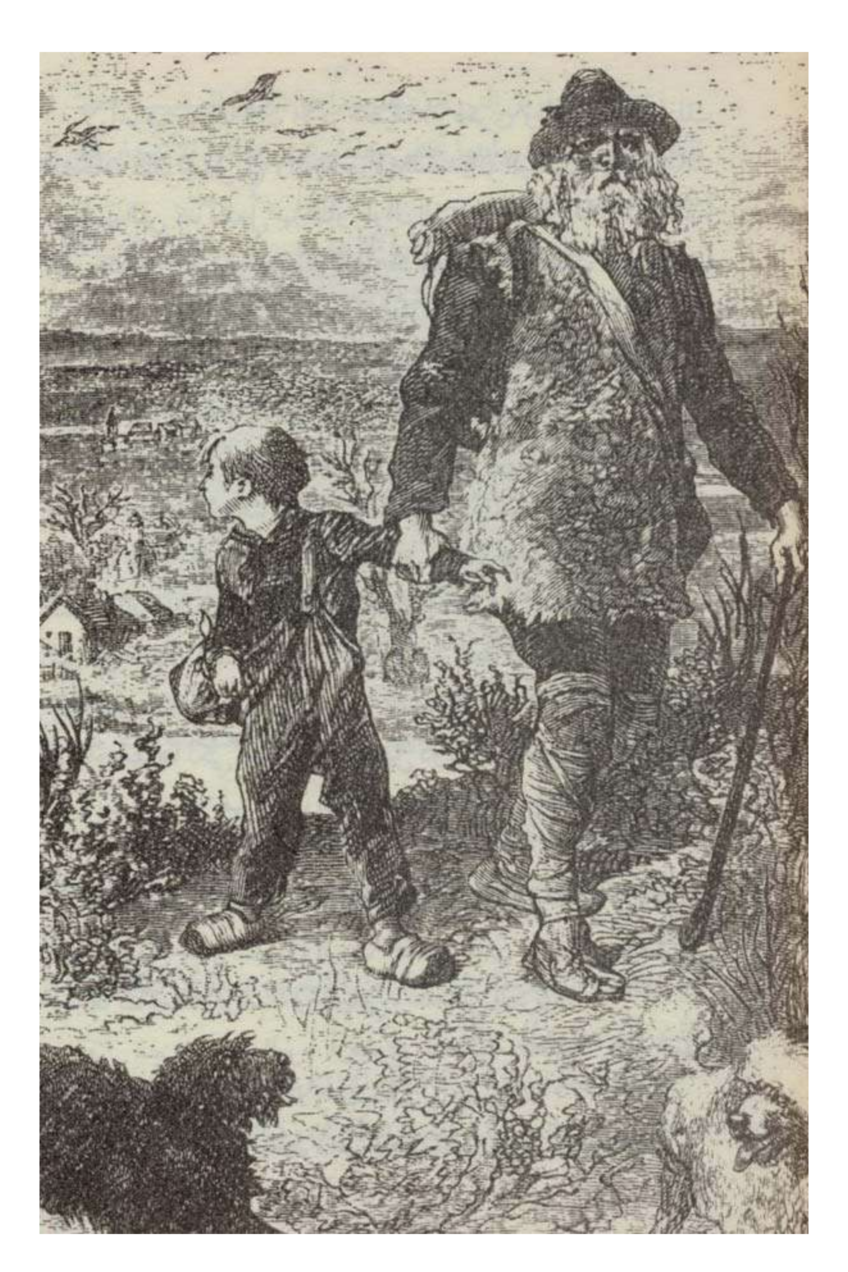
هذه المناورة جعلتني أفهم ما سبق للإيماءة أن بيّنتْه لي: كان كابي حارسي، وإذا ما قمتُ بأي حركة للهروب فعليه أن يمنعني.

ذهبتُ للجلوس عند الحاجز الحجريّ المكسوّ بالأعشاب، فتبعني كابي عن قرب.

وفيما كنت جالساً على الحاجز راحت عيناي المغرورقتان بالدّمع تبحثان عن منزل السيّدة باربُران.

كان الوادي الذي صعدناه للتوّ يمتدّ تحتنا تخترقه المروج والغابات. وفي الأسفل، عند عمق الوادي، يرتفع منزل أمّي في عزلته، المنزل الذي نشأتُ فيه.

كان من السّهل العثور عليه بين الأشجار، خصوصاً وأنّه في تلك اللّحظة بالذّات كان يخرج من داخونه عامود رفيع من الدّخان أصفر اللّون يرتفع صوبَنا باستقامةٍ في الهواء السّاكن.



لا أعرف ما إذا كان الأمر حقيقة أم ذكرى واهمة، إلاّ أنّ ذلك الدّخان كان يحمل لي رائحة ورق السّنديان اليابس على حزمات الحطب التي كنّا نُشعلُ بها النّار طوال الشتاء. تخيّلتُني ما أزال جالساً على مقعدي الصّغير عند زاوية الموقد وقدماي تلامسان الرّماد، بينما الريحُ تخترق الموقد وتنفث في وجوهنا الدّخان.

رغمَ بُعد المكان الذي كنّا فيه وارتفاعه، كانت الأشياء في الأسفل تبدو جليّةً وواضحةَ المعالم، على كونها أكثر صغراً وضآلة.

على أكوامِ السّمادِ، كانت دجاجتنا، وهي الدّجاجة الوحيدة الباقية، تتنقّل هنا وهناك، إلاّ أنّها لم تعد بحجمها المعتاد. ولو لم أكن أعرفها جيّداً لِخلتُ أنّها حمامة صغيرة. وعند طرف المنزل كنتُ أرى شجرة الإجاصّ بجذعها المعوجّ الذي لطالما كنتُ أستخدمه حصاناً. ثمّ، إلى جانب السّاقية التي كانت ترسم خطّاً أبيض خلالَ العشب الأخضر، كنتُ أخمّن مكان قناة التّحويل التي كابدتُ الكثير من العناء لحفرها لكي تعمل على تشغيل دولابِ طاحونٍ صنعته بيديّ. دولاب لم يتمكّن من الدّوران للأسف رغم كلّ الجهد الذي كلّفَنيه.

كان كلّ شيء هناك في مكانه المعتاد. عربة اليد الخاصّة بي ومحراثي المصنوع من جذع شجرة والبيت الصّغير الذي كنتُ أربّي فيه أرانبي عندما كنّا نملك أرانب، وحديقتي، حديقتي العزيزة.

مَن سيرى بعد اليوم أزهاري المسكينة تتفتّح؟ من سيهتمّ بالقلقاس؟ باربُران على الأرجح، الشّرير باربُران.

كان يكفي القيام بخطوة إضافيّة ليختفي كلّ ذلك إلى الأبد.

فجأةً، في الطّريق التي تقود صعوداً من القرية إلى البيت، لمحتُ في البعيد قبّعةً بيضاء. رأيتها تختفي خلف مجموعة من الأشجار قبل أن تعاود الظّهور بعد حين.

من تلك المسافة لم أكن قادراً إلاّ على تمييز لون القبّعة، التي كانت تتطاير بين الأغصان مثل فراشة ربيعيّة باهتة الألوان.

لكنّ القلب يبصر أحياناً أفضل وأبعد من العينين مهما كانتا ثاقبتين: عرفتُ أنّها أمّي السيّدة باربُران. كانت هي. كنتُ واثقاً من ذلك. كنتُ أشعر بأنّها هي.

– إذن؟ أننطلق؟ سألني فيتاليس.

– أوه سيّدي، أرجوك...

– ليس صحيحاً إذن ما قيلَ لي، يبدو أنّ ساقيك ضعيفتان. لقد تعبتَ بسرعة، وهذا لا يبشّر بأيّام جيّدة.

لم أُجبْهُ، وتابعتُ النّظر.

كانت تلك هي السيّدة باربُران. تلك قبّعتها، وتلك تنّورتها الزّرقاء. إنّها هي.

كانت تحثّ الخطى، كما لو كانت تستعجل الوصول إلى البيت.

عندما بلغتْ سياج المنزل، أزاحته ودخلت الباحة وعبرتْها بخطىً حثيثة.

فوقفتُ أنا بسرعة على الحاجز الحجريّ دون أن أفكّر في كابي الذي قفز بدوره إلى جانبي.

لم يطل بقاء السيّدة باربُران في المنزل. سريعاً ما خرجتْ وراحت تركض في كلّ أنحاء الباحة وذراعاها ممدودتان.

كانت تبحث عنّي.

انحنيتُ إلى الأمام ورحتُ أصرخُ بكلّ قواي:

- ماما! ماما!



إلاّ أنّ صوتي ما كان قادراً على الوصول إلى الأسفل، ولا كان له أن يعلو على خرير السّاقية فتلاشى في الفضاء.

- ماذا أصابك؟ أجُنِنت؟ سألَني فيتاليس.

لم أُجبْه وظلّتْ عيناي معلّقتين على السيّدة باربُران. لكنّها لم تكن تعلم أنّني كنت شديد القرب منها، لذا لم يخطر في بالها أن ترفع رأسها وتنظر إلى أعلى.

كانت قد خرجت من الباحة وعادت إلى الطّريق متلفّتةً في كلّ الأنحاء.

رحتُ أصرخ أقوى فأقوى، لكن بلا جدوى كما في المرّة الأولى.

فصعدَ فيتاليس بدوره على الحاجز وقد خمّن ما كان يحصل.

لم يلزمْه وقتٌ طويل حتّى يلمحَ القبّعة البيضاء.

- أيّها الصّغير المسكين! قال بصوتٍ خفيض.

- أوه، أرجوك! دعني أعود، قلتُ له وقد شجّعتني كلماته المتعاطفة.

إلاّ أنّه أمسك بمعصمي وأنزلني إلى الطريق قائلاً:

- بما أنّك استرحتَ، فلننطلق يا بنيّ.

أردتُ الإفلات من قبضته لكنّه كان يمسكني بقوّة.

- كابي! دزربينو! قال منادياً الكلبيْن اللّذين أحاطا بي، كابي من الخلف ودزربينو في المقدّمة.

كان يجب أن أتبع فيتاليس.

بعد بضع خطوات التفتُّ إلى الوراء.

كنّا عبرنا قمّة الجبل واختفى وادينا ومنزلنا عن ناظريّ. وفي البعيد، وحدها القمم المزرقّة كان يبدو أنّها ترتفع صوب السّماء لتضيعَ عيناي في الفضاء غير المتناهي.


Twitter: @ketab_n

في الطريق

ليس غولاً بالضّرورة كلّ من يشتري طفلاً بأربعين فرنكاً، ولا يعني ذلك أنّه يشتريه تمهيداً لالتهامه.

لم يكن فيتاليس يريد الْتهامي، وخلافاً لُمشتَري الأطفال، لم يكن رجلاً شرّيراً.

سريعاً ما تأكّدتُ من ذلك.

عند قمّة الجبل الذي يفصل حوض نهر الـ «لْوار» عن حوض نهر الـ «دوردونيي»، أمسك فيتاليس بمعصمي من جديدٍ، وسرعان ما بدأنا الهبوط صوب المنحدر المطلّ على منطقة الجنوب الفرنسيّ.

بعد أقلّ من ربع ساعة من المشي، أفلتَ ذراعي وقال لي:

- الآن امشِ على مهلك بالقرب منّي، لكن لا تنسَ أنّك إذا حاولتَ الهرب فسيلحقُ بك كابي ودزربينو وهما يملكان أنياباً حادّة.

لم أكن أفكّر في الهرب، كنتُ أشعر بأنّ الأمر بات مستحيلاً ولا جدوى بالتّالي من المحاولة.

أطلقتُ زفرةً طويلة. ثمّ أكمل فيتاليس:

- إنّك حزين! وأنا أفهمُ هذا ولا ألومك. يمكنك أن تبكي إذا أردت. لكن حاولْ أن تفهم أنّني لئن أخذتُك عندي فهذا لصالحك. وإلاّ فما كان سيحصلُ لك؟ كنتَ ستذهبُ إلى الملجأ على الأرجح.

النّاس الذين ربّوك ليسوا أهلك الحقيقيّين. أمّك، كما تقول، كانت طيّبة معك، وأنت تحبّها كما أنّك حزينٌ لتركها، هذا كلّه حسَن. لكن فكّرْ، فهي ما كانت لتقدر أن تحتفظَ بك خلافاً لإرادة زوجها. من جهته، قد لا يكون قاسياً بقدر ما تعتقد. إنّه مُعدم وذو عاهةٍ، ما عاد قادراً على العمل وقد فكّر مليّاً ورأى أنّه لا يسَعه الموت جوعاً من أجل إطعامكَ أنت. افهمِ الآن يا بنيّ أنّ الحياة هي في معظم الأوقات معركةٌ لا يُتاح لنا فيها أنْ نفعل ما نشاء.

كانت تلك الكلمات تنطوي على الأرجح على حكمة عالية أو على الأقلّ على خبرةٍ في الحياة. لكن في تلك اللّحظة بالذّات كان هناك واقعٌ يسود على كلّ الكلمات، ذلكم هو واقع الانفصال.

لن أرى بعد ذلك اليوم المرأة التي ربّتني والتي داعبتني وكنتُ أحبّها: أمّي.

كانت تلك الفكرة تخنقني. مع ذلك كنتُ أمشي إلى جانب فيتاليس، محاولاً أن أكرّر في نفسي ما كان قاله لي لتوّه.

كلّ ذلك كان صحيحاً على الأرجح. لم يكن باربُران والدي ولم يكن هناك ما يرغمه على معاناة البؤس من أجلي. أراد في الماضي أن يؤويني ويربّيني، وإذا كان يطردني اليوم فلأنّه ما عاد قادراً على الاحتفاظ بي. عندما أفكّر فيه، يجب ألاّ أفعل ذلك استناداً إلى ما حصل ذلك اليوم بل إلى كلّ السّنوات الفائتة التي أمضيتُها في منزله.

– فكِّرْ في ما قلتُه لك يا صغيري، لن تكون تعيساً برفقتي، كان فيتاليس يردّد من وقتٍ لآخر.

بعدما نزلنا منحدراً سريعاً، وصلنا إلى أرض بوار شاسعة

تمتدّ مستويةً ورتيبةً إلى ما لا نهاية له. لا بيوت ولا أشجار. كانت هضبة يغطّيها شجرُ الخَلَنْجِ الأصهبُ الورقِ، بينما تنتشر هنا وهناك مساحات واسعة من شجر الوزّال الهزيل الذي يتماوج تحت نفحات الهواء.

- أترى؟ قال لي فيتاليس وهو يبسط يده فوق البَراح[1]، سيكون من العبث أن تحاول الهرب، إذ سيتمكّن كابي ودزربينو من القبض عليك بسرعة.

الهرب؟ ما عدتُ أفكّر في الأمر. ثمّ إلى أين أذهب؟ وعندَ من؟

وأخيراً ربّما لم يكن هذا الشّيخ الطّويل القامة، الوسيم ذو اللّحية البيضاء مخيفاً بالقدر الذي ظننتُه أوّل الأمر. كنت أفكّر أنّه، في حالِ يصبح معلّمي، قد لا يكون معلّماً قاسياً.

مشينا طويلاً في تلك الأجواء الموحشة والحزينة، ولم نكن نغادر الأراضي البوار إلاّ لنكون في حقول الخَلَنْج، لا نرى حولنا على مدى النّظر إلاّ بعض التّلال المستديرة بقممها الجرداء.

كانت فكرتي عن الرّحلات مختلفة. وعندما كنتُ في أحلام يقظتي الطفوليّة أغادرُ قريتي، كان ذلك صوبَ بِقاع جميلة لا تشبه في شيء تلك التي كان يُظهرها ليَ الواقع.

كانت المرّة الأولى التي أمشي فيها بذلك القدر دفعةً واحدةً دون أن أتوقّف للاستراحة.

كان معلّمي يتقدّم بسرعةٍ منتظمةٍ، حاملاً جولي-كور على كتفه أو على حقيبته، فيما تتقافز الكلاب حوله دون أن تبتعد.

---

(1) البَراح: الأرض الواسعة لا نبتَ عليها ولا شجر (المترجمة).

من حينٍ لآخر كان فيتاليس يوجّه لها كلمة لطيفة إمّا بالفرنسيّة أو بلغة أخرى لم أكن أفهمها.

لم يكن يبدو لا عليه ولا على الكلاب أيّ تفكير في التّعب. إلاّ أنّ الحال لم تكن كذلك بالنّسبة إليّ. كنتُ مُرهقاً حقّاً. فالإعياء الجسديّ مُضافاً إلى الاضطراب النّفسيّ كان قد استنفد قواي.

لذا كنتُ أجرّ ساقيّ جرّاً وأجد صعوبة فائقة في مجاراة الرّجل. إلاّ أنّني لم أجرؤ على أن أطلب منه التّوقّف.

- إنّه قبقابك الذي يُتعبك، عندما نصلُ إلى «أوسّل» سأشتري لك حذاءً، قال لي.

هذه الكلمة ردّت لي الشّجاعة.

ففي الواقع، كنتُ منذ وقتٍ طويل راغباً بشدّة في الحصول على حذاء. فابن رئيس البلديّة وكذلك ابن صاحب النّزل كانا يملكان أحذية، وكانا لدى وصولهما نهار الأحد إلى القدّاس ينْسابان على البلاط الرّنّان انسياباً، فيما كنّا نحن الفلاّحين نُحدث بقباقيبنا جَلَبَةً تصمّ الآذان.

- وهل لا تزال «أوسّل» بعيدة؟!

- هذا هتافٌ من القلب! قال فيتاليس ضاحكاً، إذَن أنت ترغب بشدّة في الحصول على حذاء! حسناً، أعدُكَ بأن أشتري لك حذاءً مُسَمّراً من الأسفل. كما أعدك بسروالٍ مخمليّ وسترة وقبّعة. آمل أن يكون هذا كفيلاً بتجفيف دموعك، وبجعْل ساقيك تتحمّلان الفراسخ السّتّة التي لا تزال أمامنا.

حذاءٌ مُسَمّر! بهرني الأمر. كان الحذاء وحده شأناً عظيماً بالنّسبة

إليّ، ولكن لمّا سمعتُه يتحدّث عن المسامير نسيتُ حزني.

كلاّ، من المؤكّد أنّ معلّمي لم يكن رجلاً شرّيراً.

فهل أنّ رجلاً شريراً كان سينتبه إلى أنّ قبقابي يُتعبني؟

كنت إذن موعوداً بحذاء، حذاء مُسَمّر! وبسروالٍ مخمليّ! وبسترة! وقبّعة!

آه، لو كان بوسع السيّدة باربُران أن تراني، لكانت ستفرح أيّما فرح وتفتخر بي!

للأسف أنّ «أوسّل» كانت ما تزال بعيدة! ورغم الحذاء والسّروال المخمليّ اللّذين كانا ينتظرانني في نهاية الفراسخ الستّة التي كان ما يزال علينا قطْعها، بدا لي أنّني لن أتمكّن من المشي كلّ تلك المسافة.

لكن لحسن حظّي سرعان ما هبّ لنجدتي الطّقس.

راحت السّماء التي كانت لدى انطلاقنا زرقاء تتلبّد بالغيوم الرماديّة شيئاً فشيئاً، وسرعان ما بدأ ينهمر مطر ناعم استمرّ طويلاً.

كانت فروة الخروف التي يرتديها فيتاليس تحميه بما يكفي، كما كانت تحمي جولي-كور الذي سارع مع أوّل قطرة مطر إلى الاحتماء في مخبئه. إلاّ أنّنا، أنا والكلاب، لم يكن لدينا ما ندّثر به، ولذا فسرعان ما تبلّلنا حتّى العظام. وإذا كان بوسع الكلاب أن تنفض عنها المطر من وقتٍ لآخر، فأنا لم تكن لي هذه القدرة الطّبيعيّة، ولذا كان عليّ أن أمشي منسحقاً تحت ثقل المطر، متجمّداً.

- هل تصاب بالرشَح بسرعة؟ سألني معلّمنا.

- لا أعرف، لا أتذكّر أنّني أصبتُ به يوماً.

- هذا جيّد. معدتكَ صلبٌ بالفعل. لكنّي لا أريد أن أعرّضك

للخطر بلا جدوى، لن نذهب أبعد لليوم. هناك قرية، سنُمضي ليلتنا فيها.

لكن لم يكن في تلك القرية نُزُلٌ ولم يشأ أحدٌ استقبال ذلك الرّجل الذي كان يشبه المتسوّلين والذي كان يصطحب طفلاً وثلاثة كلاب كلّهم ملوّثون بالطّين.

- هنا لا نستقبل أحداً، كانوا يقولون لنا.

ثمّ يُغلقون في وجوهنا أبوابهم. كنّا نذهب من منزل لآخر دون أن يُفتحَ لنا باب.

أكان يجب إذن الاستمرار بالمشي طوال الفراسخ الأربعة التي تفصلنا عن أوسّل من دون استراحة؟ كان الظلام قد بدأ يُرخي سدولَه، والمطر يجمّدنا، وكنتُ أحسّ بساقيّ متصلّبتين من البرد كقضيبَين خشبيّين.

آه! أين صارَ منزل السيّدة باربُران؟!

في نهاية المطاف رضيَ أحد الفلاّحين، وكان أكثر إحساناً من جيرانه، أن يستقبلنا في مخزن الغلال العائد إليه. ولكن قبل أن يدعنا ندخل، اشترط علينا عدم إشعال النّار، وقال لفيتاليس:

- أعطِني عيدان الثّقاب التي بحوزتك. سوف أعيدها لك غداً قبل أن ترحل.

على الأقلّ، بات لنا سقف نحتمي تحته من المطر.

كان فيتاليس رجلاً شديد التحوّط، لا ينطلق في رحلة من دون زاد. كان في الحقيبة العسكريّة التي كان يحملها على ظهره رغيفٌ من الخبز أخرجَه وقسَّمه إلى حُصَصٍ أربع.

فرأيتُ للمرّة الأولى كيف يحافظ في فرقته على الطّاعة والانضباط.

أثناء تنقّلنا من باب إلى آخر بحثاً عن مأوى لتلك الليلة، دخلَ دزربينو إلى أحد البيوت وسرعان ما خرج وفي فمه قطعة خبز. إذذاك لم يقل فيتاليس إلاّ جملةً واحدة:

- إلى هذا المساء يا دزربينو!

كنتُ قد نسيتُ حادثة السّرقة تلك. وفي اللّحظة التي كان معلّمنا يقطع فيها رغيف الخبز، رأيتُ دزربينو يتّخذ هيئةَ مَن يشعر بالخزْي.

كنّا، أنا وفيتاليس، جالسَيْن جنباً إلى جنب على حُزمتي سرخس، وبيننا جولي-كور، فيما كانت الكلاب الثلاثة مصطفّة أمامنا. كانت عيون كابي ودولتشي معلّقة إلى عينَي معلّمهما، أمّا دزربينو فكان مطأطئ الرأس وأذناه تتدلّيان إلى الأسفل. قال فيتاليس بصوتٍ آمِر:

- فليخرج السّارق من الصّفوف، وليذهب إلى الزّاوية، فهو سينامُ دون عشاء.

ترك دزربينو مكانه فوراً وذهب زاحفاً ليختبئ في الزّاوية التي أشار إليها معلّمه. اندسّ بكامله تحت كومةٍ من السّرخس واختفى عن أنظارنا. إلاّ أنّنا كنّا نسمعه يئنّ شاكياً، مُطلِقاً صرخاتٍ صغيرةً مخنوقة.

بعدما نُفّذ الحكم، قدّم لي فيتاليس حصّتي من الخبز. وفيما يأكل حصّته راح يوزّع على جولي-كور وكابي ودولتشي القطع المخصّصة لهم في هيئة لُقَمٍ صغيرة.

بالتأكيد لمْ أكن في الشّهور الأخيرة التي أمضيتُها مع السيّدة باربُران أعيش عيشةَ رفاهية، إلاّ أنّ التحوّل بدا لي قاسياً.

آه! كم كان الحساء الذي كانت تحضّره لنا السيّدة باربُران كلّ مساء يبدو في تلك اللحظة لذيذاً، حتّى من دون زبدة!

كم كان يسرّني الجلوس قرب الموقد في منزلها! وكم كان يسعدني التمدّد على فراشي ورفعُ الأغطية حتّى رأسي!

لكن للأسف لم يعد هناك في صحبة فيتاليس مكان للشراشف والأغطية، وبات يجب أن نشعر ببالغ الامتنان لأنّنا وجدنا على الأقلّ سريراً من السّرخس.



كنتُ أرتجفُ من البرد في ملابسي المبلّلة وقد أنهكني التّعب وجرَّح القبقاب قدميّ.

كان اللّيل قد حلّ تماماً ولكنّني لم أكن قادراً على النّوم.

- أسنانك تصطكّ، قال فيتاليس، هل أنت بردان؟

- قليلاً.

فسمعتُه يفتح حقيبته ثمّ يقول:

- ليس عندي ملابس كثيرة، ولكنْ هاك قميصاً ناشفاً وصدريّة يمكن أن تتدثّر بهما بعد أن تخلع ملابسك المبلّلة. ومن ثمّ تغوص في التّرخس ولن يطول الوقت حتّى تشعر بالدّفء وتغفو.

مع ذلك، لم أشعر بالدّفء بالسّرعة التي ظنّها فيتاليس، فظللتُ أتقلّب مراراً على سرير التّرخس، متألّماً وحزيناً بشدّة بحيثُ عجزتُ عن النّوم.

كنت أتساءل إن كان هذا ما سيكون عليه الحال كلّ يوم! المشي بلا استراحة تحت المطر، والمبيت في قبوٍ والارتجاف من البرد والاكتفاء بقطعة خبزٍ يابس للعشاء، من دون أحدٍ ليحنو عليّ ويحبّني، من دون أمّي السيّدة باربُران!

وفيما أفكّر حزيناً وتاعساً وعيناي مغروقتان بالدّموع إذا بي أحسّ بلهاثٍ دافئ على وجهي.

مددتُ يدي إلى الأمام فإذا بي أجدُ فروَ كابي الصّوفيّ.

كان قد اقتربَ منّي بهدوء. تقدّم برويّة فوق السرخس وراح يشمّني. كان يستنشق رائحتي بهدوءٍ فيجري لهاثه على وجهي وشعري.

ما الذي كان يريد؟

سرعان ما نام فوق التّرخس بالقرب منّي وراح يلحس يدي برقّة.

تأثّرتُ بمداعبته، فاقتربتُ منه وطبعتُ على أنفه البارد قبلة.

فما كان منه إلاّ أن أطلقَ صرخة صغيرة مكتومة، ثمّ سارع إلى وضعِ قائمته الأماميّة في يدي وكفَّ عن الحراك.

فنسيتُ التّعب والأحزان، واختفى إحساسي بالاختناق، وتمكّنتُ من التّنفّس، فأنا لم أعد وحيداً: بات لديّ صديق!

الفصل السّادس

بداياتي

باكراً انطلقنا في اليوم التّالي.

كان قد توقّف المطر. السّماء كانت زرقاء والوحلُ قليلاً بفضل الرّياح الجافّة التي عصفتْ خلال اللّيل. على طريقنا، كانت العصافير تغنّي فرحةً في الأدغال، بينما تتقافز حولنا الكلاب. من حينٍ لآخر، كان كابي يقف على قائمتيه الخلفيّتين وينبح في وجهي مرّتين أو ثلاثاً، نباحاً كنتُ أفهم كلّ معناه.

«تشجّعْ! تشجّعْ!» كان يقول.

فهو كان كلباً شديد الذّكاء، يفهم كلّ شيء ويعرف دوماً كيف يجعلُ الآخرين يفهمونه. غالباً ما سمعتُ أنّه لا ينقصه سوى الكلام. لكن لم يكن هذا رأيي أنا. إذ كنتُ أجدُ أنّ في ذيله وحده من الفطنة والفصاحة ما يفوق ما نجد على ألْسِنَة الكثير من النّاس أو في عيونهم. على أيّ حال، لم يكن بيني وبينه حاجةٌ للكلام، فمن اليوم الأوّل فهمنا أحدُنا الآخرَ فوراً.

لأنّني لم أغادر قريتي يوماً، كنتُ متلهّفاً لرؤية المدينة.

لكن عليّ الاعتراف بأنّ «أوسّل» لم تبهرني إطلاقاً. بيوتها العتيقة التي تعلوها أبراجٌ صغيرة قد تُفرحُ علماء الآثار لكنّها لم تُثر اهتمامي أنا قطّ.

صحيحٌ أنّني لم أكن أبحث في تلك البيوت عن الظّريف والظّريف.
ذلك أنّ فكرةً واحدة كانت تشغل بالي وتجعلني غافلاً عن كلّ ما حولي: حانوت إسكافيّ.

إذ كان قد أزِفَ موعدُ انتعال حذائي، الحذاء الذي وعدني به فيتاليس.

لكن أين هو يا ترى الحانوت السّعيد الذي كنّا سنشتري منه الحذاء؟

ذلك الحانوت هو ما كنت أبحث عنه. أمّا ما تبقّى من أبراج وأقواس قوطيّة وأعمدة فلم يكن يهمّني على الإطلاق.

من هنا، فإنّ الذّكرى الوحيدة التي بقيت لي من مروري في «أوسّل» هي ذكرى حانوتٍ مُعتمٍ ومسودٍّ بالدّخان قائمٍ قرب الأسواق. كان أمام واجهته بسطةٌ عُرِضَت عليها بنادق قديمةٌ، وبذلة مزيّنة بشرائط ولها كتفان فضّيّتان، والكثير من المصابيح، وفي سلالٍ وُضعت حدائد عتيقة، لا سيّما أقفال ومفاتيح صدئة.

للدّخول إلى الحانوت كان ينبغي النّزول أربع درجات، ليجدَ المرء نفسه في صالة واسعة لا بدّ أنّ أشعّة الشّمس لم تدخلها منذ أن بُنِيَ سقف المنزل.

كيف يمكن أن تُباع أشياء بجمال الأحذية في مكانٍ بمثلِ هذه البشاعة!

إلاّ أن فيتاليس كان يعرف ما يفعل عندما قصدَ ذلك الحانوت، وسرعان ما فرحتُ بوضعِ قدميّ في حذاءٍ مُلبَّس بالحديد يفوق وزنه وزنَ قبقابي بعشر مرّات. لكنّ سخاء معلّمي لم يتوقّف عند هذا الحدّ.

فبعد الحذاء، اشترى لي سترةً من المُخمِل الأزرق وسروالاً صوفيّاً وقبّعةً من اللِّبد، أي كلّ ما كان وعدَني به.

وها قد أصبحتُ أرتدي المُخْمَل، أنا الذي لم ألبس من قبلُ إلاّ الكتّان، وأنتعل حذاءً وأعتمر قبّعةً، أنا الذي لم يكن لي فيما مضى إلاّ شعري كسوةً لرأسي. صرتُ أرى في فيتاليس الرّجل الأفضل والأكرم والأغنى في العالم.

صحيح أنّ المخمل كان مُتجعّداً والصّوف بالياً. صحيحٌ أيضاً أنّه كان من الصّعب أن نعرف ما كان لون المخمل في الأساس، لفرط ما لحقه من المطر والغبار. لكنّني كنتُ منبهراً أمام كلّ تلك الرّوائع، ولم أنتبه إلى الشّوائب التي تختفي وراءَ ألَقِها.

كنتُ متلهّفاً لارتداء تلك الملابس الجميلة. لكنّ فيتاليس، قبل أن يسلّمني إيّاها، أجرى عليها تعديلاً أدهشني وآلمني.

فبعد عودتنا إلى النّزُل، أخرجَ من حقيبته مقصّاً وقطع ساقَي السروال عند مستوى الرّكبتين.

وبما أنّني كنتُ أنظرُ إليه بعينين مذعورتين، قال لي:

- كلّ هذا هو بهدفٍ واحدٍ: ألاّ تشبه بقيّة النّاس. نحن في فرنسا ولذا أُلبِسكَ مثلَ إيطاليّ. ولو ذهبنا إلى إيطاليا، وهذا مُحتمل، فسوف أُلبِسكَ مثلَ فرنسيّ.

إلاّ أن تفسيره لم يشفِ غليلي، فأردف قائلاً:

- نحن فنّانون، أليس كذلك؟ ممثّلون ينبغي أن يكون مظهرهم وحده مثيراً للفضول. أتظنّ أنّنا لو ذهبنا بعد قليل إلى ساحة المدينة ونحنُ نرتدي ملابسَ مثل البرجوازيّين أو مثل الفلاّحين، فسنُرغم

النّاس على النّظر إلينا والتّوقّف بإزائنا؟ لا، أليس كذلك؟ تعلّمْ إذن أنّ المظهر في الحياة يكون ضرورياً أحياناً. هذا مؤسف، لكنّنا لا نستطيع شيئاً حيال ذلك.

وهكذا، فالفرنسيّ الذي كنتُه في الصّباح صارَ إيطاليّاً قبل حلول المساء.

بما أنّ سروالي كان يصل إلى حدّ الرّكبتين، قام فيتاليس بتثبيت جوربيَّ بشرائط حمراء تتقاطع على طول ساقَيّ. وقام بالشيء ذاته على قبّعتي فزيّنَها بباقةِ أزهار من الصّوف.

لم أكن أعرف ما سيفكّر فيه الآخرون إذ يرونني، لكنّني، وحتّى أكون صادقاً، ينبغي أن أقول إنّني ألفيتُني رائعاً. وكان هذا على الأرجح صحيحاً، لأنّ صديقي كابي، بعدما تأمّلني مليّاً، مدّ لي إحدى قائمتيه الأماميّتين دليلاً على رِضاه.

كان سروري بالاستحسان الذي يبديه كابي إزاء تحوّلي مُضاعَفاً،



لا سيّما وأنّ جولي-كور وقف قبالتي أثناء ارتدائي ملابسي الجديدة وراح يقلّد حركاتي بطريقة مضخّمة. بعدما أنهيتُ إصلاح هندامي، وضعَ القردُ يديه على خصره وأرجعَ رأسه إلى الخلف، وراح يضحك مُطلِقاً صرخات صغيرة ساخرة.

هل القِرَدَة قادرة على الضّحك؟ سمعتُ أنّ معرفة هذا الأمر مسألةٌ علميّة مثيرة للاهتمام. لكنّني أعتقد أنّ العلماء الذين طرحوا على أنفسهم هذا السّؤال لم يخطوا يوماً خارج مختبراتهم ليدرسوا القِرَدة عن كثب. فبالنّسبة إليّ، أنا الذي عشتُ طويلاً بالقرب من جولي-كور، يمكنني التّأكيد أنّه كان يضحك، وغالباً بطريقةٍ كانت تغضبني. قد لا تكون ضحكته مشابهة تماماً لضحكة إنسانٍ ولكنْ، عندما كان شعورٌ ما يثير فرحه، كنّا نرى زاويتَي فمه تنشدّان إلى الخلف، وجفنيه يتغضّنان وفكّيه يتحرّكان بسرعة وعينيه السّوداوين تتوقّدان مثل فحماتٍ صغيرة نُفِخ عليها.

أخيراً يمكنني القول إنّ علامات الضّحك المميّزة تلك لدى جولي-كور سرعان ما تمكّنتُ من الانتباه إليها في ظروفٍ تخدش بعض الشّيء اعتزازي بنفسي.

قال فيتاليس عندما اعتمرتُ قبّعتي:

- الآن وقد أنهيتَ ارتداء ملابسك سنباشر العمل لنقدّم غداً في السّوق عرضاً فنيّاً كبيراً سيكون هو البداية بالنّسبة لك.

فسألتُه ما كان يقصد بالبداية، فشرح لي أنّه يعني التّمثيل أمام الجمهور لأوّل مرّة.

- غداً سنقدّم عرضنا الأوّل، وستشارك أنتَ فيه. لذا يجب أن

أدرّبكَ على الدّور الذي سأعهد به إليك، قال فيتاليس.

لكنّه عرف من عينيّ المندهشتيْن أنّني لم أفهم ما يقصده.

- الدّور يعني ما سيكون عليك فعله خلال هذا العرض. فأنا لم أصطحبْكَ من أجل أن تستمتع بالتنزّه لا غير، فأنا لستُ ثريّاً بما يكفي لأمنحكَ هذا. وإنّما اصطحبتُك من أجل أن تعمل، وعملُك سيكون هو التّمثيل مع كلابي وجولي-كور.

- لكنّني لا أُجيدُ التّمثيل! هتفتُ مذعوراً.

- لهذا السّبب بالذّات عليّ أن أعلّمك. أنت تعرفُ أنّه إذا كان كابي يمشي بكلّ رشاقة على قائمتيْه الخلفيّتين فليس هذا جزءاً من طبيعته. وإذا كانت دولتشي ترقص على الحبل فهذا أيضاً ليس من أجل متعتها الشّخصيّة. لقد تعلّم كابي الوقوف على قائمتيه الخلفيّتين ومثله دولتشي تعلّمت الرقص على الحبل. لا بل توجَّبَ عليهما التدرّب كثيراً وطويلاً من أجل اكتساب هاتين الموهبتين، فضلاً عن المواهب الأخرى التي تجعل منهما ممثّليْن بارعَين. وأنتَ أيضاً يجب أن تتدرّب لكي تتعلّم الأدوار المختلفة التي ستؤدّيها معهم. فلنبدأ العمل إذن.

في تلك الفترة كانت فكرتي عن العمل بدائيّة. كنتُ أعتقد أنّ العمل يعني حراثةَ الأرض أو قطعَ الحطب أو فلقَ الأحجار ولم أكن أتخيّله غير ذلك.

ثمّ أكمل فيتاليس:

- التمثيليّة التي سنقدّمها عنوانها «خادِمُ السيّد جولي-كور أو الأكثر غباءً بين الاثنين ليس هو مَن نَحسب». وهذا موضوعها: كان

للسيّد جولي-كور خادم لَطالما أشعرَه بالرّضا: إنّه كابي. لكنّ كابي صار هرِماً وعلى جولي-كور أن يجد خادماً جديداً يتكفّلُ كابي بتأمينه له. إلاّ أنّ هذا الأخير لن يقدّمَ لسيّده كلباً ليخلفَه وإنّما صبيّاً، وهو قرويٌّ يُدعى ريمي.

- مثلي؟

- لا ليس مثلك، بل هو أنت بالذّات. لقد وصلتَ حديثاً من قريتكَ لتعمل عند جولي-كور.

- لكنّ القِرَدة لا تتّخذ لها خدَماً.

- في المسرحيّات بلى. إذن، تأتي أنت فيجد السيّد جولي-كور أنّه يبدو عليك الغباء.

- هذا ليس مسليّاً.

- وما همّك، طالما الهدف هو الإضحاك؟ فضلاً عن ذلك، تخيّل لو وصلتَ فعليّاً عند رجلٍ للعمل لديه كخادم وطلبَ منك مثلاً أن تحضّر المائدة. هاكَ تحديداً الطّاولة التي سنستخدمها في العرض. تقدّمْ ووزّعْ عليها لوازم المائدة.

كان على تلك الطّاولة صحونٌ وكأسٌ وسكّينٌ وشوكةٌ ومَحارمُ بيض.

كيف كان يجب ترتيب ذلك كلّه؟

وفيما أطرح على نفسي هذه الأسئلة، مادّاً ذراعَيّ ومنحنياً إلى الأمام وفمي مفتوحٌ لأنّني لم أكن أعرف من أين أبدأ، إذا بمعلّمي يصفّق منفجراً بالضّحك، ثمّ يقول:

- ممتاز! ممتاز! هذا عظيم. تعابيرُ وجهكَ ممتازة. الصّبيّ الذي كان

يعمل معي قبلكَ كان يتّخذ هيئة متذاكية وكانت ملامحه كأنّها تقول: «انظروا كم أمثّل جيّداً دور الغبيّ!». أمّا أنت فلا تقولُ شيئاً، تكون وكفى، إنّ سذاجتك لمُذهلة.

- لكنّني لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

- وفي هذا تحديداً تكمن براعتك. غداً أو بعد بضعة أيّام ستُتقِن تماماً ما يتوجّب فعله، وعندئذٍ سيكون عليك تذكّرُ الارتباك الذي تشعر به في هذه اللّحظة، والتّظاهر بها لن تشعر به بعد الآن. إذا تمكّنتَ من استعادة السّلوك نفسه وتعابير الوجه نفسها التي كانت لكَ للتّوّ، فإنّي أتوقّعُ لك نجاحاً باهراً. ما هي الشّخصيّة التي تؤدّيها في التمثيليّة؟ إنّها شخصيّة قرويّ يافع لا يعرف شيئاً عن الحياة، يصلُ للعمل عند قردٍ ويجد نفسه أكثر جهلاً ورعونةً من هذا الأخير. من هنا العنوان الفرعيّ للتمثيليّة: «الأكثر غباءً بين الاثنين ليس هو مَن نحسَب». دورُكَ إذن هو أن تكون أكثر غباءً من جولي-كور. ومن أجل أن تؤدّيه بإتقان يكفي أن تبقى كما أنتَ الآن، لكنْ بما أنّ هذا مستحيل، فسيكون عليك تذكّر الشخص الذي كنتَه لتصيرَ بقوّةِ الفنِّ ما ستكون كففتَ عن كونه بالطّبيعة.

لم تكن تمثيليّة «خادم السيّد جولي-كور» عملاً كبيراً، ولم تكن مدّتها تتعدّى عشرين دقيقة. مع ذلك دام تمريننا عليها حوالى ثلاث ساعات، إذ كان فيتاليس يطلب منّا، أنا والكلاب، أن نعيد مرّتين أو أربع مرّاتٍ أو عشراً الأمر ذاته.

وبالفعل، كانت الكلاب قد نسيتْ بعض الأجزاء من دورها وكان يتوجّب تلقينها من جديد.

ذُهلتُ آنئذٍ أمام الصّبرِ والرّقة اللّذين كان يبديهما معلّمنا. فما هكذا كانت تُعامَل الحيوانات في قريتي، حيث كان الضّرب والسّباب وسيلتَي التعليم الوحيدتين اللّتين تُستَخدمان معها.

أمّا فيتاليس، فلم يغضب ولو مرّة طوال التّمرين، ولم يتفوّه بأيّة شتيمة.

عندما لا ينجح تلامذته بتنفيذ ما يطلبه، كان يقول بنبرةٍ صارمة: «هيّا فلْنُعِدْ». أو: «هذا ليس جيّداً يا كابي». أو: «أنتَ قليل التّركيز يا جولي-كور، سأوبّخك».

كان هذا كلّ شيء، لكنّه كان كافياً.

عندما انتهى التمرين قال لي:

- حسناً، أتعتقد بأنّك ستعتادُ التّمثيل؟

- لا أدري.

- هل يُضجركَ ذلك؟

- لا، إنّه مُسَلٍّ.

- إذن كلّ شيء سيسير على ما يرام. إنّك ذكيّ لكن الأهمّ ربّما هو أنّك تمتلك القدرة على الانتباه. فبالأنتباه والطّواعية يمكن تحقيق كلّ شيء. انظرْ إلى كلابي وقارِن بينها وبين جولي-كور. قد يكون هذا الأخير أكثر نباهةً وذكاءً إلاّ أنّه لا يمتلك روحَ الطّاعة. لذا فهو يحفظ بسرعة ما نُلقّنه إيّاه، لكنّه بسرعةٍ أيضاً ينساه. فضلاً عن أنّه لا يُنفّذ ما يُطلَب منه بطيبة خاطر، ولو قَدِرَ لتمرَّدَ، وهو يحبّ المُعاكسة دوماً. هذا في طبْعه، ولذا فأنا لا أغضب منه، فالقرد لا يمتلك مثل الكلب روح الواجب ومن هنا فإنّه أدنى منه منزلةً. أتفهم هذا؟

- أعتقدُ ذلك.

- كن متيقّظاً إذن يا بنيّ، وكن مطواعاً وقمْ بما عليك فعله باذلاً قصارى جهدك. فهنا يكمن كلّ شيء في الحياة.

وفيما نتحدّث على هذه الشّاكلة، تشجّعتُ وأخبرته بأكثر ما أثار دهشتي خلال ذلك التّمرين، وأعني صبره الدّائم حيالَ جولي-كور والكلاب وحيالي.

فراحَ يبتسم بهدوء وقال لي:

- نرى جيّداً أنّك لم تَعِش قبل اليوم إلاّ بين قرويّين يتعاملون بقسوة مع حيواناتهم ويعتقدون أنّها لا تُقادُ إلاّ والعصا متأهّبة للنّزول عليها.

- لكنّ أمّي السيّدة باربُران كانت تتعامل برفقٍ شديدٍ مع بقرتنا «صُهَيْبة».

- كانت محقّة في هذا. إنّك تعطيني فكرةً جيّدة عن السيّدة باربُران. فهي تعرف ما يجهله أبناء الرّيف غالباً وهو أنّه بالعنف لا نحصل على الشّيء الكثير، بل بالرّفق يمكن الحصول على الكثير، إن لم يكن على كلّ شيء. لقد جعلتُ من حيواناتي ما هي عليه اليوم لأنّني لم أغضب منها إطلاقاً. فلو اعتدتُ ضربَها لأصبحَت دائمة الخوف والفزع، والخوف يشلُّ الذّكاء. فضلاً عن ذلك، لو تركتُني أستسلم للغضب إزاء حيواناتي، لما أصبحتُ أنا نفسي ما أنا عليه، ولما اكتسبتُ هذا الصّبر الدّائم الذي جعلني أكسبُ ثقتك. ذلك أنّ من يعلّم الآخرين يعلّم نفسه أيضاً. لقد أعطتني كلابي دروساً بقدر ما أعطيتُها. لقد ساعدتُها على تطوير ذكائها وهي بدورها ساعدتني على تطوير شخصيّتي.

كان ما أسمعهُ يبدو لي عجيباً فطفِقتُ أضحك.

- أنت تستغرب فكرة أن يعطي كلبٌ دروساً لإنسان، أليس كذلك؟ مع ذلك فالأمر ممكنٌ تماماً. فكّرْ قليلاً، أتوافقُ على أنّ الكلبَ يتأثّر بمعلّمه؟

- أوه، طبعاً!

- إذن ستفهمُ أنّ المعلّم مُرغَمٌ على الانتباه لسلوكه عندما يتعهّدُ بتربية كلب. تخيّل للحظة لو أنّني استسلمتُ للحدّة والغضب خلال تعليم كابي، فما سيفعل هذا الأخير؟ سيعتاد بدوره على الغضب والحدّة. أي أنّه لو اقتدى بي فسيَفسد. غالباً ما يكون الكلب مرآة سيّده، ومَن يرَ أحدهما يرَ الآخَر. أرِني كلبكَ أقلْ لك من أنت. قاطع الطّريق كلبُه سافل، والسّارق كلبه سارق، والرّيفيّ البليد الذّهن كلبُه فظٌّ وجَلِفٌ، والرّجلُ المهذّب الدّمث الأخلاق كلبُه لطيف.

استقبل أصدقائي الكلابُ والقردُ اليومَ التّالي من دون خشية، فهم معتادون على الوقوف أمام الجمهور، وكان لهم في ذلك امتيازٌ عليّ. فهم كانوا يقومون بما سبقَ أن قاموا به مائة مرّة، لا بل ربّما ألف مرّة.

أمّا أنا فلم يكن لي ثقتهم الهادئة. كنت أتساءل: ما سيقول فيتاليس لو أدّيتُ دوري على نحوٍ سيّئ؟ ما سيقول المشاهدون؟ بالي المشغول بهذه الأسئلة جعل نومي مضطرباً، وعندما غفوتُ، حلمتُ بأناسٍ ينقلبون على ظهورهم من الضّحك لفرطِ ما كانوا يسخرون منّي.

لذا كنتُ شديد الانفعال عندما غادرنا النّزُلَ في اليوم التّالي للذّهاب إلى السّاحة العامّة حيث كنّا سنقدّم عرضنا الفنّيّ.

كان فيتاليس يمشي في المقدّمة، مرفوع الرّأس نافخاً صدره وموقّعاً المسيرة بإيماءات من ذراعيه وساقيه، عازفاً على مزمارٍ معدنيّ لحنَ «فالس». خلفَه، كان يمشي كابي، وعلى ظهر هذا الأخير كان يتربّع جولي-كور في بزّةِ ضابطٍ إنجليزيّ سرواله وبذلته مزيّنان بالشّرائط المذهّبة، فيما تعلو قبّعته رياشٌ جميلة. وعلى مسافة كافية، يتقدّم دزربينو ودولتشي في صفٍّ واحد. وأخيراً، كنت أنا أُقفل الموكبَ الذي كان، بفضلِ المسافة التي حدّدها لنا معلّمنا بين كلٍّ منّا، يحتلّ مساحةً واسعة من الطّريق.

إلاّ أنّ ما كان يثير الاهتمام أكثر من فخامة موكبنا، هو صوت المزمار الثّاقب الذي كان يصل إلى داخل المنازل مسترعياً فضول سكّان «أوسّل». كان النّاس يهرعون إلى الأبواب ليشاهدونا أثناء مرورنا، والستائر تُزاح بسرعةٍ عن كلّ النّوافذ.

راح بعضُ الأطفال يتبعوننا وانضمّ إليهم قرويّون أخذتهم الدّهشة، وعندما وصلنا إلى السّاحة كان قد تشكّل خلفنا وَحولَنا موكب كبير.

جهّزنا حلبة العرض بسرعة، فهي كانت عبارة عن حبلٍ رُبطَ إلى أربع شجرات ليشكّل مربّعاً طويلاً وقفنا في وسطه.

كان الجزء الأوّل من عرضنا عبارة عن ألعابٍ خفّةٍ قامت بها الكلاب، لكنّني لم أعرف ما هي على وجه التّحديد لأنّني كنتُ مشغولاً بالتمرّن على دَوري والقلق يكاد يقتلني.

كلّ ما أذكره هو أنّ فيتاليس تخلّى عن مزماره واستبدل به كمنجة راح يرافق بها تمارين الكلاب، عازفاً حيناً ألحاناً راقصة، وفي أحيان

أخرى موسيقى هادئة ورقيقة.

بسرعةٍ تجمّع الجمهور خلف الحبال التي نصبناها، وعندما كنتُ أنظر حولي، تلقائياً وليس لغايةٍ معيّنة، كنتُ أرى عدداً هائلاً من الأحداق مُركَّزةً علينا كلّها وهي تبدو مُطلِقةً شعاعاً.

بعد انتهاء التمثيليّة الأولى، حمل كابي قصعة صغيرة بين أنيابه وراح يدور بين «الحضور الكريم» ماشياً على قائمتيه الخلفيّتين. وعندما لم تكن تسقط في القصعة قطَع نقديّة كان يتوقّف ويضع القصعة داخل الدّائرة بعيداً عن المتناول، ثمّ يطرح قائمتيه الأماميّتين على المُشاهِد الممتنع عن العطاء، وينبح مرّتين أو ثلاثاً ويربّت تربيتاً خفيفاً على الجيب الذي يريد هو له أن يُفتَح.

عندئذٍ كانت تصدر عن الجمهور هتافات وعبارات مازحة ومتهكّمة.

– يا للكلب الملعون! يعرف مَن تكون جيوبه مكتنزة.

– هيّا، مدّ يدك إلى جيبك!

– سيُعطيه!

– لن يُعطيه!

– ستعوّض عنها من إرث عمّك!

كانت الفلوس تُنتزَع أخيراً من عُمق الجيوب المنطوية عليها.

في تلك الأثناء، كان فيتاليس، من دون أن يقول كلمة، ومن دون أن يحيد بنظره عن القصعة، يعزف على الكمنجة ألحاناً فَرِحة، رافعاً آلته الموسيقيّة وخافضاً إيّاها بحسَب الإيقاع.

وسرعان ما عاد كابي قرب معلّمه وهو يحمل، مزهوّاً، القصعةَ



ملأى.

كان دورنا، أنا وجولي-كور، قد حان للدّخول إلى الحلبة. فقال فيتاليس وهو يومئ بقوسِ الكمنجة بيدٍ وبالكمنجة باليد الأخرى:

- سيّداتي، سادتي، سنتابع عرضنا بتمثيليّة جميلة عنوانها: «خادم السيّد جولي-كور، أو الأكثر غباءً بين الاثنين ليس هو مَن نَحسب». إنّ رجلاً مثلي لا ينحدر إلى مستوى الثّناء على ممثّليه وعلى أعماله قبل أن تشاهدوها، لذا لن أقولَ لكم إلاّ أمراً واحداً: افتحوا أعينكم على سعتها وشنّفوا آذانكم وهيّئوا للتّصفيق أيديكم.

في الواقع، ما كان يدعوه فيتاليس «تمثيليّة جميلة» كان تمثيلاً صامتاً، أي تمثيليّة تعتمد على الإيماء والحركة لا على الكلمات. ذلك لأنّ اثنين من الممثّلين الرّئيسيّين، أي جولي-كور وكابي، كانا بالطّبع لا يستطيعان الكلام، بينما الممثّل الثّالث، أي أنا، ما كان قادراً على التّلفّظ بكلمة.

لكن من أجل إحالةِ التمثيل مفهوماً أكثر، كان فيتاليس يُرفقه ببعض العبارات التي تمهّد للمواقف وتفسّرها.

على هذه الشاكلة، وفيما يعزف بصوتٍ خافت لحناً حربيّاً، أعلنَ عن دخول السيّد جولي-كور، الضّابط الإنجليزيّ الذي فاز برتبته وثروته في الحروب في القارّة الهنديّة. لم يكن لِجولي-كور حتّى ذلك اليوم إلاّ خادم واحد هو كابي، لكنّ الجنرال كان يريد أن يخدمه من تلك اللّحظة فصاعداً إنسانٌ، فقدراته الماليّة تسمح بذلك. أضِفْ أنّ الحيوانات كانت دوماً في خدمة الإنسان، وقد آن الأوان لتتغيّر الأمور.

في انتظار وصول خادمه، كان الجنرال جولي-كور يتمشّى جيئةً وذهاباً مدخّناً السّيجار. آه لو رأيتم كيف ينفخ دخانه في وجه الجمهور!

فالجنرال بدأ ينْفَد صبرُه، لذا راح يقلِب عينيه الواسعتين مثل شخصٍ على شفير الغضب. وكان يعضّ شفتيه ويخبط الأرض بقدمه.

عند خبطة القدم الثّالثة، كان يجب أن أدخل السّاحة يقودني كابي.

لو انّي نسيتُ دوري، لَكان الكلب سيتكفّل بتذكيري. وفي اللّحظة المنتظرة، مدّ لي قائمته وأدخلني عند الجنرال.

ما إن رآني هذا الأخير حتّى رفع ذراعيه متّخذاً هيئةً مفجوعة. ما هذا؟ أهذا هو الخادم الذي يُقدَّم إليه؟ اقترب منّي وراح يتفحّصني عن كثب وهو يدور حولي رافعاً كتفيه. كانت تعابير وجهه وحركات جسمه مضحكة للغاية فانفجر الجمهور بالضّحك: لقد فهموا أنّه اعتبرني أبلهَ كلّياً، وكان هذا أيضاً شعور الجمهور.

كانت التمثيليّة مؤلّفة لإظهار هذه البلاهة بشتّى أشكالها. ففي كلّ مشهد، كان عليّ القيام بحماقةٍ جديدة. في المقابل، كان على جولي-كور أن يجد فرصةً لإظهار ذكائه ومهارته.

بعدما تفحّصني طويلاً، قرّر الجنرال، وقد أخذته الشّفقة حيالي، أن يقدّم لي الطّعام.

قال فيتاليس:

- يعتقد الجنرال أنّ هذا الصّبيّ ما إن يأكل حتّى يصير أقلّ غباءً. سنرى ذلك.

جلستُ إلى طاولةٍ صغيرة جُهّزت عليها أدوات المائدة، وفوق

الصّحن وُضعت فوطة.

ما أفعل بهذه الفوطة؟

كان كابي يومئ إليّ بوجوب استخدامها. لكن كيف؟

بعدما فكّرتُ طويلاً، رحتُ أتمخّطُ فيها.

فتلوّى الجنرال من الضّحك، في حين انقلب كابي على ظهره رافعاً قوائمه إلى الأعلى وقد فاجأه غبائي.

لّما رأيتُ أنّني كنتُ مُخطئاً، رحتُ أتأمّل الفوطة من جديدٍ متسائلاً كيف أستخدمُها.

وأخيراً خطرت لي فكرة: لففتُ الفوطة وصنعتُ منها ربطة عنق.



من جديدٍ انفجر الجنرال بالضّحك وانقلب كابي على ظهره. استمرّ الأمر على هذا المنوال إلى أن قام الجنرال مدفوعاً بغيظه بإخراجي من الكرسيّ والجلوس مكاني وتناوُل الطّعام الذي كان مخصّصاً لي.

كم كان الجنرال يجيد استخدام فوطة المائدة! لو تعرفون بأيّة رشاقةٍ ثبّتها في إحدى عروات بذلته ثمّ فرشها على ركبتيه! وبأيّة أناقة كسرَ رغيفَ خبزِه وشربَ كأسَه!

لكنّ أناقة سلوكه بلغت ذروتها عندما طلب، بعدما أنهى غداءه، خِلالاً بدأ يمرّره سريعاً بين أسنانه.

فانطلق التّصفيق من كلّ النّواحي وانتهى العرضُ بنجاح باهر.

- يا لذكاء هذا القرد! ويا لغباء هذا الخادم!

بهذه الكلمات أثنى فيتاليس عليّ في طريق عودتنا إلى النُّزُل، ولأنّني مثّلتُ ببراعة كبيرة فقد أشعرني ذلك الثناء بكثيرٍ من الزّهو.

الفصل السّابع

أتعلّمُ القراءة

كان ممثّلو فرقة السّينيور فيتاليس، وأعني الكلاب والقرْد، أصحابَ مواهب كبيرة بالتأكيد، إلاّ أنّ تلك المواهب لم تكن بالغة التنوّع.

فبعد أربعة عروضٍ أو خمسة، كان كلّ رصيدهم يصير معروفاً ولا يعود بوسعهم إلاّ تكراره.

لذا لم يكن ممكناً البقاء طويلاً في مدينة واحدة.

بعد ثلاثة أيّام من وصولنا إلى «أوسّل»، حان وقتُ الرّحيل.

إلى أين سنذهب؟ تجرأتُ وطرحتُ هذا السّؤال على معلّمي.

- أتعرف المنطقة؟ أجابني وهو ينظر إليّ.

- كلاّ.

- لمَ تسألني إذن إلى أين نحن ذاهبون؟

- لكي أعرف.

- تعرف ماذا؟

ظللتُ دهِشاً لا أحير جواباً، أنظر إلى الطريق البيضاء الممتدّة أمامنا في عمقِ وادٍ حرجيّ صغير.

ثمّ تابع فيتاليس:

- لو قلتُ لكَ إنّنا ذاهبون إلى «أورياك» قبل أن نتوجّه بعدها إلى «بوردو» ومن هناك إلى البيرينيس، فهل ستفهم من هذا شيئاً؟

- لكن أنت، أتعرف هذه المنطقة إذن؟
- ما وطأتْها قدمايَ من قبل.
- وكيف تعرف في هذه الحال إلى أين نحن ذاهبون؟
نظرَ إليّ طويلاً مرّة أخرى كما لو كان يبحثُ فيّ عن شيءٍ ما ثمّ سألني:
- أنتَ لا تجيدُ القراءة، أليس كذلك؟
- كلاّ.
- أتعرف ما هو الكتاب؟
- أجل. تؤخذ الكتب إلى القدّاس لقول الصّلوات عندما لا تتلى صلوات المسبحة. سبق أن رأيتُ كتباً، كتباً جميلة، مع صورٍ في داخلها وبأغلفةٍ جلديّة.
- هذا جيّد. تعرف إذن أنّه يمكن وضع صلواتٍ في كتاب؟
- أجل.
- يمكن وضع أمور أخرى كذلك. عندما تتلو صلاتك على المسبحة، فأنتَ تردّد غيباً كلماتٍ وضعَتْها أمّك في أذنك. ومن أذنك ذهبت هذه الكلمات لتتجمّع في ذهنك قبل أن ترجع إلى لسانك وشفتيك عندما تطلبها. أمّا الذين يقولون صلواتهم بواسطة الكتب فإنّهم لا يستحضرون الكلمات التي تتشكّل منها الصّلوات من ذاكراتهم، بل يأخذونها بأعينهم من الكتب حيث وُضعت، أي أنّهم يقرأونها.
- سبق أن رأيتُ أشخاصاً يقرأون، قلتُ مزهوّاً كشخصٍ يريد أن يثبت أنّه ليس بغبيّ وأنّه يعرف تماماً ما يجري الحديث عنه.

- مثلما توضع الصّلوات في الكتب، يمكن أن يوضع فيها كلّ شيء. عندما يحين وقت الاستراحة سأُريكَ كتاباً يمكن فيه إيجاد أسماء البلدان التي نمرّ فيها وتاريخها. في كتابي هذا، وضعَ رجالٌ سكنوا هذه البلدان أو مرّوا بها ما رأوه وتعلّموه. يكفي أن أفتح الكتاب وأقرأه فأعرف هذه البلدان وأراها كما لو كنت أنظرُ إليها بأمّ عينيّ، وأتعلّم تاريخها كما لو كان يُحكى لي.

كنتُ قد تربّيت مثل شخصٍ متوحّش لا فكرة لديه عن الحياة المتحضّرة. لذا كانت هذه الكلمات بالنّسبة إليّ ضرباً من الكَشف، بدأ مشوّشاً ثمّ اتّضح شيئاً فشيئاً. صحيحٌ أنّني سبقَ أن أُرسلتُ إلى المدرسة. ولكن كان ذلك لمدّة شهرٍ فقط. وخلال ذلك الشّهر، لم يوضَع كتابٌ بين يديّ ولا أحد حدّثني عن القراءة أو الكتابة ولم أتلقَّ أيّ درسٍ من أيّ نوعٍ كان.

ليس ينبغي الاستنتاج، استناداً إلى ما يحصل اليوم في المدارس، أنّ ما أقوله ههنا مستحيل. ففي الزّمن الذي أتحدّث عنه، كان جزء كبير من البلدات الفرنسيّة يفتقر إلى مدارس. أمّا تلك الموجودة فقد كان يُدير بعضَها مدرّسون كانوا، لسببٍ أو لآخر، إمّا لأنّهم ما كانوا يعرفون شيئاً أو لأنّهم كان لديهم أمور أُخرى يقومون بها، لا يقدّمون للأطفال الذين يُعهَد بهم إليهم أيّ تعليم. كانوا يحرسون الأطفال فحسب، معتقدين أنّ هذا هو الأساسيّ.

وكانت هذه هي حال معلّم المدرسة في قريتنا. أكان يعرف شيئاً؟ ذلك ممكن، فأنا لا أريد اتّهامه بالجهل. إلاّ أنّ الحقيقة هي أنّه خلال وجودي عنده، لم يعطِنا أنا ورفاقي أدنى درس. فلكونه أساساً صانع

قباقيب، لم يكن يُعنى إلاّ بالقباقيب، وكنّا نراه من الصّباح إلى المساء يُطيِّر من حوله نشارة خشب الزّان والجوز. لم يكن يوجّه لنا الكلام البتّة، إلاّ ليحدّثنا عن أهالينا أو عن البرد أو المطر. أمّا عن القراءة والحساب، فلا كلمة. ففي هذه المسائل كان يعتمد على ابنته المكلّفة بالحلول محلّه وتدريسنا. ولكن بما أنّها كانت خيّاطة أساساً، فهي كانت تفعل مثل أبيها. وفيما كان هو يُعمِل مِصْقله أو مِظفارَه[1]، كانت هي تغرز إبرتَها بنشاط.

فقد كان عليهما تأمين معيشتهما. وإذ كنّا اثني عشر تلميذاً يدفع الواحد منهم خمسين سنتاً في الشّهر، لم تكن الفرنكات السّتّة كافية لإطعام شخصين خلال ثلاثين يوماً. لذا كانت القباقيب والخياطة تُكمل ما لم يكن بوسع المدرسة تأمينه لهما. وبالتالي كنّا نحن التّلامذة نحصل على العِلم بقدرِ ما نسدّد من مال. هكذا لم أتعلّم في المدرسة شيئاً، ولا حتّى أحرف الأبجديّة.

بعدما مشيتُ طويلاً وأنا أفكّر، سألتُ فيتاليس:

- وهل القراءة صعبة؟

- إنّها صعبة على بطيئي الفهم، وأكثر صعوبة لمن ليست عزيمتهم صادقة. هل أنتَ بطيء الفهم؟

- لا أعرف، لكن أعتقد أنّني لن أكون سيّئ العزيمة إذا أردتَ تعليمي القراءة.

- حسناً، سوف نرى. لدينا الوقت كلّه.

(1) المِظفار: إزميل مقعّر يستخدمه الإسكافيّون (المترجمة).

لدينا الوقت كلّه! لماذا إذن لا نبدأ توّاً؟ لم أكن أعرف كم أنّ تعلّم القراءة صعب، وكنتُ أتخيّل أنّي سأفتح فوراً كتاباً لأرى ما في داخله.

في اليوم التّالي، وفيما كنّا نسير، رأيتُ معلّمي ينحني ويلتقط من الطّريق قطعة من لوح خشبيّ يعلوها الغبار. قال لي:

- هذا هو الكتاب الذي ستتعلّمُ فيه القراءة.

وهل هذا اللّوح الخشبيّ كتاب؟! نظرتُ إلى فيتاليس لأرى ما إذا كان يسخرُ منّي. لكنّني لمّا وجدتُه جادّاً رحتُ أتطلّع بانتباهٍ إلى لُقْيَته.

كان ذلك فعلاً لوحاً خشبيّاً، مجرّد لوحٍ من خشب الزّان، طويلٍ كذراعٍ وعريضٍ ككفّين ومجلوٌّ تماماً. ولم يكن يحمل أيّ رسم أو كتابة.

فكيف يمكن القراءة في هذا اللّوح الخشبيّ؟ وما الذي يُقرأ فيه؟

قال لي فيتاليس ضاحكاً:

- إنّ رأسكَ يشتغل الآن.

- أتريدُ أن تسخرَ منّي؟

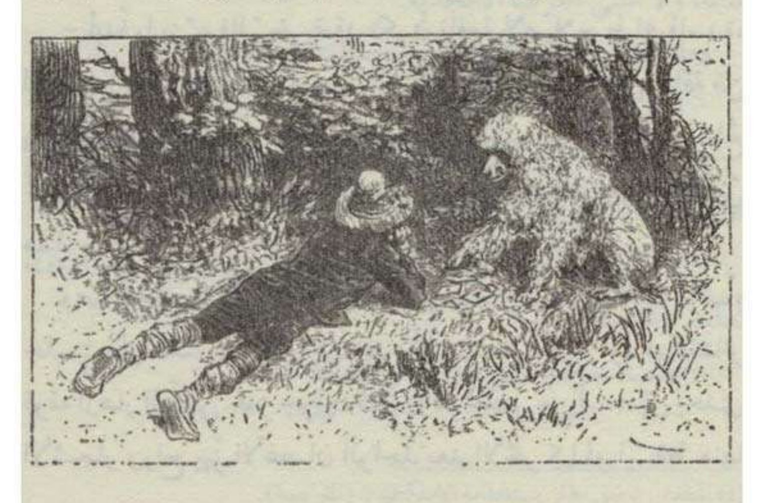
- أبداً يا بنيّ، فالسّخرية قد تكون نافعة لإصلاح طِباعٍ فاسدة، لكنّها إذا ما استهدفت تعليم إنسان جاهل كانت دليلاً على حماقةِ مَن يستخدمُها. انتظرْ حتّى نصلَ إلى أجمةِ الأشجار التي هناك. سنرتاحُ تحتها وأريك كيف يمكنني تعليمك القراءة بواسطة اللّوح الخشبيّ هذا.

وصلنا سريعاً إلى أجمة الأشجار، وبعدما وضعنا حقائبنا أرضاً، جلسنا على العشب الذي كان قد بدأ يستعيد اخضراره فيما تتناثر فوقه أزهار البلّيس. قفز جولي-كور، وقد تخلّص من قيده، إلى إحدى الأشجار وراح يهزّ الأغصان الواحد بعد الآخر كما لو ليُسقط منها

جوزاً، أمّا الكلاب التي كانت أكثر هدوءاً منه، وأكثر تعباً خصوصاً، فقد نامت حولنا بصورة دائريّة.

عندئذٍ أخرجَ فيتاليس من جيبه سكّينه وراح يعمل على اقتطاع طبقةٍ شديدة النّحافة من اللّوح الخشبيّ. بعدما نجح في ذلك، جلاها من الجهتين ثمّ قطّعها إلى مربّعاتٍ صغيرة بحيث أعطتْه دزّينةً من القطع المسطّحة المتساوية الحجم. أمّا أنا فلم أكن أحيد نظري عنه، ولكن أعترف أنّني، رغم تركيزي الذّهنيّ الشّديد، لم أكن أفهم كيف سيصنع من تلك القِطَع الخشبيّة الصّغيرة كتاباً. فمهما عظُمَ جهلي، كنتُ أعرف أنّ الكتاب يتألّف من عدد معيّن من الأوراق المخطوطة عليها علامات سوداء. فأين هي الأوراق؟ وأين هي العلامات السّوداء؟

- غداً سأحفر بطرفِ سكّيني على كلّ قطعةٍ من هذه القطع الخشبيّة الصّغيرة حرفاً من حروف الأبجديّة، قال لي فيتاليس. بهذه الطّريقة ستتعلّم أشكال الحروف، وعندما تحفظها جيّداً من دون خطأ بحيث



تتعرّف إليها بسرعة من النّظرة الأولى نجمعُها الواحدة جنبَ الأخرى حتّى تشكّل منها كلمات. وعندما تتمكّن من تشكيل الكلمات التي أطلبها منك، ستكون قادراً على القراءة في كتاب.

سرعان ما امتلأتْ جيوبي بمجموعة من القطع الخشبيّة الصّغيرة، ولم يطلِ الوقت حتّى حفظتُ حروف الأبجديّة. إلاّ أنّ تعلّم القراءة كان مسألة أخرى، والأمور لم تَسِرْ بسرعة كبيرة، إلى درجة أنّني ندمتُ ذاتَ لحظةٍ لأنّني أردتُ تعلّم القراءة.

مع ذلك ينبغي أن أقول، لأكون عادلاً حيال نفسي، إنّ ندمي لم يكن دافعه الكسل بل عزّة النّفس.

فأثناء تعليمي حروف الأبجديّة، ارتأى فيتاليس أن يعلّمها لكابي في الوقت نفسه. فالكلبُ تمكّن من حفظ أرقام السّاعة، فلمَ لا يكون قادراً على حفظ الحروف؟

هكذا تلقّينا دروسه سويّةً، وصرتُ رفيقَ كابي في الدّرس أو صارَ هو رفيقي، لا فرق. بالطّبعِ لم يكن على كابي تسمية الحروف التي يراها لأنّه غير قادرٍ على الكلام، ولكن كان عليه، عندما تكون القطع الخشبيّة مفروشةً على العشب، أن يسحبَ بإحدى قوائمه الحروف التي يسمّيها معلّمنا.

في البداية رحتُ أتقدّم بأسرعَ من كابي. ولئن كان ذكائي أكثر حدّة، إلاّ أنّ ذاكرته كانت بالمقابل أكثر وثوقاً. كان يكفيه أن يتعلّم جيّداً أمراً ما حتّى يحفظه إلى الأبد. وبما أنّ شيئاً لم يكن يشتّت انتباهه، فهو لم يكن يتردّد أو يخطئ إطلاقاً.

ولذا فعندما كنتُ أخطئ، لم يكن معلّمنا يتردّد في القول: «سيتعلّم

كابي القراءة قبل ريمي».

فيقومُ الكلبُ، وقد فهمَ على الأرجح، بتحريك ذيله مزهوّاً.

وكان فيتاليس يقول أيضاً: «أن يكون الإنسان أغبى من الحيوان، هذا جيّدٌ في المسرحيّات، ولكنّه في الحياة الواقعيّة شيءٌ مُخجِل».

استفزّني كلامه فاجتهدتُ من كلّ قلبي، وفي حين كان الكلب المسكين لا يزال في مرحلة كتابة اسمه، مختاراً حروفه الأربعة من بين كلّ حروف الأبجديّة، تمكّنتُ أنا من القراءة في كتابٍ أخيراً.

– الآن وقد صار بوسعك قراءة الكلمات، أتريد أن تتعلّمَ قراءة النّوطات الموسيقيّة؟ قال لي فيتاليس.

– وهل سأتمكّن من الغناء مثلك عندما أتعلّم الموسيقى؟

كان فيتاليس يغنّي أحياناً وكنتُ أستمتع جدّاً بغنائه دون أن يدري هو بذلك.

– أنت تريد إذن أن تغنّي مثلي؟

– أوه! لا، ليس مثلك. أعرفُ جيّداً أنّ هذا غير ممكن، ولكن أن أغنّي وكفى.

– هل تفرح عندما تسمعني أغنّي؟

– إلى أقصى الحدود! إنّ العندليب يغنّي جيّداً، لكنّني أعتقد أنّك تغنّي أفضل منه بكثير. لكن لا مجال للمقارنة، فأنت عندما تغنّي تؤثّر بي أيّما تأثير. تارةً تنتابني رغبةٌ في البكاء، وطوراً رغبةٌ في الضّحك. سأعترفُ لك أيضاً بأمرٍ قد يبدو فيه شيء من الغباء: عندما تغنّي لحناً رقيقاً أو حزيناً، فإنّ ذلك يعيدني إلى جانب أمّي السيّدة باربُران. أروحُ أفكّر فيها وأراها في بيتنا. هذا كلّه مع أنّني لا أفهم الكلمات

التي تقولها بالإيطاليّة.

كنتُ أتكلّم وأنا أنظر إليه وبدا لي أنّني رأيت عينيه تدمعان، فتوقّفتُ وسألتُه ما إذا كان كلامي يُسبّب له الحزن، فأجابني بصوتٍ متأثّر:

- لا يا بنيّ، أنت لا تُحزنني، بل بالعكس تذكّرني بشبابي وبأيّامي الجميلة. لا تقلق، سوف أعلّمك الغناء. ولأنّك طيّب القلب فسيبكي النّاس لسماعكَ أنت أيضاً ويصفّقون لك، سوف ترى...

ثمّ توقّف عن الكلام فجأةً، وفهمتُ أنّه لا يريد التحدّث أكثر في الموضوع. إلاّ أنّني لم أقدر أن أخمّن أسباب امتناعه. أسباب لم أعرفها إلاّ بعد وقتٍ طويل، طويلٍ جدّاً، وفي ظروف مؤلمة ومروّعة بالنّسبة إليّ، سوف أسردُها في حينها.

بدءاً من اليوم التّالي، فعل معلّمي من أجل تعليمي الموسيقى ما سبق أن فعله من أجل تعليمي القراءة، أيّ أنّه عاد يقطع مربّعات خشبيّة صغيرة ويحفر عليها بطرف سكّينه.

إلاّ أنّ عمله تطلّب آنئذٍ جهداً أكبر، لأنّ الإشارات المختلفة اللاّزمة للتّنويط الموسيقيّ تسمح بتراكيب أكثر تعقيداً من حروف الأبجديّة.

ولتخفيف حمولة جيوبي، استخدمَ الجهتين من كلّ مربّع خشبيّ؛ وبعدما حزّز على كلّ جهة خمسة سطور تمثّل السلّم الموسيقيّ، دوّن على الجهة الأولى مفتاح «صول» وعلى الجهة الثّانية مفتاح «فا». وبعدما انتهى من تحضير كلّ شيء بدأت الدّروس، وأعترف بأنّها لم تكن أقلّ صعوبة من دروس القراءة. إنّ فيتاليس، الصّبور جدّاً مع كلابه، عيل صبره معي غيرَ مرّة، وكان يصرخ بي قائلاً:

- مع الحيوانات أكظمُ غيظي لأنّي أعرف أنّها حيوانات، أمّا أنت فسوف تُميتني!

عندئذٍ كان يرفعُ يديه صوب السّماء في حركةٍ مسرحيّة ثمّ يتركهما تهبطان فجأةً لتصفقَا فخذيه بقوّة. كان جولي-كور يستمتع بتكرارِ كلِّ ما يجده مضحكاً، لذا راح يقلّد هذه الحركة وقد حفظها عن ظهر قلب. ولمّا كان غالباً ما يحضر دروسي، كنتُ عندما أتردّد في الإجابة أستاء لرؤيته يرفع ذراعيه صوب السّماء ثم يترك يديه تصطفقان على فخذيه. فيهتف فيتاليس:

- أرأيت؟ حتّى جولي-كور يسخر منك!

لو تجرّأت لأجبتُه أنّ القرد يسخر من المعلّم بقدر سخريته من التّلميذ. إلاّ أنّ الاحترام وشيئاً من الخشية المُبهمة كانا يُسكتان فيَّ هذا الرّدّ. فكنتُ أكتفي بقوله في نفسي همساً كلّما صفّق جولي-كور بيديه، راسماً على وجهه تعابير ساخرة، وكان ذلك يجعل الإهانة أقلّ إيذاءً.

تمكّنتُ أخيراً من تحقيق الخطوات الأولى بشيءٍ من العُسر. ويا كم شعرتُ بالرّضا عندما رحتُ أدندن لحناً كتبه فيتاليس على ورقة!

في ذلك اليوم لم يَصْفِق معلّمي بيديه على فخذيه، بل ربّت بلطفٍ على خدّي مُعلناً أنّني إذا ما استمررتُ على ذلك المنوال فسأصير بالتأكيد مغنّياً كبيراً.

طبعاً لم تتحقّق تلك الدّروس في يومٍ واحد. فقد ظلّت جيوبي ملأى بالقطع الخشبيّة الصّغيرة لأسابيع وشهور طويلة.

أضِفْ أنّ دروسي لم تكن منتظمة كدروسِ ولدٍ يتابع تعليمه في

مدرسة. ولم يكن معلّمي قادراً على تدريسي إلاّ في أوقات فراغه.

كان علينا كلّ يوم أن نُنجزَ مسارَنا الذي كان يقْصر أو يطول بحسَبِ المسافة بين بلدةٍ وأخرى. وكان علينا أن نقدّم العروض أنّى توفّرت فرصةٌ لتحصيل دخْلٍ ما. كان يجب أيضاً تمرين الكلاب وجولي-كور على أدوارهم، وأنْ نحضّر بأنفسنا غداءنا وعشاءنا، وعندما تنتهي كلّ هذه المهامّ كان يمكن الانصراف إلى القراءة أو الموسيقى. غالباً ما كان ذلك يحصل خلال وقت الاستراحة، تحت شجرة، أو على كومة من الحجارة، فيما يتحوّل العشب نفسه أو الطّريق نفسها إلى طاولة أفرشُ عليها مربّعاتي الخشبيّة.



لم تكن هذه الطّريقة في تحصيل العلم شبيهةً بتلك التي يعرفها الكثير من الأولاد الذين لا يُطلب منهم إلاّ العمل على دروسهم ومع ذلك يتذمّرون بدعوى أنْ ليس لديهم الوقت الكافي لإنجاز فروضهم

المدرسيّة. لكن يجب القول إنّ هناك ما هو أهمّ بكثير من الوقت الذي نصرفه على الدّرس، ألا وهو الاجتهاد. فليس الوقتُ الذي نكرّسه للدّرس هو ما يجعلنا نحفظه، بل الإرادة في تعلّمه.

ولحسن الحظّ، كنتُ قادراً على استنفار إرادتي دون أن أترك نفسي تتلهّى بما يحيط بنا. ما الذي كنتُ سأتعلّمه لو لم يتسنَّ لي الدّرس إلاّ في غرفةٍ، صامّاً أذنيّ بيديّ الاثنتين، وعيناي تلتصقان بالكتاب مثلما هي حال بعض التّلاميذ؟ لا شيء، إذ لم تكن لدينا غرفة لنغلقها علينا. وخلال سيري في الدّروب، كان عليّ أن أنظر أمامي لكي لا أقعَ على وجهي.

في نهاية المطاف تعلّمتُ القراءة، وفي الأوان ذاته تعلّمتُ القيام برحلات طويلة لم تكن أقلّ فائدةً من دروس فيتاليس. عندما كنتُ أعيش مع أمّي السيّدة باربُران، كنتُ ولداً ضعيفَ البنية بعض الشّيء، والدّليل على ذلك هو الشّاكلة التي تحدّثوا فيها عنّي. قال باربُران عنّي إنّني «ابنُ مدينة»، وفيتاليس قال إنّ لي «ساقَين وذراعَين في منتهى النّحافة». لكن في صحبة فيتاليس، حيثُ عرفتُ العيش القاسي في الهواء الطّلق، اشتدّت ساقاي وذراعاي وتفتّحت رئتاي وقسا جِلدي وبتُّ قادراً على تحمّل البرد أسوةً بالحرّ، والشّمس أسوةً بالمطر، والحزن والحرمان والتعب، دون معاناة.

لقد عاد عليّ هذا التّعليم بفائدة كبرى، كما ساعدني على تحمّل ضربات الحياة التي ستنهال عليّ أكثر من مرّة، قاسيةً وساحِقةً، إبّانَ صِباي.

من كلّ حدبٍ وصَوْب

كنّا قد قطعنا جزءاً من جنوب فرنسا: مناطق «أوفيرنيي» و«فيليه» و«فيفاري» و«كيرسي» و«رويرْغ» و«سيفينّ» و«لانغْدوك». كانت طريقتنا في السّفر غايةً في البساطة: نتطلق في خطّ مستقيم على هوى الصُّدَف، وعندما نرى بلدة لا يبدو عليها الفقر الشّديد، نتهيّأ لدخولِنا المُجلجِل. كنتُ أهتمّ بهندام الكلاب، فأمشّط دولتشي وألبِسُ دزربينو وأضعُ لزقةً على عين كابي كي يتمكّن من أداء دور الشيخ الكثير التذمّر. وأخيراً، كنتُ أرغِم جولي-كور على ارتداء بذلة الجنرال، وكان ذلك أصعب جزء من مهمّتي. فالقرد كان يعرف أنّ تحسين الهندام ذاك إنّما هو تمهيدٌ للعمل، ولذا كان يقاوم طالما كان قادراً على ذلك، ويروح يختلق الألاعيب الأكثر فكاهةً ليمنعني من إلباسِه. فأنادي كابي لمساعدتي، وبفضل انتباهه وغريزته ومهارته كان يتمكّن في معظم الأوقات من إحباطِ حيَل القرد.

عندما يصير أفراد الفرقة جميعهم في كامل هندامهم، كان فيتاليس يتناول مزماره، وبعد أن ينظّمَ مواقعنا، ننطلق في مسيرتنا عبر البلدة.

إذا كان عدد الفضوليّين الذين يلحقون بنا كافياً، قدّمنا عرضنا الفنّيّ. أمّا إذا كان من الضآلة بحيث لا يكفي لتحصيلِ مدخولٍ، فكنّا نكمل مسيرتنا. وحدها المدن كنّا نبقى فيها عدّة أيّام، وآنئذٍ كنتُ

في الصّباح حرّاً في التجوّل أنّى شئت. كنتُ أصطحب كابي - كنتُ آخذه طبعاً ككلبٍ عاديّ من دون بذلة المسرح - ونروح نجولُ في الطّرقات.

في العادة، كان فيتاليس يُبقيني إلى جانبه، لكن في تلك الأوقات لم يكن يمانع في أن يترك لي الحبل على الغارب وكان يقول لي:

- ما دامت الصّدف جعلتْكَ تجول عبر فرنسا في سنٍّ يكون فيها الأولاد غالباً في المدرسة، فلتفتحْ عينيك؛ انظرْ وتعلّمْ. عندما يُربكك أمرٌ ما، عندما ترى شيئاً لا تفهمه، أو تُداهمك أسئلة، فلا تَخْشَ من طرحها عليّ. قد لا أكون قادراً دوماً على إعطائك إجابةً شافية، ذلك أنني لا أدّعي معرفةَ كلّ شيء، لكن قد أكون قادراً أحياناً على إشباع فضولك. فأنا لم أكن دوماً مدير فرقة حيواناتٍ مدرَّبةٍ، وقد تعلّمتُ أموراً أخرى غير هذه التي تفيدني اليوم في «تقديم كابي والسيّد جولي-كور إلى الحضور الكريم».



- وما الذي تعلّمتَه؟

- سوف نتحدّث في هذا لاحقاً. الآن اعلَمْ فقط أنّه يمكن لمرقّص كلابٍ أن يكون شغلَ مكانة مهمّة في المجتمع. وافهمْ أيضاً أنّك إذا كنتَ في هذه اللّحظة عند أدنى درجات سلّم الحياة، فبإمكانك إن أردتَ أن تصل شيئاً فشيئاً إلى درجةٍ أعلى. هذا مرهونٌ بعض الشيء بالظّروف، لكنّه في الجزء الأكبر منه مرتبطٌ بك. احفظْ دروسي ونصائحي أيّها الصّغير، ولاحقاً، عندما تكبر، أرجو أن تتذكّر بتأثّرٍ وعرفانٍ الموسيقيَّ المسكين الذي تسبّب لك بخوفٍ عظيم يومَ سلبكَ من حضن أمّك التي ربّتْك. أعتقد أنّ لقاءنا سيعودُ عليك بفائدة جليلة.

أيّة مكانة هي هذه التي غالباً ما يتحدّث عنها معلّمي بتحفّظٍ يفرضه على نفسه؟ كان هذا السّؤال يثير فضولي ويشغل تفكيري: إن كان ذات يومٍ يشغل درجة عالية من سلّم الحياة، فلمَ صار في الدّرك الأسفل؟ هو يزعم أنّني يمكنني الارتقاء إن أردتُ، أنا الذي لم أكن ذا شأنٍ، ولم أكن أعرف شيئاً، والذي كنتُ بلا عائلة ولا أحد لي ليساعدني. لماذا إذن فقدَ هو مكانته؟

بعدما غادرْنا جبال «أوفيرنيي» وصلنا إلى هضاب «كيرسي». وهي عبارة عن سهول واسعة ومتموّجة بشكل متفاوت، ليس فيها إلاّ الأشجار الهزيلة والأراضي البور. إنّها المنطقة الأكثر كآبةً وفقراً التي رأيتُ. وما يعزّز أكثر هذا الشّعورَ الذي يكتنف المسافرَ خلال عبورها، هو أنّه لا يكاد يلمح مياهاً في أيّ مكان. فلا أنهار ولا سواقي

ولا بِرَك. بينما تنتشر هنا وهناك مجاري السّيول على شكل منبسطات صخريّة جافّة. فالمياه غرقتْ في الهاويات وتلاشت في جوف الأرض، لتذهبَ وتتفجَّر في البعيد أنهاراً وينابيع.

وفي وسط ذلك السّهل الذي كان يحرقه الجفاف لحظةَ عبرناه، تقوم بلدة كبيرة اسمها «باستيد-مورا». فيها أمضينا اللّيل في مخزنِ غِلال نُزُلٍ صغير.

وفيها كنّا جالسَين مساءً نتحدّث قبل أن نخلد إلى النّوم، قال لي فيتاليس:

- هنا، في هذه المنطقة وفي هذا النُّزل على الأرجح، وُلِدَ رجلٌ واجهَ آلافَ الجنود. بدأ حياته مستخدَماً في إصطبل، قبل أن يصير أميراً وملكاً: كان يُدعى «مورا». لقد جعلوا منه بطلاً وأطلقوا اسمه على هذه البلدة. لقد عرفتُه ذات يومٍ وغالباً ما كنتُ أتحدّثُ معه.

فقاطعتُه رغماً عنّي:

- عرفتَه عندما كان يعمل في إصطبل؟

فأجاب فيتاليس ضاحكاً:

- كلاّ، بل عندما كان ملكاً. لقد قابلتُه في نابولي محاطاً بحاشيته. إنّها المرّة الأولى التي أزور فيها الـ «باستيد».

- لقد عرفتَ ملكاً؟!

لا بدّ أنّ نبرتي التعجّبيّة كانت مضحكةً للغاية، لأنّ معلّمي انفجر بالضّحك مرّة أخرى، واستمرّ يضحك طويلاً.

كنّا جالسَين على مقعد أمام الإصطبل، ظهرانا مستندان إلى السّور الذي يحفظ دفء النّهار. وفي شجرة جمّيز كبيرة كانت تغطّينا

بأغصانها، كانت الزّيزان تغنّي أغنيتها الرّتيبة. أمّا أمامنا وفوق أسطُح البيوت، فكان القمر البدر قد ظهر للتوّ ومضى يصعد بهدوءٍ عبرَ السّماء. بقدر ما كان النّهار حارقاً، كانت تلك الأمسية بالنّسبة إلينا شديدة العذوبة.

- أتريد النّوم أم سماع حكاية الملك «مورا»؟ سألني فيتاليس.

- أوه! حكاية الملك، أرجوك.

فجعلَ يروي لي القصّة، وطوال ساعات ظللنا جالسَين على المقعد، هو يحكي وأنا أنظر إلى وجهه الذي ينيره ضوء القمر الشّاحب. هذا كلّه كان ممكناً إذن! لا ممكناً فقط بل حقيقيّاً أيضاً!



حتّى تلك اللّحظة لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الحكايات. فمن ذا الذي كان سيحكي لي حكاية؟ ليس أمّي السيّدة باربُران بالتأكيد، فهي لم تكن تعرف حتّى ما تعنيه هذه الكلمة. لقد وُلدت في شافانون ويُفترض أن تموت هناك. وذهنها لم يذهب يوماً أبعد ممّا تراه عيناها.

وبالنّسبة إلى عينيها، كان الكون بأكمله يقتصر على المنطقة التي يحدّها الأفق الذي يبدأ من أعلى جبل «أودوز».

أمّا معلّمي، فكم من الأمور كان رآها!

لكن مَن كان معلّمي في مرحلة شبابه؟ وكيف صار ما هو عليه في كهولته؟

كان في الأمر بلا شكٍّ ما يَشغل مخيّلةَ طفل. مخيّلة يقظة ومتنبّهة ومتعطّشة لكلّ الغرائب.

الفصل التّاسع

عندما التقيتُ بماردٍ ينتعل حذاءً طوله سبعة فراسخ

بعدما غادرنا أرض الهضاب الكلسيّة والبَراحات الجافّة، أذكر أنّني ألفيتُني في وادٍ دائم الانتعاش والخُضرة، ذلكم هو وادي «دوردونيا». ولأنّ ثراء السّكان من ثراء البلاد، كنّا ننزلُ الوادي على مراحل صغيرة ونقدّمُ عروضاً كثيرة، والفلوس تنهمر بسهولةٍ في قصعة كابي.

فوق نهرٍ عريض تجري مياهه بهدوءٍ خامل، يرتفع جسرٌ هوائيّ، خفيفٌ كما لو كان معلّقاً في الضّباب بخيوط عنكبوت: إنّه جسر «كوبزاك»، والنّهر هو «دوردونيا».

أذكرُ أيضاً مدينة خرِبة، تملأها الحُفَر والمغاوِر والأبراج، وفي وسْطِ الأسوار المتداعية لأحد الأديرة تغنّي الزّيزان في الشّجيرات المعلّقة هنا وهناك: إنّها «سانتِميليون».

إلاّ أنّ هذا كلّه يختلط بتشوّش في ذاكرتي، فيما يظهر سريعاً مشهدٌ صدَمَها بقوّة فاحتفظتْ بالأثر الذي تركه فيها آنذاك لتستعيده اليوم بجلاء.

كنّا قد نمنا في قرية بائسة وغادرناها مع الفجر. ظللنا نسير حتّى وقتٍ طويل في طريق مغبرّة، وإذا بنظراتنا التي كانت حتّى تلك

اللّحظة محبوسةً في طريقٍ إلى جانب الكروم، تمتدّ فجأةً بلا عائق على مساحة شاسعة، كما لو أنّ ستارةً مسّتها عصاً سحريّة انسدلتْ أمامنا على حينِ غرّة.

كان نهرٌ واسع يلتفّ بهدوءٍ حول ربوةٍ كنّا بلغناها لتوّنا. وخلف النّهر، مدينةٌ كبيرة تنتشر سطوحها وقببُ أجراسها حتّى خطّ الأفق المُبهَم. كلّ هذه البيوت! كلّ هذه المداخن! كان بعضها أكثر ارتفاعاً وضيقاً من سواه، ينتصب مثل الأعمدة زافراً دوّامات من الدّخان الأسوَد الذي تطيّره الرّيح كما تشاء ليشكّل فوق المدينة سحابةً من البخار القاتم. أمّا فوق النّهر وفي وسْطِ مجراه وعلى امتداد رصيف الميناء، فتنحشر سُفنٌ عديدة، تتشابك، كأشجار الغابات، صواريها وحبالها وأشرعتها وراياتها الملوّنة التي تخفق في الهواء. كان يُسمَع هدير هائل وضجيج حدائد عتيقة وصناعة قدور وضربات مطارق، فضلاً عن الصّخب النّاتج عن سير عرباتٍ عديدةٍ كانت تُرى مُسرعةً هنا وهناك على المرافئ.

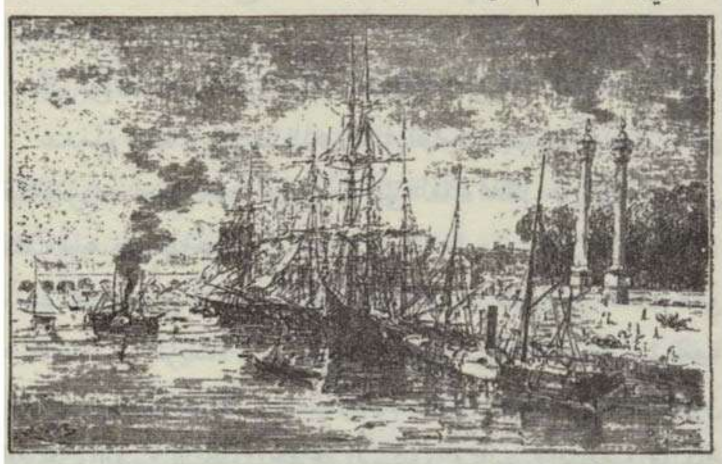
- إنّها «بوردو»، قال لي فيتاليس.

لصبيٍّ مثلي لم يرَ من قبل إلاّ القُرى الفقيرة في منطقة الـ «كروز» أو بعض المدن الصّغيرة التي شاءت الصّدف أن نقع عليها في طريقنا، كان ذلك المشهد ساحراً حقّاً.

ودون أن أفكّر، توقّفت قدماي وظللتُ بلا حراك متطلّعاً حولي في كلّ الاتّجاهات.

إلاّ أنّ عينيّ سرعان ما تركّزتا على نقطة دون سواها: النّهر

والمراكب التي تغطّيه. في الواقع، كانت تَحدُثُ هناك حركة مُبهمة تُثير اهتمامي بشدّة إذ لم أكن أفقه منها شيئاً.



كانت بعض المراكب قد أفردت أشرعتها وتتقدّم نزولاً في النّهر مائلةً على جانبٍ واحدٍ، في حينِ تتقدّم مراكب أخرى صعوداً. كان ثمّة مراكب تبقى جامدة بلا حراك كالجزر، وأخرى تدور على نفسها دون أن نرى ما الذي يجعلها تدور بهذه الشّاكلة. أخيراً، كان هناك مراكب بلا صوارٍ ولا أشرعة بل بمداخن تطْلق في الفضاء دوّامات من الدّخان، كانت تتحرّك بسرعة في كلّ الاتّجاهات مخلّفةً وراءها، فوق المياه المصفرّة، خطوطاً من الزّبد الأبيض.

ومن دون أن أطرح السّؤال، قال لي فيتاليس مُجيباً على اندهاشي:

- إنّها ساعة المدّ! هناك سفنٌ تصل من البحر بعد رحلاتٍ طويلة: هيَ تلك التي اتّسَخَ طلاؤها وبدت كأنّما يغزوها الصّدأ. وهناك أخرى تغادر المرفأ. أمّا تلك التي تراها في وسط النّهر وهي

تستدير على أعقابها، فإنّها تدور في الواقع حول مرساتها بشكلٍ يسمح لقيدومها بمواجهة الموج الصّاعد. وتلك التي تجري وتلفّها غيومٌ من الدّخان هي سُفنٌ قاطرة.

كم من الكلمات الغريبة بالنّسبة إليّ! كم من الأفكار الجديدة!

عندما وصلنا إلى الجسر الذي يصل الباستيد ببوردو، لم يكن لدى فيتاليس متّسع من الوقت ليجيب على العدد الهائل من الأسئلة التي كنتُ أريدُ طرحها عليه.

لم نكن حتّى تلك اللّحظة أقمْنا لوقتٍ طويل في المدن التي صادفناها في طريقنا، لأنّ ضرورات عروضنا الفنيّة كانت ترغمنا على تبديل الأمكنة كلّ يوم بحثاً عن جمهور جديد. ذلك أنّ ممثّلين كأولئك الذين يشكّلون «فرقة السّينيور فيتاليس الشّهير» ما كان بوسع رصيدهم الفنّيّ أن يكون شديد التنوّع. فبعدَ أن نكون عرَضْنا «خادم السيّد جولي-كور» و«موت الجنرال» و«انتصار الرّجل العادل» و«المريض المصاب بالإسهال»، فضلاً عن ثلاث أو أربع مسرحيّات أخرى، ينتهي كلّ شيء ويكون ممثّلونا أعطوا كلّ ما يقدرون عليه. عندئذٍ كان يتعيّن علينا الذّهاب إلى مكانٍ آخر وإعادة تقديم «المريض المصاب بالإسهال» أو «انتصار الرّجل العادل» أمام مشاهدين لم يسبق أن رأوا تمثيليّات كهاتَين.

لكنّ بوردو كانت مدينة كبيرة، يتجدّد الجمهور فيها بسهولة. كان يكفي أن ننتقل من حيّ إلى حيّ آخر لنتمكّن من تقديم ثلاثة عروض أو أربعة في اليوم الواحد، دون أن يهتف لنا أحد، كما حصل لنا في «كاهور»:

«إنّه دوماً الشّيء نفسه!»

بعدَ «بوردو»، كان علينا الذّهاب إلى «بو». عبرْنا في طريقنا الصّحراء الواسعة الممتدّة من أبواب «بوردو» حتّى جبال البيرينيس، والتي تُدعى الـ «لاند»، ومعناها الأرض البَراح.

مع أنّني لم أعد تماماً ذلك الفأر الصّغير الذي تتحدّث عنه الحكاية والذي يجد في كلّ ما يراه مناسبةَ اندهاشٍ أو إعجابٍ أو هلعٍ، فقد وقعتُ منذ بداية تلك الرّحلة في خطأٍ جعلَ معلّمي يضحك بشدّة وظلّ يمزح بشأنه حتّى وصولنا إلى «بو».

كنّا غادرنا «بوردو» منذ سبعة أيّام أو ثمانية. وبعدَما سرنا في البداية بمحاذاة مجرى نهر الـ «غارونّ»، ابتعدنا عن النّهر في «لانغون» وسلكنا طريق «مون مارسان» التي تغور عبرَ الأراضي. لا كروم هناك ولا من مروج ولا بساتين، بل خَلَنْجٌ وغابات صنوبر. وسرعان ما صارت البيوت أكثر ندرةً وأكثر فقراً. ثمّ ألفينا أنفسنا في وسطِ سهلٍ هائلٍ يمتدّ أمامنا على مدى النّظر تشوبه تموّجات خفيفة. لا زرع ولا غابات، وحدها الأرض الرّماديّة تنبسط بعيداً عنّا، ومن حولنا، وعلى امتداد الطّريق التي كان يغطّيها طحلبٌ مخمليّ وخلَنجٌ يابس ووزّال أعجف.

- ها نحن في منطقة الـ «لاند»، قال فيتاليس، وعلينا قطْع ما بين عشرين وخمسة وعشرين فرسخاً وسطَ هذا الخلاء. فلتبُثَّ الشّجاعة في قدمَيك.

لم تكن القدمان وحدهما بحاجة إلى الشّجاعة، بل العقل والقلب

أيضاً. ذلك أنّ السّير في ذلك الدرب المتناهي كان يجعل المرءَ يشعر بكآبة لا تُقاوَم.

قمتُ منذ ذلك الحين برحلات بحريّة عديدة. وكلّما ألفيتُني في وسط المحيط، بعيداً عن أيّ شراعٍ آخر، عاودني ذلك الشّعور الغامض بالحزن الذي كان يجتاحني في لحظات الوحدة تلك.

وكما في المحيط، كانت عيوننا تركض حتّى الأفق الغارق في أبخرة الخريف، دون أن نلمح إلاّ السّهل الرّماديّ الذي كان يمتدّ أمامنا منبسطاً ورتيباً.

كنّا نسير. وعندما ننظر حولنا تلقائيّاً كنّا نكاد نحسب أنّنا نراوح في مكاننا لا نتقدّم، لأنّ المشهد كان هو نفسه على الدّوام: الخلَنج ذاته والوزّال ذاته والطّحلب ذاته. ثمّ السّرخس الذي تتماوج أوراقه الطيّعة والمتحرّكة بتأثير الهواء فتنحني وتنهض وتتحرّك كالأمواج.

وفقط بعدَ مسافات طويلة، كنّا نجتاز أحياناً غابات صغيرة. إلاّ أنّ تلك الغابات ما كانت لِتُبهج المشهد كما يحصل في العادة. فقد كانت مزروعةً بأشجار الصّنوبر المقطوعة أغصانها حتّى الرّأس. وعلى طول جذوعها كانت قد أُحدِثت حزوز عميقة، ومن تلك النّدوب الحمراء كانت تسيل مادّة الرّاتنج على شكل دموع بيضاء بلّوريّة. وإذ تهبّ الرّيح في أغصانها، كانت تُحدث موسيقى تحمل من النّواح ما يجعلك تخال أنّك تسمع صوت تلك الأشجار المسكينة المشوّهة تشكو من جروحها.

كان فيتاليس قال لي إنّنا سنصل مساءً إلى قريةٍ يمكننا المبيت فيها. إلاّ أنّ المساء كان يقترب دون أن نلمح ما يشير إلى قرب تلك

القرية: لا حقول مزروعة ولا حيوانات ترعى في البراح ولا عمود دخان في البعيد يُعلن عن وجود منزل.

كنتُ مُتعباً من الشّوط الذي قطعناه منذ الصّباح، يُثقل عليّ ضربٌ من القنوط التامّ. أفلن تظهر أبداً تلك القرية السّعيدة في نهاية الطّريق المتناهية هذه؟

عبثاً فتحتُ عينيّ وتطلّعتُ إلى البعيد، لم أكن ألمح إلاّ البراح ولا شيء إلاّ البراح الذي كانت أدغاله تختلط أكثر فأكثر بالعتمة التي تزداد كثافة.

كان الأملُ في الوصول بسرعةٍ يجعلنا نحثّ الخُطى، وحتّى معلّمي المعتاد على السّير لمسافات طويلة كان يشعر بالتّعب. لذا أراد التّوقّف لأخْذ قسطٍ من الرّاحة على حافّةِ الطّريق.

أمّا أنا، فعِوَضاً عن الجلوس قربَه، فكّرتُ في تسلّقِ تلّة صغيرة مزروعة بالوزّال تبعد عن الطّريق مسافة قصيرة لأرى ما إذا كان بالإمكان رؤية بعض الأضواء في السّهل.

ناديتُ كابي ليرافقني. كان هو الآخَر متعباً فتجاهل ندائي على عادته معي عندما لا يعجبه تنفيذ أمرٍ ما.

- أأنتَ خائف؟ سألني فيتاليس.

لّما سمعتُ هذه الكلمة قرّرتُ ألاّ ألحّ، فذهبتُ في عمليّة الاستكشاف وحدي. كانت رغبتي في ألاّ أكون عرضةً لمزاح معلّمي كفيلةً بجعْلي لا أشعر بأدنى خوف.

إلاّ أنّ اللّيل كان قد حلّ. ليلٌ لا قمرَ فيه، بل نجوم لامعة تضيء السّماء وتسكب نورها في الفضاء المفعَم بضبابٍ خفيفٍ يخترقُه النّظر.

وفيما أمشي متلفّتاً يمنةً ويسرةً، إذا بي أنتبهُ إلى أنّ ذلك الغسق المضبَّب كان يمنح الأشياء أشكالاً غريبة. كان يجب تحكيم العقل من أجل إدراك أنّ ما أراه هو أدغالٌ وباقاتُ وزّال وبعض الأشجار الصّغيرة التي تمدّ جذوعها الملتوية وأغصانها المفتولة هنا وهناك. من بعيدٍ كانت تلك الأدغال وباقات الوزّال والأشجار تشبه كائنات حيّة آتية من عالمٍ خياليّ.

كان ذلك غريباً، وكان يبدو أنّ البراح قد تبدّل ما إنّ انتشر الظّلام كما لو صار مسكوناً بأشباحٍ غامضة.

لا أدري كيف خطرتْ لي آنئذٍ فكرةُ أنّ شخصاً آخر في مكاني ربّما كان سيخاف من الأشباح. فمع كلّ شيءٍ هذا ممكن، ما دام فيتاليس سألني قبل وهلة إن كنتُ أشعر بالخوف. إلاّ أنّني لم أجد فيَّ ذلك الخوف عندما بحثتُ في دُخَيلائي عنه.

بقدرِ ما أتسلّق منحدرَ التّلّة، كان الوزّال يصير أضخمَ، وأشجار الخلَنج والسّرخس تصير أطوَل. كانت ذوائبُ أغلبِها تعلو رأسي، وأحياناً كنتُ مُرغَماً على التقدّم محتمياً بِها.

بيدَ أنّني سرعان ما بلغتُ قمّةَ الرّابية الصّغيرة. لكنْ عبثاً رحتُ أفتحُ عينيّ على وسعهما، لم أتمكّن من رؤية أيّ ضوء. كانت نظراتي تضيع في العتمة: لا شيء سوى أشكالٍ مُبهمةٍ وظلالٍ غريبةٍ ووزّالٍ يبدو مادّاً صوبي أغصانَه كمثْلِ أذرعٍ طويلةٍ طيّعةٍ، وأدغالٍ ترقص.

لم أرَ ما يُشير إلى قربِ منزل، فأصختُ السّمع علّني ألتقط أيّ صوتٍ كان، خوار بقرة أو نباح كلب.

بعدما ظللتُ للحظاتٍ مُصيخاً سمعي، حابساً أنفاسي كي أتمكّن

من الإصغاء إصغاءً أفضل، اعترتني قشعريرةٌ ارتعدتُ لها خوفاً، إذ كان سكون الأرض البَراح تلك يبعث على الرّعب. كنتُ خائفاً. لكن ممّ؟ لستُ أدري. من السّكون على الأرجح، من الوحدة واللّيل. في كلّ الأحوال، كنتُ أشعرُ بأنّ خطراً ما كان يُحدقُ بي.

في تلك اللّحظة بالتّحديد، وفيما أتطلّعُ حولي بقلق، لمحتُ في البعيد شبحاً ضخماً يتحرّك بسرعة فوق شجيرات الوزّال، وفي الوقت نفسه سمعتُ ما يشبه حفيف أغصانٍ، كما لو أنّ أحداً كان يمسّها.

حاولتُ أن أقولَ في نفسي إنّ الخوف هو ما يخدعني، وإنّ ما أظنّه شبحاً هو على الأرجح شجرةً لم ألمحها في البداية.

ولكن ما هذا الحفيف وليس هناك أيّة نفحة ريح؟

فالأغصان مهما كانت خفيفة لا تتحرّك وحدها، يلزمها نسيمٌ يحرّكها أو شخصٌ يهزّها.

شخصٌ؟ كلاّ، لا يمكن أن يكون هذا الكائن الأسود الضّخم الذي يتقدّم صوبي إنساناً. إنّه على الأرجح حيوانٌ لا أعرفه، طائرٌ ليليٌّ ضخمٌ أو عنكبوتٌ بأربعِ قوائمَ نحيلة ترتسم فوق الأجَمات والسّرخس على صفحة السّماء الكَدِرة.

الأكيد أنّ ذلك الوحش الذي كان ينتصب على قائمتين متناهيتين كان يتقدّم في اتّجاهي في قفزاتٍ متسارعة.

لا بدّ أنّه رآني وها هو يُسرِعُ ليصلَ إليّ.

هذه الفكرة جعلت ساقيَّ تستعيدان قوّتهما، فاستدرتُ على عقبيَّ وسارعتُ للنّزول والعودة إلى فيتاليس.

ولكنّ الغريب هو أنّني كنتُ في نزولي أتقدّم على نحوٍ أبطأ ممّا في

صعودي. كنتُ أرتمي في لفيفِ شُجَيراتِ الوزّال والخلَنج، مصطدماً بها تارةً، ومتعلّقاً بها طوراً، فتعوقني عند كلّ خطوة.

وفيما أتخلّص من دغلٍ كنتُ علقتُ به، ألقيتُ نظرةً إلى الخلف. كان الوحش قد اقترب وهو يتّجه صوبي.

لحسن الحظّ لم يعد البراح مليئاً بالعوسج، فتمكّنتُ من أن أُسرعَ راكضاً بين الأعشاب.

لكنْ بالرّغم من سرعتي، كان الوحش يتقدّم بأسرعَ منّي. لم أكن بحاجة إلى أن أستدير، كنتُ أحسّ به يقتفي أثري.

لم أعد قادراً على التّنفّس وقد خنقني القلق والرّكض المجنون. مع ذلك قمتُ بمجهودٍ أخيرٍ لأقعَ أخيراً عند قدمَي معلّمي، فيما راحت الكلاب الثّلاثة التي كانت قد هبّت واقفةً تنبح بصوتٍ قويّ.

لم أقدر أن أقول إلاّ كلمتين رحتُ أردّدهما دونَ تفكير:

- وحش، وحش!

وبين نباح الكلاب سمعتُ فجأةً ضحكةً مجلجلة. في الأوان ذاته، وضع معلّمي يده على كتفي وأرغمني على الالتفات.

وقال لي ضاحكاً:

- الوحش هو أنتَ. انظرْ قليلاً إذا كنتَ تجرؤ.

أعادتني ضحكاته وكلماته إلى رشدي، فتجرّأت وفتحتُ عينيّ ونظرتُ إلى حيث كان يشير بيده.

كان الشّبح الذي أرعبني قد توقّف، وكان ينتصب في الطّريق دونَ حراك.

أعترفُ بأنّ شعوري بالنّفور والفزع ظلّ يخالجني للحظة. ولكنّني

لم أعد في وسط البراح، وبوجود فيتاليس والكلاب التي تحيط بي لم أعد خاضعاً لتأثير الوحدة والصّمت المُقلِق.

لذا تجرّأتُ وحدّقتُ به بإمعان.

أهو وحش؟ أهو إنسان؟

كان له من الإنسان الجسمُ والذّراعان والرّأس. ومن الحيوان كان له جِلدٌ أشعرُ يغطّيه بكامله، وقائمتان طويلتان ترتفعان خمسَ أقدام أو ستّاً وإليهما كان يستند.

كان ظلام اللّيل قد اشتدّ، ومع ذلك أبصرتُ كلَّ هذه التّفاصيل. فذلك الشّبحُ السّامقُ العلوِّ كان يرتسم أسودَ اللّونِ مثلَ خيالٍ على صفحة السّماء. هناكَ حيث كانت نجومٌ عديدةٌ تسكبُ ضوءاً يَشوبه الشّحوب.

لو لم يتوجّه معلّمي بالكلام إلى الشّبح لظللتُ على الأرجح حائراً لبرهة طويلة، أقلّبُ في رأسي السّؤال.

- أتعرف كم نبعدُ عن أوّلِ بلدة؟ سألَه فيتاليس.

إذا كان معلّمي توجّه له بالحديث فهذا يعني أنّه إنسان!

إلاّ أنّني، عِوَضاً عن الإجابة، سمعتُ ضحكة ناشفة شبيهة بصوتِ طائر.

أهوَ إذن حيوان؟

لكنّ معلّمي استمرّ يطرح الأسئلة، ما بدا لي غير منطقيّ بالمرّة، لأنّ الجميع يعلمون أنّ الحيوانات، إن كانت تفهم أحياناً ما نقوله لها، تظلّ غير قادرة على الإجابة.

وكم كانت دهشتي كبيرة عندما قال ذلك الحيوان أنْ لا منازلَ في

الأنحاء، بل فقط حظيرة عرَضَ هو أن يقودنا إليها!

إذا كان يتكلّم، فكيف يكون له قائمتان؟

لو تجرّأتُ لاقتربتُ منه لأرى من أيّ شيء صُنِعَتْ تينك القائمتان. ولكن مع أنّه لم يبدُ لي مؤذياً، فأنا لم أملك الشّجاعة لذلك، فالتقطتُ حقيبتي وتبعتُ معلّمي دون أن أنبسَ ببنتِ شفة.

- هل ترى الآن ما الذي أثار خوفك؟ سألني فيتاليس ونحن نمشي.

- أجل، لكنّني لا أعرف ما هذا: هل يوجد في هذه الأراضي مَرَدة؟

- أجل، عندما يرتفعون على طوّالات[1].

وفسّرَ لي كيف أنّ سكّان الأرض البراح، من أجل عبور أراضيهم الرّمليّة أو الملأى بالمستنقعات، وحتّى لا يغوصوا فيها حتّى أوراكهم، يستخدم الواحدُ منهم عَصَويْن طويلتين مزوّدتين بِركابَيْن يُوثِق إليهما قدمَيه. وأضافَ معلّمي ساخراً:

- وهكذا يصيرون بالنّسبة للأولاد الخوّافين مَرَدَةً بأحذيةٍ يبلغ طولُ الواحد منها سبعةَ فراسخ.

(1) طوّالة: خشبة أو عكّازة قائمة يرتفع عليها الماشي (المترجمة).

أمام القضاء

ما زلتُ أحتفظ من «بو» بذكرى جميلة. ففي هذه المدينة، لا تكاد الرّيح تهبّ على الإطلاق. وبما أنّنا أقمنا فيها أثناء فصل الشّتاء، نُمضينَ نهاراتنا في الشّوارع والسّاحات العامّة والمتنزّهات، فمن الطّبيعيّ أن أكون منتبهاً لِميزةٍ كهذه.

لكن ليس لهذا السّبب أمضينا تلك الفترة كلّها في المكان ذاته خلافاً لعاداتنا، بل لسببٍ آخر له شرعيّته الكاملة لدى معلّمي، أعني وفرة المدخول الذي كنّا ننجح في تحصيله.

ففي الواقع، جاءنا طيلةَ الشّتاء جمهورٌ من الأطفال لم يسأم لحظةً واحدةً من رصيدنا المسرحيّ ولم يهتف يوماً: «إنّه دوماً الشّيء نفسه!»

كانوا في معظمهم أطفالاً إنجليز: صبْية بأجسام سمينة وبشرة متورّدة وفتيات بعيون كبيرة ورقيقة قد توازي جمال عينَي دولتشي. آنذاك تعرّفتُ إلى الـ «ألبير» والـ «هانتلي» وسواهما من الحلويات التي كان الأطفال يملأون بها جيوبهم ليوزّعوها بسخاءٍ عليَّ وعلى جولي-كور والكلاب.

عندما حلّ الرّبيع بنهاراته الدّافئة، بدأ جمهورنا يتضاءل، وغيرَ مرّةٍ راح بعض الأطفال يسلّمون على جولي-كور وكابي بعد العرض. كانوا يودّعونهما، فنحن لن نراهم في اليوم التّالي.

وسرعان ما بتنا وحدنا في السّاحات العامّة، وتوجّب علينا التّفكير في أن نغادر بدورنا متنزّهات الـ «باسّ-بلانت» والحديقة الكبرى التي تُدعى الـ «بارْك».



وفي صباح أحد الأيّام انطلقنا، وسرعان ما غابت عن أنظارنا أبراج «غاستون فوبوس» و«مونتوزيه».

هكذا استعدنا حياتنا الجوّالة التي تقودها المغامرات عبر الطّرق.



طيلةَ فترة مديدة، لأيّام ولأسابيع لا أعرف عددها، ظللنا نسير قُدُماً، نتبع الأودية ونتسلّق التّلال تاركين دوماً إلى يميننا قمم الـبيرينيس المزرقّة الشّبيهة بأكداسٍ من الغيوم.

وذات مساءٍ، وصلنا إلى مدينة كبيرة تقع عند ضفّة نهرٍ في وسط سهلٍ خصب. كانت البيوت، ومعظمها قبيح، مبنيّة بالقرميد الأحمر، والطُّرقات مرصوفة بحصىً صغيرة مُدبّبة تؤلم أقدام المسافرين الذين قطعوا في النهار عشرات الفراسخ.

قال لي معلّمي إنّنا كنّا في «تولوز» وإنّنا سنبقى فيها طويلاً.

كالعادة، كان همّنا الأوّل في اليوم التّالي هو إيجاد أمكنةٍ صالحة لتقديم عروضنا.

وجدنا أمكنة عديدة، فالمتنزّهات كثيرة في «تولوز» لا سيّما في الجزء المحاذي لحديقة النّبات من المدينة. هناك مرج جميل مغطّى بالعشب الأخضر تظلّله أشجار كبيرة تنفذ إليها شوارع واسعة تُسمّى مسالِك. وفي أحد تلك المسالك وجدنا لنا مستقرّاً ومنذ عروضنا الأولى جاء لمشاهدتنا جمهور وفير.

لكن لسوء الحظّ، فإنّ الشّرطيّ المكلّف بحراسة المكان لم يعجبه وجودنا. لذا أراد إرغامنا على المغادرة، ربّما لأنّه لا يحبّ الكلاب أو لأنّنا كنّا نُعيق سيرَ عمله أو لأيّ سبب آخر.

نظراً لوضعيّتنا، كان من الحكمة على الأرجح أن نرضخ لمضايقاته، ذلك أنّ الصّراع بين بهلوانات مساكين من أمثالنا وبين رجال الشرطة لم يكن متكافئاً. إلاّ أنّ معلّمي، وخلافاً لعادته، هو الصّبور في معظم الأحيان، ارتأى غير ذلك.

بالرّغم من كون فيتاليس - في ذلك العهد على الأقلّ - مرقّصاً هرِماً للكلاب المدرّبة، فقد كان له كبرياؤه. كما كان يملك ما يسمّيه الشّعور بالأحقيّة، أي، بحسبِ ما شرح لي، الاقتناع بأنّه يجب أن يكون محميّاً طالما لم يفعل ما يخالف قوانين الشّرطة أو أنظمتها.

ولذا فعندما أراد الشّرطيّ طرْدنا من المكان رفضَ هوَ الإذعان له.

كان من عادة معلّمي، عندما لا يريد الاستسلام للغضب، أن يُبالغ بتهذيبه الإيطاليّ. ولدى سماع الطّريقة التي يعبّر بها عندئذٍ، يخال المرء أنّه يتوجّه إلى أكابر.

- حضرة ممثّل السّلطة الفائق الاحترام، قال وهو يرفع قبّعته للشّرطيّ، أيمكن حضرتك أن تُريني قانوناً صادراً عن هذه السّلطة تمنع فيه بهلوانات بسطاء مثلنا من ممارسة مهنتهم المتواضعة في هذه السّاحة العامّة؟

فأجاب الشرطيّ بأنْ لا مجال للنّقاش وبأنّ عليه أن يُطيع. فأجاب فيتاليس:

- بالتّأكيد، هذا ما أنوي فعله. لذا أعدك بالامتثال لأوامرك حالما تشرح لي باسمِ أيّة قوانين تطلب منّي ذلك.

في ذلك اليوم، أدار الشّرطيّ ظهره وابتعد، ورافقه فيتاليس باحترام مُصطنع حاملاً قبّعته في يده ومادّاً ذراعه وحانياً قامته.

إلاّ أنّ الشرطيّ عاد في اليوم التّالي، واجتازَ الحبال التي تحدّ نطاق مسرحنا وارتمى في وسط عرضنا وهو يقول بقسوة لفيتاليس:

- يجب أن تكمّمَ كلابك.

- أكمّم كلابي؟!

- ثمّة قانون يفرض ذلك. لا بدّ أن تكون عارفاً به.

كنّا نقدّم تمثيليّة «المريض المُصاب بالإسهال»، وكانت تلك المرّة الأولى التي نعرض فيها هذه التمثيليّة الهازلة في تولوز، لذا كان الجمهور في أشدّ الانتباه.

فما كان من تدخّل الشّرطيّ إلاّ أنْ أثار همساتٍ واعتراضات:

- لا تقاطعهم!

- دعهم يُنهون العرض!

لكنّ فيتاليس أشار إلى الجمهور بالصّمت، فكان له ذلك.

ثمّ نزع قبّعته وانحنى بها محيّياً بحيثُ لامسَ ريشُها التّرابَ لفرطِ ما كانت انحناءته عميقة، واقترب من الشّرطيّ مكرّراً تحيّته هذه ثلاث مرّات.

- أيطلب ممثّل السّلطة الفائق الاحترام أن أكمّم ممثّليّ؟ سأل فيتاليس.

- نعم، كمّم كلابك، وبسرعة.

فهتف فيتاليس متوجّهاً بكلامه إلى الجمهور أكثر منه للشرطيّ:

- أكمّم كابي ودزربينو ودولتشي؟! لا يمكن سيادتك أن تفكّر في الأمر! كيف سيتمكّن الطّبيب العلاّمة كابي، المعروف في العالم بأسره، من إعطاء الأدوية لمرضاه إذا كان يرتدي كمّامة؟ اسمحْ لي يا سينيور أن ألفت نظرك إلى أنّ الدّواء لا يكون ناجعاً إلاّ إذا أُعطيَ بالفم. لن يسمح الدكتور كابي لنفسه باللجوء إلى طريقة مغايرة أمام هذا الحضور المميَّز.

إزاء هذا الكلام انفجر الجمهور بالضّحك.

فقد كان واضحاً أنّه يؤيّد فيتاليس ويسخر من الشّرطيّ وتسلّيه تعابير جولي-كور الذي كان قد وقفَ وراء «ممثّل السّلطة» ذاك، وراح يقوم وراءه بحركاتٍ، كاتفاً يديه مثله وواضعاً قبضته على خصره ومُرجعاً رأسه إلى الخلف ومُرفقاً ذلك كلّه بتعابيرَ وإيماءاتٍ مُبهجة.

وإذ انزعج الشّرطيّ، الذي لم يكن يبدو عليه أنّه رجلٌ صبورٌ، من حديث فيتاليس وأغاظه ضحك الجمهور، استدار فجأةً على عقبيه.

فرأى القردَ منتصباً وقبضته على خصره متّخذاً هيئة شخصٍ متبجّح. ظلّ الرّجل والقرد للحظاتٍ متواجهَين ينظر كلّ منهما إلى الآخر كما لو لمعرفة أيّهما سيخفض نظره قبل الآخَر.

إلاّ أنّ الجمهور الذي انفجر بالضّحك بشكلٍ جارفٍ وصاخبٍ وضع حدّاً لذلك المشهد.

فصاح الشرطيّ رافعاً قبضته مهدِّداً:

- سأقول لك أمراً واحداً: إن لم تكن كمّمتَ كلابك غداً فسأقاضيك.

فقال له فيتاليس:

- إلى الغد سينيور، إلى الغد!

وفيما كان الشّرطيّ يبتعد مسرعاً، ظلّ فيتاليس منحنياً احتراماً، ثمّ تابعنا العرْض.

كنتُ أعتقد أنّ معلّمي سيشتري كمّامات لكلابنا، لكنّه لم يفعل. وانقضت الأمسية دون أن يتطرّق إلى شجاره مع الشّرطيّ.

لذا تجرّأتُ وأثرتُ الموضوعَ بنفسي، وقلتُ له:

- إذا أردتَ ألاّ يحطّم كابي غداً كمّامته خلال العرض، فأنا أعتقد أنّ من الأفضل أن تضعها له قبل العرض بلحظات. إذا راقبناه فقد نتمكّن من تعويده عليها.

- أوَ تظنّ أنّني سأضع للكلاب هذه الكمّامة الحديديّة؟

- طبعاً! لأنّني أظنّ أن الشّرطيّ مستعدّ للتّسبّب لك بمتاعب.

- اطمئنّ، سأجد غداً طريقةً تمنع الشرطيّ من مقاضاتي وفي الوقت نفسه لا تسبّب التّعاسة لتلامذتي. من جهةٍ أخرى، من الجيّد أن يستمتع الجمهور قليلاً. فهذا الشرطيّ سيجلب لنا أكثر من مجرّد مدخولٍ جيّد. فهو سيؤدّي، دون أن يدري، دوراً فكاهيّاً في التمثيليّة التي أحضّرها له. سيُغني هذا الأمرُ رصيدَنا المسرحيّ دون أن يجعله يزيد عن حدّه. لذا غداً تذهب وحدك إلى السّاحة برفقة جولي-كور. تنصب الحبال وتعزف على القيثارة بعض المقطوعات الموسيقيّة، وعندما يتجمّع حولك جمهورٌ كافٍ ويصل الشّرطيّ، أدخلُ أنا مع الكلاب وعندها تبدأ التمثيليّة.

لم أكن مطمئناً لكلّ ذلك.

لم يكن يروقني الذّهاب وحدي بهذه الشّاكلة لتحضير عرضنا الفنّيّ. ولكنّني كنتُ بدأتُ أعرف معلّمي معرفةً أفضل وأعرف متى يمكنني مقاومة قراراته. وفي مثل تلك الظّروف، كان واضحاً أنّه ليست لي أدنى فرصة لجعله يتخلّى عن فكرة المشهد الصّغير الذي كان هو يعتمد عليه، لذا قرّرت الامتثال.

في اليوم التّالي، قصدتُ مكاننا المعتاد ونصبتُ الحبال. ولم أكد أعزف بعض الأنغام حتّى هُرِع النّاس من كلّ صوب وتجمّعوا في

الحيّز الذي رَسمتُ أنا حدوده.

في الفترة الأخيرة، لا سيّما خلال وجودنا في «بو»، علّمني معلّمي العزف على القيثارة، وكنتُ بدأتُ أنجح في عزف بعض المقطوعات التي علّمنيها، ومن بينها «كانْتسونيتّه»[1] نابوليتانيّة كنتُ أغنّيها برفقة القيثارة وأنال عنها التّصفيق في كلّ مرّة.

كنتُ أصبحتُ فنّاناً في أكثر من مضمار، وبالتّالي كان لديّ ميلٌ للاعتقاد بأنّه عندما تحصد فرقتنا النّجاح، فإنّما تحصده بفضل موهبتي. ولكنّني كنت في ذلك اليوم حكيماً بما فيه الكفاية لأفهم أنّ التّزاحم حول حبالنا لم يكن من أجل سماعي أعزف الـ «كانْتسونيتّه».

فبعض مَن شهدوا في اليوم السّابق ما حصل مع الشّرطيّ عادوا مُحضِرين معهم أصدقاءهم. فرجال الشّرطة غير محبوبين كثيراً في تولوز، وقد كان النّاس يشعرون بالفضول ليروا كيف سينجو الشيخ الإيطاليّ من الورطة. ومع أنّ فيتاليس لم يقل سوى «إلى الغد سينيور»، فقد فهم الجميع أنّ هذا الموعد المضروب كان إعلاناً لعرضٍ مهمّ سيجدون فيه الفرصة للضّحك والتّسلية على حساب الشّرطيّ المرتبك والمتجهّم.

هذا ما يفسّر لهفة الجمهور.

ولذا فعندما رأوني وحدي مع جولي-كور، راح بعض المتفرّجين يقاطعونني ليسألوني ما إذا كان «الإيطاليّ» سيأتي.

- سيأتي بعد قليل، كنتُ أجيبهم، وأتابع عزف الـ «كانْتسونيتّه» والغناء.

---

(1) مقطوعة موسيقيّة راقصة نابوليتانيّة، نسبةً إلى نابولي، المدينة الإيطاليّة (المترجمة).

لكن الشّرطيّ هو الذي وصل وليس معلّمي. لمحه جولي-كور في البداية وسرعان ما وضع يده على خصره وأرجع رأسه إلى الخلف وراح يتمشّى حولي طولاً وعرضاً، متشنّجاً ومتوتّراً ومتّخذاً هيئة مضحكة.

فانفجر الجمهور بالضّحك وصفّق أكثر من مرّة.

ارتبك الشّرطيّ وراح يرمقني بنظراتٍ غاضبة.

وبالطّبع ضاعفَ ذلك ضحكَ الجمهور.

أنا نفسي كنتُ راغباً في الضّحك ولكنّني كنتُ من ناحية أخرى قلقاً. فكيف سينتهي كلّ ذلك؟ لو كان فيتاليس حاضراً لكلّمَ الشّرطيّ. ولكنّني كنتُ وحدي وأعترف بأنّني لم أكن أدري كيف أتصرّف إذا ما توجّه إليّ الشّرطيّ بالكلام.

لم تكن ملامح هذا الأخير تبشّر بالخير، فقد كان ثائراً يفعمه الغضب.

كان يروح ويجيء أمام حبالي، وعندما يمرّ أمامي كانت طريقته في النّظر إليّ شزراً تجعلني أخشى عاقبةً سيّئة.

وبدأ جولي-كور، الذي لم يكن يدرك خطورة الموقف، يسخر من سلوك الشرطيّ. كان يتمشّى مثله بمحاذاة الحبل ولكن من داخل الحلبة، فيما الشّرطيّ قابعٌ خارجَها، وعندما كان يمرّ أمامي كان ينظر إليّ شزراً متّخذاً هيئة شديدة الهزل تُضاعف من ضحك الجمهور.

لم أشأ أن أزيد من غيظ الشّرطيّ، لذا ناديتُ جولي-كور. لكنّ القرد لم يكن على استعدادٍ للطّاعة فقد كانت اللّعبة تسلّيه، فتابع نزهته راكضاً، وكان يهرب منّي كلّما أردتُ إمساكه.

لا أعرف كيف حصل الأمر، لكنّ الشّرطيّ، الذي لا بدّ أن يكون قد أعماه الغضب، تصوّرَ أنّني أشجّع القرد، فقفز بسرعةٍ فوق الحبل.

وبلحظةٍ وصل إليّ وشعرتُ بصفعةٍ كادت توقعني أرضاً.

عندما تمكّنتُ من استعادة توازني وفتحتُ عينيّ، كان فيتاليس، ولا أعرف كيف ظهرَ، واقفاً بيني وبين الشّرطيّ وممسكاً بقبضته.

- أمنعك من ضرب هذا الصبيّ. ما قمتَ به هو عملٌ جبان.

أراد الشرطيّ إفلات يده لكنّ فيتاليس شدّ قبضته.

مرّت بضع لحظات والرّجلان يتواجهان، كلّ منهما يُحدّق في عينَي الآخر بإمعان.

كان الشرطيّ في ذروة الغضب.

أمّا معلّمي فكان رائعاً في نُبلِه. كان رأسه المجلّل بالبياض مرفوعاً وعلى وجهه تعابير الزّعامة والاستنكار.

بدا لي أنّ الشرطيّ، إزاء تصرّفٍ كهذا، سيتراجع خجلاً، لكن ليس هذا ما حصل. بحركة قويّة، حرّر يده وأخذَ بخناق معلّمي ودفعه أمامه بعنف.

انتصب فيتاليس مستنكراً ورفع ذراعه اليمنى وضرب بقوّة قبضة الشرطيّ ليتحرّر منه، ثمّ سأله:

- ماذا تريد منّا في النّهاية؟

- أريد توقيفك. اتبعني إلى قسم الشرطة.

- لم يكن من داعٍ لضرب الولد من أجل تحقيق غايتك.

- ولا كلمة! اتبعني!



كان فيتاليس قد استعاد هدوءه بالكامل، فلم يردّ لكنّه التفت إليّ وقال لي:

- عدْ إلى النّزُل وابقَ هناك مع القرد والكلاب، وسأبعث لك بالأخبار.

لم يتمكّن من قول المزيد فقد قاده الشّرطيّ أمامه.

هكذا انتهى ذلك العرض الذي شاءه معلّمي مسلّياً ولكنّه أفضى إلى نتيجةٍ مُحزنة.

كانت الحركة الأولى للكلاب أن تبعتْ معلّمها، ولكنّ فيتاليس أمرَها بالبقاء قربي، فارتدّت على أعقابها، هي المعتادة على الامتثال. فانتبهتُ إلى أنّها كانت مكمّمة، ولكن بدل الكمّامة الحديديّة أو الشّبكة التي كان يُفترَض أن تُحيط بأنوفها، كان شريط تزيينيّ حريريّ معقوداً حول مَخاطمها بكلّ بساطة. كابي الأبيض الوبر كان شريطه أحمر، ودزربينو الأسود كان شريطه أبيض، ودولتشي الرّماديّة كان شريطها أزرق. كانت تلك كمّاماتٍ مسرحيّة.

كان الجمهور قد تفرّق بسرعة ولم يبقَ إلاّ بضعة أشخاص راحوا يناقشون ما حدث:

- الشّيخ محقّ!

- لا بل هو مُخطئ.

- لماذا ضرب الشّرطيُّ الولدَ وهو لم يفعلْ أو يقلْ له شيئاً؟

- إنّها لمشكلة. إذا ما اعتبر الشّرطيّ ما حصل عصياناً فلن يخرج الشيخ منها بلا سجن.

عدتُ إلى النّزُل شديد الحزن والقلق.

كنتُ كففتُ منذ وقتٍ طويل عن الخوف من فيتاليس. الحقّ، لم يدم شعوري هذا حياله إلاّ بضعَ ساعاتٍ، فسرعان ما ربطتني به محبّة صادقة كانت تزيد كلّ يوم. كنّا نتقاسم الحياة ذاتها، نبقى معاً من الصّباح حتّى المساء وغالباً من المساء حتّى الصّباح ذلك أنّنا كنّا نتقاسم للنّوم حزمة القشّ ذاتها. كان الاهتمام الذي يحيطني به يماثل اهتمامَ والدٍ بابنه. لقد علّمني القراءة والغناء والكتابة والحساب. ولطالما كرّس الوقت خلال رحلاتنا الطّويلة ليعلّمني أشياء مختلفة بحسب الظّروف والصّدف. في نهارات البرد القارس، كان يشاركني أغطيته وفي أيّام القيظ كان يساعدني دوماً على حمل الأمتعة والأغراض التي كنتُ مكلّفاً بحملها. على المائدة، أو بالأحرى أثناء تناول الطّعام، ذلك أنّنا في غالب الأحيان لم نكن نتناول الطّعام إلى المائدة، لم يكن يترك لي أبداً القطعة الصّغرى أو الأسوأ، بل بالعكس كان يقسم بيننا الحسنَ والرديءَ بمساواة. صحيح أنّه كان أحياناً يشدّ أذنيّ أو يضربني ضربةً خفيفة على رأسي، لكنّ تلك العقوبات لم تكن لتنسيني عنايته بي وكلماته اللّطيفة وكلّ تعابير الحنان التي أظهرها لي منذ لقائنا الأوّل. كان يحبّني وكنتُ أحبّه.

ولذا، فإنّ ذلك الانفصال آلمني بشدّة.

متى سنلتقي ثانيةً؟

لقد تحدّثوا عن السّجن. فكم يمكن أن يدوم ذلك؟

وماذا سأفعل أنا في تلك الأثناء؟ كيف سأعيش؟ وممّ؟

كان معلّمي معتاداً على حمل نقوده معه، وقبل أن يذهب مع الشّرطيّ لم يتسنّ له الوقت لإعطائي شيئاً من المال.

لم يكن في جيبي إلاّ بضعة فلوس، فهل ستكون كافية لإطعامنا كلّنا، أنا وجولي-كور والكلاب؟

هكذا أمضيتُ يومين نهبةً للقلق، لا أجرؤ على الخروج من باحة النُّزُل، وكنت أُزجي وقتي بالاهتمام بـجولي-كور وبالكلاب الحزينة القلقة.

أخيراً، في اليوم الثّالث أحضرَ لي رجلٌ رسالة من فيتاليس.

كان معلّمي يخبرني في تلك الرّسالة أنّهم قرّروا الإبقاء عليه في السّجن في انتظار مثوله أمام محكمة الجُنَح السّبت القادم بتهمة مقاومةِ رجلِ أمنٍ و«باستخدام العنف على شخص هذا الأخير».

ويضيف في رسالته: «بانقيادي للغضب ارتكبتُ خطأً كبيراً قد يكلّفني غالياً. تعالَ إلى المحاكمة، سيكون في الأمر فائدة لك ودرس».

ثمّ يتابع بإعطائي بعض النّصائح حول كيفيّة التصرّف، قبل أن ينهي رسالته بمصافحتي ويوصيني أن أداعب من طرفه كابي وجولي-كور ودولتشي ودزربينو.

فيما أقرأ الرّسالة، كان كابي واقفاً بين قدميّ، يضعُ أنفه فوق الرّسالة متشمّماً. أمّا حركات ذيله فكانت تقول لي إنّه عرف بصورة مؤكّدة بواسطة الشّمّ أنّ تلك الورقة مرّت بين يديّ معلّمه. كانت المرّة الأولى منذ ثلاثة أيّام التي يبدو فيها حَرِكاً وسعيداً.

بعدما استعلمتُ، قيل لي إنّ جلسة محكمة الجُنَح تبدأ في العاشرة. في السّاعة التّاسعة من يوم السّبت ذهبتُ وانتظرتُ على باب المحكمة وكنتُ أوّل الدّاخلين إلى القاعة. شيئاً فشيئاً، بدأت القاعة تمتلئ وتمكّنتُ من التعرّف على عدّة أشخاص كانوا موجودين خلال

المواجهة مع الشرطيّ.

لم أكن أعرف ما هي المحاكم وما هو القضاء، لكنّني بالغريزة كنتُ أشعر بخوفٍ هائلٍ منها. ورغم أنّ الأمر يتعلّق بمعلّمي وليس بي، كنتُ أشعر بأنّني في خطر. فاتّجهتُ صوب مدفأة كبيرة واختبأتُ خلفها. التصقتُ بالحائط وحاولتُ قدرَ الإمكان ألاّ ألفت النّظر إليّ.

لم يكن معلّمي أوّل المُحاكَمين، بل سبقه أشخاص كانوا قد سَرقوا أو تعاركوا، وكانوا كلّهم يدّعون البراءة، وكلّهم حُكِمَ عليهم. أخيراً، جاء فيتاليس وجلس بين شرطيّيْن على المقعد الذي جلس عليه كلّ أولئك الأشخاص قبله.

لا أعرف ما الذي قيل في البداية، ماذا سألوه وبما أجاب. كنتُ أكثرَ تأثّراً وارتباكاً من أن أتمكّن من سماع أيّ شيء أو على الأقلّ من فهم أيّ شيء. أضِفْ أنّني لم أكن أفكّر في السّماع، كنتُ أنظر فحسب. أنظر إلى معلّمي الواقف بشعره الأبيض الطّويل المسرّح إلى الخلف وقفةَ رجلٍ يشعر بالخزي والحزن. وأنظر إلى القاضي يطرح عليه الأسئلة. قال له:

– هكذا إذن، أنت تعترف بأنّك وجّهتَ ضربات إلى الشّرطيّ الذي كان يلقي القبض عليك؟

– لا، ليس ضربات يا سيّدي الرّئيس، بل ضربة واحدة وكان هدفها أن يفكّ خناقي. عندما وصلتُ إلى السّاحة حيث كنّا سنقدّم عرضنا الفنّيّ، رأيتُ الشرطيّ يوجّه صفعة للصبيّ الذي يرافقني.

– وهذا الصّبي، أهو ابنك؟

– لا يا سيّدي الرّئيس، لكنّني أحبّه كما لو كان ابناً لي. عندما رأيته

يضربه، أعماني الغضب فأمسكتُ بقوّةٍ يد الشرطيّ ومنعته من ضربه مرّة ثانية.

- وهل ضربتَه؟

- في الواقع، عندما أمسك بِخناقي نسيتُ من هو الرّجل الذي يهاجمني، أو بالأحرى لم أرَ فيه إلاّ الرّجل بدل أن أرى الشّرطيّ. فما كان إلاّ أن صدرت عنّي حركة غريزيّة وغير مقصودة.

- لا يجدر بمن هو في مثل سنّك أن يستسلم للانفعال!

- هذا صحيح. ولكن للأسف لا نتصرّف دوماً بالشكل المطلوب، وهذا ما أُدركه اليوم.

- سنستمع إلى الشرطيّ.

روى هذا الأخير الأحداث كما حصلت، لكنّه شدّد على الطّريقة التي جرت فيها السّخرية من شخصه ومن صوته ومن إيماءاته أكثر ممّا شدّد على الضّربة التي تلقّاها.

أثناءَ إدلاء الشرطيّ بشهادته، كان فيتاليس، بدل الإصغاء إليه بانتباه، يتطلّع في كلّ النّواحي. فهمتُ أنّه يبحث عنّي. فقرّرتُ الخروج من مخبأي وتسلّلتُ تحت نظرات الفضوليّين ووصلتُ إلى الصّفّ الأوّل.

رآني وانشرحَ وجهه الحزين. شعرتُ بأنّه كان سعيداً لرؤيتي ورغماً عنّي اغرورقت عيناي بالدّموع.

سأله القاضي:

- أهذا كلّ ما لديك لتقوله دفاعاً عن نفسك؟

- ليس لديّ ما أضيفه بخصوصي، ولكن للصّغير الذي أحبّه

بحنان والذي سيبقى وحيداً، له أطلب رأفة المحكمة وأرجوها أن تقصّر فترة انفصالنا قدرَ الإمكان.

كنتُ أعتقد أنّه سيُخلى سبيل معلّمي. لكن ليس هذا ما حصل.

تكلّم قاضٍ آخر لبضع دقائق ثمّ أعلن رئيس المحكمة بصوتٍ وقورٍ أنّ المدعوّ فيتاليس الذي أُثبتت عليه تهمة إهانة موظّفِ أمنٍ وتعنيفه، قد حُكم عليه بالسّجن لمدّة شهرين وبدفع غرامة ماليّة قدرها مائة فرنك.

شهران من السّجن؟!



من بين دموعي رأيتُ الباب الذي دخل منه فيتاليس يُفتَح. تبع هذا الأخير دركيّاً ثمّ أُغلق الباب.

شهران من الانفصال؟!

لكن إلى أين أذهب؟

الفصل الحادي عشر

في السفينة

عندما عدتُ إلى النّزل حزيناً وعيناي حمراوان وجدتُ صاحب النّزل عند باب الباحة الدّاخليّة ينظر إليّ ويطيل التّحديق.

ولّما أردتُ العبور واللّحاق بالكلاب أوقفني قائلاً:

- إذن، ماذا حلّ بمعلّمك؟

- لقد حُكِمَ عليه.

- بكمْ؟

- بشهرين من الحبس.

- والغرامة؟

- مائة فرنك.

- شهران ومائة فرنك، راح يردّد ثلاث مرّات أو أربعاً.

أردتُ متابعة سيري، إلاّ أنّه أوقفني من جديد.

- وماذا ستفعل خلال هذين الشّهرين؟

- لا أعرف يا سيّدي.

- آه! لا تعرف. أنت تملك ما يكفي من المال لتعيش وتُطعم حيوانات، أليس كذلك؟

- كلاّ يا سيّدي.

- أتعتمد عليّ إذن لإيوائك؟

– أوه! لا يا سيّدي، أنا لا أعتمد على أحد.

كم كانت تلك الجملة حقيقيّة! فأنا فعلاً لا أعتمد على أحد.

– حسناً أيّها الصّغير، تابعَ صاحب النّزل، أنا لا يمكنني إيواؤك بالدَّين طوال شهرين دون أن أكون متأكّداً من أنّني في نهاية المطاف سأسترجع أموالي. يجب أن ترحل.

– أن أرحل؟! لكن إلى أين تريدني أن أذهب يا سيّدي؟

– هذا لا يعنيني. أنا لستُ والدك ولا معلّمك، فلأيّ سببٍ أُبقيك عندي؟

ظللتُ مذهولاً لبعض الوقت. فبِمَ أجيب؟ كان ذلك الرّجل محقّاً. لمَ يُبقيني عنده؟ فأنا لا أشكّل له إلاّ إزعاجاً وعبئاً.

– هيّا يا صغير، خذ كلابك وقردك وانصرف. ستتركُ لي طبعاً حقيبة معلّمك، وعندما يخرج من السّجن سيأتي لأخذها فنتحاسب.

لمّا سمعتُ عبارته الأخيرة، خطرت لي فكرة:

– طالما أنت واثق من أنّه سيدفع لك حينئذٍ، دعني أبقى حتّى ذلك الحين، وأضِف نفقاتي إلى نفقات معلّمي.

– أتعتقد ذلك حقّاً يا صبيّ؟ يقدر معلّمك أن يدفع لي عن بضعة أيّام ولكنّ إقامة شهرين هي مسألة أخرى.

– سوف آكل بأقلّ قدر ممكن.

– وكلابك؟ كلاّ، يجب أن ترحل، ألا تفهم؟ سوف تجد عملاً وتكسب عيشك في القرى.

– ولكن يا سيّدي، كيف سيعثر عليّ معلّمي عندما يخرج؟ فهو سيأتي للبحث عنّي هنا.

- لن يكون عليك إلاّ أن تعود في اليوم المحدّد. وفي انتظار ذلك، اذهب وتنزّه لشهرين في الجوار، في مدن المياه المعدنيّة الحارّة: «بانيير» و«كوتريه» و«لوز» حيث يمكنك أن تكسب بعض المال.

- ماذا لو كتَبَ لي معلّمي؟

- سأحتفظ لك برسالته.

- ولكن، ماذا سيحصل إن لم أُجِبْه؟

- آه! إنّك تتعبني. قلتُ لك أن ترحل. يجب أن تخرج من هنا! وسريعاً! أعطيك خمس دقائق للرّحيل. وإذا وجدتُك هنا عندما أعود إلى الباحة، سيكون حسابك عندي!



فأدركتُ أنّ الالحاح لن يأتي بنتيجة، وكما قال صاحب النّزل كان «يجب الخروج من هنا».

دخلتُ إلى الإصطبل وحللتُ سلسلة الكلاب وجولي-كور، ثمّ أغلقتُ حقيبتي ووضعتُ حمّالة القيثارة على كتفي، وخرجتُ من

النّزل.

كان صاحب النّزل عند الباب يراقبني، فهتف لي:

- إن وصلتْ رسالة فسأحتفظ لك بها!

كنتُ مستعجلاً لمغادرة المدينة لأنّ كلابي لم تكن مكمّمة. فبمَ أجيب إن التقيتُ بشرطيّ؟ بأن لا مال لديّ لشراء الكمّامات؟ كانت تلك هي الحقيقة، إذ في النّهاية لم يكن معي إلاّ أحد عشر فلساً في جيبي، ولم تكن تكفي لمشترياتٍ كهذه. ألن يوقفني أيضاً؟ وبوجود معلّمي في السّجن، ماذا سيحصل للكلاب وجولي-كور إن سُجنتُ أنا أيضاً؟ ها أنا أصبحتُ قائد فرقة وربّ عائلة، أنا الطّفل البلا عائلة، وكنتُ أشعر بالمسؤوليّة.

وفيما أحثّ خطايَ، كانت الكلاب ترفع رؤوسها وتتطلّع إليّ بنظراتٍ لا يحتاج فهمها إلى الكلام: كانت جائعة.

أمّا جولي-كور الذي كان جاثماً على حقيبتي، فكان يشدّ أذني من حينٍ لآخر ليرغمني على الالتفات إليه. كان يفرك بطنه بإيماءة لم تكن أقلّ تعبيراً من نظرات الكلاب.

كنتُ أرغب أنا أيضاً في الحديث مثلهم عن جوعي، لأنّني مثلهم كلّهم لم أتغدَّ، ولكن ما الفائدة؟

لم تكن فلوسي الأحد عشر تكفي لتؤمّن لنا الغداء والعشاء. لذا كان علينا الاكتفاء بوجبةٍ واحدة نتناولها في منتصف النّهار فتكون لنا بمثابة غداء وعشاء.

كان النّزل الذي أقمنا فيه ومنه طُردنا لتوّنا قائماً في حيّ سان-

ميشال على طريق مونبلييه، لذا تبعتُ تلقائيّاً تلك الطّريق.

وفي استعجالي للفرار من المدينة حيث يمكن أن ألتقي برجال شرطة، لم يكن لديّ الوقت لأتساءل إلى أين تقود الطّرق. كلّ ما كنتُ أريده هو أن تحملني بعيداً عن تولوز والباقي لم يكن مهمّاً. فأنا لم أكن أؤثر الذّهاب إلى بقعة دون سواها، فأنّى ذهبنا سيطلبون منّا المال لقاء الطّعام والمأوى. أضِف أنّ مسألة السّكن كانت الأقلّ أهميّة بين همومنا، فالفصل كان دافئاً ونحن كان بوسعنا النّوم في العراء مُحتمين بدغلٍ أو بحائط.

ولكن ماذا عن الطّعام؟

أظنّ أنّنا ظللنا نمشي ما يقرب من ساعتين دون أن أجرؤ على التوقّف، مع أنّ نظرات الكلاب المتوسّلة باتت أكثر إلحاحاً، وجولي-كور يشدّ أذني ويفرك بطنه بإصرار متزايد.

أخيراً، لمّا اعتقدتُ أنّنا بتنا بعيدين جدّاً عن تولوز بحيث لم يعد لدينا ما نخشاه، أو على الأقلّ إن طُلب منّي أن أكمّم كلابي أمكنني القول «سأفعل ذلك غداً»، دخلتُ إلى أوّل مخبزٍ وجدته.

طلبتُ رطلاً ونصف رطلٍ من الخبز، فقالت لي الخبّازة:

- من الأفضل أن تأخذ رطلين، وذلك ليس بكثيرٍ لإشباع المجموعة كلّها. فهذه الحيوانات المسكينة يجب أن تتغذّى جيّداً!

ربّما لم يكن كثيراً على المجموعة رطلان من الخبز، فإذا لم نحتسب جولي-كور الذي لا يأكل قطعاً كبيرة، فإنّ ذلك يعني أنّ كلّ واحد منّا لن يحصل إلاّ على نصف رطل، ولكنّه كان كثيراً على ميزانيّتي.

كان رطل الخبز حينذاك يكلّف خمسة فلوس، وإذا أخذتُ رطلين

فسيكلّفانني عشرة فلوس ولن يبقى معي عندئذٍ من فلوسي الأحدَ عشرَ إلاّ فلس واحد.

إلاّ أنّني وجدتُ أنّ ثمّة الكثير من انعدام الحرص في الانجرار إلى هذا القدر من التّبذير قبل أن أؤمّن غدي. فبشراء رطلٍ ونصف رطلٍ من الخبز لا غير سأنفق سبعة فلوس وثلاثة سنْتيمات، وسيبقى لي للغد ثلاثة فلوس وسنْتيمان، أي ما يكفي لكي لا نموت جوعاً ولانتظار أن تسنح فرصة لتحصيل بعض المال.

قمتُ بالحساب بسرعة وقلتُ للخبّازة بنبرة حاولتُ جعلها واثقة إنّ الرّطل ونصف الرّطل يكفيان، ورجوتها ألاّ تقطع لي من الخبز أكثر.

- حسناً، حسناً، أجابتْ.

ومن رغيفٍ شهيّ من ستّة أرطال كنّا لو تمكنّا سنُجهِز عليه كلّه، قصَمتْ لي البائعة المقدار الذي طلبتُه ووضعته في الميزانِ، وضربتِ الميزانَ ضربة خفيفة قائلةً:

- هذا من أجل السّنْتيمين الباقيَين.

ثمّ أسقطتْ فلوسي الثّمانية في الدُّرج.

سبق أن رأيتُ أشخاصاً يرفضون السّنْتيمات التي تُردُّ لهم قائلين إنّها لن تنفعهم في شيء، لكن من جهتي ما كنت سأرفض السّنْتيمين اللّذين كانا من حقّي. مع ذلك لم أجرؤ على المطالبة بهما وخرجتُ دون أن أقول شيئاً، ضامّاً بقوّةٍ رغيف الخبز تحت ذراعي.

كانت الكلاب تقفز حولي فرحةً، وجولي-كور يشدّني من شعري مُصدِراً صرخات صغيرة.

لم نبتعد كثيراً.

لّما وصلنا إلى الشّجرة الأولى على الطّريق، أسندتُ قيثارتي إلى جذعها وتمدّدتُ على العشب. جلست الكلاب قبالتي، كابي في الوسط، ودولتشي ودزربينو من كلّ جهة. أمّا جولي-كور الذي لم يكن متعَباً فظلّ واقفاً ليكون مستعدّاً لسرقة القطَع التي تُعجبه.

كان تقطيع رغيف الخبز مسألةً حسّاسة. قسّمتُه إلى خمس قطع حاولت جعلها متساوية قدرَ الإمكان، ولكي لا يضيع جزءٌ من الخبز هدراً، رحتُ أوزّعه على شكلِ قطعٍ صغيرة. كلّ واحدٍ يحصل على قطعته بالدَّور كما لو كنّا نأكل بالقصعة.

كانت الحصّة الفضلى لجولي-كور، فهو كان يحتاج إلى أقلّ ممّا نحتاج إليه نحن، لذا شبعَ فيما كنّا، نحن، لا نزال نتضوّر جوعاً. أخذتُ من حصّته ثلاث قطعٍ خبّأتُها في حقيبتي لأعطيها لاحقاً للكلاب. بعد ذلك، ولّما كانت بقيتْ أربع قطع، حصل كلٌّ منّا على واحدة. كان ذلك وجبتنا وتحْلِيَتنا في الآن ذاته.

مع أنّ تلك الوليمة لم تكن ملائمة لإلقاء خُطبة، بدت لي اللّحظة مؤاتية لأتوجّه إلى رفاقي ببضعِ كلمات. فرغم أنّني كنتُ أعتبر نفسي رئيسهم[1]، فإنّني لم أكن أعتبُرني أعلى منهم مقاماً بما يعفيني من أن أشرح لهم ظروفنا الصّعبة.

لا بدّ أنّ كابي خمّن مقصدي لأنّه كان ينظر إليّ بعينيه الواسعتين

---

(1) في العديد من المواضع، يُشخّص ريمي «رفاقه»، حيوانات المجموعة، أي يعاملهم كأشخاص ويدعوهم رفاقه، ممّا فرض علينا أن نستخدم بخصوصهم صيغة جمع المذكّر العاقل أحياناً (المترجمة).

الذّكيّين والمفعمتين عطفاً.

قلتُ لهم:

- أجل يا كابي، أجل يا أصدقائي دولتشي ودزربينو وجولي-كور، أجل يا رفاقي الأعزّاء، لديّ نبأ سيّئ أعلنه لكم: إنّ معلّمنا سيبقى بعيداً عنّا طوال شهرين.

فصاح كابي:

- عوّووو!

- الأمرُ محزنٌ جدّاً له ولنا. فهو من كان يُعيلنا وفي غيابه سنُلفي أنفسنا في وضعٍ حرجٍ، فنحن لا نملك نقوداً.

عندما سمع كابي كلمة «نقود» التي يعرفها جيّداً، انتصب على قائمتيه الخلفيّتين وراح يدور كما لو كان يجمع التبرّعات في «صفوف الحضور الكريم».

فأردفتُ قائلاً:

- أنتَ تريد أن نقدّم عروضاً فنيّة؟ إنّها بلا شكّ نصيحة جيّدة، ولكن هل سننجح في تحصيل المال؟ هذا هو السّؤال. لكن اعلموا أنّنا إن لم ننجح، فليس لدينا إلاّ ثلاثة فلوس هي كلّ ثروتنا. سيكون علينا أن نصبر على الجوع. في ظلّ هذه الظّروف، آمل أن تكونوا مُدركين صعوبة الأوضاع التي نمرّ بها، فتضعون ذكاءكم في خدمة المجموعة ولا توقعوني في المشاكل. أطلب منكم الطّاعة والقناعة والشّجاعة. فلنرصّ صفوفنا واعتمدوا عليّ كما أعتمد أنا عليكم.

لا أجرؤ على القول إنّ رفاقي فهموا كلّ روعة خطابي المرتجل، ولكنّهم بالتأكيد خمّنوا فحوى عناوينه العريضة. كان غياب معلّمنا

يجعلهم يدركون أنّ أمراً خطيراً كان بصدد الحصول وكانوا ينتظرون منّي شرحاً. ولئن لم يفهموا كلّ ما قلته، إلاّ أنّهم على الأقلّ أرضاهم أسلوبي في التّعامل وإيّاهم وبرهنوا لي عن رضاهم بحسن إصغائهم.

عندما أقول حُسن إصغائهم، فإنّني أعني الكلاب وحدها، لأنّه كان يستحيل على جولي-كور أن يتمكّن من التّركيز طويلاً على الموضوع ذاته. خلال الجزء الأوّل من خطابي، كان يستمع إليّ وعليه أمارات الاهتمام الحادّ، ولكنْ بعد نحو عشرين كلمة، قفز إلى الشّجرة التي كانت أوراقها تغطّينا وراح يلهو بالتّأرجح قافزاً من فرعٍ إلى فرع. لو وجّه لي كابي إهانة كهذه لجرَحَني ذلك بالتأكيد، ولكن لا شيء ممّا يصدر عن جولي-كور كان يفاجئني. فهو لم يكن إلاّ قرداً طائشاً، وبلا دماغ. ثمّ، في النّهاية، كان من الطّبيعيّ أن يرغب في اللّهو قليلاً.

أعترف بأنّني كنتُ سأفعل مثله وأمضي متأرجحاً بكلّ سرور. إلاّ أنّ أهمّيّة منصبي والوقار الذي يفرضه لم يكونا يسمحان لي بتسليات كهذه.

بعد استراحة دامت لحظاتٍ، أعطيتُ إشارة الانطلاق. كان يجب أن نكسب ما يسمح لنا بالمبيت تلك اللّيلة، أو تأمين طعام غدنِا إن اضطُررنا، كما كان سيحصل على الأرجح، إلى النّوم في العراء على سبيل التّوفير.

بعد حوالى ساعةٍ من المسير، وصلنا عند تخوم قرية بدت لي ملائمة لتنفيذ مشروعنا.

من بعيد، كانت تبدو على قدرٍ من البؤس، ما يعني أنّ مدخولنا لن يكون إلاّ هزيلاً. ولكن لم يكن في ذلك ما يُثبّط عزيمتي، فأنا لم أكن

متطلّباً في مسألة المبلغ الذي سنحصل عليه، وكنتُ أقول في نفسي إنّه كلّما كانت القرية أصغر تضاءل احتمال لقائنا برجال الشّرطة.

قمتُ إذن بتحسينِ هندام ممثّليّ، ودخلنا القرية بأفضل ما استطعنا من انتظام. إلاّ أنّه كان ينقصنا للأسف مزمارُ فيتاليس وحضوره المهيب أشبه ما يكون بحضور قائد جوقةٍ عسكريّة، والذي كان يلفت إلينا الأنظار دوماً. لم يكن لي مثله امتيازُ طولِ القامة والمظهر المعبِّر. فبالعكس كانت قامتي شديدة القصر والنّحافة وعلى وجهي كانت تُقرأ ولا بدّ علامات القلق لا الثقة بالنّفس.

وفيما أمشي كنتُ أتطلّع ذات اليمين وذات اليسار لكي أرى التّأثير الذي نُحدثه، فوجدتُ أنّه كان متواضعاً. كان النّاس يرفعون رؤوسهم ثمّ يخفضونها من جديدٍ، ولم يكن أحد يتبعنا.

مع وصولنا إلى ساحة صغيرة في وسطها نافورة تُظلّلها أشجار الدّلب، تناولتُ قيثارتي ورحتُ أعزفُ لحنَ فالْس. كان اللّحن فرِحاً وأصابعي رشيقة ولكنّ قلبي كان حزيناً، وكان يبدو لي أنّي أحمل على كتفيّ حمْلاً شديد الثّقل.

قلتُ لدزربينو ودولتشي أن يقوما برقصة فالْس، فأطاعاني وبدآ



يدوران على الإيقاع.

إلاّ أنّ أحداً لم يكلّف نفسه عناء المجيء لمشاهدتنا مع أنّني كنتُ أرى عند عتبات البيوت نساءً يمارسنَ الحياكة أو يتحادثن.

واصلتُ العزف، واستمرّ دزربينو ودولتشي يرقصان الفالْس.

فربّما قرّر أحدهم الاقتراب منّا. وإن جاء شخص، فسيأتي عشرة ثمّ عشرين آخرين.

ولكن عبثاً عزفت وعبثاً رقص دزربينو ودولتشي، كان النّاس يلزمون بيوتهم، وما عادوا حتّى يتطلّعون صوبنا.

كان الوضع ميؤوساً منه.

إلاّ أنّني لم أيأس وكنتُ أعزف بمزيد من الحماس يجعل أوتار قيثارتي ترنّ حتّى تكاد تتقطّع.

فجأةً، ابتعد طفلٌ صغير، وكان من الصّغر بحيث كان على ما أعتقد يقوم بخطواته الأولى. ابتعد عن عتبة منزله ومشى في اتّجاهنا.

لا بدّ أنّ أمّه ستتبعه، وبعد الأمّ ستصل صديقة لها فنحصل على جمهور وبالتّالي على مدخول.

رحتُ أعزف عزفاً خفيفاً حتّى لا أخيف الطّفل ولكي أجذبه إلينا.

كان يقترب على مهلٍ، يداه ممدودتان وهو يتأرجح على وركيه.

كان يأتي. يقترب. تكفي خطوات قليلة ليصل إلينا.

رفعت الأمّ رأسها، وقد فاجأها على الأرجح وأقلقها عدم وجوده إلى جانبها.

وسرعان ما لمحتْه. ولكن بدل الرّكض خلفه كما كنتُ آمل، اكتفتْ

بمناداته. فما كان من الطّفل المطيع إلاّ أن رجعَ إلى أمّه.

ربّما لم يكن أولئك النّاس يحبّون الموسيقى. ذلك ممكن في النّهاية.

فطلبتُ من دزربينو ودولتشي أن يرتاحا ورحتُ أغنّي الـ «كانْتسونيتّه». أكيدٌ أنّني لم أغنّها يوماً بمثل ذلك التّركيز والحماس:

أيّتها المعشوقة القاسية، يا امرأةً مشؤومةً باطلة!

كم من الحسرات جرّعتِني!

كنتُ أستهلّ المقطع الثّاني عندما رأيتُ رجلاً يرتدي سترةً ويعتمر قبّعة يتوجّه صوبنا.

أخيراً!

رحتُ أغنّي بحماس إضافيّ.

- هووو! صرخ الرّجل، أنتَ أيّها القذر!

فتوقّفتُ وقد أذهلني نداؤه وظللتُ أنظر إليه قادماً نحوي فاغراً فمي.

- حسناً، متى تُقرّر أن تردّ؟ قال.

- كما ترى يا سيّدي، فأنا أغنّي.

- أتملك إذْناً بالغناء في ساحة بلدتنا؟

- كلاّ يا سيّدي.

- إذن ارحلْ من هنا، إن كنتَ لا تريد أن أحيلك إلى محاكمة.

- ولكن، يا سيّدي...

- نادِني «يا سيّدي النّاطور»، ودرْ على عقبيك وارحل أيّها المتسوّل

القذر!

ناطور؟ بفعلِ ما جرى مع معلّمي كنتُ أعرف ما يمكن أن يكلّفه التمرّد على النّواطير ورجال الشّرطة.

لذا لم أجعله يكرّر أمره مرّة ثانية، فاستدرتُ على عقبيَّ كما طلب وسرعان ما انتهجتُ الطّريق التي كنتُ وصلتُ منها.

متسوّل! ولكنّ ذلك غير صحيح. فأنا لم أكن أتسوّل، بل غنّيتُ ورقصتُ وكانت تلك طريقتي في العمل، فأيّ سوء ارتكبت؟

وبعد خمس دقائق كنتُ قد غادرتُ تلك البلدة غير المضيافة والخاضعة لحراسة مشدّدة.

كانت كلابي تتبعني مطأطئة رؤوسها ويبدو عليها الحزن. فقد فهمتْ بالتّأكيد أنّنا عشنا للتوّ تجربةً سيّئة.

من حينٍ لآخر، كان كابي يتخطّاني ثمّ يلتفت إليّ ويرمقني بصورة غريبة بعينيه الذّكيّتين. إنّ أيَّ كائنٍ سواه كان سيطالبني بتفسير. ولكنّ كابي كان كلباً حسن التّربية وشديد التّهذيب فلا يسمح لنفسه بطرح أسئلة متطفّلة. لذا كان يكتفي بالتّلميح إلى فضوله وكنتُ أرى فكّيه يرتجفان بفعل الجهد الذي كان يفرضه على نفسه ليمتنع عن النّباح.

عندما صرنا بعيدين بما يكفي لكي لا نخشى الوصول المباغت لأيّ ناطور، أومأتُ بيدي فتجمّعت الكلاب حولي في حلقة يتوسّطها كابي، جامداً في قلب الدّائرة وعيناه لا تغادران عينيّ.

كانت اللّحظة قد حانت لأقدّم لهم الشّرح الذي ينتظرونه.

- لقد طُردنا لأنّنا لا نملك إذناً لتقديم العروض، قلتُ لهم.

- وما العمل؟ سأل كابي بحركةٍ من رأسه.

- سننام في العراء، في أيّ مكان، ولن نتعشّى.

عندما لفظتُ العبارة «لن نتعشّى» صدرت عنهم دمدمات تعبّر عن استيائهم.

فأريتهم فلوسي الثّلاثة.

- تعرفون أنّ هذا هو كلّ ما تبقّى لنا. إن أنفقنا فلوسنا الثّلاثة هذه اللّيلة فلن يتبقّى ما يسمح لنا بالأكل غداً. وبما أنّنا أكلنا اليوم، فأنا أجد أنّ من الحكمة أن نفكّر في الغد.

قلتُ ذلك وأعدتُ الفلوس الثّلاثة إلى جيبي.

خفض كابي ودولتشي رأسيهما إذعاناً. إلاّ دزربينو الذي لم تكن طباعه حسنة دوماً، فضلاً عن كونه شرِهاً، فقد استمرّ بالهمهمة.

وجّهتُ له نظرات قاسية لكنّني لم أتمكّن من إسكاته، فالتفتّ إلى كابي قائلاً له:

- اشرحْ لدزربينو ما يبدو أنّه لا يريد فهمه. يجب أن نحرم أنفسنا اليوم من وجبة ثانية إن نحنُ أردنا أن تناول غداً وجبة واحدة على الأقلّ.

وسرعان ما تلقّفَ كابي رفيقه وبدا أنّ نقاشاً بدأ يدور بينهما.

لا تخالوا أنّ كلمة «نقاش» في غير محلّها لأنّها استُخدمت في الحديث عن حيوانين. فمن الثّابت أنّ لكلّ نوعٍ من الحيوانات لغةً خاصّة. إن كنتم سكنتم يوماً في منزلٍ له إفريزاتٌ أو نوافذ تبني فيها السّنونوات أعشاشها، فلا بدّ أنّكم تعرفون أنّ هذه الطّيور لا تغرّد من أجل إطلاقِ ألحانٍ لا هدف لها، بل إنّها مع انبلاج النّهار تروح تتخاطب بحماسة. تُطلِق زقزقاتٍ هي نقاشات فعليّة تتناول مسائل

جديّة أو كلمات مودّة تتبادلها الطّيور. أمّا النّمال التي تنتمي إلى السّرب نفسه، فلمَ برأيكم تروح تحكّ مجسّاتها بعضها إزاء بعضٍ عندما تلتقي في الدّرب؟ ماذا تظنّونها تفعل إن لم تسلّموا بأنّها تتواصل بشأن أمورٍ تهمّها؟ أمّا الكلاب، فإنّها لا تجيد الكلام فحسبُ بل تعرف القراءة أيضاً: انظروا إليها عندما ترفع رؤوسها أو عندما تخفضها لتشمّ الأرض بما عليها من حصى ونباتات، وعندما تتوقّف فجأةً أمام قبضة من الأعشاب أو أمام جدار تكون في الواقع تقرأ فيه أموراً شتّى غريبة، مكتوبة بحروفٍ سريّة لا نقدر حتّى أن نراها.

لم أسمع ما قاله كابي لدزربينو، لأنّه إذا كانت الكلاب تفهم لغة البشر، فالبشر من جهتهم لا يفقهون لغة الكلاب. انتبهتُ فحسبُ إلى أنّ دزربينو كان يرفض الاقتناع ويصرّ على أن ننفق على الفور الفلوس الثّلاثة. توجّب على كابي أن يغضب وأن يكشّر عن أنيابه حتّى يستكين دزربينو أخيراً هو الذي لم يكن يملك الشّجاعة الكافية لمواجهة رفيقه.

هكذا حُسِمَت مسألة العشاء ولم يتبقَّ أمامنا إلاّ إيجاد مكانٍ للنّوم.

كان الطّقس لحسن الحظّ جميلاً والنّهار دافئاً، ولم يكن النّوم في العراء في ذلك الفصل شديد الخطورة. كان يجب فحسبُ العثور على مكانٍ لا نكون فيه عرضةً لا للذّئاب إن وُجدت في تلك المنطقة، ولا للنّواطير، وكان ذلك يبدو لي أكثر خطورة بكثير، إذ كان علينا أن نخشى النّاس أكثر من غيرهم.

لم يكن علينا إذن سوى السّير في طريقٍ سالكةٍ إلى أن نجدَ لنا ملاذاً. وهكذا كان.

طالت الطّريق وتتالت الكيلومترات واختفى من السّماء ما تبقّى من وميض شمس الغروب الورديّ، ولم نكن عثرنا بعدُ على ذلك الملاذ.

كان يجب اتّخاذ قرار أيّاً تكن النتائج.

عندما قرّرتُ أن نتوقّف لننام كنّا في غابةٍ تتخلّلها هنا وهناك مساحات عارية تنتصب في وسطها صخور من الغرانيت. كان المكان حزيناً جدّاً ومُقفراً جدّاً، ولكن لم يكن لدينا خيارٌ آخر أفضل، كما أنّني فكّرتُ أنّه يمكننا أن نجد ملجأً يقينا برد اللّيل في وسط صخور الغرانيت تلك. أقول «يقينا» قاصداً نفسي وجولي-كور، أمّا الكلاب فلم أكن أخشى عليها من أن تُصاب بالحُمّى إن هي نامت في العراء. أمّا أنا، فكان وعيي للمسؤوليّة المُلقاة على عاتقي يُملي عليّ أن أُعنى بنفسي. فماذا سيحصل للفرقة إن أنا مرضتُ؟ ماذا سيحصل لي، إن توجّب عليّ معالجة جولي-كور؟

خرجنا عن الطّريق وشرعنا نمشي بين الحجارة. وسرعان ما لمحتُ صخرة ضخمة من الغرانيت مرتكزة بالمقلوب بحيث تشكّل قاعدتها ما يشبه التجويف وقمّتها سقفاً. في ذلك التّجويف، كوّمَت الرّياح فراشاً سميكاً من إبَر الصّنوبر اليابسة. كان يستحيل أن نعثر على ما هو أفضل: فراش نستلقي عليه وسقف يحمينا. لم يكن ينقصنا إلاّ كسْرة من الخبز للعشاء. لكن كان يجب ألاّ نفكّر في ذلك، ثمّ ألا يقول المثل: «مَن نام فكأنّه تعشّى»؟

قبل أن نخلد إلى النّوم، شرحتُ لكابي أنّني أعتمد عليه لحراستنا. والكلب الطيّب، بدل أن يأتي للنّوم معنا على إبَر الصّنوبر، بقيَ خارج

المأوى متمركزاً كحارس. كان بوسعي أن أطمئنّ، فقد كنتُ أعرف أنْ لا أحد سيقدر على الاقتراب منّا دون أن يُعلمني كابي بذلك.

لكن رغم اطمئناني للأمر، لم أنمْ على الفور بعدما تمدّدتُ على إبر الصّنوبر، فيما جولي-كور متلفّف قربي داخل سترتي، ودزربينو ودولتشي نائمان بشكلٍ دائريّ عند قدميّ؛ إذ كان قلقي أكبر بكثير من التّعب الذي كنت أشعر به.

ذلك أنّ النّهار، ذلك النّهار الأوّل من الرّحلة، كان سيّئاً، فكيف سيكون اليوم التّالي؟ كنتُ جائعاً وعطشان ولم يكن معي إلاّ ثلاثة فلوس. عبثاً لمستُها تلقائيّاً في جيبي، فلم تكن تزيد: واحد، اثنان، ثلاثة. كنتُ أتوقّف دائماً عند ذلك العدد.

كيف أجد القوت لفرقتي ولي أنا إن لم أتمكّن في الغد وفي الأيّام التّالية من تقديم العُروض؟ من أين أحصل على كمّامات وعلى إذْنٍ للغناء؟ أسيكون علينا أن نموت جوعاً في أقاصي غابةٍ أو وسَطَ أحد الأدغال؟

وفيما أُقلّب في ذهني كلّ هذه الأسئلة المُحزِنة، كنتُ أنظر إلى النّجوم تلمع فوق رأسي في عتمة السّماء. لم يكن هناك أيّة نسمة هواء. وحده الصّمتُ في كلّ مكان. لا حفيف أوراقٍ ولا صوت طائرٍ ولا ضجيج عربةٍ على الطّريق. وعلى مدى النّظر، في الأعماق المزرقّة، لا شيء سوى الفراغ. كم كنّا وحيدين ومتروكين!

شعرتُ بعينيّ تغرورقان بالدّموع، ثمّ فجأةً انفجرتُ بالبكاء: مسكينةٌ أمّي السيّدة باربُران! مسكينٌ فيتاليس!

كنتُ مضطجعاً على بطني أبكي ووجهي غارقٌ بين يديّ عاجزاً

عن التّوقّف، وإذا بي أشعرُ بلهاثٍ دافئ على شعري. استدرتُ بسرعة فلامسَ وجهي لسانٌ ضخمٌ ورقيقٌ ودافئ. كان ذلك كابي سمعني أبكي فأتى لمواساتي مثلما سبق أن أتى لنجدتي في اللّيلة الأولى من رحلتي.

أحطتُ عنقه بذراعَيّ ورحتُ أقبّل خطمه الرّطب، فأصدر آنّاتٍ عديدةً مكتومةً وبدا لي أنّه كان يبكي معي.

عندما استيقظتُ كان قد طلع النّهار وكان كابي جالساً قربي ينظر إليّ. كانت العصافير تغرّد بين الأغصان وفي البعيد البعيد كان جرسٌ يدقّ إيذاناً بطلوع الفجر، فيما الشّمس، التي كانت بلغتْ نقطةً من السّماء عاليةً، ترسلُ أشعّتها الدافئة والمؤنسة للقلب والجسم.

لم يدم اغتسالنا الصّباحيّ طويلاً، وانطلقنا متّجهين صوب مصدر رنين الجرس. فحيثُما وُجدتْ بلدة، كان هناك على الأرجح خبّاز. ومن نام بلا عشاء، أعلن جوعُه باكراً عن نفسِه.

كنتُ قد اتّخذتُ قراري: سأنفق فلوسي الثّلاثة ثمّ نرى.

عندما وصلنا إلى البلدة، لم أحتجْ أن أسأل عن مكان المخبز، إذ قادتنا أنوفنا إليه. في تلك اللّحظة كانت حاسّة الشمّ لديّ برهافة تلك التي تملكها كلابي، فاستشعرنا من بعيدٍ رائحة الخبز الحارّ الطيّبة.

كان رطلُ الخبز بخمسة فلوس، لذا فإنّ فلوسنا الثّلاثة لم تمنح كلاًّ منّا إلاّ قطعةً صغيرة من الخبز، فانتهى غداؤنا بسرعةٍ شديدة.

كان قد آن الأوان إذن للتحرّك والتّفكير في الوسائل التي ستسمح لنا بتحصيلِ مدخولٍ أثناء النّهار. لذا رحتُ أجوبُ البلدة باحثاً عن مكانٍ يلائم عرضنا الفنيّ، ومتفحّصاً كذلك وجوه النّاس في محاولة

لتخمين ما إذا كانوا سيستقبلوننا كأصدقاء أم سيناصبوننا العداء.

لم أكن أنوي تقديم العرض فوراً لأنّ الوقت لم يكن مناسباً. بل أردتُ استكشاف البلدة واختيار المكان الأفضل لإقامة العرض، ومن ثمّ العودة في وسط النّهار لنجرّب حظّنا.

كنتُ مستغرقاً في هذه الفكرة عندما سمعتُ فجأةً صراخاً خلفي. استدرتُ بسرعة فرأيتُ دزربينو يركض تلاحقه امرأة عجوز. لم يلزمني وقتٌ طويل حتّى أفهم سبب تلك المطاردة وذلك الصّراخ: كان دزربينو قد استغلّ انشغالي ليبتعد عنّي ويدخل بيتاً ويسرق منه قطعة لحمٍ حملها في فمه وهرب.

- اقبضوا على السّارق! كانت المرأة تصرخ، أوقفوه، أوقفوهم جميعاً!

عندما سمعتُ هذه الكلمات، شعرتُ بأنّني مُذنب أو على الأقلّ بأنّني أتحمّل مسؤوليّة الذّنب الذي ارتكبه كلبي، فرحتُ أركضُ أنا أيضاً. فبمَ أجيبُ إن طالبتني العجوز بثمن قطعة اللّحم المسروقة؟ كيف لي أن أدفع؟ وإن أوقفونا، أفلن يكون مصيرنا السّجن؟

عندما رأى كابي ودولتشي أنّني ألوذ بالفرار، لم يبقيا في المؤخّرة، بل كنتُ أحسّ بهما يجريان في عقبيّ. أمّا جولي-كور الذي كنتُ أحمله فوق كتفي فكان يتمسّك بعنقي لكي لا يقع.

لن يتمكّنوا من اللّحاق بنا والقبض علينا، ولكنّ الخشية كانت من أن يوقفنا آخرون خلال مرورنا أمامهم. وبالفعل كان ذلك ما ينوي القيام به شخصان أو ثلاثة كانوا يقطعون الطّريق. لكن كان هناك لحسن الحظّ زقاق معترض ينفذ إلى الشّارع الرّئيسيّ قبل المكان

الذي تتربّص لنا فيه مجموعة الأعداء تلك. فلذتُ به برفقة الكلاب، وظللنا مطلقين سيقاننا للرّيح حتّى صرنا في قلب الرّيف. لم أتوقّف إلاّ بعدما انقطع نفَسي، أي بعد مسافة كيلومترين على الأقلّ. عندئذٍ تجرّأتُ واستدرتُ لأتطلّع خلفي. لم يكن في إثرنا أحد. كان كابي ودولتشي لا يزالان يتبعانني عن قربٍ، في حين يتقدّم دزربينو راكضاً من مسافةٍ أبعد، ذلك أنّه توقّف على الأرجح لأكل قطعة اللّحم.

ناديتُه، لكنّ دزربينو كان يعرف أنّه استحقّ بفعلته تلك عقاباً شديداً، فتوقّف، وبدلَ أن يتقدّم صوبي، لاذ بالفرار.

لئن سرقَ دزربينو قطعة اللّحم تلك فإنّه فعل ذلك مدفوعاً بالجوع. إلاّ أنّني لم يكن بوسعيَ القبول بهذا السّبب لتبرير صنيعه. كانت تلك سرقة، وتجدر معاقبة الجاني، وإلاّ لاختلّ في فرقتي الانضباط. وعند القرية التّالية، ستحذو دولتشي حذو رفيقها وسينتهي الأمر بكابي نفسه بالسّقوط في غواية السّرقة.

لذا كان عليّ أن أُنزل بدزربينو عقاباً علَنيّاً. لكنْ كان ينبغي من أجل ذلك أن يقبل بالمثول أمامي، وهو ما لم يكن من السّهل إقناعه به.

فلجأتُ إلى كابي.

- اذهبْ وأحضِرْ لي دزربينو.

فانطلق على الفور لتنفيذ المهمّة التي أوكلته بها. إلاّ أنّه قَبِل بها باندفاعٍ أقلّ من المعتاد، وفي النّظرة التي وجّهها إليّ قبل الذّهاب بدا لي أكثرَ استعداداً للدّفاع عن دزربينو من أن يلعب دور الشّرطيّ لصالحي.

لم يعد عليّ إلاّ انتظار عودة كابي وسجينه، وهو أمرٌ كان يمكن أن يطول لأنّ دزربينو ما كان على الأرجح سيقبل بالعودة فوراً. إلاّ أنّ

ذلك الانتظار لم يكن مزعجاً لي. فقد كنتُ بعيداً جدّاً عن القرية ولم أكن أخشى الملاحقة. ثمّ إنّني كنتُ بعد الرّكض شديد التّعب وراغباً في الرّاحة قليلاً. ثمّ لمَ الاستعجال وأنا لم أكن أعرف أين أذهب ولم يكن لديّ ما أعمله؟

إلى ذلك، كان المكان الذي توقّفتُ فيه ملائماً جدّاً للانتظار والرّاحة. ففي ركضي على غير هدىً، كنتُ قد وصلتُ إلى ضفاف قناة الجنوب، وبعدما عبرتُ الجبال المغبرّة بعد مغادرتي تولوز ألفيتُني في أراضٍ خضراء نضرة، فيها مياه وأشجار وعشب ونبع صغير يجري عبر شقوق صخرة تغطّيها أعشاب تتساقط على شكل شلاّلات مزهرة على امتداد مجرى المياه. كان المشهد خلاّباً وكنتُ هناك في راحةٍ تامّة منتظراً عودة الكلبين.

انقضت ساعة دون أن أرى أيّاً منهما يعود، وكنتُ بدأتُ أشعر بالقلق عندما ظهر كابي وحده مطأطئاً رأسه.

- أين دزربينو؟

فاضّجع كابي في وضعيّةٍ تعبّر عن خوفه. تطلّعتُ إليه فإذا بي أنتبه إلى أنّ إحدى أذنيه كانت مدمّاة.

لم أحتج إلى شرحٍ لأفهم ما حصل: لقد تمرّد دزربينو على دور الشّرطيّ الذي أوكلتُه لكابي وقاومَه، وهذا الأخير الذي كان على الأرجح ينفّذ رغماً عنه أمراً يعتبره شديد القسوة، ترك نفسه يتعرّض للهزيمة.

هل كان ينبغي تأنيبه ومعاقبته هو أيضاً؟ لم أملك ما يكفي من الشّجاعة لذلك. ولم أكن أجرؤ على إيلام الآخرين، إذ كنتُ متألّماً بما

فيه الكافية من حزني الخاصّ.

لم يأتِ إرسال كابي في أعقاب دزربينو بنتيجة، لذا لم يتبقّ أمامي إلاّ حلّ واحد، وهو انتظار أن يقرّر دزربينو العودة بمفرده. كنتُ أعرفه، فهو بعد حركة التمرّد الأولى سيُذعن لتلقّي عقابه وسأراه يعود تائباً.

تمدّدتُ تحت شجرة تاركاً جولي-كور مربوطاً، وذلك خشيةً من أن يحلو له اللّحاق بدزربينو. وجلس كابي ودولتشي عند قدمي.

مرّ الوقت ودزربينو لم يظهر. ولم أنتبه كيف سيطر عليّ النّعاس فغفوت.

عندما استيقظت كانت الشّمس فوق رأسي والسّاعات تقدّمتْ. ولكنّني لم أحتجْ إلى الشّمس لأدرك أنّ الوقت تأخّر، فمعدتي كانت تصرخ بأنّها لم تأكل قطعةَ خبز منذ فترة طويلة. أمّا الكلبان وجولي-كور فكانوا هم أيضاً يُعربون لي عن جوعهم، كابي ودولتشي من خلال هيئة تثير الشّفقة وجولي-كور من خلال تكشيراته.

ودزربينو لم يظهر بعد.

ناديتُه، صفرت له ولكن عبثاً فهو لم يظهر. لا بدّ أنّه كان يهضم غداءه الجيّد تحت أحد الأدغال.

كان وضعي قد أصبح أكثر خطورة. فإن أنا رحلتُ فيمكن أن يضيع دزربينو بسهولة وألاّ يعثر علينا. وإذا ما بقيتُ في المكان فلن تسنح لي الفرصة لكسب بعض الفلوس لنأكل شيئاً.

وبالفعل، كانت حاجتنا للطّعام تصير أكثر فأكثر إلحاحاً. كانت عيون الكلبين معلّقة عليّ بيأس، فيما يفرك جولي-كور بطنه مُطلِقاً صرخات غضبٍ صغيرة.

ولمّا انقضى وقتٌ دون أن يعود دزربينو، أرسلتُ كابي من جديدٍ ليبحث عن صاحبه. لكنّه عاد بعد نصف ساعة وحيداً وأفهمني أنّه لم يعثر عليه.

ما العمل؟

رغم كون دزربينو مُذنباً، ومع أنّه وضعَنا كلّنا في موقف صعب، لم يكن بوسعي التخلّي عنه. فماذا سيقول معلّمي إن لم أُعِدْ إليه كلابه الثّلاثة؟ ثمّ إنّني، ورغم كلّ شيء، كنتُ أحبّ ذلك الكلب المحتال.

قرّرتُ إذن الانتظار حتّى المساء. لكن كان من المستحيل البقاء هكذا دون عملٍ أيّ شيء سوى الاستماع إلى بطوننا وهي تصرخ جوعاً، لا سيّما وأنّ صراخها كان قد غدا أكثر إيلاماً، ولم يعد يعرف الكلل، ولا كان يُسمَع سواه في غياب أيّ أمرٍ آخر يُلهينا عنه.

لذا كان يتوجّب اختراع شيء ما يشغلنا نحن الأربعة ويسلّينا.

فإذا تمكّنا من نسيان الجوع، فستكون وطأته أخفّ علينا خلال ساعات النّسيان تلك.

ولكن بمَ ننشغل؟

وفيما أفكّر في هذه المسألة، تذكّرتُ أنّ فيتاليس قال لي إنّه في سنوات الحرب عندما كانت كتيبةٌ تتعبُ بعد مسيرةٍ طويلةٍ، كانت تُعزف الموسيقى. ولدى سماع الألحان الفرِحة والحماسيّة كان الجنود ينسون تعبهم.

إن عزفتُ لحناً فرِحاً فقد ننسى جوعنا كلّنا. في كلّ الأحوال، بانشغالي بالعزف وانشغال الكلبين بالرّقص هما وجولي-كور، سيمرّ الوقت بأكثر سرعة.



فتناولتُ قيثارتي التي كنتُ أسندتُها إلى شجرة، وأدرتُ ظهري للقناة بعدما جعلتُ كلاً من ممثّلي فرقتي في موقعه، ثمّ بدأتُ أعزف لحناً راقصاً، أردفتُه بلحنِ فالْس.

في البداية لم يبدُ على ممثّليَّ أيّ حماسٍ للرّقص. كان أكيداً أنّهم يفضّلون رغيف الخبز أكثر بكثير. ولكنْ شيئاً فشيئاً بدأوا يتحرّكون وقد فعلت الموسيقى فعلها، فنسينا كلّنا رغيف الخبز الذي لم نكن نملكه ولم نعد نفكّر إلاّ في العزف والرّقص.

فجأةً سمعتُ صوتاً واضحاً، صوت ولدٍ يصرخ: «ممتاز!». كان الصّوت يأتي من خلفي، فاستدرتُ بسرعة.

كان ثمّة مركب ثابت في القناة ومقدّمته في اتّجاه الضّفة التي أنا عليها، في حين كان الحصانان اللّذان يقْطرانه يستريحان على الضّفّة المقابلة[1].

كان مركباً فريداً لم أرَ مثله من قبل. كان أقصرَ بكثيرٍ من الزّوارق التي تُستخدم عادةً في مخورِ القنوات، وفوق سطحه الذي لا يرتفع كثيراً فوق المياه شُيِّد ما يشبه مقصورة زجاجيّة. وفي مقدّمة المقصورة شرفة تظلّلها نباتات معرّشة تتدلّى أغصانها المعلّقة هنا وهناك على تعرّجات السّطح كشلاّلات خُضر. تحت الشّرفة لمحت شخصين: سيّدةً واقفةً لا تزال في طور الشّباب، تبدو عليها أمارات الحزن والنّبالة، وصبيّاً يكاد يكون في مثل سنّي بدا لي مستلقياً.

(1) واضح أنّ المركب الموصوف هو من نوع المراكب التي تتقدّم لا بقوّة محرّك ولا بالتّجذيف، بل تقْطرها بالحبال أحصنة تتقدّم على ضفّتي النّهر الذي يمخره المركب (المترجمة).

كان الصّبيّ على الأرجح هو الذي هتفَ «ممتاز».

بعدما زال عنّي وقعُ المفاجأة، إذ لم يكن في ذلك الظّهور المباغت ما يثير الخشية، رفعتُ قبّعتي شاكراً مَن صفّق لي.

- أتعزف لمتعتك الخاصّة؟ سألتني السيّدة وهي تتحدّث بلكنةٍ غريبة.

- كلاّ، بل من أجل أن يشتغل ممثّلو فرقتي... ولأتسلّى أيضاً.

أومأ الصّبيّ بإشارةٍ فانحنت السيّدة صوبه.

- أتقبل أن تعاود العزف؟ سألتني السيّدة وهي ترفع رأسها.

وكيف لا أريد أن أعزف؟! أن أعزف لجمهورٍ وصل إليّ في اللّحظة المناسبة! سارعتُ لتنفيذ الطّلب.

- أترغبان في رقصةٍ أم بتمثيليّة؟ سألتها.

- أوه! تمثيليّة! هتف الصّبيّ.

إلاّ أنّ السيّدة قاطعته لتقول إنّها تفضّل رقصة.

- ولكنّ الرّقصة سرعان ما تنتهي، قال الصّبيّ.

- بعد الرّقصة يمكننا إذا أردتُما تقديم ألعابٍ خفّةٍ متعدّدة، على غرار تلك التي تُقدَّم في السّيرك بباريس.

كانت هذه عبارة معلّمي وحاولتُ إلقاءها بأسلوب جزل. وبعد التّفكير، كان يلائمني أن يرفضا التمثيليّة، إذ سيربكني تنظيم العرض بسبب غياب دزربينو أوّلاً، ولأنّني لم أكن أملك الأزياء واللّوازم الضّروريّة.

فأمسكتُ بقيثارتي من جديد وبدأتُ أعزف لحنَ فالْس. وسرعان ما طوّق كابي خصر دولتشي بقائمتيه وراحا يدوران على الإيقاع. ثمّ

قدّم جولي-كور رقصة بمفرده، وتباعاً استعرضنا رصيدنا بكامله. لم نكن نشعر بالتّعب. فقد فهم ممثّليّ بلا شكّ أنّ عشاءً سيكون في انتظارهم جزاء مجهودهم، لذا لم يتخاذلوا وأعطوا كلّ ما لديهم مثلما فعلتُ أنا بدوري.

فجأةً، خلال إحدى الوصلات، رأيتُ دزربينو يخرجُ من خلف أحد الأدغال ولمّا مرّ أصحابه بالقرب منه، اتّخذ مكانه بينهم بوقاحةٍ وراح يؤدّي دوره.

جعلتُ أعزف مراقباً ممثليّ، وأنا أنظر من حينٍ لآخر إلى الصّبيّ الصّغير. والغريب أنّه، رغمَ ما كان يبدو عليه من استمتاع شديد بوصْلاتنا، لم يكن يتحرّك. كان متمدّداً في جمودٍ كاملٍ ولم يكن يحرّك إلاّ يديه ليصفّق لنا.

هل هو مُقعد؟ كان يبدو مربوطاً إلى لوحٍ خشبيّ.

شيئاً فشيئاً كان الهواء قد دفع المركب لصقَ الضّفة حيث كنتُ، بحيثُ بات يمكنني رؤية الصّبيّ كما لو كنتُ أقف قربه على المركب. كان أشقر الشّعر شاحب الوجه، شحوباً يمكن معه رؤية عروق جبينه الزّرقاء تحت بشرته الشّفّافة. كان في ملامحه رقّة وحزن، فضلاً عن شيء ما مَرَضيّ.

- ما ثمن التذاكر في مسرحك؟ سألتني السيّدة.

- الناس يدفعون بحسب المتعة التي يشعرون بها.

- إذن، ماما، يجب أن ندفع الكثيرَ، قال الصبيّ.

ثمّ أضاف بضع كلمات أخرى بلغةٍ لم أفهمها.

- يريد آرثر أن يرى ممثّليك عن قرب أكثر، قالت لي السيّدة.

أومأتُ إلى كابي الذي استعدّ للوثوب وقفز داخل المركب.

- والآخرون؟ هتف آرثر.

فلحق دزربينو ودولتشي بصاحبهما.

- والقرد!

لو شاء جولي-كور لَقفزَ بدوره بسهولة ولكنّني لم أثق يوماً بسلوكه. فهو متى صار داخل المركب كان بوسعه أن يقوم بألاعيب قد لا تعجب السيّدة.

- أهو مؤذٍ؟ سألتني هذه الأخيرة.

- كلاّ يا سيّدتي، لكنّه ليس مطيعاً دوماً وأخشى ألا يكون سلوكه ملائماً.

- اصعدْ معه إذن!

قالت ذلك وأومأت لرجلٍ كان يقف في المؤخّرة قرب دفّة القيادة. بسرعة عبرَ الرّجل إلى مقدّمة المركب ورمى بلوحٍ خشبيّ على الضّفة. كان ذلك جسراً سمح لي بالصّعود دون أن أغامر بقفزة خطرة، فدخلتُ المركب برصانةٍ حاملاً قيثارتي على كتفي وجولي-كور في يدي.

- القرد! القرد! هتف آرثر.

دنوتُ من الصّبيّ، وفيما كان يداعب جولي-كور ويلاعبه تسنّى لي الوقت لأتفحّصه بانتباه.

يا للغرابة! كان فعلاً مربوطاً إلى لوحٍ خشبيّ كما اعتقدتُ في البداية.

- أنتَ لديك أبٌ، أليس كذلك يا صغيري؟ سألتني السيّدة.

- أجل ولكنّني وحيدٌ الآن.

- أستظلّ كذلك طويلاً؟

- لمدّة شهرين.

- شهران؟! أوه! يا صغيري المسكين! كيف يمكن لصبيّ في مثلِ سنّك أن يبقى وحيداً كلّ هذه الفترة؟

- أنا مرغم على ذلك يا سيّدتي!

- لا بدّ أنّ معلّمك يرغمك على أن تُحضر له مبلغاً من المال في نهاية هذين الشّهرين، أليس كذلك؟

- كلاّ يا سيّدتي، هو لا يرغمني على شيء. حسبي أن أجد قوتي أنا وفرقتي.

- وهل نجحتَ في ذلك حتّى الآن؟

تردّدتُ قبل الإجابة، فأنا لم أكن رأيتُ في السّابق سيّدة توحي لي بالاحترام كتلك السيّدة التي راحت تسألني. إلاّ أنّها كانت تتوجّه إليّ بقدر كبير من الطّيبة، وصوتها كان على درجة عالية من الرّقّة، ونظرتها لطيفة ومشجّعة، فقرّرتُ أن أخبرها بالحقيقة. ثمّ لأيّ سبب كنتُ لن أفعل؟

فأخبرتها كيف أُرغمتُ على الانفصال عن فيتاليس الذي حُكم عليه بالسّجن لأنّه دافع عنّي، وكيف أنّني لم أتمكّن من تحصيل فلس واحد منذ غادرتُ تولوز.

كان آرثر أثناء كلامي يلاعب الكلاب، بيدَ أنّه كان ينصت ويسمع ما أقول.

- لا بدّ أنّكم تتضوّرون جوعاً! هتَفَ.

عندما سمعَتِ الكلاب هذه الكلمة المعروفة لديها جيّداً، شرعتْ تنبح، أمّا جولي-كور فراح يفرك بطنه بحماس شديد.

- آه، ماما! قال آرثر.

فهمت السيّدة نداء ابنها، فوجّهتْ بضع كلماتٍ بلغةٍ غريبة لامرأة كانت تمدّ رأسها من شقّ أحد الأبواب، وسرعان ما أحضرت هذه الأخيرة طاولة صغيرة عليها طعام.

- اجلسْ يا بنيّ، قالت لي السيّدة.

لم أتلكّأ في تلبية دعوتها، فوضعتُ قيثارتي جانباً وجلستُ بسرعة إلى المائدة. وما لبثت الكلاب أن اصطفّت حولي، فيما اتّخذ جولي-كور مكاناً على ركبتي.

- أتأكل كلابك الخبز؟ سألني آرثر.

أتأكل الخبز؟! أعطيت كلاًّ منها قطعةً فالتهمها.

- والقرد؟ قال آرثر.

ولكن لم يكن ما يدعو للاهتمام بـ جولي-كور، ففيما أقدّم الطّعام للكلاب، كان هو قد استولى على قطعةٍ من السّنبوسك وكاد يغصّ بها وهو يلتهمها تحت الطّاولة.

تناولتُ بدوري قطعة خبز. ومع أنّني لم أكدْ أغصّ بها كما حصل لجولي-كور، إلاّ أنّني التهمتُها بالنّهم ذاته على الأقلّ.

- يا للطّفل المسكين! كانت السيّدة تقول وهي تملأ كأسي ماءً.

أمّا آرثر فلم يكن يقول شيئاً، بل كان ينظر إلينا محملقاً، مندهشاً بلا ريبٍ من شهيّتنا، إذ كنّا جميعنا شديدي النّهم، حتّى دزربينو الذي كان يُفترض أنّه شبعَ بعض الشّيء بفضل قطعة اللّحم التي سرقها.

- وأين كنتم ستتعشّون اللّيلة لو لم نلتقِ؟
- أعتقد أنّنا ما كنّا سنتعشّى.
- وغداً، أين ستتعشّون؟
- ربّما يصادفنا الحظّ غداً ويحمل لنا لقاءً جيّداً كلقاء اليوم.

كفّ آرثر عن التّوجه إليّ بالكلام واستدار صوب أمّه، فدار بينهما حديثٌ باللّغة الأجنبيّة التي سبق أن أسمعاني إيّاها. بَدا أنّه يطلب شيئاً لم تكن هي مستعدّة للموافقة عليه، أو كان لها على الأقلّ اعتراضات بخصوصه.

فجأةً، أدار رأسه صوبي من جديدٍ، ذلك أنّ جسمه لم يكن قادراً على الحركة.

- أتريد البقاء معنا؟ قال.

نظرتُ إليه دون أن أجيب، فالسّؤال فاجأني كثيراً.

- ابني يسألك إن كنتَ تريد البقاء معنا.
- على المركب؟!
- أجل، على هذا المركب. إنّ ابني مريض، وقد أمرَ الأطبّاء بأن يبقى مربوطاً إلى لوحٍ خشبيّ كما ترى. وحتّى لا يضجَر آخذُه أنا في نزهة على متن هذا المركب. إذا أردتَ أمكنك البقاء معنا. ستقدّم كلابك وقردك العروض لآرثر الذي سيكون هو وحده جمهورها. أمّا أنت يا بنيّ، فستعزف لنا على القيثارة إذا طاب لك ذلك. هكذا تسْدون لنا خدمة ونحن من جهتنا قد نعود عليكم بالمنفعة. لن يكون عليكم البحث كلّ يوم عن جمهور، الأمر الذي ليس شديد السّهولة دوماً بالنّسبة لولدٍ في سنّك.

على مركب! لم أسافر يوماً في مركب، وكان ذلك من أغلى أمنياتي.
سأعيش على مركب، مقيماً فوق المياه، يا للسّعادة!

كانت هذه أوّل فكرة خطرت لي وبهرتني. كان ذلك حلماً!

بضع ثوانٍ من التّفكير كانت كافية لجعلي أدرك كلّ مكاسب هذا العرض بالنّسبة إليّ، وبالسّخاء الشديد الذي تُبديه المرأة التي تعرضه عليّ.

أخذتُ يد السيّدة وقبّلتها.

بدا أنّ تعبير الامتنان هذا أثّر فيها، وبعطفٍ، وبشيء من الحنان، مرّرت يدها على جبيني عدّة مرّات.

- يا للصّغير المسكين! قالت.

بما أنّ السيّدة وابنها يطلبان منّي العزف على القيثارة، بدا لي أنّني يجب ألاّ أتلكّأ في تنفيذ الرّغبة التي أبدَياها. كانت حماستي طريقةً بها أؤكّد إرادتي الصّادقة وامتناني في آنٍ معاً.

تناولتُ آلتي الموسيقيّة وذهبتُ إلى مقدّمة المركب ثمّ بدأتُ العزف.

في الآن ذاته، قرّبت السيّدة من شفتيها صفّارةً فضيّة صغيرة وأطلقت منها صوتاً حادّاً.

توقّفتُ فوراً عن العزف متسائلاً لمَ كانت تصفر هكذا: هل لتقول لي إنّ عزفي كان سيّئاً أم لتُسكِتني؟

بيد أنّ آرثر الذي كان منتبهاً لكلّ ما يحصل حوله خمّن قلقي.

- لقد صفّرت أمّي لكي تعاود الخيول الانطلاق، قال.

وبالفعل، بدأ المركب الذي كان قد ابتعد عن الضّفّة يجري فوق

مياه القناة السّاكنة تقْطرُه الخيول. كانت المياه تُطبطِب على الجزء الغاطس من المركب، ومن كلّ جهةٍ كانت الأشجار تهرب خلفنا وهي تضيئها الأشعّة المائلة لشمس الغروب.



- أتريد العزف؟ سألني آرثر.

وبإشارةٍ من رأسه استدعى أمّه إلى جانبه، أمسك يدها وأبقاها بين يديه فيما كنتُ أنا أعزف الألحان المتعدّدة التي علّمنيها معلّمي.



الفصل الثّاني عشر

صديقي الأوّل

كانت والدة آرثر إنجليزيّة، وتُدعى السيّدة ميليغان. كانت أرملة، وكنتُ أعتقد أنّ آرثر هو ابنها الوحيد، إلاّ أنّني سرعان ما عرفتُ أنّه كان لديها ابنٌ بكر اختفى في ظروف غامضة، ولم يتمكّنوا من العثور عليه. حصل ذلك عندما كان السيّد ميليغان على فراش الموت والسيّدة ميليغان شديدة المرض لا تعي شيئاً ممّا يجري حولها. عندما شُفيت وعادت إلى الحياة، كان زوجها قد توفّي وابنها البكر قد اختفى. صهرها جيمس ميليغان هو من قاد عمليّات البحث. لكنْ كان في ذلك الاختيار أمرٌ شديد الخصوصيّة، وهو أنّ مصلحة جيمس ميليغان كانت تتناقض تماماً ومصلحةَ زوجة أخيه. فبوفاة شقيقه من دون أولاد، يصير هو وريثه الوحيد.

بيدَ أنّ السيّد جيمس ميليغان لم يرثْ أخاه، لأنّ السيّدة ميليغان، بعد وفاة زوجها بسبعة أشهر، أنجبت طفلاً آخرَ هو الصّغير آرثر.

لكنّ ذلك الطّفل الضّعيف البنية والمعتلّ ما كان بإمكانه أن يعيش على ما قاله الأطبّاء الذين أكّدوا أنّه سيموت بين لحظةٍ وأخرى. وبحصول ذلك يرث السيّد جيمس ميليغان أخيراً لقب أخيه البكر وثروته. فقوانين الإرث ليست نفسها في كلّ البلدان، وفي حالات خاصّة تسمح هذه القوانين في إنكلترا للعمّ بأن يرث بدل الأمّ.

هكذا أخّرت ولادة ابن الأخ تحقّق آمال السيّد ميليغان. إلاّ أنّها لم تقضِ عليها تماماً، فهو لم يكن عليه إلاّ الانتظار.

فانتظرَ.

إلاّ أنّ تكهّنات الأطباء لم تتحقّق. ظلّ آرثر مريضاً ولكنّه لم يمت كما كان متوقّعاً. فالعناية التي أحاطته بها والدته جعلته يعيش. تلك معجزةٌ ظلّت تتكرّر لحسن الحظّ.

عشرين مرّة خالوا أنّهم فقدوه، وفي كلّ مرّة كان ينجو. تباعاً، لا بل حتّى تزامناً، أصابته كلّ الأمراض التي يمكن أن تصيب الأطفال.

وفي الفترة الأخيرة أصيب بمرضٍ خطيرٍ يُسمّى «الوُراك»، يُصيب الوركين تحديداً. ولكي يُشفى منه، نصح الأطبّاء أمّه بالمياه الكبريتيّة، فجاءت السيّدة ميليغان إلى جبال البيرينيس. وبَعدَ إخفاق معالجته بهذه المياه، أوصاها الأطبّاء بعلاجٍ آخر يقضي بالإبقاء على المريض مستلقياً لا تمسّ رجلاه الأرض.

لذا طلبت السيّدة ميليغان في بوردو بناء ذلك المركب الذي ركبتُ أنا فيه.

لم يكن بإمكانها التّفكير في ترك ابنها محبوساً في المنزل، فهو سيموت لا محالةَ من الضّجر ونقصان الهواء. فإذ لم يعد آرثر قادراً على المشي، كان على المنزل الذي يسكنه أن يمشي بدلاً منه.

لذا حُوِّل المركب إلى منزل عائم يحوي غرفةً ومطبخاً وقاعةَ استقبالٍ وشرفة. وفي قاعة الاستقبال تلك أو على الشّرفة، بحسب الأوقات، كان آرثر يمكث من الصّباح إلى المساء، أمّه إلى جانبه، والمَناظرُ تتعاقب أمامه، وما عليه إلاّ أن يفتح عينيه.

كانوا قد انطلقوا من بوردو منذ شهر، وبعدما صعدوا على امتداد نهر الغارونّ، دخلوا قناة الجنوب. عبر هذه القناة كانوا يريدون بلوغ البِرَك والقنوات المنتشرة على امتداد البحر الأبيض المتوسّط، قبل أن يصعدوا من جديدٍ عبر نهر الرّونّ، ثمّ السّونّ، ومن هذا النّهر في منطقة اللّوار إلى بريار حيث يقطعون القناة التي تحمل الاسم نفسه ويصلون إلى نهر السّين ثمّ يتبعون مجراه حتّى منطقة روان حيث سيُبحرون على متن باخرة كبيرة تعيدهم إلى إنكلترا.

لم أتعرّف في يوم وصولي إلاّ على الغرفة التي سأشغلها في المركب الذي يحمل اسم «البجعة». رغم صغرها الشّديد - متران طولاً وما يقرب من مترٍ عرضاً - كانت الحُجرة هي الأكثر سِحراً وعجائبيّةً التي يمكن أن تحلم بها مخيّلة طفل.

كان كلّ أثاثها عبارة عن صُوانة واحدة. إلاّ أنّ تلك الصّوانة كانت تشبه قارورة علماء الفيزياء التي لا ينضب ما فيها لانطوائها على أشياء كثيرة. فبدل أن يكون اللّوح العلويّ ثابتاً، كان متحرّكاً، وعندما نرفعه نجد تحته سريراً كاملاً بفراشه ومخدّته وغطائه. لم يكن السّرير واسعاً جدّاً طبعاً، لكنّه كان كبيراً بما يكفي لكي يكون النّوم فيه مريحاً. وتحت ذلك السّرير نجد دُرجاً مملوءاً بكلّ ما نحتاجه من ملبس وزينة. تحته، كان ثمّة دُرج آخر مقسّم إلى عدّة أقسام يمكن فيها توضيب البياضات من شراشف وملابس. لم يكن في الغرفة طاولات ولا كَراسيّ، على الأقلّ من الصّنف المعتاد، لكن كان هناك، لصق الحائط، عند الجهة العليا للسّرير، لوح صغير يصبح إذا ما أنزلناه

طاولةً، ومن الجهة السّفلى للسّرير لوح آخر يشكّل كرسيّاً.

وفي أحد جوانب المركب تُلمَح كوّة صغيرة يُغلِقها زجاج دائريّ، وظيفتها إضاءة الحجرة وتهويَتها.

لم أرَ قطّ غرفةً أجمل من تلك الغرفة، ولا أنظف. كان كلّ شيء ملبّساً بخشب الصّنوبر الملمّع، وعلى الأرضيّة الخشبيّة مُدٌّ مشمّعٌ تزيّنه مربّعات بيضاء وسوداء.

إلاّ أنّ الانبهار لم يكن يصيب العينين وحدهما.

فعندما نزعتُ ملابسي واستلقيتُ على السّرير، ملأني شعورٌ بالرّاحة والهناء جديدٌ عليّ. كانت تلك هي المرّة الأولى التي تداعب فيها الشّراشف بشرتي بدل أن تحكّها حكّاً. عند أمّي السيّدة باربُران، كنتُ أنام على شراشف من نسيج القنّب القاسي والخشن. ومع فيتاليس، كنّا ننام غالباً بلا أغطية، على القشّ أو التّبن، وعندما كنّا نُعطى أغطية في الأنزال فإنّ رداءتها كانت تجعلنا نتحسّر على فراش القشّ ذاك. ما أنعَم الأغطية التي كنتُ مدّثراً بها في المركب! ما أرقّها وما أطيبَ رائحتها! وكم كان الفراش وثيراً، بعكس إبَر الصّنوبر التي نمتُ عليها في اللّيلة السّابقة! ما عاد هدوء اللّيل مثيراً للقلق، والعتمة لم تعد مسكونة، والنّجوم التي كنتُ أنظر إليها من الكوّة لم تعد تقول لي إلاّ كلمات التّشجيع والأمل.

لكن بالرّغم من الرّاحة التي شعرتُ بها وأنا نائمٌ في ذلك السّرير، نهضتُ مع انبلاج الفجر قلقاً لأرى كيف أمضى ممثّليّ ليلتهم.

وجدتُ جماعتي في المكان الذي كنت في اللّيلة السّابقة قد تركتهم فيه، نائمين كما لو كان ذلك المركب مسكنهم منذ شهور عديدة.

لدى اقترابي استيقظت الكلاب وجاءت مسرورةً تطالب بمداعبة الصّباح. وحده جولي-كور لم يتحرّك، ومع أنّ إحدى عينيه كانت نصف مفتوحة راح يشخر مثلَ بوق.

لم يكن يلزم الكثير من الفطنة لفهم فحوى ذلك: كان السيّد جولي-كور هو الحساسيّة متجسّدةً، وكان يغضب بسهولة كبيرة. وعندما يغضب كان يَحْرد لوقتٍ طويل. وفي الظّروف التي كنّا فيها، كان مغتاظاً لأنّني لم أصطحبه إلى غرفتي، لذا كان يعبّر لي عن استيائه باصطناع النّوم.

لم يكن بوسعي أن أشرح له الأسباب التي أرغمتني مع شديد الأسف على تركه على سطح المركب. ولأنّي كنتُ أعتقد بارتكابي خطأً في حقّه، ظاهريّاً على الأقلّ، فقد حملته بين ذراعيّ لأعبّر له عن أسفي ببضع مداعبات.

في البداية أصرّ على حرَده، ولكنّه، وبفضل مزاجه القلّب، سرعان ما انشغل بأمرٍ آخر، وراح يشرح لي بالإيماءات أنّه مستعدّ لمسامحتي إن أنا قبِلتُ باصطحابه في نزهة على اليابسة.

كان البحّار الذي رأيتُه في العشيّة إلى جانب الشّراع قد استيقظ، وكان منهمكاً في تنظيف سطح المركب. فقبِلَ بأن يمدّ اللّوح الخشبيّ وتمكنّا أنا وفرقتي من النّزول إلى المرج.

مرّ الوقت بسرعة وأنا ألاعب الكلاب وجولي-كور، نركض ونقفز فوق الحُفَر ونتسلّق الأشجار. ولمّا عدنا كانت الخيول قد شُدّت إلى المركب من جهة، ورُبطت من جهة أخرى إلى شجرة حَورٍ تنتصب في طريقها، وما كانت تنتظر إلاّ ضربةَ سوطٍ لتبدأ تقْطر المركب من جديد.

صعدتُ إلى المركب بسرعة، وبعد دقائق حُلّ الحبل الذي كان يُثبّت المركب إلى الضّفة، واتّخذ البحّار مكانه عند دفّة القيادة. امتطى الجرّار حصانه وسُمع صرير البَكرة التي تعبر فيها الحبال القاطرة للسّفينة: كنّا قد عاودنا الانطلاق.

كم هو ممتعٌ السّفرُ بالمركب! كانت الخيول تخبّ فيما تقْطرنا، ومن دون أن نشعر بأدنى حركة، كنّا ننزلق بهدوء على صفحة الماء. كانت الضّفّتان المشجّرتان تفرّان خلفنا، ولم يكن يُسمع إلاّ ضجيج ارتطام المياه بهيكل المركب، وكان ذلك الضّجيج يمتزج برنين الأجراس المشدودة إلى رقاب الخيول.

كنّا نتقدّم، وكنتُ أنا منحنياً على حافّة المركب أنظر إلى أشجار الحَور الغارقة جذورها في العشب النّضر، والتي كانت تنتصب بزهوٍ محرّكةً في الهواء الصّباحيّ السّاكن أوراقها المتراقصة دوماً. كان صفّها الطّويل والمنتظم على كلتا الضّفّتين يشكّل ستارة خضراء سميكة تحجب أشعّة الشّمس المائلة فلا يصلنا منها إلاّ ضوءٌ رائقٌ خفّفتْ من حدّته الأغصان.

من مكانٍ لآخر كانت المياه تبدو سوداء كما لو كانت تخبّئ أعماقاً لا يُسبر لها غور. في حين كانت في أماكن أخرى تمتدّ في طبقات شفّافة يمكن عبرَها رؤية الحصى اللاّمع والأعشاب المخمليّة.

كنتُ مستغرقاً في التّأمّل عندما سمعتُ خلفي صوتاً يناديني.

استدرتُ بسرعة: كان ذلك آرثر وقد أحضروه ممدّداً على اللّوح وإلى جانبه أمّه.

- هل نمتَ جيّداً؟ سألني آرثر وأضاف: أفضل من النّوم في

الحقول؟

اقتربتُ وأجبتُه مفتّشاً عن كلمات مهذّبة توجّهتُ بها للأمّ والابن على السّواء.

- والكلاب؟ قال.

ناديتُ الكلاب وجولي-كور، فهُرِعوا وألقت الكلاب التحيّة، أمّا جولي-كور فصدرت عنه تكشيرة شبيهة بتلك التي يقوم بها عندما يحسّ بأنّنا سنقدّم عرضاً.

ولكنّنا لم يكن مطلوباً منّا أن نقدّم أيّ عرض ذلك الصّباح.

كانت السيّدة ميليغان قد أجلست ابنها في منأىً عن أشعّة الشّمس واتّخذت لنفسها مكاناً قربه.

- أيمكن أن تُبعد الكلاب والقرد؟ قالت لي وأضافتْ: فنحن علينا أن نعمل.

فعلتُ ما طُلب منّي وابتعدتُ مع فرقتي إلى مقدّمة المركب.

أيّ عملٍ كان ذلك الصّغير المريض المسكين يقدر عليه؟

لاحظتُ أنّ أمّه كانت تجعله يردّد نصّاً تتتبّعه هي في كتابٍ مفتوح.

كان آرثر متمدّداً على اللّوح يردّد الدّرسَ دون أن يقوم بأيّ حركة.

كان بالأحرى يحاول أن يردّد الدّرس، ذلك أنّه كان يتردّد كثيراً ولم يكن قادراً على قول ثلاث كلمات متالية بسهولة، وغالباً ما كان يُخطئ.

كانت أمّه تصحّح له برقّة وبحزم.

- أنتَ لم تحفظ الحكاية، قالت له.

توهّمتُ أوّل الأمر أنّها تتوجّه إلى ابنها بصيغة التعظيم («أنتم لم

تحفظوا الحكاية») واستغربتُ ذلك، فأنا لم أكن أعرف أنّ لغة الإنجليز تستخدم الضّمير نفسه للمخاطَب المفرد والجمع.

- أوه! أمّاه، قال بصوتٍ حزين.

- أنت ترتكب اليوم أخطاءً أكثر ممّا ارتكبتَ أمس.

- ولكنّني حاولتُ حفظها.

- ولكنّك لم تحفظها.

- لم أقدر.

- لمَ؟

- لا أدري... لأنّني لم أقدر... فأنا مريض.

- عقلك ليس مريضاً. لن أقبل ألاّ تتعلّم شيئاً وأن تكبر في الجهل بحجّة المرض.

كانت السيّدة ميليغان تبدو لي شديدة القسوة ومع ذلك كانت تتكلّم بلا غضبٍ وبنبرة ملؤها رقّة.

- لماذا تُحزنني بعدم حفظ دروسك؟

- أنا لا أستطيع يا أمّي، أؤكّد لكِ أنّني لا أستطيع.

وبدأ آرثر يبكي.

إلاّ أنّ السيّدة ميليغان لم تترك دموع ابنها تزعزعها، رغم أنّه بدا عليها التّأثّر والحزن كما قالت. أردفتْ قائلةً:

- كنتُ سأتركك تلعب هذا الصّباح مع ريمي والكلاب، ولكنّك لن تلعب إلاّ عندما تكون ردّدتَ حكايتك من دون خطأ.

قالت ذلك، وأعطت آرثر الكتاب وخطت عدّة خطوات كما لو أنّها تتوجّه إلى داخل المركب تاركةً ابنها متمدّداً على اللّوح الخشبيّ.

كان يبكي بحرارة ومن مكاني كنتُ أسمع نحيبه المتقطّع.

كيف يمكن أن تكون السيّدة ميليغان قاسية مع هذا الصّغير المسكين الذي كان بادياً أنّها تحبّه بشدّة؟ إذا لم يكن قادراً على حفظ الحكاية التي اختارتها له، فليس هو السّبب بل مرضه على الأرجح.

كانت على وشك المغادرة دون أن توجّه له أيّة كلمة تعاطف.

إلاّ أنّها لم تذهب، وبدلاً من الدّخول إلى المركب، عادت صوب ابنها وقالت له:

- أتريد أن نحاول حفظها سويّة؟

- آه! أجل ماما، سويّةً.

فجلستْ إلى جانبه وأمسكتِ الكتاب من جديدٍ وراحت تقرأ الحكاية بهدوء، وكان عنوانها: «الذّئب والحمَل»، وكان آرثر يعيد خلفها الكلمات والجُمَل.

بعدما قرأت الحكاية ثلاث مرّات، أعطت الكتاب لآرثر وهي تقول له أن يحفظها عن ظهرِ قلبٍ بمفرده ودخلتِ المركب.

فوراً بدأ آرثر يقرأ حكايته، ومن مكاني كنتُ أراه يحرّك شفتيه.

كان واضحاً أنّه يعمل باجتهاد.

إلاّ أنّ اجتهاده لم يدم طويلاً، وسرعان ما رفع عينيه عن كتابه وبدأت شفتاه تتحرّكان بأكثر بطئاً ثمّ توقّفتا تماماً على حين غرّة.

كان قدّ كفّ عن القراءة ولم يعد يدرس.

عيناه اللّتان كانتا تتجوّلان هنا وهناك التقتا بعينيّ.

أومأتُ له بإشارةٍ من يدي لأشجّعه على معاودة الدّرس.

فابتسم لي بلطف كما لو ليقولَ لي إنّه يشكرني لتنبيهه، ثمّ عادت

عيناه تتركّزان من جديدٍ على الكتاب.

ولكنّهما سرعان ما غادرتا الكتاب وراحتا تتنقّلان من ضفّة لأخرى على القناة.

وبما أنّه لم يعد ينظر ناحيتي فقد وقفتُ ولفتُّ نظره وأشرتُ إلى كتابه.

فعاد إليه وعليه علامات الخجل.

بعد دقيقتين، عبَر القناة طائرُ رفرافٍ خطفَ سريعاً كالسّهم ومرّ أمام المركب مخلّفاً وراءه شعاعاً أزرق.

فرفع آرثر رأسه ليتابعه.

وعندما اختفى الطّائر، نظر إليّ. ثمّ قال لي:

- لا أستطيع. مع أنّني أرغب في ذلك.

فدنوتُ منه.

- ولكنّ هذه الحكاية ليست صعبة، قلتُ له.

- آه بلى! هي بالعكس صعبةٌ جدّاً.

- بدت لي من السّهولة بمكان، وبسماعي والدتك تقرأها، إخال أنّني حفظتُها.

راح آرثر يبتسم بشيء من الشّكّ.

- أتريد أن أتلوها عليك؟

- ما الفائدة، طالما أن ذلك أمر مستحيل؟

- كلاّ، ليس بالمستحيل. أتريدني أن أحاول؟ خذ الكتاب.

فتناولَ الكتاب ثانيةً ورحتُ أنا أتلو عليه الحكاية، فلم يضطرّ لتصحيحي إلاّ ثلاث مرّات أو أربعاً.



- إنّك تعرفها! كيف يمكن ذلك؟ هتف قائلاً.

- ليس تماماً، ولكنّني أعتقد أنّني قادرٌ الآن على إعادتها بلا أخطاء.

- وماذا فعلتَ كي تحفظها عن ظهر قلب؟

- لقد استمعتُ إلى أمّك تقرأها، لكنّني استمعتُ إليها بانتباه دون أن أنظر إلى ما يحدث حولنا.

فاحمرّ وجهه وأدار عينيه. ثمّ بعد لحظة الخجل تلك، قال:

- أفهم كيف أصغيت، وسأحاول جاهداً أن أصغي مثلك. ولكن كيف تمكّنتَ من حفظ كلّ هذه الكلمات التي تختلط في ذاكرتي أنا؟

كيف فعلتُ ذلك؟ لا أعرف بالضّبط لأنّني لم يسبق أن فكّرتُ في الأمر. ولكنّني حاولتُ أن أستوعب الأمر وأشرحه له. فقلتُ له:

- عمّ تتحدّث هذه الحكاية؟ عن خروف. لذا أبدأ بالتّفكير في الخراف. ثمّ أروح أفكّر في ما تقوم به: «كانت الخراف في حظيرتها آمنة». فأرى خرافاً متمدّدة ونائمة في حظيرتها طالما هي بأمان، وإذ

أتصوّرها على هذه الشّاكلة فأنا لا أعود أنساها.

- حسناً، قال، أنا أيضاً أراها: «كانت الخراف في حظيرتها آمنة». أرى خرافاً بيضاء وسوداء، وأرى نعاجاً وحملاناً. يمكنني حتّى رؤية الحظيرة، إنّها مصنوعة من سياج من القصب.

- أيعني هذا أنّك لن تنساها بعد اليوم؟

- أوه! كلاّ.

- ومن الذي يحرس الخراف عادةً؟

- الكلاب.

- وعندما لا تكون الكلاب مضطرّة لحراسة الخراف لأنّ هذه الأخيرة بأمان، ماذا تفعل الكلاب؟

- لا شيء.

- إذن يمكنها النّوم، فنقول: «كانت الكلاب نائمة».

- صحيح، هذا سهل جدّاً.

- أرأيت؟ فلنفكّر الآن في أمرٍ آخر. من يحرس الخراف بالإضافة إلى الكلاب؟

- الرّاعي.

- وعندما تكون الخراف بأمان، ولا شيء يفعله الرّاعي، فبأيّ شيء يمكن أن يُزجي الوقت؟

- بالعزف على النّاي.

- أتتخيّله؟

- أجل.

- أين هو الآن؟

- في ظلال شجرة دردار كبيرة.

- أهو وحده؟

- كلاّ. إنّه برفقة رعاة آخرين من جيرانه.

- إذا كنتَ ترى إذن الخراف والحظيرة والكلاب والرّاعي، أفلا يمكنك أن تكرّر بداية الحكاية من دون خطأ؟

- أعتقد ذلك.

- حاولْ.

أثناء سماعي أتكلّم معه على هذه الشّاكلة وأشرح له كم يمكن أن يكون سهلاً حفظ حكاية كانت تبدو له صعبةً في البداية، نظر إليّ آرثر بتأثّر وخشْية، كما لو لم يكن مقتنعاً بحقيقة ما أقوله. مع ذلك، وبعد ثوانٍ من التّردّد، قرّر المحاولة.

- «كانت الخراف في حظيرتها آمنة، والكلاب نائمةً، وكان الرّاعي قاعداً في ظلّ شجرة دردار كبيرة يعزف على النّاي بصحبةِ جيرانه الرّعاة».

وعندئذٍ صفّق بيديه وهتف قائلاً:

- لقد حفظتُها! وبلا أخطاء.

- أتريد أن أعلّمك بقيّة الحكاية بالطّريقة ذاتها؟

- أجل، فأنا متأكّد أنّني سأحفظها معك. آه! كم ستكون أمّي سعيدة!

وراح يحفظ بقيّة الحكاية كما حفظ الجزء الأوّل منها.

وفي أقلّ من ربع ساعة حفظها تماماً وكان يعيدها بلا خطأ عندما ظهرت أمّه خلفنا.

في البداية أغضبتْها رؤيتنا مجتمعيْن إذ اعتقدت أنّنا لم نكن معاً إلاّ لنلهو، إلاّ أنّ آرثر لم يترك لها المجال لتقول شيئاً.

- لقد حفظتُها، هتفَ قائلاً، وهو من علّمني إيّاها.

حدجتْني السيّدة ميليغان بنظرة اندهاش، وكانت على وشك أن تطرح عليّ السّؤال، عندما بدأ آرثر، ودون أن تطلب منه هي ذلك، يعيد عليها حكاية «الذّئب والحمَل». كان يعيدها وعلى وجهه علائم الانتصار والزّهو، دون تردّد أو خطأ.

كنتُ إبّان ذلك أتأمّل السيّدة ميليغان. فرأيتُ ابتسامةً ترتسم على وجهها الجميل، ثمّ بدا لي أنّ عينيها كانتا تغرورقان بالدّموع. لكنّها انحنت في تلك اللّحظة على ابنها لتقبّله بحنان وهي تحيطه بذراعيها، فلم أعرف ما إذا كانت تبكي حقّاً. أمّا آرثر فكان يقول:

- الكلمات أمرٌ سخيفٌ ولا تعني شيئاً، أمّا الأشياء فبالإمكان رؤيتها. وريمي جعلني أرى الرّاعي مع نايه. لذا فعندما كنتُ أرفع عينيّ عن الكتاب كنت لا أعود أفكّر في ما يحيط بي، بل أرى ناي الرّاعي وأسمع اللّحن الذي يعزفه. أتريدين أن أغنّي لكِ ما كان يعزفه يا أمّاه؟

وراح يغنّي بالإنجليزيّة أغنية حزينة.

تلك المرّة لم تتمكّن السيّدة ميليغان من حبس دموعها، وعندما نهضتْ رأيتُ دموعها تلك على خدّي ابنها. فاقتربتْ منّي وأمسكتْ يدي وشدّت عليها برفقٍ أثّر بي:

- أنت صبيّ طيّب، قالت لي.

لئن رويتُ هذه الحادثة، فلإيضاح التغيير الذي طرأ على مكانتي

بدءاً من ذلك النّهار. كنتُ في اليوم السّابق قد استُقبِلتُ كمرقّصِ حيواناتٍ يسلّي بكلابه وقرْده ولداً مريضاً. ومنذ ذلك الدّرس صار يُنظَر إليّ ككائن مُنفرد، بغضّ النّظر عن الكلاب والقرد؛ صرتُ رفيقاً، لا بل شبه صديق.

ينبغي أن أنوّه أيضاً، وعلى الفور، بما لم أعرفه إلاّ فيما بعد، وهو أنّ السيّدة ميليغان كانت حزينة لرؤية ابنها لا يتعلّم شيئاً أو بالأحرى عاجزاً عن تعلّم أيّ شيء. فرغم مرضه، كانت تريد له أن يدرس. ولأنّ مرضه ذاك بالتّحديد كان مرشّحاً لأن يطول أمده، فهي كانت تريد أن تمنح عقله عاداتٍ تسمح له بالتّعويض في اليوم الذي يُشفى فيه عن زمنه الضّائع.

وحتّى ذلك الحين، لم تكن نجحتْ في ذلك. فلئن لم يكن آرثر حروناً في ما يتعلّق بالدّرس، إلاّ أنّه كان كذلك من جهة الانتباه والتّركيز. كان يأخذ الكتاب الذي يوضع بين يديه بلا ممانعة، وكان يفتح يديه بطيبة خاطر لتلقّيه، لكنّه لم يكن يفتح ذهنه، وكان يردّد آليّاً وبشكلٍ غالباً ما يكون خاطئاً الكلمات التي يُراد إدخالها إلى ذهنه عنوة.

من هنا حزن والدته الشّديد، هي التي كادت تفقد الأمل منه.

من هنا أيضاً شعورها العميق بالرّضا عندما سمعتْه يتلو حكايةً تعلّمَها بمساعدتي في نصف ساعة، في حين لم تتمكّن هي في عدّة أيّام من جعله يحفظها.

عندما أستعيد الآن الأيّام التي أمضيتُها على ذلك المركب، إلى جانب السيّدة ميليغان وآرثر، أجد أنّها أفضل أيّام طفولتي.

كانت مشاعرُ صداقةٍ قويّةٍ قد ربطت آرثر بي. ومن جهتي رحتُ، بلا تفكير، وبتأثير الودّ الذي كان هو يُبديه لي، أنظر إليه كمثْلِ أخ. لم نتخاصم قطّ. ولم يمارس حيالي أيّة فوقيّة كان يمكن أن يوحي له بها موقعه، وأنا لم أشعر أمامه بأدنى ارتباك. حتّى أنّني لم أكن مدركاً أنّ المرء يمكن أن يرتبك أمام مثْلِ ذلك الوضع.

كان ذلك ناجِماً على الأرجح من حداثة سنّي وجهلي أمورَ الحياة. ولكنّه كان عائداً بالتأكيد للطفِ السيّدة ميليغان وطيبتها، إذ غالباً ما كانت تتحدّث إليّ كما لو كنتُ ابنها.

ثمّ إنّ تلك الرّحلة على المركب كانت بالنّسبة إليّ أمراً مُدهشاً، ولم تمرّ إبّانها ساعة شعرتُ فيها بالملل أو التّعب. من الصّباح إلى المساء، كانت كلّ ساعات أيّامنا ممتلئة نشاطاً.

منذ بناء خطوط الحديد، لم يعد النّاس يزورون قناة الجنوب أو حتّى يعرفونها، مع أنّها واحدة من عجائب فرنسا.

من «فيلفرانش» في منطقة «لوراغيه» عبرْنا إلى «أفينيونّيه»، ومنها إلى صخور «نوروز» حيث يرتفع النّصب المشيَّد تكريماً للسيّد ريكيه مهندس القناة، في المكان ذاته الذي تنفصل فيه الأنهار التي ترتمي في المحيط عن تلك التي تنحدر صوب البحر الأبيض المتوسّط.

ثمّ عبرْنا «كاستلنوداري»، مدينة الطّواحين، و«كاركاسونّ»، المدينة التي تعود إلى القرون الوسطى؛ ومخترقينَ سدّ «فوزرانّ» العجيب بأحواضه الثّمانية المتلاصقة، نزلنا إلى «بيزييه».

عندما تبدو لنا المنطقة التي بها نمرّ مثيرة للاهتمام، كنّا لا نتقدّم إلاّ بضعة فراسخ في النّهار. أمّا إذا بدت لنا رتيبة فكنّا نجتازها بأسرع ما

يمكن.

كانت الطّريق هي التي تقرّر متى نمشي ومتى نتوقّف. وكنّا متخفّفين من كلّ هموم المسافرين العاديّة، فلم نكن ملزمين باجتياز مسافات طويلة للعثور على نُزلٍ نجد فيه قوتاً ومأوى.

كانت وجباتنا تُقدَّم لنا على الشّرفة في ساعات محدّدة وثابتة. وبهدوءٍ كنّا نتابع، أثناء تناول الطّعامَ، المشهدَ المتحرّكَ على الضّفّتين.

وعندما تغرب الشّمس، كنّا نتوقّف حيثما فاجَأنا الظّلام، ونبقى هناك حتّى يطلع النّهار من جديد.

كنّا في منزلنا على الدّوام، ولم نكن نعرف ساعات الملل المسائيّة التي تمرّ على المسافر طويلةً وحزينة.

بالعكس، كانت ساعات المساء تلك قصيرة جدّاً بالنّسبة إلينا، وكانت ساعة النّوم تفاجئنا ولمّا نكن فكّرنا فيها.

وعندما يتوقّف المركب ويكون الطّقس بارداً، نلجأ إلى غرفة الاستقبال، وبعد أن نشعل ناراً هادئة لطرد الرّطوبة والضّباب اللّذين يضرّان بالمريض، نُحضِر القناديل. كان آرثر يوضع أمام الطّاولة وأجلس أنا إلى جانبه وتروح السيّدة ميليغان تُرينا كتباً تحوي رسوماً أو مشاهد مصوّرة. ومثلما كان المركب مبنيّاً من أجل تلك الرّحلة الخاصّة، كانت الكتب والصّور قد اختيرت خصّيصاً من أجل الرّحلة. وعندما تتعب عيوننا، كانت السيّدة ميليغان تفتح أحد تلك الكتب وتقرأ لنا مقاطع تثير اهتمامنا ويمكننا فهمها. أو كانت تغلق الكتب والألبومات وتروح تحكي لنا الأساطير والأحداث التّاريخيّة المتعلّقة بالمناطق التي كنّا عبرناها. كانت تحكي وعيناها متعلّقتان

بعيني ابنها، وكان أمراً مؤثّراً رؤية الجهد الذي تبذله لكي لا تقول إلاّ الأفكار والكلمات التي يمكن فهمها بسهولة.

أمّا أنا، فقد كان لي في الأمسيات الدّافئة دورٌ فعّال. كنتُ أتناول قيثارتي وأنزل إلى اليابسة وأبتعد مسافة معيّنة لأتّخذ لي مكاناً خلف شجرة أحتمي بظلالها، وهناك أروح أغنّي كلّ الأغنيات وأعزف كلّ الألحان التي أعرفها. كان الاستماع بذلك الشّكل إلى الموسيقى في هدأة اللّيل من دون رؤية العازف يعود لآرثر بمتعة كبيرة. وغالباً ما كان يصرخ بي: «أعِدْ!»، فأعيد اللّحن الذي كنتُ عزفتُه لتوّي.

كانت تلك حياة هانئة وسعيدة بالنّسبة إلى ولدٍ مثلي لم يغادر كوخ الأمّ باربُران إلاّ ليتبع السّينيور فيتاليس في مسيراته الطّوال.

شتّان بين طبق البطاطس المملّحة الذي كانت تعدّه مربّيتي والكعك بالفاكهة والمربّى والقشدة والحلوى التي كانت تحضّرها طبّاخة السيّدة ميليغان!



وشتّان بين ساعات المشي الطّويلة في الوحل وتحت المطر وفي نهارات القيظ خلف معلّمي، وتلك النّزهة على متن المركب!

ولكن لكي أكون منصفاً حيال نفسي، ينبغي أن أقول إنّني كنتُ مغتبطاً بالسّعادة المعنويّة التي كنتُ أجدها في تلك الحياة الجديدة أكثر بكثير ممّا بالمتع الماديّة التي كانت تمنحني إيّاها.

أجل، كانت حلويات السيّدة ميليغان لذيذة جدّاً. أجل، كان من الممتع عدم معاناة الجوع والحرّ والبرد. ولكنْ أكثر من كلّ ذلك كم كانت طيّبة وممتعة لقلبي المشاعرُ التي كانت تفعمه يومذاك!

لمرّتين كنتُ قد رأيتُ الأواصر التي تجمعني بمن أحبّ تنفصم أو تتحطّم: المرّة الأولى عندما انتُزِعتُ من أمّي السيّدة باربُران، والثّانية عندما فُصلتُ عن فيتاليس. وهكذا، لمرّتين، ألفيتُني وحيداً في العالم، لا دعم لي ولا سند، ولا أصدقاء إلاّ حيواناتي.

وها إنّني وجدتُ، في عزلتي وشدّتي، مَن يُعربُ لي عن عطفه ويمكنني أن أحبّه: سيّدة جميلة ورقيقة ولطيفة وحنون، وولد في مثْل سنّي يعاملني كما لو كنتُ شقيقاً له.

أيّ فرحٍ وأيّة سعادة لقلبٍ كقلبي كان محتاجاً لأن يُحِبّ بقدْر هائل!

كم من مرّة نظرتُ إلى آرثر ممدَّداً على لوحه الخشبيّ، شاحباً وشاكياً، وألفيتُني أغبطُ سعادته، أنا الذي كنتُ بكاملِ قواي وبملء عافيتي.

لم تكن الرّفاهية المحيطة به هي ما كنت أغبطه إيّاه، لا ولا كتبه وألعابه الثّمينة ومركبه، بل الحبّ الذي كانت تُبديه له أمّه.

لا ريبَ أنّ سعادته كانت عظيمة لأنّه كان محبوباً بهذا القدر، تُقبّلُه أمّه عشر مرّات، بل عشرين مرّة في اليوم الواحد، وهو بدوره كان

يقدر أن يقبّلها من كلّ قلبه، تلك السيّدة الجميلة، أمّه التي كنتُ أكاد لا أجرؤ أن ألمس يدها عندما تمدّها لي!

كنتُ آنئذٍ أقول في نفسي بحزنٍ إنّه لن يكون لي يوماً أمٌّ تقبّلني وأقبّلها. قد أرى أمّي السيّدة باربُران من جديدٍ يوماً ما، وسأشعر حينها بغبطة هائلة، ولكنّني لن أستطيع أن أناديها «ماما»، لأنّها لم تكن والدتي.

وحيداً، سأكون دوماً وحيداً!

هذه الفكرة كانت تجعلني أُقدّر بشكلٍ أكبرَ الفرحَ الذي كان يغمرني لشعوري بأنّني أُعامَل بعطفٍ من قِبَلِ السيّدة ميليغان وابنها آرثر.

لم يكن يجدر بي أن أكون شديد التطلّب حيال حصّتي من السّعادة في هذا العالم. وبما أنّني لن يكون لي يوماً أمٌّ أو أخٌ أو عائلة، فكان ينبغي أن أكون سعيداً لأنّ لي أصدقاء.

كان ينبغي أن أكون سعيداً، وفي الواقع كنتُ كذلك تماماً.

إلاّ أنّه، مهما بدت لي تلك العادات الجديدة عذبةً، سرعان ما توجّب وضع حدٍّ لها واستئناف العادات القديمة.

الفصل الثّالث عشر

طفلٌ لقيط

مرّت الأيّام بسرعة خلال تلك الرّحلة، وكان موعد خروج معلّمي من السّجن يقترب. وكان ذلك لي مصدر فرحٍ وقلقٍ في آن معاً.

وبقدر ما كنّا نبتعد عن تولوز، كانت هذه الفكرة تؤرّقني أكثر فأكثر.

كان رائعاً السّفر في المركب على ذلك النّحو، بلا هموم ولا مشاكل. لكن سيكون عليّ أن أرجع بفرقتي متّخذاً، في الاتّجاه المعاكس، وسيراً على الأقدام، الطّريق نفسها التي كنّا سلكناها على المياه.

وسيكون الأمر أقلّ سحراً: فلا من سرير وثير، ولا من قشدة، ولا من حلوى، ولا من أمسيات نمضيها حول الطّاولة.

وما كان أكثر تأثيراً فيّ هو ضرورة الانفصال عن آرثر وأمّه السيّدة ميليغان. سيتوجّب التخلّي عن عطفهما وفقدانهما كما سبق أن فقدتُ الأمّ باربُران. ألن أُحِبّ إذن يوماً وأُحَبّ إلاّ لأنفصل بقسوة عن أولئك الذين أرغب في إمضاء حياتي معهم! ألا يمكن أن يجتمعوا يوماً؟

يمكنني القول إنّ ذلك الهمّ كان هو الغمامة الوحيدة في الأيّام المشرقة تلك.

ذات يومٍ قرّرتُ أخيراً إخبار السيّدة ميليغان بما أفكّر فيه، وسألتُها كم من الوقت يلزمني في اعتقادها للعودة إلى تولوز. ذلك أنّني كنت أريد أن أكون أمام بوّابة السّجن في اللّحظة التي يخرج فيها معلّمي.

لمّا سمعني آرثر أتحدّث عن الرّحيل، صرخ بصوتٍ عالٍ:

- لا أريد أن يرحل ريمي!

أجبتُه بأنّني لم أكن سيّد نفسي، بل كنتُ خاضعاً لمعلّمي الذي استأجرني من أهلي، وبأنّ عليّ أن أعاود العمل لديه في اليوم الذي يحتاجني فيه.

ذكرتُ أبوَيّ دون أن أقول إنّهما ليسا والديَّ الحقيقيّين، لأنّه سيكون عليّ عندئذٍ الاعتراف بأنّني لم أكن إلاّ لقيطاً.

- ماما، يجب أن نمنع ريمي من الرّحيل، أكملَ آرثر الذي كان، في ما عدا مسألة الدّروس، يسيطر على أمّه التي تنفّذ له كلّ طلباته.



- كنتُ سأفرح كثيراً ببقاء ريمي، أجابت السيّدة ميليغان، فأنتَ تكنّ له مشاعر الصّداقة وأنا أشعر حياله بمودّة كبيرة. لكنْ لاستبقائه معنا ينبغي اجتماع شرطين لا يمكن أن يقرّرهما أيّ منّا نحن الاثنين. الأوّل هو أن يكون ريمي راغباً في البقاء معنا...

- آه، إنّ ريمي يريد ذلك! قاطعها آرثر. أليس صحيحاً يا ريمي أنّك لا تريد العودة إلى تولوز؟

- أمّا الشّرط الثّاني، أكملت السيّدة ميليغان دون أن تنتظر جوابي، فهو أن يرضى سيّده بالتّنازل عن حقوقه عليه.

- ريمي، ريمي أوّلاً، قاطعها آرثر متابعاً فكرته.

كان فيتاليس بلا شكّ معلّماً لي طيّباً، وأنا كنتُ ممتنّاً لعنايته ودروسه. لكن لم تكن المقارنة ممكنة بين الحياة التي عشتُها إلى جانبه وتلك التي تقدّمها لي السيّدة ميليغان. إلى ذلك، كنتُ أقرّ في نفسي، وضميري يؤنّبني، بأنّ المقارنة ليست ممكنة بين المحبّة التي أكنّها لفيتاليس وتلك التي أشعر بها حيال السيّدة ميليغان وابنها آرثر. وعندما كنتُ أفكّر في ذلك، كنتُ أقول في نفسي إنّه لَعيبٌ أنّ أؤثر على معلّمي هذين الغريبَين اللّذين أعرفهما منذ فترة قصيرة. ولكن في التّحصيل الأخير، هذا ما كان، كنتُ أحبّ السيّدة ميليغان وآرثر حبّاً جمّاً.

أكملت السيّدة ميليغان:

- إنّ على ريمي، قبل أن يجيب، أن يفكّر أنّني لا أعرض عليه حياةَ لهوٍ ونزهاتٍ، وإنّما حياة عملٍ أيضاً. يجب أن يدرس ويجتهد ويظلّ مكبّاً على كتبه ويتابع آرثر في دراسته. يجب أن يختار بين هذا وبين الحريّة التي ينالها في حياة التّنقّل والارتحال.

- لا مجال للمقارنة يا سيّدتي، قلتُ لها، أؤكّد لكِ أنّني أقدّر تماماً قيمة ما تعرضينه عليّ.

- أرأيتِ يا ماما؟ هتف آرثر، ريمي يريد البقاء معنا.

وراح يصفّق بيديه. أكيدٌ أنّني طمأنتُه. فعندما تحدّثت والدته عن الدّرس والكتب، رأيتُ أمارات القلق ترتسم على أساريره، كما لو أنّني كنتُ سأرفض! لا بدّ أن خوفه كان عظيماً، هو الذي لم يكن يطيق الكتب. ولحسن الحظّ لم أكن أنا أشاركه خشيته، فالكتب، بدلَ أن ترعبني، كانت بالعكس تجتذبني. صحيح أنّني لم توضع الكتب بين يديّ إلاّ لماماً، إلاّ أنّ المتعة التي عادت لي بها تلك التي قرأتُها كانت أكبر من مشقّة القراءة بكثير. ولذا كان عرض السيّدة ميليغان يسعدني جدّاً، وكنتُ صادقاً تماماً عندما شكرتُها على سخائها. وإذا ما قبِلَ فيتاليس، فسيمكنني أن أبقى على متن «البجعة»، ولن أتخلّى عن هذه الحياة الهانئة أو أفترق عن آرثر ووالدته.

- الآن، أكملت السيّدة ميليغان، يبقى أن نحصل على موافقة معلّمه. ومن أجل ذلك سأكتب له ليأتي لملاقاتنا في «سات»، لأنّنا لا يمكننا العودة إلى تولوز. سوف أرسل له تكاليف الرّحلة، وبعد أن أشرح له الأسباب التي تمنعنا من أن نستقلّ القطار، أرجو أن تحظى دعوتي بقبوله. وإذا وافق على ما أعرضه عليه، فلن يبقى عليّ إلاّ الاتّفاق مع أبوَي ريمي، إذ ينبغي استشارتهما هما أيضاً.

حتّى ذلك الحين، كان كلّ شيء في ذلك الحوار قد جرى بأفضل ما يمكن، تماماً كما لو أنّ جنيّة خيّرة مسّتني بعصاها السّحريّة. إلاّ أنّ هذه الكلمات الأخيرة أعادتني بقسوة من الحلم الذي كنتُ أسبح فيه

إلى الواقع الحزين.

استشارة أبوَيّ!

ولكنّهما سيقولان حتماً ما كنتُ أريده أن يبقى خافياً. ستُعرَف الحقيقة. سيُعرَف أنّني طفلٌ لقيط!

وعندئذٍ سيكون آرثر وربّما السيّدة ميليغان أيضاً هما من لا يعودان يرغبان فيّ.

ظللتُ منصعقاً.

نظرت إليّ السيّدة ميليغان باندهاش وحاولت استنطاقي، ولكنّني لم أجرؤ على الإجابة. فظنّتْ على الأرجح أنّ رجوع معلّمي الوشيك هو ما كان يربكني على تلك الشّاكلة، فلم تُلحِف في أسئلتها.

لحسن الحظّ كان ذلك يجري مساءً، قُبيلَ موعد النّوم. وسرعان ما تمكّنتُ من الهروب من نظرات آرثر المستغربة واللّوذ في قُمرتي مع مخاوفي وأفكاري.

كانت تلك ليلتي السّيئة الأولى على متن «البجعة»؛ كانت ليلةً سيّئة جدّاً، طويلة ومحمومة.

ما العمل؟ ماذا أقول؟

لم أحِزْ جواباً.

وبعدما قلّبتُ مائةَ مرّةٍ الأفكار ذاتها، واتّخذتُ القرارات الأكثر تناقضاً، توقّفتُ أخيراً عند القرار الأكثر ملاءمةً والأقلّ جدارةً، ألا وهو ألاّ أفعلَ شيئاً وألاّ أقولَ شيئاً. سأترك الأمور تأتي على هواها، وسأذعن لما يحصل إن لم أقدر على إيجاد حلّ أفضل.

ربّما سيرفض فيتاليس التّخلّي عنّي؛ وفي قلبيَ المُصطرِع بشدّة،

كنتُ أرغب أيّما رغبةٍ في حصول ذلك وأختشيه في الأوان ذاته. فإذا ما أنا رافقتُ معلّمي من جديدٍ، فلن تُكتشَف الحقيقة.

كان خوفي عظيماً من هذه الحقيقة التي كنتُ أعتبرها شديدة الفظاعة، بحيثُ ألفيتُني أتمنّى بحرارةٍ أن يرفض فيتاليس عرض السيّدة ميليغان وألاّ ينجح بينهما أيّ اتّفاق بشأني.

ربّما سيكون عليّ الابتعاد عن آرثر ووالدته، والإذعان لفكرة أنّني قد لا أراهما بعد ذلك. على الأقلّ لن يحتفظا بذكرى سيّئة عنّي.

بعد ثلاثة أيّام من كتابة السيّدة ميليغان إلى معلّمي، تلقّت جواباً. في بضعة سطور قال لها فيتاليس إنّه يتشرّف بدعوتها، وإنّه سيصل إلى «سات» في السّبت التّالي في قطار السّاعة الثّانية.

طلبتُ من السيّدة ميليغان الإذن بالذّهاب إلى المحطّة؛ ومصطحباً الكلاب الثّلاثة وجولي-كور، رحنا ننتظر وصول معلّمنا.

كانت الكلاب قلقة كما لو أنّها تخمّن أمراً ما، في حين لم يكن جولي-كور مبالياً البتّة. أمّا أنا فكنتُ متأثّراً بشدّة. آه كم من السّجالات المتناقضة كانت تنشب في روحيَ الجاهلة!

كنتُ قد وقفتُ في ركنٍ من باحة محطّة القطار، ممسكاً برباط كلابي، حاملاً جولي-كور تحت سترتي، أنتظر وأنا غائبٌ تماماً عمّا يعتمل حولي.

الكلاب هي التي نبّهتني لوصول القطار، ولكونها شمّتْ رائحة معلّمنا. فجأةً أحسستُ بي مدفوعاً إلى الأمام؛ ولأنّي لم أكُ متحوّطاً أفلتت الكلاب منّي. كانت تركض وهي تنبح بِفَرحٍ، وسرعان ما رأيتها تقفز حول عنق فيتاليس الذي كان قد ظهرَ للتوّ بزيّه المعتاد.

رغم كون كابي أقلّ مرونةً من رفاقه في العادة كان هذه المرّة أسرع منهم، فارتمى بين ذراعَي معلّمي فيما كان دزربينو ودولتشي يتعلّقان بساقيه.

تقدّمتُ بدوري، وما إن وضع فيتاليس كابي أرضاً حتّى جاء وضمّني بين ذراعيه. للمرّة الأولى منذ تعارفنا قبَّلني وهو يردّد:

- مرحباً يا عزيزي المسكين!

لم يكن معلّمي قاسياً معي يوماً، إلاّ أنّه لم يكن حنوناً كذلك، ولذا فأنا لم أكن معتاداً على دفقه العاطفيّ ذاك، ممّا أجّجَ عاطفتي بدَوري، فترقرقت عيناي بالدّمع. كنتُ في حالةٍ تجعل قلبي ينقبض ويتأثّر بسرعة.

رحتُ أنظر إليه فوجدتُ أنّه قد شاخ في السّجن. كانت قامته قد انحنت ووجهه شحُبَ وشفتاه فقدَتا لونهما. قال لي:

- أنت ترى أنّني تبدّلت، أليس كذلك يا بنيّ؟ السّجن مكانٌ سيّئ، والملل آفةٌ سيّئة، بيدَ أنّني سأكون الآن في حالٍ أفضل.

ثمّ قال مغيّراً الموضوع:

- وهذه المرأة التي كتبتْ لي، كيف عرفتَها؟

رحتُ أحكي له كيف التقيتُ مركب «البجعة»، وكيف أنّني منذ ذلك الحين أعيش إلى جانب السيّدة ميليغان وابنها. رويتُ له ما رأيناه وما فعلناه.

كانت حكايتي طويلة لفرط ما كنتُ خائفاً من بلوغ نهايتها والتطرّق للموضوع الذي كان يُخيفني. فأنا لم يكن في مقدوري أن أقول لمعلّمي إنّني قد أكون راغباً في أن يتوصّل إلى اتّفاق مع السيّدة

ميليغان وابنها آرثر لأتمكّن من البقاء في صحبتهما.

لكنّي لم أُضطرّ إلى البوح له بذلك. فقبلَ أن أكمل حكايتي، وصلنا إلى الفندق الذي نزلت فيه السيّدة ميليغان. ثمّ إنّ فيتاليس لم يقلْ لي شيئاً عن فحوى رسالة السيّدة ميليغان، ولم يحدّثني عن المقترحات التي ربّما احتوتها تلك الرّسالة.

- وهذه السيّدة تنتظرني؟ قال عندما ولجنا إلى الفندق.

- أجل، سأقودك إلى غرفتها.

- لا داعي لذلك، أعطِني الرّقم وانتظرْني هنا مع جولي-كور والكلاب.

لم أكن معتاداً على الاعتراض أو المجادلة عندما يتكلّم معلّمي. إلاّ أنّني أردتُ ذلك اليوم المجازفة بإبداء ملاحظة لأسأله أن يسمح لي بمرافقته إلى السيّدة ميليغان، الأمر الذي كان يبدو لي عادلاً وطبيعيّاً. إلاّ أنّه أسكتني بإيماءةٍ من يده فامتثلتُ وظللتُ عند باب الفندق جالساً على مقعد تحيط بي الكلاب. فهي أيضاً أرادت أن تلحق به، ولكنّها مثْلي لم تعترض على أمره لها بعدم الدّخول. كان فيتاليس قائداً يُطاع.

لِمَ يا ترى لم يشأ أن أحضر مقابلته للسيّدة ميليغان؟ هذا ما تساءلتُ عنه في نفسي، متفحّصاً السّؤال من كلّ وجوهه. لم أكن وجدتُ جواباً على سؤالي عندما رأيتُه يعود.

- اذهبْ وودّعْ هذه السيّدة، قال لي، أنتظركَ هنا. سنرحل بعد عشر دقائق.

كنتُ شديد التردّد، إلاّ أنّ الوجهة التي اتّخذها ذلك القرار

صعقتني.

- ما بك؟ قال لي بعد دقائق من الانتظار، ألم تفهم ما قلتُه؟ لمَ تبقى هنا جامداً كالصّنم؟ هيّا أسرعْ!

لم يكن من عادته أن يكلّمني بقسوة، ومنذ وجودي معه لم يتوجّه إليّ بمثل هذه النّبرة.

فقمتُ ممتثلاً بشكلٍ آليّ دون أن أفهم شيئاً.

ولكن بعد أن قمتُ ببضع خطوات صاعداً إلى غرفة السيّدة ميليغان سألتُه:

- هذا يعني أنّكَ قلتَ...

- قلتُ لها إنّني بحاجةٍ إليك وإنّك أنتَ أيضاً بحاجةٍ إليّ. وبالتّالي، لستُ مستعدّاً للتّخلّي عن حقوقي عليك. هيّا اذهبْ وارجعْ بسرعة.

أعاد لي ذلك شيئاً من الشّجاعة، لأنّني كنتُ خاضعاً بالكامل لتأثير فكرة أنّني طفل لقيط. وهو ما جعلني أتصوّر أنّنا إذا كان علينا أن نرحل بعد عشر دقائق، فلأنّ معلّمي قال للسّيدة ميليغان ما يعرفه حول ظروف ولادتي.

لمّا دخلتُ إلى غرفة السيّدة ميليغان، وجدتُ آرثر غارقاً في دموعه وأمّه منحنية عليه تحاول مواساته، فما كان منه إلاّ أن هتف:

- أنت لن ترحل يا ريمي، أليس كذلك؟

فأجابت السيّدة ميليغان عنّي، شارحةً لابنها أنّ عليّ الامتثال لمشيئة معلّمي. ثمّ قالت لي بصوتٍ جعل عينيّ تغرورقان بالدّموع:

- طلبتُ من سيّدك أن تبقى معنا، لكنّه لم يرضَ ولا شيء جعله يبدّل رأيه.

- إنّه رجلٌ شرّير! هتف آرثر.

- كلاّ، ليس شرّيراً على الإطلاق، تابعتْ السيّدة ميليغان؛ إنّه يحتاجك، كما أعتقد أنّه يمحضك مودّة حقيقيّة. ثمّ إنّ كلماته هي كلمات رجلٍ نزيه، شخص أرقى من وضعه الاجتماعيّ. إليكَ ما أجابني به ليفسّر رفضه: «أنا أحبّ هذا الولد وهو يحبّني. وتعلُّمُ الحياة القاسي الذي أجعله يعيشه معي سيكون أكثر منفعة له من وضعيّة الخادم المقنّعة التي ستجعلينه رغمَ إرادتكِ يعيشها. سوف تقدّمين له العلم والثّقافة، هذا صحيح. سوف تهذّبين عقله، هذا صحيح، ولكن ليس طباعه. لا يمكنه أن يكون ابناً لكِ، ولكنّه سيكون ابني. وهذا أفضل من أن يكون لعبةً لابنكِ العليل، رغم ما يبدو على هذا الولد من رقّة ومحبّة. أنا أيضاً سوف أعلّمه».

- ولكنّه ليس أبا ريمي! هتف آرثر.

- إنّه ليس أباه، هذا صحيح، ولكنّه معلّمه، وريمي ملْكٌ له لأنّ أبوَيه أجّراه له. يجب على ريمي في الوقت الحاضر الامتثال له.

- لا أريد أن يرحل ريمي.

- ينبغي له أن يتبع معلّمه، لكن آمل ألاّ يطول هذا الأمر. سنكتب لأبوَيه وأتّفق معهما.

- آه، كلاّ! صرختُ.

- كيف لا؟

- آه لا، أرجوكِ!

- ولكن ليس أمامنا إلاّ هذه الطّريقة يا بنيّ.

- أرجوكِ.

لو لم تأتِ السيّدة ميليغان على ذكر أبوَيّ، لكنتُ بالتّأكيد خصّصتُ لوداعنا أكثر بكثيرٍ من الدّقائق العشر التي منحَتنيها معلّمي.

- هما يقيمان في شافانون أليس كذلك؟ أردفت السيّدة ميليغان.

ومن دون أن أجيبها اقتربتُ من آرثر وعانقتُه وقبّلتُه عدّة مرّات واضعاً في قبلاتي كلّ الصّداقة التي أشعر بها حياله. ثمّ فككتُ نفسي من عناقه وعدتُ إلى السيّدة ميليغان فجثوتُ أمامها وقبّلتُ يدها.

- يا للصّغير المسكين! قالت وهي تنحني عليّ.

ثمّ طبعت قبلةً على جبيني.



ثمّ نهضتُ بسرعة وركضتُ إلى الباب:

- آرثر، سوف أحبّكَ دوماً! قلتُ بصوتٍ يتهدّج بالدّموع، وأنتِ يا سيّدتي لن أنساكِ إطلاقاً!

- ريمي! ريمي! صرخ آرثر.

إلاّ أنّني لم أسمع المزيد. كنتُ قد خرجتُ وأغلقتُ الباب ورائي.

بعد دقيقة كنتُ إلى جانب معلّمي.

«فلننطلقْ!»، قال لي.

وخرجنا من «سات» عبر طريق «فرونتينيان».

هكذا تركتُ أوّلَ صديقٍ لي، وألفيتُني مدفوعاً من جديدٍ في مغامراتٍ كان يمكن أن أتجنّبها لو لم أترك مخافةً حمقاء تُرعبني، بباعثٍ من تقديري المبالَغ به لنتائج حكمٍ مُسبقٍ بغيض.

الفصل الرّابع عشر

ثلج وذئاب

من جديدٍ وجبَ عليّ أن أتبع معلّمي، وأن أسلكَ الطّرُق وأجوب الآفاق، تحت المطر كما في عزّ القيظ، في الغبار كما في الأوحال، حمّالة قيثارتي مشدودة إلى كتفي المتألّمة.

ومن جديدٍ، كان عليّ تأدية دور الغبيّ في السّاحات العامّة، والضّحك والبكاء لتسلية «الحضور الكريم».

كانت النقلة قاسية، لأنّ المرء سرعان ما يعتاد على الرّفاهية والسّعادة.

حصلت لي خيبات ومصائب ومتاعب لم أعرفها قبل أن أحيا طوال شهرين الحياةَ الهانئةَ لمحظوظي هذا العالم.

في معيّة السيّدة ميليغان، كنت غالباً ما أتذكّر فيتاليس. وبصحبة فيتاليس، كانت ذاكرتي تحملني إلى السيّدة ميليغان.

وكثيراً ما كنتُ، في مسيراتنا الطّوال، أبقى في الوراء أفكّر بحريّةٍ في آرثر ووالدته، وبمركب «البجعة»، وأعود بالفكر إلى الماضي وأعيش فيه.

آه! الأيّام الجميلة! وفي المساء، إذ أكون نائماً في نُزُلٍ قرويٍّ قذرٍ، كنتُ أتذكّر قُمْرَتي على متن «البجعة»، وآنئذٍ كم كانت شراشف سريري في ذلك النّزل تبدو لي بالغة الخشونة!

هكذا إذَن، لن يُتاح لي بَعدُ أن ألعب مع آرثر، ولا أن أسمع صوت

السيّدة ميليغان الحنون!

لحسن الحظّ كان لي ما يعزّيني في مواجهةِ كآبتي التي كانت مستمرّةً وحادّةً: كان معلّمي قد صار أكثر رقّة، لا بل أكثر حناناً إن أمكن استخدام هذا التّعبير في وصفه، ممّا كان عليه في أيّ وقتٍ مضى.

فمن هذه النّاحية كان قد حصل في طباعه تغيّر كبير، على الأقلّ في سلوكه وإيّاي. وكان ذلك يسندني ويمنعني من البكاء عندما تعتصر قلبي ذكرى آرثر! كنتُ أشعر بأنّني لم أكن وحدي في هذا العالم، وبأنّ معلّمي كان في الحقيقة أفضل وأكثر من معلّم.

لَكنتُ أكثرتُ من معانقته لو تجرّأت، لفرط ما كانت حاجتي كبيرة للتّعبير عن مشاعر الودّ المعتملة في داخلي. ولئن لم أكن أجرؤ على ذلك، فلأنّ فيتاليس لم يكن رجلاً يمكن المجازفة بمعاملته بألفة زائدة.

في بداية تعارفنا، كانت الخشية هي ما يقيني على مسافة منه. أمّا فيما بعد فكان شيء مُبهم هو السّبب، شيء أشبه ما يكون بمشاعر الاحترام.

فعند مغادرتي قريتي، لم يكن فيتاليس بالنّسبة لي إلاّ رجلاً كسواه، وأنا كنتُ في ذلك الوقت عاجزاً عن التّمييز. إلاّ أنّ إقامتي إلى جانب السيّدة ميليغان فتحت إلى حدّ ما عينيّ وذكائي. وللغرابة، عندما كنت أُنعم النّظر إلى معلّمي كان يبدو لي أنّني كنتُ أجدُ في وقفته وهيئته وسلوكه نقاطَ شبَهٍ عديدة مع وقفة السيّدة ميليغان وهيئتها وسلوكها.

كنتُ أقول في نفسي إنّ ذلك أمر متعذّر، لأنّ معلّمي لم يكن إلاّ مرقّص كلاب، أمّا السيّدة ميليغان فكانت سيّدة عالية المقام.

لكنّ ما كان ينطق به عقلي لم يكن ليحجب ما تتبيّنه عيناي. ففيتاليس كان، عندما يريد ذلك، سيّداً عاليَ المقام كالسيّدة ميليغان. الفرق الوحيد بينهما هو أنّ السيّدة ميليغان كانت «سيّدة» طوال الوقت، أمّا معلّمي فلم يكن «سيّداً» إلاّ في بعض الظّروف. ولكنّه يكون حينئذٍ سيّداً بالكامل، حتّى لَيفرض مهابتَه على أوقَح النّاس أو أكثرهم تطاولاً.

ولكن بما أنّني لم أكن لا وقحاً ولا متطاولاً، فقد كنتُ أتلقّى ذلك التّأثير ولم أكن أجرؤ على الاستسلام لمشاعري الدفّاقة حياله رغم أنّه هو من كان يستدعي تلك المشاعر ببعض الكلمات الطّيّبة.

بعدما غادرنا «سات»، أمضينا عدّة أيّام لا نأتي على ذكر السيّدة ميليغان، ولا على ذكر رحلتي على متن «البجعة». ولكن شيئاً فشيئاً بدأ هذا الموضوع يحضر في أحاديثنا، ودائماً ما كان معلّمي هو البادئ بطرحه. ثمّ لم يعد يمرّ يوم دون أن يُلفظ فيه اسم السيّدة ميليغان.

«كنتَ تحبّها، هذه السيّدة؟ كان يقول لي فيتاليس ويضيف: أجل، أتفهّمُ ذلك، إذ كانت معك طيّبة، لا بل طيّبة جدّاً. يجب عدم التفكير فيها إلاّ بعرفان».

وغالباً ما كان يعقّب: «كان يجب أن يحصل ذلك!»

ما الذي كان يجب أن يحصل؟

في البداية لم أفهم تماماً. إلاّ أنّني شيئاً فشيئاً رحتُ أحسب أنّ ما يعنيه هو رفضه عرض السيّدة ميليغان بإبقائي إلى جانبها.

فذلك بالتّأكيد ما كان معلّمي يفكّر فيه عندما يقول: «كان يجب أن يحصل ذلك». وكنت أستشفّ في هذه الكلمات القليلة ما يشبه النّدم.

كما لو أنّه كان راغباً في تركي قرب آرثر ولكنّ الأمر كان متعذّراً عليه.

كنت في صميم قلبي ممتنّاً له على ذلك النّدم، رغم أنّني لم أحزر قطّ لماذا لم يقْدر أن يقبل بعرض السيّدة ميليغان. فلم تكن الشّروح التي قدّمتها لي هذه الأخيرة تبدو لي مفهومة تماماً.

- قد يرضى بذلك العرض ذات يوم، كنتُ أقول في نفسي.

وكان ذلك يمدّني بأمل كبير.

- ربّما التقينا بـ «البجعة»، لمَ لا؟

إذ كان على المركب أن يعاود صعود نهر الرّون، فيما نحن نسير بمحاذاة ضفاف هذا النّهر.

هكذا، كانت عيناي أثناء سيرنا تلتفتان صوب المياه أكثر ممّا صوب الرّوابي والسّهول الخصبة المحيطة بها من كلّ جهة.

عندما كنّا نصل إلى مدينةٍ ما، «آرل» مثلاً، أو «تاراسكون» أو «أفينيون» أو «مونتيليمار» أو «فالانس» أو «تورنون» أو «فيينّا»، كان أوّل ما أزوره هو أرصفة المرافئ وجسور المراكب. كنتُ أبحث عن «البجعة»، وعندما ألمح في البعيد مركباً نصف غارق في الضّباب المحيِّر، كنتُ أنتظر اقترابه للتّأكّد ممّا إذا كان هو «البجعة».

ولكنّه لم يكن هو.

أحياناً كانت تبلغ بي الجرأة حدّ سؤال البحّارة عنه، فأصف لهم المركب الذي أبحث عنه. لكنّهم لم يكونوا رأوه.

لكن ما دام معلّمي قد قبِلَ بأن يتنازل عنّي للسيّدة ميليغان - أو على الأقلّ ذلك ما كنتُ أتصوّره - فما عاد من سبب لأخشى أن يطْرق أحدٌ موضوع ولادتي أو يكتب بشأني للسيّدة باربُران. فالمسألة

ستُحلّ بين معلّمي والسيّدة ميليغان، أو على الأقلّ هكذا كنتُ أرتّب الموضوع في حلمي الطّفوليّ: كانت السيّدة ميليغان راغبة في الاحتفاظ بي، ومعلّمي راضياً بالتّخلّي عن حقوقه عليّ، هذا كلّ ما في الأمر.

مكثنا في «ليون» عدّة أسابيع، وكلّ أوقات فراغي كنتُ أمضيها على أرصفة نهرَي «الرّون» و«السّون». هكذا بحيثُ بتّ أعرف جُسورَ «آنيه» و«تيلسيت» و«غوييّوتيير» و«أوتيل-ديو» كما يعرفها من وُلِدَ في المكان نفسه.

ولكن عبثاً فتّشت، لم أرَ هناك مركب «البجعة».

توجّب علينا مغادرة «ليون» والتّوجّه إلى «ديجون». فبدأ الأمل بملاقاة السيّدة ميليغان وابنها آرثر يتبدّد. لا سيّما وأنّني درستُ في ليون كلّ خرائط فرنسا التي وجدتُها على بسطات بائعي الكتب، وكنتُ أعرف أنّ قناة «سانتر» التي يجب أن يجتازها مركب «البجعة» للوصول إلى «لوار» تنفصل عن «السّون» في «شالون».

وصلنا إلى «شالون» وغادرناها من دون رؤية «البجعة». وهكذا كان. كان عليّ أن أتخلّى عن حلمي.

إلاّ أنّ ذلك لم يحصل من دون حزن كبير.

وإمعاناً في إيئاسي، أنا الذي كنتُ من قبلُ يائساً جدّاً، ساءَ الطّقس. كان الفصل في آخره والشّتاء على الأبواب، وأصبح المشي تحت المطر وفي الوحل يزداد صعوبة. عندما كنّا نصل مساءً إلى نزُلٍ رديء أو إلى أحد مخازن الغلال، منهكين من التّعب، مبلّلين حتّى العظام، يغطّينا الوحل من أعلى الرّأس حتّى أخمص القدم، لم أكن أنام مفكّراً في أمور تدعو للفرح.

بعدما غادرنا «ديجون» وعبرنا تلال ساحل الذّهب، فاجأنا بردٌ رطب تجمّدت منه عظامنا، وبات جولي-كور أكثر اكتئاباً وتجهّماً منّي.

كان معلّمي يريد أن نصل إلى باريس بأسرع ما يمكن، فهناك فحسبُ يمكننا تقديم بعض العروض خلال الشّتاء. ولكن، إمّا لأنّ



حالته الماديّة لم تسمح له باستقلال القطار أو لأيّ سبب آخر، كان علينا أن نقطع مشياً المسافة كلّها من ديجون إلى باريس.

عندما كان الطّقس يسمح بذلك، كنّا نقدّم عرضاً قصيراً في إحدى المدن والقرى التي نمرّ بها، ثمّ، بعد أن نحصل على مبلغ



زهيد، نستأنف السّير.

حتّى شاتيّون، سارت الأمور بشكلٍ معقولٍ، رغم معاناتنا الدّائمة للمطر والبرد. بعدما غادرنا هذه المدينة، توقّف المطر وبدأت تهبّ ريح الشّمال.

في البداية لم نتذمّر. ومع أنّه لم يكن ممتعاً أن نتلقّى ريح الشّمال في أوجهنا، فإنّ هذه الرّيح، وإن تكن قارسة، لَتظلّ أفضل من البلل الذي كان يصيبنا بالعفن منذ عدّة أسابيع.

ولسوء الحظّ، لم تبقَ تلك الرّيح على جفافها. إذ تلبّدت السّماء بغيوم سوداء كبيرة واختفت الشّمس تماماً، وراح كلّ شيء يُنذر بقربِ انهمار الثّلج.

إلاّ أنّنا تمكّنّا من الوصول إلى قرية كبيرة قبل أن يفاجئنا الثّلج. لكنّ معلّمي كان يريد الوصول إلى «تروا» بأسرع ما يمكن، لأنّ هذه الأخيرة مدينة كبيرة يمكننا فيها تقديم عدّة عروض إذا ما أرغمَنا الطّقس على البقاء فيها.

- نَمْ بسرعة، قال لي عندما وصلنا إلى النّزل. سننطلق غداً في الصّباح الباكر. أخشى أن يفاجئنا الثّلج.

أمّا هو، فلم ينم باكراً بل بقي إلى جانب الموقد في المطبخ ليُدفّئ جولي-كور الذي كان في النّهار قد عانى كثيراً من البرد، ولم يكن ليكفّ عن الأنين رغم أنّنا غطّيناه بالبطّانيّات.

في صباح اليوم التّالي استيقظتُ باكراً جدّاً كما طُلِب منّي. لم يكن النّهار طلعَ بعد. كانت السّماء معتمة ومنخفضة وليس فيها نجم واحد. بدا الأمر كما لو أنّ غطاءً أسود كبيراً قد انسدل على الأرض

وكان يتأهّب لسحقها. عندما نفتح الباب، كان هواء قارس يندفع إلى الموقد ويؤجّج فيه الجمر الخافي منذ العشيّة تحت الرّماد.

- لو كنتُ مكانك لما رحلتُ، قال صاحب النّزل مخاطِباً معلّمي. فالثّلج على وشك الانهيار.

- أنا مستعجل، أجاب فيتاليس، وآمل الوصول إلى «تروا» قبل انهيار الثّلج.

- لكن لا يمكن قطع ثلاثين كيلومتراً في ساعةٍ واحدة!

ومع ذلك غادرنا.

كان فيتاليس يضمّ جولي-كور تحت سترته ليمنحه قليلاً من دفئه. أمّا الكلاب فكانت تركض أمامنا سعيدة بالطّقس الجافّ. كان معلّمي قد اشترى لي في ديجون سترة من فروة الخروف، تُلبَس بحيث يكون صوفها إلى الدّاخل. تدثّرتُ بها فيما الرّيح التي تهبّ في وجهي تلصقها بِجسمي.

لم يكن الكلام ممتعاً في تلك الظّروف. لذا مشينا صامتين، نحثّ الخطى من أجل الإسراع، وكذلك لكي نحسّ بالدّفء.

ومع أنّ موعد طلوع النّهار كان قد أزفَ فإنّ السّماء لم يكن ليلوحَ فيها أدنى بارقٍ من النّور.

وأخيراً، شقّ صفحةَ الظلام شريطٌ أبيضُ من جهة الشّرق، لكن سيكون من المبالغة بمكانٍ أن نتكلّم عن طلوع النّهار.

إلاّ أنّ الأشياء في الرّيف كانت تزداد وضوحاً. فالضّوء الشّاحب الذي يلامس الأرض آتياً من المشرق مثلَ نافذة عظيمة، كان يكشف

لنا عن أشجار عارية من أوراقها؛ وهنا وهناك كانت الرّيح تلوي نباتات شائكة أو أدغالاً لم تفقد بعد أوراقها اليابسة فيصدر عنها حفيف خشن.

لا أحد على الطّريق، ولا أحد في الحقول، ولا ضجيج عربة ولا ضربة سوط. الكائنات الحيّة الوحيدة كانت هي الطيور التي تُسمع ولا تُرى لأنّها كانت تبقى مختبئة تحت الأوراق. وحدها طيور العقعق كانت تتقافز على الطّريق رافعةً ذيولها ومناقيرها، قبل أن تطير لدى اقترابنا لتحطّ على قمّة إحدى الأشجار. ومن هناك كانت تلاحقنا بأصواتها المُجعجِعة، أشبه ما تكون بشتائم أو بنُذُر شؤم.

فجأةً ظهرت في السّماء نقطة بيضاء من جهة الشّمال، وكبرت بسرعة وهي تتّجه صوبنا، ثمّ سمعنا وشوشةَ أصواتٍ متنافرةٍ غريبة. كانت تلك إوزّات أو بجعات بريّة تهاجر من الشّمال إلى الجنوب. كانت تعبر فوق رؤوسنا مخلّفةً حتّى بَعدَ ابتعادها نُدَفاً من الرّيش تتطاير في الهواء فيبرزُ بياضها في خلفيّة السّماء السّوداء.

كانت الأراضي التي عبرناها حزينة ومرآها جنائزيّاً، ويضاعف الصّمتُ من وحشتها. وعلى مدى النّظر في ذلك النّهار القاتم، لم نكن نرى إلاّ الحقول الجرداء والتلال القاحلة والغابات شبْه المتفحّمة.

كانت الرّياح لا تزال تهبّ من جهة الشّمال ولكنْ مائلةً بصورة خفيفة صوب الغرب. ومن تلك الجهة من الأفق كانت تصل غيومٌ نحاسيّة وثقيلة ومنخفضة تنوء بها قمم الأشجار.

ثمّ سرعان ما بدأت تمرّ أمام عيوننا بعض ندف الثّلج الكبيرة مثل فراشات. كانت تصعد وتهبط وتدور دون أن تلامس الأرض.

لم نكن قطعنا مسافة طويلة حتّى بدا لي أنّ من المتعذّر بلوغ «تروا» قبل الثّلج. إلاّ أنّ ذلك لم يكن يقلقني كثيراً، وكنتُ أقول في نفسي إنّه بانهيار الثّلج ستتوقّف ريح الشّمال تلك وتخفّ حدّة البرد.

إلاّ أنّني لم أكن أعرف ما تعنيه عاصفة ثلجيّة.

لن أنتظر طويلاً لأعرف، وهيهات أنسى ذلك الدّرس.

كانت الغيوم الآتية من الشّمال الغربيّ قد اقتربت، وما يشبه وميضاً أبيض كان يضيء السّماء من الجهة نفسها. انشقّت الغيوم وبدأ ينهمر الثّلج.

لم تعد النُّدَف فراشاتٍ تتطاير أمامنا، بل حلّ محلّها وابلٌ من الثّلج راحَ يلفّنا لفّاً. فقال فيتاليس:

- كان مُقدَّراً لنا ألاّ نصل إلى تروا. يجب أن نجد ملجأً في أوّل منزل نصادفه.

كانت تلك كلمة حكيمة لا يمكن إلاّ أن تروقني. ولكن أين نجد ذلك المنزل المضياف؟ قبل أن يلفّنا الثّلج بعتمته البيضاء، تفحّصتُ حولي على مدى النّظر، ولم ألمح منزلاً ولا ما يبشّر بوجود قرية. لا بل بالعكس، كنّا نتأهّب للدّخول في غابةٍ تختلط أعماقها القاتمة أمامنا إلى ما لا نهاية له، إنْ من الجهتين أو على الرّوابي المحيطة.

لم يكن يجب إذن الاعتماد كثيراً على ذلك المنزل الموعود. ولكن قد يتوقّف الثّلج في نهاية المطاف.

ولكنّه استمرّ وراح يتفاقم.

وسرعان ما غطّى الطّريقَ، أو بالأحرى كلَّ ما كان يعترض زحفَه: أكوام الحجارة والأعشاب على جانبَي الطّرق، والعوسج والأدغال

في الخنادق. كانت نُدَفه تتراكض في مستوى الأرض مدفوعةً بالرّياح التي لم تضعف، لتتكدّس فوق كلّ ما كان يعترض طريقها.

المشكلة أنّنا كنّا في عداد تلك العوائق. وإذ تلفحنا تلك الثّلوج كانت تنزلق على كلّ تكويرٍ، ولكن حيثما وُجد شقٌّ دخلتْه كالغبار لتذوب فيه سريعاً.

كنتُ أحسّ بها تنساب على عنقي في هيئةِ ماء بارد، أمّا معلّمي، الذي تركَ فروة الخروف التي يرتديها مفتوحة ليتمكّن جولي-كور من أن يتنفّس، فما كان محميّاً أكثر.

إلاّ أنّنا واصلنا السّير بعكس هبوب الرّيح والثّلج دون أن ننبس ببنت شفة. ومن وقتٍ لآخر كنّا نستدير برؤوسنا نصفَ استدارةٍ من أجل التنفّس.

لم تعد الكلاب تمشي في المقدّمة بل في أعقابنا تسألنا حمايةً لم نكن قادرين على تأمينها لها.

كنّا نتقدّم ببطء ومشقّة، مبهوري الأعين، مبلّلين ومتجمّدين. ورغم مضيّ وقتٍ طويل على وجودنا في قلب الغابة، إلاّ أنّ ذلك لم يحمِنا إطلاقاً، إذ لقد كانت الطّريق معرّضةً للرّيح.

لحسن الحظّ (أوَ يمكن الكلام هنا عن حُسن الحظّ؟) خفّت الرّيح الإعصاريّة تلك شيئاً فشيئاً. إلاّ أنّ الثّلج ازداد، وبدل أن ينهمر نُدَفاً راح يتساقط بامتدادٍ وكثافة.

وفي دقائق معدودة، تدثّرت الطّريق بطبقةٍ سميكةٍ من الثّلج رحنا نمشي فيها لا يُسمَع لنا صوت.

كنتُ من حينٍ لآخر أرى معلّمي يتطلّع إلى اليسار كما لو كان

يبحث عن شيءٍ ما. غير أنّه لم تكن تُرى إلاّ فسحة واسعة قُطعت بعضُ أشجارها في الرّبيع الماضي، أمّا الأشجار الفتيّة التي تُركت فكانت أغصانها الطّريّة تنحني تحت ثقل الثّلج.

ما الذي كان معلّمي يأمل إيجاده في تلك النّاحية؟

أنا، كنتُ أنظر أمامي مباشرةً، أتطلّع على مدى النّظر، متسائلاً إن كانت الغابة ستنتهي عمّا قريبٍ، وإن كنّا سنلمح في مكانٍ ما منزلاً.

ولكن كان من الجنون أن نفكّر في اختراق ذلك الطّوفان الأبيض. فعلى مسافةٍ أمتار معدودة كانت الأشياء تتشوّش، ولا نعود نرى إلاّ الثّلج يتساقط بأكثر كثافة ليلفّنا كما لو في زرَدِ شبكة هائلة.

لم يكن الوضع يدعو للفرح، فأنا لم أرَ الثلج ينهمر يوماً، حتّى من خلف نافذةٍ في غرفةٍ دافئة، دون أن يغمرني شعورٌ غامضٌ بالاكتئاب. وفي تلك اللّحظات كنتُ أقولُ في نفسي إنّ الغرفة الدّافئة باتت أكثر بُعداً عنّا من أيّ وقتٍ مضى.

مع ذلك، كان علينا أن نمشي وألاّ نفقد شجاعتنا، لأنّ أقدامنا كانت تغوص أكثر فأكثر في طبقة الثّلج التي سرعان ما ارتفعت حتّى السّاقين، ولأنّ ما تراكمَ منه على قبّعتَينا أنا وفيتاليس كان يصبح أكثر فأكثر ثقلاً.

فجأةً، رأيتُ فيتاليس يمدّ يده باتّجاه الشّمال كما لو ليلفتَ نظري. تطلّعتُ وبدا لي أنّني أرى بشكل مبهم في البَراح كوخاً من الأغصان يغطّيه الثّلج.

لم أطالب بتفسيرٍ، كنتُ مدركاً أنّ معلّمي لم يدلّني على ذلك الكوخ لأتأمّلَ بإعجابٍ أثرَه على المشهد. كان يقصد إيجاد الطّريق

المؤدّية إليه.

كان ذلك من الصّعوبة بمكانٍ، لأنّ الثّلج كان قد أصبح من الكثافة بحيث محا أثر كلّ طريق أو درب. لكنْ في طرف المساحة المقطوعة أشجارها، حيث تعاود الأشجار الظّهور، بدا لي أنّ خندق الطّريق الرّئيسيّ قد طُمِرَ فلا بدّ أنّ الطّريق إلى الكوخ كانت تبدأ من هناك.

كان ذلك استنتاجاً صحيحاً، فالثّلج ظلّ ثابتاً تحت أقدامنا عندما نزلنا الخندق ولم يطل الوقت حتّى وصلنا إلى الكوخ.

كان مصنوعاً من حِزَمِ حطب وعيدان وُضعت فوقها أغصان لتصنعَ سقفاً. كان ذلك السّقف مشدوداً بما يكفي بحيث لا يخترقه الثّلج.

كان ذلك ملاذاً لا يقلّ قيمةً عن منزل.

دخلت الكلاب قبلنا إلى الكوخ، إمّا لكونها أكثر استعجالاً منّا أو أكثر نشاطاً، وراحت تتدحرج على التّربة الجافّة مطلِقةً نباحاً فرِحاً.

لم نكن أقلّ ارتياحاً منها، وإن لم نعبّر عن ذلك متدحرجين في التراب مع أنّ الأمر كان سيُساعدنا في أنْ ننشف.

- كنتُ واثقاً من أنّنا سنجد في مكانٍ ما من هذه المساحة المقطوعة الشّجر حديثاً كوخَ حطّاب. الآن يقدر الثّلج أن ينهمر كما يحلو له، قال فيتاليس.

- أجل، فلينهمرْ! أجبتُ أنا متحدّياً.

ثمّ توجّهتُ صوب الباب، أو بالأحرى صوب فتحة الكوخ، ذلك أنّه لم يكن له باب، ولا نافذة، لأنفضَ سترتي وقبّعتي فلا أبلّل

داخل شقّتنا.

كانت تلك شقّة بسيطة في بنائها كما في أثاثها الذي كان عبارةً عن مصطبة من الطّين اليابس وبضعة أحجار كبيرة تشكّل مقاعد. إلاّ أنّ ما كان أثمن من أيّ شيء آخر بالنّسبة إلينا في ذلك الظّرف هو خَمسُ قِطَعٍ من الآجُرّ أو ستّ، وضعت في أحد الأركان بمثابة موقد.

نار! كان بإمكاننا أن نشعل ناراً.

صحيح أنّ موقداً لا يكفي لإشعالِ نار، إذ يلزم أن يوضع فيه حطب. وفي منزلٍ كمنزلنا ذاك لم يكن من الصّعب إيجاد الحطب. لم يكن علينا إلاّ تناوله من الجدران ومن السّقف، أي سحْب أغصانٍ من حزَم الحطب والعيدان، شريطة الحرص على أخذها من هنا ومن هناك بحيث لا تهدّد متانة منزلنا.

قمنا بذلك بسرعة، وسرعان ما لمعت شعلة مضيئة تتوهّج فوق موقدنا بِفَرح.

آه! يا للنّار الجميلة! يا للنّار الدّافئة!

صحيحٌ أنّها لم تشتعل من دون دخان، وأنّ ذلك الدّخان، لعدمِ وجودِ مدخنةٍ، كان ينتشر في الكوخ. ولكن ما همّ؟ الشّعلة والدّفء هما ما كنّا نبتغيه.

كنتُ متمدّداً على الأرض على كلتا يديّ أنفخ النّار، وكانت الكلاب جالسةً على أردافها حول الموقد بكامل الوقار، مشدودة الأعناق تُدير صوب اللّهب بطونها الباردة المبلّلة.

وسرعان ما أزاح جولي-كور سترة سيّده مُخرجاً أنفه بحذر وراح يتفحّص المكان. بعدما اطمأنّ للنتيجة، قفز بسرعة إلى الأرض،

واتّخذ لنفسه أفضل مكانٍ أمام النّار، ثمّ قدّم للّهب يديه الصّغيرتين الرّاجفتين.

بتنا متأكّدين من أنّنا لن نموت من البرد، لكن تبقى مسألة الجوع.

لم يكن في ذلك الكوخ المضياف لا معجن ولا خبز ولا فرن بطناجرَ تؤنسنا بصفيرها.

إلاّ أنّ معلّمنا كان لحسن الحظّ صاحبَ نباهةٍ وخبرة. ففي الصّباح قبل أن أستيقظ كان قد حضّر زاد الطّريق: رغيف خبز وقطعة من الجُبن صغيرة. لكن الظّرف لم يكن ملائماً لنكون متطلّبين: فما إن رأينا رغيف الخبز حتّى صدرت علامات الرّضا عنّا جميعاً.

لسوء الحظّ لم تكن الحصص كبيرة، ولقد خاب أملي بشدّة. ذلك أنّه عِوَضَ أن يعطينا الرّغيف كلّه، لم يجُدْ علينا إلاّ بنصفه.

- أنا لا أعرف الطّريق، قال مجُيباً على نظراتي، ولا أدري إن كنّا سنجد في طريقنا إلى «تروا» نُزُلاً نتناول الطّعام فيه. كما لا أعرف هذه الغابة. كلّ ما أعرفه هو أنّ في هذه المنطقة غابات كثيرة شاسعة تحاذي الواحدة الأخرى: غابات «شاورس» و«روميّي» و«أوت» و«أومون». قد نكون الآن على بعد أميال عديدة من أيّ مكانٍ مأهول. وربّما ظللنا محُاصَرين في هذا الكوخ طويلاً، لذا يجب الاحتفاظ بزادٍ للعشاء.

كانت هذه أسباب يجدر بي فهمها، متذكّراً خروجنا من تولوز بعد اعتقال فيتاليس. إلاّ أنّها لم تؤثّر إطلاقاً في الكلاب. فهي ما إن رأت الرّغيف يتوارى داخل الحقيبة وهي لم تأكل كفايتها حتّى مدّت قوائمها صوب معلّمها وراحت تحكّ له ركبتيه وتقوم بإيماءات معبّرة

لتجعله يفتح الحقيبة التي كانت هي تمطرها بنظرات متوسّلة.

إلاّ أنّ المداعبات والتّوسّلات لم تأتِ بنتيجة وظلّت الحقيبة مُغلقة على ما فيها.

مع ذلك فإنّ تلك الوجبة المتقشّفة أراحتْنا. كنّا في مكانٍ آمنٍ والنّار تبعث فينا دفئاً طيّباً: كان بوسعنا أن ننتظر توقّف الثّلج.

لم يكن يخيفني البقاء في ذلك الكوخ، لا سيّما وأنّني لم أكن على قناعة من أنّنا سنظلّ محبوسين فيه طويلاً مثلما قال فيتاليس ليبرّر اقتصاده في الخبز. فالثّلج لن يظلّ ينهمر إلى الأبد.

ولكن لا شيء كان يُنبئ أنّه سيتوقّف عمّا قريب.

من فتحة كوخنا، كنّا نرى نُدَفَ الثّلج تنهمر سريعة وكثيفة. وبباعث من توقّف الرّيح، كانت النُّدَف تنزل باستقامةٍ، الواحدة تلو الأخرى دون انقطاع.

لم نكن نرى السّماء، والضّوء، بدلَ أن ينزل من علٍ كان يصعد من أسفلَ، من ذلك البساط الباهر الذي يغطّي الأرض.

أفادت الكلاب من تلك الاستراحة الإجباريّة، فغطّت في النّوم أمام النّار، واحدٌ ينام متكوّراً على نفسه، وآخر يتمدّد على جنبه، أمّا كابي فكان أنفُه يلامس الرّماد.

فكّرتُ أن أحذو حذوهم، فأنا كنت قد استيقظتُ في ساعةٍ مبكّرة، وسيكون السّفر في بلاد الأحلام، ربّما على متن مركب «البجعة»، أكثر إمتاعاً لي من النّظر إلى الثّلج.

لا أعرف كم من الوقت نمتُ. عندما استيقظتُ كان انهيارُ الثّلج قد توقّف. نظرتُ إلى الخارج فرأيتُ أنّ طبقة الثّلج التي تراكمت أمام

كوخنا قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً. إن توجّب الانطلاق فسيكون الثّلج أعلى من ركبتيّ.

كم كانت السّاعة؟

لم يكن بوسعي أن أسأل معلّمي، ذلك أنّ مداخيلنا القليلة في الشّهور الأخيرة لم تكفِ للتعويض عن تكاليف سجنه ومحاكمته، فاضطرّ لبيع ساعته في ديجون من أجل أن يشتري لي فروة الخروف وبضعة أشياء لنا نحن الاثنين. تلك السّاعة الفضيّة الكبيرة التي كنتُ رأيتُ كابي يقرأ فيها الوقت عندما ضمّني فيتاليس إلى فرقته.

كان على ضوء النّهار أن يقولَ لي ما لم أعد قادراً أن أسأل عنه ساعتَنا الكبيرة.

إلاّ أن أيّ شيء في الخارج ما كان قادراً أن يجيب على سؤالي: ففي الأسفل، على الأرض، كان ينبسط خطّ أبيض باهر. وفوقه، ينتشر في الهواء ضباب قاتم. أمّا في السّماء، فكان يلتمع وميضٌ مُبهَمٌ تشوبه هنا وهناك صفرةٌ وسِخة.

لا شيء من كلّ ذلك كان يساعدنا في أن نعرف في أيّة ساعة من النّهار كنّا.

والأذنان، شأنهما شأن العينين، ما كانتا تقدران أن تُعْلماني بأيّ شيء، فلقد حلّ صمتٌ مطبق لا يخرقه لا صوت طائر ولا ضربة سوط، ولا هدير عربة. لم أعرف ليلاً أكثر صمتاً من ذلك النّهار.

ثمّ إنّه كان يسيطر حولنا جمودٌ تامّ. فالثّلج أوقف كلّ حركةٍ وجمَّدَ كلّ شيء.

من حينٍ لآخر، وعلى أثر ضجّة صغيرة مخنوقة لا تكاد تُسمَع، كان

يُرى غصنُ صنوبر يتأرجح بقوّة. ينحني الغصن تحت وطأة حِمله شيئاً فشيئاً صوب الأرض فيتساقط الثّلج إلى الأسفل. ثمّ يستقيم الغصن فجأةً، فيما تبرز أوراقه الخُضر المسودّة على خلفيّة الدّثار الأبيض الذي يُجلّل الأشجار الأخرى، من رؤوسها إلى الجذوع، حتّى لَيُخيّل للنّاظر من بعيد أنّه يرى ثقوباً قاتمة تنفتح في الدّثار هنا وهناك.

وإذ ظللتُ واقفاً عند فتحة الباب، مندهشاً أمام ذلك المشهد، سمعتُ معلّمي يتوجّه إليّ.

- أتريد إذن أن نعاود الانطلاق؟ قال لي.

- لا أعرف، لا رغبة لي في ذلك. لكن سأفعل ما تريد.

- أرى أنا أن نبقى هنا، حيث لدينا نار ومأوى على الأقلّ.

فكّرتُ أنّه لم يبقَ لدينا المزيد من الخبز ولكنّني احتفظتُ بأفكاري لنفسي.

- أعتقد أنّ الثّلج سيعاود الانهمار عمّا قريب، أردفَ فيتاليس، ولا يجدر بنا المغامرة بالانطلاق من دون معرفة المسافة التي تفصلنا عن المنطقة المأهولة. كما أنّ اللّيل لن يكون دافئاً وسط هذا الثّلج. لذا من الأفضل تمضيته هنا، حيث ثمّة دفء على الأقلّ.

باستثناء مسألة الطّعام، أرضاني مقترَحُه هذا. ثمّ إنّنا، إذا عاودنا الانطلاق فوراً، لم يكن أكيداً أنّنا سنجد نُزُلاً نتعشّى فيه قبل حلول اللّيل. في حين كان بديهيّاً أنّنا سنجد على الطّريق طبقة من الثّلج ما وطئها قبلنا أحد، ولذا سيكون السّير عليها من الصّعوبة بمكان.

كان قد بات علينا شدّ الأحزمة على البطون، ذلك هو كلّ ما في الأمر.

وهو ما حصل عندما حان وقتُ العشاء وقسّم فيتاليس ما تبقّى من رغيف الخبز ستّة أقسام.

للأسف لم يكن بقي منه إلاّ القليل! وما أسرعَ ما أجهزنا على ذلك القليل، مع أنّنا قطّعناه إلى قطع بالغة الصّغَر لكي تطول وجبتنا!

عندما انتهى عشاؤنا الفقير، بضآلته وقصَره، خلتُ أنّ الكلاب ستكرّر حيلة الغداء، فهي لا تزال بالتأكيد تشعر بجوعٍ كبير. لكنّ شيئاً من ذلك لم يحصل، ومرّةً أخرى رأيتُ كم أنّها حادّةُ الذّكاء.

فما إن أعاد معلّمنا سكّينه إلى جيب سرواله، معلناً بذلك عن انتهاء وليمتنا، حتّى نهض كابي مومئاً برأسه لرفيقيه وذهب يشمّ الحقيبة التي نضع فيها طعامنا في العادة. ثمّ وضع قائمته برويّة على الحقيبة ليجسّها جسّاً. هذا الفحص المزدوج أقنعه بأنْ ليس فيها ما يؤكل. فعاد إلى مكانه أمام الموقد، وبعدما قام مرّة أخرى بإشارة من رأسه لدولتشي ودزربينو، تمدّد بكاملِ طوله مُطلِقاً تنهيدةً قانعة.

«لم يعد هناك من شيء! لا داعي للطّلب».

ذلك ما عبّر عنه بوضوحٍ يعادل وضوح الكلام.

تمدّد رفيقاه مثله أمام النّار وقد فهما لغته تلك، مطلقين تنهيدة مماثلة. إلاّ أنّ تنهيدة دزربينو لم تكن تنمّ عن رضوخ، فإلى شهيّته العظيمة كان هو شديد النّهم، ولذا كانت تلك التّضحية أكثر إيلاماً له ممّا لسواه.

كان الثّلج قد عاود الانهمار منذ مدّةٍ طويلة وبالإصرار ذاته. ساعة تلو الأخرى كنّا نرى الطّبقة التي يشكّلها على الأرض ترتفع على امتداد فِراخ الأشجار التي نَمت حول أرومات الأشجار المقطوعة.

وحدها سيقانها كانت لا تزال تظهر من تحت المدّ الأبيض الذي سيغمرها بعد قليل.

ولكن بعدما انتهى عشاؤنا، لم نعد نرى بوضوحٍ ما يجري خارج الكوخ، فالظّلمة حلّت بسرعة في ذلك النّهار القاتم.

بيد أنّ اللّيل لم يوقف الثّلج الذي ظلّ يتساقط في نُدَفٍ كبيرة على الأرض البيضاء.

طالما كان علينا النّوم هناك، كان من الأفضل النّوم بأسرع ما يمكن. لذا حذوتُ حذو الكلاب، فلففتُ نفسي بفروة الخروف التي كانت قد نشفت خلال النّهار أمام النّار، ثمّ تمدّدتُ إلى جانب الموقد واضعاً رأسي على حجر مسطّح استخدمتُه كوسادة.

- نَمْ، قال لي فيتاليس، سأوقظك عندما أرغب في النّوم بدَوري. فصحيحٌ أنّنا في هذا الكوخ ليس لنا ما نخشاه من الحيوانات أو البشر، إلاّ أنّ أحدنا يجب أن يظلّ صاحياً ليُبقي على النّار مشتعلة. ينبغي أن نحذر من البرد الذي يمكن أن يصير قارساً في حال توقّف انهمار الثّلج.

لم أجعله يكرّر دعوته مرّة ثانية، فنمت.

عندما أيقظني معلّمي، كان اللّيل قد تقدّم على الأرجح، أو على الأقلّ ذلك ما ظننته. كان الثّلج قد توقّف ونارُنا لا تزال مشتعلة.

- إنّه دورك الآن، قال لي فيتاليس، ليس عليك إلاّ أن تضع حطباً في الموقد من حينٍ لآخر. انظرْ لقد جهّزتُ لك ما يكفي من الحطب.

بالفعل كانت كومة من الحطب متكدّسة في متناول اليد. فمعلّمي الذي كان نومه أخفّ بكثير من نومي، لم يكن يريد أن أوقظه عندما

أذهب لسحبِ حطَبةٍ من جدار كوخنا كلّما احتجتُ إلى ذلك، لذا حضّر لي هذه الكومة ولم يكن عليّ إلاّ أن آخذ منها بهدوء.

كان في ذلك على الأرجح احتراز حكيم، لكنّه لم يحقّق للأسف النتيجة التي كان يريدها فيتاليس.

لمّا رآني صاحياً ومتأهّباً للقيام بنوبتي في الحراسة، تمدّد بدوره أمام النّار، وكان جولي-كور ملفوفاً بغطاءٍ ومضموماً إليه، وسرعان ما أعلمني نَفَسُه، الذي علا وصار أكثر انتظاماً، أنّه قد غفا.

فقمتُ بهدوءٍ على أطراف أصابعي وتوجّهتُ صوب الباب لأرى ما كان يحصل في الخارج.

كان الثّلج قد غمرَ كلّ شيء، الأعشاب والأدغال والأشجار العالية وفِراخ الأشجار. وعلى مدى النّظر، لم يكن هناك إلاّ غطاءٌ غير مستوٍ ولكنّه موحّد البياض. كانت السّماء مرصّعة بنجوم ألِقة، ولكن مهما اشتدّ ضوؤها كان النّور الشّاحب المتصاعد من الثّلج هو الذي يضيء المشهد. كان البرد قد عاود الانتشار، ولا شكّ في أنّ الأشياء في الخارج كانت تتجمّد، لأنّ الهواء نفسه كان ينفذ إلى كوخنا متجمّداً. وفي سكون اللّيل الجنائزيّ ذاك، كانت في بعض الأحيان تُسمع طقطقات تشير إلى أنّ قشرة الثّلج قد بدأت تتحوّل إلى جليد.

كنّا بالفعل محظوظين جدّاً بالعثور على ذلك الكوخ. فما الذي كان سيحصل لنا في قلب الغابة وتحت الثّلج وفي ذلك البرد؟

على قلّة ما أحدثتُه من صخبٍ وأنا أمشي، أيقظتُ الكلاب. فإذا بدزَرْبينو ينهض ويرافقني إلى الباب. وإذ لم يكن يكتفي مثلي بالنّظر

إلى بهاء ذلك اللّيل الثلجيّ، فسرعان ما شعر بالملل وهمّ بالخروج.

أشرتُ إليه بأن يدخل. ما هذه الفكرة في الخروج في البرد؟ أليس البقاء أمام النّار أفضل من التّسكّع في الخارج؟ فامتثل لأوامري، لكنّه كلب عنيد لا يتخلّى عن فكرته بسهولة، فبقيَ مديراً رأسَه إلى الباب.

ظللتُ بضع لحظات إضافيّة أتأمّل الثّلج. فمعَ أنّ المشهد كان يملأ قلبي بحزنٍ مبهم، إلاّ أنّني كنتُ أجد في تأمّله نوعاً من اللّذة، وكان يثير فيَّ رغبة في البكاء. ومع أنّه كان من السّهل أن أكفّ عن رؤيته بإغماض عيني أو بالعودة إلى مكاني، فإنّني لم أفعل لا هذا ولا ذاك.

وأخيراً دنوتُ من النّار، وبعدما ألقيتُ فيها ثلاث قطع خشبيّة أو أربعاً كانت متلاصقة، فكّرتُ أنّني بات بإمكاني الجلوس ببساطة على الحجر الذي كنتُ قد استخدمته كوسادة.

كان معلّمي ينام بهدوء. والكلاب وجولي-كور تنام هي أيضاً. ومن الموقد المشتعل ينبعث لهب جميل يرتفع حتّى السّقف في دوّامات، رامياً شراراتٍ مُفرقعة تكسر وحدَها الصّمت المحيط.

طويلاً ظللتُ أتسلّى بمراقبة الشّرر، إلاّ أنّ الملل راح يسيطر عليّ رويداً رويداً ليخدّرني دون أن أنتبه.

لو كان عليّ تحضير مخزون الحطب لكنتُ قمتُ، ولكانَ المشي داخلَ الكوخ أبقاني مستيقظاً. ولكنّ بقائي جالساً لا شيء أفعله إلاّ مدّ يدي لأضع الأغصان في النّار جعلَني أستسلم لسطوة النّعاس الذي كان قد بدأ يسيطر عليّ. ومع أنّني كنتُ واثقاً من قدرتي على البقاء صاحياً، إذا بي أغفو من جديد.

ثمّ فجأةً استيقظتُ وقد أجفلني نباحٌ غاضب.

كان الظلام مخيّماً. وكنتُ على الأرجح قد نمتُ طويلاً وانطفأت النّار، أو على الأقلّ لم يكن ينبعث منها لهبٌ يضيء الكوخ.

تواصلَ النّباح. كان ذلك صوت كابي، ولكنّ الغريب أنّه لا دزربينو ولا دولتشي كانا يجيبان.

- ماذا هناك؟ هتف فيتاليس وقد استيقظ بدوره. ما الذي يحصل؟

- لا أعرف.

- لقد غفوتَ وانطفأت النّار.

كان كابي قد اندفع صوب الباب ولكنّه لم يخرج، ومن هناك كان ينبح.

كنتُ أطرحُ على نفسيَ السّؤال عينه الذي طرحه عليّ معلّمي: ماذا جرى؟

ردّ على نباح كابي عواءان شاكيان أو ثلاثة ميّزتُ فيها صوت دولتشي. كان ذلك العواء يأتي من وراء كوخنا، ومن مسافة قريبة.

كنتُ أهمّ بالخروج، إلاّ أنّ معلّمي أوقفني واضعاً يده على كتفي، ثمّ أمرني قائلاً:

- ضعْ حطباً في النّار أوّلاً.

وفيما أنفّذ ما قاله، تناول معلّمي جذوةً من الموقد راح ينفخ عليها ليؤجّج رأسها المتفحّم.

ثمّ، بدلَ أن يرمي بالجذوة في النّار من جديدٍ بعدما احمرّت، أبقى عليها في يده ثمّ قال:

- فلنخرج لنرى، وامشِ خلفي. هيّا يا كابي!

وفي اللّحظة التي كنّا نوشك فيها على الخروج، تعالى في السّكون عواء عظيم وارتمى كابي بين أقدامنا مرتعباً.

- إنّها الذّئاب. أين دزربينو ودولتشي؟

لم أجِزْ جواباً. لا بدّ أنّ الكلبين خرجا خلال نومنا، فيكون دزربينو قد حقّق نزوته التي كنتُ عارضتُها وتكون دولتشي لحقتْ برفيقها.

فهل اختطفتهما يا ترى الذّئاب؟ بدا لي أنّ نبرة معلّمي، إذ سألني عنهما، كانت تشي بخشية كهذه.

- تناولْ جذوةً ولنذهبْ لنجدتهما، قال لي.

سبقَ أن سمعتُ في قريتي أخباراً مُروِّعة تُروى عن الذّئاب. إلاّ أنّني في تلك اللّحظة لم أتردّد. تسلّحتُ بجذوةٍ وتبعتُ معلّمي. ولكن عندما صرنا في المساحة المقطوعة الشّجر لم نلمح لا كلاباً ولا ذئاباً. لم نكن نرى إلاّ الآثار التي تركها كلْبانا على الثّلج.

تبعنا تلك الآثار وكانت تدور حول الكوخ، وبعد مسافةٍ قصيرة تظهر في العتمة مساحةٌ في الثّلج عليها آثار دعساتٍ كما لو أنّ حيواناتٍ قد تدحرجت فوقها.

- ابحثْ، ابحثْ يا كابي، كان معلّمي يقول، وفي الآن ذاته يصْفرُ لينادي دزربينو ودولتشي.

إلاّ أنّ أي نباحٍ لم يُجِبْ، ولم يكن يعكّر سكونَ الغابة الجنائزيّ أيُّ ضجيجٍ، فيما كان كابي، بدلَ أن يَبحث كما طُلِبَ منه، يلوذ بين أقدامنا وعليه علامات القلق والرّعب الواضحة، هو الذي كان في العادة شجاعاً بقدرِ ما كان مطيعاً.

لم يكن النّور المنعكس من الثّلج كافياً للاستدلال في الظّلام وتقصّي الآثار. فعلى مسافةٍ قصيرة، كانت العيون المنبهرة تضيع في اللّيل البهيم.



صفّر فيتاليس من جديدٍ وراح ينادي دزربينو ودولتشي بصوتٍ قويّ.

أصخنا السّمع، لكن وحده السّكون استمرّ. فانقبض قلبي.

مسكين دزربينو! مسكينة دولتشي!

وإذا بفيتاليس يؤكّد مخاوفي.

- لقد اختطفتهما الذّئاب. لمَ تركتَهما يخرجان؟

آه! أجل، لمَ؟ لم يكن لديّ للأسف من جواب!

- يجب البحث عنهما.

قلتُ ذلك وعَبرتُ أمامه، إلاّ أنّه أوقفني قائلاً:

- وأين ستبحث عنهما؟

- لا أدري، في كلّ مكان.

- وكيف نستدلّ في وسط هذه العتمة وهذا الثّلج؟

بالفعل، لم تكن تلك مسألة سهلة. فالثلج كان يصل إلى منتصف السّاقين وليس بجذوتينا يمكن إضاءة تلك الظّلمة.

- إذا لم يجيبا على ندائي، فذلك يعني أنّهما... بعيدان جدّاً، قال وأضاف: ثمّ إنّه ينبغي عدم المجازفة بأن ندَع الذّئاب تهاجمنا بدورنا، فليس لدينا ما ندافع به عن أنفسنا.

كان أمراً فظيعاً التخلّي هكذا عن الكلبين المسكينَين، ذينك الرّفيقين والصّديقين، لا سيّما بالنّسبة إليّ أنا، إذ كنتُ أشعر بأنّني مسؤولٌ عن هفوتهما. فلو لم أغفُ، لمَا خرجا.

توجّه معلّمي صوب الكوخ وتبعتُه ملتفتاً خلفي عند كلّ خطوة ومتوقّفاً لأصيخَ سمعي. ولكنّني لم أرَ إلاّ الثّلج ولم أسمع إلاّ صوت

طقطقته.

في الكوخ كانت تنتظرنا مفاجأة جديدة. كانت الأغصان التي كوّمتُها فوق النّار قد اضطرمت، وأخذت تبعث أضواءها في أكثر الزّوايا عتمة.

لم أجد أثراً لِجولي-كور.

كانت بطّانيّته لا تزال أمام النّار ولكنّها كانت مسطّحة ولم يكن يقبع تحتها القرد.

ناديتُه. وناداه فيتاليس بدوره لكنّه لم يظهر.

ماذا جرى له؟

قال لي فيتاليس إنّه عندما استيقظ أحسّ بوجوده إلى جانبه. أكان ذلك يعني أنّه اختفى بعد خروجنا؟

هل أراد اللّحاق بنا؟

تناولنا قبضة أغصان مشتعلة وخرجنا منحنين بأغصاننا على الثّلج بحثاً عن آثار جولي-كور.

لم نعثر على شيء. صحيح أنّ الآثار كانت قد تشوّشت بفعلِ خروج الكلاب، فضلاً عن دعساتنا نحن الاثنين، لكن ليس إلى درجة ألاّ نقدر على تمييز آثار قوائم قرد.

وعليه فهو لم يخرج.

عدنا إلى الكوخ لنرى إن كان لائذاً بإحدى حِزَم الحطب.

دام بحثنا طويلاً. مررنا عشرات المرّات أمام الأمكنة ذاتها، واعتليتُ كتفَي فيتاليس لأفتّش في الأغصان التي صُنع منها سقف الكوخ، ولكن عبثاً.

ومن وقتٍ لآخر كنّا نتوقّف لمناداة جولي-كور، ولكن بلا نتيجة.
كان فيتاليس يبدو ساخطاً، أمّا أنا فكنتُ مفجوعاً حقّاً.
مسكين جولي-كور!
سألتُ معلّمي إذا كان يعتقد أنّ الذّئاب يمكن أن تكون اختطفته هو الآخر، فأجاب:
- كلاّ. لن تتجرّأ الذّئاب على الدّخول إلى كوخٍ مُضاء. أعتقد أنّها هاجمت دزربينو ودولتشي لمّا خرجا ولكنّها لم تدخل إلى هنا. من المرجّح أن يكون جولي-كور قد ارتعب واختبأ في مكانٍ ما عندما كنّا في الخارج. وذلك ما يخيفني، لأنّه في هذا الطّقس الرّديء سيبرد، والبرد سيكون قاتلاً بالنّسبة إليه.
- فلنستأنفِ البحثَ إذن.
ومن جديدٍ استأنفنا البحث، ولكن بدون نتيجة كما في المرّة السّابقة. فقال لي فيتاليس:
- يجب انتظار طلوع الفجر.
- ومتى يطلع؟
- بعد ساعتين أو ثلاث على ما أعتقد.
قال ذلك وجلس مقابل النّار، رأسه بين يديه.
لم أجرؤ على إزعاجه. فظللتُ قربه ثابتاً لا أتحرّك إلاّ لألقي بالأغصان في النّار. أمّا هو فكان ينهض من حينٍ لآخر ويذهب حتّى الباب، ينظر إلى السّماء، ينحني ليصيخ السّمع، ثمّ يرجع إلى مكانه. كنتُ أفضّل أن يؤنّبني بدل رؤيته كئيباً ومُنهَكاً على ذلك النّحو.
ببطءٍ مُرعبٍ مرّت السّاعات الثّلاث التي حدّثني عنها. كان يبدو

أنّ ذلك اللّيل لن ينتهي أبداً.

إلاّ أنّ النّجوم بدأت تبهت، وابيضّت السّماء مبشّرةً بالصّبح، وبقربِ انبلاجِ الضّوء. لكن مع انبلاج الضّوء تفاقمَ البرد، وكان الهواء المتسلّل من الباب جليديّاً.

إنْ عثرنا على جولي-كور فهل سيكون على قيد الحياة؟

ولكن هل كان ثمّة أمل فعليّ بالعثور عليه؟

من يؤكّد لنا أنّ النّهار لن يأتينا بالمزيد من الثّلج؟

وعندئذٍ كيف نبحث عنه؟

لحسن الحظّ لم يحمل لنا النّهار ثلجاً، وبدلَ أن تتلبّد السّماء، كما في اليوم السّابق، امتلأت بشعاع ورديّ يحمل بشائرَ طقسٍ جميل.

ما إن أعاد ضوء النّهار البارد للأدغال والأشجار أشكالَها الحقيقيّة، حتّى خرجنا. تسلّح فيتاليس بعصاً غليظة، وفعلتُ مثلَه.

كان يبدو على كابي أنّه لم يعد خاضعاً لتأثير الخوف الذي استبدّ به خلال اللّيل. كانت عيناه مسمَّرتين على سيّده، ولم يكن ينتظر إلاّ إشارة لينطلق أمامنا.

جعلنا نبحث في التّربة عن آثار جولي-كور، وإذا بكابي يتلع برأسه وينبح بفرح. ما يعني أنّه كان ينبغي التّفتيش في الأعلى وليس على الأرض.

وبالفعل رأينا أنّ الثّلج الذي كان يغطّي كوخنا يحمل آثار دعساتٍ هنا وهناك وصولاً إلى فرعٍ كبير ينحني على السّقف.

تبعْنا بعيوننا ذلك الفرعَ الذي كان فرعَ سنديانةٍ ضخمةٍ، وفي أعلى الشّجرة لمحْنا شكلاً صغيراً قاتم اللّون متجمّعاً عند مفترَقِ أغصان.

كان ذلك جولي-كور، ولم يكن من الصّعب تخمين ما حصل: بدل أن يبقى قرب النّار بعدما خرجنا من الكوخ، اندفع صوب السّطح وقد أخافه عواء الكلاب والذّئاب، ومن هناك تسلّق إلى أعلى السّنديانة حيث ظلّ مختبئاً وأحسّ أنّه في مأمن، ثمّ لم يردَّ على نداءاتنا. لا بدّ أنّ الحيوان الصّغير المسكين كان متجمّداً، هو الشّديد التأثّر بالبرد.

ناداه معلّمي بصوتٍ هادئ، إلاّ أنّه لم يتحرّك كما لو كان ميتاً.

طوال دقائق، كرّر فيتاليس نداءاته، لكنّ جولي-كور لم يردّ.

كان عليّ أن أكفّر عن إهمالي خلال اللّيل.

- يمكنني أن أذهب لإحضاره إن أردتَ، قلتُ.

- ستقع وتكسر عنقَك.

- لا خطرَ في ذلك.

لم يكن ما قلتُه دقيقاً، بل بالعكس كان الأمر خطيراً وبالخصوص صعباً. كانت الشّجرة ضخمة، والأجزاء المعرّضة للرّيح من جذعها وأغصانها كان يغطّيها الثّلج.

لحسن الحظّ أنّني كنتُ قد تعلّمتُ تسلّق الأشجار منذ حداثة سنّي، واكتسبتُ في ذلك براعة مشهودة. كانت بعضُ الأغصان الصّغيرة قد نبتت هنا وهناك على طول الجذع فاستخدمتُها كدرجاتِ سُلّم. ومعَ أنّ الثّلج الذي تُوقِعه يداي على عينيّ كان يبهرني، إلاّ أنّني سرعان ما وصلتُ إلى الدّرجة الأولى بمساعدة فيتاليس. ما إن بلغتُها حتّى أصبح الصّعود سهلاً، ولم يكن عليّ إلاّ الانتباه حتّى لا أنزلق على الثّلج.

كنتُ في أثناء صعودي أتحدّث إلى جولي-كور، الذي لم يكن يتحرّك ولكنْ ينظر إليّ بعينيه اللاّمعتين.

ما كدتُ أصلُ إليه وأمدّ يدي لآخذه، حتّى قفز إلى فرعٍ آخر.

لحقته إلى ذلك الفرع. لكنّ البشر، حتّى الصّغار منهم، يظلّون دون القرود بكثيرٍ في تسلّق الأشجار. ولذا فمن المرجّح أنّني ما كنتُ لأنجح في الوصول إلى جولي-كور لو لم يكن الثّلج قد غطّى الأغصان. وبما أنّ الثّلج كان يبلّل يديه وقدميه، فسرعان ما تعب القرد من المطاردة. فتدحرج من فرعٍ إلى فرعٍ ثمّ، بوثبة واحدة، قفزَ على كتفَي سيّده واختبأ تحت سترته.

كان شيئاً عظيماً أنّنا عثرنا على جولي-كور، لكن بقيَ أن نبحث عن الكلبين.

ببضع خطواتٍ بلغنا المكان الذي كنّا أتيناه ليلاً، حيث وجدنا آثار الدّعسات على الثّلج.

وفي تلك اللّحظة، في وضح النّهار، كان سهلاً أن نخمّن ما حصل، فقد كان الثّلج يحتفظ بحكاية موت الكلبين منقوشةً فيه عميقاً.

بخروجهما من الكوخ الواحد تلو الآخر، كانا قد سارا بمحاذاة حِزَم الحطب، وكان يمكن تتبّع آثارهما بوضوح نحو عشرين متراً، قبل أن تختفي هذه الآثار في حقل الثّلج المُخرَّب. وهناك نرى آثاراً أخرى: من جهة، تلك التي تُظهِر من أين انقضّت الذّئاب، بوثبات طويلة متعدّدة، على الكلبين؛ ومن جهة أخرى، تلك التي تدلّ على الوجهة التي ساقتهما إليها الذّئاب بعدما قامت بدحرجتهما. ثمّ يختفي أثر الكلبين تماماً، باستثناء آثارٍ حمراءَ يدمى بها الثّلج هنا وهناك.



لم يعد ضرورياً المضيّ في البحث أبعد. فالكلبان المسكينان ذُبِحا هناك وحُمِلا ليؤكَلا بهناءٍ في أحد الأدغال الشّائكة. ثمّ إنّه كان علينا الإسراع إلى تدفئة جولي-كور.

عدنا إلى الكوخ، وفيما يُوجِّه فيتاليس قوائم القرد صوب النّار كما يُدفَّأ الصّغار، عملتُ أنا على تدفئة بطّانيّته، ثمّ لففناه فيها.

لكن لم يكن يلزمه بطانيّة فحسبُ بل فراشٌ مدفّأٌ أيضاً، وشرابٌ ساخنٌ خصوصاً. ونحن لم نكن نملك أيّاً من الاثنين، ومجرّد توفّرنا على النّار كان شيئاً لا يمكن تثمينه.

جلسنا أنا ومعلّمي حول النّار دون أن ننبس ببنت شفة، وظللنا هناك بلا حراك ننظر إلى النّار تشتعل.

لم يكن من حاجةٍ للكلام ولا للنّظرات للتّعبير عمّا كنّا نشعر به.

«مسكين دزربينو، مسكينة دولتشي، يا للصّديقين المسكينَين!»

كانت هذه هي الكلمات التي تمتم بها كلّ منّا من جهته، أو بالأحرى قلناها في قلبينا.

لقد كانا رفيقَينا، رفيقَينا في السّرّاء والضّرّاء، وبالنّسبة إليّ كانا صديقيَّ في أيّام خوفي ووحدتي، بل كادا يكونان ولَدَيّ.

وكنتُ مسؤولاً عن موتهما.

ذلك أنّه لم يكن يمكنني تبرئة نفسي ممّا حصل: فلو كنتُ قمتُ بالحراسة كما ينبغي، لو لم أغفُ، لما خرجا ولما أتت الذّئاب لتهاجمنا في كوخنا، ولظلّت بعيدة تُرهبها نارنا.

كنتُ أريد أن يؤنّبني فيتاليس، لا بل حتّى أن يضربني.

ولكنّه لم يقل لي شيئاً، لا بل لم يكد ينظر إليّ. ظلّ حانياً رأسه فوق الموقد. ربّما كان يفكّر في ما سيؤول إليه مصيرنا بدون الكلبين. كيف سنقدّم عروضنا بدونهما؟ كيف نعيش؟

السيّد جولي-كور

كانت توقّعات الطّقس مثلما بدا أوّل النّهار قد تحقّقت. فإذا بالشّمس تلمع في سماء بلا غيوم، والثّلج الأبيض يعكس أشعّتها المصفرّة. أمّا الغابة التي كانت في عشيّة ذلك اليوم مكفهرّة وحزينة، فقد صارت تتلألأ ببريقٍ يبهرُ العيون.

من حينٍ لآخر، كان فيتاليس يمدّ يده تحت البطّانية ليلمس جولي-كور. لكنّ هذا الأخير ظلّ باردَ الجسمِ، وعندما أنحني فوقه، كنتُ أسمعه يرتجف.

وسرعان ما بدا أنّنا لن نقدر أن نبعث الدّفء في دمائه الجامدة في عروقه.

- ينبغي أن نبلغ قريةً، قال فيتاليس وهو ينهض، وإلاّ لمات جولي-كور هنا. سنكون محظوظين إن لم يمت على الطّريق. فلنغادِرْ.

دفّأنا البطّانيّة جيّداً ولففنا بها جولي-كور، قبل أن يحمله معلّمي تحت سترته ضامّاً إيّاه إلى صدره.

كنّا جاهزين للمغادرة.

- هذا نُزُلٌ جعلنا ندفع غالياً ثمن الضّيافة التي منحنا إيّاها.

قال فيتاليس ذلك وصوته يرتجف.

خرج أوّلاً وأنا تبعتُه.

توجّب أن ننادي كابي الذي بقيَ عند مدخل الكوخ، ينظر إلى المكان الذي بوغت فيه رفيقاه.

بعد عشر دقائق من وصولنا إلى الطّريق العامّة، التقينا بعربةٍ أعلمَنا سائقها بأنّنا كنّا على بُعدِ أقلّ من ساعة عن قرية. منَحَنا ذلك المزيد من القوّة، إلاّ أنّ السّير كان صعباً وشاقّاً في وسط ذلك الثّلج الذي كنتُ أغرق فيه حتّى الخصر.

من حينٍ لآخَر، كنتُ أسأل فيتاليس عن حال جولي-كور، وكان يجيبني بأنّه ما يزال يُحسّ به يرتجف.

أخيراً، عند أسفلِ منحدرٍ، ظهرت السّطوح البيضاء لقرية كبيرة. يكفي أن نضيف قليلاً من الجهد لنصل.

لم نكن معتادين على الإقامة في أفضل الأنزال، أي تلك التي يَعِد شكلها الفاخر بمبيتٍ وطعامٍ مرموقَين. بالعكس، كنّا في العادة نتوقّف عند مداخل القرى أو في ضواحي المدن مُختارين منزلاً فقيراً، لا نُنبَذ فيه ولا تُفرَغ حافظةُ نقودنا.

ولكن ليس ذلك ما حصل لنا هذه المرّة. وبدل أن نتوقّف عند مدخل القرية، واصل فيتاليس السّير باتّجاه نُزُلٍ تتأرجح أمامه لافتة مذهّبة جميلة. من باب المطبخ المفتوح على مصراعيه، كان يمكن رؤية طاولة تعجّ باللّحوم، وفي مطبخٍ ضخمٍ كانت مجموعة من الأواني النّحاسيّة الحمراء تصدح بفرحٍ، مُرسِلَةً صوب السّقف سحائب صغيرةً من البخار. من الشّارع، كان يمكن أن نشمّ الرائحة اللّذيذة للحساء المطبوخ باللّحم، وكانت تدغدغ بلطفٍ بطوننا المتضوّرة

جوعاً.

دخل معلّمي المطبخ بعدما اتّخذ هيئة «السيّد»، قبّعته على رأسه وعنقه مشدودة إلى الخلف، وطلب من صاحب النّزل غرفةً جيّدةً مع نارٍ للتدفئة.

في البداية أَنِفَ صاحب النُّزل، وكان شخصاً وقوراً، من النّظر إلينا. إلاّ أنّ هيبة معلّمي مارست تأثيرها عليه، فأمر خادمةً بأن تقودنا.

- نَمْ بسرعة، قال لي فيتاليس فيما كانت الخادمة تشعل النّار.

ظللتُ للحظات مندهشاً، فلماذا أنام؟ كنتُ أفضّل الجلوس إلى الطّاولة بدل النّوم.

- هيّا بسرعة، كرّر فيتاليس.

فلم يكن أمامي إلاّ الامتثال.

كان هناك لِحافٌ على السّرير، فغطّاني به فيتاليس حتّى عنقي وقال لي:

- حاول أن تتدفّأ. وكلّما أحسستَ بالحرارة كان ذلك أفضل.

كان جولي-كور يبدو لي أحوَج منّي إلى الحرارة بكثيرٍ، فأنا لم أكن أحسّ بالبرد.

وفيما كنت متدثّراً باللّحاف لا تصدر عنّي حركة في محاولة للإحساس بالدّفء، كان فيتاليس يقلّب جولي-كور المسكين كما لو أنه يريد أن يشويَه، والخادمة تنظر إليه مندهشة.

- هل تشعر بالدّفء؟ سألني فيتاليس بعد بضع لحظات.

- إنّني أختنق.

- ذلك هو المطلوب.

ثمّ تقدّم صوبي بسرعة ووضع جولي-كور في سريري وهو يوصيني بالإبقاء عليه مضموماً إلى صدري.

الحيوان المسكين، الذي كان في العادة حروناً عندما يُفرَض عليه ما لا يُعجبه، بدا مُذعناً لكلّ شيء. ظلّ ملتصقاً بي لا تصدر عنه أدنى حركة. كان البرد قد غادره وبدأ جسمه يلتهب.

نزل معلّمي إلى المطبخ وسرعان ما رجع حاملاً قصعةً من الشّراب المحلّى السّاخن.

أراد أن يسقي جولي-كور من ذلك الشّراب بضع جرعات، إلاّ أنّ القرد لم يتمكّن من فتح فمه.

كان ينظر إلينا بحزنٍ بعينيه اللاّمعتين كأنّه يرجونا ألاّ نقلق راحته.

وفي الآن ذاته أخرج إحدى ذراعيه من السّرير ومدّها باتّجاهنا.

كنتُ أتساءل عن معنى هذه الحركة التي راح يكرّرها في كلّ لحظة، ففسّرَها لي فيتاليس.

قبل أن أنخرط في الفرقة، كان جولي-كور قد أصيب بالتهاب رئويّ، ولمعالجته فُصِدَتْ ذراعه. وفي تلك اللّحظات في الفندق، لأنّه كان يحسّ بالمرض من جديد، كان يمدّ لنا ذراعه لتُفصَد مرّة أخرى فيُشفى كما شُفيَ في المرّة الأولى.

لم يتأثّر فيتاليس بتلك الإيماءة فحسب، بل بدا قلقاً أيضاً.

كان واضحاً أنّ جولي-كور مريض، ولا بدّ أنّه شعر بالاعتلال الشّديد فراح يرفض حتّى الشّراب المحلّى الذي كان يحبّه كثيراً.

- اشربْه أنت، قال فيتاليس، وابقَ في السّرير، سأذهب لإحضار

طبيب.

ينبغي الاعتراف بأنّني أنا أيضاً كنتُ أحبّ الشّراب المحلّي، أضِفْ أنّني كنتُ أحسّ بجوعٍ شديد. لذا لم أجعله يكرّر طلبه مرّتين، وبعدما أفرغتُ الكوب، تدثّرتُ من جديدٍ باللّحاف، وبتأثير حرارة الشّراب كنتُ أحسّ بالاختناق.

لم يطل الوقت حتّى عاد معلّمنا مُحضِراً معه سيّداً يحمل نظّارتَين ذهبيّتَين. كان هو الطّبيب.

وخوفاً من أن يرفض ذلك الشّخص الرّفيع المقام إزعاج نفسه من أجل قرد، لم يقل له فيتاليس من هو المريض الذي استدعاه من أجله. ولذا فلمّا أبصرَني الطّبيب في السّرير وقد احمرّت سحنتي مثل وردةٍ على أهبة التفتّح، اقترب منّي ووضع يديه على جبيني قائلاً:

- احتقان.

ثمّ هزّ رأسه بشاكلةٍ لا تبشّر بالخير.

كان الوقت قد حان لقول الحقيقة وإلاّ فسيُصار إلى فصْدي. فقلتُ له:

- لستُ أنا المريض.

- كيف؟ لستَ المريض؟ هذا الطّفل يهذي، قال الطّبيب.

دون أن أجيب، رفعتُ الغطاء قليلاً وأشرتُ إلى جولي-كور الذي كان يطوّق عنقي بذراعه الصّغيرة، وقلتُ:

- إنّه هو المريض.

تراجع الطّبيب خطوتين والتفت صوب فيتاليس صارخاً:

- قرد! كيف ذلك؟ تُزعجني في مثل هذا الطّقس من أجل قرد؟!
خلتُ أنّه سيخرج مستنكراً.

إلاّ أنّ معلّمنا كان رجلاً حاذقاً لا يفقد رباطة جأشه بسهولة. بتهذيبٍ ومهابةٍ، أوقف الطّبيبَ ثمّ شرح له الوضع: كيف فاجأنا الثّلج، وكيف لجأ جولي-كور إلى سنديانة خوفاً من الذّئاب وجمّده هناك الصّقيع. وأضاف:

- صحيح أنّ المريض ليس إلاّ قرداً، ولكن أيّ قردٍ عبقريّ! فضلاً عن أنّه رفيقنا وصديقنا! فكيف نعهد بممثّل هو على مثْل هذا التميّز لمجرّدِ بيطار؟! يعلم الجميع أنّ البياطرة في القُرى ليسوا إلاّ حمقى. في حين يعرف الجميع أنّ جميع الأطبّاء، وبدرجات متفاوتة، هم رجال عِلم. وذلك إلى درجة أنّ المرء، حتّى في أصغر قرية، يثق بأنّه سيجد العِلم والسّخاء ما إن يقرع باب طبيب. وأخيراً، صحيحٌ أنّ المريض ليس إلاّ حيواناً، لكنّه بحسب العلماء الطّبيعيّين يقرب بقدرٍ كبيرٍ من الإنسان بحيث أنّهما يُصابان بالأمراض ذاتها غالباً. أليس مثيراً للاهتمام من النّاحيتين العلميّة والفنيّة معرفة أين تتشابه هذه الأمراض وأين تختلف؟

يا لهؤلاء الإيطاليّين من ممالِقين بارِعين! سرعان ما ترك الطّبيبُ البابَ واقترب من السّرير.

وفيما يتكلّم معلّمنا قام جولي-كور، الذي خمّن على الأرجح أنّ صاحب النّظّارتين كان طبيباً، بإخراج ذراعه الصّغيرة أكثر من عشر مرّات مقدّماً إيّاها لتُفصَد.

- انظرْ كم هو ذكيّ هذا القرد. يعرف أنّك طبيب، ولذا يمدّ

ذراعه لتجسّ نبضه.

كان ذلك كافياً ليحسم الطّبيب خياره، فقال:

- في الواقع، قد تكون الحالة مثيرة للاهتمام.

كانت كذلك للأسف! سيّئة ومقلقة بالنّسبة لنا، فجولي-كور المسكين كان مهدّداً بالإصابة بالتهاب رئويّ.

أخذ الطّبيب تلك الذّراع التي سبق أن مُدّت مرّات كثيرة، وغرس مفصده في العرْق دون أن يصدر عن جولي-كور أدنى أنين. كان يعرف أنّ تلك العمليّة يمكن أن تشفيه.

بعدَ عمليّة الفصد، حان دور اللّصقات والكمّادات والجرعات والنّقيع. لم أبقَ بالطّبع في السّرير وتحوّلتُ إلى ممرِّض يعمل تحت إشراف فيتاليس.



كان جولي-كور المسكين يحبّ عنايتي به ويكافئني بابتسامة لطيفة. أمّا نظرته فقد أصبحت إنسانيّة حقّاً.

هو الذي كان في الماضي شديد النّشاط، حادّ الطّبع، دائم الاعتراض ولا يكفّ عن الحراك ليوقعنا في أحابيله، صار هادئاً وليّن العريكة بشكلٍ مثاليّ.

كان يبدو بحاجة إلى أن نعبّر له عن مودّتنا، منتظراً ذلك حتّى من كابي الذي كان كثيراً ما يقع ضحيّة ألاعيبه الماكرة.

ومثل طفلٍ مدلَّل كان يريدنا أن نبقى جميعاً قربه، ويغضب عندما يخرج أحدنا.

كان مرضه يتطوّر ككلّ التهاب رئويّ، أي أنّ السّعال سرعان ما سيطر عليه ليُتعبَه كثيراً بالهزّات التي كانت ترجّ جسمه الصّغير المسكين.

كانت كلّ ثروتي عبارة عن خمسة فلوس، رحتُ أستخدمها لشراء عيدان حلوى الشّعير لجولي-كور.

لكنّني لسوء الحظّ كنتُ بذلك أزيد من ألمه بدل التّخفيف منه.

فبفضل انتباهه الشّديد لكلّ ما يجري حوله، لم يلزمه وقتٌ طويل ليلاحظ أنّني أعطيه شيئاً من الحلوى كلّما سعل. ولذا سارع للإفادة من معاينته تلك وراح يسعل في كلّ لحظة سعياً للحصول على العلاج الذي يحبّه، حتّى أنّ ذلك العلاج بدلَ أن يشفيه زاده اعتلالاً.

عندما انتبهتُ لحيلته لم أعد أعطيه الحلوى ولكنّه لم ييأس: في البداية راح يرجوني بعينيه المتوسّلتين. بعد ذلك، ولمّا رأى أنّ ابتهالاته لم تكن تُجدي، جعلَ يجلس على قفاه منحنياً ويضع يده على بطنه ويبدأ بالسّعال بكلّ قوّته، فيشتعل لون وجهه وتنتفخ عروق جبينه وتنهمر الدّموع من عينيه لينتهي مختنقاً لا عن ادّعاء هذه المرّة بل هو اختناق

حقيقيّ.

لم يُفصح لي معلّمي يوماً عن مشاريعه، وبالصّدفة عرفتُ أنّه اضطُرّ لبيع ساعته ليشتري لي فروة الخروف. ولكن في ظلّ الظّروف التي كنّا نجتازها ارتأى مخالفة قاعدته تلك.

وذات صباح، بعدما عاد من تناول الفطور، في حين كنتُ قد ظللتُ إلى جانب جولي-كور، الذي لم نكن نتركه وحيداً قطّ، أعلمني بأنّ صاحب النّزل طالبه بدفع تكاليف إقامتنا. فلم يبقَ بعد ذلك لدى فيتاليس إلاّ خمسون فلساً.

ما العمل؟

بالطّبع لم أجِر في تلك المناسبة جواباً.

أمّا هو فلم يكن يرى إلاّ طريقةً واحدة للخروج من المأزق، وهي تقديم عرضٍ في ذلك المساء بالذّات.

عرضٌ من دون دزربينو ودولتشي وجولي-كور؟! كان ذلك يبدو لي ضرباً من المُحال.

ولكنّنا لم نكن في وضعٍ يسمح لنا بأن نقف خائري العزيمة أمام أمرٍ متعذّر. كان يجب معالجة جولي-كور بأيّ ثمن وإنقاذه. والطّبيب والأدوية والتّدفئة والغرفة، هذا كلّه كان يرغمنا على تحصيل مدخولٍ فوريّ من أربعين فرنكاً على الأقلّ ندفعها لصاحب النّزل. عندما يرى هذا الأخير نقودنا، سيُمهلنا مرّة أخرى.

أربعون فرنكاً في هذه القرية وفي هذا البرد وبالإمكانات المتوفّرة لدينا: يا له من مطْلبٍ صعب!

إلاّ أنّ معلّمي لم يُطلِ التّفكير وبدأ ينْشط للتّحضيرات.

وفيما أسهرُ على مريضنا، وجدَ فيتاليس صالة عرضٍ تقع داخلَ السّوق، فمن غير الممكن إقامة عرضٍ في الهواء الطّلق في مثل ذلك البرد. حضّر الملصقات ووزّعها، وبشجاعةٍ صرف فلوسه الخمسين لشراء شموعٍ قام بقطعها من الوسط ليضاعفَ الإضاءة.

من نافذة الغرفة، كنتُ أراه يروح ويجيء في الثّلج. وكنتُ أتساءل قلِقاً عمّا سيكون عليه برنامج العرض. وسرعان ما أتاني الجواب، لأنّ طبّالَ القرية، بقبّعته العسكريّة الحمراء، توقّف أمام النّزل، وبعد قرعٍ عظيمٍ قام بتلاوة البرنامج.

كان يمكن أن نتخيّل بسهولة محتوى العرض عندما نعرف أنّ فيتاليس قدّم الوعود الأكثر مبالغةً عن «فنّان مشهور في العالم أجمع» - كان ذلك هو كابي -، وعن «مغنٍّ هو طفلٌ مُعجزة» - كنتُ أنا المعجزة.

إلاّ أنّ الجزء الأكثر إثارةً في ذلك الخطاب الخلاّب كان قوله إنّ أسعار الأماكن غير محدّدة سلفاً وإنّ الاحتكام سيكون لِسخاء المشاهدين الذين لن يدفعوا ثمن تذاكرهم إلاّ بعد أن يروا ويسمعوا ويصفّقوا.

كان ذلك يبدو لي شديد المجازفة، إذ هل سيصفّقون لنا فعلاً؟ كان كابي يستحقّ أن يُدعى مشهوراً؛ أمّا أنا فلم أكن واثقاً تماماً من كوني طفلاً-معجزة.

عندما سمع كابي صوت الطّبل راح ينبح فرِحاً، أمّا جولي-كور فنهض قليلاً مع أنّه كان شديد الاعتلال في تلك اللّحظة. لقد خمّن

كلاهما، في اعتقادي، أنّ الطبّال يتحدّث عن عرْضنا الوشيك.

سرعان ما تأكّد لي ذلك بفضلِ إيماءات جولي-كور: فقد أراد أن ينهض واضطررتُ لمنعه بالقوّة. فطلبَ منّي بذلة الضّابط الإنجليزيّ الخاصّة به، أي البزّة والسّروال الأحمر المزيّن بالشّرائط الذّهبيّة والقبّعة العالية ذات الرّياش.

كان يجمع يديه ويركع ليرجوني بشاكلةٍ أكثر إلحاحاً.

عندما رأى أنّه لن ينال منّي بالرّجاء شيئاً، حاول اللّجوء إلى الغضب ثمّ إلى البكاء.

كان أكيداً أنّه سيكون من الصّعب جعْله يعدل عن فكرته باستعادة دوره مساءً، لذا فكّرتُ أنّ من الأفضل في هذه الحال ألاّ نجعله يعرف برحيلنا.

لكن لسوء الحظّ، عندما عاد فيتاليس، وكان يجهل ما جرى في غيابه، فإنّ أوّل ما قاله هو أن أحضّر قيثارتي وكلّ اللّوازم الضّروريّة لعرضنا.

لمّا سمع جولي-كور هذه الكلمات التي كان يعرفها جيّداً بدأ توسّلاته لمعلّمه هذه المرّة. لو كان يمتلك القدرة على الكلام لما عبّر باللّغة عن رغباته بأفضل ممّا فعله بالأصوات المختلفة التي كان يطلقها، وبانقباضات وجهه وإيماءات جسمه كلّه. كانت دموعاً حقيقيّة تلك التي بلّلت خدّيه، وكانت قبلات فعليّة تلك التي طبَعَها على يدَي فيتاليس.

- تريد التّمثيل؟ سأله هذا الأخير.

- أجل، أجل، كان كلّ كيانه يصرخ.

- ولكنّك مريض يا جولي-كور المسكين.

- لم أعد مريضاً، كان يصرخ بصورةٍ لا تقلّ تعبيراً.

كان أمراً مؤثّراً حقّاً رؤية الحميّة التي تصدر عن ذلك المريض الصّغير المسكين الذي لم يعد يملك للتعبير عن ابتهالاته سوى اللّهاث، فضلاً عن الهيئات والوقفات التي كان يتّخذها لجعلنا نوافق على طلبه. ولكنّ منحه ما يطالب به كان يعني الحكم عليه بالموت المؤكّد.

كان الوقت قد حان للذّهاب إلى السّوق. لذا حضّرتُ في الموقد ناراً جيّدة بواسطة أحطاب كبيرة يُفترض أن تدوم طويلاً. لففتُ جولي-كور المسكين في بطّانيّته وهو يبكي بحرارة ويقبّلني بقدر استطاعته، ثمّ انطلقنا.

أثناء سيرنا في الثّلج، شرح لي معلّمي ما الذي كان ينتظره منّي.

لم يكن ممكناً تقديم تمثيليّاتنا المعتادة، بسبب غياب ممثّلينا الرّئيسيّين، لكن كان علينا أنا وكابي أن نستثمر كلّ ما لدينا من نشاطٍ وموهبة. كان ينبغي تحصيل أربعين فرنكاً.

أربعون فرنكاً! ذلك شيء مخيف.

كان فيتاليس قد حضّر كلّ شيء، ولم يكن تبقّى إلاّ إشعال الشّموع. ولكنّ ذلك كان ترفاً لا يمكن أن نسمح به لأنفسنا إلاّ عندما تقرب الصّالة من أن تكون ممتلئة، فإضاءتنا كان يجب ألاّ تنتهي قبل العرض.

وفيما نجهّز مسرحنا، كان الطبّال يجوب شوارع القرية مرّة أخيرة، وكنّا نسمع قرعه الذي يبتعد أو يقترب بحسب موقع الشّوارع.

بعدما أنهيتُ ترتيب هندام كابي وهندامي، ذهبتُ لأقف خلف أحد الأعمدة لأرى وصول الجمهور.

وسرعان ما اقترب قرع الطّبّال وسمعتُ في الشّارع جلَبةً مبهمة.
كان حوالى عشرين ولداً يتبعون الطبّال بمشيتهم النظاميّة.
ومن دون أن يتوقّف الطّبّال عن القرع، جاء يقف بين فانوسَين مُضاءين عند مدخل مسرحنا، ولم يعد على الجمهور إلاّ أنّ يتّخذ أماكنه في انتظار أن يبدأ العرض.
ولكن وا أسفاه كم كان وصوله بطيئاً، مع أنّ الطّبّال واصلَ عند الباب قرْعه على الطّبل بنشاطٍ وفرَح! كان كلّ أطفال القرية، في اعتقادي، قد اتّخذوا أماكنهم. ولكن ليس الأولاد هم من سيدرّون علينا أربعين فرنكاً. كان يلزمنا أشخاصٌ ذوو شأنٍ، لديهم صُرَرٌ ملأى وأيدٍ سخيّة. قرّر معلّمي أخيراً أنّ علينا أن نبدأ، رغم أنّ الصّالة لم تكن قد امتلأت بعد. ولكن لم يكن بالإمكان الانتظار أكثر ونحن نهجس بمسألة الشّموع الرّهيبة.
كنتُ أوّل الصّاعدين إلى المسرح، فغنّيتُ أغنيتين صغيرتين بمرافقة قيثارتي. وحتّى أكون صريحاً، ينبغي أن أقول إنّ التّصفيق الذي فزتُ به كان ضئيلاً.
لم يكن لي يوماً ذلك الاعتداد بالنّفس الذي يملكه الممثّلون. ولكن في ذلك الظّرف، أحزنتني برودة الجمهور. كان أكيداً أنّني لم أعجبهم وأنّهم لن يفتحوا صررهم. لم أكن أغنّي طلباً للمجد ولكن للمسكين جولي-كور. آه، كم كنتُ راغباً في التّأثير على ذلك الجمهور ليتحمّس لي ويفقد عقله! ولكن بقدر ما كان يمكنني الرّؤية في تلك الصّالة الملأى بالأشباح الغريبة، بدا لي أنّني لا أثير اهتمام الجمهور وأنّه لم يكن يرى فيّ طفلاً معجزةً البتّة.

كان كابي أكثر حظّاً إذ صفّق له النّاس مراراً وبحرارة.

استمرّ العرض، وبفضل كابي انتهى بالتّصفيق والاستحسان. لم يكن النّاس يصفّقون بأيديهم فحسبُ بل راحوا يخبطون بأقدامهم أيضاً.

كانت اللّحظة الحاسمة قد حانتْ. وفيما أرقصُ على خشبة المسرح بصحبة فيتاليس رقصةً إسبانيّة، كان كابي يجول بين الصّفوف حاملاً بفمِه القصعةَ التي كنّا نجمع فيها تبرّعات الجمهور. فهل سينجح في تحصيل أربعين فرنكاً؟ كان هذا السّؤال يعصر قلبي وأنا أبتسمُ للجمهور راسماً على وجهي ألطفَ التّعابير.

كنتُ منهكاً ولكنّني واصلتُ الرّقص، إذ كان عليّ ألاّ أتوقّف قبل عودة كابي. وهو لم يكن في عجلة من أمره، وعندما لم يكن يُعطى شيئاً كان يربّت بقائمتيه الأماميّتَين تربيتاً خفيفاً على الجيب الذي لا يريد أن ينفتح.

أخيراً رأيتُه يعود، وكنتُ على وشك أن أتوقّف عن الرّقص، عندما أشار لي معلّمي بالمواصلة. فأكملتُ، وإذ اقتربتُ من كابي، رأيتُ أنّ القصعة لم تكن قد امتلأت. كان يلزمها الكثير من أجل ذلك.

في تلك اللّحظة كان فيتاليس هو أيضاً قد خمّن مقدارَ ما حصلنا عليه، فوقف ليقول:

- يمكنني القول، ومن دون أن أكون في موقعِ مَن يُثني على نفسه، أنّنا قدّمنا عرضنا على أكمل وجه. ولكن بما أنّ شموعنا لم تنطفئ بعد، فسأغنّي للحضور الكريم، إذا كان راغباً في ذلك، بضعَ أغنيات. وسيقوم كابي بجولةٍ جديدة، ومن لم يتمكّنوا عند جولته الأولى من

الاهتداء إلى فتحات جيوبهم، قد يكونون أكثر مهارةً هذه المرّة. أُعلِمُهم منذ الآن لكي يتحضّروا سلفاً.

مع أنّ فيتاليس كان أستاذي، فأنا لم أسمعه يوماً يغنّي فعلاً، أو على الأقلّ كما غنّى ذلك المساء.

لقد اختار أغنيتين يعرفهما الجميع، ما عداي أنا في ذلك الحين. الأولى عاطفيّة بعنوان «جوزيف» ويقول مطلعها: «ما كدْنا نخرج من الطّفولة» والثّانية بعنوان «ريشار قلب الأسد» ومطلعها: «يا ريشار، يا ملكي!».

في تلك الفترة، لم أكن قادراً أن أحكم على غناءٍ، هل هو جيّد أم سيّئ، فنّيّ أم غير فنّيّ. ولكنّ ما يمكنني قوله هو الشّعور الذي أثارته فيَّ طريقته في الغناء. في زاوية المسرح حيث انسحبتُ، انفجرتُ بالبكاء.

من خلال الضّباب الذي كان يبهر عينيّ، رأيتُ سيّدةً شابّة كانت تجلس في الصّفّ الأوّل تصفّق بكلّ قوّتها. كنتُ سبق أن لمحتُها، لأنّها لم تكن فلاّحةً على غرار باقي الحضور. كانت سيّدة حقيقيّة، شابّة وجميلة، ومن معطفها الفرو خمّنتُ أنّها هي أثرى سكّان القرية. إلى جانبها، كان يجلس ولدٌ صفّق بدوره لكابي طويلاً. إنّه ابنُها على الأرجح، لأنّه كان يشبهها شبهاً كبيراً.

بعد الأغنية العاطفيّة الأولى، كرّر كابي جولته، وباندهاشٍ رأيتُ أنّ السيّدة الجميلة لم تضع في القصعة شيئاً.

عندما أنهى معلّمي أغنية «ريشار»، أومأتْ لي بيدها فاقتربتُ منها.

– أريد التحدّث إلى سيّدك، قالت لي.

فاجأني قليلاً أن ترغب تلك السيّدة الجميلة في محادثة معلّمي. كان الأحرى بها، في نظري، أن تضع هبةً في القصعة. مع ذلك ذهبتُ ونقلتُ طلبها إلى فيتاليس، وكان كابي في تلك الأثناء قد رجع إلى جانبنا. كانت حصيلة الجولة الثّانية أقلّ بكثير من الأولى.

- ماذا تريد منّي هذه السيّدة؟ سألني فيتاليس.

- تريد التحدّث إليك.

- ليس لديّ ما أقوله لها.

- لم تعطِ شيئاً لكابي. ربّما تريد أن تعطيه الآن.

- إذن، على كابي أن يذهب إليها وليس أنا.

إلاّ أنّه في النّهاية قرّر الذّهاب ولكنْ مصطحباً كابي.

فتبعتُهما.

كان خادم قد جاء في تلك الأثناء ووقف إلى جانب السيّدة وابنِها حاملاً قنديلاً وبطّانيّة.

اقترب فيتاليس وألقى التحيّة ولكن ببرود.

- اعذرني لأنّني أزعجتُك، قالت السيّدة، ولكنّني أردتُ أن أهنّئك.

انحنى فيتاليس دون أن ينبس ببنت شفة.

- أنا موسيقيّة، تابعتِ السيّدة، وأردتُ أن أقولَ لكَ كم تأثّرتُ بموهبةٍ كموهبتك.

موهبةٌ كبيرة لدى معلّمي؟! لدى فيتاليس، مغنّي الشّوارع ومرقّص الحيوانات؟! كانت دهشتي كبيرة.

- لا موهبة لدى رجلٍ هرِمٍ مثلي، قال فيتاليس.

– لا تظنّني مدفوعةً بفضولٍ متطفّل، قالت السيّدة.

– ولكنّني على أتمّ الاستعداد لتلبية هذا الفضول. لقد أدهشكِ أن تسمعي مرقّص كلابٍ يغنّي بصورة شبْه صحيحة، أليس كذلك؟

– لا بل أنا مسحورة.

– مع ذلك فالأمر بسيط. فأنا لم أكن دوماً ما أنا عليه الآن. في الماضي، في أيّام شبابي، منذ زمن طويل، كنتُ... أجل، كنتُ أعمل خادماً لدى مغنٍّ كبير. وبتقليده، كببّغاء، رحتُ أردّد بعض الألحان التي كان معلّمي يحفظها أمامي. هذا كلّ شيء.

لم تُجِب السيّدة، ولكنّها أطالتْ النّظر إلى فيتاليس الذي كان يقف أمامها وعلى وجهه الارتباك.

– وداعاً يا أستاذي، قالت وهي تشدّد على كلّمة «أستاذي» التي لفظتْها بنبرةٍ غريبة. وداعاً، ومرّة أخرى دعني أشكرك على المشاعر التي أثرتَها فيَّ قبل قليل.

ثمّ انحنتْ على كابي ووضعتْ في قصعته قطعة نقديّة ذهبيّة.

ظننتُ أنّ فيتاليس سيقوم بمرافقة السيّدة، ولكنّه لم يتحرّك. وعندما ابتعدتْ بضع خطوات، سمعتُه يشتم بصوتٍ هامسٍ مرّتين أو ثلاثاً بالإيطاليّة.

– ولكنّها نقدتْ كابي لويسيّة[1]، قلتُ.

خلتُ أنّه سيصفعُني، إلاّ أنّه أوقف يده المرفوعة.

– لويسيّة، قال كما لو كان يخرج من حلم. آه، أجل، هذا صحيح، مسكين جولي-كور، كدتُ أنساه، فلنذهب إليه.

---

(1) «اللّويسيّة»: قطعة نقود ذهبيّة كانت تساوي 20 فرنكاً (المترجمة).

وضّبنا أغراضنا بسرعة ولم نتأخّر في العودة إلى النّزل.

صعدتُ الدّرج أنا الأوّل ودخلتُ غرفتنا راكضاً. لم تكن النّار مطفأة، ولكنّها لم تكن تعطي لهباً. أضأتُ بسرعةٍ شمعةً وفتّشتُ عن جولي-كور مستغرباً عدم سماعي له.

كان متمدّداً على بطّانيّته وقد ارتدى بذلة الجنرال وكان يبدو نائماً.



انحنيتُ عليه لأمسكَ بيده بهدوء دون أن أوقظه، إلاّ أنّ تلك اليد كانت باردة تماماً.

في تلك اللّحظة، دخل فيتاليس الغرفة، فالتفتّ إليه.

- جولي-كور باردٌ تماماً!

انحنى فيتاليس قربي وقال:

- للأسف هو ميّت! كان ذلك متوقّعاً. أتعرف يا ريمي؟ ربّما أخطأتُ باستعادتك من السيّدة ميليغان. كأنّ كلّ ما يحصل هو عقابٌ على خطأٍ ارتكبتُه. في البداية دزربينو ودولتشي، والآن جولي-كور. ولن تكون هذه نهاية الخسارات.

الفصل السّادس عشر

الوصول إلى باريس

كنّا لا نزال بعيدين جدّاً عن باريس.

توجّب أن ننطلق منتهجين الطّرُق المغطّاة بالثّلج، وأن نمشي من الصّباح إلى المساء، في مواجهة ريح الشّمال التي كانت تعصف في أوجهنا.

كم كانت حزينة تلك الأشواط الطّويلة! كان فيتاليس يسير في المقدّمة وأنا أتبعه وكابي يقتفي أثري.

كنّا نتقدّم في صفٍّ واحد، صفّ لم يكن طويلاً، دون أن نتبادل كلمة واحدة طيلةَ ساعات. كانت وجوهنا مزرقّة من البرد وأقدامنا مبلّلة ومِعَدُنا فارغة. أمّا النّاس الذين كنّا نلتقيهم في طريقنا، فكانوا يتوقّفون ليتفرّجوا علينا.

لا شكّ أنّ أفكاراً غريبة كانت تخطر على بال كلٍّ منهم: إلى أين يا تُرى يقود هذا الرّجلُ الشّائخُ الطّفلَ والكلبَ اللّذين يرافقانه؟

كان الصّمتُ يؤلمني بشدّة. كنتُ محتاجاً لأن أتكلّم وأفرّج عن همّي. لكنْ عندما كنتُ أتوجّه إلى فيتاليس بالكلام، لم يكن يجيبني إلاّ بكلمات مقتضبة ومن دون حتّى أن يستدير.

لحسن الحظّ أنّ كابي كان أكثر قابليّة للتّواصل. وخلال السّير غالباً ما كنتُ أحسّ على يدي بلسانٍ بليلٍ ودافئ؛ كان ذلك هو لسان كابي

جاء يلحس يدي ليقولَ لي:

- تعْلم أنني هنا، أنا كابي، صديقك.

فكنتُ أداعبه بلطفٍ دون أن أتوقّف.

كان يبدو سعيداً بالتفاتتي العاطفيّة تجاهه بقدر ما كنت سعيداً بالتفاتته تجاهي. كان كلٌّ منّا يفهم الآخر ويحبّه.

كان ذلك دعماً لي وأنا واثقٌ من أنّه كان دعماً له كذلك. فقلب الكلب لا يقلّ حساسية عن قلب طفل.

كانت تلك المداعبات تحمل له عزاءً كبيراً، ولعلّها كانت ستنسيه موت رفاقه لولا أنّ قوّة العادة كانت تعود لتتلع برأسها أحياناً. في تلك اللّحظات، كان يتوقّف فجأةً على الطّريق ليرى ما إذا كانت فرقته تتبعه كما عندما كان هو عريفها وكان عليه غالباً أن يتفقّدها. ولكنّ ذلك لم يكن يدوم إلاّ ثواني معدودة، إذ كانت ذاكرته تستفيق ويتذكّر فجأةً لماذا لم تكن الفرقة تأتي. فكان يسبقنا بسرعة وينظر إلى فيتاليس ليتّخذه شاهداً على أنّ ذلك لم يكن خطأه هوَ. فلئن كان دولتشي ودزربينو لا يأتيان فذلك لأنّهما لن يأتيا بعد ذلك اليوم أبداً. كان يقوم بذلك بعينَين شديدَتي التّعبير والنّطق تتوقّدان ذكاءً بحيث كان ينقبض قلبانا.

لم يكن ذلك يبهج مسيرتنا، في حين كنّا بأشدّ الحاجة، أنا على الأقلّ، لما يفرّج عنّا.

كان غطاء الثّلج الأبيض ينتشر في كلّ أرجاء الرّيف. لا شمس في السّماء، بل نهارٌ مشوبٌ بالصّهبةِ وباهت. لا حركة في الحقول ولا من فلاّحين يعملون. لا صهيلَ خيولٍ ولا خوارَ بقرٍ، بل وحده نعيق

الزّيغان الجاثمة على أعلى الأغصان العارية تصرخ جوعها دون أن تجد على الأرض مكاناً تحطّ فيه بحثاً عن بعض الدّود. وفي القرى لا منازل مفتوحة، بل الوحدة والصّمت. فالبرد قارس، ولذا يبقى النّاس أمام المواقد أو هم يعملون في الإصطبلات ومخازن الغلال المغلقة بإحكام.

أمّا نحن، فكنّا نمشي قدُماً وبلا هوادة في الطّرُق الوعرة أو الزّلقة، ولا نرتاح إلاّ للنّوم في إصطبل أو حظيرة، مع قطعة خبزٍ صغيرة تكون في الأوان ذاته غداءً لنا وعشاءً. وعندما نكون محظوظين ويرسلوننا إلى الحظيرة كنّا نفرح بذلك، فحرارة الخراف ستحمينا من البرد. زد على ذلك أنّ الموسم كان موسم إرضاع النّعاج لحملانها، وكان الرّعاة يسمحون لي أحياناً بشرب القليل من حليب النّعاج. لم نكن نقول إنّنا نكاد نتضوّر جوعاً، ولكنّ فيتاليس بمهارته المعتادة كان يجيد التّلميح إلى أنّ «الصّبيّ يحبّ كثيراً حليب النّعاج، لأنّه اعتاد في طفولته أن يشرب منه فيذكّره ذلك بمسقط رأسه». لم تكن تلك الحكاية تُكلّل



بالنّجاح دوماً، ولكن عندما يصدّقها الآخرون كنّا نحظى بأمسية جميلة. فأنا بلا شكّ أحبّ كثيراً حليب النّعاج، وعندما أشرب منه أُلفيني في اليوم التّالي أكثر نشاطاً وقوّة.

الكيلومترات تلو الكيلومترات، ومرحلة من السّير تلو الأخرى. كنّا نقترب من باريس، ولو لم تُعلمني بذلك عواميد الأميال المزروعة على امتداد الطّريق، لعرفتُ الأمر من حركة المرور التي صارت أكثر كثافةً، وكذلك من لونِ الثّلج الذي يغطّي الطّرق والذي صار أكثر اتّساخاً منه في سهول منطقة «شامبانيي».

أمرٌ غريبٌ، على الأقلّ بالنّسبة لي، وهو أنّ ريف باريس لم يبدُ لي أكثر جمالاً، والقُرى كانت شبيهة بتلك التي عبرناها قبل بضعة أيّام. مراراً كنتُ سمعتُ عن عجائب باريس حتّى ظننتُ بسذاجةٍ أنّ تلك العجائب ستعلن عن نفسها من بعيدٍ بشيءٍ ما، خارجٍ عن المألوف. لم أكن أعرف ما الذي كان عليّ أن أتوقّعه على وجه التّحديد، ولم أكن أجرؤ على السّؤال، ولكنّني في التّحليل الأخير كنتُ أتوقّع خوارق ومعجزات. خوارق من قبيل أشجارٍ من الذّهب وشوارعَ محاطة بقصور من الرّخام، وفي تلك الشّوارع سكّان يرتدون ملابسَ من الحرير. كان هذا كلّه سيبدو لي طبيعيّاً.

رغم تركيزي الشّديد بحثاً عن الأشجار الذّهبيّة، كنتُ ألاحظ أنّ النّاس الذين كنّا نلتقيهم ما عادوا ينظرون إلينا. لا بدّ أنّهم كانوا شديدي الاستعجال أو ربّما كانوا معتادين على مشاهد أكثر إيلاماً من ذلك الذي كنّا نقدّمه.

لم يكن الأمر يدعو للاطمئنان.

ما الذي سنفعل في باريس، ولا سيّما في حالة البؤس التي نحن فيها؟

كان ذلك هو السّؤال الذي كنت أطرحه على نفسي بقلقٍ، وكان يشغل تفكيري خلال تلك المسيرات الطّوال.

كنتُ أرغب في طرحه على فيتاليس، ولكنّني لم أكن لأجرؤ على ذلك، إذ كان هوَ يبدو شديد التجهّم وأحاديثه مقتضبة.

ذات يوم، تلطّفَ واتّخذ إلى جانبي مكاناً، ومن الشّاكلة التي نظر بها إليّ شعرتُ أنّه سيخبرني بما كنتُ منذ زمن بعيد توّاقاً إلى معرفته.

حصل الأمر ذات صباح. كنّا قد أمضينا اللّيلة في مزرعة لا تبعد كثيراً عن قرية كبيرة تُدعى، بحسب ما تشير إليه اللاّفتات الزّرقاء في الطّريق، «بواسّي سان ليجيه». كنّا قد انطلقنا في أولى ساعات الفجر، وبعدما سرنا بمحاذاة أسوارِ أحدِ المتنزّهات وعبرنا القرية المدعوّة «بواسّي سان ليجيه» بكاملها، لمحنا أمامنا من أعلى أحد الكثبان غيمة كبيرة من الأبخرة السّوداء تطفو فوق مدينة ضخمة لم نكن نميّز منها إلاّ بعض المباني المرتفعة.

كنتُ أفتح عينيّ على سعتهما في محاولة لإيجاد نفسي وَسَطَ تلك الجمهرة من سطوح وأجراس وأبراج ضائعة في الضّباب والدّخان، عندما أبطأ فيتاليس سيره وجاء يقف إلى جانبي.

- هي ذي حياتنا تتغيّر، قال لي كما لو كان يكمل حديثاً كان قد بدأه منذ وقتٍ طويل. بعد أربع ساعات نصل إلى باريس.

- آه! وهل هي باريس هذه المدينة الممتدّة هناك؟

- طبعاً.

في اللّحظة التي قال لي فيها فيتاليس إنّ تلك هي باريس، انبعث من السّماء شعاعٌ ولمحتُ التماعاً ذهبيّاً عَبَرَ خاطفاً مثل البرق.

أنا بالفعل لم أخطئ. فسوف أجد فيها أشجاراً من الذّهب.

ثمّ تابع فيتاليس:

- في باريس سننفصل.

وعلى الفور حلّ الظّلام وما عدتُ أبصر الأشجار الذّهبيّة.

التفتُّ صوبه. كان هو أيضاً ينظر إليّ. وجهيَ الذي كان قد شَحُبَ وشفتاي اللّتان راحتا ترتجفان أعلماه بما كان يعتمل في دواخلي.

- ها أنتَ قلقٌ، قال لي، وحزينٌ أيضاً على ما أعتقد.

- ننفصل؟! قلتُ أخيراً بعد لحظة المفاجأة الأولى.

- أيّها الصّغير المسكين!

تلك الكلمة والنّبرة التي بها لُفظتْ جعلتا عينيّ تغرورقان بالدّموع. لقد مرّ زمنٌ طويلٌ لم أسمع فيه كلمة تعاطف!

- آه، كم أنت طيّب! هتفتُ.

- أنت هو الطّيّب. أنت صبيّ طيّب، وقلبٌ صغير شجاع. اعلمْ أنّ في الحياة لحظات نكون فيها على استعداد للبوح بمثل هذه الأمور والاستسلام للحنان. عندما يكون كلّ شيء على ما يُرام، نتبع طريقنا من دون التّفكير كثيراً في مَن يرافقنا. ولكن عندما تسوء الأحوال ونشعر بأنّنا سائرون في طريق مسدودة، لا سيّما عندما نكون متقدّمين في السّنّ ولا أمل لنا في الغد، نحتاج للاستناد إلى من يحيطون بنا ونكون سعداء لوجودهم إلى جانبنا. أنت تجد أنّ من الغريب أن أستند أنا إليك، أليس كذلك؟ ومع ذلك فهذا صحيح. يكفي أن

أرى الآن عينيك تدمعان وأنت تستمع إليّ لأشعرَ بالرّاحة. فأنا أيضاً أشعر بالألم يا صغيري ريمي.

فيما بعد فحسب، عندما بات لي أحدٌ أحبّه، أدركتُ مدى صواب هذه الكلمات.

ثمّ تابع فيتاليس بالقول:

- تكمن المأساة في كون لحظة الانفصال تأتي تحديداً في اللّحظة التي نكون فيها أحوج إلى التّقارب.

فقلتُ له بخجل:

- ولكنّك لا تريد التخلّي عنّي في باريس، أليس كذلك؟

- كلاّ بالتّأكيد. لا أريد التخلّي عنك، صدّقني. فماذا ستفعل وحدك في باريس يا ولدي المسكين؟ ثمّ اعلمْ جيّداً أنّه لا يحقّ لي أن أتخلّى عنك. في اليوم الذي رفضتُ فيه أن أتركك في عناية تلك السيّدة الطيّبة التي كانت تريد أخذك على عاتقها وتربيتك كولدٍ من أولادها، بات لزاماً عليّ أن أربّيك بنفسي وبأفضل ما أستطيع. ولكن لسوء الحظّ عاكستني الظّروف. وفي هذه اللّحظات لا يمكنني أن أقدّم لك شيئاً. ولذا أفكّر في أن ننفصل، ليس إلى الأبد، ولكن لبضعة شهور، ليتسنّى لكلٍّ منّا أن يجتاز من جهته الشّهور الأخيرة من هذا الفصل السيّئ. سنصل إلى باريس بعد بضع ساعات، فماذا تريد أن نعمل مع فرقة تقتصر على كابي وحده؟

لمّا سمع الكلب اسمه، اقترب لينتصب أمامنا واضعاً قائمته الأماميّة على أذنه في تحيّة عسكريّة، ومن ثمّ على قلبه كما لو كان يريد أن يقول لنا إنّه بإمكاننا الاعتماد على تفانيه.

وفي الظّرف الذي كنّا فيه لم يسهم ذلك في تخفيف التّأثّر الذي كان يعصف بنا عصفاً.

فتوقّف فيتاليس قليلاً عن الكلام ليمرّر يده على رأس كابي، وقال له:

- أنت أيضاً كلبٌ طيّب!

ثمّ أردف يخاطبني:

- ولكنْ ليس بالطّيبة يمكن أن نحيا في هذا العالم. الطّيبة ضروريّة لنُسعِد مَن معنا، ولكن يلزم شيء آخر أيضاً، وهذا ما لا نملكه. ما تريد أن نفعل بصحبةِ كابي وحده؟ أنت تدرك تمام الإدراك أنّنا لا نقدر الآن أن نقدّم عروضاً، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- سيسخر الأولاد منّا وسنُرشَق بلبّ التّفاح ولن نتمكّن من تحصيل عشرين فلساً في اليوم. أتريد أن نعيش ثلاثتنا بعشرين فلساً في اليوم؟ ثمّ إنّ العشرين فلساً نفسها لن تكون مضمونة في أيّام المطر والثّلج والبرد القارس!

- ولكن يمكنني العزف على قيثارتي.

- لو كان معي ولدان مثلك لاستوتِ الأمور على الأرجح. ولكنّ رجلاً مسنّاً مثلي مع ولدٍ في سنّك لهوَ مشروعٌ خاسر. فأنا لستُ هرِماً بعدُ بما يكفي. لو كنتُ هرِماً أو حتّى أعمىً لاختلفَ الأمر. ولكن لسوء الحظّ أنا ما أنا، أقصد أنّني لستُ في وضعٍ يستدعي الشّفقة. ولإثارة تعاطف أهل باريس المستعجلين الذّاهبين إلى أشغالهم، ربّما كان من الأفضل أن يظهر المرء في هيئة مُزرية. أضفْ أنّ عليه ألاّ

يخجل من التّسوّل، وذلك ما لا أقدر عليه البتّة. يلزمنا أمرٌ آخر. إليك إذن ما فكّرتُ فيه وقرّرتُه. سأعهد بكَ حتّى نهاية الشّتاء إلى معلّم يضمّك إلى أطفال آخرين لتعزف على القيثارة.

عندما تحدّثتُ عن قيثارتي لم أكن أفكّر في ترتيبٍ كهذا.

لم يترك لي فيتاليس المجال لكي أقاطعه وتابع كلامه:

- أمّا أنا، فسأعطي دروساً في عزف القيثارة والكمنجة للأطفال الإيطاليّين الذين يعملون في شوارع باريس حيث أقمتُ مراراً، وحيث كنتُ قبل أن أصل إلى قريتك. ليس عليّ إلاّ أن أطلب إعطاء الدّروس لتنهال عليّ عروض لا أقدر أن أفي بها كلّها. سنعيش، ولكن كلٌّ من جهته. وإلى جانب الدّروس، سأعمل على تربية كلبين يحلاّن محلّ دزربينو ودولتشي. سأعلّمهما بصورة مكثّفة، وفي الرّبيع يمكننا أن نعاود الانطلاق سويّة يا صغيري ريمي، ولن نفترق بعد ذلك إطلاقاً، لأنّ الحظّ ليس سيّئاً دوماً لمن يمتلكون الشّجاعة للمقاومة. والشّجاعة هي تحديداً ما أطلبه منك في هذه اللّحظات، الشّجاعة والتحمُّل. فيما بعد، سوف تسير الأمور على نحو أفضل، هذه ليست إلاّ مرحلة صعبة ولسوفَ نتخطّاها. وفي الرّبيع نستعيد حياتنا الحرّة. سوف آخذك إلى ألمانيا وإنكلترا. ها إنّك تصير أكبر وذهنك يتفتّح. سوف أعلّمك أموراً كثيرة وأجعل منك رجلاً. لقد تعهّدتُ بذلك أمام السيّدة ميليغان. وسألتزم بتعهّدي. من أجل هذه الرّحلات تحديداً بدأتُ تعليمك الإنجليزيّة والفرنسيّة والإيطاليّة. وهذا أمرٌ عظيم بالنّسبة لطفلٍ في مثل سنّك، دون أن ننسى أنّك صرتَ الآن أكثر قوّة. سوف ترى يا صغيري ريمي، سوف ترى، نحن لم نخسر

كلّ شيء.

كان ذلك التّرتيب على الأرجح هو أكثر ما يلائم ظرفنا الذي كنّا فيه. وعندما أفكّر في ذلك الآن، أعترف بأنّ معلّمي قام بكلّ ما يمكن لإخراجنا من وضعنا السّيّئ ذاك. ولكنّ الأفكار التي تنشأ لدينا بتروٍّ ليست هي نفسها أفكار ردّة الفعل الأولى.

ففي ما كان يقوله لم أكن أرى إلاّ مسألتين:

انفصالنا؛

والمعلّم الجديد.

في رحلاتنا عبر القرى والمدن، قابلتُ العديد من أولئك المعلّمين الذين يربّون بالعصا الأطفالَ العاملين تحت رعايتهم.

ما كانوا يشبهون فيتاليس في شيء. كانوا قساة وظالمين ومتطلّبين ومُفسِدين، لا تغادر الشّتائم والبذاءات أفواههم، وأيديهم متأهّبة للضّرب دوماً.

كان يمكن أن أقع على واحد من أولئك المعلّمين المخيفين. وحتّى لو جلبَ لي الحظّ شخصاً طيّباً، فسيكون ذلك تغييراً آخر في حياتي:

فبعد مربّيتي، فيتاليس.

وبعد فيتاليس، شخصٌ آخر.

أذلك ما سيكون عليه الحال دوماً؟ ألن أجد يوماً شخصاً أحبّه إلى الأبد؟

شيئاً فشيئاً تعلّقتُ بفيتاليس كما يتعلّق الابن بأبيه.

لن يكون لي إذن أبٌ أبداً.

ولا عائلة.

سأظلّ على الدّوام وحيداً في هذا العالم.

سأظلّ أبداً ضائعاً على هذه الأرض الواسعة حيث لن أجد لي مستقرّاً!

كان لديّ الكثير لأقوله، والكلمات كانت تصعد من قلبي إلى شفتيّ ولكنّي أكبتُها.

فقد طلبَ منّي معلّمي الشّجاعة والإذعان. لذا أردتُ أن أطيعه وألاّ أزيد من أحزانه.

في كلّ الأحوال، لم يعد سائراً إلى جانبي، فكما لو كان خائفاً من سماع ما يتوقّع أنّني كنت سأقول، استعاد سيره على بُعد خطوات منّي إلى الأمام.

فتبعتُه، ولم يطلِ الأمر حتّى وصلنا إلى نهرٍ عبرناه على جسر موحل لم أرَ مثيلاً له يوماً. فكالفحم المطحون كان الثّلج الأسود يغطّي الطّريق المعبّدة بطبقة متحرّكة يغرق فيها السّائر حتّى كاحلَيه.

كان في نهاية ذلك الجسر قريةٌ ذات شوارع ضيّقة. وبعد تلك القرية يبدأ الرّيف من جديدٍ، ولكنّه ريفٌ مُثقَلٌ ببيوتٍ تجلّلها مظاهر البؤس.

وعلى الطّريق كانت العربات تتتابع وتتلاقى بلا توقّف. فاقتربتُ من فيتاليس ومشيتُ إلى يمينه، فيما كان كابي يتبعنا عن قرب.

وسرعان ما تلاشى ذلك الرّيف، لنجدَ أنفسنا في شارعٍ لا نهاية له. في البعيد، بيوتٌ من كلّ جانب. ولكنّها بيوتٌ فقيرة ووسخة وأقلّ جمالاً من بيوت بوردو أو تولوز أو ليون.

كان الثّلج قد جُمِعَ أكواماً من ساحةٍ إلى أخرى. وعلى تلك الأكوام السّوداء الصّلبة رُميَت أرمدةٌ وخضارٌ مهترئةٌ ونفايات شتّى. كان الهواء عابقاً بروائح كريهة، والأطفال اللاّعبون أمام المنازل كان يبدو عليهم الشّحوب. وفي كلّ لحظة، كانت تمرّ عرباتٌ ثقيلةٌ يتفادونها بمهارة بالغة دون أن يبدو عليهم الاكتراث.



- أين نحن الآن؟ سألتُ فيتاليس.

- في باريس، يا بنيّ.

- في باريس؟!...

أهذا ممكن؟ أهذه هي باريس؟!

أين هي إذن منازل الرّخام؟

أين هم المارّة بثيابهم الحريريّة؟
كم كان الواقع بشعاً وبائساً!
أهذه هي باريس التي لطالما تمنّيتُ رؤيتها؟
للأسف نعم! وكان عليّ أن أمضي فيها الشّتاء، منفصلاً عن فيتاليس وكابي.


Twitter: @ketab_n

معلم[1] شارع لورسين

رغم أنّ كلّ ما كان يحيط بنا بدا لي فظيعاً، فتحتُ عينيّ واسعتين لأتطلّع حولي حتّى كدتُ أنسى خطورة الوضع الذي كنتُ أنا فيه.

بقدرِ ما كنّا نتقدّم بباريس، كان ما أراه يفقد انسجامَه وأحلامَ طفولتي وتمنّياتِ خيالي: كانت الجداول تبقى متجمّدة، والوحل الممزوج بالثّلج يزداد سواداً، وعندما يكون في حالة سائلة يثب من تحت عجلات العربات لُطَخاً سميكة تلتصق بواجهات البيوت ونوافذها، تلك البيوت التي تشْغلها دكاكين فقيرة ووسخة.

في الحقيقة لم تكن باريس لِتضاهي بوردو.

مشينا طويلاً في شارع عريض أقلّ بؤساً من الشّوارع التي كنّا عبرناها لتوّنا، كانت الدّكاكين تصير فيه أكبر وأجمل كلّما تقدّمنا نزولاً. بعد ذلك استدار فيتاليس إلى اليمين، وسرعان ما تلقّفَنا حيٌّ بائسٌ تماماً كانت المنازل العالية والسّوداء فيه تبدو كأنّها تتلامس من الأعلى. وكان جدول غير متجمّد بَعدُ يجري في وسط الجادّة، فيما حشدٌ من النّاس غفيرٌ يدعس البلاط الموحل غير آبهٍ بمياه الجدول النّتنة. لم أرَ قطُّ وجوهاً أكثر شحوباً من أوجُه النّاس الذين كان يتألّف

---

(1) يُلقّب في الرّواية بالـ «بادروني»، وتعني بالإيطاليّة «معلّم»، أي رئيس عمّال، فهو نفسه من أصل إيطاليّ (المترجمة).

منهم ذلك الحشد. ولم أرَ قطّ أطفالاً بمثل جسارة أولئك الذين كانوا يروحون ويجيئون في وسط المارّة. أمّا في المقاهي، وكانت كثيرة، فقد كان رجال ونساء يشربون واقفين أمام مناضد القصدير ويصرخون عالياً جدّاً.

عند زاوية أحد المنازل قرأتُ اسم شارع «الورسين».

كان بادياً على فيتاليس أنّه يعرف إلى أين هو ذاهب. بهدوءٍ كان يُبعد كلّ من يعوق مروره، وأنا كنتُ أتبعه عن قرب.

«انتبهْ ولا تفقدْ أثري»، قال لي.

إلاّ أنّ التّنبيه لم يكن لازماً، فأنا كنتُ أقفو أثره، ولمزيد من الأمان كنتُ أمسك بأحد أطراف سترته.

بعدما عبرنا فناءً كبيراً ثمّ ممرّاً، وصلنا إلى ما يشبه بئراً معتمة ومخضرّة لا بدّ أنّ الشّمس لم تنفذْ إليها يوماً. كان ذلك المكان قبيحاً ومُخيفاً أكثر من أيّ شيء آخر كنتُ رأيتُه من قبل.

- هل غاروفولي في منزله؟ سأل فيتاليس رجلاً كان يعلّق خِرَقاً على أحد الأسيجة مستعيناً بقنديل.

- لا أعرف، اصعدْ وانظرْ بنفسك. أنت تعرف أين، في أعلى الدّرج، الباب المقابل.

- غاروفولي هو المعلّم الذي حدّثتكَ عنه، قال لي فيتاليس وهو يصعد السّلالم التي كانت درجاتها مغطّاة بطبقة من التّراب الزّلق كما لو أنّها حُفرت في صلصالٍ رطب. إنّه يسكن هنا.

لم يكن الشّارع والمنزل والسّلالم من النّوع الذي يبعث الانشراح في النّفس. فما سيكون عليه الحال مع المعلّم؟

كانت السّلالم تمتدّ على أربعة طوابق. دفع فيتاليس الباب المواجه لسطح الدّرج دون أن يطرقه فإذا بنا في غرفةٍ واسعة، نوعٍ من تسقيفة كبيرة. في وسطها، مساحةٌ واسعة فارغة وحولها دزينةٌ من الأسرّة. كانت الجدران والسّقف بلونٍ يصعب تحديده. يبدو أنّها كانت في البدء بيضاء، إلاّ أنّ الدّخان والغبار وأوساخاً من كلّ صنفٍ سوّدت الجصّ الذي كان في بعض الأماكن محفوراً أو مثقوباً. وإلى جانب رأسٍ مرسومٍ بالفحم، نُحِتَتْ أزهارٌ وعصافير.

- غاروفولي، أأنت في أحد الأركان هنا؟ قال فيتاليس وهو يدخل. فأنا لا أرى أحداً. أجبني من فضلك، فيتاليس هو من يكلّمك.

بالفعل كانت الغرفة تبدو فارغة، على الأقلّ بقدر ما كان يمكن التمييز في الضّوء المنبعث من السّراج المعلّق إلى الحائط. إلاّ أنّ صوتَ معلّمي ردّ عليه صوتٌ ضعيفٌ ونائحٌ، صوتُ طفلٍ أجاب:

- السّينيور غاروفولي قد خرج. لن يعود قبل ساعتين.

وفي اللّحظة ذاتها ظهرَ مَن أجابنا: كان طفلاً في حوالى العاشرة من العمر. تقدّم باتّجاهنا وهو يجرّ نفسه جرّاً، ففاجأني شكله الغريب كما لو أنّي ما زلتُ أراه الآن أمامي: يكاد يكون بلا جسم، أمّا رأسه الضّخم الذي لا يتناسب وجسمَه فكان يبدو كما لو أنّه وُضع مباشرةً على ساقيه، كما في الرّسوم السّاخرة التي كانت شائعة قبل سنوات. كان لذلك الرّأس تعابير عميقة من الألم والرّقّة، وفي العينين إذعانٌ وفي ملامحه العامّة قنوط. مع بنيةٍ كبنيته، لم يكن وسيماً، إلاّ أنّه كان يلفت النّظر ويشدّه باللّطف وبنوعٍ من السّحر ينبعث من عينيه الكبيرتين الدّامعتين الرّقيقتين كعينَي كلبٍ، وكذلك من شفتيه



المعبّرتَين.

- أأنت واثقٌ من أنّه سيعود بعد ساعتين؟ سأل فيتاليس.

- تماماً يا سينيور. سيكون ذلك وقت العشاء، ولا أحد سواه يقدّم الطّعام.

- حسناً. إذا عاد قبل ذلك، فقلْ له إنّ فيتاليس سيرجع بعد ساعتين.

- بعد ساعتين، نعم سينيور.

كنتُ أتأهّب للّحاق بمعلّمي عندما أوقفني قائلاً:

- ابقَ هنا لكي ترتاح. سأعود.

ولأنّ إيماءة فزعٍ صدرت عنّي، أضاف هوَ:

- أؤكّد لك أنّني سأعود.

كنتُ رغم تعبي أفضّل اللّحاق بفيتاليس. ولكنّني كنتُ معتاداً على طاعته إذ يأمرني، فبقيت.

عندما لم تعد تُسمع على السّلالم خطوات معلّمي الثّقيلة، التفتَ إليّ الولد الذي كان يصيخ سمعه صوبَ الباب. قال لي بالإيطاليّة:

- أأنتَ من البلاد؟

بفضلِ صحبتي لفيتاليسَ تعلّمتُ ما يكفي من الإيطاليّة لأفهم معظمَ ما يُقال بهذه اللّغة. ولكنّني لم أكن أتكلّمها بعدُ بما يكفي من الجودة لكي أستخدمها. لذا أجبتُه بالفرنسيّة:

- كلاّ.

فقال بحزنٍ وهو يركّز عليّ عينيه الكبيرتين:

- وا أسفاه! كنتُ أفضّل أن تكون من البلاد.

- أيّة بلاد؟

- من لوكا، في إيطاليا. فلربّما حملتَ لي أخباراً من هناك.

- أنا فرنسيّ.

- آه، لحسن الحظّ.

- أنت تحبّ الفرنسيّين أكثر من الإيطاليّين؟

- كلاّ، لم أقل «لحسن الحظّ» من أجلي أنا وإنّما من أجلك أنت. لأنّك لو كنتَ إيطاليّاً فستأتي على الأرجح إلى هنا لتعمل لدى السّينيور غاروفولي. ولا نقول «لحسن الحظّ» لمَن يدخلون في خدمة المعلّم.

لم تكن هذه الكلمات من النّوع الذي يطمئنني.

- أهوَ رجلٌ شرّير؟

لم يُجِبِ الطّفل على هذا السّؤال المباشر، ولكنّ النّظرة التي وجّهها إليّ كانت معبِّرة بصورة مخيفة. وكما لو لم يكن يريد أن يواصل الحديث عن هذا الموضوع، أدار لي ظهره وتوجّه صوب موقد كبير كان يحتلّ طرف الغرفة.

كانت تشتعل فيه حزمة من خشب الخرائب صانعةً ناراً جميلةً، وأمامها تغلي قدْرٌ كبيرة من الفولاذ.

فاقتربتُ من الموقد لأتدفّأ، وانتبهتُ إلى أنّ على القدْر شيئاً غريباً لم أرَه بادئ ذي بدء. فالغطاء الذي يعلوه أنبوب ضيّق يخرج منه البخار كان مثبّتاً إلى القدْر من جهةٍ بواسطةِ رزّةٍ، ومن الجهة الأخرى بواسطةِ قفل.

فهمتُ أنّه لا يجدر بي طرح أسئلة متطفّلة بشأن غاروفولي ذاك، ولكن ماذا بشأن القدْر؟

- لماذا هي مغلقة بقفل؟

- حتّى لا أتمكّن من أخذ طاسةٍ من المرق. فرغم أنّني أنا المسؤول عن تحضير الحساء، إلاّ أنّ المعلّم لا يثق بي.

لم أتمكّن من إخفاء ابتسامة، فأكمل الصبيّ بنبرةِ حزن:

- أنت تضحك لأنّك تعتقد أنّني نهِم. لو كنتَ مكاني لكنتَ نهِماً مثلي. لستُ شرهاً، بل أنا أتضوّر جوعاً، ورائحة الحساء التي تنبعث من هذا الأنبوب تُحيل جوعي أكثر ضراوة.

- أيتركك السّينيور غاروفولي إذن تموت من الجوع؟

- لو صرتَ تعمل عنده، فستعلم أنّنا لا نموت من الجوع بل نعاني

منه فحسب. لا سيّما أنا، فهذا قصاصٌ لي.

- قصاص؟! الموت جوعاً؟!

- أجل. سأقصّ عليك التّالي، فإذا صار غاروفولي معلّمك كانت قصّتي عبرةً تنفعك. السّينيور غاروفولي هو عمّي وقد أخذني في عهدته بدافع الشّفقة. فأمّي أرملة وليست ثريّة كما تتوقّع. عندما جاء غاروفولي إلى البلاد في السّنة الفائتة باحثاً عن أطفالٍ يشتغلون عنده، عرضَ على أمّي أن أكون واحداً منهم. كان صعباً على أمّي أن تتركني أرحل ولكن، وكما تعلم، لا بدّ ممّا ليس منه بدّ. وكان لا بدّ من أن أرحل، لأنّنا في المنزل ستّة أطفالٍ، وأنا أكبرهم. كان غاروفولي يفضّل اصطحاب شقيقي ليوناردو الذي يأتي بعدي، لأنّه وسيم أمّا أنا فقبيح. فلكسب المال، ينبغي ألاّ يكون الواحد قبيحاً. فالقبيحون لا ينالون إلاّ الضّرب أو الشّتائم. لكنّ أمّي لم تشأ إرسال ليوناردو وقالت لغاروفولي: «ماتيا هو البِكر، وهو مَن عليه الذّهاب طالما يجب أن يذهب واحد منهم. لقد اختاره الله وأنا لا أجرؤ على تغيير مشيئة الله». وهكذا جئتُ برفقة عمّي غاروفولي. لا بدّ أنّك تتخيّل كم أنّ مغادرة المنزل كانت شيئاً قاسياً. مغادرة أمّي التي كانت تبكي، وشقيقتي الصّغرى كريستينا التي تحبّني كثيراً لأنّها هي الصّغرى، وكنتُ أحملها دوماً بين ذراعيّ، ومغادرة أشقّائي أيضاً، ورفاقي والبلاد.

كنتُ أعرف أين تكمن صعوبة انفصالٍ كهذا. فأنا لم أكن قد نسيتُ انقباض القلب الذي خنقني عندما لمحتُ للمرّة الأخيرة قبّعة السيّدة باربُران البيضاء.

وتابع الصّغير ماتيا حكايته:

- كنتُ وحدي مع غاروفولي عندما غادرتُ منزل أهلي. ولكن بعد ثمانية أيّام صرنا دزينة من الأطفال وانطلقنا معه صوب فرنسا. آه! كم بدت الطّريق طويلة لي ولرفاقي الذين كانوا هم أيضاً حزانى! وأخيراً، لمّا وصلنا إلى باريس كان عددنا أحد عشر لأنّ واحداً منّا تُرِكَ في مستشفى ديجون. وفي باريس أُخضِعنا للاختيار: من كان منّا قويّاً وُضع في خدمة مصلّحي المداخن أو منظّفيها. أمّا من لم يكونوا أقوياء بما يكفي للمهنة فكان عليهم أن يذهبوا ليغنّوا في الشوارع أو يعزفوا على آلة الأرغول. طبعاً لم أكن أنا قويّاً بما يكفي للعمل، ويبدو أنّني أقبح من أن أتمكّن من تحصيلِ مدخولٍ جيّدٍ بالعزف على الأرغول. فأعطاني غاروفولي فأرتين بيضاوين صغيرتين كان عليّ عرضهما أمام أبواب المنازل في الأزقّة، وسعّر يومي بثلاثين فلساً وقال لي: «كلّ فلسٍ يكون ناقصاً في المساء، تنال عنه ضربة عصا». كان صعباً جمْع ثلاثين فلساً، ولكن كان صعباً أيضاً تلقّي ضربات العصا، لا سيّما عندما يكون غاروفولي هو مَن يوجّه الضّربات. لذا كنتُ أفعل كلّ ما بوسعي لجمع المبلغ، ولكنْ رغم الجهد غالباً ما كنت لا أتمكّن من جمعه. كان معظم رفاقي يرجعون دائماً في المساء ومعهم فلوسهم كاملةً، أمّا أنا فغالباً ما كنتُ أعود بدونها. كان ذلك يضاعف من غضب غاروفولي فيقول لي: «ولكن كيف يفعل هذا الغبيّ ماتيا؟». كان هناك ولدٌ يعرض مثلي فئراناً بيضاء فُرض عليه جمع أربعين فلساً في اليوم، وكان ينجح في إحضارها كلّ مساء. خرجتُ معه أكثر من مرّة لأرى كيف كان يفعل وما كان يجعله أكثر مهارةً منّي. ففهمتُ

لماذا كان يحصل بسهولة على فلوسه الأربعين بينما يصعب عليّ أنا إحضار ثلاثين. فعندما كان رجلٌ وامرأة يعطياننا المال، كانت المرأة تقول دوماً: «نعطي للوسيم لا للقبيح». والقبيح كان هو أنا. لذا لم أعد أخرج بصحبة رفيقي، لأنّه إن كان مؤلماً تلقّي ضربات العصا في المنزل، فمن المؤلم أكثر تلقّي عبارات سيّئة في الشّوارع أمام الجميع. أنت لا تعرف ذلك، لأنّ أحداً لم يقل لك يوماً إنّك قبيح، أمّا أنا... وأخيراً، عندما رأى غاروفولي أنّ الضّرب لا ينفع معي في شيء، استخدمَ وسيلة أخرى. قال لي: «عن كلّ فلسٍ ينقصك سأحرمك من حبّة بطاطس عند العشاء. فبما أنّ جِلدكَ قاسٍ لا يؤثّر فيه الضّرب، فقد تكون معدتك أكثر تأثّراً بالجوع». هل أثّرت فيك التّهديدات أنت يوماً؟

- بِحَسَبِ الظّروف!

- أمّا أنا فلا تؤثّر بي إطلاقاً. وفضلاً عن ذلك، لم يكن بوسعيَ القيام بأكثر ممّا قمتُ به حتّى تلك اللّحظة. لم يكن بوسعي أن أقول للّذين أمدّ لهم يدي: «إن لم تعطوني فلساً، فلن أحصل على البطاطس هذا المساء». فالذين يتصدّقون على الأطفال لا يفعلون ذلك لمثل هذه الاعتبارات.

- ولأيّ أسباب يُعطون؟ فالمرء يُعطي لكي يُرضي الآخر.

- آه! أنت لا تزال صغيراً. مَن يهب مالاً يفعل ذلك ليُرضي ذاته أوّلاً. ومن يتكرّم على طفل يفعل ذلك أيضاً لأنّ الطّفل لطيف، وذلك هو السّبب الأفضل. يعطيه مالاً من أجل الطّفل الذي فقَدَه هوَ أو من أجل الطّفل الذي يرغب في نيله. يعطيه لأنّه يتمتّع بالدّفء

فيما يرتجف الطّفل برداً تحت بوّابة أحد الأبنية، وهذا ما يُسمّى الرّأفة. آه! أنا أعرف أنماط الصّدَقة هذه كلّها. فلقد تسنّى لي الوقت لمعايتتها. إليك مثلاً، الطقس هذا اليوم بارد، أليس كذلك؟

- باردٌ بشدّة.

- حسناً، اذهبْ واجلسْ تحت أحد الأبواب ومدَّ يدك إلى رجلٍ تراه قادماً بسرعة متجمّعاً داخل معطفه النّصفيّ الصّغير وقلْ لي ما سيعطيك. وبالعكس، مدّ يدك لرجلٍ يمشي بهدوء متلفّفاً بمعطفٍ طويل أو بالفرو. قد تحصل منه على قطعةٍ نقديّة مُجزِية. أمّا أنا، فبعدَ شهرٍ أو ستّة أسابيع على هذه الحمْية لم أسمن طبعاً. صرتُ شاحباً حتّى أنّني غالباً ما كنتُ أسمع النّاس حولي يقولون: «هذا الطّفل سيموت جوعاً». وآنئذٍ فعل الجوع لي ما لم يشأ الحُسن أن يفعله: جعلني مثيراً للاهتمام ومنحَني عينين، فأشفق عليّ سكّان الحيّ. ولئن لم أجمع فلوساً كثيرة، إلاّ أنّني كنتُ أحصل على قطعة من الخبز، أو على صحن حساء.

كانت تلك أفضل أيّامي: فلم أكن أتعرّض للضّرب، لا ولم يكن يهمّني أن أُحرَم من البطاطس في وجبة العشاء طالما وجدتُ ما أتعشّى به. ولكنَ ذات يومٍ رآني غاروفولي عند بائعةِ فاكهةٍ ألتهمُ صحنَ حساءٍ، ففهمَ لماذا كنتُ أحتمل من دون شكوى حرماني من البطاطس. فقرّر ألاّ أخرج بعد ذلك اليوم وأن أبقى في الغرفة أحضّر الحساء وأقوم بأشغال التّنظيف. ولكن بما أنّه يمكنني خلال تحضيري الحساء أن آكل منه، قام باختراع هذه القدْر. في كلّ صباح، قبل أن يغادر، يضع فيها اللّحم والخضار ويغلق الغطاء بالقفل ولا يبقى عليّ

إلاّ غليُها. كلّ ما أستطيعه هو شمّ رائحة المرق، ولكن مستحيل أن أتمكّن من تناول شيء منه عبرَ هذا الأنبوب الضيّق. ومنذ وجودي في المطبخ وأنا بهذا الشّحوب، ذلك أنّ رائحة المرق لا تغذّي بل تُفاقِم الجوع فحسب. هل تراني بحالٍ جيّدة؟ فلأنّي بتُّ لا أخرجُ لم أعدْ أسمع أحداً يقول لي ذلك، وليس هنا من مرآة.

لم يكن لي آنذاك كبيرُ خبرةٍ، ومع ذلك كنتُ على درايةٍ بأنّه يجب عدم إخافة المرضى بإخبارهم بأنّ حالتهم تبدو لنا سيّئة.

- أنت لا تبدو لي أكثر شحوباً من الآخرين، أجبتُ.

- أعرف جيّداً أنّك تقول هذا لتطمئنني. أمّا أنا فيسعدني أن أكون شديد الشّحوب، لأنّ ذلك سيعني أنّني مريض جدّاً، وأنا أريد أن أكون كذلك.

نظرتُ إليه باندهاش كبير، فقال لي مبتسماً:

- أنت لا تفهمني، مع أنّ الأمر بسيط. عندما نكون شديدي الاعتلال فإمّا أن يعالجنا الآخرون أو يتركونا نلفظ أنفاسنا الأخيرة. إذا تركوني ألفظ آخِرَ أنفاسي، فسينتهي الأمر ولن أتعرّض بعد ذلك للجوع أو الضّرب. ثمّ إنّه يُقال إنّ الموتى يعيشون في السّماء. في هذه الحالة، من محلّ إقامتي في السّماء سأتمكّن من رؤية أمّي في البلاد. أمّا إذا عولجتُ، فسيرسلونني إلى المستشفى، وسأكون مسروراً بالذّهاب إلى المستشفى.

أنا، كان لديّ خوفٌ فطريّ من المستشفيات. وعندما كان يرهقني التّعب وأُحسّ بالتّوعّك أثناء مسيراتنا الطّوال، كان يكفي أن أفكّر في المستشفى لأستعيد على الفور قدرتي على السّير. لذا استغربتُ أن

أسمع ماتيا يتحدّث بالشّاكلة تلك.

- لو تعلم كم نرتاح في المستشفى! قال لي متابعاً كلامه. سبقَ أن أُدخِلتُ إلى مستشفى سانت-أوجيني. فيه يوجد طبيب أشقر طويل القامة، يحمل دوماً في جيبه عيدان سكّرٍ، عيداناً مكسّرة، لأنّها زهيدة الثّمن، وهذا لا يعني أنّها أقلّ لذّة. كما أنّ الرّاهبات هناك يتحدّثن إليك ببالغ اللّطف: «افعلْ هذا يا صغيري. مدَّ لسانك، أيّها الصّغير المسكين». أنا أحبّ أن يخاطبني النّاس بشيء من اللّطف، ذلك يُشعِرني بالحاجة إلى البكاء، وهو ما يجعلني سعيداً جدّاً. هذا غباء أليس كذلك؟ ولكنّ أمّي كانت تكلّمني بلطف دوماً. والرّاهبات يتكلّمن كما كانت تتكلّم أمّي، إن لم تكن هي الكلمات ذاتها فهو النّغَم ذاته. وعندما نصير أفضل حالاً، يقدّمون لك المرق اللّذيذ والشّراب. عندما بدأتُ أشعر هنا بفقدانِ قواي بسبب قلّة الأكل، شعرتُ بالفرح وقلتُ في نفسي: «سأمرض ويُرسلني غاروفولي إلى المستشفى». آه! ولكنّني كنتُ مريضاً فعلاً. كنت مريضاً بما يكفي لأتألّم ولكن لا إلى درجة إقلاق غاروفولي. فاستبقاني هوَ عنده. غريب كم هي شاقّةٌ حياة المتألّمين! ولكن لحسن الحظّ لم يتخلّ غاروفولي عن عادته في ضربي، شأني شأن سائر الصّغار، وقبلَ ثمانية أيّام ضربني بالعصا على رأسي. أعتقد أنّ الأمر قد حُسِمَ هذه المرّة، فرأسي متورّم. أترى هذه الحدبة البيضاء الكبيرة؟ كان أمس يقول إنّها قد تكون ورماً خبيثاً. لا أعرف ما هو الورم الخبيث ولكنْ من شاكلته في الكلام أعتقد أنّ الأمرَ خطير. المهمّ أنّني أتألّم بشدّة. أشعر تحت فروة رأسي بوخزٍ حادٌّ هو أكثر إيلاماً من نوبات وجع الأسنان. رأسي ثقيل كما لو

كان يزن مائة رطل. كما يصيبني الدّوار، وفي اللّيل وأنا نائم لا يمكنني الامتناع عن الأنين ولا عن الصّراخ. لذا أعتقد أنّه سيحسم الأمر بعد يومين أو ثلاثة بإرسالي إلى المستشفى، ذلك أنّ ولداً يصرخ في اللّيل يشكّل للآخرين مصدر إزعاج، وهو لا يحبّ أن يُقلِق راحتَه أحد. كم أنا محظوظٌ لأنّه وجّه لي ضربة العصا تلك! والآن، انظرْ وقلْ لي بصراحة، هل أنا شاحبُ السِّمات؟

قال ذلك وجاء يقف أمامي ونظرَ في عينيّ مباشرةً. لم تعد لديّ الأسباب نفسها لإخفاء الحقيقة. مع ذلك لم أجرؤ على إجابته بصراحة وإخباره بالمشاعر المخيفة التي تثيرها فيّ عيناه الكبيرتان الحارقتان وخدّاه الغائران وشفتاه اللّتان لا لون لهما.

- أعتقد أنّك مريضٌ بما يكفي لتدخل المستشفى.

- أخيراً!

وبساقه التي يجرّها جرّاً حاول أن ينحني احتراماً. ولكن سرعان ما توجّه صوب الطّاولة وبدأ يمسحها، قائلاً:

- كفى كلاماً، سيعود غاروفولي ولن يكون أيّ شيء جاهزاً بَعد. بما أنّك ترى أنّني تلقّيتُ ما يكفي من الضّرب بما يسمح لي بالدّخول إلى المستشفى، فلا داعي لأن أحصل على المزيد منه، سيكون ذلك بغير طائل. كما أنّ الضّرب الذي صرت أتلقّاه في هذه الآونة يبدو لي أقسى من ذلك الذي كنتُ أتلقّاه قبل بضعة شهور. إنّهم لأذكياء مَن يقولون إنّ الإنسان يعتاد على كلّ شيء، أليس كذلك؟

كان في تلك الأثناء ينْشط حول الطّاولة بِخُطاه العرجاء، يضع الصّحون ولوازم المائدة في مكانها. أحصيتُ عشرين صحناً: هذا يعني

أنّ عشرين ولداً كانوا يعملون تحت إدارة غاروفولي. ولكن بما أنّني لم أكن أرى إلاّ اثني عشر سريراً خمّنتُ أنّ بعضهم يتقاسمون السّرير ذاته. ويا لها من أسرّة! لم يكن عليها شراشف بل أغطية ذات مسحة صهباء يبدو أنّها اشتُريت من إصطبل لأنّها لم تعد تدفّئ الأحصنة.

– هل هي الحال نفسها في كلّ مكانٍ هنا؟ قلتُ مرتعباً.

– ماذا تعني في كلّ مكان؟

– في كلّ مكان يشغّلون فيه الأولاد.

– لا أعرف، فأنا لم أذهب إلى أيّ مكان آخر. ولكن أنت، حاول أن تكون في مكان آخر.

– أين؟

– لا أعرف. في أيّ مكانٍ آخر ستكون حالك أفضل منها هنا.

في أيّ مكان! هذا تعبيرٌ شديد الإبهام، وفي كلّ الأحوال ماذا أفعل لكي أجعل فيتاليس يعْدل عن قراره بشأني؟

وفيما أفكّر دون أن أحير بالطّبع جواباً، انفتح الباب ودخل طفل. كان يحمل تحت ذراعه كمنجةً وفي يده الأخرى قطعةَ خشبٍ كبيرةً آتيةً من الخرائب. تلك القطعة الشّبيهة بالأخرى التي رأيتُها في المدفأة أفهمتْني من أين يحصل غاروفولي على مؤونته من الحطب وكم كانت تكلّفه.

– هاتِ قطعة الخشب هذه التي معك، قال ماتيا وهو يخاطب القادم الجديد.

إلاّ أنّ هذا الأخير، بدلَ أن يعطيه قطعة الخشب، أخفاها خلف ظهره.

- آه! أبداً، قال.

- هاتِها، هكذا يصير الحساء أطيَب.

- كأنّني أحضرتُها من أجل الحساء! ليس معي إلاّ ستّة وثلاثون فلساً، وأعتمد على هذه القطعة الخشبيّة لكي لا يجعلني غاروفولي أدفع غالياً ثمن الفلوس الأربعة التي تنقصني.

- لا تنفع في ذلك أيّة قطعة خشبيّة. ستدفع الفلوس التي تنقصك. لكلٍّ دَورُه.

قال ماتيا ذلك بنبرة شرّيرة، كما لو كان سعيداً بالقصاص الذي كان ينتظر رفيقه. فاجأني وميض القسوة ذاك على وجهه المفعَم بالرّقة. لن أفهم إلاّ لاحقاً كيف أنّ العيش مع الأشرار يمكن أن يجعلنا أشراراً نحن أيضاً.

كان قد أزفَ موعدُ رجوعِ كلِّ تلامذةِ غاروفولي. بعدَ الطّفل صاحب القطعة الخشبيّة وصل آخر، وبعده عشرة آخرون. كان كلّ منهم يذهب فورَ دخوله ليعلّق آلته الموسيقيّة على مسمارٍ فوق سريره. هذا معه كمنجة، وذاك معه قيثارة، وآخر يحمل ناياً أو سواه. أمّا من لم يكونوا موسيقيّين بل مرقّصي حيوانات لا أكثر، فكانوا يزجّون في قفصٍ حيوانات المرموط التي معهم أو الفئران البيض.

تردّد في السّلالم وقعُ خطواتٍ أثقل من السّابقة، فخمنّت أنّه غاروفولي. وسرعان ما دخلَ رجلٌ قصير القامة، مهتزّ المشية، محمرّ الوجه. لم يكن يرتدي الزيّ الإيطاليّ بل معطفاً نصفيّاً رماديّ اللّون.

لمحَني من النظرة الأولى، نظرة جمّدتْ منّي القلب.

- من هوَ هذا الصّبي؟ قال.

أجابه ماتيا بحماسٍ وبتهذيبٍ، شارحاً له ما كان قاله فيتاليس.

- آه فيتاليس في باريس! ماذا يريد منّي؟

- لا أعرف، أجاب ماتيا.

- أنا لا أتحدّث إليك بل إلى هذا الصّبيّ.

- سيأتي المعلّم ويشرح لك بنفسه ما يريد، قلتُ دون أن أجرؤ على الإجابة بصراحة.

- هذا صبيّ يعرف قيمة الكلمات. ألستَ إيطاليّاً؟

- لا، أنا فرنسيّ.

كان ولدان قد اقتربا من غاروفولي ما إن دخل، وكان كلاهما يقف قربه منتظراً أن ينهي كلامه. ما يريدان منه؟ سرعان ما جاءني الجواب على ذلك السؤال الذي طرحتُه على نفسي بفضول.

أخذ أحدهما قبّعة غاروفولي وذهب ليضعها بكلّ عنايةٍ على السّرير، في حينِ قرّب الآخر منه كرسيّاً. كانا يقومان بهذه الأعمال البسيطة بجدّية واحترام فتخالهما صبيَّي مذبحٍ ينشطان بورعٍ حول الكاهن. جعلني ذلك أقدّر درجة خوفهما من غاروفولي، فلا شكّ أنّه لم يكن الحنان هو ما يجعلهما يتصرّفان بالشّاكلة تلك.

عندما جلس غاروفولي، أحضر له ولدٌ آخر بسرعةٍ غليوناً محشوّاً بالتّنباك، فيما قدّم له رابعٌ عودَ ثقابٍ مشتعلاً.

- تفوح منه رائحة الكبريت يا حيوان! صرخ غاروفولي ما إن قرّبَ عودَ الثّقاب من غليونه قبل أن يرمي به في الموقد.

سارع المذنب لتصحيح خطئه بإشعالِ عودِ ثقابٍ جديدٍ تركَه يحترق طويلاً قبل أن يقدّمه لمعلّمه. لكنّ هذا الأخير رفضه:

- ليس أنت أيّها الأحمق! قال له وهو يبعده بقسوة. ثمّ التفتَ صوبَ ولدٍ آخرَ وقال له بابتسامةٍ كانت بالتّأكيد من لدُنه فضلاً كبيراً:

- ريكاردو، يا ولدي اللّطيفَ، هاتِ عودَ ثقاب.

فسارع الولد اللّطيف ذاك لتنفيذ طلبه.

وبعدما جلس غاروفولي وبدأ غليونه يشتعل هتفّ قائلاً:

- الآن فلنُجرِ حساباتنا يا ملائكتي الصّغار. ماتيا، أين هوَ الدّفتر؟

كانت تلك طيبةً بالفعل من قِبَل غاروفولي أن يتنازل ويتكلّم. فتلاميذه كانوا يرصدون بدقّة متناهية رغباته ومقاصده فيحزرونها قبل أن يعبّر عنها.

قبل أن يطالب بدفتر الحسابات كان ماتيا يضع أمامه سجلاً صغيراً قذراً.

أومأ غاروفولي إلى الطّفل الذي كان قبلَ قليلٍ قد أحضر له عود الثّقاب السّيّئ، فاقترب الطّفل.

- أنتَ مدينٌ لي بفلسٍ من يوم أمس، وقد وعدتَ بتأديته اليوم. فكم فلساً أحضرتَ؟

تردّد الطّفل طويلاً قبل أن يجيب. كان وجهه قد أصطبغ بحمرة الأرجوان.

- ينقصني فلس.

- آه، ينقصك فلس! وتقول لي هذا بكلّ هدوء؟!

- لا فلس أمس، بل هو فلس من حساب اليوم.

- هذا يعني أنّك بات ينقصك فلسان؟ أتعرف أنّني لم أرَ يوماً ولداً مثلك؟

- هذا ليس خطأي.

- بلا حماقات! أنت تعرف القاعدة. اخلعْ سترتك، ستنال جَلدتين عن أمس وجلدتين عن اليوم. ولا بطاطس لك اللّيلة بسبب وقاحتك. ريكاردو يا حبيبي، لقد استحققتَ هذه التّسلية بسبب لطفك. هيّا تناول السّوط.

ريكاردو هو الولد الذي كان قد أحضر عودَ الثّقابِ الجيّدَ بكلّ عناية. وعلى الفور، نزعَ عن الحائط سوطاً له مقبض قصير ينتهي بِسَيرَيْن من الجلد لهما عقدٌ كثيرة. في تلك الأثناء، كان الولد الذي ينقصه فلس ينزع سترته ويُنزل قميصه بحيث صار عارياً حتّى خصريه.

- انتظرْ قليلاً، قال غاروفولي وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، ربّما لن تكون وحدك، ثمّ إنَ الرّفقة ممتعة دوماً. اضِفْ أنّ ريكاردو لن يكون عليه أن يكرّر العمليّة أكثر من مرّة.

كان الأطفال واقفين أمام معلّمهم، لا تصدر عنهم أيّة حركة. ولدى سماع هذه المزحة القاسية، راحوا كلّهم يضحكون ضحكةً مُرغَمة. فعقّبَ غاروفولي:

- أنا واثقٌ من أنّ مَن ضحكَ أكثرَ هو مَن تنقصه فلوس أكثر. مَن ضحك أكثر من غيره؟

أشاروا جميعهم إلى ذاك الذي وصل قبل الآخرين حاملاً قطعة خشب.

- هيّا، أنت، كم ينقصك؟ سأل غاروفولي.

- ليس الخطأ خطأي.

- من الآن فصاعداً كلّ من يجيب: «ليس الخطأ خطأي» ينال جلدةً إضافيّة. كم ينقصك؟

- لقد أحضرتُ قطعة خشب. قطعة الخشب الجميلة هذه.

- هذا جيّد. ولكن اذهب عند الخبّاز واسأله أن يعطيكَ خبزاً مقابل قطعتك الخشبيّة هذه، هل سيعطيك؟ كم فلساً ينقصك؟ هيّا، تكلّم!

- جمعتُ ستّة وثلاثين فلساً.

- ينقصك أربعة فلوس أيّها الحقير البائس، أربعة فلوس! وتجرؤ على الظّهور أمامي؟ إنّك محظوظ يا ريكاردو الغَنِج، ستستمتع يا حبيبي. أمّا أنتَ فانزع سترتك!

- وقطعة الخشب؟

- أعطيكَ إيّاها لتتمشّى بها.

هذه المزحة السّخيفة أضحكت جميع الأطفال الذين نجوا من القصاص.

أثناء ذلك التّحقيق وصل حوالى عشرة أطفال آخرين، جاء كلّ منهم في دوره ليقدّم حساباته. وبالإضافة إلى الولدين اللّذين سبق أن حُكم عليهما بالجلْد، كان هناك ثلاثة آخرون لم يجمعوا الفلوس المطلوبة منهم. صرخ غاروفولي متباكياً:

- ثمّة إذن خمسة لصوص يسرقون مالي وينهبونني. هذا جزاءُ السّخاء المفرط. بمَ تريدون أن أسدّد ثمن ما أقدّمه لكم من لحم وبطاطس من أفضل الأصناف إذا كنتم لا تريدون أن تعملوا؟ أنتم تؤثرون اللّعب على العمل. بدل البكاء من غفلتكم، تفضّلون

الضّحك فيما بينكم. أفلا تعتقدون أنّ تظاهركم بالبكاء مادّين الأيدي للآخرين هو أفضل من أن تبكوا بكاءً حقيقيّاً مادّين للسّوط ظهوركم؟ هيّا، فلينزعْ كلّ واحدٍ سترَته!

كان ريكاردو يقف حاملاً السّوط بيده، فيما الأولاد الخمسة مصطفّون إلى جانبه. فقال غاروفولي:

- تعرف يا ريكاردو أنّني لا أنظر إليك، لأنّ هذه العقوبات تؤلمني، ولكنّني أسمعك، ومن الصّوت يمكنني معرفة قوّة الجَلْدات. اضربْ بكلّ قوّتك يا حبيبي، فأنت تعمل في سبيل خبزك.

ثمّ أدار وجهه صوب الموقد، كما لو كان يستحيل عليه رؤية العقوبة. أمّا أنا، وقد نُسِيتُ في إحدى الزّوايا، فكنتُ أرتجفُ نقمةً وخوفاً في الأوان ذاته. كان ذلك هو الرّجل الذي سيصير معلّمي. وإذا لم أُحضِر كلّ يومٍ الثّلاثين أو الأربعين فلساً التي سيحلو له فرضها عليّ، فسيكونُ عليّ أن أُسلِمَ ظهري لسوطِ ريكاردو. آه! فهمتُ كيف يمكن أن يتحدّث ماتيا عن الموت بكلّ هدوء وأمل.

مع أوّلِ اصطفاقٍ للسّوط على ظهرِ أحدِهم طفرت الدّموع من عينيّ. دموعٌ لم أكتمها لأنّني كنتُ أظنّ أنّني قد نُسِيت. بيد أنّني كنتُ مُخطئاً، إذ كان غاروفولي يراقبني سرّاً، وسرعان ما جاءني البرهان على ذلك.

- إليكم هذا الطّفل الطيّب القلب، قال وهو يشير إليّ بإصبعه. هو ليس مثلكم يا قطّاع الطّرق، يا من تضحكون من مأساةِ رفاقكم ومن حزني. حبّذا لو كان رفيقاً لكم، فسيصبح أمثولةً لكم جميعاً!

رفيقاً لهم؟! هذه الكلمة جعلتني أرتجف من أعلى رأسي حتّى

أخمص قدميّ.

عند ضربة السّوط الثّانية، أطلق الولد أنيناً يثير الشّفقة، وعند الثّالثة ندّتْ عنه صرخةٌ تُمزّق القلب.

عندئذٍ رفع غاروفولي يده، فأبقى ريكاردو على السّوط عالياً في الهواء.

ظننتُ أنّه سيعفو عنهم، ولكن ليس هذا ما حصل.

- أنت تعرف كم أنّ الصّراخ يؤلمني، قال غاروفولي بهدوءٍ مخاطِباً ضحيّته. أنت تعرف أنّه إذا كان السّوط يمزّق جلدك فإنّ صراخك يقطّع نياط قلبي. لذا أحذّرك، عند كلّ صرخةٍ ستنال جَلدةً إضافيّة تتسبّب بها لنفسك. فكّرْ في ألاّ تجعلني أمرض حزناً. إذا كنتَ تشعر تجاهي بشيء من الحنان، ومن العرفان، فستصمت. هيّا يا ريكاردو!

رفع هذا الأخير ذراعه واصطفق السّوط على ظهر الصّبيّ المسكين، فصرخ:

- يا ماما! يا ماما!

لحسن الحظّ لم أرَ أكثر من ذلك، إذ انفتح باب الدّرج ودخل فيتاليس.

نظرة واحدة أفهمتْه ما كان سبقَ أن كشفَ له عنه ذلك الصّراخ الذي سَمِعَه وهو يصعد السّلالم. ركضَ صوب ريكاردو وانتزع من يده السّوط، ثمّ التفتَ بحدّة إلى غاروفولي ووقف أمامه كاتفاً يديه.

حصل كلّ ذلك بسرعةٍ شديدة، بحيث ظلّ غاروفولي مندهشاً للحظة. ولكنّه سرعان ما استعاد ابتسامته المتكلّفة وقال:

- أليس هذا فظيعاً؟ هذا الطّفل بلا قلب.

- هذا مُخزٍ! هتف فيتاليس.

- هذا تحديداً ما أقوله، قاطعه غاروفولي.

- كفاكَ رياءً، تابعَ معلّمي بقوّة، تعرف جيّداً أنّني لا أخاطب الصّبيّ بل أخاطبكَ أنت. أجل هذا مُخزٍ، إنّه لجبنٌ أن تعذّب بهذه الشّاكلة أطفالاً عاجزين عن الدّفاع عن أنفسهم.

- وما شأنكَ أنت، أيّها العجوز المجنون؟ قال غاروفولي مبدّلاً نبرته.

- إنّه شأن الشّرطة.

- الشّرطة، هتف غاروفولي وهو يهبّ واقفاً، أنت تهدّدني بالشّرطة؟ أنت؟



- أجل أنا، أجاب فيتاليس دون أن يترك غضب المعلّم يخيفه.

- اسمعْ يا فيتاليس، قال غاروفولي وقد هدأ واتّخذ نبرةً متهكّمة، لا تحاول أن تلعب دور الشّرير وتهدّدني بأنّك ستفضح أمري، لأنّني من جهتي، يمكنني أن أفضح أمرك أيضاً. وعندها من الذي لن يكون مسروراً؟ بالطّبع أنا لن أذهب إلى الشّرطة، فأمورك لا تعنيها. ولكنّ ثمّة آخرين تهمّهم أمورك. ما رأيك لو ذهبتُ أخبرهم بما أعرفه؟ يكفي أن أقول اسماً، اسماً واحداً، فمن الذي سيكون عندئذٍ مضطرّاً لإخفاء عاره.

ظلّ معلّمي صامتاً لبعض الوقت. عاره؟ أذهلني ذلك. وقبل أن أخرج من حالتي تلك التي وضعتْني فيها هذه الكلمات الغريبة، أمسك فيتاليس بيدي.

- اتبعْني.

وقادني صوب الباب. فقال غاروفولي ضاحكاً:

- حسناً، بلا حقدٍ يا عزيزي. بمَ كنتَ تريد أن تحدّثني؟

- لم يعد هناك ما أحدّثك به.

ومن دون كلمة إضافيّة، ودون أن يلتفت، نزل السّلالم وهو يواصل الإمساك بيدي. كم كان شعوري بالارتياح كبيراً وأنا أتبعه! كنتُ أنجو إذن من قبضة غاروفولي. لو تجرّأتُ لكنتُ قبّلتُ فيتاليس.



الفصل الثّامن عشر

مقالع الحجارة في جانتيّي

طوال وجودنا في الشّارع المكتظّ بالنّاس، مشى فيتاليس دون أن ينبس ببنت شفة. ولكن سرعان ما صرنا في زقاقٍ خالٍ، فجلس على حجرٍ ومرّر يده عدّة مرّات على جبينه. كانت هذه الإيماءة تعني أنّه متضايق. قال كما لو كان يتحدّث إلى نفسه:

- ربّما كان جميلاً التحلّي بالنُّبل، ولكن بباعثٍ منه ها نحن على الرّصيف بباريس من دون فلسٍ في جيوبنا وبلا خبزٍ في بطوننا. هل أنت جائع؟

- لم آكل شيئاً منذ قُرامة الخبز الصّغيرة التي أعطيتَنيها هذا الصّباح.

- إذن يا ولدي المسكين، أنت معرّض لأن تنام هذه اللّيلة دون عشاء. ذلك إنْ وجدنا مكاناً للنّوم!

- كنتَ تنوي إذن النّوم عند غاروفولي؟

- كنتُ أعتمد على أن تنام أنتَ هناك، وأن يعطيني مقابل بقائك عنده خلال فصل الشّتاء نحو عشرين فرنكاً أدبّر بها أحوالي الآن. لكن لمّا رأيتُ كيف يعامل الأطفال، لم أتمكّن من تنفيذ قراري. لم تكن ترغب في البقاء عنده، أليس كذلك؟

- آه! أنت رجلٌ طيّب.

- لا يزال لدى الشّيخِ المتشرّدِ قلبٌ. ولسوء الحظّ، أحسنَ المتشرّدُ

التخطيطَ، بيدَ أنَ القلب جاء ليُفسدَ كلّ شيء. إلى أين نذهب الآن؟

كان المساء قد حلّ، والبرد الذي كان خفّ خلال النّهار عادَ قارساً وجليديّاً. كانت الرّيح تهبّ من جهة الشّمال ما يعني أنّ اللّيلة ستكون شديدة القسوة.

ظلّ فيتاليس جالساً على الحجر لوقتٍ طويلٍ، فيما كنّا أنا وكابي واقفين أمامه بلا حراك في انتظار أن يتّخذ قراراً. فهبّ واقفاً أخيراً.

- إلى أين نذهب؟

- إلى جانتيّي، لنحاول العثور على مقلع للحجارة نمتُ فيه ذات مرّة. أأنت متعب؟

- لقد استرحتُ عند غاروفولي.

- المشكلة أنّني شخصيّاً لم أسترخ، وأنا مرهق. لكن يجب أن نذهب. إلى الأمام يا ولَدَيّ!

كان فيتاليس يقول هذه العبارة عادةً عندما يكون في مزاج رائق، ولكنّه قالها ذلك المساء باكتئاب.

وها نحن نسير في شوارع باريس. اللّيل حالكٌ والغاز الذي تلوّح الرّيح شعلته في القناديل، لا يكاد يضيء الطّريق. عند كلّ خطوة، كنّا ننزلق على ساقية متجمّدة أو قشرة جليديّة غطّت الأرصفة. أمسكني فيتاليس من يدي ومشى كابي في أعقابنا. من حينٍ لآخر كان يتخلّف للبحث في كومة نفايات علّه يجد عظماً أو كسرة خبز لأنّه كان يتضوّر جوعاً هو الآخَر. لكنّ النّفايات كانت قد تحوّلت إلى كُتَل جليديّة وكان بحثه بلا جدوى. فتبعنا مطأطئاً رأسَه.

بعد الشّوارع العريضة، مررنا بأزقّة. وبعد الأزقّة، انتهجنا شوارع

عريضة أخرى. كنّا نواصل السّير، والمارّة القلائل الذين نلتقي بهم كانوا ينظرون إلينا مستغرِبين. هل السّبب هو ملابسنا، أم أنّ مشيتنا المتعبة هي ما يلفت النّظر؟ أمّا رجال الشّرطة الذين نصادفهم، فكانوا يدورون حولنا ويتوقّفون ليتابعونا بنظراتهم.

لكنّ فيتاليس كان يتقدّم محنيّ الظّهر دون أن يفوه بكلمة. ورغم البرد، كانت يده تحرق بحرارتها يدي. بدا لي أنّه يرتجف. وعندما يتوقّف أحياناً ليستند إلى كتفي دقيقةً، كنتُ أشعر بكلّ جسمه تهزّه رجفةٌ مصحوبة بتشنّجات.

في العادة لم أكن أجرؤ على طرح الكثير من الأسئلة عليه، ولكنّني تلك المرّة كسرتُ القاعدة. ثمّ إنّني كنتُ بحاجة إلى أن أقول له كم كنتُ أحبّه أو على الأقلّ إنّني كنتُ أريد أن أقوم بشيء ما من أجله.

- أنت مريض! قلتُ عندما توقّف للحظة.

- أخشى ذلك. على الأقلّ أنا متعَب. كانت أيّام السّير هذه طويلةً جدّاً بالنّسبة إلى شخصٍ في سنّي، كما أنّ البرد هذا المساء قاسٍ جدّاً على دمي الشّائخ. كان يلزمني سرير دافئ وعشاء في غرفة مغلقة أمام نارٍ جيّدة. ولكنّ هذا كلّه ليس سوى حلم. إلى الأمام يا ولَدَيّ!

إلى الأمام! كنّا قد خرجنا من المدينة أو على الأقلّ من جوار المنازل، وشرعْنا نمشي تارةً بين صفّين من الجدران وطوراً في وسط الرّيف، ونستمرّ في المشي. لم يعد هناك مارّة ولا رجال شرطة ولا قناديل زيتٍ أو غاز. من حينٍ لآخر، كنّا نلمح هنا وهناك نافذةً مُضاءةً، وفوق رؤوسنا السّماء بلونها الأزرق القاتم ونجومها القليلة. والهواء الذي كان يعصف بعنفٍ وقوّةٍ كان يلصق ملابسنا بأجسامنا. لحسن الحظّ

كان يلفحنا في ظهورنا، ولكن لأنّ أحد كمَّي سترتي كان مفتوقاً فقد كان الهواء يدخل من ذلك الثّقب ويتسرّب إليّ على امتداد ذراعي، ممّا كان يحرمني من كلّ دفء.

رغم الظّلام المخيّم، والطّرق التي كانت تتقاطع عند كلّ خطوة، كان فيتاليس يمشي كرجلٍ يعرف إلى أين يذهب وهو واثقٌ من طريقه تماماً. لذا كنتُ أتبعه دون أن أخشى أن نضيع، لا يقلقني سوى أن أعرف إنْ كنّا سنصل أخيراً إلى مقلع الحجارة ذاك.

إلاّ أنّه توقّف على حين غرّة.

- أترى مجموعةً من الأشجار؟ قال لي.

- أنا لا أرى شيئاً.

- ألا ترى كتلةً سوداء؟

رحتُ أنظر في كلّ الاتّجاهات قبل أن أجيب. لا بدّ أنّنا كنّا في وسطِ سهلٍ لأنّ عينيَّ ضاعتا في أعماقٍ قاتمةٍ دون أن يستوقفها شيء، لا أشجار ولا بيوت. وحده الفراغ من حولنا ولا ضجيج إلاّ صوت الرّيح تعصف عند مستوى الأرض في الأدغال غير المرئيّة.

- آه لو كنتُ أملك عينيك! فأنا نظري مشوّش. انظر هناك، قال فيتاليس.

ومدّ ذراعه الأيمن أمامه، وعندما لم يسمع منّي جواباً لأنّني لم أكن أجرؤ أن أقول له إنّني لا أرى شيئاً، عاود السّير.

مرّت بضع دقائق في صمتٍ تامّ، ثمّ توقّف من جديدٍ وسألني مرّة أخرى عمّا إذا كنتُ أرى مجموعة أشجار. كنتُ من جهتي قد فقدتُ الشّعور بالأمان الذي كنتُ أحسّ به قبل دقائق، ولمّا أجبتُه بأنّي لم أكن

أرى شيئاً كان خوف مبهم يجعل صوتي يرتجف. فقال لي فيتاليس:

- إنّه الخوف يشوّش نظرك.

- أؤكّد لك أنّني لا أرى أشجاراً.

- ولا دواليب كبيرة؟

- لا شيء.

- أترانا ضللنا الطّريق؟

لم يكن عليّ أن أجيب، فأنا لم أكن أعرف لا أين كنّا ولا إلى أين نذهب.

- فلنمشِ خمس دقائق بعدُ، وإن لم نرَ الأشجار عدنا على أعقابنا، فذلك يعني أنّني أخطأتُ الطّريق.

عندئذٍ، وقد فهمتُ أنّنا يمكن أن نكون تهْنا، فقدتُ كلّ قوايَ وصار فيتاليس يجرّني من ذراعي جرّاً.

- ما بك؟

- لم أعد قادراً على المشي.

- أتعتقد أنّ بإمكاني حملك؟ إذا كنتُ لا أزال قادراً على الوقوف فلأنّني أعتقد أنّنا إن جلسنا فلن نتمكّن من أن نقف من جديدٍ وسنموت هنا من البرد. هيّا!

فتبعتُه.

- هل في الطّريق أثلامٌ عميقة؟

- ما من أثلام.

- ينبغي أن نعود على أعقابنا.

الهواء الذي كان يعصف في ظهورنا صار يلفحنا في أوجهنا. كان

يضربنا بقوّة جعلتني أختنق، فأحسستُ بحريقٍ يسري في أعضائي.

في طريق الذّهاب، لم نكن نتقدّم بسرعة، ولكن في طريق العودة كان مشينا أبطأ من ذي قبل.

- عندما ترى أثلاماً في الرّمل، أعلِمْني بذلك، قال لي فيتاليس. ينبغي أن تكون الطّريق الصّحيحة من جهة الشّمال، وعلى المفترق شجيرات شائكة.

طوال ربع ساعة ظللنا نتقدّم هكذا ونحن نقاوم الرّياح. وفي صمت اللّيل الكئيب كان وقع أقدامنا يرنّ على الأرض الصّلبة. ومع أنّني كنت ألقى صعوبة بالغة في وضعِ قدمٍ أمام الأخرى، فقد كنتُ أنا من صار يجرّ فيتاليس. وبأيّ قلقٍ كنتُ أتفحّص الجهة اليسرى من الطّريق!

فجأةً لمعَ في الظّلام نجمٌ صغيرٌ أحمر.

- ثمّة ضوء، قلتُ وأنا أشير بيدي.

- أين؟

تطلّع فيتاليس، ومع أنّ الضّوء كان يلمع على مسافةٍ ليست بالبعيدة، لم يرَ شيئاً. ففهمتُ أنّ نظره قد ضعفَ، إذ في العادة كان نظره في اللّيل ثاقباً ويرى إلى بعيد.

- ما همّنا من هذا الضّوء! قال. إنّه قنديل مشتعل على طاولة أحد العمّال أو قرب سريرِ أحدِ المُحتضَرين. لا يمكننا الذّهاب لندقّ على ذلك الباب. في الرّيف يمكننا طلب الضّيافة في اللّيل، ولكن في أنحاء باريس لا يستضيفون أحداً. لا منازل لنا هنا. هيّا!

مشينا دقائق أخرى، ثمّ بدا لي أنّني أرى طريقاً تتقاطع وطريقَنا،

وعند زاويتها جسم أسود اللّون قد يكون هو الشّجيرة الشّائكة. فأفلتُّ يد فيتاليس لأتقدّم بأكثر سرعة، إذ كانت تلك الطّريق مملوءة بأثلامٍ عميقة.

- هي ذي شجيرة الشّوك، وثمّة أثلام.

- أعطني يدك. لقد نجونا، فمقلع الحجارة يبعد عن هنا بمسيرة خمس دقائق. انظر جيّداً، يجب أن ترى مجموعة الأشجار.

بدا لي أنّني أرى كتلة سوداء، فقلتُ له إنّني أرى الأشجار.

ردّ إلينا الأمل شيئاً من طاقتنا. ساقاي صارتا أقلّ ثقلاً والأرض أقلّ قسوةً تحت قدميّ.

إلاّ أنّ الدّقائق الخمس التي تحدّث عنها فيتاليس بدت لي طويلةً جدّاً.

- نحن في الطّريق الصّحيحة منذ أكثر من خمس دقائق، قال فيتاليس وهو يتوقّف.

- هذا ما يبدو لي.

- إلى أين تتّجه الأثلام؟

- إنّها تستمرّ مستقيمة.

- يجب أن يكون مدخل مقلع الحجارة إلى اليسار، لقد عبرنا أمامه ولم نرَه. وهذا ممكن تماماً في هذا اللّيل البهيم. ولكن كان على الأثلام أن تنبّهنا إلى ذلك.

- أؤكّد لك أنّ الأثلام لم تنعطف إلى اليسار.

- فلنرجع على أعقابنا.

ومرّة جديدة عدنا إلى الخلف.

- أترى مجموعة الأشجار؟

- أجل هنا، إلى الشّمال.

- والأثلام؟

- ما من أثلام.

- أتراني فقدتُ البصر؟ قال فيتاليس وهو يمرّر يده على عينيه. فلنمشِ مباشرةً باتّجاه الأشجار وأعطني يدك.

- ثمّة سور.

- إنّها كومة من الحجارة.

- لا، أؤكّد لك أنّه سور.

كان يسهل التّحقّق من الأمر، فنحن لم نكن إلاّ على بُعد خطواتٍ من السّور. عبَر فيتاليس المسافة الفاصلة وكما لو كان لا يعتمد على عينيه، وضع يديه الاثنتين على الحاجز الذي كنتُ أسمّيه أنا سوراً ويسمّيه هو كومة حجارة.

- إنّه بالفعل حائطٌ. فالحجارة مرتّبة باستواءٍ، كما أنّني أحسّ بملمس المِلاط. ولكن أين هو المدخل؟ فتّش عن الأثلام.

فانحنيتُ على الأرض ورحتُ أتبعُ السّور حتّى طرفه فلم أرَ أيّ أثرٍ للأثلام. ثمّ عدتُ صوب فيتاليس وتابعتُ البحث من الجهة المقابلة. وكانت النتيجة ذاتها: السّور في كلّ مكان، ولا أثر لفتحةٍ فيه أو لطريقٍ أو أخدودٍ أو أيّ علامةٍ تشير إلى وجودِ مدخل.

- لا أجد غير الثّلج.

كان الوضع فظيعاً. لا بدّ أنّ معلّمي أخطأ الطّريق وأنّ مقلع الحجارة الذي يبحث عنه لم يكن هناك.

عندما قلتُ له إنّني لا أجد الأثلام بل الثّلج وحده، ظلّ صامتاً للحظة، ثمّ وضع يديه على السّور وراح يسير بمحاذاته من طرفٍ إلى آخر. أمّا كابي الذي لم يكن يفهم من مناوراتنا شيئاً، فراح ينبح معلناً عن نفاد صبره.

كنتُ أمشي خلف فيتاليس.

– أيجبُ أن نبحث أبعد؟

– كلاّ، فمقلع الحجارة قد رُدِمَ تماماً.

– رُدِم؟

– أعني أنّهم أغلقوا الفتحة ولم يعد بالإمكان الدّخول.

– وما العمل إذن؟

– ما العمل؟ لا أدري. الموت هنا.

– آه سيّدي!

– أجل، أنتَ لا تريد الموت، فأنت شابّ والحياة تمسك بك. هيّا فلنمشِ. هل تقدر أن تمشي؟

– ولكن أنت؟

– عندما أفقد قوّتي سأقع مثل حصانٍ هرِم.

– وإلى أين نذهب؟

– نعود إلى باريس. وعندما نلتقي رجال شرطة نجعلهم يقودوننا إلى المخفر. كنتُ أفضّل أن نتفادى ذلك ولكنّني لا أريد أن أتركك تموت من البرد. هيّا، يا صغيري ريمي، هيّا يا بنيّ، تشجّعْ!

وارتددنا على أعقابنا في الطّريق التي كنّا للتوّ قد اجتزناها في الاتّجاه المعاكس. كم كانت السّاعة؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة. كنّا قد مشينا

طويلاً، طويلاً جدّاً وبطيء. ربّما كنّا في منتصف اللّيل، أو الواحدة فجراً. كانت السّماء تحافظ على الزّرقة القاتمة ذاتها، ولا قمر فيها، بل بعض النّجوم القليلة التي كانت تبدو أصغر من العادة. أمّا الرّيح فلم تهدأ، لا بل ضاعفت من قوّتها. كانت تجلب من طرف الطّريق دوّاماتِ غبارٍ ثلجيٍّ وتذروها في أوجهنا. وكانت البيوت التي نعبر أمامها مغلقةً ولا ضوء فيها. وكنت إخالُ أنّ النّاس النّائمين في دفءِ شراشفهم لو علموا كم كنّا نشعر بالبرد لفتحوا لنا أبوابهم.

لو حثثنا الخطى لتمكّنّا من احتمالِ البرد، ولكن فيتاليس لم يكن يتقدّم إلاّ بمشقّة. كانت أنفاسه مسموعة وكان يلهث كما لو كان قد ركض. وعندما كنتُ أسأله لم يكن ليجيبني، بل يومئ لي بيديه ببطءٍ أنّه بات عاجزاً عن الكلام.

من الرّيف، عُدنا إلى المدينة، ماشين بين حيطان عالية ترتفع فوقها هنا وهناك مصابيح تتأرجح وهي تُقَعقِع.

توقّف فيتاليس، ففهمتُ أنّه بات خائرَ القوى.

- أتريد أن أطرق على أحد هذه الأبواب؟ قلتُ له.

- لن يفتحوا لنا. فهنا يسكن بساتنة وزارعو بقول، وهم لا ينهضون ليلاً. فلنواصل السّير.

ولكنّ قواه لم تعدْ بِمَضاءِ عزيمته. بعدَ بضع خطوات، توقّف من جديد.

- يجب أن أرتاح قليلاً، قال، لم أعد قادراً على السّير.

كان ثمّة بابٌ مفتوحٌ في سياج. وفوق ذلك السّياج وُضعت بشكلٍ عاموديّ كومة كبيرة من السّماد كما نرى غالباً في بساتين زارعي

البقول. كانت الرّياح التي عصفت في الفضاء قد نشّفت طبقة القشّ الأولى ونثرت قسماً كبيراً منها في الشّارع، تحت ذلك السّياج مباشرةً.

- سأجلس هنا، قال فيتاليس.

- ولكنّك كنتَ تقول إنّنا إذا ما جلسنا فسيحاصرنا البرد فلا نقدر أن ننهض من جديد.

دون أن يجيبني، أشار لي بأن أكوّم عيدان القشّ إلى جانب الباب، وبدل أن يجلس على ذلك الفراش ارتمى عليه ارتماءً. كانت أسنانه تصطكّ وجسمه يرتجف بأكمله.

- أحضرِ المزيد من القشّ، قال لي، إنّ كومة السّماد ستحمينا من الرّيح.

صحيح أنّها كانت ستحمينا من الرّيح ولكن ليس من البرد. عندما كدّستُ أقصى ما يمكنني جمعه من عيدان القشّ، جئتُ أجلس إلى جانب فيتاليس.

- التصقْ بي تماماً، قال لي، وضعْ كابي في حضنك، سيمنحك القليل من حرارته.

كان فيتاليس يعرف بخبْرته أنّ البرد في الظروف التي كنّا فيها يمكن أن يصير مُميتاً. ولئن تركَ نفسَه يتعرّض لمثْلِ ذلك الخطر فلا بدّ أنّه كان شديد الإعياء.

وقد كان كذلك فعلاً. فمنذ خمسة عشر يوماً بات لا ينام إلاّ بعد أن يستنفد كلّ قواه. ولذا كان، بعد كلّ ما تكبّده من أتعاب، أضعفَ من أن يقدر على احتمال ذلك التّعب الأخير، وقد أرهقته سلسلة الجهود الطّويلة وشتّى ألوان الحرمان وتقدّمه في السّنّ.

أكان مدركاً حالته؟ لم يُتَحْ لي أن أعرف ذلك. ولكنْ في اللّحظة التي تغطّيتُ فيها بعيدان القشّ والتصقتُ به، أحسستُ به ينحني على وجهي ويقبّلني. كانت تلك هي المرّة الثّانية، وستكون الأخيرة.

إنّ برداً قليلاً يتعرّض له من يندسّون في فراشهم مرتجفين يمنعهم من النّوم. أمّا البرد الكبير فإنّه، إذ يطول، يصيب بالخدر وبالذّهول مَن يقبض عليهم في وسط العراء. وتلك كانت حالنا نحن.

ما إن التصقتُ بفيتاليس حتّى أصابني الخدر وانطبقت عيناي. حاولتُ أن أفتحهما ولكنّني عجزتُ عن ذلك، فشرعتُ أقرص ذراعي بقوّة. إلاّ أنّ جلدي كان فاقد الحسّ، ومهما وضعتُ في قرصتي من عزمٍ وإرادة، فأنا لم أتمكّن من أن أؤلمَني. مع ذلك، أعادت لي تلك الانتفاضة شيئاً من الإحساس بالحياة. كان فيتاليس يسند ظهره إلى الباب ويُصدر، بمشقّةٍ، لهاثاتٍ صغيرةً متقطّعة. وكان كابي قد غفا مستنداً إلى صدري. وفوق رؤوسنا كان عصف الرّيح مستمرّاً ويغطّينا بقُذاذات القشّ المتناثر علينا كأوراقٍ يابسة سقطت من شجرة. أمّا الشّارع فكان خالياً تماماً، وبالقرب منّا، وفي البعيد، وحولنا، كان يسود صمتُ الأموات.

أخافني ذلك الصّمت. لكن ممّ؟ لم أدركْ ذلك. هو خوف مبهم مشوب بحزنٍ جعل عينيّ تغرورقان بالدّموع. بدا لي أنّني سأموتُ هناك.

فكرةُ الموت أعادتني إلى شافانون. مسكينة هي أمّي السيّدة

باربُران! كيف أموت من دون رؤيتها؟ من دون رؤية بيتنا وحديقتي الصّغيرة؟ لا أدري بأيّ جموحٍ للمخيّلة وجدُتني في تلك الحديقة: كانت الشّمس تسطع جذلى ودافئة، وزهور النّرجس الذّهبيّة تتفتّح، والشّحارير تغنّي في الأدغال، وفوق سياج الأشواك تنشر أمّي السيّدة باربُران ثياباً كانت غسلتْها للتوّ في السّاقية التي كان ماؤها يترقرق على الحصى.

فجأةً غادر ذهني شافانون ليلتقي مركب «البجعة»: كان آرثر ينام في سريره، والسيّدة ميليغان مستيقظة، وإذ تسمع هيَ هبوبَ الرّياح تتساءل أين يمكن أن أكون أنا في ذلك البرد القارس.

ثمّ انطبقتْ عيناي من جديد، وحلّ الخدر في قلبي وبدا لي أنّني كنت أفقد الوعي.



الفصل التّاسع عشر

ليز

عندما استيقظتُ وجدتُني في سرير. كان اللّهب يتصاعد من مدفأة ضخمة تضيء الغرفة حيث كنتُ نائماً.

تطلّعتُ حولي.

لم أكن أعرفُ تلك الغرفة.

لم أكن أعرف الوجوه التي كانت تحيط بي: كان هناك رجلٌ يرتدي سترةً رماديّة وينتعل قبقاباً أصفر، وثلاثة أطفال أو أربعة، بينهم فتاة صغيرة في الخامسة أو السّادسة تنظر إليّ بعينين مندهشتين. كانت تينك العينان غريبتين: كانتا تتكلّمان.

جلستُ في فراشي.

وسرعان ما أحاطوا بي.

- فيتاليس؟

- إنّه يسأل عن أبيه، قالت فتاة كان يبدو أنّها الأكبر سنّاً بين الأولاد.

- هو ليس أبي، بل معلّمي. أين هو؟ وأين كابي؟

لو كان فيتاليس أبي، فلربّما راعوا جانبي في كلامهم عنه. ولكن لأنّه لم يكن إلاّ معلّمي، فقد رأوا أنّ عليهم أن يخبروني بالحقيقة ببساطة، وإليكم ما أخبروني به.

البيت الذي احتمينا في فتحة بابه كان عائداً إلى بستانيّ. كان هذا الأخير قد فتحه حوالى الثّانية فجراً ليذهب هو ومن معه إلى السّوق، فوجدونا نائمَين تحت غطاء من القشّ. في البداية قالوا لنا أن ننهض



كي تمرّ العربة، ولكنّنا لم نكن نتحرّك، لا أنا ولا فيتاليس، بل وحده كابي كان يردّ بالنّباح دفاعاً عنّا. فأمسكوا بأذرعتنا ليهزّونا. ولم نتحرّك كذلك. ففكّروا في أنّ أمراً خطيراً كان يحصل، وأحضروا سراجاً. بعد



الفحص تبيّن أنّ فيتاليس كان قد مات، مات من البرد، وأنّني لم أكن في حال أفضل بكثير. مع ذلك، وبفضل كابي الذي كان نائماً على صدري، كنت قد احتفظتُ في صدري بشيء من الحرارة، فقاومتُ وكنتُ لا أزال أتنفّس. فحملوني إلى منزل البستانيّ وأيقظوا أحد أولاده ووضعوني في مكانه في السّرير. مكثتُ هناك ستّ ساعات شبْه ميت. ثمّ استعاد دمي دورته وتنفّسي قوّته، وفي لحظة كلامي معهم كنتُ قد استيقظتُ للتوّ.

مع أنّ الخدر والشّلل كانا ساريَين في جسمي وفي عقلي، ألفيتُني صاحياً بما يكفي لأعي وعياً تامّاً الكلمات التي كنتُ سمعتُها منذ وهلة. لقد مات فيتاليس!

كان الرّجل صاحب السّترة الرّماديّة، أي البستانيّ، هو من يخبرني بما حدث. وفيما يتحدّث، لم تكن الفتاة الصّغيرة ذات النّظرة المندهشة تحيد بنظرتها عنّي. عندما قال والدها إنّ فيتاليس قد مات، فهمَتْ على الأرجح، لا بل شعرَتْ بحدسٍ سريع بوقعِ ذلك الخبر عليّ. ذلك أنّها غادرت مكانها بسرعة وتقدّمت إلى والدها ووضعت على ذراعه إحدى يديها وأشارت إليّ بالأخرى، مصدرةً صوتاً غريباً لم يكن كلاماً بشريّاً، بل ما يشبه تنهّداً متعاطفاً ورقيقاً.

كانت تلك الإيماءة شديدة التّعبير ولا تحتاج إلى كلماتٍ تفسّرها. شعرتُ بأنّ في إيماءتها تلك وفي النّظرة التي ترافقها وُدّاً غريزيّاً. وللمرّة الأولى منذ انفصالي عن آرثر، خالجني شعورٌ غامضٌ بالحنان والثّقة، شبيهٌ بذاك الذي كنتُ أشعر به عندما كانت أمّي السيّدة باربُران تنظر إليّ قبل أن تقبّلني. كان فيتاليس قد مات، وأنا كنتُ

مهجوراً، ومع ذلك بدا لي أنّني لم أكن وحدي البتّة، كما لو كان هو لا يزال إلى جانبي هناك.

- أجل يا صغيرتي ليز، قال الأب وهو ينحني صوب ابنته، إنّ ذلك يؤلمه ولكن يجب أن نقول له الحقيقة. فإذا لم نقلها له نحن، فسيقولها له رجال الشّرطة.

وتابع يخبرني كيف تمّ إبلاغ رقباء شرطة المدينة، وكيف نقل هؤلاء فيتاليس في حين وُضعتُ أنا في سرير أليكسي، ابنه البكر.

- وكابي؟ قلتُ بعدما توقّف عن الكلام.

- كابي؟

- أجل، الكلب!

- لا أعرف، لقد اختفى.

- لقد تبعَ نقّالة الإسعاف، قال أحد الأولاد.

- هل رأيته يا بنجامان؟

- أعتقد ذلك. كان يمشي في أعقاب الحمّالين، مطأطئاً رأسه، ومن حينٍ لآخر كان يقفز على النقّالة. وعندما يُنزلونه، كان يطلق صرخة شاكية، أشبه ما تكون بعواء مكتوم.

مسكين كابي! هو الممثّل البارع الذي لطالما لحق مواكب الجنازات لكي يسخر من دزربينو، متّخذاً هيئة الباكي، ومُصدراً تنهّداتٍ كان الأطفال الأكثر تجهّماً يغشون أمامها من الضّحك...

تركني البستانيّ وأولاده وحدي، فنهضتُ دون أن أعرف تماماً ما سأفعل.

كانت قيثارتي موضوعة أسفل السّرير الذي كنتُ نائماً فيه،

فوضعتُ الحمّالة على كتفي ودخلتُ إلى الغرفة التي كان البستانيّ قد دخلها مع أولاده. كان يجب الرّحيل، ولكن إلى أين؟... لم تكن لي أدنى فكرة. ولكنّني كنتُ أشعر بأنّ عليّ أن أرحل... كما كنتُ أريد رؤية فيتاليس حيّاً كان أو ميتاً، ولذا خرجت.

عندما استيقظت في السّرير، لم أكن أشعر بأنّ حالي شديدة السّوء، باستثناء ألمٍ في الأطراف وحرارةٍ لا تُحتمل في الرأس. ولكن عندما وقفتُ على قدميّ، بدا لي أنّني سأقع، واضطررتُ إلى الاستناد إلى كرسيّ. لكن بعد لحظةٍ من الرّاحة، دفعتُ الباب ووجدتُني أمام البستانيّ وأولاده.

كانوا جالسين أمام طاولة، إلى جانب نارٍ تشتعل في مدفأة عالية، يتناولون حساءَ ملفوفٍ لذيذاً.

نفذت رائحة الحساء إلى قلبي وذكّرتني بقسوة بأنّني لم أتعشَّ في اللّيلة التي بَرِحتْ. فأصابني ما يشبه الوهن وبدأت أترّنح. فارتسم توعّكي على وجهي.

- أتشعر بالتّعب يا بنيّ؟ سألني البستانيّ بصوتٍ متعاطف.

أجبتُ بأنّني بالفعل لم أكن أشعر بالرّاحة، وأنّني إذا سُمِحَ لي فسأجلس إلى جانب النّار قليلاً.

لم يكن الدّفء هو ما كنت بحاجة إليه، بل الغذاء. لم تساعدني النّار على استعادة قواي، كما أنّ دخان الحساء وصوت الملاعق في الصّحون واصطفاق ألْسِنَة من يأكلون، هذا كلّه زادني ضعفاً.

كم كنتُ أرغب، لو تجرّأتُ، على طلبِ صحنٍ من الحساء! ولكنّ فيتاليس علّمني ألاّ أمدّ للنّاس يدي، والطّبيعة لم تخلقني متسوّلاً.

كنتُ أفضّل الموت من الجوع على أن أقول «أنا جائع». لماذا؟ ليس لي أدنى فكرة، إلاّ أنّني لم أشأ يوماً أن أطلب ما لا يمكنني ردّه.

الفتاة الصّغيرة ذات النّظرة الغريبة، تلك التي لم تكن تتكلّم والتي ناداها والدها باسم ليز، كانت جالسة قبالتي. وبدلَ أن تأكل، كانت تنظر إليّ دون أن تخفض نظرها أو تزيحه عنّي. فجأةً، قامت عن الطّاولة وحملت صحنها الذي كان مليئاً بالحساء وأحضرته لي ووضعته على ركبتيّ.

هممتُ بالاعتذار لها عن قبوله بإيماءة واهنة من يدي، لأنّني كنتُ لا أقوى على الكلام، ولكنّ والدها لم يترك لي المجال لأفعل ذلك.

- اقبلْ يا بنيّ، قال لي، فما تقدّمه ليز تقدّمه من كلّ قلبها. وإن كنتَ راغباً في الأكل، فستحصل بعد هذا الصّحن على صحنٍ آخر.

إن كنتُ راغباً في ذلك!؟ لقد التهمتُ صحنَ الحساء بثوانٍ. وعندما وضعتُ ملعقتي، أطلقتْ ليز، التي كانت قد ظلّت إلى جانبي لا تحيد بنظرها عنّي، صرخةً صغيرة لم تكن تلك المرّة تنهّداً بل تعبيراً عن الرّضا. ثمّ أخذتِ الصّحن منّي، وناولته لوالدها كي يملأه. وعندما امتلأ أعادته إليّ مع ابتسامةٍ شديدة الرّقّة والتّشجيع حتّى أنّني ظللتُ للحظاتٍ لا أفكّر، رغمَ جوعي، في تناول الصّحن.

وكما في المرّة الأولى، سرعان ما تلاشى الحساء. ولم تعد الابتسامة هي ما يرتسم على شفاه الأطفال وهم ينظرون إليّ، بل ضحكة صريحة ملء وجوههم وشفاههم.

- شهيّتك كبيرة إذن يا بنيّ، قال البستانيّ.

أحسستُ بي أحمرّ خجلاً، ولكن بعد لحظةِ تفكيرٍ بدا لي أنّ من

الأفضل أن أعترف بالحقيقة من أن أدَعَهم يتّهمونني بالنّهم. فأجبتُ قائلاً إنّني لم أتعشَّ في اليوم السّابق.

- وهل تغدّيت؟

- ولا تغدّيتُ كذلك.

- وسيّدك؟

- هو أيضاً لم يأكل.

- ذلك يعني أنّه مات من الجوع والبرد معاً.

كان الحساء قد أعاد لي قوّتي، فنهضتُ لأرحل.

- إلى أين تريد الذّهاب؟ سألني الأب.

- لأرى فيتاليس.

- ولكن هل تعرف أين هو؟

- كلاّ، لا أعرف.

- هل لديك أصدقاء في باريس؟

- كلاّ.

- أشخاصٌ من منطقتك؟

- لا أحد.

- ومسكنك؟

- لم يكن لنا مسكن. لقد وصلنا أمس.

- وماذا تريد أن تعمل؟

- أريد أن أعزف على قيثارتي وأغنّي أغنياتي وأكسب رزقي.

- أين؟

- في باريس.

- من الأفضل لك أن تعود إلى منشأك، عند والديك. أين يعيش والداك؟

- ليس لي أهل.

- كنتَ تقول إنّ الشّيخ ذا اللّحية البيضاء ليس أباك.

- ليس لديّ أب، ولكنّ فيتاليس كان لي بمثابةِ أب.

- وأمّك؟

- ليس لي أمّ.

- ولكن لديك عمّ أو عمّة أو أبناء عمّ أو بنات عمّ، أيّ أحد؟

- كلاّ، لا أحد.

- من أين أنت؟

- لقد اشتراني معلّمي من زوج مربّيتي. لقد كنتَ يا سيّدي طيّباً معي، أشكرك من كلّ قلبي، وإن شئت فسأعود يوم الأحد لأعزف لكم على قيثارتي فترقصون، إذا كان ذلك يسلّيكم.

وفيما أتكلّم، توجّهتُ إلى الباب، ولكن لم أكد أقوم ببضع خطوات حتّى أمسكتني ليز من يدي ودلّتني على القيثارة وهي تبتسم. كان مقصدها واضحاً.

- أتريدين أن أعزف؟

وافقتْ بإيماءةٍ من رأسها وصفّقتْ بيديها بفرح.

- هيّا إذن، اعزفْ لها شيئاً، قال الأب.

تناولتُ قيثارتي، ورغم أنّني لم أكن في مزاجٍ للرّقص والفرح، رحتُ أعزف لحنَ فالْس أعرفه جيّداً وأجيد عزفه تماماً. آه! كم كنتُ راغباً في أن أعزف ببراعة فيتاليس كي أُفرِحَ تلك الفتاة الصّغيرة التي

كانت تحرّك قلبي بعينيها برقّة شديدة!

في البداية راحت تصغي إليّ وهي تركّز عليَّ نظراتها، ثمّ بدأت ترافق الإيقاع بقدميها. وبعد ذلك، وكما لو كانت الموسيقى تجتذبها، راحت تدور في المطبخ، فيما بقي شقيقاها وأختها البكر جالسين بهدوء. لم تكن ترقص الفالْس طبعاً، كما أنّها لم تكن تقوم بالخطوات الراقصة المعهودة، ولكنّها كانت تدور برشاقة وعلى وجهها أماراتُ الانشراح.

جالساً قرب المدفأة، لم يكن والدها يحيد عنها بنظراته. كان يبدو عليه التأثّر وكان يصفّق بيديه. عندما انتهت المعزوفة وتوقّفتُ، جاءت تقف بلطفٍ أمامي وقامت بانحناءةٍ جميلة. ثمّ طرقتْ على قيثارتي بإصبعها سريعاً في إشارةٍ إلى أنّها تريد المزيد.

كنتُ سأسعد بالعزف من أجلها النّهار بكامله، ولكنّ والدها قال إنّ ذلك كان كافياً لأنّه لم يكن يريد لها أن تتعب وهي تدور.

ولذا، فبدلَ أن أعزف لحنَ فالْس أو لحناً راقصاً، رحتُ أغنّي أغنيتي النابوليتانيّة التي علّمَنيها فيتاليس:

أيّتها المعشوقة القاسية، يا امرأةً مشؤومةً باطلة!
كم من الحسرات جرّعتِني!
قلبي يشتعلُ مثلَ شمعة
عندما يُطرون عليكِ يا حسنائي.

كانت هذه الأغنية تعني لي ما كانت أغنية «فرسان من وطني» من

أوبرا «روبير الشّيطان» تعنيه لنورّي، أو ما كانت أغنية «اتبعني» من أوبرا «غيّوم تلّ» تعنيه لدوبريه[1]، أي أنّها كانت مقطوعتي بامتياز، تلك التي كنتُ معتاداً فيها على تقديم أفضل ما لديّ. لحنها هادئ وحزين وفيها حنان يذوّب القلوب.

عند الفواصل الموسيقيّة الأولى، جاءت ليز لتقف قبالتي وعيناها تحدّقان بعيني، وكانت تُحرِّك شفتيها كما لو كانت تعيد في رأسها الكلمات. ولمّا اكتست نبرة الأغنية بالحزن، تراجعت للوراء بهدوء بضعَ خطوات، وعند المقطع الأخير ارتمت في حضن والدها وهي تبكي.

- هذا يكفي، قال أبوها.

- هل هي حمقاء! قال أحد أشقّائها، ذاك الذي يُدعى بنجامان، إنّها ترقص ثمّ تبكي.

- ليست أكثر حماقةً منك! إنّها تفهم، قالت الأخت البكر وهي تنحني لتقبّلها.

وفيما كانت ليز ترتمي في حضن والدِها، كنتُ أنا قد وضعتُ قيثارتي على كتفي وتوجّهتُ إلى الباب.

- إلى أين أنتَ ذاهبٌ؟ قال لي البستانيّ.

- لقد قلتُ لك: لأحاول البحث عن فيتاليس، ولأفعل بعد ذلك ما علّمني أن أقوم به، أي العزف والغناء.

(1) أدولف نورّي Adolphe Nourrit وجيلبير لوي–دوبريه Gilbert Louis-Duprez من أشهر مغنّي الأوبرا الفرنسيّين في القرن التّاسع عشر، يذكرهما الكاتب على لسان الصّبيّ كما يذكر عملَين أوبراليَّين مشهورَين آنذاك ليوحي على سبيل المقارنة بأهميّة الأغنية النابوليتانيّة المُستَشهَد بها بالنسبة إلى ريمي (المترجمة).

- أنت متمسّك إذن بمهنتك كموسيقيّ؟

- ليس لي مهنةٌ أخرى.

- ولكن ألا يخيفك التّرحال والمشي في الدّروب؟

- ليس لي منزل.

- لكنّ اللّيلة التي أمضيتَها للتوّ ينبغي أن تكون قد جعلتْك تغيّر رأيك.

- طبعاً أفضّل أن يكون لي سرير مريح ومكانٌ دافئ.

- أتريد مكاناً دافئاً وسريراً مريحاً؟ مع عملٍ طبعاً؟ يمكنك أن تبقى هنا لو أردتَ. سوف تعمل وتعيش معنا. أنت تفهم أنّني لا أعْرض عليك الرّفاهية ولا الكسل، أليس كذلك؟ إن قبلتَ، فسيكون عليك أن تتعب وأن تجتهد. أن تنهض صباحاً وتعمل بجدّ خلال النّهار، وأن تكسب خبزك بعرق جبينك. لكنّ الخبز سيكون مضموناً، ولن تعود معرّضاً للنّوم في العراء كما حصل في اللّيلة الفائتة، وربّما للموت وحيداً على قارعة الطّريق أو في أسفل إحدى الحفر. في المساء ستجد سريرك جاهزاً، وعندما تأكل حساءك ستكون راضياً لأنّك كسبته بتعبك، وذلك يجعل الحساء أطيبَ، أؤكّد لك. وأخيراً، إذا كنتَ ولداً طيّباً، وثمّة ما يقول لي إنّك كذلك، فستجد فينا عائلةً لك.

كانت ليز قد التفتت، وراحت تنظر إليّ وهي تبتسم من بين دموعها.

ظللتُ للحظة متردّداً وقد فاجأني عرضه، ولم أستوعب تماماً ما سمعته منه.

فتركت ليز والدها وجاءت إليّ وأمسكت يدي وقادتني إلى صورة

منقوشة تمثّل القدّيس يوحنّا صغيراً وهو يرتدي فروة خروف.

وبإشارةٍ من يدها أومأت لوالدها وأشقّائها لينظروا إلى الصّورة. وفي الأوان ذاته أعادت يدها صوبي وجعلت تمسّد فروة الخروف التي كنتُ أرتديها وأشارت إلى شعري الذي كان، على غرار شعر القدّيس يوحنّا، يفترق عند وسط الجبين ثمّ يسترسل على كتفَيّ مجعّداً. ففهمتُ أنّها تلفيني شبيهاً بالقدّيس يوحنّا، ومن دون أن أعرف السّبب راقني الأمر وأثّر بي بلطفٍ في الأوان ذاته.

فقال الأب:

- هذا صحيح، إنّه يشبه القدّيس يوحنّا.

فصفّقت ليز ضاحكةً.

- إذن يا بنيّ، أيناسبك ذلك؟ قال الوالد وهو يكرّر عرضه.

عائلة!

سيكون لي إذن عائلة! آه! كم من مرّة راودني هذا الحلم قبل أن يتبخّر! أمّي السيّدة باربُران، السيّدة ميليغان، فيتاليس، كلّهم، الواحد تلو الآخر، فقدتُهم.

لن أبقى وحدي.

كان وضعي فظيعاً: كنتُ قد شاهدتُ للتوّ موت الرّجل الذي كنت أعيش معه منذ عدّة سنوات، ذلك الرّجل الذي كان لي مثْلَ أب. وفي الآن ذاته، خسرتُ رفيقي وصديقي الغالي كابي الذي كنتُ أحبّه كثيراً والذي ربطته بي هو أيضاً مشاعر صداقة عميقة. ومع ذلك فعندما عرض عليّ البستانيّ أن أبقى عنده، امتلأ قلبي بشعور بالثّقة.

لم ينتهِ كلّ شيء بالنّسبة إليّ إذن. والحياة يمكنها أن تبدأ من جديد.

وما كان يؤثّر بي، أكثر من الطّعام المضمون الذي يحدّثونني عنه، هو تلك العائلة التي كنتُ أراها شديدة الاتّحاد وتلك الحياة العائليّة التي يعدونني بها.

سيصير أولئك الصّبْية إخوةً لي.

وستصير تلك الفتاة الصّغيرة الجميلة، ليز، أختاً لي.

أكثر من مرّة تخيّلتُ في أحلامي الطّفوليّة أنّني أعثر على أبي وأمّي، ولكنّني لم أفكّر يوماً في إخوةٍ وأخوات. وها إنّني أحصل عليهم.

كان صحيحاً أنّهم ليسوا إخوتي الحقيقيّين ولكن بإمكانهم أن يصيروا إخوتي بالصّداقة. لم يكن عليّ من أجل ذلك إلاّ أن أحبّهم، وهو ما كنتُ مستعدّاً له تماماً، وأن أجعلهم يحبّونني، وهو ما ينبغي ألاّ يكون صعباً، إذ كان يبدو عليهم أنّهم طيّبون جدّاً.

بحماسٍ نزعتُ حمّالة قيثارتي عن كتفي.

– هذا جواب! قال الأب وهو يضحك، وهو جواب جيّد، يمكن أن نرى أنّه يفرحك. علّقْ آلتك على هذا المسمار يا بنيّ، وفي اليوم الذي لا تشعر فيه بالرّاحة عندنا، سوف تحملها لتحلّق بنفسك. ولكن، مثل السّنونوات والعنادل، احرصْ على أن تُحسِنَ اختيارَ الفصل الذي تغادر فيه.

– لن أخرجَ إلاّ مرّة واحدة وذلك لأبحثَ عن فيتاليس، قلتُ له.

– هذا قرارٌ حكيمٌ، أجابني الرّجل الطيّب.

كان المنزل الذي انهرْنا أمام بابه أنا وفيتاليس يقع في ذلك الجزء من باريس الذي يسمّى «غلاسيَيْر» («مستودع الثّلج»)، والبستانيّ الذي كان يسكنه يُدعى آكان. عندما استُقبلتُ في ذلك المنزل، كانت العائلة

تتألّف من خمسة أشخاص هم الوالد الذي كان اسمه الأوّل هو بيار، وصبيّان هما ألِكسي وبنجامان، وفتاتان صغيرتان هما إتيانيت البكر وليز الصّغرى.

كانت ليز خرساء، ولكنّ خُرسها لم يكن منذ الولادة، أي أنّه لم يكن نتيجةَ صمم. فهي تكلّمت طوال عامين، ثمّ فجأةً، وقبل أن تبلغ الرّابعة بقليل، فقدت القدرة على الكلام. جاء ذلك الحادث إثر تشنّجاتٍ أصابتها، إلاّ أنّه ولحسن الحظّ لم يمسّ ذكاءها الذي تطوّر بالعكس باكراً جدّاً. لم تكن تفهم كلّ شيء فحسب، بل كانت كذلك تعبّر عن كلّ شيء. في العائلات الفقيرة وحتّى في عائلات أخرى كثيرة، يحصل غالباً أن يكون تعوُّق أحد الأولاد سبباً في التخلّي عنه أو النّفور منه. ولكنّ ذلك لم يحصل لليز فهي، بلطفها وحيويّتها، بمزاجها الرّقيق وطيبتها الكبيرة، نفَذَت من مصير كهذا. كان شقيقاها يتحمّلانها دون أن يجعلاها تدفع ثمن مأساتها؛ أمّا والدها فلم يكن يرى الوجود إلاّ عبْرَها هيَ؛ وأخيراً كانت شقيقتها تحبّها هي الأخرى حبّاً جمّاً.

في الماضي كان حقّ البكوريّة يشكّل في العائلات النّبيلة امتيازاً. أمّا اليوم، في العائلات العمّاليّة، فالولد البكر يرث أحياناً مسؤوليّات ثقيلة. توفّيت السيّدة آكان بعد سنة من ولادة ليز، ومنذ ذلك اليوم صارت إتيانيت ربّة العائلة، هي التي كانت تكبر شقيقها الكبير بسنتين فحسب. وبدل الذّهاب إلى المدرسة، كان عليها أن تبقى في المنزل تحضّر الطّعام وتخيط الأزرار أو ترْتق ملابس أبيها وشقيقَيها، وكذلك تحمل ليز بين ذراعيها. نسوا أنّها ابنة وشقيقة، وسرعان ما

اعتادوا ألاّ يروا فيها إلاّ خادمة. خادمة لا يراعونها إطلاقاً لأنّهم يعرفون تماماً أنّها لن تترك المنزل يوماً ولن تغتاظ أبداً.

لفرط ما حملت ليزَ بين ذراعيها، وأخذت بيدِ بنجامان، واشتغلت طوال النّهار، واستيقظت باكراً لتحضّر الحساء لأبيها قبل ذهابه إلى السّوق، ونامت في ساعة متأخّرة لكي ترتّب كلّ شيء بعد العشاء، لفرط ما غسلت ثياب الأطفال في المغسل، وسقت الزّرع في الصّيف عندما كان يتسنّى لها الوقت، لفرط ما غادرت فراشها ليلاً لتفرشَ الحُصُر في الشّتاء عندما يفاجئهم الجليد، لم يكن لدى إتيانيت الوقت لتكون طفلة، لتلعب وتضحك. وفي سنّ الرّابعة عشرة، كان وجهها حزيناً وكئيباً كوجه فتاة عانس في الخامسة والثّلاثين، لكنْ مع شعاع من الرّضا والرقّة.

لم تكن خمس دقائق قد مرّت على تعليقي قيثارتي على المسمار الذي دلّوني عليه، وكنتُ أحكي لهم كيف فاجأَنا البرد والتّعب أنا وفيتاليس عند عودتنا من جانتيّي، حيث كنّا نأمل أن ننام في مقلعٍ للحجارة، عندما سمعتُ على الباب الذي ينفتح على الحديقة حكّاتٍ خافتةً، وفي الأوان ذاته نباحاً محزوناً.

– إنّه كابي! قلتُ وأنا أنهض بحماس.

إلاّ أنّ ليز سبقتني، وركضتْ صوب الباب وفتحتْه.

فاندفع كابي المسكين واثباً عليّ. حضنته بين ذراعي، فجعلَ يلحس وجهي مُطلِقاً صرخاتٍ صغيرةً تعبيراً عن فرحه. كان كلّ جسمه يرتجف.

– وكابي؟ قلتُ للسيّد آكان.

ففهمَ سؤالي.

- حسناً، سيبقى كابي معك.

وكما لو كان كابي يفهم هو أيضاً، قفز على الأرض وأدّى التّحيّة وهو يضع قائمته اليمنى على صدره. أضحك ذلك الأطفال كثيراً، لاسيّما ليز. ولتسليتهم أردتُ أن يؤدّي لهم كابي تمثيليّة من رصيده الفنيّ، لكنّه لم يشأ أن يطيعني، وبدلاً من ذلك قفزَ على ركبتيّ وراح يقبّلني من جديد. ثمّ نزل وراح يشدّني من كمّ سترتي شدّاً.

- يريدني أن أخرج. وكم هو محقّ!

- ليقودكَ إلى جانب سيّدك.

كان رجال الشّرطة الذين حملوا فيتاليس قد قالوا إنّهم بحاجة إلى أن يطرحوا عليّ بعض الأسئلة، وإنّهم سيعودون خلال النّهار بعدما أكون تدفّأتُ واستيقظت. دام انتظارنا لهم طويلاً ولم نكن نعلم متى يأتون. وأنا كنتُ متلهّفاً للحصول على أخبار فيتاليس. ربّما لم يمت كما اعتقدوا. فأنا لم أمت. وربّما عاد مثلي إلى الحياة.

لاحظ الأب قلقي وخمّن سببه، فقادني إلى مكتب المفوّض حيث طرحوا عليّ أسئلة كثيرة لم أُجب عليها إلاّ بعدما أكّدوا لي أنّ فيتاليس قد مات. كان ما أعرفه بسيطاً جدّاً، فحكيته لهم. إلاّ أنّ المفوّض أراد أن يعرف المزيد، فسألني مطوّلاً عن فيتاليس وعنّي. فأجبته بأنّه لم يبقَ لي أهلٌ، وبأنّ فيتاليس استأجرني لقاء مبلغ من المال دفعه مسبقاً إلى زوج مربّيتي.

- والآن؟ سألني المفوّض.

فتدخّل الأب قائلاً:

- ستتكفّل نحن به، إن رضيتم بأن تعهدوا به إلينا.

لم يقبل المفوّض بأن يعهد بي للبستانيّ فحسبُ بل هنّأه كذلك على مبادرته الطيّبة.

بعد ذلك توجّب أن أجيب بخصوص فيتاليس، الأمر الذي كان صعباً لأنّني كنت أكاد لا أعرف عنه شيئاً.

إلاّ أنّه كان هناك نقطة غامضة كان يمكن التحدّث بشأنها، وهي ما حصل خلال عرضنا الأخير، عندما غنّى فيتاليس بطريقةٍ أثارت إعجاب السيّدة ودهشتها. كان هناك أيضاً تهديدات غاروفولي، ولكنّني كنتُ أتساءل عمّا إذا كان يجب أن أبوح بهذا الموضوع. فما أخفاه معلّمي بحرصٍ طوال حياته، أيَجِبُ أن ينكشف بعد موته؟

ولكن ليس يسيراً على طفلٍ أن يخفي شيئاً عن مفوّضِ شرطةٍ يعرف عمله جيّداً. فهؤلاء الأشخاص لهم طريقة في طرح الأسئلة تضيّق الخناق على المرء بسرعة إن هو حاول التهرّب. وهو ما حصل لي.

في أقلّ من خمس دقائق، جعلني المفوّض أقول ما كنتُ أريد إخفاءه وما كان هو يصرّ على معرفته.

- ليس لك إلاّ أن تقوده عند غاروفولي، قال لأحد رجاله. عندما تصلون إلى شارع لورسين، سيتعرّف إلى المنزل. فتصعد معه وتُحقّق مع غاروفولي.

انطلقنا نحن الثّلاثة: أنا والأب والشّرطيّ.

وكما قال المفوّض، كان سهلاً عليّ التعرّف على المنزل، فصعدنا إلى الطّابق الرّابع. لم أرَ ماتيا، الذي لا بدّ أنّه أُدخِل إلى المستشفى. عندما

لمح غاروفولي الشّرطيَّ وتعرّف إليّ، امتقع محيّاه. كان خائفاً بالتّأكيد. ولكنّه سرعان ما اطمأنّ عندما عرف من الشرطيّ ما الذي كان يحملنا إليه.

- آه، العجوز المسكين مات! قال.

- أكنتَ تعرفه؟

- تماماً.

- إذن قل لي ما تعرفه عنه.

- القصّة بسيطة جدّاً. لم يكن اسمه فيتاليس بل كان يُدعى كارلو بلْتساني، ولو كنتَ عشتَ منذ خمسٍ وثلاثين سنةً أو أربعين في إيطاليا، لكان هذا الاسم وحده كافياً ليقول لك من هو الرّجل الذي تسأل عنه. في ذلك العهد، كان كارلو بلْتساني هو المغنّي الأكثر شهرةً في كلّ إيطاليا، وكانت نجاحاته في كبريات مسارحنا شهيرة. لقد غنّى في كلّ مكان، في نابولي وروما وميلانو والبندقيّة وفلورنسة وفي لندن وباريس. ولكن جاء يومٌ فقدَ فيه صوته. عندئذٍ، ولمّا لم يعد قادراً على أن يكون ملك الفنّانين، لم يشأ أن يتضاءل مجده بالغناء في مسارح غير خليقة بسمعته. لذا تنازل عن اسمه كارلو بلْتساني وسمّى نفسه فيتاليس، وراح يتخفّى عن جميع مَن عرفوه في أيّامه الذّهبيّة. ولكنّه لكي يعيش جرّب أكثر من مهنة ولم ينجح. هكذا، من سقوطٍ إلى آخر، تحوّل إلى مرقّصِ كلابٍ موهوبة. ولكن رغم بؤسه بقيتْ له كبرياؤه، وكان سيموت من العار لو أنّ الجمهور عرفَ أنّ كارلو بلْتساني اللاّمع قد تحوّل إلى الفقير فيتاليس. وقد أوقفتني الصّدفة على سرّه هذا.

كان ذلك هو إذن السرّ الذي لطالما حيّرني!

مسكين كارلو بلْتساني، العزيز الرّائع فيتاليس! لو قالوا لي إنّه كان ملكاً لما استغربتُ.



الفصل العشرون

بستاني

كان مقرّراً أن يُدفَن فيتاليس في اليوم التّالي، فوعدني آكان الأب باصطحابي إلى الدّفن.

ولكن في اليوم التّالي، ولسوء حظّي، لم أتمكّن من النّهوض. فقد أصابتني في اللّيل حمّى شديدة بدأت برعشةٍ تبعتْها لفحة حَرّ. كان يبدو لي أنّ ناراً تلتهب في صدري وأنّني كنتُ مريضاً مثل جولي-كور بعد اللّيلة التي أمضاها على الشّجرة في الثّلج.

كنتُ بالفعل مُصاباً بالتهاب، التهاب رئويّ سبّبه البرد الذي تعرّضتُ له في اللّيلة التي قضى فيها معلّمي المسكين نحبَه.

كان ذلك الالتهاب الرّئويّ هو ما جعلني أقدّر طيبة العائلة آكان ولا سيّما مزيّة التّفاني التي تتمتّع بها إتيانيت.

نادراً ما يلجأ الفقراء إلى الأطبّاء، لكنّ المرض كان مسيطراً عليّ بصورة عنيفة ومُخيفة فتمّ تخطّي هذه القاعدة التي هي طبعٌ أكثر منها عادة. لم يحتج الطّبيب إلى فحص مطوّل ولا إلى شرح مفصّل ليعرف ما بي، فأعلن فوراً أنّه يجب نقلي إلى المستشفى.

في الواقع كان ذلك الحلّ هو الأبسط والأسهل. إلاّ أنّ الأب لم يعمل به.

- بما أنّه سقط عند بابي، قال، وليس على باب المستشفى فذلك

يعني أنّنا يجب أن نبقيَه هنا.

واجهَ الطبيبُ بشتّى ضروب المنطق ذلك التفكيرَ القدَريّ، ولم يُفلح في زعزعته. اعتبرتِ العائلة أنّ عليها أن تستبقيَني عندها فاستبقتْني.

وهكذا أضافت إتيانيت إلى مشاغلها الكثار مهمّة الممرِّضة. فاعتنت بي برقّة وعناية كما كانت ستفعل راهبة في مستشفى القدّيس فنسان دو بول، دون أن يَنفد صبرها مرّة أو تُهمِل شيئاً. وعندما كانت أشغالها المنزليّة تضطرّها إلى أن تتركني، كانت تحلّ محلّها ليز. مراراً، وأنا أصارع نوبات الحمّى، كنتُ أرى ليز عند أسفل سريري تحيطني بنظراتها القلِقة. كنتُ، في هذياني، أظنّها ملاكي الحارس، وأكلّمها كما لو أنّني أكلّم ملاكاً، مُفصحاً لها عن آمالي ورغباتي. ومنذ ذلك الحين اعتدتُ على اعتبارها رغماً عنّي كائناً علويّاً يحيط به ضربٌ من هالة. وكنتُ أتفاجأ أشدّ المفاجأة لرؤيتها تحيا حياتنا في حين كنتُ أتوقّع رؤيتها وهي تحلّق بجناحين كبيرين أبيضَين.

كان مرضي طويلاً ومؤلماً تخلّلته عدّة انتكاسات كانت ستجعل أيّ والدين ييأسان، ولكنّها لم تفلّ من صبر إتيانيت وتَفانيها. لِليالٍ عديدة توجّبَ أن يسهر عليّ أحدهم، لأنّ صدري كان مثقلاً حتّى لَيخال المرء أنّني كنتُ سأختنق بين لحظةٍ وأخرى. هكذا تناوب في السّهر عليّ أليكسي وبنجامان. ثمّ بدأتُ أُشفى أخيراً، لكنّ المرض كان طويلاً وقُلَّباً، ولذا كان عليّ انتظارُ أن يعيد الرّبيع للحقول اخضرارها لأخرج من المنزل.

آنئذٍ حلّت ليز، هي التي لم تكن لِتعمل، مكان أختها إتيانيت

وراحت تصطحبني في نزهات على ضفاف نهر البيافْر. كنّا ننطلق حوالى الظّهر عندما تكون الشّمس في كبد السّماء. يداً بيدٍ، كنّا نمشي بتؤدةٍ يتبعنا كابي. كان الرّبيع في تلك السّنة لطيفاً وجميلاً، أو على الأقلّ بقيت لي منه ذكرى لطيفة وجميلة، والأمران سواء.

لا يعرف الباريسيّون كثيراً الحيَّ الواقع بين ميزون-بلانش وغلاسيَير. يعرفون فقط، وبصورة مبهمة، أنّ ثمّة في مكانٍ ما وادياً صغيراً؛ لكن لأنّ النّهر الذي يسقيه هو نهر البيافْر، يروي النّاس ويعتقدون أنّ ذلك الوادي هو من أكثر الأمكنة قذارةً وكآبةً في ضواحي باريس. وذلك غير صحيح إطلاقاً، فالمكان أفضل من سُمعته بكثير. إنّ نهر البيافر، الذي يُحكَم عليه غالباً استناداً إلى ما صار عليه صناعيّاً في حارة سان-مارسيل لا إلى ما يكونه أساساً في فيريير أو رانجيس، هذا النّهر يجري هناك - أو بالأحرى كان في ذلك العهدِ يجري - تحت غطاءٍ كثيفٍ من أشجار الصّفصاف والحَور؛ وعلى ضفّتيه كانت تمتدّ مروج خضراء تتّجه بهدوءٍ صعوداً حتّى تلالٍ صغيرةٍ متوّجةٍ بالحدائق والبيوت. العشب في الرّبيع نَضِرٌ وكثيفٌ، وأزهار البلّيس تُرصِّع بساطَ الزمرّدِ بنجوم بيضاء، وفي أشجار الصّفصاف المورقةِ والمطليّةِ براعمُها بالرّاتنج اللّزج تتقافز الشّحارير وطيور الدُّخّل والشُّرشور التي تعلن أغانيها أنّنا كنّا لا نزال في الرّيف ولم نبلغ المدينة بعد.

هكذا رأيتُ ذلك الوادي الصّغير، الذي تبدّل منذ ذلك العهد، وما يزال الانطباعُ الذي خلّفه فيَّ حيّاً في ذاكرتي مثلما في اليوم الذي خامرني فيه ذلك الانطباع. ولو كنتُ رسّاماً، لرسمتُ لكم صفّ

أشجارَ الحَور دون أن أنسى واحدة منها، وأشجارَ الصّفصاف الكبيرة وشجيراتِ الكشمش الشّائكة التي كانت تخضرّ رؤوسها في حين تنغرز جذورها في الجذوع المسوّسة. ولكنتُ رسمتُ لكم أيضاً منحدراتِ الحصونِ التي كنّا نتزحلق عليها في جولات مدهشة منطلقين على قدم واحدة، ورابيةَ الـ «بوت-أو-كاي» بطاحونتها الهوائيّة، وساحةَ «سانت-إيلين» حيث كانت تقيم الغسّالات، والمدابغَ التي توسّخ مياهَ النّهر وتُلوّثها، ومزرعةَ «سانت-آنّ» حيث كان المجانين المساكين الذين يزرعون الأرض يمرّون بجانبك شفاههم تفترّ عن ابتساماتٍ بلهاء، وأطرافهم تتأرجح، وأفواههم نصف المفتوحة تُظهِر أجزاءً من ألسنتهم، وعلى محيّا كلٍّ منهم تكشيرة قبيحة.

لم تكن ليز تتكلّم أثناء نزهاتنا طبعاً. لكنّ المدهش هو أنّنا لم نكن نحتاج إلى الكلام. كنّا ننظر أحدنا إلى الآخر ونفهم أحدنا الآخر بالنظرات، فلم أعد أتكلّم أنا أيضاً.

بمرور الوقت، استعدتُ قواي وصار بوسعيَ الانكباب على أعمال البستنة. كنتُ أنتظر تلك اللّحظة بفارغ الصّبر، لأنّني كنتُ أتلهّف لأُسديَ للآخرين ما كانوا يسدونه لي من خدمات، وأن أعمل من أجلهم لأردّ لهم، بقدر ما تسمح به قواي، ما وهبوني إيّاه. لم أكن عملتُ في السّابق، لأنّ حياة التّرحال مهما يكن من صعوبتها ليست عملاً متواصلاً يستدعي إرادة ومواظبة. ولكن كان يبدو لي أنّني أعمل جيّداً، أو على الأقلّ بشجاعة، على مثالِ مَن كنتُ أراهم حولي.

كان الموسم موسم وصول أزهار المنثور إلى أسواق باريس. وكان المنثور تحديداً هو ما يزرعه السيّد آكان في تلك الفترة. كانت حديقتنا تغصّ به. كان هناك الأحمر والأبيض والبنفسجيّ موزّعة بحسب الألوان ومفصولة تحت التّسقيفات الزّجاجيّة بحيث كان هناك خطوط بيضاء بالكامل وإلى جانبها خطوط أخرى حمراء، وهو ما كان يصنع لوحة باذخة الجمال. وفي المساء، قبل إغلاق التّسقيفات، يكون الجوّ عابقاً بعطر كلّ تلك الأزهار.

كان العمل الذي كُلّفتُ به، والذي يتلاءم وقوايَ التي كانت ما تزال ضعيفة، يقضي برفع الألواح الزّجاجيّة في الصّباح بعد ذوبان الجليد اللّيليّ، وإغلاقها مساءً قبل انهماره. وفي النّهار، كان عليّ تظليلها بمزيجٍ من القشّ والتّراب أرميه فوقها لأحميَ النّباتات من ضربة شمس. لم يكن ذلك شديد الصّعوبة، ولكنّه كان يتطلّب وقتاً طويلاً إذ كان هناك مئات الألواح يجب تحريكها مرّتين في اليوم ومراقبتها من أجل تظليلها أو الحسْر عنها بحسب قوّة أشعّة الشّمس.

في تلك الأثناء، كانت ليز تبقى قرب النّاعور الذي بفضله تُرفَع المياه اللاّزمة للرّيّ. وعندما كانت الفرس العجوز «كوكوت»، المغطّاة عيناها بقناعٍ جلديّ، تتعب من الدّوران وتبطئ في مسيرتها، كانت ليز تصْفق سوطاً صغيراً لتنبّهها. في تلك الاثناء، كان يقوم أحد الشّقيقين بسكب أسطال الماء التي يرفعها النّاعور، فيما يساعد الثّاني والده: هكذا كان لكلّ واحدٍ وظيفته، وما كان أحدٌ يهْدرُ وقته.

كنتُ رأيتُ الفلاّحين في قريتي يعملون، لكن لم تكن لي أدنى فكرة عمّا كان بستانيّو أنحاء باريس يُبدونه في أعمالهم من اجتهاد وشجاعة



وبراعة. كانوا يستيقظون قبل بزوغ الشمس ويناموت بعد غيابها بوقتٍ طويل. يبذلون أنفسهم ويجتهدون بكلّ قواهم خلال ذلك النّهار الطّويل. كنتُ قد رأيتُ أيضاً النّاس يزرعون الأرض، ولكن لم تكن لي أدنى فكرة عمّا يمكن أن يجعلها العمل تتمخّض عنه دونما كلل. هذا كلّه تعلّمتُه عند آكان.

لكنّي لم أُكلَّف دوماً بالاهتمام بالتّسقيفات. فلقد استعدتُ قواي، وسنحت لي الفرصة أنا أيضاً للشّعور بالرّضا لدى زراعة الأرض، وبرضاً أكبر لدى رؤية ما زرعتُه وهو ينمو. كان ذلك من صُنعي أنا، أوجدتُه بنفسي وكان يمنحني شعوراً بالزّهو: كان ذلك يعني أنّني

كنتُ أصلُح لشيء ما، وكنتُ أُثبِت ذلك، وما كان يُفرحني أكثر هو أنّني كنتُ أشعر به. أؤكّد لكم أنّ هذا يعوّض عن كلّ المشقّة المبذولة.

فبالرغم من التّعب الذي فرضتْه عليّ تلك الحياة الجديدة، سرعان ما اعتدتُ على ذلك العيش الكادح الذي كان قليل الشّبه بحياة البوهيميّ المتشرّدة التي كنتُ أحياها. وبدل الرّكض بحريّة كالسّابق، لا همّ لي إلاّ السّير قدُماً والمشي في الدّروب، صار عليّ أن أبقى حبيس جدران البستان الأربعة، والعمل بمشقّة من الصّباح إلى المساء، سابحَ الظّهر بالعرَق، حاملاً المرشّات وحافيَ القدمين في المَسالك الموحلة. لكن كان الجميع حولي يعملون بالقدْر ذاته من المشقّة. كانت مرشّات آكان الأب أثقل من مرشّاتي، وقميصه أكثر بللاً من قمصاننا. إنّ المساواةَ لهيَ في التّعب عزاءٌ كبير. كما كنتُ أستعيد هناك ما كنتُ أظنّني قد فقدتُه إلى الأبد، أي الحياة العائليّة. لم أعد وحيداً، لم أعد الطّفل المهجور. كان لي سريرٌ خاصّ بي ومكاني على الطّاولة التي كانت تجمعنا كلّنا. وعندما يحصل أن أتلقّى خلال النّهار من ألكسي وبنجامان ضربةً على رأسي، كنتُ أنساها ما إن يُنزلان أيديهما، وهما بدورهما كانا ينسيان الضّربات التي أردّها لهما. وفي المساء، حول الحساء، كنّا نعود جميعنا أصدقاء وإخوة.

الحقّ، ينبغي القول إنّ حياتنا لم تكن تقتصر على العمل والتّعب. كان لنا أيضاً أوقات راحةٍ ومتعة. أوقاتٌ قصيرة طبعاً، ولكنّها لهذا السّبب بالذّات كانت أكثر لذّة.

في الآحاد، بعد الظّهر، كنّا نجتمع تحت عريشةٍ بمحاذاة المنزل. كنتُ أتناول قيثارتي من على المسمار حيث كانت تظلّ معلّقة خلال

الأسبوع، وأروح أعزف للشّقيقَين والشّقيقتين كي يرقصوا. لم يكن أيّ منهم قد تعلّم الرّقص، ولكنّ أليكسي وبنجامان كانا قد دُعِيا ذات مرّة إلى حفلِ زفافٍ راقصٍ في مطعم «ميل-كولونّ» وعادا منه بذكريات شبْه دقيقة حول «الرّقص التّقابليّ»[1]، وكانت تلك الذّكريات تقود الأشقّاء في رقصهم المنزليّ. وعندما يتعبون من الرّقص، كانوا يطلبون منّي أن أغنّي الأغاني التي أعرفها ودائماً كان لأغنيتي النّابوليتانيّة التّأثير نفسه الذي لا يُقاوَم على ليز:

أيّتها المعشوقة القاسية، يا امرأةً مشؤومةً باطلة!
كم من الحسرات جرّعتِني!

لم أغنِّ يوماً المقطع الأخير دون أن أرى عينيها تدمعان.

ولذا، فلكي أرفّه عنها، كنتُ أعزف مقطوعة هزليّة بمشاركة كابي. كانت أيّام الآحاد تلك أيّام عيد بالنّسبة إليه هو أيضاً. كانت تذكّره بالماضي، وما إن ينهي دوره حتّى يكون على استعداد تامّ لتكراره.

أنا أيضاً، كانت تلك الآحاد تذكّرني بفيتاليس. كنتُ أعزف على القيثارة وأغنّي كما لو كان هو إلى جانبي. فيتاليس الطيّب! بقدر ما كنتُ أكبر، كان يكبر احترامي لذكراه. وصرتُ أفهم فهماً أفضل ما كان يمثّله لي.

مرّت على هذه الحال سنتان. كان الأب يصطحبني إلى السّوق، وإلى رصيف الأزهار، وإلى حيّ مادلين وشاتو-دو أو عند بائعي

(1) نمط من الرّقص الكلاسيكيّ، يرقص فيه الأفراد في صفّين متقابلين (المترجمة).



الزّهور الذين كنّا نحمل إليهم نباتاتنا، فصرتُ شيئاً فشيئاً أعرف باريس وأفهم أنّها وإن لم تكن مدينة الرّخام والذّهب كما كنتُ أتصوّرها، فإنّها لم تكن مدينة الوحل كما ظننتُ بشكل متسرّع لدى دخولي إليها من «شارانتون» وحيّ «موفتار».

زرتُ المعالمَ التّاريخيّة وولجتُ إلى بعضها. تمشّيتُ على امتداد الأرصفة، وفي الجادّات، وفي حديقة اللّوكسمبورغ، وفي حديقة تويلري، وفي جادّة الشّانزيليزيه. رأيتُ التّماثيل ووقفتُ مندهشاً أمام حركة الجموع. فتكوّنتْ لي فكرة عمّا هي عليه الحياة في عاصمة كبيرة.

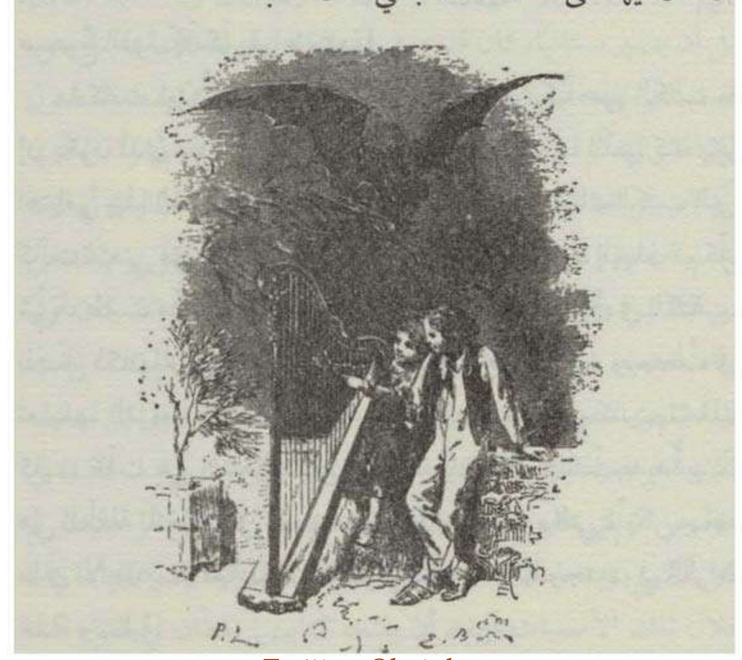
لحسن الحظّ لم تعتمد تربيتي على العينين فحسب، ولا على الصُّدَف التي تقودني إليها نزهاتي أو جولات التسوّق بباريس. فآكان الأب، قبل أن يصير بستانياً، كان قد عمل في مشاتل حديقة النّبات بباريس، حيث ألفى نفسه على احتكاك برجال العلم والمعرفة، ممّا منحه الفضول للقراءة والتعلّم. وخلال عدّة سنوات، كرّس مدّخراته لشراء الكتب وأوقات فراغه لقراءتها. وعندما تزوّج ورُزقَ أطفالاً، صارت أوقات التسلية نادرة وتوجّب قبل أي شيء آخر تحصيل الخبز كلّ يوم. فتخلّى عن الكتب، ولكنّه لم يُضعها أو يبعْها بل حفظَها في خزانة. كان أوّلُ شتاء أمضيه مع العائلة آكان طويلاً جدّاً، وأعمال البستنة خفّتْ طيلةَ شهور عديدة. ولتزجية الأمسيات التي كنّا نمضيها إلى جانب النّار، أُخرِجَتِ الكتب القديمة من الخزانة ووُزِّعت علينا. كانت في معظمها كتباً في علم النّبات وتاريخها مع بعض قصص الرّحلات. لم يكن ألكسي وبنجامان قد ورثا عن والدهما حبّ العِلم، وغالباً ما كانا خلال تلك الأمسيات وبعد أن يفتحا كتابيهما يغطّان في النّوم عند

الصّفحة الثّالثة أو الرّابعة. أمّا أنا، فلعدم رغبتي بالنّوم أو بسبب حبّي للاستطلاع، كنتُ أظلّ أقرأ حتّى تحين ساعة نومي. لم تذهب دروس فيتاليس الأولى سدىً، كنتُ أقول هذا في نفسي عندما أخلد إلى النّوم وأنا أفكّر فيه بحنان.

رغبتي في التعلّم ذكّرتِ الأب بالزّمن الذي كان يوفّر فيه فلسين من غدائه ليشتري كتباً. لذا أضاف إلى الكتب التي كانت في الخزانة بعض الكتب الأخرى التي أحضرها لي من باريس. كانت خياراته تعتمد على الصّدفة وعلى ما يَعِدُ به العنوان. ولكنّها في النّهاية كانت كتباً، ولئن أحدثت بعض البلبلة في ذهني الذي كان بحاجة إلى من يوجّهه، فإنّ تلك البلبلة زالت فيما بعد، ليبقى ما هو جيّد. ألا كم هو صحيحٌ القول إنّ كلّ قراءة نافعة!

ما كانت ليز تُجيد القراءة، ولكن لمّا رأتني مكبّاً على الكتب ما إن يكون لديّ ساعة فراغ، انتابها الفضول لتعرف ما الذي كان يثير اهتمامي بهذا القدْر. في البداية أرادت أن تأخذ منّي تلك الكتب التي كانت تمنعني من اللّعب معها. ولكن لمّا رأت أنّي أعود إليها رغم كلّ شيء، طلبت منّي أن أقرأ لها ومن ثمّ أن أدلّها على ما أقرأه في الكتاب. بفضل ذكائها ورغم تعوّقها، حلّت عيناها محلّ الأذنين ونجحتُ في تعليمها القراءة. إلاّ أنّ القراءة بصوتٍ مرتفع، التي كانت تشغلنا كلينا، ظلّت هي المشغلة الأثيرة لديها. كان ذلك رابطاً جديداً بيننا. هي الطّفلة المنغلقة على نفسها، والمتوقّدة الذّكاء، والتي لم يكن يهمّها ما في الأحاديث المتبادلة من تفاهة وخفّة، بدا أنّها وجدت في القراءة غذاءً وتسلية.

كم من السّاعات أمضيناها على هذه الشّاكلة: هي جالسة أمامي لا تحيد بنظرها عنّي، وأنا أقرأ! غالباً ما كنتُ أتوقّف عندما أقع على كلمة أو مقطع لا أفهمه، فأنظر إليها. في تلك الحالة كنّا أحياناً نطيل التّفتيش، وعندما لا نجد جواباً، كانت تومئ إليّ بإيماءةٍ تعني أن أستأنفَ البحث فيما بعد. علّمتُها أيضاً الرّسم، أو ما كنتُ أسمّيه رسماً. استلزمَ الأمر مدّة طويلة وتمارين صعبة ولكنّني في نهاية المطاف نجحتُ. كنتُ على الأرجح أستاذاً محدود القدرات. ولكنّنا كنّا منسجمَين، والعلاقة الجيّدة بين أستاذ وتلميذه غالباً ما تكون أفضل من الموهبة. كم فرحنا عندما رسمتْ هي بضعة خطوط يمكن أن تدلّ فيها على مقصدها! فقبّلني آكان الأب.



- هيّا، قال وهو يضحك، كان يمكن أن أرتكب حماقةً أكبر من استقبالك في منزلي. ستكافئك ليز على كلّ هذا فيما بعد.

«فيما بعد»، أي عندما ستتكلّم. ذلك أنّهم لم يعدِلوا عن محاولاتهم لجعلها تستعيد قابليّتها على النّطق. لكنّ الأطبّاء قالوا إنّه في ذلك الحين لم يكن هناك ما يمكن عمله، وإنّه يجب انتظار أن تصيبها أزمة أخرى.

«فيما بعد» كانت هي أيضاً فحوى الإيماءة التي تومئ لي بها عندما أغنّي لها. فقد أرادت أن أعلّمها العزف على القيثارة، وسرعان ما اعتادت أصابعها على محاكاة أصابعي. ولكن طبعاً لم تتمكّن من تعلّم الغناء وكان ذلك يُغيظها. مراراً رأيتُ عينيها اللّتين كانتا تقولان كلّ حزنها تغرورقان بالدّمع. ولكن مع طبعها الطيّب والرّقيق، لم يكن الحزن يدوم طويلاً. فكانت تمسح عينيها وبابتسامة قانعة تقوم بتلك الإيماءة التي تعني «فيما بعد».

بعدما تبنّاني آكان الأب وعاملني الأطفال مثل أخٍ لهم، كنتُ سأبقى على الأرجح إلى الأبد معهم في حيّ «غلاسْيَير». لكنّ مصيبةً جاءت فجأةً لتغيّر حياتي مرّة أخرى، لأنّه كان مكتوباً ألاّ أكون سعيداً لأمد طويل، وأنّ اللّحظة التي أشعر فيها بأنّ راحتي مضمونة تكون هي تحديداً اللّحظة التي يُقذَف بي فيها من جديدٍ، بسبب أحداثٍ خارجة عن إرادتي، في حياتي الحافلة بالمغامرات.



الفصل الحادي والعشرون

العائلة المشتّتة

في بعض الأيّام عندما أكون وحيداً وأستغرق في التّفكير، كنتُ أقول في نفسي:

- أنت سعيدٌ جدّاً يا صديقي، ولن يدوم ذلك.

أمّا كيف ستأتي المصيبة، فلم يكن بإمكاني توقُّع ذلك، ولكنّني كنتُ شبه واثق من أنّها ستأتي من جهة أو أخرى.

كان ذلك يُحزنني أغلب الأحيان. ولكن في الأوان ذاته كان له حسَناتُه. فلتفادي المصيبة، كنتُ أجتهد للقيام بها أعمله على أحسن وجه، معتقداً أنّني سأكون أنا نفسي السّبب في تعاستي.

ولكن لم أكن أنا السّبب. وإذا لم أُصِبْ في هذه النّقطة، فإنّ حدسي بشأنِ وقوعِ مصيبةٍ كان دقيقاً.

سبق أنْ قلتُ إنّ الأب كان يزرع المنثور. وهي زراعة سهلة ينجح فيها البستانيّون في أنحاء باريس أيّما نجاح. والدّليل على ذلك النبتات الكبيرة المتراصّة والممتلئة بالزّهور من الأعلى إلى الأسفل التي كانوا يُحضِرونها إلى الأسواق في شهري نيسان وأيّار. أمّا البراعة الوحيدة اللاّزمة للبستانيّ الذي يزرع المنثور فهي اختيار نبتات ذات أزهار مزدوجة، إذ كان ذوق العصر يرفض الأزهار المنفردة. ولكن بما أنّ البذور التي تُزرَع تعطي النّسبة ذاتها من النبتات المنفردة والمزدوجة،

فمن مصلحة البستانيّ الاحتفاظ بالنّبتات المزدوجة وحدها. وإلاّ لَجازفَ بالاهتمام بصورة مُكلفة بنباتٍ سيكون عليه رمْي نصفه عندما يبدأ بالازهرار، أي بعد عامٍ من الزّراعة. هذا الاختيار يُسمّونه «التّنقية»، ويُصار إليه بعد فحص بعضِ سِماتِ الأوراق وكذلك شكل النّبتة. قلّة من البساتنة تجيد القيام بهذه العمليّة، حتّى أنّها سرّ حافظت عليه بضع عائلات. وعندما يحتاج زارعو المنثور لاختيار النّبتات المزدوجة، يلجأون إلى زملائهم الواقفين على السرّ، فيذهب هؤلاء كالأطبّاء أو الاختصاصيّين للمعاينة.

كان الأب أحد أولئك «المُنقّين» بباريس. ولذا فعندما يحين موعد القيام بهذه العمليّة كانت نهاراته تغدو ممتلئة. وتلك الفترة هي الأصعب بالنّسبة إلينا، وتحديداً لإتيانيت، لأنّ زيارة زملاء المهنة لا تتمّ من دون قصفٍ وسهَر. هكذا كان الأب، بعد زيارة بستانيّين أو ثلاثة بساتنة، يعود إلى المنزل ثقيلَ اللّسانِ مرتجفَ اليدين.

لم تكن إتيانيت تنام قبل رجوعه، وذلك حتّى عندما يعود في ساعة متأخّرة من اللّيل.

وعندما أكون مستيقظاً أو يوقظني ما يُحدِثه لحظة وصوله من ضجيج، كنتُ أسمع من غرفتي حديثهما. كان الأب يقول:

- لِمَ لستِ نائمةً بعد؟
- لأنني أردتُ التّأكّد من أنّك لا تحتاج إلى شيء.
- هكذا إذن، فالآنسة الدّركيّة تراقبني!
- لو لم أبقَ ساهرةً فمعَ من كنتَ ستتحدّث؟
- هل ليز بخير؟

- أجل، إنّها نائمة، فلا تُحدِثْ من فضلك ضجّة.

- أنا لا أُحدث ضجّة، بل أمشي باستقامة. ويجب أن أمشي باستقامة ما دامت الفتيات يتّهمن آباءهنّ. ماذا قالت ليز عندما لم ترَني عائداً للعشاء؟

- لم تقل شيئاً. بل نظرت إلى مكانك.

- آه! نظرتْ إلى مكاني.

- أجل.

- مراراً؟ هل نظرتْ مراراً؟

- عدّة مرّات.

- وماذا كانت تقول؟

- كانت عيناها تقولان إنّك لم تكن هنا.

- كانت إذن تسألكِ لماذا لم أكن هنا. وهل كنتِ تقولين لها إنّني برفقة أصدقاء؟

- كلاّ، لم تكن تسألني شيئاً، ولم أكن أقول لها شيئاً. كانت تعرف تماماً أين كنت.

- تعرف... تعرف أنّني كنت أسهر... هل نامت بسهولة؟

- كلاّ، من ربع ساعةٍ فحسبُ أتاها النّوم. كانت تريد أن تنتظرك.

- وأنتِ ما الذي كنتِ تريدينه؟

- كنتُ أريد ألاّ تراكَ تدخل.

ثمّ بعد دقيقةٍ من الصّمت كان يقول:

- أنتِ فتاة طيّبة يا إتيانيت. اسمعي، غداً أذهب لزيارة صديقي لويزو، وأقسم لكِ، أتسمعين؟ أقسم لكِ بأن أعود باكراً للعشاء. فأنا

لا أريد أن تسهري لانتظاري بعد اليوم، ولا أن تنام ليز قلقة.

ولكنّ الوعود والأيمان لم تكن تنفع دوماً. فهوَ ما إن يَقبل بتزجية شطر من الأمسية في صحبة بعض رفاقه حتّى يتعذّر عليه أن يعود إلى البيت في وقت مبكّر. في المنزل كانت ليز كليّة القدرة، أمّا خارجه فكانت تُنسى.

وهو كان يقول:

- أتفهمين؟ نَقبل دعوة دون أن نفكّر، لأنّنا لا نريد ردّ دعوة الأصدقاء. ثمّ إنّنا نعلم أنّنا عندما نبدأ بالسّهر ننسى الأحزان، فلا نعود نفكّر في الدّائنين ونرى كلّ شيء مشرقاً وبهيجاً. نخرج من جِلدنا لنتنزّه في عالم آخر، العالم الذي نرغب في الذّهاب إليه. فنسهر ونسهر. هكذا.

ينبغي القول إنّ ذلك لم يكن يحصل كثيراً. فموسم «التّنقية» لم يكن يدوم طويلاً، وعندما يمرّ لا يعود للأب سبب للخروج فلا يخرج. لم يكن من النّوع الذي يذهب إلى السّهرات وحيداً أو عن كسلٍ، لتضييع الوقت.

وعندما ينتهي موسم المنثور، كنّا نحضّر نبتات أخرى لأنّ القاعدة تقضي بألاّ يكون في حديقة البستانيّ مكان فارغ. فما إن تُباع النّبتات حتّى تحلّ محلّها نبتاتٌ أخرى.

كما أنّ براعة البستانيّ الذي يعمل بهدف بيع إنتاجه في السّوق تقضي بأن يحمل أزهاره إلى السّوق في وقتٍ يمكنه فيه الحصول على أعلى سِعر. وهذا الوقت هو زمن الأعياد الكبرى في السّنة: عيد القدّيس بيار وعيد القدّيسة مريم وعيد القدّيس لويس، لأنّ من

يُدعون بيار وماري ولويس أو لويز عددهم هائل، وبالتّالي يصير عدد أُصَص الزّهر والباقات التي تُباع في تلك الأيّام والمخصّصة لمعايدة قريب أو صديق كبيراً كذلك. الجميع رأوا كيف تكون شوارع باريس في عشيّات هذه الأعياد ملأى بالزّهر، ليس في المحلاّت أو في الأسواق فحسبُ ولكن على الأرصفة وعند زوايا الشّوارع وعلى درجات المنازل أيضاً، وفي كلّ مكان يمكن فيه بسْط البضائع.

بعد موسم زهر المنثور، كان آكان الأب يعمل من أجل الأعياد الكبرى في شهري تمّوز وآب، ولا سيّما شهر آب الذي يحلّ فيه عيدا القدّيسة مريم والقدّيس لويس. ولهذا السّبب كنّا نحضّر آلاف أزهار اللّؤلؤيّة والفوشية والدّفلى بقدر ما تسَع كلّ تسقيفاتنا ودفيئاتنا. كان يجب أن تبلغ كلّها ازهرارَها في اليوم المحدّد، لا قبله، فستكون في هذه الحالة قد تلفتْ عند لحظة البيع، ولا بعده، إذ لن تكون مزهرةً بعد. وهذا يتطلّب شيئاً من المهارة لأنّه لا يمكننا التّحكّم بالشّمس والطّقس القُلَّب. كان الأب شديد البراعة في هذا المضمار، ولم تكن نباتاته تصل متأخّرة ولا مبكّرة. لكن كم من العناية والعمل كان يتطلّبه ذلك!

في المكان الذي بلغتُه من حكايتي، كان الموسم يُعلن أنّه سيكون ممتازاً. كنّا في الخامس من آب وكانت كلّ نباتاتنا قد أزهرت في الوقت المناسب. في الحديقة، في الهواء الطّلق، كانت اللّؤلؤيّات تكشف عن تويجاتها الآيلة للتّفتّح؛ وفي الدّفيئات أو تحت التّسقيفات التي كان زجاجها مطليّاً بعناية بالكلس الأبيض لتخفيف حدّة الشّمس، كانت

أزهار الفوشية والدّفلى قد بدأتْ تُزهر. كانت تشكّل أدغالاً واسعةً أو أهراماتٍ تزخر بالبراعم من أعلاها إلى أسفلها. كان المشهد رائعاً، ومن حينٍ لآخر كنتُ أرى الأب يفرك يديه علامة على الرّضا.

- سيكون الموسم جيّداً، كان يقول لأبنائه.

كان يحتسب كم سيدرّ عليه بيع كلّ تلك الأزهار ويبتسم في سرّه.

لكي نصل إلى هذه النّتيجة، كنّا قد اشتغلنا بنشاط لا يُضاهى، دون أن نأخذ ساعة استراحة، ولا حتّى يوم الأحد. وإذ كان كلّ شيء حسنَ التّرتيب، تَقرّرَ، على سبيل مكافأةِ أتعابنا، أن نذهب جميعاً، ذلك الأحد في الخامس من آب، إلى «أركويْ»، للعشاء عند أحد أصدقاء الأب، وكان بستانيّاً مثله. حتّى كابي كان مدعوّاً. قرّرنا أن نعمل حتّى السّاعة الثّالثة أو الرّابعة، وعندما ينتهي كلّ شيء، نقفل الباب بالمفتاح ونذهب فرِحين. كنّا سنصل إلى «أركوي» حوالى الخامسة أو السّادسة عصراً، ثمّ نعود فورَ انتهاء العشاء حتّى لا نتأخّر في النّوم ونكون قادرين على الاستيقاظ صباح الاثنين باكراً للعمل، نشطين ويَقِظين.

يا للسّعادة!

وهذا ما حصل. وقبل دقائق من حلول السّاعة الرّابعة كان الأب يدير المفتاح في قفل الباب الكبير.

- هيّا، فلننطلقْ جميعاً! قال فرِحاً.

- إلى الأمام يا كابي!

أمسكتُ يد ليز ورحتُ أركض وإيّاها، يرافقنا نباح كابي السّعيد الذي كان يقفز حولنا باستمرار. ربّما كان يعتقد أنّنا كنّا ذاهبين في

ترحال طويل، الأمر الذي كان سيعجبه أكثر من بقائه في المنزل حيث كان يَضْجر لأنّه لم يكن بإمكاننا الاهتمام به دوماً، وهو ما كان يحبّه فوق كلّ شيء.

كنّا جميعاً متأنّقين ورائعين بثيابنا الجميلة التي تليق بالمناسبة. كان بعض النّاس يلتفتون ليرونا نمرّ. لا أدري كيف كان مظهري أنا، ولكنّ ليز بقبّعتها القشّ وفستانها الأزرق وحذائها من الكتّان الرّماديّ كانت أجمل فتاة صغيرة يمكن رؤيتها، والأكثر حيويّة. كان في حيويّتها الجمال كلّه. وكلّ ما فيها، عيناها، منخراها المرتعشان، كتفاها، ذراعاها، كان يعبّر عن متعتها.

مرّ الوقت بسرعةٍ كبيرة بحيث لم أنتبه إليه. كلّ ما أعرفه أنّنا كنّا على وشك الانتهاء من العشاء عندما لاحظ أحدنا أنّ السّماء بدأت تتلبّد بغيوم سوداء من جهة الغرب. وبما أنّ مائدتنا كانت منصوبة في الهواء الطّلق تحت شجرة بيلسان كبيرة، كان من السّهل لنا الاستنتاج أنّ عاصفةً كانت تتهيّأ.

- يا أولاد، ينبغي أن نسرع بالعودة إلى المنزل.

عند هذه الكلمات، صدرت عن الجميع صيحة تعجُّب:

- مِن الآن!

لم تنبس ليز ببنت شفة، ولكنّها قامت بإيماءاتِ رفضٍ واعتراض.

- إذا هبّت الرّيح، قال الأب، فيمكنها أن توقع الألواح. هيّا فلننطلقْ.

لم يكن ثمّة ما يمكن أن نضيفه، فقد كنّا نعلم أنّ الألواح الزّجاجيّة هي ثروة البساتنة، وإذا حطّمت الرّيح الزّجاج، فهذا يعني بالنّسبة

إليهم الخراب التّام.

- سأسبقكم، قال الأب. تعال معي يا بنجامان، وأنت أيضاً يا ألكسي، سنُسرِع. أمّا ريمي فسيلحقنا مع إتيانيت وليز.

ومن دون أن يضيف كلمة، انطلق وولدَيه مُسرِعين، فيما كنّا نحن نتبعهم بأقلّ سرعة، نضبط أنا وإتيانيت مشيَتنا على إيقاع ليز.

لم يعد من متّسعٍ للضّحك والرّكض والنّطنطة.

كانت السّماء تزداد احتلاكاً، والعاصفة تدنو بسرعة، تسبقها سحائب من الغبار تحملها الرّيح في دوّامات ضخمة. عندما كنّا نُلفي أنفسنا في وسط إحدى تلك الدّوّامات كان علينا أن نتوقّف وندير ظهورنا للرّيح ونحمي عيوننا بالأيدي، ذلك أنّ الغبار كان يعمينا. يكفي أن نتنفّس لنُحسّ بطعم الحصى في أفواهنا.

كان الرّعد يقصف في البعيد ودويّه يقترب أكثر فأكثر، ممتزجاً ببريقه الحادّ.

أمسكنا أنا وإتيانيت بيدَي ليز ورحنا نجرّها جرّاً. ولكنّها كانت تجد صعوبة في مجاراتنا ولم نكن نمشي بالسّرعة التي نبتغيها.

فهل سنصل قبل العاصفة؟

هل سيصل آكان الأب وبنجامان وألكسي؟

كان همّهم مختلفاً عن همّنا بكثير. ففي حين كان علينا ببساطة ألاّ نتبلّل، كان عليهم أن يضعوا التّسقيفات في مأمن من التّلف، أي أن يغلقوها حتّى لا يدخل فيها الهواء ويرفعها من الأسفل ويقلبها رأساً على عقب.

كان دويّ الرّعد يزداد أكثر فأكثر، والغيوم تكثّفت بشدّة حتّى كاد يسود الظّلام. وعندما كانت الرّياح تشقّ تلك الغيوم، كنّا نلمح هنا وهناك في دوّاماتها السّود أعماقاً نحاسيّة اللّمعان. كان أكيداً أنّ تلك الغيوم كانت تُنذر بالانفجار بين لحظةٍ وأخرى.

ولقد حصلَ إبّانَ دويّ الرّعد أمرٌ غريب! سمعْنا ضجيجاً هائلاً يتّجه صوبنا وكان يصعب تفسيره. كأنّ كتيبة خيّالة كانت تُسرع هرباً من العاصفة، لكن كيف أمكن للخيّالة أن يتواجدوا في ذلك الحيّ؟

وفجأةً بدأ يتساقط البَرَد. في البداية ضربت بضعُ حبّاتٍ وجوهَنا ثمّ سرعان ما تحوّلت إلى وابلٍ من البَرَد. توجّبَ أن نلوذ بسرعةٍ تحت إحدى البوّابات الكبيرة.

عندئذٍ راح يتساقط وابلٌ من البرَد أقوى من كلّ ما يمكن تخيّله. وفي لحظةٍ واحدةٍ، تغطّى الشّارع بطبقةٍ بيضاء كما لو كنّا في عزّ الشّتاء. كانت حبّات البرَد كبيرة كبيض الحمام، وفي سقوطها كانت تُحدث صخباً مُصِمّاً ينفجر خلاله من حينٍ لآخر صخبُ نوافذ تتكسّر. ومع حبّات البرَد المنزلقة من الأسطُح إلى الشّارع كانت تتساقط أشياء شتّى: قطعُ قرميدٍ وأنقاضُ جصٍّ وصفائحُ مسحوقةٌ، وكانت هذه الأخيرة تشكّلُ في وسط بياض البرَدِ أكواماً سوداء.

- وا أسفاه! الألواح! هتفت إتيانيت.

كان ذلك أيضاً ما فكّرتُ فيه.

- قد يكون أبوك وصل في الوقت المناسب؟

- حتّى لو وصلوا قبل تساقط البرَد، لن يكون لديهم الوقت الكافي لتغطية الألواح بمزيج من القشّ والتّراب. سيضيع كلّ شيء.

- يُقال إنّ البَرَد لا يتساقط في كلّ الأماكن.

- هنا نحن قريبون جدّاً من منزلنا، فلا يمكن أن يكون قد وفّرنا البَرَد. وإن سقطَ على الحديقة كما فعل هنا، فسيخسر أبي المسكين كلّ شيء. آه، يا إلهي! كان يعوّل كثيراً على هذا الموسم، كان بأمسّ الحاجة إلى هذا المال!

دون أن أعرف تماماً أسعار الأشياء، غالباً ما سمعت أنّ كلّ مائة من الألواح الزّجاجيّة تكلّف ألفاً وخمس مائة فرنك، أو ألفاً وثماني مائة، ففهمتُ فوراً مدى الكارثة التي يمكن أن تصيبنا إذا ما حطّم البَرَد خمسة ألواحٍ أو ستّة، دون أن نذكر الدّفيئات أو النّبتات.

كنتُ أرغب في أن أسأل إتيانيت، ولكنّنا كنّا لا يكاد يسمع أحدنا الآخر لفرط ما كان الصّخب الذي تُحدثه حبّات البَرَد مصمّاً للآذان. ثمّ إنّ إتيانيت لم تكن بصراحة تبدو مستعدّةً للكلام. كانت تنظر إلى تساقط البَرَد بوجهٍ مكتئبٍ كوجوهِ مَن يرون منزلهم يحترق.

لم تدم زخّة البَرَد الرّهيبة تلك طويلاً، ربّما خمس دقائق أو ستّاً، ثمّ توقّفت فجأةً كما بدأت. اتّجهت الغيمة صوب باريس وتمكنّا من الخروج من تحت البوّابة الكبيرة. في الشّارع، كانت حبّات البَرَد القاسية والمستديرة تتدحرج تحت أقدامنا كحصى البحر، فيما تغوص أقدامُنا في سماكتها حتّى الكاحلين.

لم تكن ليز قادرة على المشي في أكوام البَرَد المتجمّدة تلك بحذائها الكتّان، فحملتُها أنا على ظهري. ومحيّاها الذي كان في طريق الذّهاب جذلان جدّاً، بات في تلك اللّحظة مجلّلاً بالحزن وكانت الدّموع تنسكب من عينيها.

لم نتأخّر في الوصول إلى المنزل الذي كانت بوّابته الكبيرة قد أُبقيَ عليها مفتوحة، فدلفنا بسرعة في الحديقة.

يا للمشهد الرّهيب! كان كلّ شيء محطّماً ومفروماً: ألواحٌ وزهورٌ وقِطَعُ زجاجٍ وحبّاتُ بَرَدٍ، هذا كلّه كان يشكّل رُكاماً مختلطاً وهلاميّاً. من تلك الحديقة الغنيّة الفاتنة في ذلك الصّباح، لم يكن بقيَ إلاّ حطامٌ يتأبّى على التّسمية.

أين كان يا ترى الأب؟

لم نَرَه في أيّ مكان. فبحثنا عنه ووصلنا أخيراً إلى الدّفيئة الكبرى التي لم يبقَ سالماً فيها أيّ لوحٍ زجاجيّ. كان جالساً، منهاراً بالأحرى، على سلّم صغير في وسط الرّكام الذي كان يغطّي الأرض، وألكسي وبنجامان واقفان إلى جانبه دونما حراك.

– آه، يا أطفالي المساكين! هتف وهو يرفع رأسه مع اقترابنا الذي أعلمه به صوت الزّجاج الذي كنّا نسحقه تحت أقدامنا، آه يا أطفالي المساكين!

ثمّ عانق ليز بين ذراعيه وراح يبكي دون أن يضيف كلمة.

فماذا يمكن أن يقول؟

كانت تلك كارثة. لكن مهما كانت مُفجِعة للنّظر، فإنّها كانت مفجِعةً أكثر بنتائجها.

لاحقاً عرفتُ من إتيانيت والصّبيَّين كم كان يأس أبيهم مبرَّراً. فهو قد اشترى ذلك البستان منذ عشر سنوات وبنى المنزل بنفسه. والرّجل الذي باعه الأرض أعاره أيضاً المال الكافي ليشتري المعدّات اللاّزمة لمهنته كبستانيّ. كان عليه أن يُرجع الدّين على مدى خمس عشرة سنة،

على شكل أقساطٍ سنوية. حتّى تلك اللّحظة، كان الأب قد تمكّن من تسديد الأقساط بانتظامٍ بفضل عمله الدّائم وعيشه المتقشّف. كانت تلك الدّفعات المنتظمة ضروريّة جدّاً لا سيّما وأنّ دائنه لم يكن ينتظر إلاّ فرصةً واحدة، أي تأخيراً واحداً في الدّفع ليستعيد الأرض والبيت والمعدّات، محتفظاً بالطّبع بأقساط السّنين العشر التي كان قد قبضَها في السّابق. هذا تحديداً ما كان يراهن عليه على ما يبدو. وإذا كان قد جازف بمراهنة كهذه فلأنّه كان يأمل أن يأتي خلال السّنوات الخمس عشرة يومٌ يعجز فيه الأب عن الدّفع. وهو رهانٌ مأمونٌ بالنّسبة له، ولكنّه بالنّسبة لهذا الأخير كان حافلاً بالمخاطر.

وبسببِ البرَد، جاء أخيراً ذلك اليوم.

فما سيحصل؟

لم نبقَ حائرين طويلاً. في اليوم الذي تلا اليوم الذي كان على الأب أن يسدّد فيه القسط السنويّ بفضل عائداتِ بيع نباتِه، رأينا رجلاً يرتدي ثياباً سوداء ولا يبدو شديد التّهذيب يدخل المنزل ويعطينا ورقةً مدموغةً كتب بضع كلمات على سطرٍ كان قد بقيَ فيها فارغاً.

كان ذلك مأمور الحجز.

ومنذ ذلك اليوم، ظلّ يعود في كلّ لحظة بحيث بات يعرف أسماءنا واحداً واحداً.

– صباح الخير يا ريمي، كان يقول. صباح الخير يا أليكسي. كيف الحال آنسة إتيانيت؟

ثمّ كان يسلّمنا ورقته المدموغة مبتسماً كما لو لأصدقاء.

– إلى اللّقاء يا أولاد!

- فلتذهب إلى الجحيم!

لم يكن الأب يبقى في المنزل، بل كان يجوب المدينة. أين يا ترى كان يذهب؟ لا أدري، فذلك الرّجل الذي كان في الماضي منفتحاً وميّالاً إلى الكلام، ما عاد يقول كلمة. كان يقصد رجال الأعمال، وربّما المَحاكم أيضاً.

أمام هذه الفكرة، كنتُ أشعر بالرّعب. ففيتاليس أيضاً مَثُل أمام محكمةٍ، وكنتُ أعرف ما كانت نتيجة ذلك.

لكن بالنّسبة إلى الأب طال انتظار نتيجة الحكم. وهكذا مرّ شطرٌ من الشّتاء. وإذ لم نتمكّن، بطبيعة الحال، من إصلاح دفيئاتنا وتزجيج ألواحنا، كنّا نزرع الحديقة خضاراً وزهوراً لا تستلزم الحماية. لن يؤمّن لنا ذلك عائداً كبيراً، ولكنّه سيكون عائداً ما. ثمّ إنّه كان عملاً.

ذات مساء، دخل الأب مغتمّاً أكثر منه في العادة.

- يا أولادي، لقد انتهى كلّ شيء، قال لنا.

أردتُ الخروج، لأنّني فهمتُ أنّ شيئاً خطيراً كان بصدد الحصول. وبما أنّه كان يتوجّه بالحديث إلى أولاده، فقد بدا لي أنّني يجب ألاّ أصغي.

ولكنّه أوقفني بإيماءة من يده قائلاً:

- ألستَ من العائلة؟ رغمَ أنّ سنّك لا تسمح لك بسماع ما لديّ لأقوله، إلاّ أنك عانيتَ ما يكفي من المآسي لتفهم. يا أولادي، سأترككم.

لم تصدر عنّا إلاّ صرخة استغرابٍ وألم.

ارتمت ليز بين ذراعيه وقبّلته وهي تبكي.

- آه! تعلمين جيّداً أنّ المرء لا يتخلّى بإرادته عن أطفال طيّبين مثلكم، وعن صغيرة عزيزة مثل ليز.

قال ذلك وضمّها إلى صدره.

- ولكن حُكِمَ عليّ بالدّفع فوراً، وبما أنّني ليس لديّ المال اللاّزم، فسنبيع كلّ شيء. وبما أنّ ذلك لن يكفي، سأُسجن خمس سنوات. هكذا سأسدّد من جسمي ومن حرّيّتي ما لم أتمكّن من تسديده بمالي.

فطفِقنا جميعاً نبكي.

- أجل هذا مُحزنٌ، قال الأب. ولكن لا يمكننا مخالفة القانون، وهذا ما يفرضه القانون.

ثمّ أضاف:

- خمس سنوات! ماذا سيحصل لكم خلال هذه المدّة؟ ذلكم هو أفظع ما في الأمر.

حلّ الصّمت.

- تعرفون جيّداً أنّني فكّرتُ في كلّ ذلك. وإليكم ما قرّرته حتّى لا تبقوا وحدكم بعد أن يعتقلوني.

عندما سمعتُ هذه الكلمات استعدتُ بعضاً من الأمل.

- سيكتب ريمي لأختي كاترين سوريو التي تعيش في «دروزي» في منطقة «نْييفر». سيشرح لها الوضع ويرجوها الحضور. ومع كاترين التي تعرف كيف تحافظ على هدوئها والمطّلعة على عالم الأعمال ستتّخذ القرار الأفضل.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أكتب فيها رسالة، وكانت بداية صعبة وقاسية.

رغم أنّ كلمات الأب كانت مبهمة، إلاّ أنّها كانت تنطوي على أمل. وفي الوضع الذي كنّا فيه، كان الأمل أمراً عظيماً.

الأمل بماذا؟

لم نكن نعرف، ولكنّنا كنّا نأمل. كاترين ستأتي وهي امرأة مطّلعة على عالم الأعمال. كان ذلك كافياً لأطفالٍ بسطاءٍ وجاهلين مثلنا نحن. فالمطّلعون على الأعمال لا يعرفون مشاكل في هذه الحياة.

إلاّ أنّها لم تصل بالسّرعة التي تصوّرناها، ورجال الحرس التّجاريّ، أي الذين يوقفون المحكومين بسبب ديونهم، وصلوا قبلها.

كان الأب يستعدّ للذّهاب عند أحد أصدقائه، وما إن خرج إلى الشّارع حتّى وجدهم أمامه. كنتُ برفقته، وبلحظةٍ أحاطوا بنا. لم يكن يريد الهرب، فَشَحُبَ لونه كما لو كان سيُغمى عليه. وبصوتٍ واهٍ طلب من الحرس أن يسمحوا له بتقبيل أولاده.

- ينبغي ألاّ تحزن أيّها الرّجل الشّجاع، قال أحدهم، فالسّجن بسبب الدّيون ليس شديد السّوء، ويمكن أن نجد فيه رجالاً طيّبين.

دخلنا إلى المنزل يحيط بنا الحرس التّجاريّ.

فذهبتُ أنادي الصّبيَّين في الحديقة.

عندما عدنا، كان الأب يحمل ليز بين ذراعيه وكانت تبكي بحرارة.

في تلك اللّحظة أسرّ له أحد الحرّاس بشيء ما في أذنه، ولكنّني لم أسمع ما قاله له.

- أجل، أجاب الأب، أنت محقّ، هذا ضروريّ.

ثمّ وقف فجأةً ووضع ليز أرضاً. ولكنّها تشبّثت به ولم تشأ أن

تفلت يده.

فقبّلَ إتيانيت وأليكسي وبنجامان.

كنتُ أقف بعيداً، عيناي يغشاهما الدّمع، فناداني:

- وأنت يا ريمي، ألن تأتي لتقبّلني؟ ألستَ ابني؟

كانت العاطفة تغمرنا بسيولها. قال لي الأب بلهجةٍ آمرة:

- ابقَ في هذا المنزل. آمرُكَ بذلك.

ثمّ خرج مسرعاً بعدما وضع يدَ ليز في يد إتيانيت.

كنتُ راغباً في اللّحاق به، فتوجّهتُ صوب الباب، إلاّ أنّ إتيانيت أشارت لي بأن أتوقّف.

فإلى أين كان بوسعي الذّهاب؟ وماذا كنتُ سأقدر أن أفعل؟

ظللنا منهارين في وسط المطبخ. كنّا نبكي جميعاً ولم يكن أيّ منّا يجد ما يقوله.

فماذا يُمكن أن يُقال؟

كنّا نعلم جيّداً أنّ ذلك التّوقيف كان آتياً لا محالة. ولكنّنا ظنّنا أنّ كاترين ستُهرَع إلينا، فكاترين كانت هي لنا الجدار الواقي.

ولكنّ كاترين لم تكن حاضرة.

وصلتْ بعد حوالى ساعة من رحيل الأب، ووجدتْنا جميعاً في المطبخ، ولم نكن تبادلنا بعد أيّة كلمة. أمّا تلك التي لطالما شجّعتْنا، إتيانيت، فقد كانت بدورها منهارة. إتيانيت القويّة، القادرة على المقاومة، باتت ضعيفةً مثلنا. لم تعد تشجّعنا، كانت ضائعة ومسلوبة الإرادة ومستسلمة لألمها الذي لم تكن تُخفيه إلاّ لتحاول مواساةَ ألمِ ليز. لقد غرق ربّان السّفينة، ومن دون أحدٍ ليقود لنا الدّفّة، من دون

منارة تهدينا، من دون أيّ شيء يساعدنا في بلوغ المرفأ، ولا نعلم أصلاً إن كان ثمّة مرفأ في انتظارنا، ظللنا أولاداً ضائعين في خضمّ محيط الحياة، تتقاذفنا الرّيح مثلما تشاء، عاجزين عن الحراك وعن التّفكير، يشلّ عقولنا الخوف، ويسيطر على قلوبنا اليأس.

كانت العمّة كاترين امرأة صلبة، مبادِرة وقويّة الإرادة. كانت قد عملت مربّيةً في باريس طوال عشر سنوات لدى خمس عائلات مختلفة. كانت تعرف صعوبات الحياة، وكما تقول بنفسها، كانت تُجيد تخطّيها.

شعرنا بالرّاحة لسماعها تُصدر الأوامر ونحن نطيعها. وجدنا فيها بوصلةً، وأعادت إيقافنا على أقدامنا.

بالنّسبة لفلاّحةٍ فقيرة وغير متعلّمة، كانت تلك مسؤوليّة كبيرة تقع على كاهلها، مسؤوليّة يمكنها أن تُقلق أكثر الأفراد شجاعة. ما العمل بعائلةٍ من اليتامى، لم يكن أكبرهم قد بلغ السّابعة عشرة وأصغرهم هي بنتٌ خرساء؟ ما العمل بأولئك الأطفال؟ كيف نُعيلهم عندما لا نكاد نكون قادرين على إعالةِ أنفسنا؟

كان والدُ أحد الأطفال الذين ربّتْهم هيَ كاتبَ عدل. فذهبتْ لاستشارته؛ وبمقتضى نصائحه وبعنايةٍ منه تقرّرَ مصيرُنا. ثمّ ذهبتْ لزيارة الأب في السّجن واتّفقتْ معه. وبعدَ ثمانية أيّام من وصولها إلى باريس، ومن دون أن تكون حدّثتْنا ولو مرّة واحدة عن تلك الاجراءات والنّوايا، أطلعتنا على القرار الذي اتُّخِذ.

بما أنّنا كنّا أصغر من أن نتمكّن من الاستمرار بالعمل وحدنا، سيذهب كلّ واحدٍ من الأولاد عند عمّ يقبل باستضافته أو عمّة.

ليز عند العمّة كاترين في منطقة «مورفان».

أليكسي عند عمٍّ يعمل في المناجم في «فارْس» في منطقة «سيفينّ».

بنجامان عند عمٍّ بستانيّ في «سان-كانتان».

وإتيانيت عند عمّةٍ متزوّجة تعيش في منطقة «شارانت» قرب البحر في «إيناند».

كنتُ أستمع إلى هذه التّرتيبات منتظراً أن يحين دوري. لكن بما أنّ العمّة كاترين توقّفت عن الكلام، دنوتُ منها وقلتُ:

- وأنا؟

- أنت؟ لكنّك لستَ من العائلة.

- سأعملُ لديكِ.

- أنتَ لستَ من العائلة.

- إسألي أليكسي وبنجامان إن لم أكن في العمل شجاعاً.

- شجاعٌ في الأكل أيضاً، أليس هذا صحيحاً؟

- بلى، بلى هو من العائلة، قالوا جميعاً.

وتقدّمت ليز إلى عمّتها وهي تجمع يديها في إيماءةٍ كانت أكثر تعبيراً من خُطَبٍ طوال.

- يا صغيرتي المسكينة، قالت العمّة كاترين، أنا أفهمكِ جيّداً، أنتِ تريدين أن يأتي معكِ. ولكن ألا ترين، إنّنا في الحياة لا نفعل دوماً ما نصبو إليه. فأنتِ ابنةُ أخي، وعندما نصل إلى المنزل إن قال زوجي كلمةً في غير مكانها أو أظهر استياءً والتصق بالمائدة حرَداً، لن يكون عليّ إلاّ أن أجيبه بكلمة واحدة: «إنّها من العائلة، ومن سيشفق عليها إن لم يكن نحن؟». وما أقوله لكِ هنا ينسحب على العمّ الذي

يعيش في «سان-كانتان»، وعلى العمّ الذي يعيش في «فارْس»، وعلى العمّة التي تعيش في «إيناند». النّاس يرضون بالأقارب ولكنّهم لا يستقبلون الغرباء. فالخبز لا يكاد يكفي أفراد العائلة، ولا يوجد منه للجميع.

فهمتُ تماماً أنّه لا يمكن عمل شيء ولا إضافة شيء. فما قالته كان صحيحاً تماماً، فأنا «لم أكن من العائلة» ولم يكن يحقّ لي المطالبة بشيء. والطّلب يعني التسوّل. ومع ذلك، هل كنتُ سأحبّهم أكثر إن كنتُ فرداً من عائلتهم؟ ألم يكن أليكسي وبجامين شقيقيّ؟ ألم تكن إتيانيت وليز شقيقتيّ؟ ألم أكن أحبّهم بما يكفي؟ ألم تكن ليز تحبّني بقدرِ محبّتها لبنجامان وأليكسي؟

لم تكن العمّة كاترين من الصّنف الذي يرجئ تنفيذ قراراته، ولذا أبلغتنا بأنّ انفصالنا سيكون في اليوم التّالي وأمرتْنا بأن نخلد إلى النّوم.

لم نكد ندخل غرفتنا حتّى أحاطوا بي جميعهم وارتمت عليّ ليز وهي تبكي. ففهمتُ أنّهم، بالرّغم من حزنهم لافتراقهم بعضهم عن بعض، كانوا يفكّرون فيَّ ويأسون لحالي، فشعرتُ بأنّني بالفعل أخٌ لهم. فإذا بفكرةٍ تخطر على ذهنيَ المشوّش، أو بالأحرى - ذلك أنّه يجب قول الحسَن والرّديء - ألهمني قلبي فكرةً صعدت من القلب إلى العقل. فقلتُ لهم:

- اسمعوا، أرى أنّه حتّى لو كان أقرباؤكم لا يرغبون في وجودي، فإنّكم تعتبرونني واحداً من أفراد العائلة.

- أجل، قالوا ثلاثتهم، ستبقى دوماً أخاً لنا.

أمّا ليز العاجزة عن الكلام، فصادقت على كلامهم بشدّها على

يدي وهي تنظر إليّ نظرة شديدة العمق جعلت عينيّ تغرورقان بالدّمع.

- إذن سأكون أخاً لكم، وسأثبت لكم ذلك.

- أين ستُقيم؟ سأل بنجامان.

- يحتاجون أحداً لدى آل بيرنْوي، أتريد أن أذهب غداً وأكلّمهم من أجلك؟ قالت إتيانيت.

- لا أريد العمل في خدمة أحد. إن فعلتُ، فذلك يعني أن أبقى في باريس وألاّ أراكم بعد اليوم. إنّني سأرتدي من جديدٍ فروة الخروف وأتناول قيثارتي من على المسمار حيث علّقها الأب، وسأذهب من «سان-كانتان» إلى «فارْس»، ومن «فارْس» إلى «إيناند»، ومن «إيناند» إلى «دروزي». وسأراكم جميعاً، الواحد تلو الآخر، وهكذا سأتيح لكم أن تكونوا عبرَ شخصي مجتمعين دوماً. فأنا لم أنسَ أغانيَّ وألحاني الرّاقصة. سأكسب رزقي.

أمام الارتياح الذي ظهر على جميع الوجوه، رأيتُ أنّ فكرتي تحقّق آمالهم، ورغمَ حزني شعرتُ بنفسي سعيداً. حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ ظللنا نتحدّث عن مشروعنا، عن الانفصال واللّقاء، عن الماضي والمستقبل. ثمّ طلبتْ إتيانيت أن يخْلد كلّ منّا إلى النّوم. ولكنّ أحداً لم ينم جيّداً تلك اللّيلة، وربّما أنا أكثر من سواي.

في اليوم التّالي، دعتنْي ليز في الصّبح الباكر إلى الحديقة، ففهمتُ أنّها تريد إخباري بأمرٍ ما.

- تريدين أن تقولي لي شيئاً؟

فأومأت لي بالإيجاب.

- أنتِ حزينة لأنّنا سننفصل. لا حاجة لتقولي لي ذلك، فأنا أراه في عينيكِ وأشعر به في قلبي.

لكنّها بإشارةٍ أفهمتني أنّ المسألة لا تتعلّق بذلك. فقلتُ لها:

- سأكون في دروزي بعد خمسة عشر يوماً.

فهزّت رأسها بالنّفي.

- ألا تريدين أن أذهب إلى دروزي؟

لكي يفهم أحدنا الآخر، غالباً ما كنتُ أعتمد الأسئلة، وكانت هي تجيب بإشارة نفياً أو إيجاباً.

قالت لي إنّها تريدني أن آتي إلى دروزي، ولكنّها مدّت يدها وأشارت إلى ثلاثة اتّجاهات مختلفة وأفهمتْني أنّه ينبغي عليّ، قبل ذلك، أن أذهب لزيارة شقيقيها وشقيقتها.

- تريدين أن أذهب أوّلاً إلى فارْس وإيناند وسان-كانتان؟

فابتسمتْ بسرورٍ لأنّني فهمتُ ما كانت تريد قوله.

- ولكن لماذا؟ فأنا أريد رؤيتك أوّلاً.

فأفهمَتني بيديها وشفتيها وخصوصاً بعينيها لماذا كانت تطلب منّي ذلك. سأترجم لكم ما شرحته لي:

- لكي تحمل لي أخبار إتيانيت وأليكسي وبنجامان يجب أن تبدأ بزيارتهم أوّلاً. بعد ذلك تأتي إلى دروزي وتروي لي ما رأيت وما أخبروك به.

أيّتها الغالية ليز!

كان يجب أن ينطلقوا في الثّامنة صباحاً. وكانت العمّة كاترين قد طلبت عربةً كبيرةً لتأخذهم كلّهم في البداية إلى السّجن لتوديع

أبيهم، ومن ثمّ تُوصل كلّ واحد منهم مع أغراضه إلى محطّة القطار التي سيُغادر منها.

في السّابعة، اصطحبتني إتيانيت بدورها إلى الحديقة، وهناك قالت لي:

- سنفترق. لذا أريد أن أترك لك تذكاراً. إنّها علبة أدوات تجد فيها خيوطاً وإبَراً، بالإضافة إلى مقصّي الذي تلقّيتُه هديّةً من عرّابي. ففي الطّريق، ستحتاج لكلّ هذا لأنّني لن أكون موجودة لكي أصلح لك ملْبساً أو أخيط لك زرّاً. وعندما تستخدم مقصّي ستتذكّرنا.

فيما كانت إتيانيت تتحدّث إليّ، كان أليكسي يحوم بالقرب منّا. ولمّا دلفَتْ هي إلى المنزل وظللتُ في الحديقةِ شديدَ التّأثّر، اقترب منّي قائلاً:

- لديّ قطعتان من فئة مائة فلس. سيسرّني أن تقبل بواحدةٍ منهما.

من بيننا نحن الخمسة، أليكسي هو الوحيد الذي كان شغِفاً بالمال، وكنّا دائماً ما نسخر من بخله وحسّ الاقتصاد عنده. فقد كان يجمع الفلس فوق الفلس ويفرح بشدّة عندما يحصل على قطعٍ من عشرة فلوس أو عشرين فلساً جديدة. فيروح يعدّها باستمرار في يده ويتفرّج عليها وهي تلمع تحت الشّمس ويسمعها ترنّ.

أثّرَ فيَّ عرضه أيّما تأثير. أردتُ أن أرفض ولكنّه أصرّ ووضع في يدي قطعة نقديّة جميلة ولامعة. ففكّرتُ أنّ مودّته لي لا بدّ أن تكون من العمق بحيث تفوّقت على محبّته لكنزه الصّغير.

بنجامان بدوره لم ينسَني، وأراد كذلك أن يهديني هديّة. فأعطاني

سكّينه ولكنّه طلب منّي مقابلها فلساً رمزيّاً، «لأنّ السّكاكين تفصم عُرى الصّداقة» بحسب قوله.

كان الوقت يتقدّم بسرعة. لا يزال هناك قبل انفصالنا ربع ساعة، ثمّ خمس دقائق. هل ستذكّرني ليز؟

عندما سُمع صوت العربة، خرجت ليز من غرفة العمّة كاترين وأشارت إليّ أن أتبعها إلى الحديقة.

- ليز! نادتها العمّة كاترين.

ولكن ليز لم تُجب وتابعت طريقها وهي تحثّ الخطى.

في حدائق بائعي الزّهور وزارعي البقول، يُكرَّس كلّ شبرٍ للنّبات المفيد، وما من مكان للبهرجة والزّخرفة. إلاّ أنّه كان في حديقتنا شجيرة لورد البنغال لم نقتلعها لأنّها كانت في ركن بعيد.

اتّجهت ليز صوب شجيرة الورد تلك وقطعت منها غصناً، ثمّ استدارت صوبي وقسَمت الغصن الذي كان يحمل برعمين صغيرين على وشكِ أن يتفتّحا إلى قسمين وأعطتني أحدهما.

آه! كم هي ضئيلةٌ لغة الشّفتين مقارنةً بلغة العيون! وكم هي باردةٌ الكلمات وفارغةٌ بالمقارنة بالنّظرات!

- ليز! ليز! هتفتِ العمّة.

كانت الحقائب أصبحتْ في العربة.

حملتُ قيثارتي وناديتُ كابي. ولمّا رأى الآلة وزيّي القديم الذي كان يألفه، راح يتقافز فرَحاً. لقد فَهِمَ على الأرجح أنّنا سنعاود الانطلاق وسيكون بإمكانه الرّكض من جديدٍ بكاملِ حريّته. ذلك كان بالنّسبة إليه أكثر متعةً من البقاء حبيسَ منزل.

كانت لحظة الوداع قد حانت. وداعٌ اختصرتْه العمّة كاترين. وبعدما جعلتْ إتيانيت وأليكسي وبنجامان يركبون في العربة، قالت لي أن أساعدها على وضع ليز في حضنها.

وإذ ظللتُ في حالةٍ من الذّهول، دفعتْني بلطفٍ وأغلقت باب العربة.

- عانقي الأب بالنّيابة عنّي، صرختُ. لأنّ...

وخنقتني العبَرات.

- فلننطلقْ، قالت.

وانطلقت العربة.

رأيتُ من وراء دموعي رأسَ ليز ينحني فوق النّافذة المفتوحة ويدَها تبعث لي بقبلة. ثمّ انعطفتِ العربة سريعاً عند زاوية الشّارع وما عدتُ أرى إلاّ دوّامةً من الغبار.

كان كلّ شيء قد انتهى.

مستنداً إلى قيثارتي، وفيما كابي يقبع ساكناً عند قدميَّ، ظللتُ لوقتٍ طويلٍ أنظر على نحوٍ آليّ إلى الغبار يتساقط بهدوءٍ على الطّريق.

كان أحد الجيران كُلِّف بإغلاق المنزل والاحتفاظ للمالِك بالمفاتيح. فأخرجني من ذهولي وأعادني إلى أرضِ الواقع:

- أستبقى هنا؟

- كلاّ، أنا راحل.

- إلى أين؟

- مباشرةً أمامي.

لا بدّ أنّه أشفق عليّ، إذ مدّ لي يده قائلاً:

- إن كنتَ تريد البقاء، فيمكنني استقبالك، ولكنّني لا أعدك بأجرٍ لأنّك لستَ قويّاً بما يكفي. ربّما فيما بعد.

فشكرتُه.

- كما تشاء، فما قلتُه كان من أجل مصلحتك. رحلة سعيدة!

ثمّ انصرف.

كانت العربة قد ذهبت والمنزل أُقفل.

وضعتُ حمّالة القيثارة على كتفي. هذه الحركة التي كثيراً ما قمتُ بها في الماضي لفتت انتباه كابي، فنهض وراح ينظر إليّ بعينيه اللاّمعتين.

- هيّا يا كابي!

كان قد فهمَ فقفزَ أمامي وهو ينبح.

أشحتُ بنظري عن ذلك المنزل الذي عشتُ فيه سنتين وظننتُ أنّني سأبقى فيه على الدّوام، ونظرتُ إلى الأمام.

كانت الشّمس عاليةً في الأفق والسّماء صافيةً والطّقس دافئاً جدّاً. لم يكن ذلك شبيهاً باللّيلة القارسة البرد التي سقطتُ فيها من التّعب والإعياء عند حائط ذلك البيت.

لم تكن تلك السّنتان إذن إلاّ استراحةً وصار يتوجّب عليّ معاودة الانطلاق.

ولكنّ تلك الاستراحة كانت نافعة.

فهي قد منحتني القوّة.

وما هو أفضل من القوّة التي كنتُ أشعر بها في ساقيّ، كان هو الصّداقة التي كنت أحسّ بها في قلبي.

لم أعد وحيداً في هذا العالم.

باتَ لي هدفٌ في الحياة: أن أكون نافعاً وأُسعِدَ من أُحبّهم ويحبّونني. كانت حياة جديدة تنفتح أمامي. استعدتُ صورة فيتاليس وقلتُ في نفسي: «إلى الأمام!».



القسم الثّاني



الفصل الأوّل

إلى الأمام

إلى الأمام!

كان العالم منبسطاً أمامي، وكان بوِسعيَ الاتّجاه شمالاً أو جنوباً، غرباً أو شرقاً، أنى شئت.

لم أكن إلاّ طفلاً وكنتُ سيّد نفسي!

لكنّ هذا تحديداً هو للأسف ما كان مُحزناً في وضعي.

كم من طفل يقول في نفسه: «آه! لو كان لي أن أقوم بما يحلو لي! ليتني كنتُ حرّاً! ليتني كنتُ سيّد نفسي!». كم من طفل ينتظر بفارغ الصّبر اليوم السّعيد الذي يحصل فيه على حرّيته في... ارتكاب حماقات!

أمّا أنا فكنتُ أقول في نفسي: «آه! لو كان لي مَن ينصحني ويرشدني!»

إذ كان ثمّة فرقٌ، فرقٌ هائلٌ، بيني وبين أمثال هؤلاء الأطفال.

فإن ارتكب هؤلاء حماقات، فهناك من يقف خلفهم ليمدّ لهم يده عندما يسقطون، أو ينتشلهم عندما يبلغون القاع. أمّا أنا فلم يكن لي من أحد، وإذا ما وقعتُ، فسأهوي عميقاً جدّاً ويكون عليّ انتشال نفسي بنفسي، هذا إذا لم أكن تحطّمتُ تماماً.

وكان لديّ ما يكفي من الخبرة لأعرفَ أنّني يمكن أن أتحطّم تماماً.

فرغم حداثة سنّي، تعرّضتُ لما يكفي من المِحَن لأكون أكثر تحسّباً وحذراً ممّا يكون عليه الأطفال في سنّي. امتيازٌ دفعتُ ثمنه غالياً.

ولذا فقبل الانطلاق على الطّريق التي كانت ممتدّة أمامي، أردتُ الذّهاب لزيارة من كان لي في تلك السّنوات الأخيرة بمثابةِ أبٍ. وإذا كانت العمّة كاترين لم تصطحبني كبقيّة الأولاد لتوديعه، فبإمكاني، لا بل يجدر بي أن أذهب وحدي لأحيّيه.

رغم أنّني لم أزرْ قطّ سجن المُحتجَزين بسبب الدّيون، فقد سمعتُ عنه مؤخّراً ما يكفي لأكون موقناً من إمكان العثور عليه. سأسلك طريق «مادلين» التي أعرفها جيّداً، وهناك أطلب من النّاس أن يدلّوني. فإذا كانت العمّة كاترين والأولاد قد تمكّنوا من رؤية والدهم، فسيُسمَح لي أنا أيضاً على الأرجح برؤيته. فأنا أيضاً ابنه، أو بالأحرى كنتُ ابنَه، ولقد أحبّني!

لم أجرؤ على اجتياز باريس بكاملها برفقة كابي. فبمَ سأجيب رجال الشّرطة إنْ هم استوقفوني؟ فبينَ كلّ المخاوف التي اكتسبتُها بالتّجربة، كان الخوف من الشّرطة هو الأعظم. فأنا لم أكن قد نسيتُ ما حدث لنا في تولوز. لذا ربطتُ كابي بحبلٍ، ما بدا أنّه خدشَ كثيراً عزّة نفسه ككلبٍ متعلّم وحسن التّربية. ثمّ أمسكتُ رسنه وانطلقنا سويّةً باتّجاه سجن كليشي.

ثمّة في هذا العالم أمور مُحزنة تولّد رؤيتُها أفكاراً سوداء. بين هذه الأمور، لا أعرف ما هو أبشع من بوّابة السّجن وأكثر منها إثارةً للكآبة: منظرها يقشعرّ له البدن أكثر من مرأى فوّهة قبر. فالموتى الذين يُغلق عليهم بِحجارة ما عادوا يشعرون. أمّا السّجناء فإنّهم

يُدفنون أحياء.

توقّفتُ برهةً قبل أن أجرؤ على دخول سجن كليشي، كما لو كنتُ خائفاً من أن يُبقوا عليّ فيه، ومن ألاّ تعود البوّابة، تلك البوّابة المخيفة، تنفتح من جديدٍ بعدما تنغلق ورائي.



كنتُ أتخيّل أنّ من الصّعب الخروج من السّجن، ولكنّني لم أكن أعرف أنّ الدّخول إليه صعبٌ كذلك. فتعلّمتُ ذلك على حسابي.

ولكن في النّهاية لم أُطرد أو أُصَدّ وتمكّنتُ من الوصول إلى مَن جئتُ لرؤيته.

أدخلوني إلى باحةٍ ليس فيها حواجز أو قضبانٌ حديديّة كما كنتُ أتصوّر، وسرعان ما وصل الأب غير مقيّدٍ بالسّلاسل وقال لي:

- كنتُ في انتظارك يا صغيري ريمي. ولقد أنّبتُ كاترين لأنّها لم تجلبك إلى هنا مع الأولاد.

كنتُ منذ الصّباح مكتئباً ومحبَطاً، فرفعتْ هذه العبارة من معنويّاتي.

- لم تشأ السيّدة كاترين اصطحابي معها.

- لم يكن ذلك ممكناً يا ولدي المسكين، ففي الحياة لا يسعنا أن نفعل ما نشاء. أنا واثقٌ من أنّك كنتَ ستعملُ بجهدٍ حتّى تكسب رزقكَ لو اصطحبتكَ إلى منزلها. ولكنّ صهري سوزيو ما كان سيتمكّن من إيجاد عملٍ لك. فهو هوّاس[1] في قناة نيفيرنيه، والهوّاسون كما تعلم لا يوظّفون لديهم عمّالاً بساتنة. قال لي الأولاد إنّك تريد استعادة مهنتك كمغنٍّ. فهل نسيتَ أنّك كدتَ تموت عند بابنا من البرد والجوع؟

- كلاّ، لم أنسَ.

- ومع ذلك فأنت لم تكن وحدك، كان لديك معلّم يقودك. إنّه لخطيرٌ يا بنيّ ما تريد القيام به مخترقاً الطُّرُق، وحيداً وفي مثلِ سنّك.

- معي كابي!

وكما يحصل دوماً عندما يسمع كابي اسمَه، أجاب بنباحٍ معناه: «أنا حاضر! إن احتجتم إليّ فها أنذا!».

- أجل، إنّ كابي كلبٌ طيّب، ولكنّه ليس سوى كلب. كيف ستكسب رزقك؟

- بالغناء وبأنْ أجعل كابي يمثّل أدواراً.

- ولكنّ كابي لن يتمكّن من التّمثيل بمفرده.

---

(1) الهوّاس: شخصٌ مسؤول عن عمل الأهوسة، جمع هويس، وهو عبارة عن سدّ يسمح بالتّحكّم بقوّة اندفاع المياه المتدفّقة لنهرٍ أو قناة أو بركة بفضل منظومة من الأبواب والحنفيّات والعوائق (المترجمة).

- سأعلّمه ألعابَ خفّة. أليس صحيحاً يا كابي أنّك ستتعلّم كلّ ما أطلبه منك؟

فوضع الكلب إحدى قائمتيه الأماميّتين على صدره علامةً على الموافقة.

- في التحصيل الأخير يا بنيّ، إن كنتَ حكيماً فستسعى لإيجاد عمل عند أحدهم. فأنت عاملٌ نشيط، وهذا أفضل من التّطواف في الطّرق، فهذه مهنة الكسالى.

- أنت تعلم أنّي لستُ كسولاً. ولم تسمعني يوماً أشكو من مقدار العمل المُلقى على عاتقي. لو كنتُ سأبقى عندك، لكنتُ عملتُ بقدر استطاعتي ولظللتُ معكم إلى الأبد. ولكنّني لا أريد العمل لدى الآخرين.

لا بدّ أنّني قلتُ هذه الكلمات بطريقة خاصّة لأنّ الأب نظر إليّ للحظات دون أن يجيب. ثمّ قال أخيراً:

- لقد أخبرتنا بأنّك، قبل أن تعرف مَن كان فيتاليس في الحقيقة، كان يُدهشك بأسلوبه ورؤيته للنّاس وهيئته المَهيبة التي كانت توحي لكلّ من يراه بأنّه رجلٌ رفيعُ المقام حقّاً. أتعرف أنّ فيك أنت أيضاً شيئاً من هذا الأسلوب ومن هذه السّيماء التي توحي بأنّك لستَ متشيطِناً مسكيناً. ألا تريد العمل لدى الآخرين؟ ربّما كنتَ محقّاً في النّهاية يا بنيّ. لكن صدّقني، لقد قلتُ ما قلتُه من أجل مصلحتك لا غير. كان يبدو لي أنّني يجب أن أقولَ لك ما قلتُه. ولكنّك سيّد نفسك إذ ليس لديك من والدين وأنا لم يعد بوسعي أن أكون أباً لك بعد اليوم. فشخصٌ مسكينٌ وعاثر الحظّ مثلي لا يسعه توجيه أوامر.

أربكني كثيراً كلّ ما قاله الأب، لا سيّما وأنّني سبق أن قلتُه في نفسي، إن لم يكن بالعبارات نفسها فبعبارات مشابهة.

أجل، كان خطيراً الانطلاق بمفردي في الطّرق. كنتُ أشعرُ بذلك وأدركه. ومَن خَبِر مثلي حياة التشرّد، مَن أمضى ليالي كتلك التي التهمَتْ فيها الذّئاب كلبَينا أو تلك التي قصدْنا فيها مقلع الحجارة، مَن عانى البرد والجوع كما عانيتُهما، مَن رأى نفسه يُطرد من قرية إلى أخرى من دون أن يتمكّن من تحصيل فلس واحدٍ كما حصل لي عندما كان فيتاليس في السّجن، مَن عاش كلّ ذلك يُدرك مخاطرَ حياة التشرّد هذه وبؤسها. حياة لا يكون الغد وحده فيها غير مضمون بل اللّحظة الرّاهنة نفسها تكون مُزعزعة وغيرَ ذاتِ يقين.

ولكن إن أنا صرفتُ النّظر عن هذه الحياة، فلن يكون لي إلاّ مخرج واحد كان الأب بنفسه قد أشار إليه، ألا وهو العمل لدى أحدهم، وهذا ما لم أكن أريده. ربّما كان في موقفي ذاك أنفة لا تناسب مَن كان في وضعي. ولكن كان لي معلّمٌ باعوني له بيعاً، ومع أنّه عاملني بطيبة كبيرة، فأنا لم أكن أريد أن يكون لي معلّم آخر. وكنتُ مصرّاً على هذه الفكرة.

أضِف أنّ ما كان حاسماً بالقدر نفسه في قراري، هو أنّه لم يكن بوسعي العدول عن حياة الحرّيّة والأسفار تلك دون أن أنكث بوعدي لإتيانيت وأليكسي وبنجامين وليز، أي من دون التخلّي عنهم. في الواقع، كان بوسع إتيانيت وأليكسي وبنجامين الاستغناء عنّي، إذْ يمكنهم المراسلة فيما بينهم، ولكن ماذا بشأن ليز؟ ما كانت ليز تجيد الكتابة، لا هي ولا العمّة كاترين. ما يعني أنّ ليز ستبقى

ضائعة إذا ما تخلّيتُ عنها. فيمَ ستفكّر حينئذٍ؟ بأمرٍ واحد وهو أنّني قد كففتُ عن حبّها، هي التي محضتَني كثيراً من المودّة وجعلتني شديد السّعادة. كان ذلك غير ممكن إطلاقاً.

قلتُ للأب:

- أفلا تريدني أن أحمل لك أخبارَ الأولاد؟

- لقد حدّثوني عن ذلك. ولكن عندما حثثتُك على صرف النّظر عن حياتك كموسيقيّ جوّال لم أكن أفكّر فيّ وفي الأولاد. فيجب ألاّ نفكّر أبداً في أنفسنا قبل التّفكير في الآخرين.

- هذا تحديداً ما أعنيه يا أبتاه. إنّك تدلّني بنفسك على ما يجب عليّ فعله: فإذا ما تراجعتُ عن الالتزام الذي كنتُ قطعتُه على نفسي، وذلك بباعثِ الخوف من المخاطر التي تتحدّث أنت عنها، فسأكون فكّرتُ في نفسي وليس فيك ولا في ليز.

فراح يتطلّع إليّ من جديدٍ، مُطيلاً النّظرَ هذه المرّة. ثمّ قال لي فجأةً وهو يمسك بيديّ الاثنتين:

- يجدر أن أقبّلك يا بنيّ على كلامك هذا، فأنت صبيّ ذو نخوة وهذا لا يُكتسب بالسنّ.

كنّا في الباحة بمفردنا، جالسين جنباً إلى جنب على أحد المقاعد، فارتميتُ بين ذراعيه متأثّراً وفخوراً بسماعه يقول لي إنّني صبيّ ذو نخوة.

- لن أقول لك بعد هذا إلاّ كلمة واحدة، أضاف الأب: فلترافقكَ العناية الإلهيّة يا ولدي العزيز!

بقينا صامتين بضع لحظات، إلاّ أنّ الوقت كان قد مرّ وجاءت

لحظة الافتراق.

فإذا بالأب يفتّش في جيب صدريّته ويُخرج منها ساعة فضيّة كبيرة كانت معلّقة في العروة بواسطة سَيْر جلديّ صغير.

– من غير الممكن أن نفترق من دون أن تحمل معك تذكاراً منّي. هاكَ ساعتي، إنّي أقدّمها لك. قيمتها ليست كبيرة، فأنت تعلم أنّها لو كانت كذلك لبِعتُها. كما أنّها لا تعمل بشكل جيّد وتحتاج من حينٍ لآخر إلى دفعة صغيرة. ولكنّها كلّ ما أملك في الوقت الحاضر، ولذا أقدّمها لك.

بعدما قال هذا وضع السّاعة في يدي. ولمّا رأى أنّني كنتُ أريد الامتناع عن قبول هديّة على هذا القدر من الجمال، أضاف بحزن:

– أنت تدرك أنْ لا حاجة بي هنا لمعرفة الوقت. فالوقت طويلٌ جدّاً وسأموت إذا ما احتسبتُه. وداعاً يا صغيري ريمي. دعني أعانقك مرّة أخيرة. أنتَ صبيّ شجاع، فتذكّرْ أن تبقى كذلك.

بعد ذلك، أعتقد أنّه أمسك بيدي ليقودني إلى باب الخروج، ولكنّني لا أذكر تماماً ما حصل بالضّبط، إذ كنتُ مرتبكاً ومتأثّراً بشدّة. عندما أفكّر في ذلك الانفصال، فإنّ ما يعود إلى ذاكرتي هو الشّعور بالغباء والإعياء الذي سيطر عليّ عندما ألفيتُني في الشّارع من جديد.

أظنّ أنّني أطلتُ البقاءَ في الشّارع أمام بوّابة السّجن، عاجزاً عن الحسم في أيّ اتّجاه سأسلك، يميناً أم يساراً. ربّما كنتُ سأبقى حتّى هبوط اللّيل لو لم تلمس يدي فجأةً وبالصّدفة شيئاً دائريّاً وقاسيَ الملمس كان يكمن في جيبي.

تلقائيّاً ومن دون أن أعرف تماماً ما كنتُ أفعل، كنتُ أتلمّسه:

كانت تلك هي ساعتي!

وعلى الفور نسيتُ أحزاني وقلقي ومخاوفي كلّها ولم أعد أفكّر إلاّ في ساعتي. بات لديّ ساعة، ساعةٌ خاصّة بي، في جيبي، يمكنني بواسطتها معرفة الوقت! فأخرجتُها لأرى كم كانت السّاعة: كان الوقت ظهراً. كان سواءً بالنّسبة إليّ أن يكون الوقت ظهراً أو في العاشرة، إلاّ أنّني كنتُ سعيداً جدّاً لأنّه الظّهر. لماذا؟ كنتُ سأخجلُ من قول ذلك ولكن هكذا كان. آه! إنّه الظّهر. كنتُ أعرف أنّه الظّهر، وساعتي هي من أعلمتني بذلك. يا لها من مسألة عظيمة! بدا لي أنّ السّاعة هي نوعٌ من نجيٍّ نلجأ إليه طلباً للنّصح، ويمكننا أن نُحادثه.

– كم السّاعة يا صديقتي السّاعة؟

– إنّه الظّهر يا عزيزي ريمي!

– آه! الظّهر، عليّ إذَن القيام بهذا الأمر وذاك، أليس صحيحاً؟

– بالتّأكيد.

– جيّدٌ أنّكِ ذكّرتِني بذلك، فلولاكِ لكنتُ نسيت.

– أنا هنا لكي لا تنسى.

بفضلِ وجودِ كابي وساعتي بات لي الآن من أتحدّث إليه.

ساعتي! يا لها من كلمة طيّبة الوقع! كانت لي رغبة عارمة في الحصول على ساعة، ولطالما أقنعتُ نفسي بأنّني لن أتمكّن أبداً من الحصول على واحدة! وها إنّ في جيبي ساعة تُكتكِك. قال الأب إنّها لا تعمل بشكلٍ جيّد. ولكن ذلك لم يكن مهمّاً. كانت تعمل وهذا كافٍ. وكانت تحتاج إلى دفعةٍ صغيرة. لن أتوانى عن منحها دفعةً قويّة إذا ما لزم ذلك، وإن لم ينفع ذلك معها، فسأقوم بتفكيكها. هكذا

أرى ما في داخلها وما يجعلها تتحرّك. ليس لها إلاّ أن تبقى عاقلة: فأنا سأقودها بحزم.

كنتُ مأخوذاً بفرحي ولم أنتبه إلى أنّ كابي كان فرِحاً بقدري. كان يجرّني من ساق سروالي وينبح من حينٍ لآخَر. لكنّ نباحه المتزايد نجح أخيراً في انتزاعي من حلم اليقظة الذي كنت غاطّاً فيه.

- ما تريد يا كابي؟

فنظر إليّ، لكنّني كنتُ أشدّ ارتباكاً من أن أفهم ما يريد. وبعد ثوانٍ من الانتظار، انتصب إزائي ووضع إحدى قائمتيه الأماميّتين على جيبي حيث كانت ساعتي قابعة.

كان يريد أن يعرف كم كانت السّاعة ليعلن عنها إلى «الحضور الكريم» مثلما كان يحصل أثناء عمله مع فيتاليس.

قدّمتُها له، فنظر إليها طويلاً كما لو ليحاول التّذكّر، ثمّ بدأ يحرّك ذيله ونبح اثنتي عشرة مرّة. لم يكن قد نسي. آه! كم من الأموال سنجني بفضل ساعتنا هذه! إنّها فقرة إضافيّة في استعراضنا لم تكن خطرتْ لي على بال.

كان كلّ هذا يحدث في الشّارع مقابل بوّابة السّجن، وكان ثمّة أناسٌ ينظرون إلينا بفضول حتّى أنّ بعضهم كان يتوقّف ليتفرّج علينا.

لو تجرّأتُ لقدّمتُ عرضاً على الفور، ولكنّ الخوف من رجال الشّرطة منعني من ذلك.

كما أنّ الوقت كان ظهراً وكان يجب الانطلاق.

- إلى الأمام!

ألقيتُ نظرةَ وداعٍ على السّجن الذي سيبقى الأب المسكين محبوساً خلف أسواره، فيما سأذهب أنا بحرّيّة حيث شئت، وانطلقنا، أنا وكابي.

كان الغرض الأكثر منفعةً لي في مهنتي هو خارطة فرنسا. وكنتُ أعرف أنّه يُباع منها على الأرصفة، فاتّجهتُ إلى هناك مقرّراً شراء واحدة.

أثناء اجتيازي ساحة الكاروسيل، اتّجهتْ عيناي تلقائيّاً إلى ساعة قصر تويلري، وخطر لي أن أرى ما إذا كانت ساعتي وساعة القصر تسيران بشكلٍ متزامن. كانت ساعتي تشير إلى الثّانية عشرة والنّصف، فيما تشير ساعة القصر إلى الواحدة. فأيّ منهما كانت تتقدّم ببطء؟ رغبتُ في تقديم ساعتي قليلاً، ثمّ أحجمتُ عن ذلك وفكّرتُ: لا شيء يُثبت أنّ ساعتي هي المخطئة، ساعتي الجميلة والعزيزة. يمكن تماماً أن تكون ساعة قصر الملوك هي المصابة بالاختلال. لذا أعدتُ ساعتي إلى جيبي قائلاً في نفسي إنّ ساعتي تشير إلى الوقت الصّحيح بالنّسبة إلى ما أريد القيام به!

لم أعثر على خارطة بسرعة، على الأقلّ كما أريدها، أي مُلصقة على قماش وقابلة للطيّ ولا يتعدّى سعرها عشرين فلساً، وهو مبلغٌ كبيرٌ بالنّسبة إليّ. وأخيراً عثرتُ على واحدة كانت من الاصفرار بحيث أعطانيها البائع بخمسةٍ وسبعين سنتيماً.

باتَ بوسعي مغادرة باريس، فقرّرتُ القيام بذلك بأسرع ما يمكن.

كان يمكنني اتّخاذ طريقين: إمّا طريق فونتانبلو مخترقاً معبر

إيطاليا، أو طريق أورليان عبرَ مونْروج، وكان الأمران سيّان بالنّسبة إليّ، فاخترتُ طريق فونتانبلو عرَضاً.

أثناء صعودي في شارع موفتار، الذي قرأتُ اسمه على صفيحة زرقاء، استعدتُ عالماً من الذّكريات: غاروفولي، ماتيا، ريكاردو، القِدْر ذات الغطاء المُغلَق بقفل، السّوط الجلديّ وكذلك فيتاليس، معلّمي الطيّب المسكين الذي مات لأنّه لم يشأ أن يؤجّرني إلى معلّم شارع لورسين. عندما وصلتُ إلى كنيسة سان-مينار رأيتُ طفلاً مستنداً إلى جدار الكنيسة بدا لي أنّه ماتيا: كان له الرأس الكبير ذاته والعينان البليلتان ذاتها والشفتان الشّديدتا التّعبير والهيئة الرّقيقة والقانعة ذاتها والمظهر المُضحك ذاته، لكن إن صحّ أنّه هو، فالغريب أنّه لم يكن قد كبرَ قطّ.

دنوتُ منه لأعاينه بشكلٍ أفضل. كان هو بلا أدنى شكّ. عرفَني بدوره لأنّ ابتسامةً أضاءت وجهه الشّاحب وقال لي:

- أهذا أنت؟ أنتَ مَن جئتَ عند غاروفولي برفقة الشيخ ذي اللّحية البيضاء قبل أن أدخل أنا المستشفى؟ آه! كم كان رأسي يؤلمني يومذاك!

- ألا يزال غاروفولي معلّمك؟

فتطلّع حوله قبل أن يجيب ثمّ قال بصوتٍ خفيض:

- غاروفولي في السّجن. لقد ألقوا القبض عليه لأنّه تسببّ بموت أورلاندو بعدما أوسعه ضرباً.

أسعدني أن أعرف أنّ غاروفولي كان يقبع في السّجن، وهي المرّة الأولى التي أفكّر فيها في أنّ السّجون التي كنتُ أرتعبُ منها يمكن أن

تكون مفيدة.

- والأولاد؟

- آه! لا أدري. فأنا لم أكن هناك عندما أوقف غاروفولي. فبعدما خرجتُ من المستشفى، أراد غاروفولي أن يتخلّص منّي وقد رأى أنْ لا فائدة من ضربي لأنّ الأمر يجعلني أمرض. لذا أجّرني لمدّة سنتين مدفوعتين سلفاً إلى سيرك غاسّو. أتعرفه؟ كلاّ. ليس سيركاً كبيراً ولكنّه يبقى سيركاً. كانوا بحاجة إلى صبيّ يقدّم وصْلة خلْع الأعضاء[1]، فأجّرني غاروفولي لغاسّو الأب. وبقيتُ معه حتّى الاثنين الفائت حين طردوني لأنّ رأسي بات أكبر من أن يدخل في العلبة، وأكثر حساسية. لذا قدِمتُ من جيزور، حيث مقرّ السّيرك، لاستعادة العمل في خدمة غاروفولي، ولكنّني لم أجد أحداً. كان البيت مقفلاً وأخبرني أحد الجيران بما قلتُه لك الآن، أي بأنّ غاروفولي يقبع في السّجن. فجئتُ إلى هنا، وأنا لا أعلم أين أذهب ولا ما أفعل.

- ولِمَ لم تعد إلى جيزور؟

- لأنّه في اليوم الذي غادرتُ فيه جيزور للمجيء إلى باريس مشياً، كان السيرك ينتقل إلى روان. فكيف تريدني أن أذهب إلى روان؟ إنّها بعيدة جدّاً وأنا ليس لديّ نقود، كما أنّني لم آكل شيئاً منذ ظهر أمس.

لم أكن ثريّاً، ولكنّني كنتُ أملك ما يكفي لكي لا أترك ذلك الولد المسكين يموت جوعاً. فكم كنتُ سأسأل البركة لكلّ من كان يمكن

(1) هي إحدى ألعاب الخفّة في السّيرك، تتمثّل في أن يقوم أحد اللاّعبين بطيّ ذراعيه وساقيه على صدره والتكوّر بكامله بحيث يستطيع الدّخول في علبة صغيرة، فكأنّه يخلع أعضاءه أو يستغني عنها، ومن هنا اسم اللّعبة (المترجمة).

أن يعطيني كسرةَ خبزٍ عندما كنتُ هائماً في أنحاء تولوز، جائعاً مثلما كان عليه ماتيا في تلك الحظة!

فركضتُ إلى الخبّاز الذي كان حانوته قائماً عند زاوية الشّارع، ثمّ عدتُ بعد قليل ومعي رغيف من الخبز قدّمته لماتيا، فانكبّ عليه والتهمَه. فقلتُ له:

– وماذا تنوي العمل الآن؟

– لا أدري.

– يجب أن تفعل شيئاً.

– عندما وصلتَ كنتُ أنوي بيع كمنجتي. لكنتُ بعتُها من قبل لو لم يكن التخلّي عنها يحزنني. فكمنجتي هي فرحي وعزائي. وعندما أكون شديد الحزن، أفتّش عن مكان معزول وأروح أعزف لنفسي. فأرى في السّماء كلّ ما هو جميل، أشياء أجمل حتّى من الحلم، لأنّها تتسلسل وتتتابع.

– لماذا إذن لا تعزف في الشّوارع؟

– لقد قمتُ بذلك، لكن أحداً لم يعطِني شيئاً.

كنتُ أعرف ماذا يعني أن نعزف من دون أن يمدّ أحدٌ يده إلى جيبه.

– وأنت؟ ماذا تفعل الآن؟ سألني ماتيا.

لا أدري أيّ شعورٍ بالزّهو جعلني أقول له:

– أنا رئيس فرقة.

كان هذا في الواقع صحيحاً لأنّني كان لي فرقة مؤلّفة منّي ومن كابي، ولكنّ هذه الحقيقة كانت تقارب الكذب. فسألني ماتيا:

- أوه! أتقبل إذن...؟

- بمَ؟

- بضمّي إلى فرقتك.

فاستعدتُ صراحتي وقلتُ له مشيراً إلى كابي:

- ولكن كلّ فرقتي هي هذه!

- لا يهمّ! هكذا نصير اثنين. آه أرجوك، لا تتركني. فما سيكون مصيري؟ أنا لم يبقَ أمامي إلاّ الموت جوعاً.

الموت جوعاً! كلّ من يسمع هذه الصّرخة لا يفهمها بالطّريقة نفسها ولا ينظر إليها من الموقع ذاته. من ناحيتي، إنّما دوّت هذه الصّرخة في قلبي، لأنّني كنتُ أعرف ما يعنيه الموت جوعاً.

وتابع ماتيا:

- أنا أُحسن العمل. أعزفُ على الكمنجة وأُجيد القيام بِوَصْلةِ خلْع الأعضاء، كما أرقص على الحبل، وأخترق الأطواق المطاطيّة وأغنّي. سترى، سأفعل كلّ ما تريده، سأكون خادماً لك، سأطيعك ولن أطلب منك مالاً أبداً، لا شيء سوى الطّعام. وإذا ما أخطأتُ أمكنكَ أن تضربني، ستتّفق على هذا. كلّ ما أطلبه منك هو ألاّ تضربني على رأسي، وهذا أيضاً سيتضمّن عليه اتّفاقنا، لأنّ رأسي حسّاس جدّاً لفرط ما ضربَني عليه غاروفولي.

لدى سماع ماتيا المسكين يتكلّم على هذه الشّاكلة رغبتُ في البكاء. كيف أقول له إنّني لا يسعني أن أضمّه إلى فرقتي؟ الموت جوعاً! ولكن ألن يكون معرّضاً بالقدر نفسه إلى خطر الموت جوعاً برفقتي؟

شرحتُ له هذا ولكنّه أصرّ.

- كلاّ، لن نموت من الجوع عندما نكون معاً، سيساعد واحدُنا الآخرَ ويشدّ أزره، ومن امتلك منّا شيئاً أعطى منه مَن لا يملك.

عبارته الأخيرة جعلتني أحسم قراري: أنا كنت أمتلك أشياء، ولذا ينبغي أن أساعده. فقلتُ له:

- حسناً، اتّفقنا!

وعلى الفور أخذ يدي وقبّلها، ممّا حرّك قلبي برفقٍ وجعل عينيّ تغرورقان بالدّمع:

- تعالَ معي ولكن ليس كخادمٍ بل كرفيق.

ثمّ أعدتُ رفع حمّالة قيثارتي على كتفي وقلتُ له:

- إلى الأمام!

وبعد ربع ساعة كنّا قد أصبحنا خارج باريس.

كان نبات شهر آذار الشّائك قد نشّف الطّريق، وكنّا نمشي بسهولة على التّراب الذي جفّ وقسا.

كان الهواء عليلاً وشمس نيسان تلمع في سماء زرقاء صافية.

كم من الفرق بين ذلك النهار والنهار الذي وصلتُ فيه إلى باريس، هذه المدينة التي صبوتُ إليها طويلاً كما لو كانت هي الفردوس الموعود!

على امتداد وِهاد الطّريق، كان العشب قد بدأ ينمو، توشّيه هنا وهناك زهور اللّؤلؤ وتوت الأرض الذي يدير تويجاته صوب الشّمس.

في مرورنا بمحاذاة حدائقَ، كنّا نرى عناقيد اللّيلك تتوهّج وسطَ خضرة الأوراق، وعندما تحرّك نسمةٌ الجوَّ الهادئ، كانت تقع على

رؤوسنا، من فوق الأسوار القديمة، بثْلاثُ الهيضهان الصّفراء.

في الحدائق وفي أدغال الطّريق وفي الأشجار السّامقة، كانت تُسمع الأطيار تُغنّي فرِحةً، وأمامنا كانت السّنونوات تطير قريبةً من سطح الأرض باحثةً عن ذُبابٍ صغيرٍ لا مرئيّ.

إنّها بداية جيّدة لرحلتنا، وبكلّ ثقة كنتُ أحثّ الخطى على الطّريق الصّاخبة تلك: كان كابي قد تحرّر من سلسلته وراح يركض حولنا وينبح للعربات وللأكوام الحصى، ينبح لأيّ سببٍ كان، من أجل متعة النّباح لا غير، الأمر الذي قد يكون مشابهاً لمتعة الغناء عند البشر.

كان ماتيا يمشي إلى جانبي دون أن يقول كلمة، مفكّراً على الأرجح، وأنا أيضاً لم أكن أقول شيئاً لكي لا أزعجه، ولأنّني كان عليّ أن أستغرق في التّفكير أنا أيضاً.

إلى أين كنّا ذاهبين بخطواتنا الواثقة تلك؟

ما كنت لأعرف حقّاً، لا بل ما كنتُ لأعرف إطلاقاً.

كنّا نسير إلى الأمام.

وبعد ذلك؟

كنتُ قد وعدتُ ليز بأن أذهب لزيارة شقيقَيها وإتيانيت قبل زيارتها هي، ولكنّني لم أذكرْ مَن سأزوره أوّلاً: بنجامين، أليكسي أم إتيانيت؟ كان يمكنني أن أبدأ بزيارة من أشاء، أي بالذهاب إلى سيفينّ أو شارانت أو بيكاردي.

كنتُ خرجتُ من جنوب باريس، ما يعني أنّ بنجامين لن يكون أوّل من أزوره، ولكن يبقى أن أختار بين أليكسي وإتيانيت.

بيد أنّ السّبب الذي جعلني في البداية أتّجه جنوباً لا شمالاً هو

رغبتي في رؤية السيّدة باربُران.

ولئن لم أتحدّث عنها منذ مدّة طويلة، فهذا لا يعني أنّي نسيتُها كالجاحد.

كما ينبغي عدم الاستنتاج بأنّني صبيّ جاحد لمجرّد أنّني لم أكتب لها منذ انفصالي عنها.

فكم مرّة رغبتُ في الكتابة لأقولَ لها: «أفكّرُ فيك ولا أزال أحبّكِ من كلّ قلبي»، ولكنّ الخوف، خوفاً رهيباً من السيّد باربُران، كان يمنعني من ذلك! فماذا لو تمكّن باربُران من العثور عليّ بفضل رسالتي واستعادتي إلى منزله؟ ماذا لو باعني من جديدٍ إلى فيتاليس آخر لا يكون مثل فيتاليس؟ فهو له على الأرجح الحقّ في أن يفعل كلّ ذلك. هذه الفكرة كانت تجعلني أؤْثر التعرّض إلى تهمة الجحود من قِبَل السيّدة باربُران على المجازفة بالوقوع تحت سلطة باربُران من جديدٍ، سواء أكان سيستخدم سلطته هذه في بيعي أو في جعلي أعمل تحت إمرته. كنتُ أفضّل الموت - الموت جوعاً! - على مواجهة خطرٍ مماثل. خطر كان مجرّد التّفكير فيه يفقدني كلّ شجاعة.

ولكن إذا لم أجرؤ على الكتابة للسيّدة باربُران فقد بدا لي، وقد صرتُ حرّاً بالذّهاب أنّى شئتُ، أنّني يمكنني أن أحاول رؤيتها. ومنذُ ضممتُ ماتيا إلى «فرقتي» كنتُ أقول في نفسي بأنّ ذلك سيكون سهلاً. يمكنني إرسال ماتيا في المقدّمة، فيما أبقى أنا في الوراء حذِراً. يدخل هو إلى منزل السيّدة باربُران ويختلق حجّةً ليتحدّث إليها. فإذا كانت وحدها أخبرَها الحقيقة وعاد ليُعْلمني، فأدخل أنا إلى المنزل الذي أمضيتُ فيه طفولتي لأرتمي بين ذراعي أمّي التي ربّتني. أمّا إذا

كان باربُران موجوداً، فسيطلب ماتيا من السيّدة باربُران ملاقاتي إلى مكانٍ محدّد حيث أتمكّن من معانقتها.

كانت هذه هي الخطّة التي رحتُ أنسجها وأنا أمشي، ولذا كنتُ صامتاً لأنّ مسألة بمثل هذه الأهميّة كانت تستحقّ أن أمحضها كلّ انتباهي وتركيزي.

في الواقع، لم يكن عليّ التّفكير في إمكان زيارة السيّدة باربُران فحسب، بل كان عليّ أيضاً البحث في طريقنا عن مدنٍ أو قرى يمكننا فيها تحصيل النّقود.

لذا كان من الأفضل معاينة الخارطة.

كنّا قد أصبحنا في وسط الرّيف وبات بوسعنا أخذ قسط من الرّاحة على كومةٍ من الحصى دون أن نخشى إزعاجاً. فقلتُ لماتيا مخاطباً إيّاه بصيغة جمع التوقير:

- سنرتاح قليلاً إذا أردتم.

- أتريدون أن نتكلّم؟

- أثمّة ما تريدون قولَه لي؟

- أرجو أن تخاطبني بصيغة المفرد.

- حسناً، ستتخاطب بصيغة المفرد.

- لا بل أخاطبك بالجمع وتخاطبني بالمفرد.

- كلانا سواسية، آمرك بذلك وإن لم تُطِعني ضربتُك.

- حسناً، إضربني ولكن ليس على رأسي.

قال هذا وراح يضحك ضحكةً رقيقةً من القلب بانت لها كلّ أسنانه وتوهّج بياضها في وسط وجهه الذي لوّحته الشمس.

كنّا قد جلسنا، فأخرجتُ الخارطة من حقيبتي وبسطتُها على العشب. لزمني وقتٌ طويل حتّى أتوصّل إلى تحديد مكان وجودنا ولكنّني تمكّنتُ أخيراً من رسم مساري: كورباي، فونتانبلو، مونتارجيس، جيان، بورج، سانت-أمان، مونلوسون. هذا يعني أنّه كان بالإمكان الذّهاب إلى شافانون، وإن حالفنا قليل من الحظّ فلن نموت في الطّريق جوعاً.

فسألني ماتيا وهو يشير إلى الخارطة:

- ما هذا الشّيء؟

فشرحتُ له ما هي الخارطة وبما تنفع، مستخدماً كلماتٍ مشابهةً لتلك التي استخدمها فيتاليس عندما أعطاني أوّل درسٍ في الجغرافيا.

سمعَني ماتيا بانتباه وعيناه مصوّبتان إلى عينيّ، ثمّ قال:

- هذا يعني أنّه يجب أن يجيد الواحد القراءة؟

- بالتّأكيد. ألا تجيد القراءة؟

- كلاّ.

- أتريد التعلّم؟

- أوه! أجل، أريد ذلك.

- حسناً، سأعلّمك.

- أيمكن أن نجد على الخارطة الطّريق الذاهبة من جيزور إلى باريس؟

- طبعاً، هذا سهلٌ جدّاً. قلتُ هذا وأشرتُ إليها.

في البداية، لمّا اتّجهتُ بحركةٍ من إصبعي من جيزور إلى باريس لم يشأ هو تصديق ما أقوله.

- لقد قدِمتُ سيراً على القدمين، وأعرفُ أنّ المسافة أطول من هذا بكثير، قال.

فشرحتُ له قدرَ استطاعتي، أي ربّما بصورة غير كافية الوضوح، كيف تُحدَّد المسافات على الخرائط. فاستمع إليّ ولكنْ بدا لي أنّه لم يكن واثقاً من حديثي العلميّ.

لّما كنتُ فتحتُ حقيبتي، خطر لي أن أفحص محتواها، وقد طاب لي عرضُ ممتلكاتي على ماتيا، فبسطتُ كلّ شيء على العشب.

كنتُ أملك ثلاثة قمصان قطنيّة وثلاثة أزواج جوارب وخمس محارم، كلّها بحالٍ جيّدة، فضلاً عن حذاءين رثّين نوعاً ما.

فانبهر ماتيا تماماً.

- وأنت، ماذا لديك؟ سألتُه.

- لديّ كمنجتي، وما أرتديه.

- حسناً! ستتقاسم هذا كلّه كما ينبغي، فنحنُ رفيقان: ستحصل على قميصين وزوجَي جوارب وثلاثة محارم. ولكن بما أنّ من العدل أن نتقاسم كلّ شيء، فسنتناوب على حمل حقيبتي: كلٌّ منّا يحملها لساعة.

أراد ماتيا رفض العرض، ولكنّني كنتُ قد اعتدتُ على دور قائد الفرقة، وهو دورٌ ينبغي أن أعترف بأنّه كان يبدو لي شديد الإمتاع، فنَهوتُه عن الاعتراض.

كنتُ قد بسطتُ على قمصاني علبة الأدوات المنزليّة الخاصّة بإتيانيت بالإضافة إلى علبةٍ صغيرة كنتُ قد وضعتُ فيها وردة ليز. أراد ماتيا فتح تلك العلبة ولكنّني لم أسمح له بذلك وأعدتها إلى

حقيبتي من دون فتحها وقلتُ له:

- إذا كنتَ تريد أن تُرضيني، فلن تلمس أبداً هذه العلبة. فهي هديّة.

- حسناً! أعدك بألاّ ألمسها أبداً، قال.

منذ ارتديتُ من جديدٍ فروة الخروف وحملتُ قيثارتي، كان هناك شيءٌ يزعجني كثيراً، ألا وهو سروالي. كان يبدو لي أنّ الفنّان لا يجدر به ارتداء سروال طويل وأنّه، للظّهور أمام الجمهور، لا بدّ من سروال قصير مع جوربين تتقاطع عليهما شرائط ملوّنة. فالسّروال الطّويل مناسب للبساتنة، وأنا كنتُ قد أصبحتُ فنّاناً!...

عندما نكون أسياد أنفسنا وتخطر لنا فكرة ما، لا يطول بنا الوقت حتّى ننفّذها. لذا فتحتُ علبة الأدوات المنزليّة الخاصّة بإتيانيت وتناولتُ منها مقصّاً وأنا أقول لماتيا:

- فيما أقوم أنا ببعض التّعديلات على سروالي، يجب أن تُريني أنتَ كيف تعزف على الكمنجة.

- أوه! يسرّني هذا!

ثمّ تناول كمنجته وبدأ العزف.

في تلك الأثناء، أدخلتُ بشجاعةٍ المقصَّ في السّروال ورحتُ أقصّ قماشه أعلى بقليل من مستوى الرّكبة.

كان سروالاً جميلاً من القماش الرّماديّ على غرار صدريّتي وسترتي، وكنتُ سعيداً جدّاً يوم قدّمه لي الأب. ولكنّني بقطعه على هذه الشّاكلة لم أكن أعتقد بأنّني أخرّبه بل بالعكس تماماً.

في البداية، استمعتُ إلى ماتيا وأنا أقصّ سروالي، إلاّ أنّني سرعان

ما توقّفتُ عن القصّ وأصغيتُ إليه بكلّ تركيز: كان ماتيا يجيد العزف بقدر فيتاليس تقريباً.

من الذي علّمك العزف على الكمنجة؟ سألتُه وأنا أصفّق له.

لا أحد، تعلّمتُ من الجميع تقريباً، ولكنّني تعلّمتُ خصوصاً وحدي بالتّمرّن.

ومَن الذي علّمك قراءة الموسيقى؟

أنا لا أجيد قراءة الموسيقى، أكتفي بعزف ما أسمعه.

سأعلّمك أنا.

أتعرف إذن كلّ شيء؟

لا بدّ من ذلك، فأنا قائد فرقة.

لا يكون المرء فنّاناً ما لم يكن له شيء من الاعتداد بالنّفس. لذا أردتُ أن أُظهرَ لماتيا أنّني أنا أيضاً كنتُ موسيقيّاً.

فتناولتُ قيثارتي، ولكي يكون التّأثير قويّاً على الفور رحتُ أغنّي له أغنيتي الشّهيرة:

أيّتها المعشوقة القاسية، يا امرأةً مشؤومةً باطلة!

كم من الحسرات جرّعتِني!

وكما ينبغي أن تكون عليه الحال بين الفنّانين، أعاد لي ماتيا الإطراء نفسه الذي وجّهتُه أنا إليه من قبلُ وراح يصفّق. فقد كان ذا موهبة كبيرة، وكنتُ أنا أيضاً ذا موهبة كبيرة، ما يعني أنّ الواحد منّا كان جديراً بالآخر.

ولكن لم يكن بوسعنا البقاء في ذلك المكان يُطري كلٌّ منّا على رفيقه. فبعدما عزفنا لمتعتنا الشّخصيّة، بات ينبغي العزف من أجل تأمين عشائنا ومبيتنا.

أغلقتُ حقيبتي، فوضعها ماتيا على ظهره وقد حان دوره لذلك.

إلى الأمام على الطّريق المعفّرة: يجب الآن التّوقّف عند أوّل قرية نصادفها وتقديم عرض يكون بمثابة «العرض الأوّل لفرقة ريمي».

قال لي ماتيا:

- علّمْني أغنيتك، سنغنّيها سويّة وأعتقد أنّ بإمكاني مرافقتك على الكمنجة. سيكون هذا جميلاً جدّاً.

بالفعل كان ذلك سيكون جميلاً جدّاً، وسيكون «الحضور الكريم» متحجّر القلب إن لم يكافئنا بفلوس كثيرة.

لكنّ القدر أعفانا من مصيبة كتلك. فبوصولنا إلى قرية واقعة قرب فيلجويف، وفيما نتهيّأ للبحث عن ساحةٍ نقدّم فيها عرضنا، مررنا ببوّابة كبيرة لمزرعة تتقدّمها باحة كانت غاصّة بأشخاصٍ متأنّقين، متزيّنين جميعاً بباقات الزّهر المعقودة بشرائط، علّقها الرّجال في عروات بذلاتهم فيما ثبّتتها النّساء على صديريّاتهنّ: لم يكن يلزم كثير من الذّكاء لنعرف أنّه كان عرساً.

خطر لي أنّ أولئك النّاس ربّما أسعدَهم وجود موسيقيّين يعزفون لهم لكي يرقصوا. فوَلجتُ إلى الباحة يتبعني ماتيا وكابي، ثمّ رفعتُ قبّعتي وأدّيتُ تحيّة مفخّمة (تحيّة فيتاليس النّبيلة) وعرضتُ فكرتي على أوّل شخصٍ صادفتُه.

كان صبيّاً سميناً، تحيط وجهَه الأحمر كمثل قرميدة ياقةٌ صلبةٌ تحزّ

أذنيه. وكانت تبدو عليه أمارات المرح والوداعة.

لم يُجبني ولكنّه استدار بكامل جسمه صوب الحفل، ذلك أنّ بذلته المصنوعة من قماشٍ جميلٍ ولامعٍ كانت تضايقه بلا شكّ، ثمّ وضع اثنتين من أصابعه في فمه وأطلق صفيراً ارتعد له كابي، وصرخ متوجّهاً إلى الحضور:

- يا جماعة! ما رأيكم بوصلةٍ موسيقيّة صغيرة؟ لقد أتانا موسيقيّون.

- أجل، أجل، نريد موسيقى! نريد موسيقى! علَتْ أصوات رجالٍ ونساء.

- اتّخذوا أماكنكم للرّقص الرّباعيّ!

وفي بضع دقائق تشكّلت مجموعات الرّقص في وسط الباحة، ممّا جعل طيور الدّواجن تفرّ هلعاً.

كنتُ قلقاً بعض الشّيء، فسألتُ ماتيا بالإيطاليّة وبصوتٍ خفيض:

- هل سبق أن عزفتَ رباعيّات؟

- أجل.

وعزف لي على كمنجته واحدة منها، ولحسن الحظّ كنتُ أعرفها. لقد نجونا.

بعد ذلك استقدموا عربةً من داخل سقيفة وثبّتوها على سنادها وأصعدونا إليها.

وبالرّغم من أنّنا، أنا وماتيا، لم نكن عزفْنا سويّة من قبلُ، إلاّ أنّنا أدّينا الرّباعيّة بشكلٍ لا بأس فيه. يجب الإقرار كذلك بأنّنا، ولحسن الحظّ، لم نكن نعزف لآذان مرهفة متطلّبة.

- أيجيد أيّ منكما العزف على الشِّياع[1]، سألَنا الصّبيّ السّمين ذو الوجه الأحمر.

- أجل، أنا، قال ماتيا، ولكنّني لا أملك شياعاً.

- سأذهب لأحضر لك واحداً، فالكمنجة جميلة ولكنّ أنغامها باهتة لا تُحمِّس.

- أتجيد إذن العزف على الشِّياع؟ سألتُ ماتيا مستمرّاً بالتحدّث بالإيطاليّة.

- وعلى البوق العاديّ أيضاً، وكذلك على النّاي، وكلّ ما يمكن العزف عليه.

بات واضحاً أنّ ماتيا كان ذا قدرات هائلة لا تُقدَّر بثمن.

وسرعان ما أُحضرَ شِياعٌ وعاودنا عزفَ ألحان البولكا والفالس، وخصوصاً الرّباعيّات.

استمررنا بالعزف على هذا المنوال حتّى هبوط اللّيل من دون أن يدَعنا الرّاقصون نرتاح لحظة واحدة. ولم يكن الأمر متعِباً بالنّسبة إليّ، ولكنّه كان كذلك لماتيا الموكَل بالجزء الصعب، لا سيّما وأنّ السّفر ومختلف ضروب الحرمان كانت قد أنهكته. كنتُ أراه يشحب من حينٍ لآخر كما لو كان سيُغمى عليه. ومع ذلك كان يستمرّ بالعزف، نافخاً بقدر استطاعته في فتحة آلة النّفخ.

لم أكن لحسن الحظّ الوحيد الذي لاحظ شحوبه، فالعروس لاحظت ذلك بدورها وقالت:

- هذا يكفي، فالصّغير قد أصابه الإنهاك. والآن افتحوا صُررَكم

(1) هو من نوع الأبواق الملتوية ذوات المَكابس يُضغط عليها أثناء العزف (المترجمة).



لمكافأة الموسيقيّين.

فقلتُ وأنا أقفز من العربة:

لو سمحتِ، فسيهتمّ أمين صندوقنا بجمع التّبرّعات.

ثمّ رميتُ قبّعتي لكابي فتناولها بأسنانه.

وصفّق الحضور كثيراً لتحيّته الأنيقة التي راح يؤدّيها عندما يُعطى نقوداً، والأفضل من ذلك هو أنّ هذا جعلهم يجزلونه العطاء. كنتُ أتبعه وأرى القطع النّقديّة البيضاء تنهمر في القبّعة. كان العريس هو آخر المتبرّعين فألقى في القبّعة خمسة فرنكات.

يا لها من ثروة! ولم يكن هذا كلّ شيء. فقد دُعينا للعشاء في المطبخ، كما أخلوا لنا مكاناً ننام فيه في أحد مستودعات الحصيد. ولمّا غادرنا ذلك المنزل المضياف في صباح اليوم التّالي، كان في حوزتنا ثمانية وعشرون فرنكاً. فقلتُ لرفيقي:

- يعود الفضل في كسبها إليك يا صغيري ماتيا، فلو كنتُ وحدي لما استطعتُ تشكيل فرقةٍ موسيقيّة.

فتذكّرتُ عبارةً قالها لي آكان الأب عندما بدأتُ بإعطاء ليز دروساً، مُثبتاً لي أنّ العمل الجيّد يلقى دوماً جزاءً حسناً.

- لم يكن ضمّك إلى فرقتي حماقةً أبداً.

كنّا نشعر بأنّنا سيّدان عظيمان مع ثمانية وعشرين فرنكاً في جيوبنا. وعند وصولنا إلى كورباي تمكّنتُ بلا تهوّرٍ من شراء بعض المعدّات التي كنتُ أراها ضروريّة: اشتريتُ أوّلاً من عند بائع خردةٍ شِباعاً كلّفني ثلاثة فرنكات. نظراً لثمنه المتواضع، لم يكن جيّداً ولا جميلاً ولكن إذا ما نحن جليناه ونظّفناه كان سيلبّي حاجتنا. بعد ذلك، اشتريتُ أشرطةً

حمراء لتزيين جواربنا وأخيراً حقيبةً عسكريّة قديمة لماتيا، لأنّه من الأسهل حمل حقيبة خفيفة على الدّوام من حمل واحدة ثقيلة من حينٍ لآخر. هكذا نتقاسم ما نحمله معنا فنكون أكثر نشاطاً وخفّة.

غادرنا كورباي ونحن في حالٍ جيّدة حقّاً. فبعد كلّ مشترياتنا، كان في حافظة نقودنا ثلاثون فرنكاً، لأنّ عروضنا كانت مُثمرة. وكان رصيدنا الموسيقيّ منوّعاً بما يمكّننا من البقاء عدّة أيّام في القرية نفسها من دون أن نكرّر فقراته. وأخيراً، كنّا أنا وماتيا متفاهمين تماماً بحيث بتنا كمثلِ شقيقين.

- أتعلم؟ كان يقول لي أحياناً وهو يضحك، من الرّائع أن يكون لي قائد فرقة مثلك لا يلجأ إلى الضّرب.

- أأنتَ سعيد إذن؟

- بالطّبع أنا سعيد! إنّها منذ أن غادرتُ بلادي المرّة الأولى التي لا آسَف فيها على المستشفى.

ذلك الوضع المزدهر أوحى لي بأفكار بالغة الطّموح.

وبعدما غادرنا كورباي، توجّهنا إلى مونتارجيس في طريقنا للذّهاب إلى منزل السيّدة باربُران.

كان الذّهاب إلى هناك لمعانقتها يعني الوفاء بما كنت أدين به لها من عرفان بالجميل، ولكنّه سيكون على هذه الشاكلة وفاءً شحيحاً وزهيد الثّمن.

ماذا لو حملتُ لها هديّة؟

فبعدَما صرتُ ثريّاً، بتُّ أدين لها بهديّة.

ولكن ماذا أحمل لها؟

لم أكن بحاجة للتّفكير طويلاً.

كان ثمّة هديّة يمكن أن تفرحها أكثر من أيّ شيء آخر، لا في تلك الآونة فحسبُ بل في شيخوختها أيضاً: بقرة تعوّض عن فقدانها «صُهيبة» المسكينة.

كم كانت السيّدة باربُران ستفرح إنْ أنا تمكّنتُ من إهدائها بقرةً، وكم كنت سأكون بدوري سعيداً!

رحتُ أتخيّلني وقد اشتريتُ قبل وصولنا إلى شافانون بقرة يقودها ماتيا من رسنها ويُدخلها إلى حوش منزل السيّدة باربُران. بالطّبع، لم يكن باربُران موجوداً. «- سيّدة باربُران، يقول ماتيا، لقد أحضرتُ لكِ بقرة». «- بقرة؟! لا بدّ أنّك مخطئ يا بنيّ»، تقول هي متنهّدةً. «- ما أنا بمخطئٍ يا سيّدتي، أفَلَستِ السيّدة باربُران من شافانون؟ وعليه، فقد طلب منيّ الأمير (كما في حكايات السّاحرات) أن أقود هذه البقرة هديّة إلى السيّدة باربُران». «- أيّ أمير؟...» وآنئذٍ أظهر أنا وأرتمي بين ذراعَي السيّدة باربُران، وبعدما نتعانق طويلاً، نقوم بتحضير الفطائر والرّقائق ونأكلها نحن الثّلاثة لا السيّد باربُران كما حصل يوم ثلاثاء المرفع ذاك عندما عاد ليقلب مقْلاتنا ويضع الزّبدة كلّها في حساء البصل.

يا للحلم الجميل! ولكن من أجل تحقيقه، كان يجب أن نتمكّن من شراء بقرة.

كم تكلّف البقرة يا ترى؟ لم تكن لديّ أدنى فكرة. لا بدّ أنّها غالية الثّمن، بل باهظة، ولكن كم تكلّف؟

ما كنتُ أريده هو بقرة لا تكون مفرطة الضّخامة والسّمنة. لأنّ

الأبقار كلّما كانت سمينة ارتفع سعرها، وكلّما كانت كبيرة لزمها الكثير من الطّعام، وأنا لا أريد أن تتسبّب هديّتي للسيّدة باربُران بأيّ حرَج.

المهمّ كان معرفة سعر الأبقار، أو بالأحرى سعر بقرة بالمواصفات التي كنت أريد.

لحسن الحظّ لم يكن ذلك صعباً. ففي حياتنا على جادّات الطّرق، وفي سهراتنا في الأنزال، كنّا نلتقي بتجّار المواشي، وكان من السّهل أن نسألهم عن أثمان الأبقار.

ولكن عندما طرحتُ سؤالي للمرّة الأولى على راعي بقرٍ لفتتني في البداية هيئته كرجل طيّب، كان جوابه أن ضحك في وجهي. ثمّ انقلب على كرسيّه وراح يخبط من حينٍ لآخر بقبضته على الطّاولة، قبل أن ينادي صاحب النّزل.

- أتعرف عمَّ يسألني هذا الموسيقيّ الصّغير؟ ما ثمن بقرة لا تكون مفرطة الضّخامة أو السّمنة، ولكن جيّدة. أتريدها أن تكون مدرّبة أيضاً؟

وانفجر بالضّحك من جديدٍ ولكنّني لم أدع ذلك يفقدني رباطة جأشي.

- ينبغي أن تدرّ حليباً جيّداً وألاّ تأكل كثيراً.

- أتريد لها أيضاً أن تُقاد بالرّسن على امتداد الطّرق مثل كلبك؟

بعدما استهلك كلّ مزاحه، واستعرض نباهته بما يكفي، قبِلَ بأن يجيب على سؤالي إجابة جادّة، لا بل حتّى بأن يخوض معي نقاشاً.

فقال لي إنّ لديه ما أطلبه، أي بقرة هادئة تدرّ حليباً وفيراً، حليباً

دسماً كالقشطة، وتكاد لا تأكل شيئاً. وإن أنا دفعتُ له خمسة عشر بستولاً[1]، أي ما يساوي خمسين ريالاً فرنسيّاً، صارت البقرة لي.

بقدر ما كان صعباً في البداية جعله يتكلّم، صار صعباً إسكاته بعدما انطلق في الكلام.

وفي خاتمة المطاف تمكّنّا من الذّهاب إلى النّوم ورحتُ أحلم بما علمتُه من تلك المحادثة.

فالبستولات الخمسة عشر أو الرّيالات الخمسون تساوي مائة وخمسين فرنكاً، وهيهات أن يكون معي مبلغٌ كهذا.

أكان بالإمكان تحصيله؟ بدا لي أنْ لا، ولكن إذا ما رافقنا الحظّ الذي ابتسم لنا في أيّامنا الأولى، فسأتمكّن من جمع الفرنكات المائة والخمسين سنتيماً سنتيماً. إنّما كان يلزم وقتٌ لذلك.

فخطرت لي فكرة: ماذا لو ذهبنا في البداية إلى فارْس بدل الذّهاب مباشرةً إلى شافانون؟ فذلك سيُمهلنا وقتاً سينقصنا إذا ما نحن اتّخذنا الطّريق المباشرة.

كان يتعيّن إذن الذّهاب أوّلاً إلى فارْس ورؤية السيّدة باربُران في طريق العودة: لا بدّ أنّه سيكون معي آنئذٍ الفرنكات المائة والخمسون، وسنتمكّن إذذاك من تقديم عرضي السّحريّ بعنوان «بقرة الأمير».

في صباح الغد، أفصحتُ عن مخطّطي لماتيا الذي لم يُبدِ أيّ اعتراض وقال لي:

فلنذهبْ إلى فارْس. قد يبدو هذا غريباً ولكنْ ستسعدني رؤية المناجم.

(1) البستول: عملة ذهبيّة قديمة (المترجمة).




Twitter: @ketab_n

الفصل الثّاني

مدينةٌ سوداء

طويلةٌ هي الطّريق الموصلة من مونتارجيس إلى فارْس الواقعة في وسط منطقة سيفينّ عند سفح الجبل المائل صوب البحر المتوسّط. هناك بينهما خمسمائة كيلومترٍ أو ستمائة، تمتدّ في خطّ مستقيم، ولكنّ المسافة بالنّسبة إلينا كانت تطول أكثر لتتعدّى الألف كيلومتر، وذلك بباعث من الطّرق الجانبيّة التي كان علينا اتّخاذها بحكم نمط عيشنا. إذ كان علينا البحث عن مدنٍ وقرىً كبيرة نقدّم فيها عروضنا المثمرة.

لزمنا ثلاثة شهور لعبور تلك الكيلومترات الألف، ولكن عندما وصلنا إلى أنحاء فارْس، فرحتُ وأنا أعدّ نقودنا إذ وجدتُ أنّنا أحسنّا استغلال وقتنا: فقد كان في صرّتي الجلديّة مائة وثمانية وعشرون فرنكاً تمكّنّا من ادّخارها. ولم يكن ينقص لشراء بقرة السّيّدة باربُران إلاّ اثنان وعشرون فرنكاً.

كان ماتيا سعيداً بقدري تقريباً، وكان فخوراً بشدّة لكونه أسهم في تحصيل جزء من مبلغ كهذا: كان جزءاً معتبراً، ولولاه، لولا بوقه خصوصاً، لما استطعنا أنا وكابي أن نجمع مائة وثمانية وعشرين فرنكاً.

وكنّا واثقين من أنّنا سنكسب بين فارْس وشافانون الفرنكات الاثنين والعشرين التي كانت تنقصنا.

وصلنا إلى فارْس. قبل حوالى مائة سنة كانت هذه المدينة قريةً فقيرة

ضائعة في الجبال، غير معروفة إلاّ بكونها شكّلت غالباً ملاذاً «لأبناء الله» بزعامة جان كافالييه، وقد جعل منها موقعها في وسط الجبال نقطةً مهمّة في حرب الكالفينيّين[1]. لكنّ هذا الوضع كان في الآن عينه سبباً في البؤس الذي عانت منه. وفي حوالى 1750، اكتشف أحد النّبلاء وكان رجلاً عجوزاً مولعاً بأعمال التّنقيب، اكتشف في فارْس مناجم فحم حجريّ، ومذّاك صارت فارْس، إلى جانب مُدن آليه وسان-جيرفيه وبيسّيج، واحداً من أحواض الفحم الحجريّ التي تزوّد الجنوب الفرنسيّ بهذا الفحم وتسعى لمنافسة الفحم الإنجليزيّ في سوق بلدان البحر المتوسّط. لمّا بدأ الرّجل العجوز عمليّات التنقيب، سخر منه الجميع، وعندما وصل إلى عمق مائة وخمسين متراً من دون أن يجد شيئاً، اتّهموه بالجنون وقاموا بِمَساعٍ فعّالة لكي يتمّ الحجر عليه، لأنّ ثروته كانت ستُبدّد في الحفريّات الرّعناء تلك: فأراضي فارْس تحوي مناجم حديد، وإذا لم يُعثر فيها على فحم حجريّ حتّى تلك اللّحظة فكان هذا يعني أنّه لن يُعثر عليه أبداً. لَم يكن العجوز يردّ على ما يُقال، وللابتعاد عن الأصوات المتعالية ضدّه، اتّخذ من البئر مسكناً له ولم يعد يغادرها: كان يأكل وينام فيها، ولم يعد عرضةً

---

(1) هم أتباع جان كالفان Jean Calvin (1509-1564)، المصلح الدينيّ ومؤسّس مذهب بروتستانتيّ عُرف باسمه. انتفضوا على الاضطهاد الذي لحقهم إثر صدور منشور فونتينبلو l'Edit de Fontainebleau الذي أمضى عليه لويس الرّابع عشر في 1685 والهادف إلى الحدّ من البروتستانتيّة، وخاضوا ضدّ قوّاته حرباً استمرّت من 1702 حتّى 1715. كانوا يُدعون أيضاً «أصحاب القمصان» Les Camisards، وكان جان كافالييه Jean Cavalier (1681-1740) المذكور في العبارة من أكبر زعمائهم يومذاك (المترجمة).

إلاّ لشكوك عمّاله الذين كانوا يساعدونه. عند كلّ ضربة مِعْوَل كان أؤلاء يهزّون أكتافهم مشكّكين، ولكنّهم كانوا يستمرّون بالحفر مدفوعين بإيمان سيّدهم، وكانت البئر تزداد عمقاً. وعلى عمق مائتي متر، عُثر على طبقةٍ من الفحم الحجريّ: وبدءاً من ذلك اليوم لم يعد النّاس ينظرون إلى الرّجل العجوز كمجنون، بل كعبقريّ. بين ليلةٍ وضحاها، كان التحوّل جذريّاً.

واليوم باتت فارْس مدينة من اثني عشر ألف نسمة، ينتظرها مستقبلٌ صناعيّ باهر وتشكّل مع مدن آليه وبيسّيج محطّ آمال الجنوب الفرنسيّ.

إنّ ما يصنع اليوم وغداً ثروة فارْس لَيكمن في جوف الأرض وليس عليها. فإهابُها الخارجيّ هو في الواقع حزينٌ ومُقفر. ليس هناك إلاّ هضبات كلسيّة وبراحات، أي ليس سوى القحط. وما من أشجارٍ خلا أشجار الكستناء والتّوت التي ترتفع هنا وهناك، فضلاً عن بعض أشجار الزّيتون الهزيلة. ولا من نبات، بل صخور رماديّة وبيضاء في كلّ مكان، وفقط في المساحات التي تتمتّع فيها الأرض بشيء من العمق يسمح للرّطوبة بالتّسرّب إليها، يظهر نباتٌ نَضِر يلطّف من كآبة الجبال.

ينتج عن هذا المحيط الأجرد فيضانات رهيبة. فعندما يتساقط المطر، تسيل المياه على المنحدرات العارية كما لو كانت تتراكض على شارعٍ معبَّد، وتروح السّواقي الجافّة في العادة تجرف سيولاً تمتلئ بها فوراً أنهار الوِهاد وتفيض: وفي بضع دقائق يُشاهَد منسوب الماء وهو يرتفع في مجرى الأنهار ثلاثة أمتار أو أربعة أو خمسة وحتّى أكثر.

تتألّف فارس من جزءين يفصل بينهما النهر المسمّى ديفونّ، الذي يصبّ فيه من داخل المدينة مجرَيان للسّيول: مجرى تروبّار ومجرى سانت-آنديبول. ليست فارس مدينة جميلة ولا نظيفة ولا منظّمة. فالعربات المحمّلة بالحديد والفحم والتي تسير على السّكك الحديديّة وسط الشّوارع من الصّباح حتّى المساء تنثر باستمرار غباراً أحمر وأسود يتحوّل في الأيّام الماطرة إلى وحلٍ سائل وسميك أشبه ما يكون بطين المستنقعات. وفي الأيّام المشمسة والعاصفة، تطوف في الشّوارع دوّاماتُ غبارٍ كثيفةٌ تعلو فوق المدينة. أمّا المنازل فسوداء بالكامل، بسبب الطّين والغبار الذي يرتفع من الشّوارع ليبلغ السّطوح، وكذلك بسبب دخان الأفران والمصاهر الذي ينزل من السّطوح إلى الشّوارع: كلّ شيء سواد بسواد، الأرض والسّماء وحتّى المياه الجارية في نهر ديفونّ. لكنّ النّاس الذين يمشون في الشّوارع أكثر اسوداداً ممّا يحيط بهم من خيول سوداء وعربات سوداء وأوراق الشّجر السّوداء. حتّى لَيخال المرء أنّ غيمةً من السّخام قد انقضّت ذات يومٍ على المدينة أو أنّ فيضاناً من القار غطّاها حتّى السّطوح. أمّا الشّوارع فغير مؤهّلة للعربات أو المارّة بل لسكك الحديد وعربات النّقل القادمة من المناجم فحسب: لذا لا نرى على الأرض إلاّ سككاً حديديّة وصفائح دوّارة تنتشر في كلّ مكان، وفي الأعلى معابر وأحزمة نقلٍ ورافعات تدور مُصدرةً هديراً يصمّ الآذان. أمّا المباني الواسعة التي يمرّ قربها المرء فترتجف حتّى أسُسها، وإذا ما نظرنا عبر الأبواب أو النّوافذ فسنرى كُتَلاً من المعادن التي يجري صهرها والتي تسيل مثل نيازك هائلة، ومطارق آليّة تتطاير حولها موجات من الشّرر، وفي

كلّ مكانٍ مكابس الآلات البخاريّة تعلو وتهبط بانتظام. عدا ذلك، لا صروح ولا حدائق ولا تماثيل في السّاحات. كلّ شيء يتشابه وقد بُنِيَ على نسقٍ واحدٍ هو المكعّب: الكنائس والمحكمة والمدارس، كلّها مكعّبات شُقّت فيها نوافذ حسبَ الحاجة.

عندما وصلنا إلى نواحي فارْس، كانت السّاعة هي الثّانية أو الثّالثة بعد الظّهر. كانت شمسٌ مُشرقة تلمع في سماء صافية، ولكن كلّما تقدّمنا كان النّهار يزداد قتامةً، وكانت تتوسّط السّماءَ والأرضَ سحابةُ دخانٍ سميكةٌ تسير بثقلٍ ثمّ تتبدّد عند أعلى المداخن. ومنذ أكثر من ساعة، كنّا نسمع هديراً هائلاً، شبيهاً بأمواج البحر يرافقه رعدٌ قويّ. الهدير كان مصدره المَراوح، أمّا الرّعد فكان في الحقيقة وقعَ ضربات المطارق والمدقّات.

كنتُ أعرف أنّ عمّ أليكسي عاملُ منجم في فارْس وأنّه يعمل في منجم ترويّير، هذا كلّ شيء. ولكن هل كان يعيش في فارْس نفسها أم في ضواحيها؟ كنتُ أجهل ذلك.

لّما دخلنا فارْس، سألتُ عن مكان منجم ترويّير فدلّوني على الضفّة الشّماليّة من نهر ديفونّ، في وادٍ صغير يمرّ فيه مجرى الماء الذي منح اسمه للمنجم.

لئن كانت المدينة عديمة الجاذبيّة، فذلك الوادي كان جنائزيّاً. إنّه عبارة عن مجموعة هضاب جرداء لا شجر فيها ولا نبات، وعلى امتدادها صخور رماديّة لا تقطعها هنا وهناك إلاّ كتَلٌ من أحمر التّراب. وعند مدخل الوادي تقوم المباني المخصّصة للتّعدين، من مستودعات وإصطبلات ومحلاّت ومكاتب ومواقد للآلة البخاريّة،

ومن حولها كلّها أكوام من الفحم والحجارة.

فيما نقترب من المباني، اعترضتْنا امرأة كان يبدو عليها شرودٌ واختلالٌ، شعرها مسترسل على كتفيها وتمسك بيدها طفلاً صغيراً، فأوقفتنا قائلةً:

- هلاّ أرشدتموني إلى دربٍ غاضر؟

فنظرتُ إليها باندهاش.

- أقصد درباً فيها أشجار وأفياء، وإلى جانبه ساقية تبعث خريرها على الحصى، وعلى أغصان الشّجر عصافير تزقزق.

ثمّ راحت تصْفر لحناً فرِحاً، قبل أن تتابع بالقول، وقد لاحظتْ أنّي لم أكن أجيبها، فيما لم يبدُ عليها أنّها انتبهت لاندهاشي:

- أنت للأسف لم تمرّ بهذا الدّرب. هذا يعني أنّه ما يزال بعيداً. ولكن هل هو إلى اليمين أم إلى اليسار؟ قل لي يا بنيّ. فأنا أبحث عنه ولا أجده.

كانت تتكلّم بطلاقةٍ عجيبةٍ وهي تومئ بيد، وباليد الثّانية تداعب برفقٍ شعرَ ابنها.

- أسألكَ أن تدلّني عليه لأنّني واثقة من أنّي سأجد ماريوس هناك. أتعرف ماريوس؟ كلاّ. حسناً، إنّه والد ابني. وعندما احترق في المنجم في انفجارٍ غازيّ، لاذَ بذلك الدّرب الغاضر. واليوم لم يعد يتنزّه إلاّ في مثلِ هذه الدروب، فهذا يُبلسِم حروقه. خلافاً لي، هو يعرف كيف يجدها. لهذا السّبب لم ألتقِه منذ ستّة شهور. وستّة شهور هي فترة طويلة لمن يحبّ. ستّة شهور، ستّة شهور!

ثمّ استدارت صوب مباني المنجم وأشارت بقوّة وحشيّة إلى مواقد

الآلة التي كانت تلفظ موجاتٍ من الدّخان وهتفتْ:

- العمل تحت الأرض، العمل الملعون! أيّتها الجحيم ردّي لي والدي وشقيقي جان، ردّي لي ماريوس. اللّعنة، اللّعنة!

ثمّ قالت تخاطبني من جديد:

- أنت لستَ من هذه المنطقة، أليس كذلك؟ إنّ فروة الخروف التي ترتديها وقبّعتك تقولان إنّك قادمٌ من بعيد: اذهبْ إلى المقبرة وعُدَّ: واحد، اثنان، ثلاثة... واحد، اثنان، ثلاثة... كلّهم ماتوا في المنجم.

ثمّ أمسكتْ بالطّفل وضمّته بين ذراعيها:

- لن تأخذ صغيري بيار، أبداً!... فالماء منعشٌ، الماء مُرطِّب. أين هي الطّريق؟ بما أنّك لا تعرف، فهذا يعني أنّك أحمق مثل جميع مَن يسخرون منّي. فلمَ تؤخّرني؟ إنّ ماريوس في انتظاري.

وأدارت لي ظهرها وراحت تمشي بسرعة وهي تصْفر لحنها الفرِح.

ففهمتُ أنّها امرأة مجنونة فقدت زوجها في حادث انفجار غازيّ، هذا الخطر الرّهيب الذي يتهدّد عمّال المناجم. وعند مدخل المنجم، وسط ذلك المحيط الكئيب وتحت تلك السّماء السّوداء، ترك فينا لقاؤنا بالمرأة المسكينة التي أفقدها الألم رشدَها، حزناً كبيراً.

ثمّ دلّونا على عنوان العمّ غاسبار. كان يقطن غير بعيد عن المنجم في طريقٍ متعرّجة تنحدر بقسوة من الهضبة إلى النّهر.

عندما سألتُ عنه، أجابتني امرأة مستندة إلى الباب كانت تتحدّث وإحدى جاراتها المستندة بدورها إلى بابٍ آخر، وقالت لي إنّه لن يعود قبل السّادسة بعد انتهاء العمل، ثمّ سألتني:





ماذا تريد منه؟

أريد رؤية أليكسي.

فجعلتْ تنظر إليّ من رأسي حتّى أخمص قدميّ، ثمّ إلى كابي.

- أأنتَ ريمي؟ لقد أخبرَنا أليكسي عنك. لقد كان في انتظارك. ومن هذا؟ قالت مشيرةً إلى ماتيا.

- إنّه رفيقي.

كانت هي عمّة أليكسي. خلتُ أنّها ستدعونا للدّخول والاستراحة لأنّ سيقاننا المغبرّة ووجوهنا الملوَّحة بالشّمس كانت تعبّر عن تعبنا كلّه. ولكنّها لم تفعل، بل كرّرت ببساطة أنّني إن عدتُ في السّادسة وجدت أليكسي، فهو في تلك اللحظة كان في المنجم.

لم تؤاتني الشّجاعة لأطلب ما لم يُقدَّم لي، فشكرتُها على جوابها وذهبنا إلى المدينة نبحثُ عن خبّاز لأنّنا كنّا نتضوّر جوعاً، فنحنُ لم نأكل شيئاً منذ الصّباح. كان فطورنا عبارة عن كسْرة خبزٍ بسيطة بقيت من عشائنا. ثمّ إنّني كنتُ خَجِلاً من ذلك الاستقبال البارد، إذ شعرتُ بأنّ ماتيا يتساءل عن بواعثه. فمن أجل ماذا اجتزنا كلّ تلك المسافة؟

بدا لي أنّ ماتيا سيكوّن لنفسه فكرة سيّئة عن أصدقائي، وأنّه لن يستمع إليّ بالتّعاطف نفسه عندما سأحدّثه عن ليز. وأنا كنتُ شديد الحرص على أن يشعر مسبقاً بالتّعاطف والمودّة تجاه ليز.

لم تشجّعني الطّريقة التي استُقبلنا بها على العودة إلى المنزل، لذا ذهبنا قبل السّادسة بقليل ننتظر ماتيا عند مدخل المنجم.

يتمّ استثمار مناجم تروييّر عبرَ ثلاث آبار هي بئر سان-جوليان وبئر

سانت-ألفونسين وبئر سان-بانكراس. فمن جاري العادة في مناطق الفحم الحجريّ أن تُطلق في أغلب الأحيان على آبار الاستخراج والتّهوية وضخّ المياه أسماء قدّيسين. ويجري اختيار القدّيس بحسب اليوم الذي تُباشَر فيه أعمال الحفر، ولا يخدم هذا الإجراء في تسمية الآبار فحسبُ بل كذلك في التّذكير بتأريخ بدء العمل بها. هذه الآبار الثّلاث غير مخصّصة لإنزال العمّال وإصعادهم. فهذه العمليّة يُقام بها عبرَ دهليز يبدأ إلى جانب غرفة المصابيح[1] وينتهي عند الطّبقة الأولى من البقعة المُستثمَرة، إذ هو يتّصل بكافّة أجزاء المنجم. والهدف من ذلك تفادي الحوادث التي غالباً ما تقع في الآبار عندما ينقطع أحد الأسلاك أو يغلق برميل ضخم بعقبةٍ ما ويُلقي بالرّجال في حفرةٍ عمقها مائتا متر أو ثلاثمائة متر. كما يهدف ذلك في الآن عينه إلى تلافي الانتقال المباغت الذي يتعرّض له العمّال، عندما ترفعهم الآلة فجأةً من عمق مائتي متر حيث الحرارة ثابتة وحارّة، إلى حرارةٍ متقلّبة، ما يعرّضهم للإصابة بالالتهابات الرّئويّة.

بعدما دلّونا على الدّهليز الذي يُفترض أن يخرج منه العمّال، وقفنا أنا وماتيا أمام فتحته، وبعد بضع دقائق من حلول السّاعة السّادسة بدأتُ ألمح نقاطاً ضوئيّة صغيرة تتمايل في أعماق الدّهليز القاتمة، نقاطاً راحت تكبر شيئاً فشيئاً. كان أولاء هم عمّال المنجم يصعدون إلى الهواء الطّلق حاملين مصابيحهم وقد أنهَوا عملهم.

كانوا يتقدّمون ببطء، مشيتهم ثقيلة كما لو كانت رُكَبُهم تؤلمهم، وهو استنتاج توصّلتُ إليه لاحقاً عندما اجتزتُ بنفسي الأدراج

(1) مكان تصليح المصابيح وحفظها في المناجم (المترجمة).

والسّلالم التي تقود إلى الطّبقة العليا من المنجم. كانت وجوههم سوداء مثل وجوه منظّفي المداخن، وثيابهم وقبّعاتهم مغطّاة بغبار الفحم وببقع الطّين الرّطب. وبمرورهم أمام غرفة المصابيح كان كلّ منهم يدخل ويعلّق مصباحه إلى مسمار.

بالرّغم من تركيزي الشّديد، لم أرَ أليكسي يخرج، ولولا أنّه ارتمى عليّ معانقاً إيّاي لمرّ من دون أن أعرف أنّه هو. كان قد اسودَّ من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه، فما عاد ليشبه ذلك الرّفيق الذي كان يركض في الماضي في مسالك حديقتنا وقد ثنى حتّى المرفقين كُمَّي قميصه النّظيف، فيما ياقته المفتوحة تكشف عن بشرته البيضاء.

- هذا ريمي، قال وهو يستدير صوب رجل أربعينيّ يمشي إلى جانبه وله وجه طيّب بشوش كوجه آكان الأب. ولم يكن ذلك مفاجئاً، لكونهما شقيقين.

ففهمتُ أنّه العمّ غاسبار.

- كنّا ننتظرك منذ مدّة طويلة، قال لي بطيبة.

- الطّريق طويلة من باريس إلى فارْس.

- وساقاك قصيرتان، قال لي ضاحكاً.

كان كابي من جهته سعيداً بالتقاء أليكسي من جديدٍ وراح يعبّر عن ذلك بجرّه من كمّ سترته بملء أسنانه.

في تلك الأثناء، شرحتُ للعمّ غاسبار أنّ ماتيا رفيقي وشريكي، وأنّه صبيّ طيّب عرفتُه في الماضي والتقيتُه مجدّداً وأنّه بارعٌ في العزف على آلة الشِّياع.

- وهذا هو السيّد كابي، قال العمّ غاسبار. غداً يوم أحد، وعندما

تكونون نفضتم عنكم وعثاء السّفر ستقدّمون لنا عرْضاً فنيّاً. يقول أليكسي إنّ هذا الكلب أكثر عِلماً من معلّم مدرسة أو من ممثّل.

بقدر ما كنتُ مُحرَجاً أمام العمّة غاسبار، بقدر ما شعرتُ بالرّاحة مع العمّ: كان بالفعل جديراً بأن يكون شقيق «الأب».

– تحدّثا سويّة يا ولديَّ، لا بدّ أنّ لديكما الكثير لتقولانه أحدكما للآخر. أمّا أنا فسأتسامر مع هذا الشّابّ الذي يعزف على البوق ببراعة.

أسبوعٌ بكامله ما كان ليكفي لنروي أحدنا للآخر كلّ شيء. فقد كان أليكسي يريد أن يعرف كيف كانت رحلتي، وأنا من جهتي كنتُ تائقاً لأعرف كيف يتأقلم وحياتَه الجديدة. وكان كلّ منّا مشغولاً بطرح الأسئلة على الآخر بحيث لم يكن واحدنا يفكّر في الإجابة.

كنّا نمشي بهدوء، وكان العمّال العائدون إلى منازلهم يتجاوزوننا. كانوا يسيرون في صفّ طويل يحتلّ مسافة الطّريق بكاملها، وقد سوّدهم الغبار نفسه الذي كان يغطّي الأرض بطبقةٍ سميكة.

لمّا كنّا على وشك الوصول، اقترب العمّ غاسبار منّا قائلاً:

– أيّها الشّابّان، ستتعشّيان معنا.

لم تسعدني دعوة بقدر تلك. فقد كنتُ أفكّر أثناء السّير ما إذا كان علينا الافتراق عند وصولنا إلى الباب، لا سيّما أنّ استقبال العمّة لنا لم يكن مشجّعاً.

– أقدّم لكِ ريمي وصديقه، قال العمّ وهو يدخل المنزل.

– لقد سبق أن رأيتُهما باكراً هذا اليوم.

– حسناً، نِعْمَ الأمر، لقد تمّ التّعارف إذن. سيتعشّيان معنا.

كنتُ بالتّأكيد سعيداً للتعشّي وأليكسي، أي لقضاء الأمسية في صحبته. ولكن لأكون صادقاً ينبغي القول إنّ مبعث سعادتي هو أنّني كنتُ أخيراً سأتناول عشاءً. فمنذ خروجنا من باريس كنّا نأكل على هوى الصّدف، كسرة خبزٍ هنا ورغيفاً هناك، ولكنْ نادراً ما تناولنا عشاءً حقيقيّاً، جالسَين على كرسيّ وأمامنا صحنٌ من الحساء. صحيح أنّ ما كنّا نجنيه من مالٍ كان يسمح لنا بالإنفاق على موائد عامرة في أنزالٍ مرموقة، ولكن كان يجب الادّخار من أجل بقرة الأمير. وماتيا كان صبيّاً شديد الطّيبة لدرجة أنّه كان سعيداً بقدري تقريباً لفكرة شرائنا بقرة.

بيد أنّ الوليمة لم تكن من نصيبنا ذلك المساء. صحيحٌ أنّني جلستُ إلى طاولة على كرسيّ لكنْ لم يُقدَّم لنا حساء. فشركات استثمار المناجم أقامت مخازن تموين يجد فيها العمّال كلّ ما يلزمهم من البضائع بسعر الكلفة. كانت حسنات هذا النّوع من المخازن واضحة، إذ يجد العامل فيها سلعاً جيّدة النّوعيّة بسعر زهيد، يُقتطع ثمنها من راتبه نصف الشهريّ. هكذا يتفادى الشّراءَ بالدّين لدى صغار الباعة الذين سيوهنون إمكاناته. ولكنْ، على غرار كلّ الأمور الحسنة، كان لهذا سلبيّاته. ففي فارْس، لم يكن من عادة زوجات العمّال الاشتغال عندما يكون أزواجهنّ في المنجم. كنّ يقمن بالتّرتيب والتّنظيف، ويزرن بعضهنّ بعضاً، ويشربن القهوة أو الشّوكولا المشتراة من مخزن التّموين، ويثرثرن. وعندما يحلّ المساء، أي عندما يرجع الزّوج من المنجم ليتعشّى، لا يكون بقيَ لهنّ وقت لتحضير العشاء، فيسارعن إلى المخزن ويُحضرن من هناك لحوماً مجفّفة أو مدخّنة. بالتأكيد ليست

الحال هكذا دوماً ولكن هذا يحصل بشكل متواتر. ولهذا السّبب لم نحصل ذلك المساء على حساء: فالعمّة غاسبار أمضت يومها بالثّرثرة. على كلّ حال، كانت هذه عادة لديها وسأرى لاحقاً أنّ حسابها في المخزن يتشكّل من منتجَين أساسيّين: القهوة والشّوكولا من جهة، واللّحوم المجفّفة من جهة أخرى. وقد كان العمّ رجلاً سلِس الطّباع، يحبّ راحة البال خصوصاً. فكان يأكل اللّحوم التي تُقدَّم له من دون تذمُّر، وإذا ما وجّه ملاحظة، فإنّه يفعل ذلك بكلّ هدوء.

- لئن لم أصِر بعدُ محبّاً للشرب فلأنّني رجلٌ فاضل، كان يقول لها وهو يمدّ كأسه لتُملأ. حاولي أن تحضّري لنا حساءً غداً.

- والوقت؟

- ماذا بشأنه؟ هل هو أقصر فوق الأرض منه تحتَها؟

- ومَن يا ترى سيرتق لك ثيابك؟ فأنت تخرّب كلّ ما ترتديه.

فيجيب وهو ينظر إلى ثيابه الملوّثة بالفحم والممزّقة في أماكن عديدة:

- الواقع أنّنا أنيقون كالأُمراء.

لم يدم عشاؤنا طويلاً:

- يا بنيّ، ستنام مع أليكسي، قال لي العمّ غاسبار.

ثمّ قال مخاطباً ماتيا:

- وأنت ستأتي إلى غرفة إعداد الخبز حيث سنهيّئ لك سريراً مريحاً من القشّ والتّبن.

أمضينا أنا وأليكسي الأمسية وجزءاً كبيراً من اللّيلة مستيقظين. كان العمّ غاسبار «نقّاراً»، أي أنّه كان يدكّ، بواسطة نقّارةٍ، قطَع

الفحم في المنجم. أمّا أليكسي فكان نقّالاً، أي أنّه كان يدفع أو يجرّ، على سككٍ حديديّة داخل المنجم، عربةً أو قفصاً معدنيّاً يُكدَّس فيه الفحم المُستخرج ليُنقل من نقطة الاستخراج إلى البئر. وعندما يصل القفص إلى البئر، يُعلّق بسلكٍ تسحبه آلة وترفعه إلى الأعلى.

رغم أنّه لم تمضِ مدّة طويلة على بدئه العمل في المنجم، إلاّ أنّ أليكسي كان قد امتلأ بحبّ المنجم الذي يعمل هو فيه وبالفخر إزاءه: كان ذلك المنجم في نظره هو الأجمل والأكثر إثارة للاهتمام بين كلّ مناجم البلاد. وكان أليكسي يمنح روايتَه الأهمّيّة التي يمنحها لروايته مسافرٌ وصل من بلادٍ مجهولة ووجد آذاناً صاغية تستمع إليه.

في البداية نتبع دهليزاً محفوراً في الصّخر، وبعد أن نمشي حوالى عشر دقائق، نجد درجاً مستقيماً وسريع الانحدار. وعند أسفل ذلك الدّرج سلّمٌ خشبيّ يليه آخر، فآخر سواه، قبل أن نصل إلى الطّبقة الأولى من المنجم القائمة على عمق خمسين متراً. وللوصول إلى الطّبقة الثّانية، القائمة على عمق تسعين متراً، وإلى الطّبقة الثّالثة، على عمق مائتي متر، نجد منظومة الأدراج والسّلالم نفسها. كان أليكسي يعمل في الطّبقة الثّالثة، ولبلوغ ذلك العمق من الورشة، كان عليه أن يعبر من السّلالم ما يوازي ثلاثة أضعاف الأدراج الموصلة إلى أعلى أبراج كاتدرائيّة نوتردام في باريس.

ولكن إذا كان يمكن الصّعود إلى أبراج نوتردام والنّزول منها بسهولة نظراً لانتظام السّلالم وإنارتها، فليست الحال كذلك في المنجم حيث تكون الدّرجات المحفورة حسبما تسمح به بنية الصّخر عالية تارّة ومنخفضة طوراً، عريضة حيناً وضيّقة حيناً آخر. ولا ضوء إلاّ

ذلك المنبعث من المصباح الذي يحمله العامل في يده، أمّا على الأرض فينتشر طينٌ زلقٌ تبلّله باستمرارٍ المياه التي ترْشح قطرةً قطرةً وتسقط باردةً على وجه العامل أحياناً.

مسافة المائتي متر التي يجب أن تُقطع نزولاً طويلة، ولكنّها ليست كلّ شيء. إذ كان يجب اجتياز الدهاليز والأروقة للوصول إلى طبقات المنجم المختلفة وبلوغ موقع العمل. إلاّ أنّ منجم ترويتِر كان يضمّ ما يتراوح بين خمسةٍ وثلاثين كيلومتراً من الدّهاليز وأربعين. بالطّبع لم يكن على العامل أن يجتازها كلّها، إلاّ أنّ السّير فيها كان مرهِقاً أحياناً، لأنّ المرء يمشي في الماء الذي يتسرّب من شقوق الصّخر ليتجمّع في مجرىً في وسط الطّريق وينساب على هذه الشّاكلة حتّى تتلقّاه مجارير أو آلات تفريغ تتلقّفه لتعيد سكبه في الخارج.

عندما تكون تلك الدّهاليز محفورة في الصّخر الأصمّ، تكون ببساطة أنفاقاً صخريّة. ولكن عندما تجتاز تربة مقوّضة أو متحرّكة تكون في السّقف ومن الجهتين ملبّسةً بالخشب بواسطة جذوعِ أرزٍ عولجت بالفأس، لأنّ استخدام المنشار يُحدث عفَناً شديداً في الأماكن المحزوزة من الخشب. ومع أنّ جذوع الأشجار تلك موضوعة بشكلٍ يمكّنها من مقاومة اندفاع التّربة، إلاّ أنّ هذا الاندفاع يكون أحياناً شديد القوّة بحيث تتقوّس الأخشاب، فيضيق عندئذٍ الدّهليز أو ينخسف إلى درجة يستحيل معها المرور إلاّ زحفاً. وعلى تلك الأخشاب كانت تنمو فطريّات ونُدَفٌ خفيفة وقطنيّة يبرز بياضُها الثّلجيّ فوق سواد التّربة. إلى ذلك، كانت تنبعث من اختمار الأخشاب رائحةُ وُقود، وفوق الفطريّات والنّبات الغريب والرّغوة

البيضاء كان يُرى ذباب وعناكب وفراشات لا تشبه أبناء الفصيلة نفسها الموجودة في الخارج. كما كان هناك جرذانٌ تركض في كلّ مكان ووطاويط تتشبّث بأقدامها بالدّعامات الخشبيّة فيما تتدلّى رؤوسها إلى الأسفل.

كانت تلك الدّهاليز يتقاطع بعضها مع بعضٍ، ومثلما في باريس كان هناك ساحات ومفترقات طُرُق منها الجميل والواسع الذي يشبه الجادّات، ومنها الضّيّق والمنخفض الذي يشبه شوارع حيّ سان-مارسيل. إلاّ أنّ كلّ تلك المدينة القائمة تحت الأرض كانت تتمتّع بإضاءة أقلّ من تلك التي تتمتّع بها المدن العاديّة خلال اللّيل. ذلك أنّه لم يكن فيها مصابيح أو مَضارمُ غاز، بل فقط القناديل التي يحملها العمّال معهم. إلاّ أنّ غياب النّور شبه الدّائم كان يعوّض عنه الضّجيج ليؤكّد أنّنا لسنا في بلاد الأموات. ففي وِرَش التّعدين كان يُسمَع انفجار البارود الذي كان التيّار الهوائيّ ينشر رائحته ودخانه. وفي الدّهاليز تُسمع رجرجة العربات على سكك الحديد. أمّا في الآبار، فيتعالى وقْع احتكاك أقفاص الاستخراج بأجهزة التّوجيه. وإلى هذا كلّه، يُضاف هدير الآلة البخاريّة الموجودة في الطّبقة الثّانية من المنجم.

إلاّ أنّ المشهد الشّديد الغرابة كان يمكن رؤيته في «مسالك الصّعود»، أي في الدّهاليز المشقوقة في منحدرات عِرْق المعدِن. هناك يمكن رؤية «النّقّارين» يعملون نصف عُراة على دكّ الفحم، متمدّدين على جنباتهم أو جاثين على ركبهم. ومن تلك «المسالك» كان الفحم الحجريّ ينزل إلى طبقات المنجم الأخرى حيث تجري دحرجته حتّى

آبار الاستخراج.

كانت تلك هي حال المنجم خلال أيّام العمل العاديّة، ولكن كان ثمّة أيّامٌ تقع فيها حوادث. لقد شهدَ أليكسي بعد أسبوعين من وصوله إلى فارس إحدى هذه الحوادث وكاد يكون إحدى ضحاياها. كان ذلك حادث انفجار كميّات من «الغريز»، و«الغريز» غاز ينشأ بشكلٍ طبيعيّ في الأراضي التي تحوي فحماً حجريّاً وينفجر فورَ احتكاكه باللّهب.

ليس هناك ما هو أشدّ هولاً من هذا الانفجار الذي يطيح بكلّ ما في طريقه. ولا يمكن مقارنته إلاّ بانفجار مخزن بارود مليء بالمادّة المتفجّرة. فما إن يحتكّ عود ثقاب أو شعلة قنديل بهذا الغاز حتّى يلمع اللّهب في الدّهاليز كلّها ويدمّر كلّ ما في المنجم، ويصل حتّى إلى آبار الاستخراج أو التّهوية فينزع تسقيفاتها. كما تبلغ الحرارة أحياناً درجات شديدة الارتفاع تحوّل فحمَ المنجم الخام إلى فحمٍ حجريّ صالح للتدفئة.

هكذا كان الانفجار الغازيّ قد تسبّب قبل وصولنا بستّة أسابيع بمقتل حوالى عشرة عمّال. وعلى أثر الانفجار أصيبت أرملةُ أحدِ أولئك العمّال بالجنون. ففهمتُ أنّها المرأة التي التقيتُها وابنَها عندما وصلتُ وكانت تبحث عن «جادّة غاضرة».

لذا كانت تُتّخذ كلّ الاحتياطات الممكنة لتفادي مثْل هذه الانفجارات. فقد كان التّدخين ممنوعاً، وغالباً ما كان المهندسون خلال جولاتهم التّفقّديّة يطلبون من العمّال أن ينفخوا في وجوههم لمعرفة ما إذا كان أحد منهم قد خالف إجراء المنع هذا. ومن أجل

تلافي هذه الحوادث الرّهيبة أيضاً كانت تُستخدم مصابيح «دايفي» Davy التي تحمل اسم مخترعها الإنجليزيّ. هذه المصابيح الغازيّة مُحاطة بشبكةٍ معدنيّة من قماشٍ دقيقٍ يحول زرَده دون خروج اللّهب، بحيث يكون المصباح المحمول في أجواء متفجّرة مشتعلاً بشكلٍ آمنٍ، إذ يحترق الغاز في داخله دون أن ينفذ اللّهب إلى الخارج.

كلّ ما رواه لي أليكسي أثار فضولي الكبير أصلاً منذ وصولي إلى فارْس، وضاعفَ من رغبتي في النّزول إلى المنجم. ولكن عندما فاتحتُ العمّ غاسبار في اليوم التّالي بالموضوع، أجابني بأنّ ذلك مستحيل لأنّه لا يُسمَح بالدّخول إلى المنجم إلاّ للعاملين فيه. ثمّ أضاف ضاحكاً:

- من السّهل أن تُصبح عاملَ مناجم إن أردتَ، وآنئذٍ يمكنك تحقيق رغبتك. إلى ذلك، فهذه المهنة ليست أسوأ من سواها، وإن كنتَ تخاف المطر والرّعد فإنّها هي المهنة التي تلائمك. في كلّ الأحوال إنّها أفضل من مهنة الغناء على جادّات الطّرق. وهكذا ستبقى مع أليكسي. ما رأيك يا بنيّ؟ سوف نجد كذلك عملاً لماتيا، غير العزف على البوق بالطّبع!

لم آتِ إلى فارْس لأبقى فيها، ولم يكن هدفي إمضاء النّهار في دفع عربةٍ في المستويين الثّاني والثّالث من المنجم.

لذا توجّب العدول عن إشباع فضولي ذاك، وخلْتُ أنّني سأرحل من دون معرفة المزيد عن المنجم باستثناء ما رواه لي أليكسي أو ما أفلحتُ في انتزاعه من العمّ غاسبار. إلاّ أنّه بسبب ظروفٍ أملتْها الصّدف تمكّنتُ من معرفة المخاطر التي يتعرّض لها العمّال بكل هولها وبأن أحسّ بها برُعبها كلّه.

نقّال

لم تكن مهنة عامل المناجم مضرّة بالصّحة. فباستثناء بعض الأمراض العائدة إلى الحرمان من الضّوء والهواء، وهو ما يتسبّب بفقر الدّم، يتمتّع عامل المناجم بصحّة جيّدة مثله مثل الفلاّح الذي يعيش في قريةٍ ذات مناخٍ صحّي. لا بل إنّه يمتاز عن هذا الأخير بكونه في منأىً عن تقلّبات المناخ وعن المطر والبرد أو الحرارة العالية.

إلاّ أنّ الخطر الكبير الذي يتهدّده هو خطر الانهيارات والانفجارات والفيضانات، فضلاً عن الحوادث التي قد تنتج عن عمله نفسه، عن عدم احتراسه أو عن رعونته.

عشيّة اليوم المحدّد لرحيلي، عاد أليكسي وذراعه اليُمنى مصابة برضّة شديدة سبّبتها قطعة فحم ضخمة وقعت عليها لسوء حظّه بقلّة انتباه منه. فانسحق نصف إصبعه ولم تسلم من الكدمة يده بكاملها.

جاء طبيب الشّركة ليعوده ويضمّد ذراعه. لم تكن حالته خطيرة، فيده ستُشفى وإصبعه كذلك ولكن كان يجب أن يستريح.

من طباع العمّ غاسبار أنّه كان يتقبّل الحياة كيفما أتت، من دون غمٍّ ولا غضب. إلاّ أنّ أمراً واحداً كان يمكنه إخراجه عن أريحيّته المعتادة ألا وهو عرقلة عمله.

فعندما سمع أنّ أليكسي كان مضطرّاً للتّوقّف عن العمل أيّاماً

معدودة، راح يصرخ متسائلاً عمّن سيدفع عربته خلال فترة استراحته؟ فهو لم يكن لديه أحد ليحلّ محلّ أليكسي. فلو تعلّق الأمر بإيجاد بديلٍ دائم له لأمكنه العثور عليه، ولكن كان يستحيل إيجاد بديل لأيّام معدودة. فقد كان ثمّة نقص في العمّال، والصّغار منهم تحديداً.

لذا خرج يفتّش عن عامل نقّال[1]، ولكنّه عاد خائباً.

فبدأ بالشّكوى مجدّداً، وكان حزيناً حقّاً إذ كان يرى نفسه محكوماً عليه بالتّوقّف عن العمل هو الآخر، ولا بدّ أنّ أوضاعه الماديّة لم تكن تسمح بذلك.

لمّا رأيتُ ذلك وفهمتُ أسباب حزنه، ولمّا شعرتُ بأنّ من قبيل الواجب في مثل تلك الظّروف ردّ الضّيافة التي حظينا بها، سألتُه إن كانت مهنة النقّال صعبة.

– ولا أسهل! كلّ ما يقتضيه الأمر هو دفعُ عربةٍ على سكّة حديد.

– وهل هي ثقيلة هذه العربة؟

– ليس كثيراً، بما أنّ أليكسي كان قادراً على دفعها.

– هذا صحيح! في هذه الحال، إن كان أليكسي قادراً على دفعها فهذا يعني أنّ بوسعي دفعها أنا أيضاً.

– أنت يا بنيّ؟

وانفجر بالضّحك، لكنّه ما لبث أن استعاد جدّيّته وقال:

– أنت قادرٌ على ذلك طبعاً إن شئت.

– وأنا أريد ذلك، إن كان هذا يعود عليك بالمنفعة.

---

(1) أي عامل ينقل الفحم في عربته الصغيرة (المترجمة).

- أنت صبيّ طيّب. اتّفقنا، غداً تنزلُ معي إلى المنجم. صحيحٌ أنّ الأمر سيفيدني ولكنّه يمكن أن يعود عليك بالمنفعة أنت أيضاً. فهذه المهنة، إن أنتَ أحببتَها، قد تكون أفضل لك من التّجوال في الطّرق. فلا ذئاب نخشى وجودها في المنجم.

لكن ما سيفعل ماتيا خلال وجودي في المنجم؟ فأنا لا يمكنني أن أتركه عالةً على العمّ غاسبار.

فسألتُه إن كان يرغب في تقديم عروضٍ فنيّة في الأنحاء وحيداً إلاّ من رفقة كابي، فقبل على الفور وقال ضاحكاً:

- سأكون سعيداً جدّاً بأن أجني لك المال بمفردي لكي تشتري البقرة.

منذ ثلاثة شهور، أي منذ أن صرنا مجتمعَين وأصبح ماتيا يعيش في الهواء الطّلق، لم يعد يشبه الولد المسكين الضّعيف البنية والحزين الذي وجدتُه مستنداً إلى جدار كنيسة سان-مينار وهو يتضوّر جوعاً، كما لم يعد يشبه إطلاقاً الولد المتروك الذي رأيتُه للمرّة الأولى في تسقيفة غاروفولي يحضّر الحساء ويضع من حينٍ لآخر رأسه المتألّم بين يديه.

فرأسه لم يعد يؤلمه، ولم يعد كئيباً ولا حتّى ضعيف البنية. كانت تسقيفة شارع لورسين هي السّبب في حزنه، ولمّا منحه الهواء الطّلق والشّمس صحّة جيّدة، منحاه معها المرح.

وخلال رحلتنا كان ماتيا هو الضحك والبهجة، يرى الجانب الطيّب من كلّ شيء ويسلّيه كلّ شيء وتُفرحه أبسط الأمور، فيقلب السّيئ إلى حسَن. ماذا كان سيحصل لي من دونه؟ كم من مرّة كان التّعب والشّجن سيُنهكانني لولاه؟

كان هذا الاختلاف بيننا عائداً على الأرجح إلى مزاجَينا وطبعَينا المختلفين، وكذلك إلى أصولنا والمنشأ الذي يتحدّر منه كلّ منّا.

فهوَ كان إيطاليّاً، وكان يعرب عن عدم اكتراثٍ وعن لطفٍ وطواعيةٍ في معالجة المشاكل بلا تكدّر أو حنق، وتلك خصلة لا يتوفّر عليها أناس بلادي الذين هم أكثر استعداداً للعراك والمقاومة.

إلاّ أنّكم ستسألونني بلا ريب: «ولكن من أيّ بلاد أنت؟ وهل لك بلاد؟»

ستأتيكم الإجابة فيما بعد. أمّا الآن، فجلّ ما رغبتُ في قوله هو أنّني وماتيا لم نكن متشابهين إطلاقاً ولذا كنّا على وفاق تامّ. وذلك حتّى عندما كنتُ أجعله ينكبّ على تعلّم القراءة والنّوطات الموسيقيّة. صحيحٌ أنّ درس الموسيقى سار دوماً بشاكلة يسيرة، ولكن لم يحصل الشّيء ذاته مع القراءة وكان يمكن أن تحدث بيننا مشاكل لأنّني لم يكن لي صبر المعلّمين وحِلمهم. ومع ذلك لم ينشأ بيننا أيّ خلاف، وحتّى في اللّحظات التي كنتُ فيها ظالماً إزاء ماتيا، مثلما حدث غير مرّة، لم يحدث أن غضب هو منّي.

وعليه، فقد اتّفقنا على أن أنزل أنا في اليوم التّالي إلى المنجم، في حين يذهب هو لتقديم عروضٍ موسيقيّة ومسرحيّة تسهم في زيادة ثروتنا. وشرحتُ لكابي الاتّفاق وبدا أنّه فهمَه.

في صباح اليوم التّالي أعطوني ملابس العمل الخاصّة بأليكسي.

وبعدما أوصيتُ ماتيا وكابي مرّة أخيرة بأن يكونا عاقلَين في رحلتهما، تبعتُ العمّ غاسبار الذي قال لي وهو يسلّمني المصباح:

- كنْ حذراً وامشِ ورائي. وفي نزولك السّلالم، لا تغادرْ أبداً

درجةً قبل أن تكون قدمك قد استقرّت على تلك التي تليها.

ثمّ غصنا في الدّهليز. كان هو يمشي في المقدّمة وأنا أتبعه، وأضاف يقول:

- إذا زلقتَ على السّلالم، فلا تستسلمْ بل تمسّكْ بقوّة، فالقاع بعيدة وقاسية.

لم أكن بحاجة إلى تلك التّوصيات لتُثار مشاعري. فمغادرة الضّوء والدّخول في العتمة، والانتقال من سطح الأرض إلى أعماقها لا يحدثان من دون شيء من القلق. فالتفتُّ تلقائيّاً إلى الخلف ولكنّنا كنّا تقدّمنا في الدّهليز بحيث لم يعد ضوء النّهار في طرف ذلك الأنبوب الطّويل إلاّ قُرصاً أبيض كالقمر في سماء قاتمة لا نجوم فيها. فخجلتُ من حركتي الآليّة تلك، التي لم تدم إلاّ هنيهة، واستعدتُ المسير بسرعة.

وسرعان ما قال العمّ:

- هوَ ذا الدّرج!

كنّا أمام ثقبٍ أسود، وفي عمقه الذي عجزتْ عيناي عن اختراقه كنتُ أرى أضواء تتأرجح قويّةً عند المدخل، وكلّما ابتعدت يخفّ وهجها لتصير في النّهاية نقاطاً ضئيلة. كانت هي مصابيح العمّال الذين سبقونا إلى المنجم. وكان وقع محادثاتهم يصلنا كوشوشة مكتومة يحملها الهواء الدّافئ الذي كان يلفح وجهينا. هواءٌ محمَّلٌ برائحةٍ كنتُ أشمّها للمرّة الأولى وهي عبارة عن مزيج من الأثير والوقود.

بعد الدّرج كان هناك سلالم، وبعد السّلالم درجٌ آخر.

قال العمّ:

- ها نحن في الطّبقة الأولى من المنجم.

كنّا في دهليزٍ مقوّس السّقف مستقيم الجدران. وكانت هذه الأخيرة مشيّدة تشييداً. أمّا القبّة فكانت أكثر ارتفاعاً بقليل من قامة رجل. إلاّ أنّه في بعض المواضع كان يلزم الانحناء للتّمكّن من المرور، إمّا لأنّ القبّة كانت قد انخسفت أو لأنّ الأرض كانت قد ارتفعت.

قال لي العمّ:

– هذا عائدٌ للضّغط الذي تُحدثه الأرض. فالجبل حُفِر من جميع الجهات وأُحدثت فيه فراغات، ما يجعل الأرض تندفع إلى الأسفل، وعندما تكون شديدة الثّقل فإنّها تسحق الدّهاليز سحْقاً.

على الأرض كانت تمتدّ قضبان سكك الحديد وعلى جانبَي الدّهليز تجري ساقية صغيرة.

– تلتقي هذه السّاقية بسواها من السّواقي المشابهة التي تتلقّى المياه المتسرّبة قبل أن تصبّ كلّها في جارور واسع. ما يعني أنّ على الآلة أن ترمي يوميّاً في نهر ديفونّ نحو ألف متر مكعّب أو ألف ومائتي متر مكعّب من المياه. وإذا توقّفت فسرعان ما يغرق المنجم. ونحن الآن تحديداً تحت نهر ديفونّ.

صدرت عنّي حركة غير إراديّة، فانفجر العمّ بالضّحك وقال:

– نحن على عمق خمسين متراً ولا خطر في أن يقع النّهر على رأسك.

– ولكن ماذا لو حدثت فجوة؟

– آه، فجوة، أجل! فالدّهاليز تتشابك وتتقاطع عشر مرّات تحت النّهر. وفي بعض المناجم يُخشى بالفعل من حدوث فيضانات ولكن ليس هنا. هنا يكفينا الغريز والانهيارات والانفجارات المنجميّة.

عندما وصلنا إلى موقع عملنا، شرح لي العمّ غاسبار ما كان عليّ فعله، وعندما امتلأت عربتنا بالفحم، ساعدَني في جرّها ليعلّمني كيف أقودها إلى البئر وكيف أوقفها جانباً عند خطوط المرآب عندما ألتقي بنقّالين آخرين يتقدّمون صوبي.

كان مُصيباً فعلاً عندما قال إنّها ليست بالمهنة الشاقّة. فلئن لم أغدُ شديد البراعة في بضع ساعات فقد بتّ على الأقلّ أجيد العمل بشكلٍ وافٍ. كان ينقصني المهارة والاعتياد الضّروريّان للنّجاح في أيّ مهنة. لذا كنتُ مُرغَماً على الاستعاضة عنهما بالمزيد من الجهد، فكانت النّتيجة قليلاً من العمل المفيد وكثيراً من التّعب.

لكنّني كنتُ لحسن الحظّ معتاداً على التّعب بفضل نمط عيشي منذ عدّة سنوات ولا سيّما رحلتي الأخيرة التي استمرّت ثلاثة شهور. لذا لم أشكُ، فقال العمّ غاسبار إنّني صبيّ طيّب ويمكنني أن أصير ذات يوم عاملَ مناجمَ بارعاً.

ولكن إن كانت تحدوني رغبة كبيرة في النّزول إلى المنجم فأنا لم أكن راغباً في البقاء فيه على الإطلاق. ما كان يدفعني هو الفضول وليس الميل الطّبيعيّ لهذه المهنة.

فمن أجل العيش هكذا تحت الأرض، كان يلزم التّحلّي بميزات محدّدة لم أكن أملكها. يجب أوّلاً أن يحبّ المرء الصّمت والانعزال والوحدة. كما أنّ عليه أن يبقى ساعاتٍ وأيّاماً منصرف الذهن إلى عمله، لا يبادل الكلام أحداً أو يتسلّى وإيّاه. وهذا ما لم أكن معتاداً عليه البتّة، أنا الذي خبرتُ حياة التّرحال حيث الغناء والمشي الدّائمان. لذا كنتُ أجد السّاعات التي أمضيها بدفع عربتي في الدّهاليز القاتمة

حزينةً وكئيبة. فلا ضوء إلاّ ذلك المنبعث من مصباحي، ولا صوت إلاّ صوت صرير العربات البعيد وخرير المياه في السّواقي، فيما تُسمع هنا وهناك انفجارات منجميّة تزيد صمت الأموات ذاك ثقلاً وجنائزيّة.

وبما أنّ النّزول إلى المنجم والخروج منه يستلزمان وقتاً وجهداً طائلين، فقد كان العمّال يمكثون داخله طيلة اثنتي عشرة ساعة كلّ نهار، لا يصعدون لتناول الغداء في منازلهم بل يأكلون في ورشاتهم الجوفيّة.

بجوار ورشة العمّ غاسبار، كان هناك نقّال لم يكن ولداً مثلي ومثل بقيّة النقّالين، بل كان شيخاً ذا لحيةٍ بيضاء. وعندما أقول لحية بيضاء فإنّني أعني أنّ لحيته تكون كذلك يوم الأحد، يوم الاغتسال الكبير، أمّا خلال الأسبوع فكانت تبدأ يوم الاثنين بالاكتساء بمسحة رماديّة قبل أن تصير سوداء بالكامل يوم السّبت. كان الشّيخ في حوالى السّتّين من العمر. كان فيما مضى، أي في شبابه، مُخَشِّباً أي نجّار هياكل مهمّته تركيب الأخشاب التي تتألّف منها الدّهاليز وصيانتها. ولكن في أحد الانهيارات انسحقت ثلاثة من أصابعه، ممّا أرغمه على العدول عن مهنته تلك. فمنحته الشّركة التي كان يعمل لديها تعويضاً بسيطاً لأنّه تعرّض للحادث وهو ينقذ ثلاثة من رفاقه. عاش بضع سنوات من ذلك التعويض قبل أن تُفلس الشّركة ويبقى هو بلا دخلٍ مادّيّ أو عمل، فبدأ الاشتغال في منجم تروييّار كعاملٍ نقّال. كانوا يسمّونه «المعلّم»، كما في المدرسة، لأنّه كان يعرف أشياء كثيرة يجهلها النّقّارون وحتّى رؤساء الورَش، ويتحدّث عنها بطيبة خاطر، فخوراً بمقدار عِلْمه.

تعارَفنا أنا وهو في ساعات الطّعام وسرعان ما صرنا صديقين. كان في جعبتي الكثير من الأسئلة وكان هو يحبّ الكلام فلم نعد نفترق. فأطلقوا علينا في المنجم، حيث الكلام قليلٌ في العادة، لقب الثّرثارَين.

لم تكن روايات أليكسي قد أطلعتني على كلّ ما أرغب في معرفته، كما أنّ إجابات العمّ غاسبار لم تشفِ بدورها غليلي، فلمّا كنتُ أسأله:

- ما هو الفحم الحجريّ؟

كان جوابه دائماً:

- إنّه فحمٌ يُستخرج من الحجارة.

إجابته هذه حول الفحم الحجريّ فضلاً عن إجابات أخرى مشابهة لم تكن تروي ظمأي للمعرفة، أنا الذي علّمني فيتاليس ألاّ أكتفي باليسير. وعندما طرحت السّؤال نفسه على المعلّم جاء جوابه مغايراً:

- ليس الفحم الحجريّ إلاّ فحماً خشبيّاً. ولكن بدل أن نضع في مواقدنا أشجاراً نبتت في زمننا وحوّلها رجالٌ مثلي ومثلك إلى فحم، فإنّنا نضع فيها أشجاراً نبتت في غابات سحيقة القدم تحوّلت إلى فحم بقوّة عوامل طبيعيّة كالحرائق والبراكين والهزّات الأرضيّة.

وإزاء نظراتي المندهشة كان يضيف:

- لا وقت اليوم لنتحدّث في كلّ هذا. فالآن يجب أن ندفع عربتَينا ولكن غداً الأحد تعالَ لزيارتي وسأشرح لك كلّ ذلك في المنزل. فهناك لديّ قطع من الفحم والصّخر جمعتُها طوال ثلاثين عاماً ستجعلك تدرك بعينيك ما ستسمعه بأذنيك. النّاس هنا ينادونني

«المعلّم» على سبيل الدّعابة، ولكن سترى أنّ المعلّم ينفع في شيء ما. فحياة الإنسان ليست بكاملها بين يديه بل هي في عقله أيضاً. فأنا كان لي فضولك نفسه عندما كنتُ في مثل سنّك. كنتُ أعيش في المنجم وكنتُ راغباً في فهم ما أراه كلّ يوم. لذا تجاذبتُ والمهندسين أطرافَ الحديث عندما كانوا على استعداد للإجابة، كما أنّني قرأت كتباً. وبعد الحادث استغللتُ الوقت الذي كان متاحاً لي للتّعلّم: فعندما نملك عينين للنّظر وعندما نضع نظّارتين لنقرأ ما في الكتب ينتهي بنا الأمر إلى تعلّم أمور شتّى. اليوم لم يعد لديّ الكثير من الوقت للقراءة ولا المال الكافي لشراء الكتب ولكنّني لا زلتُ أملك عينين أبقيهما مفتوحتين دوماً. تعالَ غداً وسأكون سعيداً بأن أعلّمك كيف تنظر حولك. فلا ندري ما يمكن أن يثمر عنه الكلام عندما يقع في أذنٍ خصبة. فأنا قد اكتسبتُ الرّغبة في التعلّم عندما قدتُ ذات يوم عالِماً كبيراً يُدعى برونيار في مناجم منطقة بيسّيج وسمعته يتكلّم أثناء أبحاثه. لذا أعرف اليوم أكثر ممّا يعرف زملاؤنا في المهنة. إلى الغد.

في اليوم التّالي أبلغتُ العمّ غاسبار أنّني ذاهبٌ لزيارة المعلّم. فقال لي ضاحكاً:

- ها ها! لقد وجد المعلّم من يتحدّث إليه. اذهب يا بنيّ إن كنتَ راغباً في ذلك. ففي التحصيل الأخير ستصدّق ما تشاء، ولكن إذا تعلّمتَ منه شيئاً فلا تزهونّ بنفسك. فلو لم يكن المعلّم معتدّاً بنفسه لكان رجلاً طيّباً.

خلافاً لمعظم عمّال المناجم، لم يكن المعلّم يقيم داخل المدينة بل على مسافةٍ قصيرة منها، في مكانٍ حزينٍ وبائسٍ توجد في أنحائه حفرٌ

عديدة أحدثتها الطّبيعة في سفح الجبل. كان يعيش عند امرأة عجوز هي أرملة عامل مناجم قُتل في أحد الانهيارات. كانت تؤجّره ما يشبه القبو وضع فيه سريره في مكان بعيد عن الرّطوبة. ولكن هذا لا يعني أنّه كان في مأمن منها، إذ نبتت على قوائم السّرير الخشبيّة فطريّات. ولكنّ هذا لم يكن مسألةً ذات بال بالنّسبة لعامل مناجم اعتاد على العيش في الرّطوبة وتلقّي قطرات المياه على جسمه طيلة النّهار. فما كان يهمّه من استئجار ذلك المسكن هو قربه من مَغاور الجبل حيث كان يُجري أبحاثه، ولا سيّما إمكان أنْ يرتّب على هواه مجموعته المؤلّفة من قطع الفحم الحجريّ والصّخور المحفورة والمتحجّرات.

عندما دخلتُ، لاقاني مستقبِلاً وهتف بصوت فرِح:

– طلبتُ على شرفكَ وجبة كستناء. فإذا كان للفتْيان آذان وعيون فإنّ لهم حلاقمَ أيضاً. ولنَيل ودّهم، لا أفضل من إشباعها كلّها في الأوان ذاته.

«وجبة الكستناء» مأدبة من الكستناء المشويّة المنقوعة في شرابٍ أبيض، وهي تُعَدّ وجبة مرموقة في منطقة سيفينّ. ثمّ تابع المعلّم:

– بعد الكستناء نتحدّث وأريك مجموعتي.

لفظَ كلمة «مجموعتي» بنبرةٍ تبرّر ملامة رفاقه له، فلا أمين متحف وضع يوماً في هذه الكلمة ذلك القدر من الزّهو. وكانت مجموعته تبدو فعلاً شديدة الغنى، على الأقلّ بحسب تقديري، وكانت تشغل المسكن بكامله: القطع الصّغيرة منها موضّبة على رفوف وطاولات، أمّا الكبيرة فموضوعة أرضاً. طيلة عشرين سنة، جمع كلّ الغرائب التي عثر عليها أثناء عمله. ولأنّ مناجم حوضَي نهرَي «سير»

و«ديفونّ» غنيّة بالنّباتات المتحجّرة، فقد كان يملك من هذه الأخيرة نماذج نادرة كانت ستسعد علماء الطّبيعة أو الجيولوجيا.

كان توق المعلّم للكلام يوازي توقي للاستماع إليه. لذا أجهزنا على وجبة الكستناء بسرعة وقال لي:

- بما أنّك أردتَ أن تعرف ما هو الفحم الحجريّ، فسأشرح لك ذلك بصورة تقريبيّة وبالقليل من الكلمات لتتمكّن من تأمّل مجموعتي وهي ستتكفّل بأن تشرحه لك بأفضل منّي. فرغم أنّهم يسمّونني المعلّم إلاّ أنّني لستُ عالِماً للأسف! لا بل ما أبعدني عن ذلك! الأرض التي نعيش فوقها لم تكن دوماً ما هي عليه الآن. فقد مرّت بعدّة حالات تسبّب بها ما يُعرف بدوران الكرة الأرضيّة. ففي عصور قديمة كانت بلادنا تغطّيها نباتات لا تنمو عادةً إلاّ في البلاد الحارّة، على غرار أشجار السّرخس. ثمّ حصل دوران استُبدلت على أثره هذه النّباتات بأخرى مختلفة، قبل أن تأتي غيرها لتحلّ محلّ هذه الأخيرة وهكذا دواليك طوال آلاف السّنين، لا بل ربّما ملايين السّنين. وهذا التراكم للنّباتات والأشجار التي تحلّلت وتراكبت شكّل طبقات الفحم الحجريّ. لا تشكَّ في ما أقوله لك، فسأريك بعد قليل بعض قطع الفحم الحجريّ من مجموعتي ولا سيّما كميّة كبيرة من قطع الصّخور أُخِذت من جدران المناجم وسقوفها، وهي تحمل جميعاً آثار هذه النّباتات التي حُفظت عليها كما تُحفظ النّباتات بين صفحات مَعْشَبة[1]. يتشكّل إذن الفحم الحجريّ، كما كنتُ أقول لك، من تراكم نباتات وأشجار، أي أنّه ليس إلاّ خشباً متحلّلاً

(1) المُعشبة هي كتاب تُحفظ النّباتات بين أوراقه لتُجفّف (المترجمة).

مضغوطاً. ستسألني بلا ريبٍ كيف صار هذا التّراكم. وهذا شرْحه أكثر صعوبة، وأعتقد أنّه حتّى العلماء لم يتوصّلوا بعد لشرحه بشكلٍ وافٍ لأنّهم غير متّفقين بصدده. فمنهم من يعتقد أنّ كلّ هذه النّباتات التي جرفتها المياه شكّلت طوّافات ضخمة على مياه البحار تقاذفتها التّيارات وألقت بها هنا وهناك. وهناك من يقول إنّ طبقات الفحم الحجريّ تشكّلت ببطءٍ بفعلِ تراكم النّباتات التي راحت تتوالى ودُفنت في المكان نفسه الذي نبتت فيه. وفي هذا الشّأن قام العلماء بحسابات مدوّخة. فوجدوا أنّ هكتاراً من حطب الغابات إذا ما قُطع ومُدّ على الأرض لا يُعطي أكثر من طبقة واحدة لا تكاد سماكتها تتعدّى ثمانية ميليمترات. وإذا ما حُوِّلت إلى فحم حجريّ فلا تُعطي أكثر من طبقة بسماكة ميليمترين. والحال أنّ ثمّة تحت الأرض طبقات من الفحم الحجريّ يتراوح سُمكها بين عشرين متراً وثلاثين. فكم من الأزمنة لزمت لكي تتشكّل هذه الطّبقات؟ أنت تعلم بلا شكّ أنّ الغابة لا تنبت في يوم واحد، بل يلزمها نحو مائة سنة لتنمو وتتوسّع. ما يعني أنّه من أجل تشكيل طبقة من الفحم الحجريّ من ثلاثين متراً يلزم تراكم خمسة آلاف غابة تنبت في المكان نفسه، أي خمسمائة ألف عام. وهذا رقم كبير، أليس كذلك؟ ومع ذلك فإنّه غير دقيق، لأنّ الأشجار لا تتعاقب بمثل هذا الانتظام، بل يلزمها أكثر من مائة سنة لتنمو وتموت، وعندما يحلّ نوعٌ محلّ آخر تلزم سلسلة من التحوّلات والتغيّرات الطّبيعيّة لكي تكون هذه الطّبقة من النّباتات المتحلّلة قادرة على أن تصير غذاءً لسواها من الأشجار. أترى إذن أنّ خمسمائة ألف سنة ليست بالشّيء الكثير وأنّه يلزم على الأرجح أكثر

من ذلك بكثير؟ كم؟ لا أعرف، وليس على رجلٍ مثلي أن يبحث عن الأمر. فكلّ ما أردتُه هو أن أعطيك فكرة عمّا هو الفحم الحجريّ لكي تتمكّن من معاينة مجموعتي. والآن، تعالَ لنراها.



دامت الزّيارة حتّى منتصف اللّيل. فقد كان المعلّم يتوقّف عند كلّ قطعة حجر وعند كلّ عيّنة نباتيّة ليعاود شرحه، إلى أن بدأتُ أفهم أخيراً بعض الفهم ما كان في البداية قد أدهشني أيّما إدهاش.

الفصل الرّابع

الفيضان

في صباح اليوم التّالي، التقينا المعلّم في المنجم. فسأله العمّ غاسبار:

- حسناً! أأنتَ راضٍ عن الصّغير يا معلّم؟

- طبعاً! فهو يمتلك أذنين مرهفتين وآمل أن تصير له بسرعةٍ عينان ثاقبتان.

- ولكن، في انتظار ذلك، لتكن له اليوم ذراعان قويّتان!

قال ذلك ثمّ عهد إليّ برُكنٍ أساعده فيه على دكّ قطعةٍ من الفحم الحجريّ كان قد بدأ بنقرها من الأسفل. فقد كان النّقّالون يساعدون النّقّارين.

وبعدما دفعتُ عربتي إلى بئر سانت-ألفونسين للمرّة الثّالثة، سمعتُ من جهة البئر صوتاً عظيماً، دويّاً هائلاً لم أسمع مثله منذ بدء عملي في المنجم. أهو انهيار شامل؟ أصختُ السّمع، فكان الصّخب مستمرّاً ودويّه يتردّد من كلّ جهة. ما كان يعني ذلك؟ في البداية أُصبتُ بالهلع وفكّرتُ في صعود السّلالم والهرب. ولكنّني كنتُ سبق أن تعرّضتُ للسّخرية أكثر من مرّة بسبب مخاوفي، فخجلتُ ولبثتُ في مكاني. ربّما كان ذلك انفجاراً منجمياً أو عربةً وقعت في البئر أو بكلّ بساطة ردمٌ ينزل في الأروقة.

فجأةً انزلق بين قدميّ رهط جرذان تتراكض كسريّةٍ من الخيّالة

تلوذ بالهرب. ثمّ بدا لي أنّني أسمعُ حفيفاً غريباً على الأرض وفي جدران الدّهليز يرافقه صوت ارتطام مياه. كان المكان الذي توقّفتُ فيه جافّاً تماماً، ولم يكن من تفسير لِصخب المياه ذاك.

فتناولتُ مصباحي وقرّبتُه من الأرض.

كانت تلك بالفعل مياهاً. مياه تتسرّب من جهة البئر وتصعد في الدّهليز. ما يعني أنّ الدّويّ العظيم كان سببه دفق من الماء يفيض في المنجم.

فتركتُ عربتي على سكّة الحديد وركضتُ صوب الورشة.

- يا عمّ غاسبار، المياه تجتاح المنجم!

- ها إنّك تتفوّه بالمزيد من الحماقات!

- لقد حدثت ثغرة تحت نهر ديفونّ، فلنهرب!

- دعني أعمل!

- أصغِ إذا لم تصدّقني!

كانت نبرتي شديدة التّأثّر فترك العمّ غاسبار منقاره معلّقاً وجعلَ يُصغي. كان الصّخب نفسه يستمرّ بشكلٍ أقوى وأكثر ترويعاً. لم يكن من مجال للخطأ، فقد كان ذلك فعلاً صوت تدفّق المياه. فصرخ بي:

- اركضْ بسرعة، فالمياه تجتاح المنجم.

وفيما كان يصرخ «المياه تجتاح المنجم» تناول مصباحه، لأنّ تلك هي دوماً الحركة الأولى التي يقوم بها عامل المناجم، وراح يتقدّم في الدّهليز.

لم أكدْ أتقدّم عشر خطوات حتّى لمحتُ المعلّم ينزل بدوره إلى الدّهليز ليفهم ما هو ذلك الصّوت الذي سمعه. فصرخ العمّ غاسبار:

- المياه تجتاح المنجم!

- لقد حدثت ثغرة تحت نهر ديفونّ، قلتُ.

- أأنتَ غبيّ؟ قال العمّ غاسبار.

- اهربْ! صرخ المعلّم.

كان منسوب المياه قد ارتفع بسرعة في الدّهليز وكان يصل حتّى رُكبنا، ممّا كان يعيق تقدّمنا.

راح المعلّم يركض معنا وكنّا ثلاثتنا نصرخ عندما نمرّ أمام الورشات:

- اهربوا! المياه تجتاح المنجم!

كان منسوب المياه يرتفع بسرعةٍ جنونيّة. ولحسن حظّنا لم نكن بعيدين جدّاً عن السّلالم وإلاّ لما تمكّنا من بلوغها البتّة. وصل المعلّم إليها قبلنا جميعاً ولكنّه توقّف قائلاً:

- اصعدا أنتما أوّلاً. فأنا الأكبر سنّاً وضميري مرتاح.

لم يكن ذلك وقتَ تبادل اللّياقات، فعبرَ العمّ غاسبار في البداية وتبعتُه أنا وصعد المعلّم خلفي، ثمّ تبعَه على مسافةٍ أبعدَ بعضُ العمّال الذين انضمّوا إلينا.

لا أحد اجتازَ يوماً الأربعين متراً الفاصلة بين الطّبقتين الثّانية والأولى بمثل تلك السّرعة. ولكن قبل أن نتمكّن من الوصول إلى الدّرجة الأخيرة وقع على رؤوسنا دفقٌ من المياه أطفأ قناديلنا. كان ذلك شلاّلاً.

- اصمدوا! صرخ العمّ غاسبار.

تشبّثنا أنا وهو والمعلّم بقوّة بالدّرجات لنقاوم السّقوط، ولكنّ

العمّال الذين كانوا يتبعوننا جرفتهم المياه. ولو كان تبقّى أمامنا أكثر من نحو عشر درجات لنصعدها لكنّا وقعنا مثلهم، لأنّ الشّلاّل سرعان ما تحوّل إلى سيل.

وصولُنا إلى الطّبقة الأولى لم يكن يعني أنّنا نجونا، فقد كان علينا أن نعبر خمسين متراً قبل الخروج. وكانت المياه قد وصلت إلى تلك الطّبقة أيضاً، ولم يكن لدينا ضوء فمصابيحنا كانت قد انطفأت.

فقال المعلّم بصوت هادئ نوعاً ما:

- لقد قُضيَ علينا. أتلُ صلاتك يا ريمي.

ولكن في اللّحظة نفسها ظهرت في الدّهليز سبعة مصابيح أو ثمانية تهرع صوبنا. كانت المياه تصل إلى رُكبِنا وكان يمكننا لمسها بأيدينا من دون الانحناء. لم تكن مياهاً ساكنة بل سيلٌ جارفٌ، إعصار يحمل كلّ ما في طريقه جاعلاً قطع الخشب تدوّم كما لو كانت ريشاً.

كان الرّجال القادمون صوبنا والذين لمحنا مصابيحهم يريدون اجتياز الدّهليز لبلوغ السّلالم والأدراج القريبة. ولكنّ مسعىً كهذا كان متعذّراً وسطَ ذلك السّيل العظيم، فكيف يمكن درؤه وما السّبيل لمقاومة اندفاعه واندفاع ما كان يجرفه من أخشاب؟

فصدرتْ عنهم العبارة نفسها التي صدرت عن المعلّم:

- لقد قُضيَ علينا!

كانوا قد وصلوا إلينا، فصرخ المعلّم الذي كان يبدو أنّه الوحيد بيننا الذي احتفظ بالقليل من رباطة الجأش:

- من هنا! ملاذُنا الوحيد هو الورَش القديمة.

كانت الورَش القديمة جزءاً من المنجم هُجر منذ وقتٍ طويلٍ ولم

يعد أحد يقصده. ولكنّ المعلّم كان غالباً ما يزوره أثناء بحثه عن كلّ ما هو غريب ونادر. فصرخ:

- عودوا أدراجكم وأعطوني مصباحاً لأقودكم.

عادةً كان المعلّم عندما يتكلّم يُقابل بالسّخرية أو اللّامبالاة، ولكنْ في تلك اللّحظة كان الأقوياء من العمّال قد فقدوا قوّتهم التي كانوا يفخرون بها أيّما فخر. وإزاء صوت الرّجل العجوز الذين كانوا يهزأون منه قبل قليلٍ امتثلوا جميعاً، وتلقائيّاً مُدّت إليه كلّ المصابيح.

فتناول بسرعة واحداً منها بيدٍ، وباليد الأخرى أمسك بي ومشى في مقدّمة المجموعة. كنّا نتقدّم والتّيّارَ في الاتّجاه ذاته، لذا كنّا نتقدّم بسرعة.

لم أكن أعرف إلى أين نحن ذاهبون ولكنّني كنتُ قد استعدتُ الأمل.

بعدما تقدّمنا في الدّهليز لبعض الوقت، ولا أدري إن دام ذلك دقائق أو ثواني، لأنّنا كنّا قد فقدنا كلّ إحساسٍ بالوقت، توقّف المعلّم وصرخ:

- لن نتمكّن من الوصول فالمياه تصعد بسرعة كبيرة.

كانت المياه تبلغنا بالفعل بسرعة، ومن ركبتيّ راحت تصعد إلى وركيّ قبل أن تصل إلى صدري. فقال المعلّم:

- يجب أن نلوذ بأحد مسالك الصّعود.

- وبعد ذلك؟

- المسلك لا يقود إلى أيّ مكان.

كان اللّجوء إلى مسلك الصّعود يعني بالفعل اتّخاذ طريق مسدودة.

ولكن لم يكن بوسعنا الانتظار والاختيار، فقد كان علينا إمّا اتّخاذ طريق المسلك لنكسب بعض الدّقائق على أمل النّجاة، أو الاستمرار بالتّقدّم في الدّهليز واثقين من أنّنا سنُبتلَع ونغرق بعد ثوانٍ.

فدلفنا إلى المسلك يتقدّمنا المعلّم. أراد اثنان من رفاقنا الاستمرار في الدّهليز، فكانت هي المرّة الأخيرة التي نراهما فيها.

استعدنا الإحساس بالحياة وسمعنا صخباً كان يصمّ آذاننا منذ لذنا بالفرار من دون أن نتمكّن من تحديده. كان في الواقع عبارة عن انهيارات وإعصارات وسيولِ مياه وتحطّم أخشاب وانفجار هواء مضغوط. كلّ هذا كان يُحدِث في المنجم صخباً عظيماً شعرنا إزاءه بالانهيار.

- إنّه الطّوفان.

- إنّها نهاية العالم.

- يا إلهي! رفقاً بنا!

منذ بلوغنا المسلك لم يكن المعلّم قد تفوّه بكلمة لأنّه كان يتسامى على الشّكاوى التي لا طائل منها، فقال:

- يا أبنائي، ينبغي ألاّ نُرهق أنفسنا. فبقائنا متشبّثين هكذا بأيدينا وأقدامنا لن يطول بنا الوقت حتّى يصيبنا التّعب. يجب أن نحفر في النّضيد[1] نقاط ارتكاز.

كانت النّصيحة في محلّها ولكنّها عسيرة على التّنفيذ، إذ لم يكن أحدٌ قد أحضر معه منقاراً. كنّا نحمل جميعاً مصابيح ولكنّ أيّاً منّا لم يكن يملك أدواتٍ للحفر. فتابع المعلّم بالقول:

---

(1) صخرٌ بركانيّ صفائحيّ (المترجمة).

- استخدموا خطاطيف المصابيح.

فشرع كلّ واحد بحفر الأرض بخُطّاف مصباحه. كانت العمليّة شاقّة، فالأرض شديدة الانحدار زَلِقة. ولكنْ كان الواحد منّا يُدرك أنّه إن انزلق فسيلقى حتفه، ممّا منحنا قوّة ومهارة. وفي أقلّ من بضع دقائق كنّا قد توصّلنا جميعنا إلى حفر ثغرات يمكننا تثبيت أقدامنا فيها.

بعد ذلك تنفّسنا الصّعداء قليلاً وعرفنا بعضنا بعضاً. كنّا سبعة: المعلّم وأنا إلى جانبه، والعمّ غاسبار، وثلاثة نقّارين يُدعون باجيس وكومبيرو وبرغونو، بالإضافة إلى نقّال يُدعى كاروري. أمّا العمّال الباقون فكانوا قد اختفوا في الدّهليز.

كان الصّخب في المنجم مستمرّاً بالعنف ذاته، ولا كلام يمكن أن يصف قوّة تلك الضّوضاء الرّهيبة. فدويّ المدافع مُضافاً إليه صوت الرّعد والانهيارات لم يكن ليُحدث شيئاً بمثل ذلك الهول.

كنّا مذعورين ومرعوبين من فرط الهلع، وكنّا ننظر بعضنا إلى بعضٍ يفتّش الواحد منّا في عيني جاره عن تفسير لما يحدث بعدما عجزَ ذهنه عن إيجاده.

- إنّه الطّوفان! كان يقول أحدهم.

- إنّها نهاية العالم!

- هي هزّة أرضيّة!

- بل هو جنّيّ المنجم قد غَضِبَ ويزمع الانتقام.

- إنّه فيضان المياه المتجمّعة في الورَش القديمة.

- ثغرة حدثت في نهر ديفونّ.

كانت الفرضيّة الأخيرة من عندي. فقد كنتُ مصرّاً على فكرة

الثّغرة.

لم يكن المعلّم قال شيئاً، وكان ينظر إلينا الواحد تلو الآخر وهو يهزّ كتفيه كما لو كان يعالج المسألة في وضح النّهار في فيء شجرة توت وهو يأكل بصلة.

وبعدما أدلى كلّ واحد بدلوه قال هو أخيراً:

- لا شكّ في أنّه فيضان.

فراح كلّ واحد منّا يكرّر ما كان قد قاله من قبل:

- سببه هزّة أرضيّة.

- أرسلَه لنا جنّيّ المنجم.

- مصدره الورَش القديمة.

- سقط علينا من ثغرةٍ في نهر ديفونّ.

فتابع المعلّم:

- إنّه فيضان.

فأردف أكثر من شخص بصوتٍ واحد:

- حسناً، ولكن ما الذي تسبّب به؟

- لستُ أدري. ولكن في ما يخصّ جنّيّ المنجم ما هذه إلاّ ترّهات. كما لا يمكن أن يأتي الفيضان من الورَش القديمة وإلاّ لغرقت الطبقة الثّالثة وحدها لا الثّانية والأولى كذلك. تعرفون جيّداً أنّ المياه لا تسير صعوداً بل هي دوماً تتّجه صوب الأسفل.

- ماذا بشأن الثّغرة؟

- لا تحدث الثّغرات هكذا بشكلٍ طبيعيّ.

- هزّة أرضيّة؟

- لا أعرف.

- إن كنتَ لا تعرف فلتلزمِ الصّمت.

- أعرف أنّه فيضان وهذا شيء مهمّ، فيضان قادمٌ من الأعلى.

- طبعاً! هذا واضح فالمياه قد تبعتنا.

وكما لو أننا شعرنا بنوعٍ من الأمان منذ أن صرنا في مأمن من المياه التي لم تعد تصلنا، ما عاد العمّال يُصغون إلى المعلّم.

- كفاك تفلسفاً، فأنت لا تعرف أكثر ممّا نعرف.

كان السّلطان الذي منحته إيّاه رباطة جأشه لحظة الخطر قد اختفى، فسكتَ ولم يصرّ.

ولكي تعلو أصواتنا على الضّوضاء، كنّا نتحدّث بصوتٍ مرتفعٍ ولكنّه كان مع ذلك يبقى مكتوماً.

- قلْ شيئاً، قال لي المعلّم.

- وماذا تريدني أن أقول؟

- أيّ شيء، ولكن تكلّم، قلْ أوّل ما يخطر في بالك.

فتلفّظتُ ببضع كلمات.

- جيّد! أكملِ الآن بصوتٍ منخفض. أجل هكذا. هذا جيّد!

- أتراكَ جُننتَ يا معلّم؟ سأل باجيس.

- هل أفقدكَ الخوف عقلك؟

- أتعتقد أنّك متّ؟

- أعتقد أنّ المياه لن تصل إلينا هنا وأنّنا إن مُتنا فعلى الأقلّ لن نموت غرقاً.

- ما الذي تعنيه يا معلّم؟

- انظرْ إلى مصباحك.

- إنّه يشتعل.

- كالعادة؟

- كلاّ، فالشّعلة أقوى ولكنّها أقصر.

- أثمّة غريزٌ[1] هنا؟

- كلاّ، أجاب المعلّم، ليس هناك ما نخشاه من هذه النّاحية أيضاً. فلا الغريز ولا المياه التي لن ترتفع أكثر يمكن أن يشكّلا خطراً علينا.

- لا تلعب دور السّاحر.

- أنا لا ألعب دور السّاحر: فنحنُ في ما يشبه الوعاء المملوء هواءً. والهواء المضغوط هو الذي يمنع المياه من الصّعود. فطرف المسلك مُغلق، ولذا فهو يشكّل لنا ما يشكّله جهاز الغوّاصين[2]. فالهواء الذي دفعته المياه تجمّع في هذا الدّهليز وهو الآن يقاوم المياه ويدفعها بدوره.

لمّا سمعنا المعلّم يشرح لنا أنّنا كنّا في ما يشبه جهاز غوّاصين، حيث المياه لا يمكنها أن تصعد إلينا لأنّ الهواء يقف أمامها عائقاً، ارتفعت همسات مُشكّكة.

- إنّها لحماقة! أليست المياه أقوى من كلّ شيء؟

- إنّها كذلك في الخارج، في الهواء الطّلق. ولكن عندما تضع كوباً مقلوباً في دلو ماء هل تصعد المياه إلى قعر الكوب؟ كلاّ، أليس كذلك؟ بل يبقى هناك فراغ. وهذا الفراغ سببه الهواء. والأمر نفسه

(1) الغريز: سبق تفسيره، غاز طبيعيّ ينفجر فورَ احتكاكه باللّهب (المترجمة).

(2) قبّة زجاجيّة كبيرة بشكل جرس كان الغوّاصون ينزلون بداخلها إلى أغوار البحار مفيدين من الهواء المنحبس فيها، وذلك قبل اختراع أجهزة الغوص الحديثة (المترجمة).

يحصل هنا. نحن في قعرِ كوبٍ مقلوبٍ والمياه لن تصل إلينا.

فقال العمّ غاسبار:

- أفهم هذا. وأحسب الآن أنّكم كنتم جميعاً مخطئين باستهزائكم الدّائم من المعلّم. فهو يعرف أموراً نجهلها.

- هذا يعني أنّنا نجَونا! قال كاروري.

- نجَونا؟ لم أقل هذا. ما أؤكّده لكم هو أنّنا لن نغرق. فما ينقذنا الآن هو أنّ المسلك مُغلق ولا يمكن أن ينفذ منه الهواء. ولكن هذا تحديداً ما يُنجينا وما يُهلكنا في الآن عينه. فالهواء محبوسٌ هنا ولا يمكنه الخروج. ولكن هذا يعني أيضاً أنّنا محبوسون بدورنا ولا يمكننا الخروج.

- ولكن عندما تنخفض المياه...

- وهل ستنخفض؟ لا أعرف. لمعرفة ذلك يتعيّن أن نفهم كيف وصلتْ إلى هنا، ومن يقدر أن يقول لنا ذلك؟

- ولكنّك تقول إنّه فيضان.

- أجل ولكن ماذا بعد؟ إنّه فيضان، هذا أكيد. ولكن من أين يأتي؟ هل فاض نهر ديفونّ وأغرق الآبار؟ هل هي عاصفة؟ أم نبعٌ انفجر؟ أم هزّة أرضيّة؟ يجدر أن نكون في الخارج لمعرفة ذلك ولكن لسوء حظّنا نحن في الدّاخل.

- ربّما غرقت المدينة.

- ربّما...

مرّت لحظةٌ من الصّمت والهلع.

كان صوت المياه قد توقّف وكانت تُسمع فقط، من حينٍ لآخر،

عبرَ الأرض، انفجارات مدوّية وكنّا نحسّ بها يشبه الارتجاج.

- لا بدّ أنّ المنجم قد امتلأ ولم تعد المياه تدخله، قال المعلّم.

- وماريوس؟! صرخ باجيس يائساً.

ماريوس هو ابنه. كان نقّاراً مثله يعمل في الطّبقة الثّالثة من المنجم. حتّى تلك اللّحظة كانت غريزة البقاء بكلّ قوّتها قد منعته من التّفكير في ابنه. ولكن عبارة المعلّم: «المنجم قد امتلأ» انتزعته من نفسه. فراح يصرخ بصوتٍ ينفطر له القلب:

- ماريوس! ماريوس! ماريوس!

حتّى الصّدى لم يُجِبْه. وصوتُه المدوّي لم يخرج من قعر الكوب الذي كنّا فيه.

- قد يكون وجدَ مسلكَ صعودٍ يلوذ به، قال المعلّم. فمن المُفجع غرقُ مائة وخمسين شخصاً. لن يرضى الله بذلك.

بدا لي أنّه لا يقول ذلك عن اقتناع. ففي الصّباح نزل مائة وخمسون رجلاً على الأقلّ إلى المنجم: فكمْ منهم تمكّن من الخروج مجدّداً عبر الآبار أو من إيجاد ملاذ مثلما فعلنا نحن؟ لا بدّ أنّ كلّ زملائنا قد قضوا نحبهم، غرقوا، ماتوا. لم يعد أحد يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة.

ولكن في وضعٍ مثل وضعنا، ليس التّعاطف والشّفقة هما ما يسيطران على القلوب أو يوجّهان الأفكار.

وبعد هنيهة من الصّمت، قال برغونو:

- حسناً! ماذا سنفعل الآن؟

- ماذا تريد أن تفعل؟

- ليس أمامنا إلاّ الانتظار، قال المعلّم.

- انتظار ماذا؟

- الانتظار فحسب. أتريد أن تحفر بخُطّاف مصباحك الأربعين متراً أو الخمسين التي تفصلنا عن الخارج؟

- ولكنّنا سنموت جوعاً!

- ليس هذا هو الخطر الأكبر.

- ولكن تكلّمْ يا معلّم، إنّك لَتخيفنا. أين يكمن الخطر، الخطر الأكبر؟

- الجوع يمكن مقاومته. فقد قرأتُ أنّ عمّالاً داهمتهم المياه مثلنا في أحد المناجم، مكثوا أربعاً وعشرين يوماً بلا طعام. حصل هذا منذ أمدٍ بعيدٍ، أثناء الحروب الدّينيّة. وحتّى لو أنّ ذلك حصل بالأمس لما تغيّر شيء. كلاّ، ليس الجوع هو ما يخيفني.

- وما الذي يُقلقك إذن طالما أنّك تقول إنّ المياه لا يمكنها أن تصعد إلى هنا؟

- أتشعرون بثقل في رؤوسكم وبهدير؟ أتتنفّسون بسهولة؟ أنا لا.

- أنا رأسي يؤلمني.

- وأنا قلبي يخفق بسرعة.

- وأنا صدغاي يؤلمانني.

- وأنا أشعر بالبلادة.

- حسناً! هنا تحديداً يكمن الخطر الآن. فكم من الوقت ستتمكّن من البقاء أحياء في هذا الهواء؟ لا أدري. لو كنتُ عالِماً لا جاهلاً لتمكّنتُ من قول ذلك لكم. ولكنّني لا أعرف الجواب. فنحن على عمق حوالى أربعين متراً تحت الأرض وثمّة فوقنا على الأرجح خمسة

وثلاثون أو أربعون متراً من المياه. هذا يعني أنّ الهواء يتعرّض لضغطٍ بقوّة أربع «جويّات»[1] أو خمس. كم من الوقت يمكننا العيش في هذا الهواء المضغوط؟ هذا ما يجب معرفته، وما سنعرفه ربّما على حسابنا.

لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا هو الهواء المضغوط، وربّما لهذا السّبب تحديداً أرعبتْني كلمات المعلّم. وبدا لي أنّ رفاقي قد تأثّروا بدورهم بهذه الكلمات بشدّة. فهم كانوا يجهلون بقدري كلّ هذه الأمور، لذا كان للمجهول تأثيره المُقلق عليّ وعليهم على السّواء.

أمّا المعلّم، فلم يفقد إدراكه للوضع الميؤوس منه الذي كنّا فيه. ومع أنّه كان يراه بفظاعته كلّها بأكثر وضوحاً بكثيرٍ ممّا كنّا نفعل، فإنّه لم يكن يفكّر إلاّ في التّدابير التي يجدر اتّخاذها للصّمود. فقال لنا:

– يجب الآن أن نجد طريقةً للبقاء هنا من دون المجازفة بالوقوع في الماء.

– ولكنّنا حفرنا حُفَراً.

– أوَتعتقدون أنّ البقاء في الوضعيّة ذاتها لن يرهقكم؟

– أتظنّ إذن أنّنا سنبقى هنا طويلاً؟

– وما أدراني!

– سيأتون لنجدتنا.

– هذا أكيد، ولكن لكي يأتوا لنجدتنا يجب أن يكونوا قادرين على ذلك. ثمّ كم من الوقت سيمرّ قبل أن يبدأوا بعمليّة الإنقاذ؟ وحدهم الموجودون في الخارج يمكنهم معرفة ذلك. أمّا نحن الموجودين هنا، فعلينا إيجاد طرقٍ تسمح لنا بالصّمود قدرَ الإمكان، لأنّه إن انزلق

(1) الجويّة أو «الأتموسفير» هي وحدة قياس الضّغط الجوّي (المترجمة).

أحدنا فهو هالكٌ لا محالة.

- يجب أن نوثق بعضنا إلى بعض.

- ومن أين نأتي بالحبال؟

- يجب أن نمسك بعضنا بأيدي بعضٍ.

- الأفضل برأيي أن نحفر مصطبة صغيرة شبيهة بصحنِ درج. نحن سبعة، ولذا نحتاج إلى مصطبتين تسعاننا كلّنا. فيقف أربعة منّا على الأولى وثلاثة على الثّانية.

- وبِمَ نحفرها؟

- نحفر بخطاطيف المصابيح غبار الفحم المتجمّع، وعندما تُواجهنا أجزاء صلبة نستخدم مُدْياتنا.

- لن ننجح في ذلك أبداً.

- لا تقل هذا يا باجيس. في وضعنا هذا يمكننا عمل أيّ شيء لننجو. لو أنّ واحداً منّا أصيب الآن بالنّعاس، ونحن في هذه الحال، فسيهلك بلا ريب.

بفضل هدوء المعلّم وتصميمه، بات له علينا سلطانٌ راح يعْظم شيئاً فشيئاً. وهنا تكمن عظمة الشّجاعة وجَمالها: في كونها تفرض نفسها فرضاً. فقد كنّا نشعر غريزيّاً بأنّ قوّة معنويّات المعلّم تقاوم المصيبة التي هدّت معنويّاتنا نحن الآخرين، ومن تلك القوّة كنّا ننتظر النّجدة.

فشرعنا بالعمل، إذ بات مفروغاً منه أنّ حفر المصطبتين هو أوّل ما يجب القيام به. كان يجب أن نجد لنا مكاناً، إن لم يكن مريحاً فعلى الأقلّ يمنعنا من السّقوط في الهاوية التي كانت تحت أقدامنا. كان

هناك أربعة مصابيح مشتعلة وتمنح ما يكفي من الضّوء ليقودنا في عملنا.

- فلنخترْ مواضع لا يكون حفرها شديد الصّعوبة، قال المعلّم.

- اسمعوا، قال العمّ غاسبار، عندي اقتراح. الحكيم الوحيد بيننا هو المعلّم، فلمّا فقدنا رشدنا حافظ هو على سلامة تفكيره. إنّه رجلٌ حقّاً، وهو إلى هذا رجلٌ طيّب. كان نقّاراً مثلنا، وفي العديد من القضايا هو أكثر علماً منّا بكثير. لذا أطلب أن يكون هو رئيس الورشة وأن يُشرف على العمل.

فقاطعه كاروري، وكان رجلاً فظّاً، واحدة من دوابّ الجَرّ لا تملك من النّباهة إلاّ ما يكفي لدفع عربة النّقل، قاطعه قائلاً:

- ولِمَ لا أكون أنا الرّئيس؟ إذا اتّخذتم نقّالاً رئيساً لكم فأنا نقّالٌ أيضاً.

- يا لك من بهيمة! ليس نقّالاً من نتّخذه رئيساً لنا بل هو رجلٌ حقيقيّ. إنّه الأكثر رجولةً بيننا كلّنا.

- لم يكن هذا رأيك بالأمس!

- بالأمس كنتُ أحمق بقدرك، وكالجميع كنتُ أسْخر من المعلّم لكي لا أقرّ بأنّه أكثر علماً منّا بكثير. أمّا اليوم فأطلب منه أن يقودنا. إذن يا معلّم، ماذا تريدني أن أفعل؟ أنت تعرف أنّ ذراعيّ قويّتان. وأنتم؟ ماذا قرّرتم؟

- سنفعل ما يطلبه المعلّم.

- الآن وفيما بعد.

- اسمعوا، قال المعلّم، يسرّني أن أكون رئيسكم إن كنتم تريدون

ذلك. ولكن بشرط أن تنفّذوا ما أطلبه. فنحن يمكن أن نبقى هنا طويلاً، ولعدّة أيّام. ولا أدري ما الذي سيحصل، فنحن سنكون هنا كمثلِ غرقى على طوفٍ، لا بل في وضعٍ أفظع من ذلك. فعلى الطوف يكون للغرقى الهواء والضّوء ليتنفّسوا ويروا. لذا إن صرتُ رئيسكم فيجب أن تطيعوني مهما حصل.

- سنطيعك، قالوا جميعهم.

- لا أشكّ في أنّكم ستطيعونني إن اقتنعتم بأنّ ما أقوله حكيم وعادل. ولكن ماذا لو لم تقتنعوا؟

- سنقتنع.

- نعرف جيّداً أنّك رجل نزيه يا معلّم.

- وشجاعٌ كذلك.

- وواسع العلم أيضاً.

- نرجو أن تنسى سخريتنا السّابقة يا معلّم.

لم يكن لي آنذاك الخبرة الكافية في الحياة التي اكتسبتُها فيما بعد. لذا كنتُ شديد الاندهاش لرؤية كيف أنّ أولاء الذين كانوا قبل ساعات قليلة لا يتعبون من السّخرية من المعلّم، كانوا في تلك اللحظة يعترفون بميزاته. فأنا لم أكن أعرف أنّ الظّروف يمكن أن تجعل آراء بعضهم ومشاعرهم تتبدّل.

- أتُقسمون بذلك؟ سأل المعلّم.

- نُقسم، أجابوا بصوتٍ واحد.

فبدأنا العمل. كنّا نملك كلّنا مديات في جيوبنا، مدياتٍ حادّة ولها مقابض صلبة.



فقال المعلّم:

- سيشرع الثّلاثة الأقوى بالحفر. أمّا الأضعف، أي ريمي وكاروري وباجيس وأنا فنزيلُ الرّكام.

فقاطعه كومبيرو، وكان رجلاً ضخم البنية، قائلاً:

- لا يا معلّم. أنت ينبغي ألاّ تعمل، فأنتَ لستَ قويّاً بما فيه الكفاية. أنت المهندس، والمهندسون لا يعملون بأيديهم.

وافق الجميع على رأي كومبيرو مُعتبرين أنّه طالما كان المعلّم هو المهندس فلا يجدر به العمل. كانوا يشعرون بضرورة وجوده لتوجيههم، وكانوا على استعداد لحمله على الرّاحات ليدرأوا عنه الأخطار والحوادث: كان هو قائدنا.

لو كنّا نملك الأدوات اللاّزمة لكان عمَلُنا بسيطاً جدّاً، ولكن لم يكن لدينا إلاّ المديات لذا كان طويلاً وشاقّاً. فقد كان علينا حفر مصطبتَين في غبار الفحم حتّى لا نبقى عرضةً للسّقوط. وكان على تينك المصطبتين أن تكونا واسعتين بما يكفي لتَسَع الأولى أربعة أشخاص والثّانية ثلاثة. لذا تقرّر القيام بهذا العمل.

لتهيئة كلّ مصطبة، كان رجلان يحفران الأرض وثالثٌ يُبعد كُتَلَ الفحم. فيما كان المعلّم يجيء ويذهب بين الورشتين حاملاً مصباحاً.

أثناء الحفر، عثرنا على بعض قطع الخشب المدفونة فاستخدمناها حواجز لمنع الرّكام من السّقوط إلى الأسفل.

بعد ثلاث ساعات من العمل المتواصل، توصّلنا إلى حفر مصطبة يمكننا الجلوس عليها. فأوعز لنا المعلّم بالتّوقّف قائلاً:

- هذا كافٍ الآن. سنوسّع المصطبة فيما بعد لكي نقدر أن ننام

عليها. فينبغي ألاّ نستهلك قوانا بلا طائل، لأنّنا سنحتاج إليها.

جلسنا أنا والمعلّم وغاسبار وكاروري على المصطبة السّفلى، فيما جلس النقّارون الثّلاثة على العليا.

قال المعلّم:

- ينبغي أن نوفّر مصابيحنا. فلنطفئها ولنترك واحداً فقط مشتعلاً.

كانت طلبات المعلّم تُنفَّذ فوراً. وكنّا على وشك إطفاء المصابيح عندما أومأ المعلّم بإشارةٍ من يده أن نتوقّف.

- انتظروا لحظة، يمكن لأيّ نسمةِ هواء أن تُطفئ المصباح الذي سيبقى مُشتعلاً. ورغم أنّ هذا مُستبعَد، إلاّ أنّه يجب توقّع المستحيل، فمن منكم يحمل عيدان ثقاب لإعادة إشعاله؟

رغم أنّ إشعال النّار في المنجم ممنوع منعاً باتّاً، إلاّ أنّ كلّ العمّال يحملون في جيوبهم عيدان ثقاب. وعند سماعهم عبارة «من منكم يحمل عيدان ثقاب؟»، أجاب أربعة منهم: «أنا»، فلم يكن هناك من مهندس ليلاحظ الإخلال بالقانون.

فتابع المعلّم:

- أنا أيضاً أحمل عيدان ثقاب ولكنّها قد تبلّلت كلّها.

وكانت الحال كذلك بالنّسبة للآخرين، فقد كانوا جميعهم يحملون عيدان الثّقاب في جيوب سراويلهم، وكنّا قد تبلّلنا بالمياه حتّى صدورنا أو أكتافنا.

إلاّ أنّ كاروري، وكان بليد الفهم بطيء الكلام، أجاب أخيراً:

- أنا أيضاً معي عيدان ثقاب.

- أهي مبلّلة؟

- لا أدري، فأنا أحتفظ بها في قلنسوتي.

- هاتِ قلنسوتكَ إذن.

ولكنّه بدلَ أن يعطينا القلنسوة، وكانت من صوفِ ثعلبِ الماء، كبيرةً بحجمِ عمامةٍ تركيّة كتلك التي نراها في الأسواق، ناولَنا علبة الكبريت التي كانت قد نجت من البلل بفضل المكان الذي كانت محفوظة فيه.

- والآن أطفئوا مصابيحكم، طلب منّا المعلّم.

ولم يبقَ مُشتعلاً إلاّ مصباح واحد لا يكاد يضيء ملجأنا.


Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

في مسلك الصّعود

كان الصّمت قد حلّ في المنجم وما عدنا نسمع أيّ صوت. تحت أقدامنا، كانت المياه ساكنة لا يصدر عنها حركة ولا ما يشبه الهمس. فقد كان المنجم قد امتلأ كما قال المعلّم، وبعدما اجتاحت المياه كلّ الدّهاليز من الأرض حتّى السّقف، أحكمتْ إغلاق سجننا علينا بما يفوق ما يمكن أن يفعله جدار صخريّ. وكان ذلك الصّمت الثّقيل الذي لا يمكن اختراقه، صمت الأموات ذاك، أكثر إثارة للرّعب والذّهول من الصّخب المُخيف الذي سمعناه عند حصول الفيضان. كنّا في قبر، مدفونين أحياء يُطبق على قلوبنا أربعون أو خمسون متراً من التّراب.

وبعدما شغَلَنا العمل وألهانا، جاء وقتُ الرّاحة ليجعلنا نُدرك الوضع الذي كنّا فيه، وللحظةٍ داهمَنا جميعاً، حتّى المعلّم، شعورٌ بالانهيار.

ثمّ فجأةً، شعرتُ بقطرات دافئة تسقط على يدي. كانت تلك دموع كاروري الذي كان يبكي بصمت.

وفي اللّحظة ذاتها صدر من المصطبة العليا صوتٌ راح يكرّر هامساً:

– ماريوس، ماريوس!

كان ذلك باجيس يفكّر في ابنه...

كان الهواء ثقيلاً يصعب تنفّسه. وكنتُ أحسّ بالاختناق وبطنين في أذنيّ.

أمّا المعلّم، فإمّا لكونه أقلّ انهياراً منّا أو لرغبته في مقاومة ذلك الانهيار ومنْعنا من الاستسلام له، فقد قطعَ الصّمت قائلاً:

– والآن يجب أن نفحص ما نملكه من مؤونة.

فقاطعه العمّ غاسبار:

– أنت تعتقد إذن أنّنا سنبقى محبوسين هنا طويلاً؟

– كلاّ، ولكنّ الاحتياط واجب. من منكم يحمل خبزاً؟

لم يُجب أحد، فقلتُ:

– أنا. معي قطعة خبزٍ في جيبي.

– أيّ جيب؟

– جيب سروالي.

– لا بدّ أنّها تحوّلت إلى عصيدة. ولكن أرِنيها مع ذلك.

فبحثتُ في جيبي عن قطعة الخبز الذّهبيّة الجميلة التي كنت وضعتها فيه هذا الصّباح. إلاّ أنّني لم أعثر إلاّ على ما يشبه الثّريد كنتُ على وشك رميه خائباً لو لم يمنعني المعلّم بإيماءةٍ من يده قائلاً:

– احتفظ بحسائك مهما كان سيّئاً. ففيما بعد ستجده لذيذاً.

لم يكن في ذلك الإنذار ما يُطمئن، ولكنّنا لم نُعره اهتماماً في حينه. فيما بعد سأستعيد هذه الكلمات التي ستُثبت لي أنّ المعلّم كان من تلك اللّحظة مدركاً تمام الإدراك الوضع الذي كنّا فيه، وأنّه إن لم يكن يخمّن بالتّفصيل المعاناة الرّهيبة التي سنعيشها، فإنّه على الأقلّ لم يكن

يتوهّم أنّ إنقاذنا سيكون سهلاً.

- لا أحد يملك خبزاً بعد؟ سأل المعلّم.

فلم يُجب أحد. فأكمل بالقول:

- هذا مؤسف.

- وهل أنت جائع؟

- لا أتحدّث عن نفسي. فلو وُجد شيء من الخُبز لكان لريمي وكاروري.

- ولِمَ لا نتقاسمه فيما بيننا جميعاً؟ سأل برغونو. هذا ليس عادلاً فالجميع سواسية أمام الجوع.

- لو وُجد خُبز لتخاصمنا حول هذا الموضوع. لقد عاهدتموني على الطّاعة، ولكن يتبدّى لي الآن أنّكم لن تُطيعوا إلاّ بعد جدال وإلاّ إذا ما اعتبرتموني محقّاً.

- لا بل سيطيعك المعترِض رغماً عنه!

- إنّ عراكاً قد يحصل. ولكن يجب ألاّ نتعارك، لذا سأشرح لكم لماذا كان الخبز سيكون لريمي وكاروري. لستُ أنا من وضع هذه القاعدة، بل القانون. القانون يقول إنّه إذا ما تعرّض أشخاص عديدون إلى حادثٍ وواجهوا خطر الموت، فالأكبر سنّاً ممّن لم يتعدّوا السّتّين بينهم يمكن أن ينجوا. ما يعني أنّ ريمي وكاروري هما بسبب حداثة سنّهما أقلّ مقاومةً لخطر الموت من باجيس وكومبيرو.

- ولكن يا معلّم، أنت فوق السّتّين.

- أوه! أنا لستُ مهمّاً. كما أنّني لستُ مُعتاداً على الإكثار من الأكل.

وبعد لحظاتٍ من التّفكير قال كاروري:

- هذا يعني أنّ الخبز كان سيكون من حقّي لو وُجد؟
- من حقّك أنت وريمي.
- وماذا لو رفضتُ تقاسمه؟
- لأرغمناكَ على ذلك. ألم تُقسم بأنّك ستُطيع؟
ظلّ كاروري صامتاً لبرهة، ثمّ أخرج من قلنسوته قطعةً من الخبز:
- هاكم قطعة خبز.
- يا لهذه القلنسوة التي لا تنضب محتوياتها!
- هاتِ القلنسوة، قال المعلّم.
حاول كاروري الامتناع، إلاّ أنّهم انتزعوا منه القلنسوة بالقوّة وأعطوها للمعلّم.
فطلب هذا الأخير المصباح وراح يفحص ما يوجد في ثنيات القلنسوة. وبالرغم من أنّ الوضع لم يكن مدعاةً للفرح إلاّ أنّنا شعرنا بالرّاحة للحظة.
كانت القلنسوة تحتوي على غليون وتنباك ومفتاح وشريحة مقانق ونواة درّاقٍ مثقوبة لتشكّل صفّارة، وعُظيمات خروف وثلاث جوزات خضراء وبصلة. كانت خزانة طعام ومستودع أثاث في آن معاً.
- ستتقاسم الخبز والمقانق مع ريمي هذا المساء.
- ولكنّني جائع، جائع الآن، قال كاروري شاكياً.
- ستكون أكثر جوعاً في المساء.
- للأسف أنّ هذا الفتى لا يملك ساعةً في مستودع الأثاث هذا! لكنّا عرفنا الوقت، فساعتي تعطّلت.

- وساعتي أيضاً، بسبب تعرّضها للماء.

الحديث عن السّاعة أعادنا إلى الواقع. كم كانت السّاعة يا ترى؟ كم من الوقت مضى على وجودنا في المسلك؟ رحنا نتشاور في المسألة ولكنّنا لم نتّفق. فبالنّسبة للبعض كان الوقت ظهراً، وللبعض الآخر كانت السّاعة السّادسة مساءً. أي أنّ بعضهم كانوا يظنّون أنّنا كنّا محبوسين هناك منذ أكثر من عشر ساعات، فيما كان يعتقد الآخرون أنّنا كنّا هناك منذ أقلّ من خمس ساعات. كانت تلك بداية الاختلاف في تقدير المواقف فيما بيننا. اختلاف تجدّد لاحقاً أكثر من مرّة وانتهى إلى فروقٍ مُعتبرة.

لم نكن في وضعٍ يسمح لنا بالمُحاورات غير المجدية. ولذا فعندما لم يعد لدينا ما نقوله بشأن الوقت، سكتنا جميعاً وبدا كلّ واحدٍ منّا غارقاً في أفكاره الشخصيّة.

لا أدري بمَاذا كان يفكّر رفاقي. ولكن إذا ما خمّنتُ الأمر نسبةً إلى ما كنتُ أفكر به أنا، لقلتُ إنّها لم تكن أفكاراً تدعو للبهجة.

فرغم روح العزيمة التي أبداها المعلّم، لم أكن أنا مطمئنّاً لمسألة إنقاذنا. كنتُ خائفاً من المياه، من الظّلام، من الموت. وكان الصّمت المحيط يُنهكني تماماً، فيما حيطان مسلك الصّعود الهشّة تسحقني كما لو كانت تُطبق بكلّ ثقلها على جسمي. أفلن أرى ليز وإتيانيت وأليكسي وبنجامين بعد اليوم؟ من الذي سيكون صلة الوصل فيما بينهم من بعدي؟ ألن أرى بعد اليوم آرثر والسّيّدة ميليغان وماتيا؟ أستعرف ليز يوماً أنّني متّ من أجلها؟ ثمّ ماذا عن السيّدة باربُران؟ السيّدة باربُران المسكينة! كانت أفكاري تتوالى الواحدة أكثر جنائزيّة

من الأخرى. وعندما كنتُ أنظر إلى رفاقي لأروّح عن نفسي وأراهم كلّهم منهارين مثلي ومُنهَكين، أعودُ إلى أفكاري وأنا أكثر حزناً وغمّاً. ولكن خلافاً لي، كانوا هم معتادين على الحياة في المنجم، لذا ما كانوا يُعانون من نقص الهواء والشّمس والحرّيّة. لم تكن الأرض تُطبق على صدورهم.

فجأةً، وفي وسط هذا الصّمت، ارتفع صوت العمّ غاسبار:

- برأيي هم لا يعملون على إنقاذنا.

- لِمَ تقول هذا؟

- لأنّنا لا نسمع شيئاً.

- لا بدّ أنّ ذلك كان زلزالاً وأنّ المدينة صارتْ أثراً بعدَ عَين.

- أو أنّهم يعتقدون أنّنا هلكنا جميعنا وأنّه لم يعد يمكن القيام بشيء من أجلنا.

- أوَ يعني هذا إذن أنّنا تُركنا لمصيرنا؟

- لِمَ تخطر لك هذه الأفكار بشأن رفاقك؟ قاطعه المعلّم. فليس من العدل اتّهامهم. أنت تعرف أنّه عندما يحصل حادث لا يتخلّى عمّال المناجم بعضهم عن بعض. وقد يعرّض عشرون رجلاً بل مائة رجلٍ حياتهم للخطر في سبيل إنقاذ رفيقٍ لهم. أنت تعرف ذلك، هل هذا صحيح؟

- هذا صحيح.

- فإذا كان الأمر كذلك، فلمَ تعتقد أنّهم سيتخلّون عنّا؟

- لأنّنا لا نسمع شيئاً.

- هذا صحيح. ولكن هل يمكننا أن نسمع من هنا؟ من يمكنه

معرفة ذلك؟ أنا شخصيّاً لا أعرف. ولنفترض أنّنا يمكننا أن نسمع، وأنّهم بالفعل لا يفعلون شيئاً من أجلنا، فهل هذا يعني بالضّرورة أنّهم تخلّوا عنّا؟ ألدينا فكرة عن الكيفيّة التي بها حدثت الكارثة؟ إذا كان ذلك زلزالاً، فلا بدّ أنّهم يسعون في المدينة لإنقاذ النّاجين. أمّا إذا كان فيضاناً كما أعتقد فيجب أن نعرف مدى الضّرر الذي أصاب الآبار. ربّما تكون قد انهارت. وكذلك دهليز غرفة المصابيح، قد يكون تهدّم بدوره. يلزم وقتٌ لتحضير عملية الإنقاذ. هذا لا يعني أنّني أقول إنّهم سينجحون حتّماً في إنقاذنا ولكنّني متأكّد من أنّهم يعملون على ذلك.

قال المعلّم ذلك بنبرةٍ فيها من الحماس ما يكفي لإقناع الأكثر تشكيكاً وخوفاً بيننا. إلاّ أنّ برغونو أجاب:

– ماذا لو اعتقدوا أنّنا متنا جميعاً؟

– هذا لن يمنعهم من العمل. وإذا كان الأمر يُخيفك، فلنُثبتْ لهم أنّنا ما زلنا على قيد الحياة. فلندقّ على الجدران بكلّ ما أوتينا من قوّة. فأنتم جميعاً تعلمون أنّ الصّوت ينتقل عبر الأرض، وإذا ما سمعونا فسيعرفون أنّ عليهم العمل بسرعة. كما أنّ الضّجيج الذي سنُحدثه سيساعدهم على العثور علينا.

وعلى الفور، راح برغونو، وكان ينتعل حذاءً ضخماً، يطْرق بقوّةٍ كما لو لاستدعاء العمّال. فما كان من قوّة الصّخب تلك ومن الأفكار التي أيقظتها فينا إلاّ أن أخرجتنا من حالة الخدر التي كانت ملمّة بنا. هل سيسمعنا الآخرون؟ هل سيستجيبون لندائنا؟

– طيّب يا معلّم، قال العمّ غاسبار، إذا سمعونا فما سيفعلون من

أجل إنقاذنا؟

– ثمّة طريقتان، وأنا واثقٌ من أنّ المهندسين سيلجأون إلى كلتيهما: حفر مسالكَ نزولٍ تأتي لتلتقي بمسلك الصّعود الذي نحن فيه، وإفراغ المياه التي تملأ المنجم.

– أوه! حفْر مسالك نزول!

– آه! إفراغ المياه!

لم يتأثّر المعلّم بهاتين المقاطعتين، فتابع:

– نحن على عمق أربعين متراً، أليس كذلك؟ فإذا ما حفروا ستّة أمتار أو ثمانية يومياً فهذا يعني أنّه سيلزمهم سبعة أيّام أو ثمانية للوصول إلينا.

– لا يمكن حفر ستّة أمتار في اليوم.

– في الأيّام العاديّة لا يمكن ذلك، ولكن يمكن عمل الكثير في سبيل إنقاذ زملاء.

– يستحيل أن نصمد ثمانية أيّام: فكّر يا معلّم، إنّها ثمانية أيّام!

– طيّب ماذا بشأن المياه؟ كيف يمكن إفراغها؟

– لا أعلم. فمن أجل ذلك يجب معرفة الكميّة التي دخلت المنجم. أهي مائتي متر مكعّب؟ أم ثلاثمائة متر مكعّب؟ ليست لديّ أدنى فكرة. ولكن للوصول إلينا، ليسوا مُضطرّين لإفراغ كلّ المياه التي ولجتِ المنجم، فنحن في الطّبقة الأولى. وبما أنّهم سيستخدمون عربتَي نقلٍ في سبيل إفراغ كلّ من الآبار الثّلاث، فهذا يعني أنّ ستّ عربات تسَع الواحدة منها 25 هكتوليتراً ستعمل على إفراغ المياه. ما يعني أنّه يمكن إخراج 150 هكتوليتر من المياه دفعةً واحدة. أي أنّ

العمليّة يمكن إنجازها بسرعة.

فنشأ جدال مضطرب حول أفضل الأساليب التي يمكن اعتمادها لإنقاذنا. ولكنّ ما استنتجتُه أنا من ذلك النّقاش هو أنّنا، في حال اجتماع أفضل الظّروف، سنبقى في هذا القبر ثمانية أيّام على الأقلّ.

ثمانية أيّام! كان المعلّم قد حدّثنا عن عمّال ظلّوا مُحاصَرين تحت الأرض أربعة وعشرين يوماً. ولكنّ هذه كانت حكاية، أمّا ما كنّا نعيشه فكان واقعاً. وعندما سيطرت عليّ هذه الفكرة، لم أعد أسمع شيئاً ممّا يُقال، ووحدها فكرة الأيّام الثّمانية كانت تشغل تفكيري!

لا أدري كم من الوقت كان قد مضى على انشغالي بهذه الفكرة، عندما توقّف النّقاش. فقال كاروري، وكان حسّه البهيميّ أكثر تطوّراً منّا جميعاً:

- ولكن اسمعوا!

- ماذا؟

- ثمّة صوت يصدر من الماء.

- لا بدّ أنّك أوقعتَ فيه حجراً.

- كلاّ، إنّه صوتٌ مكتوم.

فأصخنا السّمع. كان سمعي حادّاً ولكن فقط في ضجيج الحياة اليوميّة، لذا لم أسمع شيئاً. أمّا رفاقي المُعتادون على أصوات المنجم، فبدوا أكثر ابتهاجاً منّي:

- أجل، قال المعلّم، يحدث شيءٌ ما في المياه.

- ماذا يا معلّم؟

- لا أعلم.

- إنّه صوت المياه التي تسقط.

- كلاّ، فالضّجيج ليس متواصلاً، بل هو يحدث في ارتجاجات منتظمة.

- إذا كان يحدث في ارتجاجات منتظمة، فهذا يعني أنّنا نجونا أيّها الرفاق! فهذا صوت عربات النّقل التي تعمل على إفراغ الآبار.

- عربات الإفراغ...

ردّدنا جميعاً وبصوتٍ واحد هاتين الكلمتين. وكما لو أنّ صعقةً كهربائيّة مسّتنا، نهضنا جميعاً.

فجأةً لم نعد مُعتقَلين على عمق أربعين متراً تحت الأرض، ولم يعد الهواء مضغوطاً، ولم تعد جدران المسلك تُطبق على قلوبنا. توقّف الطّنين في آذاننا وكنّا نتنفّس بسهولة وقلوبنا تخفق في صدورنا.

أمسك كاروري بيدي وشدّ عليها بقوّة قائلاً:

- أنت صبيّ طيّب.

- لا بل أنت هو الطّيّب.

- لا بل أنت.

- ولكنّك أوّل مَن سمع صوت العربات.

بيد أنّه كان يصرّ بقوّة على كوني ولداً طيّباً. فقد كان يبدو ثمِلاً. في الواقع، كنّا ثمِلين بالأمل.

ولكن للأسف، فإنّ ذلك الأمل لن يتحقّق سريعاً، كما لن يتحقّق لنا كلّنا.

فقبل أن نرى الشّمس الدّافئة من جديد، وقبل أن نستمع إلى عصف الرّياح في الأغصان، كان علينا البقاء هنا لأيّام طويلة وقاسية،

نعاني شتّى أنواع الآلام ونتساءل بقلقٍ عمّا إذا كنّا سنرى من جديدٍ ذلك النّور، وعمّا إذا كان سيُعطى لنا سماع تلك الموسيقى العذبة أبداً.

ولكن لكي أتمكّن من أن أروي لكم بدقّةٍ الكارثةَ المهولةَ التي وقعت في مناجم ترويير، ينبغي أن أخبركم الآن كيف حصلت وما هي الوسائل التي لجأ إليها المهندسون لإنقاذنا.

عندما نزلنا إلى المنجم صباح الاثنين، كانت السّماء ملبّدة بغيوم رماديّة وكلّ شيء يُنذر بعاصفة. في حوالى السّابعة، هبّت العاصفة يرافقها طوفان مهول. فالغيوم التي كانت متكدّسة على علوّ منخفض وصلت إلى وادي نهر ديفونّ المتعرّج، وانحبست هناك بين الهضاب عاجزةً عن تخطّيها. فإذا بها تُفرغ في الوادي كلّ ما كانت خزّنته من أمطار. ولم يكن ذاك وابلاً من المطر بل شلّال، أو طوفان. وفي بضع دقائق ارتفع منسوب مياه نهر ديفونّ وكلّ روافده، وهذا أمر طبيعيّ نظراً لطبيعة الأرض الحجريّة التي لا تمتصّ المياه بل تتركها تتبع الأرض المنحدرة لتصل إلى النّهر. وسرعان ما بدأت مياه نهر ديفونّ تسيل في مجراها الوعر وتفيض عنه، كما فاض شلّالا سانت-أندريول وترويّير. وإذا بمياه مَسيلِ ترويّير لا تجد مكاناً لتصبّ فيه بعدما صدّها الفيضان في نهر ديفونّ، فراحت تتدفّق على الأراضي التي تحوي المناجم. حصل التّدفّق بشكلٍ يكاد يكون فوريّاً، إلاّ أنّ العمّال الموجودين خارج المنجم لغسل المعدن والذين أرغمتهم العاصفة على الاحتماء، لم يتعرّضوا للخطر. فتلك لم تكن المرّة الأولى التي يصل فيها فيضانٌ إلى ترويّير، ولأنّ فتحات الآبار الثّلاث موجودة على ارتفاع يحول دون وصول المياه إليها، فلم يكن يشغلهم إلاّ حماية أكوام

الخشب المُعَدّة لتلبيس دهاليز المنجم.

ذلك ما كان يعمل عليه مهندس المنجم، عندما شاهد فجأةً دوّامةً من المياه تسقط في هوّةٍ كانت للتوّ قد حَفَرتْها. هوّة كانت عند مستوى طبقة من الفحم.

على الفور، أدركَ المهندس ما حدث: كانت المياه قد تدفّقت إلى داخل المنجم ووجدت في طبقة الفحم لها سريراً. وبدأ مستواها ينخفض في الخارج، ما يعني أنّها كانت في طريقها لتملأ المنجم وتُغرق العمّال.

فهرع إلى بئر سان-جوليان وأمر بأن يُنزلوه إلى المنجم. ولكنّه ما إن وضع قدماً في عربة النّقل حتّى توقّف. فقد سُمع من داخل المنجم ضجيج مهول: كان ذلك صوت تدفّق المياه.

- لا تنزلْ، قال له الرّجال وقد أحاطوا به يريدون ردعه.

ولكنّه أفلتَ منهم وتناول ساعته من جيب صدريّته وأعطاها لأحد العمّال قائلاً:

- أعطِ هذه لابنتي إذا لم أعدْ.

ثمّ قال للمسؤولين عن تحريك عربات النّقل:

- أنزلوني.

وبدأت عربة النّقل بالنّزول. فرفع المهندس رأسه صوب الرّجل الذي عهد هو إليه بساعته وقال له:

- قلْ لها إنّ أباها يحبّها.

أُنزلتِ العربة. فصرخ المهندس منادياً العمّال. وصل خمسة منهم، فأصعدهم في العربة وفيما كانت ترفعهم كلّهم، راح هو يصرخ من

جديدٍ ولكن بلا طائل، فقد كان صوت المياه والانهيارات يطغى على صوته.

ولكن في الوقت الذي وصلت فيه المياه إلى الدّهاليز، لمح المهندس أضواء مصابيح. فركض باتّجاهها والمياه تغمره حتّى ركبتيه وأحضر ثلاثة عمّال إضافيّين. أُعيدَ إنزالُ العربة، فأصعدهم فيها وكان يتأهّب للعودة باتّجاه الأضواء التي كان يراها. إلاّ أنّ الرّجال الذين أنقذهم منعوه بالقوّة وأبقوه معهم في العربة طالبين أن تُرفَع. لم يعد بالإمكان الانتظار فالمياه اكتسحت كلّ شيء.

بعدما باتت عمليّة الإنقاذ مستحيلة بهذا الطّريقة، توجّب اللّجوء إلى أخرى. ولكن ما هي؟ لم يعد يرى عمّالاً حوله. لقد نزل في الصّباح مائة وخمسون عاملاً، ما دام قد تمّ توزيع مائة وخمسين مصباحاً. ولكنّ ثلاثين مصباحاً فحسبُ أُعيدت إلى غرفة المصابيح، ما يعني أنّ مائة وعشرين رجلاً كانوا لا يزالون في المنجم. أتراهم هلكوا؟ أم لا يزالون أحياء؟ أنجحوا في إيجاد ملاذ؟ كانت هذه الأسئلة تتزاحم بقلق عظيم في ذهنه المرتاع.

وفي اللّحظة التي كان فيها المهندس يستنتج أنّ مائة وعشرين رجلاً قد بقوا في المنجم، دوّت في الخارج انفجارات في أكثر من مكان، وراحت الحجارة والأتربة تنقذف عالياً جدّاً والمنازل تهتزّ كما لو أنّ زلزالاً كان يضربها. ففسّر المهندس ما يحدث كالتّالي: لقد صدّت المياه الغازَ والهواءَ فضُغِط هذان في مسالك الصّعود التي لا منافذ لها. وفي الأماكن التي قلّت فيها سماكة التّراب فوق طبقات الفحم، تسبّب الغاز والهواء المضغوطان بانفجار القشرة الأرضيّة كما

لو كانت جدرانَ مرجل. وبامتلاء المنجم بالمياه كانت الكارثة حاصلة لا محالة.

ولكنّ الخبر سرعان ما انتشر في أنحاء فارْس. وبدأت الجموع تتدفّق إلى ترويّير: عمّالٌ وفضوليّون ونساءُ العمّال الذين طمرتهم المياه في المنجم وأطفالُهم. راحوا جميعاً يطرحون الأسئلة ويفتّشون. ولكن لم يكن بالإمكان إعطاءهم أجوبة، فإذا بالغضب يمتزج بالألم. وفكّروا أنّ ثمّة مَن يخفي عنهم الحقيقة وأنّ المهندس يتحمّل مسؤوليّة ما حصل. وبدأوا يصرخون: «الموت للمهندس، الموت للمهندس!» وكانوا على وشك اقتحام مكتبه حيث كان منكبّاً على خارطةٍ، غيرَ آبهٍ بالصّراخ، محاولاً التّفتيش عن الأمكنة التي يمكن أن يكون العمّال لاذوا بها ومن أين يمكن البدء بعمليّة الإنقاذ.

ولكن لحسن الحظّ وصل مهندسو المناجم القريبة على رأس عمّالهم برافقهم عمّال المدينة. فحاولوا احتواء الجموع والتّحدّث إليها. ولكن ما الذي كان يمكن قوله؟ ثمّة مائة وعشرون رجلاً مفقوداً. أين هم؟

– أين أبي؟

– أين زوجي؟

– أعيدوا إليّ ابني!

كانت الأصوات مكسورة، والأسئلة تخنقها العبرات. بمَ يمكن الإجابة على أسئلة أولئك الأبناء والزّوجات والأمّهات؟

كان يمكن الإجابة بكلمةٍ واحدة، هي تلك التي قالها المهندسون الذين اجتمعوا وقرّروا: «سنبحث عنهم، وسنفعل المستحيل لإيجادهم».

وهكذا بدأت عمليّة الإنقاذ. فهل سيكون ممكناً العثور على ناجٍ واحد من بين الرّجال المائة والعشرين؟ الشكّ كبير والأمل ضئيل. ولكن لا يهمّ. إلى الأمام!

نُظِّمت أعمال البحث كما خمّن المعلّم. فوُضعت عرباتُ تفريغ في الآبار الثّلاث وبدأت العمل ليلاً نهاراً، ولم تتوقّف حتّى أفرغت آخر قطرة مياه في نهر ديفونّ.

في الوقت نفسه بدأت تُحفَر دهاليز. في أيّ اتّجاه؟ لم يكن أحد يعرف. على هوى المصادفة. المهمّ هو الحفر. فنشبت خلافات في الرّأي خلال اجتماع المهندسين حول ضرورة حفر تلك الدّهاليز التي ستتحدّد وجهتها كيفما اتّفق في غياب أيّة معلومة مؤكّدة حول مكان العمّال النّاجين. ولكنّ مهندس المنجم كان يأمل أن يكون العمّال قد تمكّنوا من اللّجوء إلى الورَش القديمة حيث يكونون في مأمن من الفيضان. لذا أراد أن تُحفر قناة مباشرة إلى الورَش القديمة، حتّى لو لم تنفع في إنقاذ أحد.

فبوشر بالحفر. وكانت القناة تُشَقّ بأقلّ سعة ممكنة حتّى يتقدّم العمل بسرعة. لذا كان نقّارٌ واحد يتقدّم حافراً، والفحم الذي يدكّه هو يُرفَع شيئاً فشيئاً في سلالٍ تُمرَّر بين عُمّالٍ انتظموا في سلسلة بشريّة. وكلّما تعب نقّار استُبدِل بآخر.

حفرٌ فتفريغ. استمرّ العمل المزدوج ذاك ليلاً نهاراً، بلا تعب أو كلل.

وإذا كان الوقت طويلاً بالنسبة إلى من كانوا يعملون في الخارج على إنقاذنا، فهوَ كان أكثر طولاً بالنّسبة إلينا نحن العاجزين المُحاصَرين.

ولم يكن أمامنا إلاّ الانتظار من دون أن نعرف ما إذا كانوا سيصلون إلينا سريعاً فيتمكّنون من إنقاذنا قبل فوات الأوان!

بيد أنّ نشوة الفرح التي منحنا إيّاها في البداية صوت عربات التّفريغ لم تدم طويلاً. فما أن بدأنا بالتّفكير حتّى راح يتنازعنا الأمل والقلق معاً. صحيحٌ أنّه لم يتخلَّ الآخرون عنّا، وأنّ مَن هم في الخارج كانوا يعملون على إنقاذنا، ولكن هل ستنتهي عمليّة التّفريغ بالسّرعة الكافية؟

وإلى عذابات الفكر بدأت تُضاف عذابات الجسد. فالوضعيّة التي كنّا مُرغمين على البقاء فيها على المصطبة كانت مُتعبةً جدّاً، إذ لم نكن قادرين على التحرّك لنتخلّص من خدر أجسامنا، كما أنّ آلام الرّأس كانت قد صارت أقوى وأثقل.

كان كاروري أقلّنا تأثّراً.

من وقتٍ لآخَر كان يقولُ للمعلّم:

- أنا جائع، أرغب في قطعةٍ من الخبز.

وفي نهاية المطاف، قرّر المعلّم أن يمنحنا، أنا وكاروري، قطعةً من الرّغيف الذي كان قد أخرجه من قلنسوته الجلديّة. فقال كاروري:

- هذا لا يكفي.

- على الرّغيف أن يدوم طويلاً.

كان الآخرون راغبين في مشاركتنا وجبتنا، لكنّهم كانوا قد أقسموا أن يُطيعوا فلم يحنثوا بقسمهم.

فقال كومبيرو:

- إذا كان ممنوعاً علينا الأكل، فيمكننا أن نشرب على الأقلّ.



- يمكنك أن تشرب كلّ ما تشاء، فالماء تحت تصرّفنا.

- يُمكنك أن تُفرغ الدّهليز إن شئت.

أراد باجيس النّزول، لكنّ المعلّم منعَه:

- ستتسبّب بانهيار الرّدم. ريمي أكثر خفّةً ومرونةً منك. سينزل ويناولنا الماء.

- ولكن بأيّ وعاء؟

- بحذائي.

فناولوني حذاءً، وكنتُ على وشك النّزول إلى المياه عندما قال لي المعلّم:

- انتظر قليلاً، سأعطيك يدي لتُمسك بها.

- لا تخَفْ، فما من مشكلة إذا وقعتُ، فأنا أجيد السّباحة.

- ولكنّني أريدكَ أن تمسكَ يدي.

وفي اللّحظة التي انحنى فيها المعلّم ليعطيني يده انقلب إلى الأمام، إمّا لأنّه لم يدرس حركته كما يجب، أو لأنّ جسمه كان خدِراً من انعدام الحركة، أو لأنّ الفحم لم يصمد تحت وطأة وزنه. فانزلق على منحدر المسلك وغاص في المياه القائمة ورأسُه إلى الأمام. أمّا المصباح الذي كان يحمله ليُنير لي المكان فتدحرج خلفه واختفى بدوره فغرقنا في عتمةٍ دامسة، وصدرت عن كلّ صدورنا صرخة واحدة.

كنتُ لحسن الحظّ في وضعيّة النّزول، فتركتُني أنزلقُ على ظهري وبلغتُ المياه في ثانية بعد المعلّم.

في رحلاتي مع فيتاليس كنتُ قد تعلّمتُ السّباحة والغوص بما يكفي لأكون مرتاحاً في المياه كما لو كنت على اليابسة. ولكن ما

السّبيل للتّحرّك في ذلك الثّقب المُعتم؟

لم أفكّر في هذا الأمر عندما تركتُني أنزلق، ولم أفكّر إلاّ في المعلّم الذي كان على وشك الغرق، فارتميتُ في الماء بغريزة كلبِ إنقاذ.

ولكن أين أبحث؟ وفي أيّ اتّجاه أمدّ ذراعي؟ وكيف أغوص؟

كنتُ أطرح على نفسي هذه الأسئلة عندما شعرتُ بيدٍ تتمسّك بكتفي وتجرّني تحت الماء. حركة قويّة من رجْلي أعادتني إلى سطح الماء: كانت الذّراع لا تزال تتمسّك بي.

- تمسّك جيّداً يا معلّم، واستند إليّ وأبقِ رأسك مرفوعاً، لقد نجوتَ.

ولكنّ أيّاً منّا لم يكن في الحقيقة قد نجا! لأنّني لم أكن أعرف في أيّ اتّجاه أسبح. إلاّ أنّ فكرةً خطرت لي فهتفتُ:

- يا رفاق، تكلّموا.

- أين أنت يا ريمي؟

كان ذلك صوت العمّ غاسبار، فاستدللتُ به. كان عليّ الاتّجاه شمالاً.

- أشعِلوا مصباحاً.

وسرعان ما ظهرت شعلة. لم يكن عليّ إلاّ أنّ أمدّ ذراعي حتّى أصل إلى الحافّة، فتمسّكتُ بقطعةٍ من الفحم، ورحتُ أسحب المعلّم. كان قد ابتلعَ ماءً وبدأ يختنق، فأبقيتُ رأسه فوق المياه وسرعان ما استعادَ وعيه.

انحنى العمّ غاسبار وكاروري إلى الأمام ومدّا لنا ذراعيهما. أمّا باجيس فنزل من مصطبته إلى مصطبتنا لينير لنا المكان. أمسك كلّ

من العمّ غاسبار وكاروري بذراعَي المعلّم وأصعدوه إلى المصطبة، فيما كنتُ أنا أدفعه من الخلف. ولمّا صار على المصطبة، صعدتُ إليها بدَوري. وسرعان ما استعاد وعيه الكامل، وقال لي:

– أدنُ لأقبّلك، فلقد أنقذتَ حياتي.

– سبقَ أن أنقذتَ أنتَ حياتنا.

أمّا كاروري، الذي لم يكن من النّوع الذي ينسى أشياءه الصّغيرة ويستسلم للمشاعر فهتف قائلاً:

– لقد ضاع حذائي عبثاً ولم أشرب!

– سأحضره لك، قلتُ له، ولكنّهم منعوني.

– أمنعكَ من ذلك، قال المعلّم.

– حسناً! أعطوني حذاءً آخر حتّى أُحضر الماء على الأقلّ.

– لم أعد أحسّ بالظمأ، قال كومبيرو.

– سأحضِر الماء لكي نشرب في صحّة المعلّم.

وتركتُني أنزلقُ مرّةً ثانيةً، ولكن بأكثر تمهّلاً واحترازاً ممّا في المرّة الأولى.

بعدما نجونا من الغرق، كنّا أنا والمعلّم مبلّلين بكاملنا. لم نفكّر في البداية في هذه المشكلة، إلاّ أنّ برودة ملابسنا المبلّلة سرعان ما ذكّرتنا بالأمر.

– يجب إعطاء سترة لريمي، قال المعلّم.

ولكنّ أحداً لم يردّ. وكان المعلّم قد وجّه كلامه للجميع لكي لا يرغم أحداً.

– لا أحد يجيب؟

- في ما يتعلّق بي، أنا بردان، قال كاروري.
- ونحن المبلَّلين هل تحسبنا نشعر بالدّفء؟
- ما كان عليكما الوقوع في الماء.
- إذا كان الأمر كذلك، قال المعلّم، فسنلجأ إلى القرعة لتحديد مَن سيقدّم بعض ملابسه. لم أكن أريد اللّجوء إلى هذا الحلّ ولكنّني الآن أطلب أن يتحقّق العدل.

كنّا جميعاً قد تبلّلنا، أنا حتّى العنق، والكبار حتّى الخصرين. لذا لم يكن في تغيير الملابس معونة كبيرة. إلاّ أنّ المعلّم أصرّ على ذلك، ولحسن الحظّ وقعت القرعة على كومبيرو، فحصلتُ على سترته. كان كومبيرو طويلاً بحيث أنّ قدميه وحدهما كانتا بطول جسمي كلّه، لذا كانت سترته جافّةً تماماً. فتدثّرتُ بها وسرعان ما شعرتُ بالدّفء.

بعد تلك الحادثة المؤلمة التي أخرجتنا من خدرنا لبعض الوقت، عاوَدَنا الشّعور بالانهيار ومعه التّفكير في الموت.

على الأرجح كانت هذه الأفكار تُثقل على رفاقي أكثر ممّا عليّ. فبينما ظلّوا هم مستيقظين، يسيطر عليهم شعور بالانهيار يشبه البلَه، غفوتُ أنا.

ولكنّ المكان الذي كنتُ جالساً فيه كان يجعلني عرضةً للوقوع في الماء. فانتبه المعلّم إلى الخطر المحدق بي، فأسند رأسي بذراعه. لم يكن يشدّني إليه بقوّة كبيرة، بل بما يكفي لكي لا أقع. فكنتُ في هذه الوضعيّة أشبه ما أكون بطفلٍ في حضن أمّه. لم يكن المعلّم قويّ الذّهن فحسبُ بل كان طيّب القلب أيضاً.

وعندما كنتُ أستيقظ من غفوتي قليلاً، كان هو يغيّر وضعيّة يده

الخدرة ثمّ يستعيد وقفته الثابتة ويقول لي بصوتٍ خفيض:

- نَمْ يا بنيّ. لا تخفْ، فأنا أُمسكك. نَم يا صغيري.

فكنتُ أغفو من جديدٍ بلا خوف لأنّني كنتُ أشعر بأنّه لن يُفلتني. كان الوقت يمرّ وكنّا نسمع بانتظامٍ صخب عربات التّفريغ وهي تغوص في الماء.

الفصل السّادس

عملية إنقاذ

كانت وضعيّتنا على المصطبة الضيّقة قد صارت لا تُحتمل. فتقرّر توسيعها، وانكبّ كلّ منّا على العمل. وبواسطة المُديات، جعلنا نحفر في الفحم من جديدٍ ونُنزل الرّدم.

كان العمل أسهل هذه المرّة، لأنّنا كان لدينا مرتكَز ثابت تحت أقدامنا، فتمكّنّا من الحفر في الفحم بما يكفي لتوسيع سجننا ذاك.

وكم كان شعورنا بالانفراج كبيراً عندما تمكّنّا من التمدّد بطولنا، فلا نبقى جالسين وسيقاننا مدلاّة!

ورغم أنّ رغيف كاروري كان قد جرى تقنينه بدقّة، إلاّ أنّه نفدَ في نهاية المطاف. وقد أُعطينا الكِسْرة الأخيرة منه في الوقت المناسب فلا يستولي عليها الآخرون. فعندما أعطاناها المعلّم، كان يسهل أن نفهم من عيون العمّال أنّهم لن يتحمّلوا أن يُوزَّع الخبز مجدّداً من دون أن يطلبوا منه حصّةً. حصّةٌ كانوا سيأخذونها بالقوّة إذا لم يُمنَحوها منحاً.

وبانتهاء الرّغيف تناسينا أمره كليّاً. وبقدر ما كنّا غزيري الكلام في لحظات حصارنا الأولى، كنّا صامتين لمّا طال أمد هذا الحصار.

أمّا أحاديثنا القليلة فكانت تدور حول موضوعين لا ثالث لهما: ما الوسائل التي تُعتمد لإنقاذنا وكم من الوقت مضى على سجننا.

ولكنّ هذه الأحاديث لم تكن لها حماسة الأحاديث الأولى. فعندما كان أحدٌ منّا يقول شيئاً لم يكن يجري التّعقيب على كلامه، وإذا ما حصل ذلك فبكلماتٍ وجيزة. وكان يمكن لهذه التّعقيبات أن تكون متناقضة تناقُض اللّيل والنّهار، أو الأبيض والأسود، من دون أن يثير ذلك غضباً أو يستدعي اعتراضاً.

- حسناً، سنرى.

كان هذا كلّ ما يُقال.

كم من الوقت مضى على حِصارنا؟ يومان أو ستّة؟ سوف نعرف ذلك عندما يتمّ إنقاذنا. ولكن هل سيتحقّق ذلك؟ أنا شخصيّاً، كنتُ بدأتُ أشكّ بقوّة.

ولم يكن هذا رأيي وحدي، فقد كانت تصدر أحياناً عن رفاقي ملاحظات تُثبت أنّ الشّكّ كان يجتاحهم هم أيضاً.

- إذا لم أتمكّن من الخروج من هنا، فما يعزّيني هو أنّ الشّركة سوف تمنح زوجتي وأولادي نفقةً. على الأقلّ لن يكونوا عرضةً للتّسوّل.

لا بدّ أنّ المعلّم كان قد أدخل ضمن مهمّاته كقائدٍ لنا لا حمايتنا من الحوادث فحسبُ بل حمايتنا من أنفسنا أيضاً. لذا عندما كانت تظهر على أحدنا علائم الاستسلام كان يتدخّل فوراً بكلماتٍ مشجّعة:

- ستخرج من هنا مثلنا جميعاً، فعربات التّفريغ تعمل ومنسوب المياه ينخفض.

- أين ينخفض؟

- في الآبار.

- ماذا بشأن الدّهليز؟

- سيحين دوره. ينبغي الانتظار.

فقاطعه كاروري بسرعة البديهة وضآلة الإحساس اللّتين تميّزان ملاحظاته:

- ولكن قلْ لي، ماذا لو أفلست الشّركة كما حصل مع الشّركة التي كان يعمل فيها المعلّم؟ لن تحصل زوجتك آنئذٍ على شيء!

- اصمتْ يا غبيّ. إنّ الشّركة ثريّة.

- كانت ثريّة عندما كانت تملك المنجم، ولكنّ المنجم الآن غارق في المياه. ومع ذلك فلو كنتُ في الخارج لا هنا لسرّني ذلك.

- لماذا؟

- لأنّ المدراء والمهندسين كانوا شديدي الزّهوّ بأنفسهم. سيكون هذا درساً لهم. لو نزل المهندس لبدا ذلك طريفاً، أليس كذلك؟ يا حضرة المهندس، أنحمل عنك بوصلتك؟

- لو كان المهندس قد نزل، فستبقى هنا أيّها الأحمق ونحن كذلك.

- آه، لا تزعجوا أنفسكم. أمّا أنا فلديّ أمور أخرى أهتمّ بها. فمن سيجفّف لي حبّات الكستناء؟ لذا أطلب أن يعود المهندس إلى الخارج. كنتُ أمزح. مرحى يا حضرة المهندس!

باستثناء المعلّم الذي كان يخفي مشاعره وكاروري الذي كان فاقد المشاعر، لم تعد أحاديثنا تدور حول الخلاص، ولم يعد يصعد من القلوب إلى الشّفاه إلاّ الكلام عن الموت والتّخلّي.

- مهما قلتَ يا معلّم، فعربات التّفريغ لن تسحب ما يكفي من الماء.

- ولكنّني قمت بحساباتي من أجلكم أكثر من عشرين مرّة. قليلاً

من الصّبر.

- ليس الحساب هو ما سيُخرجنا من هنا، قال باجيس.

- ومن إذن؟

- الله.

- ممكن! أجاب المعلّم.

- هو ومريم العذراء. فعليهما أتكل لا على المهندسين. ففيما كنتُ أصلّي للعذراء قبل قليل، أحسستُ بها يشبه لفحة الهواء على أذني وبصوتٍ يقول لي: «إذا أقسمتَ أن تعيش في المستقبل كمؤمنٍ حقيقيّ، فستُنقَذ». فأقسمتُ بذلك.

- يا له من غبيّ هو وقصصه عن العذراء! هتف برغونو وهو يندفع واقفاً.

كان باجيس كاثوليكياً وبرغونو كالفينياً[1]. وإذا كان للعذراء مقام كبير لدى الكاثوليكيّين، فإنّها لا تعني شيئاً للكالفينيّين الذين لا يعترفون بها إطلاقاً، مثلما أنّهم لا يعترفون بأيّ شفيعٍ أو وسيط بين الله والانسان كالملائكة أو القدّيسين أو البابا.

لذا لو أنّ الملاحظة التي أبداها باجيس حصلت في أيّ منطقةٍ أخرى لما استدعت نقاشاً. ولكن في قلب منطقة سيفينّ وفي مدينةٍ ما تزال الصّراعات الدّينيّة فيها بالعنف ذاته الذي كانته في القرن السّابع عشر، وحيث نصف السّكّان يحاربون النّصف الآخر، لم يكن ممكناً أن تمرّ ملاحظة باجيس أو جواب برغونو من دون أن تثير عراكاً.

(1) أي من أتباع المذهب الدينيّ البروتستانتيّ الذي أسّسه جان كالفان، وسبق التعريف به (المترجمة).

فهبّ الاثنان واقفين في اللّحظة ذاتها على مصطبتهما الضّيّقة وراحا يتواجهان وهما على أتمّ الاستعداد للعراك بالأيدي.

فما كان من المعلّم إلاّ أن استند بقدمه على كتف العمّ غاسبار وصعد إلى مصطبتهما وارتمى بينهما قائلاً:

- إذا أردتما العراك، فانتظرا أن تصيرا في الخارج.

- وماذا لو لم نخرج؟ أجاب برغونو.

- في هذه الحالة ستكون أنت محقّاً وباجيس هو المخطئ لأنّ ابتهالاته وعدتْه بالخروج.

كان في هذا الجواب ما يُرضي الطّرفين.

- سأخرج، قال باجيس.

- لن تخرج، أجاب برغونو.

- لا داعي لتتعاركا، فقريباً ستعرفان من منكما هو المحقّ.

- سوف أخرج.

- لن تخرج.

لحسن الحظّ، هدأت المشاجرة بفضل حذق المعلّم. إلاّ أنّ أفكارنا كانت قد اتّشحت بسوادٍ لا يُنيره شيء.

وبعد برهةٍ من الصّمت قال باجيس:

- أعتقد أنّني سأخرج، ولكن إذا كنّا هنا فلأنّ بيننا بالتّأكيد أشراراً يريد الله معاقبتهم.

قال ذلك وحدج برغونو بنظرةٍ مُعبِّرة. ولكنّ هذا الأخير بدل أن يغضب وافق على كلام غريمه:

- هذا مؤكّد. فالله يريد أن يمنح واحداً منّا فرصة التّكفير عن

خطأ ارتكبَه. هل هذا الشّخص هو باجيس أم أنا؟ لا أعرف. ولكن كلّ ما يسعني قوله هو أنّني سأمْثل أمام الله بضميرٍ أكثر ارتياحاً لو كنتُ تصرّفتُ في الآونة الأخيرة كمؤمن حقيقيّ. لذا أطلب منه الغفران من كلّ قلبي.

ثمّ ركع وراح يطرق على صدره. فهتف باجيس:

– أمّا أنا، فلا أقول أنْ لا خطايا تُثقل على ضميري لأعترف بها أمامكم جميعاً. ولكنّ ملاكي الحارس والقدّيس يوحنّا شفيعي يعرفان تمام المعرفة أنّني لم أُخطئ يوماً عن عمد، ولم أؤذِ أحداً يوماً.

لا أدري هل بسبب هذا السّجن المعتم والخوف من الموت ووهن الجوع والنّور المُلغز للمصباح الذي لا يكاد يضيء هذا المشهد الغريب، كنتُ شديد التّأثّر لسماع هذه الاعترافات العلنيّة. ومثل باجيس وبرغونو، كنتُ على استعداد للرّكوع والاعتراف معهما.

وفجأةً انفجر خلفي بكاءٌ، فالتفتُّ ورأيتُ كومبيرو الضّخم يرتمي على الأرض راكعاً. كان منذ بضع ساعات قد ترك المصطبة العليا ليتّخذ مكان كاروري على مصطبتنا، فكان جالساً بقربي.

– أنا هو المُذنب، هتف قائلاً، لا باجيس ولا برغونو. أنا هو من يُعاقبه الله، ولكنّني تائب، تائب. إليكم الحقيقة فاسمعوها: إذا خرجتُ من هنا، فأنا أقسم بأن أُصلح ما اقترفتُه. وإذا لم أخرج فستصلحونه أنتم. منذ سنة، حُكم على روكيت بالسّجن خمس سنوات بتهمة سرقة ساعة من غرفة السيّدة فيدال. إنّه بريء، فأنا السّارق. والسّاعة خبّأتُها تحت سريري، تجدونها تحت البلاطة الثّالثة من جهة اليسار.

- فليُرمَ في الماء! فليُرمَ في الماء! صرخ باجيس وبرغونو في آنٍ معاً.

لو كانا على مصطبتنا، لكانا بالتّأكيد دفَعا كومبيرو في الهوّة. ولكن قبل أن يتسنّى لهما الوقت للنّزول، تمكّن المعلّم من التّدخّل من جديد:

- أتريدون إذن أن يمثُل أمام الله مع هذه الجريمة على كاهله؟ دعوه يعلن عن توبته.

- أنا تائب. أنا تائب. راح كومبيرو يكرّر. وكان يبدو رغم قوّته الجبّارة أكثر ضعفاً من طفل.

- فليُرمَ في الماء! كرّر برغونو وباجيس.

- لا! صرخ المعلّم.

ثمّ راح يحدّثهما بكلمات فيها الكثير من التّروّي والحكمة. إلاّ أنّهما لم يشاءا الإصغاء واستمرّا يهدّدان برمي زميلهما في الماء.

- أعطِني يدك، قال المعلّم وهو يقترب من كومبيرو.

- لا تدافع عنه يا معلّم.

- بلى، سأفعل. وإذا ما أردتم رميه في الماء، فسترمونني معه.

- حسناً لن نرميه! قالا في النّهاية. لن نرميه في الماء، ولكن بشرط: أن تتركه في ركن منعزل، وألاّ يتحدّث إليه أو يهتمّ به أحد.

- هذا قرار عادل، وهذا ما يستحقّه، قال المعلّم.

بعد هذه الكلمات التي كانت بمثابة حُكم، انحشرنا أنا وكلّ من العمّ غاسبار والمعلّم على جهةٍ من المصطبة تاركين مسافة بيننا وبين المسكين كومبيرو الذي تقوقع على الفحم.

وطوال ساعات بقيَ كومبيرو على هذه الشّاكلة ذليلاً لا تصدر عنه حركة، مكتفياً بترديد عبارة «أنا تائب» من وقتٍ لآخر.

آنئذٍ كان باجيس وبرغونو يصرخان:

- لقد فات الأوان. أنت تتوب لأنّك تشعر بالخوف يا جبان. كان يجب أن تعلن عن توبتك من ستّة أشهر أو من سنة.

فكان كومبيرو يلهث بصعوبة، ومن دون أن يجيبهما بشكلٍ مباشر كان يكرّر:

- أنا تائب، أنا تائب!

كان قد أصابته الحمّى، لأنّ جسمه كان ينتفض بالكامل وكان يمكن سماع أسنانه تصطكّ.

- أنا عطشان، أعطوني الحذاء، قال.

كان الحذاء قد فرغ من الماء. فنهضتُ لأجلبَ له ماءً. إلاّ أنّ باجيس رآني وصرخ بي ألاّ أفعل. وفي اللحظة ذاتها، أمسك بي العمّ غاسبار من ذراعي قائلاً:

- لقد أقسمنا ألاّ نهتمّ به.

فظلّ كومبيرو يردّد لبعض الوقت أنّه عطشان. ولمّا رأى أنّنا لا نريد إعطاءه الماء تأهّب للنّزول بنفسه، فصرخ باجيس:

- سيهوي الرّدم معه.

- دعوا له حرّيّته على الأقلّ، قال المعلّم.

كان كومبيرو قد رآني أنزل منزلقاً على ظهري، فأراد أن يفعل مثلي. ولكنّني كنتُ خفيفاً وهو ثقيل. كنتُ مَرِناً وهو كتلةٌ جامدة. وما كاد يستوي على ظهره حتّى انهار الفحم تحته. ولم يتمكّن من التّشبّث بواسطة ساقيه المنفرجتين وذراعيه اللّتين كانتا تلوّحان في الفراغ، فانزلق في الثّقب الأسود. وارتفعت المياه إلينا قبل أن تنغلق

من جديدٍ وإلى الأبد.

فانحنيتُ إلى الأمام، ولكنّ العمّ غاسبار والمعلّم أمسكا بذراعَيّ.

وإذا ببرغونو وباجيس يهتفان:

- لقد نجونا! سنخرج من هنا!

فرجعتُ إلى الخلف وأنا أرتجف هلعاً. كنتُ أكاد أموت وقد جمّدني الرّعب.

قال العمّ غاسبار:

- لم يكن رجلاً نزيهاً.

لم يقل المعلّم شيئاً ولكنّه سرعان ما تمتم قائلاً:

- في النّهاية كان يُنقِص حصّتنا من الأوكسيجين.

صعقتني عبارته هذه التي كنتُ أسمعها للمرّة الأولى. وبعد برهةٍ من التّفكير، سألتُ المعلّم ما الذي كان يقصده بقوله، فأجاب:

- إنّه شيء أنانيّ وجائر يا بنيّ، وأنا نادمٌ على أنّني فكّرتُ فيه.

- ولكن عمّ تتحدّث؟

- نحن نعيش من الخبز والهواء. أمّا الخبز، فلم يتبقَّ لنا منه شيء، والهواء لا نملك منه الكثير لأنّ ما نستهلكه لا يتجدّد. ولمّا رأيتُ كومبيرو يختفي في المياه قلتُ إنّه لن يستنشق بعد الآن جزءاً من الهواء الذي نحيا فيه. وسأبقى طوال حياتي ألوم نفسي على هذه العبارة.

فقال العمّ غاسبار:

- هوّنْ عليك يا معلّم، فهو لم ينل إلاّ ما يستحقّ.

وقال باجيس وهو يخبط بقدميه على حائط مسلك الصّعود:

- سيسير كلّ شيء على ما يُرام الآن.

لكنْ إذا لم تجرِ الأمور على ما يُرام وبسرعة كما كان يأمل باجيس، فليس بسبب المهندسين أو العمّال الذين كانوا يعملون على إنقاذنا على قدمٍ وساق.

كانوا مستمرّين بلا كللٍ بحفر مسلك النّزول الذي باشروا فيه. ولكنّ العمل كان صعباً.

فالفحم الذي يحفرونه كان من النّوع الشّديد الصّلابة. وبما أنّه لم يكن ممكناً أن يعمل أكثر من نقّار واحد بسبب ضيق المسلك، كانوا مُضطرّين أن يبدّلوا العمّال الذين يقومون بالحفر بسبب ما يستلزمه ذلك من جهد.

فضلاً عن ذلك، كان من العسير تهوية الدّهليز. فكلّما كان الحفْر يتقدّم، كانت توضع أنابيب من التّنك يوصل الواحد منها بالآخر بملاطٍ من الصّلصال مانعٍ للتّسرّب. ومع أنّ مروحةً ضخمةً كانت تضخّ الهواء في هذه الأنابيب، فإنّ المصابيح لم تكن تشتعل إلاّ أمام فتحة الأنبوب.

كلّ ذلك كان يتسبّب بتأخّر الحفر. وفي اليوم السّابع على وجودنا مُحاصَرين تحت الأرض، لم يكونوا قد تمكّنوا من حفر أكثر من عشرين متراً. إنّ حفرةً بمثل هذا العمق كانت ستتطلّب أكثر من شهر في ظروف عاديّة، ولكنّها كانت شيئاً هيّناً قياساً إلى الوسائل المتاحة والحميّة التي كانت توضع في العمل.

كما أنّه لَزِمَ كلّ الإصرار النّبيل للمهندس للاستمرار بالعمل. عمل كان الجميع متّفقين للأسف على انعدام جدواه. فبرأيهم كان كلّ العمّال قد قضوا نحبهم، ولم يعد يمكن القيام بشيء خلا الاستمرار

في تفريغ المياه بواسطة العربات، على أمل العثور يوماً على الجثث. فما أهميّة الوصول المبكّر أو المتأخّر في والحال هذه؟

كان ذلك رأي المحترفين والجمهور العريض على السّواء. حتّى الأهالي والنّساء والأمّهات كانوا قد بدأوا الحداد. كان الجميع مقتنعين أنّ أحداً لن يخرج من المنجم حيّاً.

ولكنّ المهندس كان يستكمل عمليّة الحفر رغم الانتقادات الجماعيّة والملاحظات التي كان يُبديها زملاؤه وأصدقاؤه، ودونَ أن يُبطئ أعمال التّفريغ التي كانت تستمرّ بلا أيّ انقطاع إلاّ تلك التي كانت تحصل بسبب العَطل الذي يصيب الآلات.

كان في داخله العناد نفسه الذي سمح لكولومبوس باكتشاف عالم جديد.

وكان يقول لعمّاله:

- فلنعملْ يوماً إضافيّاً، وإذا لم نعثر غداً على أيّ جديد نتوقّف. أطلبُ منكم أن تفعلوا من أجل رفاقكم ما كنتُ سأطلبه منهم لو كنتم مكانهم.

وكان الإيمان الذي يحرّكه ينتقل إلى قلوب عمّاله. فكانوا يصِلون إلى الورشة مزعزعي الثّقة بسبب ما يدور في المدينة من أحاديث ويرجعون منها وهم يشاطرون المهندس قناعاته.

فكان المسلك يُحفَر بانتظام ونشاطٍ مثيرَين للإعجاب.

إلى ذلك، كان الممرّ المؤدّي إلى غرفة المصابيح قد انهار عند أكثر من موضع، لذا كان يجب تلبيسه بالخشب. هكذا، وبكلّ الوسائل الممكنة، كان المهندس يسعى لأن ينتزع من المنجم سرّه الرّهيب

وضحاياه، إذا كان لا يزال أحد منهم على قيد الحياة.

وفي اليوم السّابع، عندما جاء أحد العمّال للمناوبة مع زميله في الحفْر خال أنّه سمع ضجيجاً خافتاً أشبه ما يكون بصوت قرعٍ خفيف. وبدل أن يهوي بمنقاره، أبقى عليه مرفوعاً وألصق أذنه بالفحم. ثمّ ظنّ أنّه مُخطئ فنادى رفيقاً له ليشاركه الاستماع. بقي الاثنان صامتين، وبعد برهةٍ وصلهما صوتٌ خفيض، راح يتكرّر بوتيرةٍ منتظمة.

وسرعان ما انتشر الخبر بين العمّال الذين استقبلوه شاكّين غير مصدِّقين، حتّى وصل إلى المهندس الذي هُرع إلى الدّهليز.

كان إذن مُحقّاً! كان في المنجم رجالٌ أحياء سيُنقذهم إيمانه.

كان قد تبعه أكثر من شخصٍ، فأبعدَ العمّال وأصغى ولكنّه كان شديد التّأثّر والارتعاش فلم يسمع شيئاً. فقال بنبرةٍ مفعمةٍ يأساً:

- أنا لا أسمع شيئاً.

فقال أحد العمّال:

- إنّه جنّيّ المنجم يريد العبث بنا فيَطْرق على الفحم ليخدعنا.

إلاّ أنّ النّقّارَين اللّذين سمعا الطَّرقات قبل الجميع أصرّا على أنّهما لم يُخطئا، وعلى أنّ طرْقاً أجاب على ما أحدثاه هما من طرقات. كان لهما خبرة طويلة في عمل المناجم وكانت كلمتهما مسموعة.

فأخرج المهندس الرّجال الذين تبعوه وحتّى العمّال الذين كانوا واقفين في صفّ واحد ليُخرجوا الرّدم، ولم يُبقِ معه إلاّ النّقّارين.

ثمّ ضربوا بواسطة المنقار ضربات قويّة منتظمة، قبل أن يقطعوا تنفّسهم ويُلصقوا آذانهم بالفحم.

وبعد برهةٍ من الانتظار، انتفضت قلوبهم بقوّة: فقد سمعوا

ضربات خفيفة وحثيثة وموقّعة تردّ عليهم.

- اقرعا مجدّداً بضربات متباعدة لنتأكّد أنّ ما نسمعه ليس صدى ضرباتنا.

فقرَعَ النّقّاران من جديدٍ وسرعان ما وصلهم القرْع الموقَّع نفسه. كان ذلك القرع هو نداء العمّال يُجيب على ندائهم.

لم يعد من مجال للشّكّ: ثمّة في الدّاخل رجالٌ أحياء ويمكن إنقاذهم!

انتشر الخبر في المدينة كالنّار في الهشيم وهرعت الجموع إلى المنجم. جموعٌ ربّما كانت أكثر تأثّراً ممّا كانت عليه يومَ وقعت الكارثة. وصل أبناء العمّال وزوجاتهم وأمّهاتهم وأهاليهم مرتجفين يشعّون في ثياب حدادهم أملاً.

- كم من العمّال كانوا لا يزالون على قيد الحياة؟ ربّما الكثير منهم. قريبكَ على الأرجح، وقريبي بالتأكيد.

كانوا يريدون معانقة المهندس.

أمّا هو فظلّ في وسط الفرح محافظاً على رباطة جأشه مثلما حافظ عليها في مواجهة الشّكّ والسّخرية، وما كان يفكّر إلاّ في عمليّة الإنقاذ. ولكي يُبعد الفضوليّين والأهالي، طلب من الحامية جنوداً لمنع اقتراب النّاس من الدّهليز وعرقلة العمل.

كانت الأصوات القادمة من الدّهليز شديدة الخفوت بحيث كان يتعذّر تحديد مصدرها بشكلٍ دقيق. ولكنّها كانت كافية لتُشير إلى أنّ العمّال النّاجين كانوا في أحد مسالك الصّعود الثّلاثة للدّهليز المستوي في الورَش القديمة. لذا، بدلَ مسلك النّزول الوحيد الذين

كانوا باشروا بحفره للوصول إلى العمّال، تقرّر حفر ثلاثة مسالك تُلاقي مسالك الصّعود الثّلاثة. وعندما يتقدّم الحفر إلى موضع يمكن فيه السّماع بوضوحٍ أكبر، يُصار إلى التخلّي عن مسلكَي النّزول غير المجديَين وتركيز الجهود على المسلك الصّحيح.

فاستُؤنِفَ العمل بحميّةٍ غير مسبوقة، وراحت الشّركات القريبة تتنافس على إرسال أفضل نقّاريها إلى منجم تروبِّير.

وإلى الأمل النّاجم عن حفْر مسالك النّزول، أُضيف الأمل بالوصول إلى العمّال عن طريق الدّهليز لأنّ المياه كانت تنخفض في الآبار.

أمّا نحن، فلمّا سمعنا من مكاننا نداء المهندس، عاودَنا الشّعور نفسه الذي كان أحدثه فينا أزيز عربات التّفريغ في الآبار.

- لقد نجونا!

كانت تلك صرخة فرحٍ صدرت عنّا، ومن دون أن نفكّر خلْنا أنّ يداً ستُمَدُّ لتنتشلنا من هناك.

وكما حصل مع عربات التّفريغ، عاد اليأس في أعقاب الأمل ليسيطر علينا.

فقد كانت الطَّرقات تُشير إلى أنّ العمّال كانوا ما يزالون بعيدين. ربّما كانت تفصلهم عنّا عشرون متراً أو ثلاثون. فكم من الوقت يلزم لحفر كتلةٍ بهذا العمق؟ اختلفت تقديراتنا: شهر، أسبوع، ستّة أيّام. كيف يمكن الانتظار شهراً أو أسبوعاً أو ستّة أيّام؟ من منّا سيظلّ على قيد الحياة بعد ستّة أيّام؟ وكم يوماً كان قد مضى على بقائنا دون طعام؟ وحده المعلّم كان لا يزال يتكلّم بشجاعة. ولكن في النّهاية كان

إحباطنا يطاله والوهن يتغلّب على صلابته.

إذا كان الماء متوافراً، فليست هذه حال الطّعام. وكان الجوع قد صار أكثر عنفاً بحيث حاولنا أن نأكل خشباً متعفناً مُفتّتاً في المياه.

وكان كاروري هو الأكثر جوعاً بيننا، فقطّع حذاءه الوحيد المتبقّي وراح يمضغ قِطَع الجلد.

لمّا رأيتُ إلى أين يمكن أن يقود الجوع رفاقي، أعترف بأنّ شعوراً بالخوف قد راودني. خوفٌ جاء لينضاف إلى مخاوفي الأخرى ويضعني في حالةٍ من الارتباك. فقد كنتُ سمعتُ من فيتاليس قصصاً عن الغرق، فهو سافر كثيراً في البحر، أو على الأقلّ بقدرِ ما سافر برّاً. ومن بين قصصه واحدة ظلّت تراودني منذ أن باغتَنا الجوع. إنّها قصّة بحّارةٍ رمت بهم الأنواء على جزيرةٍ رمليّة صغيرة ليس فيها شيءٌ يؤكل، فقتلوا خادم السّفينة ليأكلوه. فرحتُ أتساءل، وأنا أسمع رفاقي يتضوّرون جوعاً، إن كان هذا سيكون مصيري، وإن كنتُ سأُقتل على جزيرتنا الفحميّة هذه لأؤكل. كنتُ واثقاً من أنّ المعلّم والعمّ غاسبار سيدافعان عنّي. ولكنّ باجيس وبرغونو وكاروري، لا سيّما كاروري، بأسنانه البيضاء الكبيرة التي كان يشحذها على قِطَع حذائه، ما كانوا يوحون لي بالثّقة.

كانت مخاوفي هذه جنونيّةً على الأرجح، ولكنْ في الوضع الذي كنّا فيه لم يكن العقل الحكيم والهادئ هو الذي يقود أذهاننا ومخيّلاتنا.

وما كان يزيد من مخاوفنا هو غياب الضّوء. فقد نفد الزّيت من مصابيحنا تباعاً. وعندما لم يبقَ معنا إلاّ مصباحان قابلان للإضاءة، قرّر المعلّم ألاّ يُضاءا إلاّ لحاجةٍ ملحّة. لذا كنّا نقضي وقتنا في العتمة.

لم يكن الجوّ موحشاً فحسب، بل كان خطيراً أيضاً. فلو قمنا بأيّة حركةٍ مُرتبكة فسنسقط في الماء.

منذ موت كومبيرو، لم نعد إلاّ ثلاثة على كلّ مصطبة، ممّا كان يمنحنا القليل من المساحة الإضافيّة. فكان العمّ غاسبار جالساً في ركنٍ والمعلّم في ركنٍ آخر وأنا بينهما.

وفي لحظةٍ من اللّحظات، وأنا أكاد أغفو، فاجأني أن أسمع المعلّم يتحدّث بصوتٍ خافتٍ كما لو كان يحلم.

فاستيقظتُ ورحتُ أستمع إليه. كان يقول:

- الجوّ غائم. الغيوم شيء جميل. بعض النّاس لا يحبّونها ولكنّني أحبّها. آه! آه! تعصف رياح أيضاً، لحسن الحظّ، فأنا أحبّ الرّياح.

أكان يحلم؟ هززته من ذراعه ولكنّه تابع بالقول:

- حضّرْ لي عجّةً من ستّ بيضات لا ثماني. أو ضع فيها اثنتي عشرة بيضة، سآكلها بكلّ سرور عندما أعود.

- عمّ غاسبار، أتسمعه؟

- نعم، إنّه يحلم.

- كلاّ، بل هو مستيقظ.

- إنّه يقول حماقات.

- أؤكّد لك أنّه مستيقظ.

- يا معلّم!

- أتريد أن تأتي للعشاء معي يا غاسبار؟ تعالَ، ولكن أحذّرك ثمّة في الأجواء رياح.

- إنّه يفقد عقله، قال العمّ غاسبار، إنّه تأثير الجوع والحمّى.

- كلاّ، لقد مات، قال برغونو، وهذه روحه التي تتكلّم. ترون جيّداً أنّه في عالمٍ آخر. أين هي الرّياح يا معلّم؟ أهي ريح الشّمال؟

- في الجحيم ما من ريح شمال، هتف باجيس، والمعلّم غدا في الجحيم. لم تشأ أن تصدّقني عندما قلتُ لك إنّك ستذهب إلى هناك.

ما الذي أصابهما؟ هل فقدا عقليهما؟ هل جُنّا؟ في هذه الحال سيتعاركان ويقتل أحدهما الآخر، فما العمل؟

- أتريد أن تشرب يا معلّم؟

- لا، شكراً. سأشرب وأنا آكل عجّتي.

ولوقتٍ طويل، استمرّوا ثلاثتهم يتكلّمون في الوقت نفسه من دون أن يردّ الواحد منهم على الآخر. وفي وسط كلامهم غير المترابط كانت تتردّد دوماً كلمات «الأكل» و«الخروج» و«السّماء» و«الرّياح».

وفجأةً خطر لي أن أُشعل المصباح. كان موضوعاً مع أعواد الثّقاب إلى جانب المعلّم، فأخذته.

وما كدتُ أضيئه حتّى سكتوا كلّهم.

وبعد برهةٍ من الصّمت، سألوا ما الذي يحدث تحديداً، كما لو كانوا يستيقظون من حلم.

- لقد كنتم تهذون، قال العمّ غاسبار.

- مَن؟

- أنتَ يا معلّم، وباجيس وبرغونو. كنتم تقولون إنّكم في الخارج وإنّ ثمّة ريحاً.

من وقتٍ لآخَر، كنّا نطرق على الجدران لنقول لمُنقذينا إنّنا أحياء، وكنّا نسمع صخب مطارقهم تقوّض الفحم بلا كلل. ولكنّ صدى

ضرباتهم كان يقترب ببطء، ما يعني أنّهم كانوا ما يزالون بعيدين.

لمّا أُضيء القنديل، نزلتُ لأجلب الماء في الحذاء، وبدا لي أنّ منسوب المياه قد انخفض في الثّقب بضعة سنتيمترات.

- إنّ مستوى المياه ينخفض.

- يا إلهي!

ومرّةً جديدة عاودَنا الأمل.

فأرادوا إبقاء المصباح مشتعلاً لرؤية المياه وهي تنخفض، إلاّ أنّ المعلّم اعترض على الأمر.

ظننتُ أنّ عصياناً سيحدث. لكنّ المعلّم لم يكن يطلب منّا شيئاً دون أن يعلّله بأسباب مُقنعة.

- سنحتاج للمصباحين فيما بعد. وإذا استهلكناهما الآن بلا طائل، فماذا سنفعل عندما تكون الحاجة إليهما ضروريّة؟ ثمّ أتعتقدون أنّكم لن تموتوا لهفاً وأنتم ترون أنّ المياه لا تنخفض بالسّرعة التي تريدون؟ لا تظنّوا أنّها ستنخفض دفعةً واحدة. سننجو، تشجّعوا إذن! ما زلنا نملك ثلاثة عشر عود ثقاب. سنستخدمها كلّما طلبتم ذلك.

فأُطفِئ المصباح. وكنّا جميعاً قد شربنا بوفرةٍ فلم يعاودنا الهذيان. ولساعات طويلة، ربّما نهارات بكاملها، بقينا جامدين، لا شيء يُبقينا على قيد الحياة إلاّ صوت المطارق التي كانت تحفر مسلك النّزول، وصوت عربات التّفريغ في الآبار.

وببطءٍ شديد كانت تلك الأصوات تقترب أكثر فأكثر. كانت المياه تنخفض، وكان منقذونا يقتربون منّا. ولكن هل سينجحون في الوصول إلينا في الوقت المناسب؟ وإذا كان عمل منقذينا يتقدّم

بنشاط في كلّ لحظة، فإنّ الوهن الذي كنّا نشعر به كان يصير بدوره أكبر وأكثر إيلاماً. وَهَنٌ كان يطال الجسد والعقل سواء بسواء. فمنذ وقوع الكارثة لم يأكل رفاقي شيئاً. أمّا الأكثر هولاً فهو أنّنا كنّا نتنشّق هواءً لا يتجدّد، فيصير يوماً بعد يوماً أكثر فساداً وتَلَفاً. ولكن لحسن الحظّ، كلّما كانت المياه تنخفض كان الضّغط الجوّي ينخفض بدوره. فلو كان بقيَ على حاله منذ ساعات حصارنا الأولى لكنّا متنا اختناقاً. لذا، وفي كلّ الأحوال، إن كُنّا سنُنقَذ، فسنُدين بذلك إلى السّرعة التي بها بوشرت ونُظِّمت عمليّة الإنقاذ.

كان صوت المطارق والعربات يصِلنا بانتظام فائق أشبه ما يكون بانتظام رقّاص ساعة. وكلّ انقطاع أو توقّف كانت تتحرّك له مشاعرنا بهلع. فنروح نتساءل هل سيتخلّون عنّا؟ هل يواجهون عوائق يعجزون عن تخطّيها؟ وخلال أحد تلك الانقطاعات سمعنا ضجيجاً عظيماً، نفخاً، عصفاً هائلاً.

فهتف كاروري:

- إنّها المياه تسقط في المنجم.

- لا، هذه ليست المياه، قال المعلّم.

- ما هي إذن؟

- لا أعرف. ولكنّها ليست المياه.

ومع أنّ المعلّم قدّم لنا أكثر من مرّة براهين على حكمته وصدق حدْسه، فلم نكن نصدّقه إلاّ إذا دعّم كلماته بأدلّة منطقيّة. وباعترافه بأنّه لا يعرف مصدر ذلك الضّجيج (الذي عرفنا لاحقاً أنّه صوت مروحة وُضعت لكي ترسل الهواء للعمّال) عاودتنا فكرة الفيضان

برعبٍ مجنون.

- أشعلِ المصباح.

- لا حاجة لذلك.

- أشعلْه، أشعلْه!

اضطرّ المعلّم للاستجابة لأنّ أصوات الجميع ارتفعت مطالبة بذلك.

فإذا بنور المصباح يُرينا أنّ المياه لم ترتفع بل على العكس انخفضتْ.

- أرأيتم؟ قال المعلّم.

- ستصعد، وسنموت هذه المرّة.

- فلينتهِ الأمر فوراً إذن، فأنا ما عدتُ قادراً على الاحتمال.

- أعطِني المصباح يا معلّم. أريد أن أكتب رسالةً إلى زوجتي وأولادي.

- اكتبْ من قِبَلي أنا أيضاً.

- ومن قِبَلي أنا.

كان برغونو هو من طلب المصباح ليكتب إلى زوجته وأولاده قبل أن يموت. فقد كان يحتفظ بجيبه بورقةٍ وقلمٍ صغير، فاستعدّ للكتابة.

- إليكم ما أريد قوله:

«نحن، غاسبار وباجيس والمعلّم وكاروري وريمي المُحاصَرين في مسلك الصّعود، سوف نموت».

«أنا، برغونو، أطلب من الله أن يُعنى بزوجتي ويصير أباً لأولادي. أمنحُهم بركتي».

- وأنت يا غاسبار؟

«غاسبار يترك ما يملكه لابن أخيه أليكسي».

«باجيس يترك زوجته وأولاده في عناية الله ومريم العذراء والشّركة».

- وأنت يا معلّم؟

- أنا ليس لي أحد ولن يبكيني أحد، قال المعلّم بحزن.

- وأنت يا كاروري؟

- أنا، هتف كاروري، أطلب أن تُباع مؤونتي من الكستناء قبل أن تُشوى.

- لا مكان في ورقتنا لحماقات كهذه.

- هذه ليست حماقة.

- أليس لكَ أحدٌ تودّعه؟ أمّك مثلاً؟

- سوف ترث أمّي ما أملكه.

- وأنت يا ريمي؟

«ريمي يترك كلبه كابي وقيثارته لماتيا. وهو يقبّل أليكسي ويطلب منه أن يذهب عند ليز ويقبّلها من طرفه ويُعطيها الوردة المجفّفة الموجودة في سترته».

- سنوقّع جميعاً.

- أمّا أنا فسأرسم صليباً، قال باجيس.

وبعدما وقّع الجميع الورقة، قال برغونو:

- الآن، أطلب أن تدَعوني أموت مرتاحاً وألاّ تتحدّثوا إليّ. وداعاً يا رفاق!

ونزل من مصطبته إلى مصطبتنا وعانقنا ثلاثتنا، ثمّ صعد مجدّداً إلى

مصطبته وعانق باجيس وكاروري. بعد ذلك حضّر كومةً من الفحم وأسند إليها رأسه وتمدّد بكامل طوله وكفّ عن الحراك.

لم تكن المشاعر التي أثارتها فينا كتابة الرّسالة ووداع برغونو لترفع من معنويّاتنا.

إلاّ أنّ ضربات المطارق كانت قد صارت أكثر وضوحاً، ما يعني أنّهم باتوا قريبين منّا بحيث قد يصلون إلينا عمّا قريب.

كان هذا هو ما شرحه لنا المعلّم ليُعيد إلينا شيئاً من القوّة.

- لو كانوا بهذا القرب كما تعتقد، لكنّا سمعناهم يصرخون. ولكنّنا لا نسمعهم، وبدَورهم لا يسمعوننا.

- يمكن أن يكونوا على بُعد أمتار قليلة وألاّ يسمعونا. فهذا وقفٌ على طبيعة الكتلة الصّخريّة التي تفصلهم عنّا.

- أو أنّه وقفٌ على المسافة.

لكنّ المياه كانت تستمرّ بالانخفاض. وسرعان ما أتانا برهان على أنّها لن تصل من جديدٍ إلى سقف الدّهاليز.

فقد سمعنا على جدار مسلك الصّعود حكّاً، ثمّ اصطفقت المياه كما لو أنّ قطعاً صغيرة من الفحم وقعت فيها.

فأضأنا المصباح ورأينا جرذاناً تركض عند أسفل المسلك. كانت قد وجدت مثلنا ملاذاً يشبه في شكله جرسَ غوّاصين، ولمّا انخفضت المياه، غادرت مخبأها بحثاً عن الطّعام. وإذا كانت قد تمكّنت من الوصول إلينا فهذا يعني أنّ المياه لم تعد تملأ الدّهاليز حتّى السّقوف.

في حصارنا، كانت هذه الجرذان أشبه بالحمامة التي بشّرت نوح بنهاية الطّوفان.

فاقترب المعلّم من المصطبة العليا وتوجّه إلى برغونو بالقول:

- تشجّعْ يا برغونو.

وشرح له كيف أنّ الجرذان تعلن خلاصنا القريب. ولكنّ برغونو رفض استعادة الأمل.

- ماذا لو اضطررنا مجدّداً إلى الانتقال من الأمل إلى اليأس؟ أفضّل في هذه الحالة ألاّ آمل. إنّني أنتظر الموت، ولئن أقبل الخلاص فللّه الحمد.

من جهتي، أردتُ النّزول إلى أسفل المسلك لأرى عن كثبٍ انخفاضَ المياه. كان ذلك الانخفاض ملموساً بحيث باتَ بين المياه وسقف الدّهليز فراغٌ كبير.

فهتف كاروري:

- التقطْ لنا جرذاناً.

كان ذلك صعباً. فلالتقاط الجرذان يلزم شخصٌ أكثر رشاقةً منّي. ولكنّ الأمل كان قد أعاد لي نشاطي، ورؤية الفراغ في الدّهليز ألهمتني فكرةً ظلّت تؤرقني. فعاودتُ الصّعودَ إلى مصطبتنا وقلتُ للمعلّم:

- لديّ فكرة يا معلّم. بما أنّ الجرذان باتت قادرة على التنقّل في الدّهليز، فهذا يعني أنّ المرور بات ممكناً. سأسبح حتّى أبلغ السّلالم وأنادي لكي يأتوا لإنقاذنا. هكذا يصلون إلينا بأسرع ممّا لو استخدموا مسلك الهبوط.

- أمنعكَ من ذلك!

- ولكن يا معلّم، أنا أجيد السّباحة مثلنا تُجيد أنت المشي. أنا في

الماء مثل السّمكة.

- وماذا بشأن الهواء الفاسد؟

- إذا كانت الجرذان قادرة على المرور، فهذا يعني أنّ الهواء ليس على هذا القدْر من الفساد.

فهتف باجيس:

- اذهب يا ريمي، فإن ذهبتَ أعطيتكَ ساعتي.

- ما رأيك يا غاسبار؟ سأل المعلّم.

- لا رأي لي. إذا كان يعتقد أنّه قادرٌ على الوصول إلى السّلالم فليذهب. ليس من حقّي أن أمنعه.

- ماذا لو غرق؟

- وماذا لو كان في ذهابه خلاصٌ له، بدل أن يموت هنا وهو ينتظر؟

بقي المعلّم مُطرقاً لبعض الوقت، ثمّ أمسك يدي وقال لي:

- أنتَ شجاعٌ يا صغيري. افعل ما تشاء. أعتقد أنّك تحاول المستحيل، ولكنّها لن تكون المرّة الأولى التي تكون فيها الغلبة للمستحيل. تعالَ عانقْنا.

عانقته هو والعمّ غاسبار، ثمّ خلعتُ ملابسي ونزلتُ إلى الماء.

وقبل أن أبدأ بالسّباحة قلتُ لهم:

- لا تتوقّفوا عن النّداء حتّى أستدلّ بأصواتكم.

كم كانت مساحة الفراغ تحت سقف الدّهليز؟ هل كان واسعاً بما يكفي ليسمح لي بالتّحرّك بسهولة؟ كان ذلك هو السّؤال.

بعدما تقدّمتُ قليلاً، وجدتُ أنّ بإمكاني السّباحة بهدوء خوفاً من

أن يصطدم رأسي. كانت المغامرة التي أُقدم عليها ممكنة إذن. ولكن ما الذي ينتظرني في نهايتها؟ الخلاص أم الموت؟

استدرتُ ورأيتُ النّور المنبعث من المصباح منعكساً على المياه القائمة: كان هو منارتي.

- أأنت بخير؟ ناداني المعلّم سائلاً.

- أجل!

واستمررتُ أتقدّم بحذر.

لاجتياز المسافة الفاصلة بين مسلك الصّعود الذي كنّا فيه والسّلالم، كان الخطر يكمن في الاتّجاه الذي يجب اتّباعه. فقد كنتُ أعرف أنّه عند نقطة معيّنة غير بعيدة ثمّة ملتقى دهاليز. وفي العتمة، كان يجب ألاّ أُخطئ في الطّريق فأضيع. وللاستدلال، لم يكن سقف الدّهليز وجدرانه كافية، ولكن كان على الأرض دليل أكثر موثوقيّة، ألا وهو سكك الحديد. كنتُ واثقاً من أنّني إذا ما تبعتها فستقودني حتماً إلى السّلالم.

لذا كنتُ من وقتٍ لآخر أُنزل قدميّ وعندما تصطدمان بقضبان الحديد، أرفعهما من جديد. كانت سكك الحديد تحت قدمي فضلاً عن أصوات رفاقي خلفي تؤكّد لي أنّني لم أضلّ طريقي.

وكان ابتعاد الأصوات من جهة، واقتراب ضجيج عربات التّفريغ من جهةٍ أخرى يؤكّدان لي أنّني أتقدّم. سأرى أخيراً ضوء النّهار من جديدٍ، وبفضلي سينجو رفاقي! كانت هذه الفكرة تقوّي عزيمتي.

كنتُ أتقدّم بخطّ مستقيم في وسط الدّهليز، ولم يكن عليّ إلاّ الوقوف في الماء لأصطدم بسكّة الحديد، وكنتُ غالباً ما أكتفي

بملامستها بقدمي ملامسةً خفيفة. وفي إحدى المرّات، لم تجد قدمي السكّة، فغصتُ بحثاً عنها بيديّ، ولكن عبثاً. كنتُ أنتقل بين جدارَي الدّهليز دون أن أعثر على شيء.

لقد أخطأتُ.

فتوقّفتُ عن السّباحة لأعرف أين أنا وأفكّر. لم تعد أصوات رفاقي تصلني إلاّ كهمسٍ يكاد لا يُسمع. وعندما تنفّستُ وأخذتُ كميّة كافية من الهواء، غصتُ مجدّداً ولكن مثل المرّة الأولى لم أعثر على شيء. لم أجد سكك الحديد.

كنتُ قد اتّخذتُ الدّهليز الخاطئ دون أن أنتبه. كان يجب أن أرتدّ على عقبيّ.

ولكن كيف؟ كان رفاقي قد كفّوا عن المناداة، أو أنّني لم أعد أسمعهم، والأمران سيّان.

بقيتُ للحظةٍ بلا حراكٍ وقد سيطر عليّ قلقٌ حادّ لأنّني لم أكن أعرف أيّة وجهة أتّخذ. هذا يعني أنّني تهتُ. تهتُ في ذلك اللّيل البهيم، وتحت تلك القبّة الثّقيلة وفي تلك المياه المتجمّدة.

ولكن فجأةً، ارتفعت الأصوات من جديدٍ وعرفتُ أيّ اتّجاه أسلك.

بعدما ارتددتُ على عقبيّ حوالى اثنتي عشرة ذراعاً، غصتُ وعثرتُ على سكّة الحديد من جديد. كانت الطّريق تتشعّب من هنا إذن. فتّشتُ عن عوارض السكّة فلم أجدها. فتّشتُ عن الفتحات التي يُفترض أن تكون في الدّهليز، فتّشتُ عنها يميناً ويساراً ولكنّني لم أكن أصطدم إلاّ بجدارَي الدّهليز ذاك. فأين هي السّكة إذن؟

تبعتُها حتّى النّهاية، فإذا بها تنقطع فجأةً.

ففهمتُ أنّ سكّة الحديد قد اقتُلعت بسبب دوّامات المياه وأنّه لم يبقَ لي ما أستدلّ به.

في مثل هذه الظّروف، بات مشروع الوصول إلى السّلالم مستحيلاً ولم يعد أمامي إلاّ أن أرتدّ على عقبيّ.

سبق أن كنتُ اجتزتُ الطّريق نفسها، لذا كنتُ أعرف أنْ ليس فيها من خطر. فسبحتُ بسرعة للوصول إلى مسلك الصّعود مهتدياً بالأصوات.

وكلّما تقدّمت، كان يبدو لي أنّ تلك الأصوات كانت تصير أكثر تصميماً كما لو أنّ عزيمة رفاقي قد قويتْ.

كنتُ على وشك الوصول إلى مدخل مسلك الصّعود ورحتُ بدوري أنادي.

– تعال، تعال، قال لي المعلّم.

– لم أتمكّن من العثور على الممرّ.

– لا بأس، فمسلك النّزول يتقدّم. إنّهم يسمعون نداءنا ونحن نسمع نداءهم، وعمّا قريب ستتمكّن من التّحدّث إليهم.

فصعدتُ المسلك بسرعة ورحتُ أصغي. كانت الضّربات قد صارت بالفعل أقوى بكثير. ونداء العاملين على إنقاذنا كان لا يزال يصلنا بخفوت ولكن بوضوح تامّ.

بعد لحظة الفرح الأولى، انتبهتُ إلى أنّني أتجمّد برداً. ولكن بما أنّه لم يعد هناك من ملابس دافئة يُعطونني إيّاها لأنشف، قاموا بتغطيتي حتّى العنق بنثار الفحم الذي يحتفظ دوماً بشيء من الحرارة.

وحضنني المعلّم والعمّ غاسبار بقوّة، فرحتُ أروي لهما ما حصل معي وكيف أنّني ضيّعتُ سكّة الحديد.

- وتجرّأتَ على الغوص؟

- ولِمَ لا؟ ولكن للأسف لم أجد شيئاً.

ولكن كما قال المعلّم، لم يعد هذا مهمّاً. فإذا لم نُنقَذ عن طريق الدّهليز فسنُنقَذ عن طريق مسلك النّزول.

كان نداء العمّال في الخارج يصير أكثر وضوحاً، فكنّا نأمل أن نتمكّن بعد قليلٍ من سماع ما يقولون.

وبالفعل، سرعان ما سمعنا كلماتٍ لُفظت على مهل:

- كم عددكم؟

من بيننا جميعاً، كان العمّ غاسبار هو من يملك الصّوت الأكثر جهوريّة ووضوحاً، فعهدنا إليه بالإجابة:

- نحن ستّة!

مرّت برهة من الصّمت. كانوا على الأرجح يأملون أن يكون عددنا أكبر.

فصرخ العمّ غاسبار:

- أسرعوا، فنحن على شفير الهلاك.

- وأسماؤكم؟

فجعلَ يعدّد أسماءنا:

- برغونو، باجيس، المعلّم، كاروري، ريمي، غاسبار.

في عمليّة إنقاذنا، كانت هذه اللّحظة لِمَن هُم في الخارج هي الأكثر صعوبة. فلمّا عرفوا أنّه سيصير بالإمكان التّواصل معنا عمّا قريب،

هرع كلّ أهالي العمّال الغرقى وأصدقائهم، وكان الجنود يجدون صعوبةً كبيرة في احتواء الجمهور عند طرف الدّهليز.

ولمّا أعلن المهندس أنّنا لم نكن إلاّ ستّة، شعروا بخيبة أليمة. إلاّ أنّ كلّ واحدٍ منهم احتفظ بالأمل، فمن ينتظره يمكن أن يكون بين السّتّة.

وتلا عليهم أسماءنا.

للأسف! بين مائة وعشرين أمّاً أو زوجةً، لم تجد إلاّ أربعُ منهم آمالهنّ تتحقّق. كم من الآلام والدّموع!

أمّا نحن، فمن جهتنا كنّا نفكّر في مَن يمكن أن يكونوا قد أُنقِذوا.

فسأل العمّ غاسبار:

- كم عدد النّاجين؟

ولكنّه لم يحصل على جواب.

- اسأل أين هو ماريوس، قال باجيس.

طرح العمّ غاسبار السّؤال، لكنّه بقي مرّة أخرى بلا جواب.

- لم يسمعوا.

- قل بالأحرى إنّهم لا يريدون أن يجيبوا. ولكنَّ ثمّة سؤالاً آخر يؤرقني.

- اسألهم كم يوماً مضى على وجودنا هنا؟

- أربعة عشر يوماً.

أربعة عشر يوماً! إنّ أقصى تقديراتنا كانت خمسة أيّام أو ستّة.

- لن تبقوا هنا لوقتٍ طويل. تشجّعوا. ولنكفّ عن الكلام، فهذا يؤخّر العمل. اصبروا بضع ساعات بعد.

أعتقد أنّ تلك السّاعات كانت هي الأطول منذ بدء حِصارنا. في كلّ الأحوال، كانت الأكثر إيلاماً. كلّ ضربة مطرقة كان يبدو لنا أنّها ستكون الأخيرة. ولكن بعد تلك الضّربة كانت تأتي ضربة أخرى، وبعدها أخرى، وأخرى.

ومن وقتٍ لآخَر، كانت الأسئلة تعود:

- هل أنتم جائعون؟

- جدّاً.

- أيمكنكم الانتظار؟ إذا كنتم شديدي الوهن، فيمكننا أن نحفر ثقباً بواسطة مثبار ونرسل لكم حساءً، ولكنّ هذا سيؤخّر عمليّة إخراجكم. إذا كنتم قادرين أن تنتظروا بعد فستخرجون في وقتٍ أسرع.

- سننتظر، ولكن أسرعوا.

طوال هذا الوقت، لم تكفّ عربات التّفريغ عن العمل دقيقة واحدة، وكانت المياه تستمرّ بالانخفاض بانتظام.

- قل لهم إنّ المياه تنخفض، قال المعلّم.

- نعرف ذلك. سنصل إليكم عمّا قريب، إمّا من طريق مسلك النّزول أو من طريق الدّهليز.

كانت ضربات المطارق تصير أقلّ قوّة. فبما أنّهم كانوا ينتظرون حصول الاختراق بين لحظةٍ وأخرى، وبما أنّنا كنّا قد شرحنا لهم وضعيّتنا، فقد كانوا يخشون التّسبّب فوق رؤوسنا بانهيارٍ يمكن أن يجرحنا أو يقتلنا أو يرمينا مع الرّدم في الماء.

كما شرح لنا المعلّم أنّه يُخشى كذلك توسّع الهواء. فما أن تُفتح

الثّغرة حتّى يتّجه الهواء صوبها مثل قذيفةٍ مدفعيّة ويقلب كلّ شيء. لذا كان ينبغي أن نبقى محترِسين وأن نحرص على أنفسنا كما يحرص النّقّارون على أنفسهم.

كان الاختلال الذي أصاب الكتلة الصّخريّة بسبب ضربات المطارق يوقع قطعاً صغيرة من الفحم من أعلى المسلك فتتدحرج فوق المنحدر وتغيب في الماء.

والغريب هو أنّه كلّما اقتربت لحظة نجاتنا كنّا نشعر بالوهن أكثر. أنا، لم أكن قادراً على الوقوف. كنتُ مطموراً تحت طبقة الفحم الصّغير غير قادر على رفع ذراعي. وكنتُ أرتجف رغم أنّني لم أكن أشعر بالبرد.

أخيراً، وقعت قطع فحمٍ أكبر من أعلى المسلك وتدحرجت بيننا: كانت الثّغرة قد فُتحت فبهرَنا ضوء المصابيح.

ولكن في اللّحظة نفسها غرقنا في العتمة من جديد. كان تيّار هواء رهيب، لا بل دوّامة تحمل معها قطعاً من الفحم وشتّى أنواع الأنقاض قد نفختْ على المصابيح وأطفأتها.

- إنّه التّيّار الهوائيّ، لا تخافوا، سيُعيدون إشعال المصابيح في الخارج. انتظروا قليلاً.

الانتظار! مزيد من الانتظار!

ولكن في اللّحظة ذاتها سمعنا في ماء الدّهليز صخباً عالياً، فاستدرتُ ورأيتُ ضوءاً قويّاً يتقدّم على صفحة المياه المصطفقة.

- تشجّعوا! تشجّعوا! كان القادمون يصرخون.

وفيما أصبحوا قادرين على أن يمدّوا أيديهم من مسلك النّزول إلى

رفاقنا في المصطبة العليا، كان آخرون يأتون إلينا من جهة الدّهليز.

كان يتقدّمهم المهندس. كان هو أوّل من تسلّق مسلك الصّعود ووجدُتني بين ذراعيه قبل أن أتمكّن من قول كلمة.

أخيراً! كاد قلبي أن يتوقّف.

ولكنّني ظللت أدرك أنّهم يحملونني، ولمّا صرنا خارج الدّهليز المستوي دثّروني بالأغطية.

فأغمضتُ عيني، إلاّ أنّني سرعان ما شعرتُ بانبهارٍ أرغمني على إعادةِ فتحهما.

كان ذلك ضوء النّهار. كنّا في الهواء الطّلق.

وفي اللّحظة ذاتها، ارتمى عليّ جسمٌ أبيض. كان ذلك كابي وقد اندفع بوثبة واحدة إلى ذراعَي المهندس وراح يلحس وجهي. وفي الآن عينه، شعرتُ بأنّ يداً تُمسك بيدي اليُمنى وتقبّلني وسمعتُ صوتاً ضعيفاً يقول لي: «ريمي!». كان ذلك ماتيا. نظرتُ حولي فرأيتُ جمهوراً ضخماً تجمّع في صفّين مُفسحاً في الوسط ممرّاً. كان كلّ ذلك الجمهور صامتاً، إذ طُلبَ إليه ألاّ يُثير مشاعرنا بصراخه. ولكنّ هيئة النّاس ونظراتهم كانت تتحدّث بدلاً عن شفاههم.

في الصّفّ الأوّل، بدا لي أنّني أرى ملابس بيضاء وحللاً مذهّبة تلمع في الشّمس. كان ذلك رهطاً من رجال الدّين في فارْس، قدموا إلى مدخل المنجم ليصلّوا لنجاتنا.

عندما ظهرنا، ركعوا على الأرض المغبرة. فالأرض التي بلّلتها العاصفة، أُتيح لها الوقت خلال أربعة عشر يوماً لتتنشف.

امتدّت عشرون ذراعاً لتحملني، ولكنّ المهندس لم يشأ أن يتركني.

وفخوراً بانتصاره، سعيداً ومختالاً، حملني إلى المكاتب حيث كانت قد حُضِّرت أسرّة لاستقبالنا.

وبعد يومين، كنتُ أتجوّل في شوارع فارْس برفقة ماتيا وأليكسي وكابي، وكان النّاس جميعاً يتوقّفون عند مروري لينظروا إليّ.

وكان بعضهم يأتون ليصافحوني دامعي الأعين.

آخرون كانوا يُديرون وجوههم. كان هؤلاء في حداد ويتساءلون بمرارة لمَ كان الصّبيّ اليتيم هو الذي نجا، فيما بقي ربّ العائلة والابن تحت ركام المنجم، جثّتين بائستين تجرفهما المياه وتتقاذفهما.

ولكن كان بين من يوقفونني مَن كانوا شديدي الإزعاج. كانوا يدعونني للعشاء أو لشرب القهوة قائلين لي:

- هكذا تُخبرنا ما عانيتَه.

فكنتُ أشكرهم وأُكمل طريقي، لأنّه لم يكن يروق لي أن أروي قصّتي لأشخاصٍ لا مُبالين يعتقدون أنّ بإمكانهم شرائي بعشاء أو شراب.

ثمّ أنّني كنتُ أفضّل أن أستمع بدل أن أحكي. فكنتُ أستمع إلى أليكسي وماتيا يرويان لي ما حصل فوق الأرض في الوقت الذي كنّا فيه تحتها.

وكان أليكسي يقول لي:

- عندما كنتُ أفكّر في أنّك متّ من أجلي، لأنّني كنتُ أظنّ أنّك قد متّ، كان ينفطر قلبي.

أمّا ماتيا فكان يقول:

- أمّا أنا، فلم أصدّق يوماً أنّك متّ. لم أكن أعرف هل ستخرج

من المنجم حيّاً، وهل سيُنقذونك في الوقت المناسب. ولكنّني كنتُ واثقاً من أنّك لم تترك نفسك تغرق، وأنّ عمليّة الإنقاذ إذا ما تمّت بسرعة فسيُعثَر عليك في مكانٍ ما. وهكذا، بينما كان أليكسي يتحسّر عليك ويبكيك، كنتُ أنا أتحرّق ألماً وأقول في نفسي: «إنّه ما يزال حيّاً، ولكنّه ربّما سيموت!». وكنتُ أسألُ النّاس: «كم يوماً يمكن أن يبقى الإنسان حيّاً بلا طعام؟ ومتى تنتهي عمليّة إفراغ المياه؟ ومتى سيجري حفر الدّهليز؟». ولكنّ أحداً لم يكن يجيبني كما أريد. ولمّا سألوكم عن أسمائكم، وردّد المهندس اسمك بعد كاروري، انهرتُ أرضاً وأنا أبكي، فداس النّاس عليّ قليلاً ولكنّني لم أشعر بذلك من فرط سعادتي.

كنتُ فخوراً جدّاً لرؤية ماتيا يثق بي إلى هذا الحدّ، بحيث أنّه لم يشأ أن يصدّق أنّني يمكن أن أموت.



الفصل السّابع

درسٌ في الموسيقى

كان قد أصبح لي في المنجم أصدقاء. فمُشاطرةُ المخاوف تؤلّف القلوب. وأن نتألّم ونأمل معاً، هذا كلّه يجعل منّا كائناً أوحد.

كان العمّ غاسبار والمعلّم قد باتت تربطهما بي مودّة كبيرة. ورغم أنّ المهندس لم يعش معنا حالة الحصار تلك، فقد تعلّق بي مثل طفلٍ أُنقِذ من الموت. فدعاني إلى منزله، وهناك اضطررتُ إلى أن أروي لابنته ما حصل لنا خلال الوقت الطّويل الذي كنّا فيه مطمورين تحت الأرض.

كان الجميع يريدون استبقائي في فارْس.

فكان العمّ غاسبار يقول لي:

- سأجد لكَ نقّاراً، وهكذا نبقى معاً على الدّوام.

وكان المهندس يقول:

- سأسند لك إذا شئتَ وظيفة في المكاتب.

فقد كان العمّ غاسبار يجد أنّ من الطّبيعيّ أن أعود للعمل في المنجم. المنجم الذي سيُعاود هو النّزول إليه بعدم المبالاة الذي يميّز من هم معتادون على مواجهة الخطر كلّ يوم. ولكنّني لم أكن أملك عدم مبالاته ولا شجاعته، ولم أكن على استعداد للعمل نقّالاً من جديد. كان المنجم شيئاً جميلاً ويبعث على الفضول وكنتُ سعيداً

لأنّني تمكّنتُ من رؤيته، ولكنّني رأيتُه بما فيه الكفاية ولم تكن لي أدنى رغبة في العودة إلى مسلك الصّعود.

مجرّد التّفكير في الأمر كان يجعلني أشعر بالاختناق. كان أكيداً أنّني لم أُخلق للعمل تحت الأرض. فالحياة في الهواء الطّلق وتحت السّماء، حتّى لو كانت سماء مُثلّجة، تلائمني أكثر. كان هذا ما شرحتُه للعمّ غاسبار وللمعلّم. فتفاجأ الأوّل وحزِنَ الثّاني للفكرة التي كوّنتُها عن العمل في المناجم. أمّا كاروري الذي التقيتُه فقال لي إنّني جبان.

أمّا المهندس، فلم يكن بإمكاني أن أجيبه بالقول إنّني لم أعد أريد العمل تحت الأرض، إذ كان يعرض عليّ العمل في مكاتبه وأن أتعلّم من دروسه إذا ما أردتُ ذلك. لذا آثرتُ أن أخبره الحقيقة كاملةً، فقال لي:

– إنّك تحبّ الحياة في الهواء الطّلق والمغامرة والحريّة. لا يحقّ لي أن أمنعك يا بنيّ، فاتبع طريقك.

صحيحٌ أنّني كنت أحبّ الحياة في الهواء الطّلق. وقد شعرتُ بذلك أكثر ما شعرتُ به خلال وجودي مُحاصَراً في مسلك الصّعود. ولا بدّ أن ندفع الثمن عندما نعتاد على الذهاب أنّى شئنا وعلى فعْل ما نشاء والبقاء أسيادَ أنفسنا.

وفيما كان الجميع يحاول استبقائي في فارْس، كان ماتيا يبدو مهموماً وحزيناً. ولّما كنتُ أسأله عن الأمر كان يُجيبني دوماً أنّه لم يكن من شيء استثنائيّ. ولم يعترف لي بالسّبب الحقيقيّ لاكتئابه إلاّ عندما أبلغتُه أنّنا سنغادر بعد ثلاثة أيّام. فارتمى عليّ معانقاً وقال لي:

– هذا يعني أنّك لن تتخلّى عنّي؟

لمّا سمعتُه يقول هذا وجّهتُ له ضربة وديّة قويّة كي يتعلّم ألاّ يشكّ بي في المستقبل، ولكي أخفي المشاعر التي اجتاحت قلبي أمام صرخة الودّ.

ذلك أنّ تلك الصّرخة كانت نابعة من الودّ لا من المصلحة. فماتيا لم يكن بحاجة إليّ ليكسب قوْته. كان بوسعه أن يكسبه وحده.

كان في الحقيقة يمتلك ميزاتٍ فطريّة لا أملكها أنا بالدّرجة نفسها. فأوّلاً، كان أكثر مهارةً منّي بكثير في العزف على كلّ الآلات وفي الغناء والرّقص وأداء كلّ الأدوار. كما كان يجيد أكثر منّي دعوة «الحضور الكريم»، كما كان يقول فيتاليس، ليُخرج من جيوبه قطَع النقد. كانت تكفي ابتسامته، وعيناه الرّقيقتان وأسنانه البيض وانفتاحه على النّاس، ليؤثّر في القلوب الأقلّ سخاءً. ومن دون أن يطلب شيئاً، كان يبعث في النّاس الرّغبة في العطاء. وكانوا يسْعدون لإسعاده. حتّى أنّه خلال عملي نقّالاً في المنجم، تمكّن مع كابي من جمع ثمانية عشر فرنكاً، وهو مبلغٌ كبير.

إذا ما أضفنا إلى هذا المبلغ المائة وثمانية وعشرين فرنكاً التي كانت في جعبتنا، كانت المحصّلة مائة وستّة وأربعين فرنكاً. ما يعني أنّه لم يعد ينقصنا إلاّ أربعون فرنكاً لشراء بقرة الأمير.

ورغم أنّني لم أشأ العمل في المناجم، لم أغادر فارْس من دون شعورٍ بالحزن لانفصالي عن أليكسي والعمّ غاسبار والمعلّم. ولكن كان هذا قدَري: أن أفترق عمّن أحبّ وعمّن يُكِنّون لي المودّة.

إلى الأمام!

ها نحن في الطّرُق من جديدٍ، القيثارة على الكتف والحقيبة على

الظّهر، فيما يتمرّغ كابي في الغبار فرِحاً.

أعترف بأنّ شعوراً بالرّضا خامرني لمّا أصبحنا خارج فارس، ولمّا وطئتُ الطّريق الصّلدة التي كان وقعُ قدمي عليها مختلفاً عن وقعها على أرض المنجم الموحلة. ها هي الشّمس مشرقة والأشجار مملوءة عافية!

قبل أن نغادر، ناقشنا أنا وماتيا مطوّلاً الطّريق التي سنسلكها. فأنا كنتُ قد علّمتُه قراءة الخرائط، ولم يعد يتصوّر أنّ المسافات التي نقطعها مشياً هي أطول من تلك التي تعبرها الإصبع على الخارطة بين مدينةٍ وأخرى. وبعدما درسنا المنافع والأضرار برويّة، قرّرنا أن نمرّ أوّلاً بكليرمون بدل الذّهاب مباشرةً إلى أوسّيل ومنها إلى شافانون. لم يكن الأمر ليطيلَ طريقنا كثيراً ولكنّه كان سيمنحنا فرصة تقديم العروض في مدن المياه التي تغصّ بالمرضى في مثل تلك الفترة: سان-نكتير، ولو مون-دور، ورواياً، وبوربول. فخلال عملي في المنجم نقّالاً، التقى ماتيا بمرقّص دبّ كان في طريقه إلى مدن المياه هذه، وبحسب قوله يمكن أن يكسب المرء هناك مالاً. وكان ماتيا يريد أن يكسب المال، معتقداً أنّ مائة وخمسين فرنكاً لا تكفي لشراء بقرة. فكلّما جمعنا المزيد من المال، كانت البقرة أجمل. وكلّما كانت البقرة أجمل، كبرَ فرح السيّدة باربُران. وكلّما كبرَ فرح السيّدة باربُران، سعدنا نحن بدورنا.

وعليه، كان يجب التّوجّه إلى كليرمون.

في طريقنا من باريس إلى فارس، كنتُ قد بدأتُ أعلّم ماتيا القراءة والمبادئ الأوّليّة للموسيقى. وطوال المسافة بين فارس وكليرمون

تابعتُ تعليمه.

وإمّا لأنّني لم أكن معلّماً جيّداً - وهذا ممكن - أو لأنّ ماتيا لم يكن تلميذاً نجيباً - وهذا ممكن أيضاً - فإنّ التّقدّم في تعلّم القراءة كان بطيئاً وشاقّاً كما سبق أن قلت.

فعبثاً انكبّ ماتيا على الكتاب وألصق به عينيه، كان يقرأ مخترِعاً أشياء غريبة تتفتّق عنها مخيّلته ولا شأن فيها للتّركيز والانتباه.

لذا كان يعيل صبري أحياناً، فأخبط على الكتاب وأصرخُ غضباً بأنّ رأسه متحجّر لا يدخله شيء.

أمّا هو فلم يكن يغضب، بل ينظر إليّ بعينيه الرّقيقتين ويقول لي مبتسماً:

- هذا صحيح، فرأسي لا يكون حسّاساً إلاّ عند الضّرب.

وغاروفولي لم يكن أحمق، فقد اكتشف هذا الأمر بسرعة.

أيُعقل أن يبقى المرء غاضباً بعد جوابٍ كهذا؟ كنتُ أضحكُ ونستأنف الدّرس.

ولكنْ في دروس الموسيقى لم تواجهنا الصّعوبات نفسها. منذ البداية، حقّق ماتيا تقدّماً مثيراً للإعجاب والعجَب، حتّى أنّه سرعان ما بدأ يُدهشني بأسئلته. وبعدما أدهشني بدأ يُحرجني، وأخيراً أربكني أكثر من مرّة وعجزتُ عن الجواب.

أعترف بأنّ هذا الأمر ضايقني وجرحني. فأنا كنتُ أحمل دور المعلّم على محمل الجدّ، لذا كنتُ أجد أنّ من الجارح أن يطرح عليّ تلميذي أسئلةً أعجز عن الإجابة عنها. كنتُ أجد في الأمر نوعاً من الغشّ.

ولم تكن أسئلة تلميذي قليلة:

- لماذا لا تُكتَب الموسيقى على مفتاحٍ موسيقيّ واحد؟

- لماذا تُستخدَم علامات الرّفع الموسيقيّة عندما تعلو الطّبقة، وعلامات الخفض عندما تنخفض الطّبقة؟

- لِمَ لا يحتوي الفاصلان الأوّل والأخير في مقطوعة موسيقيّة على عدد الموازين المنتظم نفسه دوماً؟

- لماذا تُدَوزَن الكمنجة على نوطاتٍ دون سواها؟

على هذا السّؤال الأخير، أجبتُ بجدارةٍ أنّ الكمنجة ليست آلة من اختصاصي، وأنّني لم أهتمّ يوماً بمعرفة كيف تُدوزَن. فلم يجد ماتيا ما يقوله ردّاً عليّ.

ولكنّ هذه الطّريقة في التّملّص من الموضوع لم يكن يمكن استخدامها في الأسئلة المتعلّقة بالمفاتيح الموسيقيّة أو علامات الخفض بقدرِ ما كان يمكن استخدامها بخصوص نظريّة الموسيقى. كنتُ أشعرُ بأنّ كوني معلّماً للموسيقى والتنغيم يفرض عليّ أن أجيب على الأسئلة المتعلّقة بهما وإلاّ لخسرتُ سيادتي وهيبتي. وأنا كنتُ حريصاً عليهما أشدّ الحرص.

لذا كنتُ إذ لا أحير جواباً أتهرّب على طريقة العمّ غاسبار عندما كان يُجيب على سؤالي عن ماهيّة الفحم الحجريّ بأنْ يقول لي بثقة: إنّه فحمٌ نعثر عليه في الحجارة.

وبقدرٍ من الثّقة أقلّ، كنتُ أجيبُ ماتيا عندما لا يكون لديّ جواب بالقول:

- الأمر كذلك، لأنّه ينبغي أن يكون كذلك. هذه قاعدة.

لم يكن ماتيا من النّوع الذي يتمرّد على القواعد والقوانين، ولكن كانت له طريقة في النّظر إليّ فاغراً فاه وفاتحاً عينيه على وسعهما، بشكلٍ لا يجعلني فخوراً بنفسي.

كان قد مضى على مغادرتنا فارس ثلاثة أيّام عندما طرح عليّ سؤالاً من هذا النّوع. وبدل أن أجيب على سؤاله بعبارة «لا أعرف»، أجبتُ بإباءٍ: «لأنّه كذلك!».

فبدا مشغول البال، ولم أنجح طوال النّهار في جعله يفوه بكلمة، الأمر الذي كان غريباً من طرفه لأنّه كان دوماً على استعداد للضّحك والكلام.

ولكنّني ظللتُ ألحّ عليه حتّى انتهى إلى الكلام، فقال:

- أنت بالتّأكيد معلّم جيّد، وأنا واثقٌ من أنّ أحداً ما كان ليعلّمني مثلك كلَّ ما تعلّمتُه منك. ولكن...

وتوقّف.

- ولكن ماذا؟

- ولكن ربّما كان هناك أمورٌ لا تعرفها. هذا ينطبق حتّى على كبار العلماء، أليس كذلك؟ فعندما تُجيبني بالقول «إنّ الأمر كذلك، لأنّه كذلك»، قد يكون هناك أسبابٌ أخرى لا تُعطينيها لأنّها لم تُعطَ لك. لذا قلتُ في نفسي إنّه قد يمكننا، إن شئتَ، أن نقتني كتاباً لا يكون غاليَ الثّمن، يحتوي على مبادئ الموسيقى.

- هذه فكرة صائبة.

- أليس كذلك؟ كنتُ واثقاً أنّك ستجدها صائبة. ففي النّهاية أنت لا يمكنك أن تعرف كلّ ما يوجد في الكتب، لأنّك لم تتعلّم عن

طريق الكتب.

- ولكنّ معلّماً جيّداً أفضل بألف مرّة من كتابٍ جيّد.

- ما تقوله يدفعني لأحدّثك عن أمرٍ آخر: إن أردتَ فسأذهبُ إلى معلّم حقيقيّ وأسأله أن يعطيني درساً، درساً واحداً، فيقولُ لي كلّ ما لا أعرفه.

- ولكن لماذا لم تذهب لتدرس على معلّم حقيقيّ عندما كنتَ وحدك؟

- لأنّ الأساتذة الحقيقيّين يطلبون لقاء دروسهم مالاً، وأنا لم أشأ أن أقتطع من نقودك ثمن الدّرس.

كنتُ مجروحاً لأنّ ماتيا يحدّثني على هذه الشّاكلة عن معلّم حقيقيّ، ولكنّ كبريائي الغبيّة لم تصمد أمام كلماته الأخيرة، فقلتُ له:

- أنت صبيّ طيّب ونقودي هي نقودك. فأنت تكسبها مثلي لا بل أفضل منّي في أغلب الأحيان. لذا ستأخذ دروساً بقدرِ ما تشاء، وسآخذ معك هذه الدّروس.

ثمّ أضفتُ بشجاعةٍ هذا الإقرار بجهلي:

- هكذا تُتاح لي الفرصة أنا أيضاً لتعلُّم ما أجهله!

لم نكن نحتاج إلى عازف كمنجةٍ شعبيّ ليكون معلّمنا، بل كنّا بحاجةٍ إلى فنّان. فنّان مرموق كأولئك الذين لا يمكن أن يوجدوا إلاّ في المدن الكبيرة. كانت الخارطة تُعْلمني أنّ المدينة الأهمّ في طريقنا إلى كليرمون هي ماند. ولكن هل هي مدينة كبيرة؟ لم أكن أعرف ذلك. ولكنّ اسمها المكتوب على الخارطة بحروف كبيرة كان يمحضها هذا الكبر. فصدّقتُ خارطتي.

وهكذا تقرّر أن ننفق في ماند مبلغاً كبيراً لقاء درس موسيقى. ومع أنّ إيراداتنا في جبال «الوزير» الحزينة تلك، حيث القرى نادرة وفقيرة، كانت متواضعة فإنّني لم أشأ أن أؤخّر فرحة ماتيا أكثر من ذلك.

اجتزنا كاملَ هضبة ميجان الكلسيّة، وهي المكان الأكثر حزناً وبؤساً في العالم. فليس فيها من غابات ولا من مياه، ولا من زرع ولا من قرى ولا من سكّان، لا أدنى أثرٍ لحياة، بل فقط قفار شاسعة وكئيبة لا يمكن أن يجد فيها سحْراً إلاّ من يجتازها مسرعاً في عربة. ثمّ وصلنا أخيراً إلى «ماند».

كان اللّيل قد هبط منذ عدّة ساعات، ولم يكن بإمكاننا أخذ درس الموسيقى ذلك المساء. ثمّ إنّنا كنّا مُرهَقين.

ولكنّ ماتيا، الذي لم تبدُ له مدينة ماند بالأهميّة التي كنت قد أوحيتُ له بها، كان متلهّفاً لمعرفة ما إذا كان فيها معلّم موسيقى. ولذا ففيما كنّا نتناول العشاء سألتُ مديرة النّزل ما إذا كان في ماند موسيقيّ جيّد يُعطي دروساً في الموسيقى.

فأجابتنا أنّ سؤالنا يُدهشها، أفلا نعرفُ المعلّم إيبيناسو؟

فقلتُ لها:

– نحن قادمان من بعيد.

– لا بدّ أنّكما قادمان من مكانٍ بعيدٍ جدّاً في هذه الحالة.

فأجاب ماتيا:

– من إيطاليا.

فتلاشت دهشتها، وبدا عليها أنّها اقتنعت بأنّ قدومنا من مكانٍ بهذا البُعد يجعل من الصّعب علينا أن نعرف المعلّم إيبيناسو. ولكن لو

قلنا لها إنّنا آتيان من ليون أو مرسيليا، لما استمرّت بالإجابة على أسئلة شخصين هما من انعدام الثّقافة بحيث لم يسمعا بالمعلّم إيبيناسو.

فقلتُ لماتيا بالإيطاليّة:

- أظنّ أنّنا عثرنا على ضالّتنا.

فالتمعت عينا شريكي. فلا شكّ في أنّ المعلّم إيبيناسو سيردّ على كلّ أسئلته بصورة وافية ولن يجد صعوبةً ليشرح له لماذا تُستخدم علامات الخفض عند انخفاض الطّبقة وعلامات الرّفع عند ارتفاعها.

ولكنّ خشيتي كانت هي التّالية: هل سيرضى فنّان بمثل هذه الشّهرة بأن يُعطي درساً لولدين بائسين مثلنا؟

فقلتُ:

- وهل المعلّم إيبيناسو شديد الانشغال؟

- أوه! أجل! أعتقد أنّه شديد الانشغال. وكيف لا يكون كذلك؟

- أوَ تعتقدين أنّه يمكن أن يستقبلنا غداً صباحاً؟

- طبعاً، فهو يستقبل الجميع طالما أمكنهم أن يدفعوا.

كان هذا رأينا نحن أيضاً، فاطمأنّينا. وبرغم التّعب، تناقشنا مطوّلاً قبل النّوم بشأن كلّ الأسئلة التي كنّا سنطرحها في الغد على هذا المعلّم المشهور.

وبعدما اغتسلنا، وتلك كانت طريقتنا الوحيدة للتّأنّق لأنّنا لم نكن نملك ثياباً أخرى غير تلك التي نرتديها، حمل ماتيا كمنجته وأنا قيثارتي وانطلقنا إلى منزل المعلّم إيبيناسو.

كالعادة، أراد كابي أن يرافقنا، ولكنّنا ربطناه في إصطبل النّزل، إذ اعتقدنا أنّ من غير الملائم الذّهاب برفقة كلب لزيارة موسيقيّ مانْد

الشهير.

لمّا وصلنا أمام المنزل الذي دلّونا عليه، خِلنا أنّنا أخطأنا الطّريق. فأمام واجهة المنزل كان يتأرجح وعاءا حلاقة صغيران من النّحاس، ما يشير إلى دكّان حلاقة، لا إلى معلّم موسيقى.

ولمّا بقينا واقفين ننظر إلى هذه الواجهة التي كان يبدو أنّها واجهة حلاّق بالفعل، مرّ أمامنا شخصٌ فاستوقفناه لنسأله أين يعيش المعلّم إيبيناسو.

فأجاب مشيراً إلى دكّان الحلاقة:

- هنا.

ما المانع بعد كلّ شيءٍ في أن يقيم معلّم موسيقى عند حلاّق؟

فدخلنا. كان الحانوت مقسوماً إلى قسمين متعادلين. في القسم الأيمن، رفوف تعلوها فَراشٍ وأمشاط وأوعية دهون وصابون. أمّا في القسم الأيسر، فآلات موسيقيّة من كمنجات وأبواق من مختلف الأصناف موضوعة على منضدة أو مُسندة إلى الجدار أو معلّقة عليه.

فنادى ماتيا:

- معلّم إيبيناسو؟

وإذا برجلٍ نشيطٍ وحَرِكٍ كمثلِ عصفور كان يحلق ذقن قرويّ جالسٍ على مقعد، يجيب بصوتٍ جهير:

- أنا هو.

فرمقتُ ماتيا بنظرةٍ لأقولَ له إنّ الحلاّق الموسيقيّ ليس الشّخص المناسب ليُعطينا درس الموسيقى، وأنّ الاستعانة به ستكون بمثابةِ إلقاء نقودنا من النّافذة. ولكن بدل أن يفهم ماتيا ما أرمي إليه

ويطيعني، ذهب وجلس على أحد الكراسي وعلى وجهه أمارات التّصميم، وقال:

- أيمكن أن تقصّ لي شعري عندما تنتهي من حلاقة السيّد؟

- بالتّأكيد، ويمكن أن أحلق ذقنك أيضاً لو أردت.

فأجاب ماتيا:

- شكراً، ولكن ليس اليوم، عندما آتي مرّة أخرى.

كنتُ مندهشاً من ثقة ماتيا. فرمقني بنظرة مواربة ليقول لي أن أنتظر قليلاً قبل أن أغضب.

ولّما انتهى إيبيناسو من حلاقة القرويّ، أتى ليقصّ شعر ماتيا حاملاً مِنشفةً. وفيما كان يعقدها حول عنق ماتيا قال له هذا الأخير:

- سيّدي، كنّا أنا ورفيقي نتناقش، وبما أنّنا نعرف أنّك موسيقيّ مشهور، فكّرنا في أنّك يمكن أن تبدي لنا رأيك في المسألة التي تشغلنا.

- قلْ ما الذي يشغلكما؟

فأدركتُ ما كان يسعى ماتيا إليه. كان يريد في البداية أن يتأكّد من أنّ هذا الحلاّق الموسيقيّ قادرٌ أن يجيب على أسئلته، وفي حالِ كانت الإجابات وافية كان ينوي الحصول على درس الموسيقى بسعر حلاقةِ شعر. يا له من محتال!

فسأل ماتيا:

- لماذا تُدَوزَن الكمنجة على نوطات دون سواها؟

خلتُ أنّ هذا الحلاّق الذي كان في تلك اللّحظة بالذّات يمرّر المشط في شعر ماتيا الطّويل، سيكون جوابه على طريقة أجوبتي. وكنتُ قد بدأتُ أضحكُ سرّاً عندما قال:

- يجب أن يُعطي الوتر الثّاني الموجود على يسار الآلة نغمَ «لا»[1] على المستوى العاديّ. ولذا ينبغي دَوزنة الأوتار الأخرى لتُعطي الأنغام من خماسيّةٍ إلى أخرى، أي نغمَ «سول» على الوتر الرّابع، ونغمَ «ريه» على الوتر الثّالث، و«لا» على الوتر الثّاني، و«ميه» على الوتر الأوّل المسمّى «الزّير»[2].

لم أكن أنا من ضحك، بل ماتيا. فهل كان يسخر من تعابير اندهاشي؟ أم كان ببساطةٍ فرحاً لمعرفة ما أراد تعلّمه؟ في كلّ الأحوال، كان غارقاً في الضّحك.

أمّا أنا فبقيتُ فاغراً فمي أنظر إلى الحلاّق الذي كان يُلقي خطابه القصير هذا الذي بدا لي باهراً وهو يدور حول ماتيا مطقطقاً مقصّه.

ثمّ توقّف فجأةً أمامي وقال لي:

- أعتقد أنّ زبوني الصّغير هو من كان على حقّ.

وطوال الوقت الذي استلزمته الحلاقة، لم يتوقّف ماتيا عن طرح الأسئلة. ولدى كلّ سؤال كان الحلاّق يجيب بالسّهولة والثّقة نفسيهما اللّتين ميّزتا إجابته حول الكمنجة.

ولكن بعدما أجاب عن الأسئلة، بدأ يتساءل في نفسه عن الغرض من كلّ هذه الأسئلة وسرعان ما تنبّه إلى السّبب الذي جعلنا نقصده.

فغرق في الضّحك وقال:

- يا لهذين الولدين الذّكيّين والظّريفين!

---

(1) إحدى درجات السّلّم الموسيقيّ، وترد في الفقرة ذاتها أسماء الدّرجات الأخرى (المترجمة).

(2) هو أدقّ الأوتار وأحدّها (من الحدّة) (المترجمة).





ثمّ أراد من ماتيا، وكان بلا شكّ أكثر ظُرفاً منّي، أن يعزف له مقطوعةً موسيقيّة. فتناول ماتيا كمنجته بشجاعة وراح يعزف لحن فالس.

- وتقول إنّك لا تُجيد قراءة النّوطات الموسيقيّة؟ هتف الحلاّق وهو يصفّق رافعاً الكلفة بينه وبين ماتيا كما لو كان يعرفه منذ زمن طويل.

قلتُ إنّه كان هناك آلات موسيقيّة موضوعة على منضدة وأخرى معلّقة على الجدار. ولمّا انتهى ماتيا من عزف المقطوعة على كمنجته، تناول مزماراً وقال:

- إنّني أجيد العزف على المزمار أيضاً، وعلى البوق.

فهتف إيبيناسو:

- هيّا اعزف.

فعزف ماتيا مقطوعةً موسيقيّة على كلٍّ من الآلتين.

فصرخ إيبيناسو:

- هذا الصبيّ مُعجزة! إن أردتَ البقاء معي فسأصنع منك موسيقيّاً كبيراً. أتسمع؟ موسيقيّاً كبيراً! في الصّباح تحلق معي شعر الزّبائن وفي بقيّة النّهار أدرّبك. وكوني حلاّقاً لا يعني أنْ ليس في مقدوري أن أكون معلّماً قادراً على تثقيفك. ذلك أنّه يجب أن نعيش ونأكل ونشرب وننام، ومن هنا الحاجة لمهنة الحلاقة. فالحلاقة لم تمنع جاسمان[1] من أن يكون أكبر شاعرٍ في فرنسا. إنّ مدينة «آجان» هي

---

(1) هو الشّاعر جاك بُويه Jacques Boé الملقّب بجاسمان Jasmin (أي «ياسمين»)، وهو في الفرنسيّة اسم مذكّر). وُلد في مدينة آجان Agen الفرنسية في 1798 وتوفّي =

لجاسهان، أمّا «مانْد» فلإيبيناسو.

لمّا سمعتُ نهاية هذا الخطاب، نظرتُ إلى ماتيا. بمَ سيجيب؟ هل سأخسر صديقي ورفيقي وأخي كما فقدتُ تِباعاً كلّ مَن أحببتُ؟ انقبض قلبي. ولكنّني لم أستسلم لهذا الشّعور. فالوضع كان مشابهاً نوعاً ما لذلك الذي ألفيتُني فيه أمام فيتاليس لمّا طلبَتِ السيّدة ميليغان أن أبقى معها: لذا لم أشأ أن ألوم نفسي كما فعل فيتاليس.

فقلتُ بصوتٍ متأثّر:

- لا تفكّرْ إلاّ في نفسك يا ماتيا.

ولكنّه اقترب منّي بسرعة وأمسك يدي وقال:

- لن أقدر أبداً أن أتخلّى عن صديقي! مستحيل! إنّني أشكرك يا معلّم.

ولكن إيبيناسو أصرّ قائلاً إنّه، بعدما يتلقّى ماتيا تعليمه الأوّل، سيجد هو وسيلةً لإرساله إلى تولوز ثمّ إلى المعهد الموسيقيّ في باريس.

ولكنّ جواب ماتيا لم يتغيّر:

- يستحيل أن أترك ريمي!

فقال إيبيناسو:

- حسناً يا صغير، أريد أن أقوم من أجلك بأمرٍ ما. سأعطيكَ كتاباً تتعلّم فيه كلّ ما لا تعرفه.

وراح يبحث في الأدراج. وبعد وقتٍ غير قصير، عثر على الكتاب وكان عنوانه «نظريّة الموسيقى». كان كتاباً عتيقاً ومهلهلاً ولكن ما همّ!

= فيها في 1864. كان شاعراً ويمتهن الحلاقة أيضاً (المترجمة).

ثمّ تناول قلماً وكتب على الصّفحة الأولى: «أُهدي هذا الكتاب إلى الصّغير الذي عندما سيصير فنّاناً فسيتذكّر حلاّق مدينة مانْد».

لا أعرف إن كان في مانْد يومذاك معلّمو موسيقى غير الحلاّق إيبيناسو. ولكن هذا هو المعلّم الذي عرفته والذي لم ننسَه أنا وماتيا يوماً.



الفصل الثّامن

بقرة الأمير

لّما وصلنا إلى «ماند» كنتُ أحبّ ماتيا بشدّة. ولكن لّما غادرناها كنتُ أحبّه أكثر. فهل في الصّداقة ما هو أفضل وأرقّ من أن نكون واثقين من أنّ من نحبّهم يبادلوننا المحبّة؟

وأيّ برهان على المحبّة كان بوسع ماتيا أن يقدّمه لي أكبر من رفضه، كما فعل، عرضَ إيبيناسو؟ فهو قد رفض راحة البال والأمان والرّفاهية وتحصيل العِلم حاضراً والثّروة مستقبلاً، ليُقاسمني حياة المغامرة غير المأمونة التي قد لا يكون لها مستقبل ولا غد.

أمام إيبيناسو، لم أتمكّن أن أعبّر له عن مدى التّأثير الذي أحدثته فيّ صرخته: «أيُعقل أن أتخلّى عن صديقي؟» ولكن لّما خرجنا، أمسكتُ يده وقلتُ وأنا أشدّ عليها:

- أتعرف أنّ صداقتنا معقودة مدى الحياة وإلى المهات؟

فراح يبتسم وهو ينظر إليّ بعينيه الواسعتين وقال:

- كنتُ أعرف ذلك من قبل.

حتّى تلك اللّحظة، لم يكن ماتيا مولعاً بالقراءة جدّاً، ولكنّه حقّق تقدّماً مُدهشاً في اليوم الذي بدأ فيه بقراءة «نظريّة الموسيقى» للألمانيّ كليمنس كون. ولكن لم أتمكّن للأسف من جعله يدرس بالقدر الذي كنت أودّ، والذي كان يودّ هو أيضاً، لأنّنا كنّا مُرغمين على المشي من

الصّباح حتّى المساء، على مراحل طويلة لكي نجتاز بأسرع ما يمكن منطقتي لوزير وأوفيرنيي اللّتين ما كانتا تستقبلان المغنّين والموسيقيّين بترحاب كبير. ففي تلك الأراضي الفقيرة، لم يكن المُزارع القليل الغلّة مستعدّاً لإنفاق ماله على العروض الفنيّة. تراه يستمع بهدوءٍ طالما كان العزف مستمرّاً، وعندما تحين لحظة جمع التبرّعات يدير ظهره أو يوصد باب بيته.

وأخيراً، عبرْنا سان-فلور وإيسوار ووصلنا إلى مدن المياه التي كانت هي مقصدنا. ولحسن الحظّ كانت معلومات مرقّص الدبّة صحيحة، ففي بوربول ومون-دور خصوصاً حقّقنا عائدات جيّدة.

ولكي أكون منصفاً، ينبغي أن أقول إنّ ذلك حصل بفضل براعة ماتيا خصوصاً ولباقته. فأنا عندما كنتُ أرى أناساً متجمّعين، كنتُ أتناول قيثارتي وأروح أعزف باذلاً قُصارى جهدي، هذا صحيح، ولكن بنوعٍ من عدم المبالاة. أمّا ماتيا فلم يكن يلجأ إلى هذه الطّريقة البدائيّة. فهو لم يكن يكفيه أن يرى أشخاصاً متجمّعين لكي يبدأ العزف على الفور، بل كان، قبل أن يتناول كمنجته أو بوقه، يدرس جمهوره عن كثب. ولم يكن يلزمه وقتٌ طويل ليقرّر ما إذا كان سيعزف أم لا، وليعرف خصوصاً ماذا سيعزف.

فمِن غاروفولي الذي كان يستغلّ إلى أقصى الحدود إحسان الجمهور، تعلّم ماتيا كلّ لطائف ذلك الفنّ الصّعب الذي يقتضي استثارة كرم النّاس وتعاطفهم. وفي المرّة الأولى التي رأيتُه فيها في العليّة في شارع لورسين، أدهشني كثيراً وهو يشرح لي الأسباب التي تحمل النّاس على التبرّع. ولكنّه أدهشني أكثر عندما رأيتُه يطبّق ذلك

فعلياً.

وفي مدن المياه، استخدم كلّ براعته. استخدمها مع الجمهور الباريسيّ، جمهوره القديم الذي تعلّم أن يعرفه والذي عاد والتقاه هنا ثانيةً.

فعندما كنّا نرى امرأةً شابّة ترتدي ثياباً سوداء تتّجه إلينا في ممّرات كابوسان، كان يقول لي:

- انتبه، ينبغي أن نعزف لحناً حزيناً. فلنحاول أن نحنّن قلبها وأن نذكّرها بمن فقدتْه: فإن بكت ففي ذلك نصيبنا.

وكنّا نبدأ بعزفٍ بطيءٍ يقطّع القلب.

ثمّة في أنحاء مون-دور متنزّهات تُسمّى «صالونات»، وهي عبارة عن مجاميع من الأشجار يقضي السّابحون في فيئها بضع ساعات في الهواء الطّلق. فكان ماتيا يتفحّص جمهور تلك «الصّالونات»، وتبعاً لملاحظاته نتّفق على ما سنعزف.

وعندما كنّا نرى أحد المرضى جالساً بكآبة على كرسيّ، شاحبَ الوجه، غائر الخدّين، كنّا نتفادى الذّهاب والوقوف أمامه بفظاظة نقطع بها أفكاره الحزينة. لا بل كنّا نبدأ بالعزف بعيداً عنه، كما لو كنّا نعزف لمتعتنا نحن أنفسنا، مجتهدين بدقّة. ونروح نراقبه مواربةً، فإن نظر إلينا بغضب غادرناه، وإن بدا عليه أنّه يستمع بسرور، اقتربنا منه، فيتمكّن كابي من مدّ قصعته بجرأة دون أن يخشى أن يُطرد بالرّفسات.

ولكنّ النّجاحات المُجزية كان ماتيا يحقّقها أكثر مع الصّغار. فبقوسِ كمنجته كان يحثّهم على الرّقص، وبابتسامته يجعلهم يضحكون حتّى عندما يكونون عكري الأمزجة. كيف كان يفعل

ذلك؟ لا أعرف. ولكن، ببساطة، كان النّاس يُعجبون به ويحبّونه.

كانت حصيلة مجهودنا رائعة بالفعل. فبعدما سدّدنا أثمان كلّ نفقاتنا، بقي لدينا ثمانية وستّون فرنكاً من العوائد.

ثمانية وستّون فرنكاً مُضافةً إلى المائة والستّة والأربعين التي كنّا نملكها، فيكون المجموع مائتين وأربعة عشر فرنكاً. كان الأوان قد حان للتّوجّه بلا تأخير إلى شافانون مروراً بأوسّيل حيث كان يُفترض أن تُقام، على ما قيل لنا، سوق مهمّة للحيوانات.

إنّ سوقاً من هذا النّوع كانت تهمّنا. فستتمكّن أخيراً من اقتناء البقرة التي غالباً ما كنّا نتحدّث عنها والتي واظبنا على الادّخار في سبيل الحصول عليها.

حتّى تلك اللّحظة لم نعرف إلاّ متعة دغدغة حلمنا وجعله جميلاً بقدر ما تسمح به مخيّلتنا. كان ماتيا يريد بقرةً بيضاء. وأنا كنتُ أريدها صهباء إحياءً لذكرى بقرتنا المسكينة صُهَيبة. وكنّا نريدها رقيقةَ الطّباع، وتُعطي أكثر من دلو من الحليب. كان كلّ هذا رائعاً وساحراً.

ولكن كان يجب الانتقال من الحلم إلى التّنفيذ. وهنا بدأت العوائق.

فكيف نختار بقرتنا ونكون واثقين من أنّها ستمتلك بالفعل كلّ المواصفات التي كان يحلو لنا أن نسبغها عليها؟ كانت تلك مسألة جسيمة. يا للمسؤوليّة! فأنا لم أكن أعرف علامَ يجب الاستناد لاختيار بقرةٍ جيّدة، وكان ماتيا جاهلاً بقدري.

وما كان يُضاعف من قلقنا هو الرّوايات المثيرة للعجب التي كنّا سمعناها في الأنزال منذ أن قرّرنا شراء بقرة. فكلّما جيء على ذكر تجّار

الخيول والأبقار، انجرف الحديث إلى أساليب الخداع والتدليس. وكم حكاية من هذا القبيل بقيت عالقة في ذاكرتنا لتخيفنا، كقصّة ذلك القرويّ الذي اشترى في السّوق بقرة لها أجمل ذيلٍ يمكن أن تمتلكه بقرة. فمع ذيل كذلك يمكنها أن تطرد الذّباب حتّى من على رأس خطمها، وفي هذا كما يعلم الجميع مزية كبيرة. وعاد القرويّ إلى منزله ظافراً لأنّه لم يدفع غالياً ثمن تلك البقرة العجيبة. وفي صباح اليوم التّالي ذهب يتفقّدها فوجد أنّه لم يعد لها ذيل على الإطلاق. فما كان يتدلّى خلفها بكامل الخيلاء كان في الواقع ذيلاً زائفاً أُلصق بِجذعة. وثمّة حكاية عن قرويّ آخر اشترى بقرة لها قرنان زائفان. وآخر لمّا أراد أن يحلب بقرته اكتشف أنّ ضروعها تعاني من ورَم، وأنّها لن تدرّ كوبين من الحليب طوال أربع وعشرين ساعة. لذا كان يجب ألاّ تحصل لنا حوادث مشابهة.

فالذّيل الزّائف ما كان ليخيف ماتيا، فهو سيتعلّق بكلّ ثقله بأذيال كلّ الأبقار التي تلفت أنظارنا، ويشدّ عليها بقوّة، فإذا كانت زائفة انقطعتْ. أمّا ورم ضروع الأبقار فكانت لديه كذلك طريقة موثوقة لاكتشافه، وهي أن يخزها بدبّوسٍ طويلٍ ضخم.

ستكون هذه الطّرق ناجحة بلا أدنى شكّ، لا سيّما إذا ما كان الذّيل زائفاً والضّروع متورّمة. ولكن ماذا لو كان الذّيل حقيقيّاً؟ ألا يُخشى في هذه الحالة أن توجّه البقرة رفسةً قويّة إلى بطن مَن يشدّ ذيلها بقوّة؟ أوَلن تفعل الأمر نفسه عندما تشعر بوخزٍ في ثديها؟

فكرة التّعرّض لرفسة هدّأت من جموح مخيّلة ماتيا وبقينا غارقين في مخاوفنا. فسيكون رهيباً بالفعل أن نُقدّم للسيّدة باربُران بقرةً لا

تُعطي حليباً أو ليس لها قرنان.

من بين القصص التي حُكيت لنا قصّة لعبَ فيها طبيب بيطريّ دوراً مهمّاً في فضحِ حيَلِ تاجر الأبقار. فإن لجأنا إلى طبيب بيطريّ كان في ذلك إنفاق إضافيّ بالتّأكيد، ولكنّه سيطمئننا كثيراً.

وفي قمّة حيرتنا، توقّفنا عند هذا الخيار ووجدنا أنّه الأكثر حكمةً، فتابعنا طريقنا فرحين.

المسافة ليست طويلة من مون-دور إلى أوسّيل. فقطعناها في يومين ووصلنا إلى أوسّيل في وقتٍ مبكّر.

كانت تلك منطقتي إذا جاز القول. ففي أوسّيل مثّلتُ أمام الجمهور دوري الأوّل في مسرحيّة «خادم السيّد جولي-كور أو الأكثر غباءً بين الاثنين ليس هو من نَحسب». وفي أوسّيل أيضاً اشترى لي فيتاليس حذائي الأوّل، ذلك الحذاء المسمّر الذي أفرحني كثيراً.

مسكين جولي-كور، فهو لم يعد هنا ببذلة الجنرال الإنجليزيّ الحمراء الجميلة. كان ينقص أيضاً ذِرْبِينو ودولتشي اللّطيفة.

مسكين فيتاليس، لقد خسرتُه ولن أراه بعد اليوم ماشياً رافعاً رأسه، منتصب القامة، محرّكاً يديه وقدميه على وقع مقطوعة الفالس التي يعزفها على مزماره الرّنّان.

كنّا ستّة في ذلك الوقت، ولم يبقَ منّا اليوم إلاّ اثنان: أنا وكابي. هذه الذّكريات جعلتني أدخل أوسّيل كئيباً، فرغماً عنّي كنتُ أتخيّل أنّني سألمح قبّعة فيتاليس عند زاوية كلّ شارع وأنّني سأسمع نداءه الذي تردّد صداه كثيراً في أذنيّ: «إلى الأمام!».

ولكن لحسن الحظّ فإنّ رؤية حانوت الرّثّاث الذي قادني فيتاليس

إليه ليجد لي ملابس فنّان جاءت لتطرد هذه الأفكار الحزينة. كان لا يزال على حاله كما رأيتُه عندما نزلتُ للمرّة الأولى درجاته الثّلاث الزّلقة. على الباب لا تزال تتأرجح البذلة المزيّنة بالشّرائط نفسها التي أثارت إعجابي، وفي الواجهة لا تزال معلّقةً البنادقُ القديمة نفسها والمصابيحُ العتيقة ذاتها.

أردتُ كذلك أن أُري ماتيا السّاحة التي مثّلتُ فيها للمرّة الأولى دور خادم السيّد جولي-كور، أي الأغبى بين الاثنين. فتذكّر كابي المكان وراح يهزّ ذيله.

وبعدما وضعنا حقائبنا وآلاتنا في النّزل حيث أقمتُ في الماضي مع فيتاليس، انطلقنا بحثاً عن بيطريّ.

ولمّا سمع هذا الأخير طلبنا بدأ بالضّحك منّا، وقال:

- ليس في هذه المنطقة أبقارٌ مدرَّبة!

- نحن لا نبحث عن بقرة تقدّم عروضاً فنيّة، بل عن بقرة تدرّ حليباً جيّداً.

- ويكون ذيلُها حقيقيّاً، أضاف ماتيا الذي كانت تؤرقه فكرة الذّيل الزّائف.

- بإيجازٍ، نحن يا حضرة الطّبيب جئنا نسألك أن تساعدنا بعلمك ومعرفتك كي لا يغشّنا تجّار الأبقار.

قلتُ ذلك محاولاً تقليد هيئة فيتاليس النّبيلة التي كان يتّخذها عندما يريد استمالة النّاس وكسْبهم.

- ولكن لأيّ غرضٍ تريدون البقرة؟ سأل البيطريّ.

فشرحتُ له بكلمات قليلة هدفنا من شراء البقرة.





فقال:

- أنتما ولدان طيّبان. سأرافقكما غداً صباحاً إلى السّوق، وأعدكما بألاّ يكون للبقرة التي سأختارها لكما ذيلٌ زائف.

- ولا قرنان زائفان؟ قال ماتيا.

- ولا قرنان زائفان.

- ولا ضروع تعاني من ورَم؟

- ستكون بقرة جميلة وجيّدة. ولكن حتّى تشترياها ينبغي أن يكون في مقدوركما تسديد ثمنها.

ومن دون أن أجيبه، حللتُ عقدة فوطةٍ كانت تحوي كنزنا كلّه.

- ممتاز! تعالا لمرافقتي غداً في السّابعة صباحاً.

- وبكم ندين لك يا سيّدي البيطريّ؟

- لا شيء إطلاقاً. فكيف يمكنني أخذ النّقود من ولدين طيّبين مثلكما؟

لم أكن أعرف كيف أشكر هذا الرّجل الطّيّب، ولكن ماتيا خطرت له فكرة فسأل البيطريّ:

- سيّدي، أتحبّ الموسيقى؟

- كثيراً يا بنيّ.

- وهل تنام باكراً؟

كانت كلّ هذه الأسئلة بلا ترابط، إلاّ أنّ البيطريّ لم يأنف من الجواب وقال:

- في تمام التّاسعة.

- شكراً يا سيّدي. إلى الغد في السّابعة إذن.

- هذه الأفكار هي لأوقات التّعاسة، وهذا ليس وقتها حقّاً.

لنا:

- أنتما صبيّان طيّبان، ولكنكما متهوّران أيضاً. أفلم تفكّرا أنّ الشّرطيّ يمكن أن يوقفكما بتهمة إقلاق راحة السّكّان ليلاً!

عاودنا عرضنا الموسيقيّ في الحديقة. لم تكن كبيرة ولكنّها كانت مرتّبة وفيها عريشةٌ تغطّيها نباتات متسلّقة.

وبما أنّ البيطريّ كان متزوّجاً وله عدّة أولاد، فسرعان ما أحاطنا الجمهور. فأُشعلَت الشّموع تحت العريشة وبقينا نعزف حتّى تعدّت السّاعة العاشرة. وعند نهاية كلّ معزوفة، كانوا يصفّقون لنا ويطلبون أخرى.

ولو لم يطلب منّا البيطريّ الرّحيل، لكنّا ظللنا نعزف حتّى وقتٍ متقدّم من اللّيل استجابةً لطلب الأولاد.

فقال البيطريّ:

- دعوهما يخلدان إلى النّوم، إذ يجب أن يكونا هنا غداً في السّابعة.

ولكنّه لم يتركنا نرحل قبل أن يقدّم لنا وجبةً خفيفة وجدناها لذيذة. وعلى سبيل الشّكر، قام كابي ببعض ألعاب الخفّة المسلّية، ممّا أفرح الأولاد كثيراً. وعندما غادرنا كان الوقت يقارب منتصف اللّيل.

مدينةُ أوسّيل الهادئة مساءً، كانت في صباح اليوم التّالي تعمّها الجلبة والحركة. وقبل طلوع الضّوء سمعنا من غرفتنا صخب الطّنابير المستمرّ على بلاط الشّوارع يختلط بصهيل الأحصنة وخوار الأبقار وثُغاء الخِراف وصراخ القرويّين الوافدين إلى السّوق.

وعندما نزلنا، كانت باحةُ النّزل تغصّ بالطّنابير. ومن العربات

التي تصل، كان ينزل قرويّون متأنّقون يحملون نساءهم ليساعدوهنّ في النّزول. فيروح الجميع ينفض ملابسه والنّساء يُزِلن تجاعيد تنانيرهنّ.

أمّا في الطّريق، فكان مدٌّ جماهيريّ يتّجه صوب المكان الذي تُقام فيه السوق. كانت السّاعة لا تزال السّادسة، فأردنا أن نفحص البقرات الموجودة وأن نختار واحدة قبل الجميع.

آه! يا للبقرات الجميلة! كان هناك من كلّ الألوان والأحجام. منها السّمين ومنها الأعجف، منها التي كانت برفقة صغارها ومنها التي تجرّ على الأرض أثداءها الملأى حليباً. كان هناك أيضاً خيول تصهل وأفراسٌ تلحس صغارها وخنازير سمينة تحفر لنفسها في الأرض حُفَراً، وخنانيص تصرخ كما لو كانت تُسلَخُ حيّةً، وخراف ودجاج وإوزّ. ولكنّ ما همّنا من كلّ هذا! فنحن لم نكن نرى إلاّ الأبقار التي كانت تطْرف بعيونها ونحن نفحصها، وتحرّك بهدوء خطمها مجترّةً ما كانت أكلتْه ليلاً، وهي لا تدرك أنّها لن تأكل بعد تلك اللّحظة عشب المراعي التي نشأت فيها.

بعد نصف ساعةٍ من التّجوال، وجدنا سبع عشرة بقرة تلائمنا تمام الملاءمة، واحدة لميزةٍ معيّنة فيها وأخرى لميزةٍ مختلفة، ثلاث منها للونها الأصهب واثنتان للونها الأبيض. الأمر الذي نتج عنه بالطّبع نقاشٌ بيني وبين ماتيا.

وفي السّاعة السّابعة ذهبنا إلى البيطريّ الذي كان في انتظارنا، وعُدْنا بصحبته إلى السّوق ونحن نشرح له من جديدٍ أيّة مزايا نريدها في البقرة التي ننوي شراءها.

كانت هذه المزايا تُختصر في اثنتين: أن يكون حليبها مدراراً وألاّ تأكل كثيراً.

- هذه واحدة يُفترض أن تكون جيّدة، قال ماتيا مشيراً إلى بقرةٍ بيضاء.

- أظنّ أنّ هذه أفضل، قلتُ من جهتي وأنا أشير إلى بقرةٍ صهباء.

ولكنّ البيطريّ لم يتوقّف عند أيّ منهما، بل توجّه صوب بقرةٍ ثالثة. كانت بقرة صغيرة، نحيلة القوائم، حمراء الجسم، سمراء الأذنين والخدّين، عيناها مُحاطتان بالسّواد وتحيط خطمها دائرةٌ بيضاء.

- هاكما بقرة من منطقة رونيرغ هي تماماً ما يلزمكما، قال البيطريّ.

كان قرويّ يبدو عليه الفقر يمسك بها من رسنها. فتوجّه إليه البيطريّ بالسّؤال عن ثمنها.

- ثلاثمائة فرنك.

كانت هذه البقرة الرّشيقة والمتيقّظة والتي يبدو عليها الحذق قد خطفت إعجابنا، فصُعقنا.

لم يكن في مقدورنا دفع ثلاثمائة فرنك. فأومأتُ للبيطريّ لأقولَ له إنّنا يجب أن نبحث عن أخرى. فأومأ لي بدوره ليقول لي إنّنا على العكس ينبغي أن نُساوِم أكثر.

وبدأ بينه وبين القرويّ نقاشٌ: عرضَ البيطريّ مائة وخمسين فرنكاً، فخفض القرويّ سعره الأوّل بقدر عشرة فرنكات. صعّد البيطريّ العرض إلى مائة وسبعين، فخفض القرويّ سعره إلى مائتين وثمانين.

عند هذا الحدّ، لم تستمرّ الأمور على المنوال ذاته، فالبيطريّ، بدل

أن يعرض ثمناً راح يتفحّص البقرة بدقّة ويقول إنّ ساقيها واهنتان وعنقها شديد القصر وقرنيها شديدا الطّول، وإنّ رئتيها ضعيفتان وثديِيها ضامران.

فأجاب القرويّ بأنّه، طالما أنّنا واسعو الاطّلاع، فسيمنحنا البقرة مقابل مائتين وخمسين فرنكاً حتّى تكون في أيدٍ أمينة.

لدى سماع هذا الكلام ذُعِرنا أنا وماتيا. فقد تخيّلنا أنّها بقرة سيّئة.

- فلنذهب ونفتّش عن بقرة أخرى، قلتُ له.

ولمّا سمع القرويّ ما قلتُه، أنقص السّعر عشرة فرنكات.

ومن تخفيض إلى آخر، وصل أخيراً إلى مائتين وعشرة فرنكات وثبتَ عندها.

كان البيطريّ قد أفهمنا بلكزةٍ من كوعه أنّه لم يكن جادّاً في ما يقول وأنّ البقرة ليست سيّئة بل هي بالعكس ممتازة. ومع ذلك، كان مبلغ مائتين وعشرة فرنكات ضخماً بالنّسبة إلينا.

في تلك الأثناء، وبينما كان ماتيا يدور حول البقرة، انتزع من ذيلها شعرةً طويلة فبادرته البقرة برفسة.

فحسمتُ قراري.

- حسناً، اتّفقنا. فلتكن مائتين وعشرة فرنكات.

قلتُ هذا معتقداً أنّ المسألة قد انتهت.

فمددتُ يدي لآخذ رسَن البقرة، إلاّ أنّ القرويّ لم يمنحني إيّاه وقال:

- أوَ لا تريد أن تأخذ أيضاً زينة العروس؟

فقام نقاشٌ جديد اتّفقنا في نهايته على عشرين فلساً ثمن زينتها.

وعليه بقيتْ معنا ثلاثة فرنكات. فمددتُ يدي من جديدٍ، فتلقّفها القرويّ وصافحني بحرارةٍ مصافحةَ صديق.

وبوصفي صديقاً تحديداً، كان يجب ألاّ أنسى شراب البقرة.

فكلّفنا ذلك عشرة فلوس.

وللمرّة الثّالثة أردتُ أخذ الرّسن، إلاّ أنّ صديقي القرويّ ردعني قائلاً:

- أأحضرتَ معك رأسيّة[1] الرّسن؟ فأنا أبيع البقرة لا الرّأسيّة.

ولأنّنا صرنا صديقين، قبِلَ بأن يترك لي رأسيّة رسنها مقابل ثلاثين فلساً، وهو سعر زهيد. وإذ كان يلزمنا رأسيّة رسنٍ لنَقود بقرتنا، تخلّيت عن الثّلاثين فلساً، بعدما أجريتُ عمليّة حسابٍ سريعة بيّنتْ لي أنّه سيبقى في حوزتنا عشرون فلساً.

فعددتُ مائتين وثلاثة عشر فرنكاً ومددتُ يدي للمرّة الرّابعة. فسأل القرويّ:

- ولكن أين رسنك؟ فقد بعتُك رأسيّة الرّسن لا الرّسن نفسه.

فكلّفنا الرّسن عشرين فلساً، كانت هي فلوسنا الأخيرة.

ولمّا دفعنا المبلغ كاملاً، تسلّمنا البقرة مع رسنها ورأسيّة الرّسن أيضاً.

بتنا نملك بقرة ولكنّنا لم نعد نملك نقوداً، ولا حتّى فلساً واحداً لنتغذّى ولنطعمها. فقال ماتيا:

- سنذهب للعمل، فالمقاهي تغصّ بالنّاس. وإذا ما افترقنا تمكّنا من تقديم عروضنا فيها كلّها، فتكون لدينا في المساء حصيلة جيّدة.

---

(1) جزء الرّسن الذي يوضع في رأس الدابّة (المترجمة).

وبعدما قدنا بقرتنا إلى إصطبل النّزل حيث ربطناها بإحكام، انطلقنا للعمل كلّ من جهته. وفي المساء عندما احتسبنا ما جنيناه، وجدتُ أنّ ماتيا جنى أربعة فرنكات وخمسين سنتيماً، في حين جنيتُ أنا ثلاثة فرنكات.

مع سبع فرنكات وخمسين سنتيماً كنّا ثريّين.

ولكنّ فرَحَنا بجني الفرنكات السّبعة تلك والسّنتيمات الخمسين كان صغيراً جدّاً بالمقارنة مع الفرح الذي كنّا نشعر به لأنّنا أنفقنا مائتين وأربعة عشر فرنكاً.

أقنعْنا عاملة المطبخ بأن تحلب بقرتنا وتعشّينا من حليبها: لم نشرب يوماً حليباً لذيذاً بهذا القدر. وقال ماتيا إنّه يجده حلو الطّعم وتفوح منه رائحة زهر اللّيمون على غرار الحليب الذي كان شربَه في المستشفى ولكنّه أفضل منه بكثير.

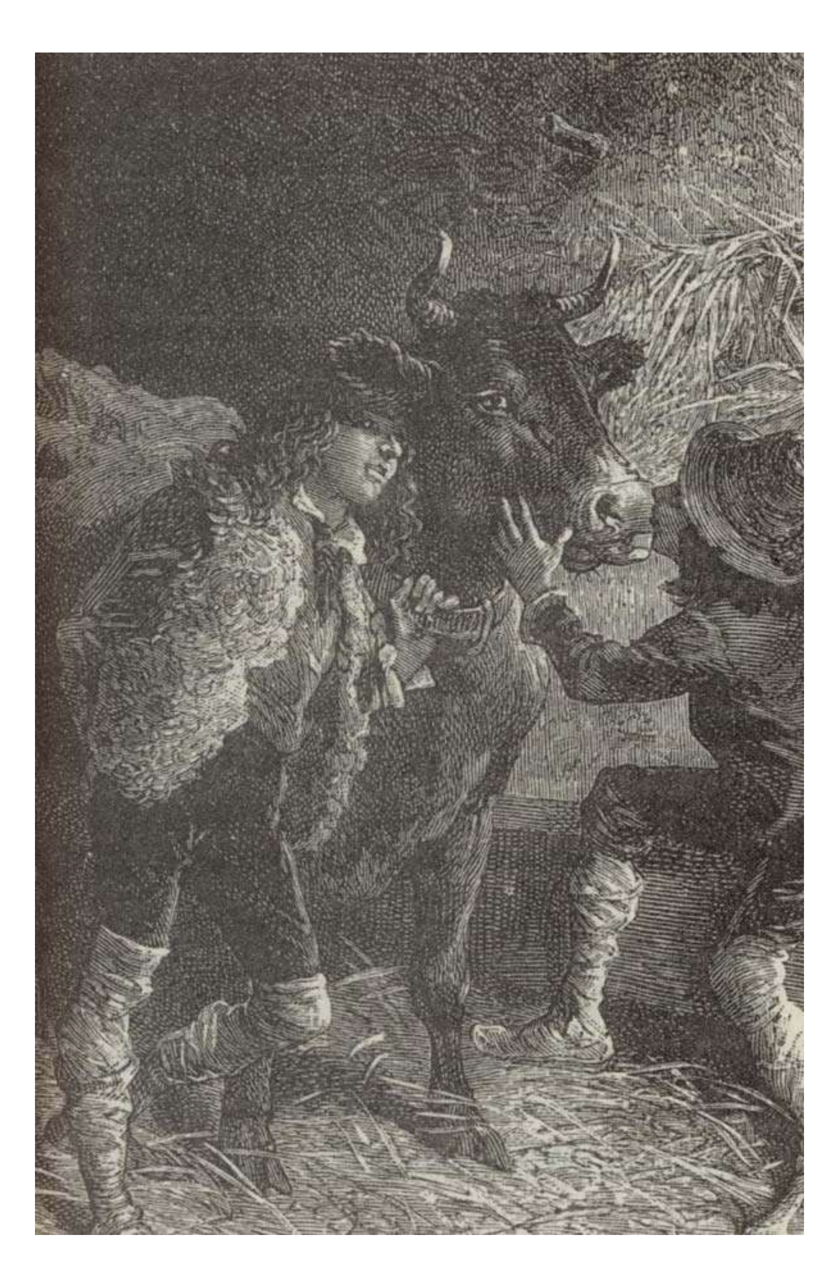
وفي حماستنا، ذهبنا نقبّل بقرتنا على خطمها الأسود. ولا بدّ أنّها أحبّت مداعبتنا فلحستْ وجهينا بلسانها الخشن.

وقال ماتيا:

- إنّها تجيد التّقبيل كذلك.

ولفهم مدى السّعادة التي كنّا نشعر بها أنا وماتيا لتقبيلنا البقرة وتقبيلها إيّانا، ينبغي أن تتذكّروا أنّ أيّاً منّا لم يغمره أحدٌ بالعناقات والقُبَل يوماً. فمصيرنا لم يكن مشابهاً لمصير الأولاد المدلّلين الذين يصل بهم الأمر إلى حدّ صدّ مداعبات أمّهاتهم. فنحن كنّا سنُحِبّ أن يُداعَبنا أحدٌ ويُلاطفنا.

في صباح اليوم التّالي، استيقظنا مع شروق الشّمس وانطلقنا فوراً



إلى شافانون.

ولأنني كنتُ ممتناً لماتيا لمساعدته لي، إذا لولاه لما جمعتُ هذا المبلغ الكبير من مائتين وأربعة عشر فرنكاً، أردتُ أن أمنحه مسرّةَ أن يقود هو بقرتنا. فكان فرحاً جدّاً لتمكّنه من قيادتها من رسنها، بينما كنتُ أنا أمشي وراءهما. ولم أتّخذ مكاناً إلى جانبه في الأمام إلاّ بعدما صرنا خارج المدينة. فعلتُ ذلك لنتحدّث كالمعتاد ولكن خصوصاً لأتطلّع إلى بقرتي: فأنا لم أرَ يوماً بقرةً بجمالها.

وبالفعل كانت هيئتها جميلة، تمشي ببطء متمايلةً وكلّها استرخاء كحيوانٍ يدرك قيمته.

أمّا أنا فلم أعد بحاجة إلى النّظر كلّ لحظةٍ إلى خارطتي كما كنتُ أفعل منذ خروجنا من باريس. فقد كنتُ أعرف وجهتي، ورغم مرور سنوات عديدة منذ مروري من هنا مع فيتاليس، إلاّ أنّني كنتُ أتذكّر كلّ علامات الطّريق.

حتّى لا أُتعبَ بقرتنا، ولكي لا أصل إلى شافانون في وقتٍ متأخّر جدّاً، كنتُ أنوي أن نذهب للمبيت في القرية التي أمضيتُ فيها ليلتي الأولى مع فيتاليس، في سرير السّرخس ذاك، حيث رأى كابي الطّيّب مدى تعاستي وأتى يتمدّد قربي واضعاً إحدى قوائمه في يدي ليقول لي إنّه سيكون صديقي. ومن تلك القرية، سننطلق في اليوم التّالي للوصول باكراً عند السيّدة باربُران.

ولكنّ الحظّ الذي ظلّ حتّى تلك اللّحظة إلى جانبنا، بدأ يُعاكسنا وغيّر ترتيباتنا.

كنّا قد قرّرنا أن نقسم نهار مسيرتنا إلى قسمين، يفصل بينهما وقت

الغداء. غداؤنا أنا وماتيا، وخصوصاً غداء بقرتنا الذي سيكون من عشب وهاد الطّريق.

في حوالى السّاعة العاشرة، وجدنا مكاناً كان العشب فيه أخضر وكثيفاً، فوضعنا حقيبتينا أرضاً وأنزلنا بقرتنا إلى الوهدة.

في البداية أردتُ أن أمسك بها من رسنها، ولكنّها بدت لي بمثل هذا الهدوء، وخصوصاً بمثل هذا الاستغراق في الرّعي بحيث سرعان ما لففتُ حول قرنيها الرّسن وجلستُ قربها لآكل خبزي.

وبالطّبع انتهينا قبلها من الأكل. لذا بعدما تأمّلناها لوقتٍ طويل ونحن لا ندري ماذا نفعل، رحنا أنا وماتيا نلعب بالكريّات الزجاجيّة. فلا تظنّوا أنّنا كنّا صبيّين جادّين ورصينين لا يفكّران إلاّ في كسب المال. فلئن كانت حياتنا لا تشبه حياة الأولاد ممّن هم في مثل سنّنا، فهذا لا يعني أنّ أذواقنا وأفكارنا كانت مختلفة عن أذواق مَن هم في سنّنا وأفكارهم. أي أنّنا كنّا نحبّ لعب الأولاد، ولم يكن يمرّ يوم دون أن نلعب بالكريّات الزجاجيّة أو بكرة القدم أو بلعبة قفز الخرفان. فقد كان ماتيا يقول لي فجأةً، وغالباً بلا سبب: «أتريد أن نلعب؟»، وبلحظةٍ كنّا نتخفّف من حقائبنا وآلاتنا الموسيقيّة ونشرع باللّعب في الطّريق. وأكثر من مرّة، لو لم تكن لديّ ساعتي لتنبّهني إلى الوقت، لكنّا استمررنا باللّعب حتّى هبوط الظلام. ولكنّ ساعتي كانت تقول لي إنّني قائد فرقة وإنّه يجب العمل وكسب النّقود من أجل العيش. وعندئذٍ كنتُ أعيد حمّالة قيثارتي إلى كتفي المتألّمة، وننطلق: إلى الأمام!

أنهينا اللّعب ولمّا تفرغ بقرتنا من الأكل بعد، ولمّا رأتنا نتجّه إليها

راحت تجزّ الأعشاب بنهمٍ أكبر كأنّها تقول لنا إنّها ما تزال جائعة.

- فلننتظر قليلاً، قال ماتيا.

- ولكن ألا تعرف أنّ البقرة تأكل طول النهار؟

- لننتظر بعض الوقت.

وفي تلك الأثناء، حملنا حقائبنا وآلاتنا من جديد.

فقال ماتيا، وكان يصعب عليه أن يبقى هادئاً لا يعمل شيئاً:

- ماذا لو عزفتُ لها لحناً قصيراً على البوق؟ ففي سيرك غاسّو كان لدينا بقرة وكانت تحبّ الموسيقى.

وفوراً انكبّ على عزف لحنٍ احتفاليّ.

ما إن سمعتْ بقرتنا النّوطات الأولى حتى أتلعت برأسها ثمّ، على حين غرّة، وقبل أن أتمكّن من الوصول إلى قرنيها لأمسك بالرّسن، انطلقت تعدو.

فانطلقنا خلفها فوراً، راكضين بدورنا بكلّ ما أوتينا من سرعة ونحن نناديها.

صرختُ بكابي لكي يوقفها ولكنّه لم يكن يملك الموهبة لذلك. كان كلب الرّعيان سيقفز على رأس بقرتنا ليوقفها، أمّا كابي، الذي كان كلباً مدرّباً، فقفز على قوائمها.

وبالطبع لم يجعلها ذلك تتوقّف، بل بالعكس. فتابعنا الرّكض، هي في المقدّمة ونحن نتعقّبها.

وفيما كنتُ أركض كنتُ أنادي ماتيا وأقول له: «يا لك من غبيّ!»، وهو، دون أن يتوقّف، كان يصرخ بصوتٍ لاهث: «سأدَعُكَ تضربني، لقد استحققتُ ذلك».

عندما توقّفنا للأكل قبل لحظات، كنّا على بعد كيلومترين من قريةٍ كبيرة. وكانت بقرتنا تتّجه صوب تلك القرية. دخلت القريةَ قبلنا، ولأنّ الطّريق كان مستقيماً، تمكّنّا رغم المسافة من أن نرى أنّ بعض الأشخاص كانوا يقطعون عليها الطّريق ويُمسكونها.

خفّفنا قليلاً من سرعتنا، فبقرتنا لن تضيع. ولن يكون علينا إلاّ أن نطلب من النّاس الطّيّبين الذين أوقفوها أن يعيدوها إلينا.

وفيما كنّا نتقدّم، كان عدد النّاس يتزايد حول البقرة، ولمّا وصلنا أخيراً إليها، كان هناك نحو عشرين رجلاً وامرأة وولداً يتناقشون وهم يروننا قادمين.

كنتُ قد تخيّلتُ أنّه لن يكون عليّ إلاّ طلب بقرتي حتّى يعطوني إيّاها. ولكن بدل ذلك، حاصرونا وراحوا يطرحون علينا السّؤال تلو السّؤال: من أين كنّا آتيين، ومن أين حصلنا على هذه البقرة؟

كانت إجاباتنا بسيطة بقدر ما كانت سهلة، إلاّ أنّها لم تُقنعهم. فارتفع صوتان أو ثلاثة تقول إنّنا سرقنا هذه البقرة التي أفلتت منّا، وإنّه يجب إيداعنا السّجن في انتظار جلاء القضيّة.

أربكني الرّعب الكبير الذي أثارته فيّ كلمة «سجن»، وكان السّجن هو السّبب في هلاكنا: فشحب لوني وتلعثمتُ، ولأنّ الرّكض كان قد جعل تنفّسي لاهثاً، عجزتُ عن الدّفاع عن نفسي.

في تلك الأثناء وصل شرطيّ إلى المكان. وبكلمات قليلة رووا له المسألة. ولمّا رأى أنّها تفتقر إلى الوضوح، أعلن أنّه سيودع بقرتنا في المحجز ويودعنا نحن في السّجن، ونرى فيما بعد.

أردتُ الاعتراض، وأراد ماتيا الكلام إلاّ أنّ الشّرطيّ أسكتنا

بقسوة. فتذكّرتُ حادثة فيتاليس مع الشّرطيّ في تولوز، فقلتُ لماتيا أن يصمت ويتبع السيّد الشّرطيّ.

فتبعتنا القرية بكاملها حتّى البلديّة حيث يوجد السّجن. كان النّاس يحيطون بنا من كلّ صوب ويستحثّوننا ويدفعوننا ويشتموننا. ولولا الشّرطيّ الذي كان يحمينا، لرُجِمنا كما لو كنّا مجرمَين كبيرَين، قاتلَين أو مُشعلَي حرائق. ومع ذلك لم نكن قد ارتكبنا أيّ جرم. ولكن هذه هي غالباً حال الحشود، تجد لذّة متوحّشة في الانقضاض على البؤساء دون أن تعرف ما قاموا به وما إذا كانوا مذنبين أم أبرياء.

لّما وصلنا إلى السّجن، عاودني الأمل لبرهة. فحارس البلديّة، وكان أيضاً سجّاناً وناطوراً، لم يشأ في البداية إدخالنا. فقلتُ في نفسي إنّه رجلٌ طيّب. ولكن الشّرطيّ أصرّ فانتهى الأمر بالسّجّان إلى الإذعان. خطا هذا الأخير أمامنا وفتح باباً يُغلَق من الخارج بمغلاق كبير وقفلين اثنين: فرأيتُ لماذا منعنا في البداية من الدخول. فقد كان يفرش على الأرض مؤونته من البصل لتنشف في السّجن. فُتّشنا وأُخِذت منّا نقودنا وسكاكيننا وأعواد ثقابنا. وفي تلك الأثناء، كان السّجّان يجمع بصلاته بسرعة في إحدى الزّوايا. ثمّ تُرِكْنا وحدنا وأُغلق علينا الباب مُصدراً ضجيجاً حديديّاً مأساويّاً حقّاً.

كنّا في السّجن. لكن لكم من الوقت؟

فيما كنتُ أطرح على نفسي هذا السّؤال، وقف ماتيا أمامي وأحنى رأسه وقال:

– اضربْ. فمهما ضربت فلن يكون ضربك بمستوى حماقتي.

– لقد ارتكبتَ حماقةً وأنا لم أمنع حدوثها، هذا يعني أنّني كنتُ

أحمق بقدرك.

- ولكنّني أفضّل أن تضربني، فهكذا يكون حزني أقلّ: يا لبقرتنا المسكينة، بقرة الأمير!

وطفِقَ يبكي.

فكان عليّ أن أواسيَه وأن أشرح له أنّ وضعنا لم يكن شديد الخطورة، فنحن لم نفعل شيئاً ولن يكون صعباً علينا أن نُثبت أنّنا اشترينا البقرة، فبيطريّ أوسّيل الطّيّب سيكون شاهِدَنا.

- ولكن ماذا لو اتّهمونا بسرقة المال الذي اشترينا به البقرة؟ فكيف نُثبت أنّنا جنيناه بأنفسنا؟ ألا ترى أنّ البؤساء يُعَدّون مذنبين في كلّ شيء؟

كان ماتيا محقّاً. فأنا كنتُ أعرف تماماً مدى القسوة التي يُعامَل بها الفقراء. ثمّ ألم تكن الهتافات التي رافقتنا حتّى السّجن تثبت ذلك هي أيضاً؟

وأضاف ماتيا وهو يواصل البكاء:

- وعندما نخرج من السّجن وتُعاد لنا بقرتنا، فهل سنكون واثقَين من العثور على السيّدة باربُران؟

- ولِمَ لا نعثر عليها؟

- يمكن أن تكون قد توفّيتْ، فأنتَ قد فارقتَها منذ زمنٍ طويل.

صعقتني خشية ماتيا هذه. كان صحيحاً أن السيّدة باربُران يمكن أن تكون قد توفّيت. فرغم أنّني لم أكن في سنّ تجعلني أتقبّل بسهولة فكرة الموت، إلاّ أنّني كنتُ أعرف بالخبرة أنّنا يمكن أن نخسر من نحبّ. ألم أخسر فيتاليس؟ فكيف لم تخطر في بالي هذه الفكرة من قبل؟

فسألتُ ماتيا:

– لمَ لمْ تقل لي هذا من قبل؟

– لأنّني عندما أكون سعيداً، لا تخطر في رأسي الغبيّ إلاّ أفكارٌ فرِحة. ولكن عندما أكون تعيساً، لا تخطر لي إلاّ أفكار حزينة. وقد كنتُ سعيداً جدّاً لفكرة إهداء أمّك السيّدة باربُران بقرةً، فلم أكن أرى إلاّ الرّضا الذي ستشعر هي به، والفرح الذي سنشعر به نحن. كنتُ منبهراً وشبه ثمل.

– إنّ رأسك ليس أكثر غباءً من رأسي يا ماتيا المسكين، لأنّ أفكاري كانت مماثلة لأفكارك. فأنا أيضاً كنتُ مبهوراً وثَمِلاً.

فهتف ماتيا باكياً:

– آه! آه! بقرة الأمير! لكم هو جميلٌ الأمير!

وفجأةً هبّ واقفاً وراح يقول وهو يومئ بيديه:

– ماذا لو كانت السيّدة باربُران قد توفّيت وباربُران لا يزال على قيد الحياة؟ ماذا لو أخذَ بقرتنا؟ أو أخذَكَ أنت؟

كان تأثير السّجن علينا هو بالتّأكيد ما يوحي لنا بهذه الأفكار الحزينة. صراخ الحشد والشّرطيّ وضجيج المغلاق والقفلين عندما أُقفلَ الباب علينا.

ولكنّ ماتيا لم يكن يفكّر فينا فحسبُ بل في بقرتنا أيضاً.

– من الذي سيُطعمها؟ من الذي سيحلبها؟

مرّت ساعات طويلة تراودنا فيها هذه الأفكار الحزينة، وكلّما كان الوقت يمرّ، كنّا نزداد حزناً.

إلاّ أنّني حاولتُ أن أواسي ماتيا وأن أشرح له أنّهم سيأتون

للتّحقيق معنا.

- حسناً، لكن ماذا نقول؟

- الحقيقة.

- هذا يعني أنّهم سيسلّمونك إلى باربُران، وإذا كانت السيّدة باربُران وحدها في منزلها فسيحقّقون معها هي أيضاً ليعرفوا ما إذا كنّا نكذب، وهذا يعني أنّه لن يعود في وسعنا أن نفاجئها.

وأخيراً فُتح الباب مُصدراً ضجيجاً حديديّاً مُرعباً، ورأينا رجلاً عجوزاً أشيَب تبدو عليه علامات الانفتاح والطّيبة، ممّا أعاد لنا الأمل فوراً.

فقال السّجّان:

- هيّا أيّها العفريتان، قِفا وأجيبا على أسئلة القاضي.

فقال هذا الأخير وهو يشير إلى السّجان بأن يتركه وحده:

- حسناً، حسناً! سأحقّق مع هذا - وأشار بيده إليّ - اصطحبِ الآخَر وأبقِه معك، فسأحقّق معه فيما بعد.

إذّاك بدا لي أنّ عليّ تنبيه ماتيا إلى ما يجب أن يقوله، فقلتُ:

- يا سيّدي القاضي، إنّ صديقي سيُجيبك مثلي بالحقيقة. كلّ الحقيقة.

فقاطعني القاضي بسرعة كما لو ليمنعني من متابعة الكلام:

- حسناً، حسناً!

وخرج ماتيا ولكن تسنّى له قبل ذلك أن يرمقني بنظرة سريعة تقولُ لي إنّه فهم قصدي.

فقال لي القاضي وهو ينظر في عينيّ:

- أنت مُتّهم بسرقة بقرة.

فأجبتُ بأنّنا اشترينا البقرة من سوق أوسّيل، وذكرتُ اسم البيطريّ الذي ساعدنا في إتمام الصّفقة.

- سيجري التّأكّد من هذا.

- آمل ذلك، لأنّ هذا ما سيُثبت براءتنا.

- ولأيّ غرضٍ اشتريتما البقرة؟

- لاصطحابها إلى شافانون وإهدائها للمرأة التي كانت مُرضعتي عرفاناً لرعايتها لي وتأكيداً لمحبّتي لها.

- وما اسم هذه المرأة؟

- السيّدة باربُران.

- أتكون زوجة عامل البناء الذي أصيبَ بعاهةٍ قبل سنوات في باريس؟

- أجل يا حضرة القاضي.

- سيجري التّأكّد من هذا الأمر.

ولكنّني لم أُجِب على عبارته الأخيرة كما فعلتُ عندما جئنا على ذِكر بيطريّ أوسّيل.

ولّما رأى ارتباكي، ألحّ القاضي عليّ بالأسئلة، فاضطررتُ أن أُجيب بأنّه إذا ما سأل السيّدة باربُران فإنّ هدفنا من زيارتها سيفشل وتبْطل المفاجأة.

ولكن في وسط ارتباكي، كنتُ أشعر برضاً غامر. فإذا كان القاضي يعرف السيّدة باربُران وينوي سؤالها عمّا إذا كانت روايتي حقيقيّة أو كاذبة، فهذا يؤكّد أنّ السيّدة باربُران كانت ما تزال على قيد الحياة.

وسرعان ما شعرتُ برضاً أكبر. ففي وسط الأسئلة، قال لي القاضي إنّ باربُران رجع منذ مدّة إلى باريس.

أفرحني هذا الخبر حتّى أنّني وجدت الكلمات الملائمة لأقنعه بأنّ شهادة البيطريّ وحدها كافية لتُثبت أنّنا لم نسرق بقرتنا.

– ومن أين حصلتما على المال اللاّزم لشراء هذه البقرة؟

كان هذا السّؤال هو الذي خشيَه ماتيا بشدّة لمّا توقّع أنّه سيُطرح علينا.

– لقد جنيناه.

– أين؟ وكيف؟

فشرحتُ كيف جنيناه وجمعناه فلساً فلساً من باريس وصولاً إلى فارْس ومن فارْس إلى مون–دور.

– وماذا كنتما تفعلان في فارْس؟

أرغمني سؤاله هذا على أنّ أروي له ماذا حدث لي هناك. ولمّا سمع القاضي أنّني كنتُ بين النّاجين من منجم تروِيّير، قاطعني وقال لي بصوتٍ رقيق وشبه وديّ:

– من منكما هو ريمي؟

– أنا هو، يا سيّدي القاضي.

– وما الذي يؤكّد ذلك؟ فبحسب ما قال لي الشّرطيّ، أنت لا تملك أوراقاً ثبوتيّة.

– لا يا سيّدي القاضي.

– هيّا أخبرني كيف وقعتْ كارثة فارْس. فقد قرأتُ القصّة في الصّحف، وإذا لم تكن ريمي فعلاً، فلن تتمكّن من خداعي. إنّني

أصغي، فحذار.

كان القاضي قد رفع الكلفة وهو يتحدّث إليّ، ممّا منحني الشّجاعة. كان واضحاً أنّه لم يكن معادياً لنا.

وعندما أنهيتُ روايتي، نظر القاضي إليّ مطوّلاً بعينين رقيقتين وعطوفَين. فتخيّلتُ أنّه سيقول لي إنّه سيُخلي سبيلنا، ولكنّه لم يفعل. وتركني وحدي دون أن ينبس ببنت شفة. لا بدّ أنّه ذهب يسأل ماتيا ليرى ما إذا كانت روايتانا تتطابقان.

ظللتُ لوقتٍ طويل تتناهبني الأفكار، وفي النّهاية عاد القاضي برفقة ماتيا وقال:

- سأستعلم عن الأمر في أوسّيل. وإذا ما تأكّدتْ روايتكما كما أرجو، فسيُخلى سبيلكما غداً.

فسأل ماتيا:

- وماذا عن بقرتنا؟

- ستستعيدانها.

- ليس هذا ما أعنيه، أجاب ماتيا، من الذي سيطعمها ويحلبها؟

- لا تقلق يا صغير.

فارتاح ماتيا بدوره وقال مبتسماً:

- إذا حُلبت بقرتنا، أفلا يُمكن أن يُعطونا الحليب؟ سيكون هذا جيّداً للعشاء.

وما إن خرج القاضي حتّى زففتُ لماتيا النبأين العظيمين اللّذين جعلاني أنسى أنّنا في السّجن: أنّ السيّدة باربُران حيّة، وأنّ باربُران كان قد رجع إلى باريس.

فقال ماتيا:

- هذا يعني أنّ بقرة الأمير ستدخل دخولاً مظفّراً.

وفي فرحته، راح يرقص ويغنّي. فأخذتُ بيديه، مدفوعاً بمرحه، أمّا كابي الذي كان حتّى تلك اللّحظة قد بقي في إحدى الزوايا حزيناً وقلقاً، فجاء يقف في الوسط على قائمتيه الخلفيّتين. ورحنا نرقص رقصةً جميلةً جدّاً جعلت الحارس يرتعد - خوفاً على بصله على الأرجح - فأتى يرى إن كنّا ننوي التمرّد.

فأمَرَنا بالسّكوت، ولكنّه لم يتوجّه إلينا بقسوة كما فعل عندما دخل مع القاضي.

ففهمنا أنّ وضعنا لم يكن سيّئاً، وسرعان ما أتانا البرهان على ذلك. إذ دخل الحارس بعد قليل حاملاً لنا جرّة كبيرةً مملوءةً حليباً، هو حليب بقرتنا. ولم يكن هذا كلّ شيء، فمع الجرّة أعطانا رغيفَ خبزٍ كبيراً وقطعةَ من لحم البقر البارد، أرسلها لنا، على ما قال لنا الحارس، السيّدُ القاضي.

لم يُعامَل سُجَناء يوماً بمثل هذه المعاملة الحسنة. وفيما كنتُ آكل اللّحم وأشرب الحليب تراجعتُ عن فكرتي بشأن السّجون: من الواضح أنّها أفضل ممّا كنت أتخيّل.

وكان ذلك ما شعر به ماتيا أيضاً، فقال لي ضاحكاً:

- العشاء والنّوم مجّاناً! يا للحظّ الجيّد!

فأردتُ إخافته وقلتُ له:

- ماذا لو توفّي البيطريّ فجأةً؟ فمن سيشهد لصالحنا؟

فأجابني من دون استياء:

- هذه الأفكار هي لأوقات التّعاسة، وهذا ليس وقتها حقّاً.




Twitter: @ketab_n

السيّدة باربُران

لم تكن ليلتنا على سرير الميدان ذاك سيّئةً البتّة، فقد عرفنا ليالي أقلّ راحةً في العراء.

- لقد رأيت في منامي البقرة تدخل علينا، قال لي ماتيا.

- وأنا كذلك.

وفي الثّامنة صباحاً فُتح باب الزنزانة، ورأينا القاضي يدخل، يتبعه صديقنا البيطريّ الذي أصرّ على الحضور بنفسه لإخراجنا من السّجن.

أمّا القاضي، فلم تقتصر عنايته بالسّجينين البريئين على العشاء الذي قدّمه لنا مساء اليوم السّابق، بل سلّمني ورقةً جميلةً مدموغة وقال بنبرةٍ ودّيّة:

- لقد كان تهوّراً من قبلكما السّفر على هذه الشّاكلة عبر المسافات. هاكما وثيقة مرورٍ طلبتُ من رئيس البلديّة إصدارها لكما. ستحميكما من الآن فصاعداً. رحلة سعيدة يا أولاد.

قال ذلك وصافحنا. أمّا البيطريّ فعانقنا.

كنّا قد دخلنا إلى هذه القرية بشكلٍ بائس، وإذا بنا نخرج منها مظَفَّرين نقود بقرتنا من رسنها، مرفوعَي الرأس ننظر بطرف عيوننا إلى القرويّين الواقفين عند عتبات بيوتهم.

قال ماتيا:





- يؤسفني أمرٌ واحد، وهو ألاّ يكون الشّرطيّ الذي أوقفنا موجوداً هنا ليرانا نمرّ.

فأجبتُه:

- لقد أخطأ الشّرطيّ بإيقافنا، ولكنّنا نحن أيضاً أخطأنا عندما ظننّا أنّ الفقراء من أمثالنا ليس لهم أن يتوقّعوا الخير من أحد.

- لقد قوبلنا بالخير لأنّنا لم نكن فقيرَين تماماً. فعندما يكون في جيوبنا خمسة فرنكات أو ستّة لا نكون فقيرَين حقّاً.

- كان بوسعك أن تقول هذا أمس، أمّا اليوم فلم يعد يحقّ لك ذلك. فأنت ترى أنّ في هذا العالم أشخاصاً طيّبين.

لقد تعلّمنا درساً كبيراً لأنّنا تركْنا رسن بقرتنا. فصحيح أنّ بقرتنا كانت رقيقة ووديعة، ولكنّها كانت خوّافة كذلك.

لم يطل بنا الأمر حتّى وصلنا إلى القرية التي كنت قد أمضيتُ فيها اللّيل برفقة فيتاليس. ومن هناك، لم يكن علينا إلاّ أن نجتاز براحاً واسعاً لنصل إلى المنحدر الذي يقود إلى شافانون.

وفيما كنّا نعبر شارع القرية الرّئيسيّ، وتحديداً أمام المنزل الذي سرق منه دْزَرْبِينو قطعة خبز، خطرت في بالي فكرة سارعتُ لأُشرك فيها ماتيا:

- تعرفُ أنّني وعدتُك بأن تأكل الفطائر عند أمّي السيّدة باربُران. ولكن لتحضير الفطائر يلزم زبدة وطحين وبيض.

- لا بدّ أنّ هذا لذيذ جدّاً.

- إنّه كذلك، سترى. فالفطائر تُلَفّ ويمكن أن يأكل المرء منها بملء فمه. ولكن ربّما لا يكون لدى السيّدة باربُران طحين أو زبدة،

فهي ليست ثريّة. ما رأيك أن نحمل لها من كلّ ذلك؟

- إنّها فكرةٌ عظيمة.

- حسناً إذن، امسك البقرة ولا تفلتها. سأدخل عند هذا البقّال وأشتري طحيناً وزبدة. أمّا البيض، فإذا لم يتوفّر منه عند السيّدة باربُران أمكنها استعارته، إذ يمكن إذا ما نحن أخذنا منه أن ينكسر في الطّريق.

ودخلتُ الدّكّان حيث سرقَ دْزَرْبِينو قطعةَ الخبز في ما مضى، واشتريتُ رطلاً من الزّبدة ورطلين من الطّحين. ثمّ عاودنا السّير.

لم أكن أريد استعجال بقرتنا ولكنّ لهفتي الكبيرة للوصول كانت تجعلني أحثّ الخطى.

كان قد بقي أمامنا عشرة كيلومترات، فثمانية، فستّة. والغريب أنّني كلّما كنتُ أقترب من السيّدة باربُران كان الطّريق يبدو لي أطول من اليوم الذي أبعدوني عنها فيه، رغم أنّه في ذلك اليوم كان يسقط مطرٌ بارد لا زلتُ أتذكّره.

ولكنّني في تلك اللّحظة كنتُ متأثّراً ومحموماً بشدّة، ولا أكفّ عن النّظر إلى ساعتي.

قلتُ لماتيا:

- أليست هذه منطقةٌ جميلة؟

- لا يمكن القول إنّ الأشجار هي التي تحجب النّظر.

- عندما ننزل المنحدر صوب شافانون، سوف ترى أشجاراً، أشجاراً جميلة، أشجار سنديان وكستناء.

- أشجار كستناء مثمرة؟

- بكلّ تأكيد! وفي باحة منزل السيّدة باربُران ثمّة شجرة إجاصّ معقوفة الجذع يمكن استخدامها حصاناً للّعب، وهي تعطي إجاصّاً كبيراً ولذيذاً. سوف ترى.

كلّما كنتُ أصف له شيئاً، كنتُ أكرّر عبارتي هذه كلازمة: «سوف ترى!». كنتُ، بكلّ حُسن نيّة، إخال أنّني أقود ماتيا إلى بلاد العجائب. في النّهاية، ألم تكن البلاد كذلك بالنّسبة لي؟ ففي هذا المكان تفتّحتْ عيناي على النّور. وفي هذا المكان شعرتُ بالحياة وكنتُ شديد السّعادة. وفي هذا المكان كنتُ محبوباً. وكلّ هذه الانطباعات حول أفراحي الأولى، والتي كانت تعزّزها ذكرى الآلام التي عرفتُها في حياتي المُغامِرة، كانت تعود إليّ متزاحمةً بصخبٍ في قلبي ورأسي كلّما اقتربنا من قريتي. كان يبدو أنّ لهواء الوطن أريجاً يُسكرني، فكنتُ أرى كلّ شيء جميلاً.

وإذا بماتيا، وقد أصابته الثّمالة نفسها، يعود بدوره، ولكن في الخيال وحده للأسف، إلى البلاد التي وُلد فيها.

فيقول:

- آه، لو جئتَ إلى لوكا فسأُريكَ أيضاً أشياء جميلة. سوف ترى.

- سوف نذهب إلى لوكا بعدما نكون قد زرنا إتيانيت وليز وبنجامان.

- تريد المجيء إلى لوكا؟

- لقد جئتَ معي عند أمّي السيّدة باربُران، وسأذهبُ معك لرؤية والدتك وشقيقتك الصّغيرة كريستينا التي سأحملها بين ذراعيّ إذا لم تكن كبيرةً جدّاً. وستكون أختي أنا أيضاً.

- آه! ريمي!

ولم يتمكّن من إضافة المزيد لفرطِ ما كان متأثّراً.

فيما كنّا نتحادث على هذه الشّاكلة ونحن نحثّ الخطى، وصلنا إلى أعلى الهضبة التي يبدأ عندها المنحدر الموصل إلى شافانون عبرَ منعرجات عديدة، مارّاً أمام منزل السيّدة باربُران.

بضع خطوات ونصل إلى المكان حيث طلبتُ من فيتاليس أن يسمح لي بالجلوس على الحاجز الحجريّ عند طرف الطّريق للنّظر إلى منزل السيّدة باربُران الذي ظننتُ أنّني لن أراه بعد ذلك.

قلتُ لماتيا:

- أمسكِ الرّسن.

وبوثبةٍ صعدتُ على الحاجز. لم يتبدّل شيء في وادينا، كان لا يزال يحتفظ بالهيئة نفسها. وبين مجموعتين من الأشجار لمحتُ سطح منزل السيّدة باربُران.

فسألني ماتيا:

- ولكن ماذا أصابك؟

- هناك، هناك!

جاء يقف إلى جانبي ولكن دون أن يصعد على الحاجز الذي راحت بقرتنا ترعى العشب الذي كان قد نما عليه.

فقلتُ له:

- اتبع يدي. هاك منزل السيّدة باربُران، وهاك شجرة الإجاصّ، وهناك كانت حديقتي.

خلافاً لي، لم يكن ماتيا ينظر بعين ذكرياته، لذا لم يكن يرى ما يثير

الانسحار، لكنّه لم يقل شيئاً.

وفي تلك اللّحظة ارتفعت من داخون المنزل سحابة صغيرة من الدّخان الأصفر. ولأنّ الرّيح لم تكن تهبّ، صعدت غيمة الدّخان في الهواء بشكلٍ مستقيمٍ على طول سفح الهضبة.

فقلتُ:

- إنّ السيّدة باربُران في المنزل.

وفي تلك اللّحظة، هبّ نسيم خفيف في الأشجار ونفخ عامود الدّخان في وجوهنا: كان هذا الدّخان يعبق برائحة ورق السّنديان.

فشعرتُ فجأةً بعينيَّ تغرورقان بالدّموع، فقفزتُ من أعلى الحاجز وعانقتُ ماتيا. وارتمى عليّ كابي، فأخذته بين ذراعيّ وعانقتُه بدوره. وقلتُ:

- فلننزل فوراً.

فسألني ماتيا:

- إذا كانت السيّدة باربُران في المنزل فكيف سنرتّب المفاجأة؟

- ستدخل وحدك وتقول إنّك جئتها ببقرة من لدن الأمير، وعندما تسألك عن أيّ أمير تتحدّث، أظهرُ أنا.

- مؤسف أنّنا لا نستطيع الدّخول على وقع الموسيقى؛ لكانَ ذلك دخولاً جميلاً!

- بلا حماقات يا ماتيا!

- لا تقلق، لا رغبة لي في تكرار ما فعلتُه. ولكن لو كانت هذه البقرة البريّة تحبّ الموسيقى، لكان لحن حماسيّ سيناسب هذه اللّحظة.

وصلنا عند أحد منعطفات الطّريق التي تعلو مباشرةً منزل السيّدة

باربُران، فرأينا قبّعة بيضاء تظهر في الباحة: كانت هي السيّدة باربُران. فتحتِ البوّابة وخرجت إلى الطّريق واتّجهت إلى جهة القرية.

كنّا قد توقّفنا ودللتُ عليها ماتيا. فقال:

– إنّها خارجة. ماذا سيحلّ بمفاجأتنا؟

– سنخترع أخرى.

– ما هي؟

– لا أعرف.

– ماذا لو ناديتَها؟

كان الإغراء كبيراً إلاّ أنّني تمالكتُ نفسي. كنت قد أمضيتُ شهوراً عديدة أحلم بالمفاجأة، فلا يمكنني التّخلّي عنها فجأةً.

لم يطل بنا الوقت حتّى وصلنا أمام بوّابة منزلي القديم، فدخلناه كما كنتُ أدخله في الماضي.

ولأنّني كنتُ أعرف جيّداً عادات السيّدة باربُران، كنتُ أعرف أنّ الباب لن يكون مُغلقاً إلاّ بالزّلاج وسيكون بوسعنا الدّخول إلى المنزل. ولكن قبل كلّ شيء كان يجب أن نضع بقرتنا في الزريبة. فذهبتُ أتفحّص الزريبة فوجدتُها كما كانت في الماضي، ليس فيها إلاّ حزَم الحطب. فناديتُ ماتيا بعدما أوثقتُ بقرتنا أمام المعلف، وجعلنا نكدّس الحزَم في زاوية، الأمر الذي لم يستلزم وقتاً طويلاً لأنّ مخزون السيّدة باربُران من الحطب ما كان كبيراً.

وقلتُ لماتيا:

– الآن ندخل إلى المنزل، وسأجلس عند طرف الموقد لكي تجدني السيّدة باربُران هناك. وبما أنّ البوّابة ستصرّ عندما تدفعها، فسيكون

لديك الوقت الكافي لتختبئ وراء السّرير مع كابي، وهكذا لن ترى هي سواي. أتعتقد أنّها ستُفاجأ؟

اتّفقنا على هذا. ودخلنا المنزل وذهبتُ أجلس عند الموقد في المكان الذي أمضيتُ فيه سهرات شتاء كثيرة. وبما أنّه لم يكن بوسعي قصّ شعري الطّويل، خبّأته تحت ياقة سترتي، وتكوّرتُ على نفسي لأبدو صغيراً فأشبه ريمي، الصّغير ريمي الذي تعرفه السيّدة باربُران.

من المكان الذي كنتُ جالساً فيه، كان بوسعي رؤية البوّابة، ولم يكن هناك خطر في أن تصل السيّدة باربُران بغتةً وعلى غفلةٍ منّا.

ولمّا استقررت في مكاني، تمكّنتُ من النّظر حولي. بدا لي أنّني غادرتُ المنزل بالأمس. ذلك أنّ شيئاً لم يتغيّر، كان كلّ شيء في مكانه والورق الذي رُقّعت به واجهة زجاجيّة كسرتُها ذات يوم لم يُستبدَل، رغم أنّه كان شديد الاصفرار بسبب الدّخان.

لو تجرّأتُ لغادرتُ مكاني ونظرتُ إلى كلّ شيءٍ عن قرب، ولكن بما أنّ السيّدة باربُران كان يمكن أن تظهر في أيّة لحظة، كان يجب أن أبقى في موقع المراقبة.

وفجأةً لمحتُ قبّعة بيضاء وسمعتُ طقطقة رباط الخيزران الذي يثبّت البوّابة، فقلتُ لماتيا:

- اختبئ بسرعة!

وتكوّرتُ على نفسي قدرَ استطاعتي.

فُتح الباب، ومن على العتبة لمحتني السيّدة باربُران، فقالت:

- مَن هنا؟

نظرتُ إليها دون أن أجيب، وكانت هي تنظر إليّ أيضاً.

وفجأةً راحت يداها ترتجفان وتمتمتْ:

- يا إلهي، يا إلهي، أهذا ممكن؟ ريمي!

فركضتُ إليها وضممتُها بين ذراعيّ.

- ماما!

- ابني، ابني!

استلزم الأمر عدّة دقائق لكي نستعيد هدوءنا ونمسح أدمعنا.

قالت:

- الأكيد أنّني لو لم أفكّر فيك دوماً لَمَا عرفتُك. كم تغيّرتَ وكبرتَ وصلب عودك!

فذكّرني نخيرٌ مكتومٌ أنّ ماتيا مختبئ خلف السّرير، فناديتُه. ولمّا نهض قلتُ:

- وهذا ماتيا، أخي.

فهتفَت السيّدة باربُران:

- آه! لقد وجدتَ أهلكَ إذن؟

- لا، أعني أنّه رفيقي وصديقي. وهذا كابي وهو الآخَر رفيقي وصديقي. حيِّ أمَّ معلّمكَ يا كابي!

فوقف كابي على قائمتيه الخلفيّتين، وبعدما وضع إحدى قوائمه فوق قلبه انحنى بكلّ جديّة، ممّا أضحك السيّدة باربُران كثيراً وجعل دموعها تنشف.

خلافاً لي، لم تكن لدى ماتيا أسباب لينسى مفاجأتنا، فأومأ لي ليذكّرني بها.

فقلتُ للسيّدة باربُران:

- أتسمحين بأن نذهب قليلاً إلى الحوش لرؤية شجرة الإجاصّ المعقوفة الجذع التي لطالما حدّثتُ ماتيا عنها؟

فقالت السيّدة باربُران:

- يمكننا أيضاً الذّهاب لرؤية حديقتك، لأنّني حافظتُ عليها كما رتّبتَها أنت، لتجدها عندما تعود. فخلافاً للجميع كنتُ واثقة دوماً من أنّك سوف تعود.

- والقلقاس الرّوميّ الذي زرعتُه؟ هل وجدتِه لذيذاً؟

- كنتَ أنتَ إذن من حضّر لي هذه المفاجأة. لقد خمّنتُ هذا، فأنتَ لطالما أحببتَ ابتكار المفاجآت.

كان الوقت قد حان، فقلتُ:

- والزريبة، هل يا ترى تغيّرت منذ رحيل المسكينة «صُهيبة» التي كانت مثلي لا تريد الرّحيل؟

- كلاّ بالتّأكيد، إنّني أضع فيها بالات الحطب.

كنّا قد صرنا أمام الزريبة تحديداً، فدفعت السيّدة باربُران الباب وللحال شرعت بقرتنا بالخوار، فقد كانت جائعة واعتقدتْ على الأرجح أنّنا نُحضِر لها ما تأكله.

فهتفت السيّدة باربُران:

- ثمّة بقرة، ثمّة في الزريبة بقرة!

عندئذٍ لم نعد أنا وماتيا قادرين على تمالك نفسينا فغرقنا في الضّحك.

فنظرتْ إلينا السيّدة باربُران شديدة الاندهاش. ولكنّ وجود هذه البقرة في الزريبة كان من الغرابة بمكان بحيث إنّها رغم ضحكنا لم

تفهم.

فقلتُ:

- إنّها مفاجأة! مفاجأة حضّرناها لكِ، وهي تفوق مفاجأة القلقاس أليس كذلك؟

فراحت تردّد:

- مفاجأة، مفاجأة!

- لم أشأ العودة عند أمّي السيّدة باربُران فارغ اليدين، هي التي كانت طيبةً جدّاً حيال صغيرها ريمي، الطّفل اللّقيط. ولذا ففيما أفكّر في شيء ذي فائدة أحضره لكِ، خطر لي أن أقدّم لكِ بقرةً تحلّ محلّ «صُهيبة». وفي سوق أوسّيل اشترينا هذه البقرة من المال الذي جنيناه أنا وماتيا.

فهتفت السيّدة باربُران وهي تقبّلني:

- آه! يا بنيّ الطّيب والغالي!

ثمّ دخلنا الزريبة لكي تتمكّن السيّدة باربُران من معاينة بقرتنا التي باتت الآن بقرتها هي. وأمام كلّ اكتشاف، كانت تطلق صيحات رضاً وإعجاب:

- يا لهذه البقرة الجميلة!

وفجأةً توقّفتْ وراحت تنظر إليّ:

- ولكن هل صرتَ ثريّاً؟

فقال ماتيا ضاحكاً:

- أعتقد ذلك، ولا يزال بحوزتنا ثمانية وخمسون فلساً.

فكرّرت السيّدة باربُران اللاّزمة ولكن منوّعةً عليها:



- يا للولدين الطّيّبين!

ففرحتُ لرؤيتها تفكّر في ماتيا وبكونها تجمعنا في قلبها نحن الاثنين.

في تلك الأثناء، استمرّت بقرتنا في الخوار.

فقال ماتيا:

- إنّها تطلب أن نحلبها.

ومن دون أن أسمع المزيد، هُرِعتُ إلى المنزل لأحضرَ دلو الصّفيح المجلوّ جيّداً الذي كنّا في ما مضى نحلب فيه صُهيبة والذي رأيتُ أنّه لا يزال معلّقاً في مكانه المعتاد، رغم أنّه منذ زمنٍ طويل لم يعد من بقرة في زريبة السيّدة باربُران. ولمّا عدتُ ملأتُه ماءً لكي نتمكّن من غسل ضرع بقرتنا المغطّى بالغبار.

وكم شعرت السيّدة باربُران بالرّضا لمّا رأت ثلاثة أرباع الدّلو مملوءة حليباً تعلوه رغوةٌ شهيّة. وقالت:

- أعتقد أنّها ستدرّ حليباً أكثر ممّا كانت تفعل صُهيبة.

فقال ماتيا:

- حليبٌ لذيذٌ جدّاً، تفوح منه رائحة زهر اللّيمون.

نظرت السيّدة باربُران إلى ماتيا مستغربةً وهي تتساءل على الأرجح عمّا يقصده.

لم يكن ماتيا يحبّ الاحتفاظ بمعلوماته لنفسه، فقال:

- إنّه شرابٌ طيّب نشربه في المستشفى عندما نكون مرضى.

وبعدما حلبنا البقرة، أخرجناها إلى الباحة لترعى ودخلنا إلى المنزل حيثُ كنتُ، عندما جئتُ قبل قليلٍ لإحضار الدّلو، قد حضّرتُ على

الطّاولة الزّبدة والطّحين اللّذين كنّا قد أحضرناهما معنا.

وعندما رأت السيّدة باربُران المفاجأة الجديدة، عادت تطلق هتافات الرّضا والإعجاب. ولكنّني وجدتُ أنّ الصّراحة تفرض عليّ مقاطعتها، فقلتُ:

- هذه المفاجأة هي لنا بقدرِ ما هي لكِ. فنحن نتضوّر جوعاً ونرغب في أكل الفطائر. أتتذكّرين كيف قوطعنا في آخر ثلاثاء مرفعٍ أمضيتُه هنا، وكيف أنّ الزّبدة التي اقترضتِها لتصنعي لي الفطائر استُخدِمت لطبخ البصل في المقلاة؟ ولكن هذه المرّة، لن يُقاطعنا أحد.

فسألتني السيّدة باربُران:

- أنت تعرف إذن أنّ باربُران في باريس؟

- أجل.

- أتعرف كذلك سبب ذهابه إلى هناك؟

- كلاّ.

- الأمر يتعلّق بك.

فقلتُ مرتعباً:

- بي أنا؟

ولكن قبل أن تُجيبَني، نظرت السيّدة باربُران إلى ماتيا كما لو كانت لا تجرؤ على التّحدّث أمامه، فقلتُ لها:

- أوه! يمكنك التّحدّث أمام ماتيا، فقد شرحتُ لكِ أنّه بالنّسبة إليّ بمثابةِ أخٍ وكلّ ما يخصّني يخصّه.

فأجابت:

- إنّه أمرٌ يطول شرحه.

لاحظتُ أنّها عازفة عن الكلام، فلم أشأ الإلحاف في السؤال أمام ماتيا خوفاً من أن ترفض الأجابة، الأمر الذي كان يبدو أنّه سيؤلم ماتيا. فقررّتُ الانتظار لمعرفة سبب ذهاب باربُران إلى باريس. وسألتُها:

- وهل سيعود باربُران قريباً؟

- أوه! لا، بالتّأكيد.

- لا داعي للعجلة إذن، فلنهتمّ الآن بالفطائر وستخبرينني فيما بعد ما الذي يعنيني من سفر باربُران إلى باريس؛ ما دام لا خشية من أن يعود ليطبخ بصله في مقلاتنا، فلدينا الوقت كلّه. هل عندك بيض؟

- كلاّ، فأنا لم يعد لديّ دجاج.

- لم نُحضر لكِ البيض لأنّنا خشينا أن نكسره. ألا يمكنك اقتراضه؟

بدت مرتبكة ففهمتُ أنّها قد اقترضتْ على الأرجح كثيراً بحيث لم يعد يمكنها ذلك. فقلتُ:

- من الأفضل أن أذهب لشرائه بنفسي. وفي هذه الأثناء تحضّرين أنتِ العجين بالحليب. سأجد بيضاً عند سوكيه أليس كذلك؟ سأسرع إلى هناك. قولي لماتيا أن يكسر عيداناً للموقد، فهو يجيد كسر العيدان.

ومن عند سوكيه لم أشترِ دزينةً من البيض فحسب، بل قطعة صغيرة من الشّحم أيضاً.

ولمّا عدتُ، كان الطّحين قد ذُوِّب بالحليب ولم يبقَ إلاّ إضافة البيض إلى العجين. صحيحٌ أنّه لم يكن هناك وقتٌ ليتخمّر، ولكنّنا كنّا

أكثر جوعاً من أن نتمكّن من الانتظار. فإن كانت الفطائر ثقيلةً بعض الشّيء، فمِعَدُنا كانت قويّة بما يكفي لاحتمال الأمر.

وفيما كانت السيّدة باربُران تخفق العجين جيّداً، قالت:

- ولكن بما أنّك ولدٌ طيّب بهذا الشّكل، فلمَ لم تبعث لي بأخبارك؟ أتعرف أنّني أكثر من مرّة فكّرتُ أنّك قد متّ؟ كنتُ أقول في نفسي: لو كان ريمي ما يزال على قيد الحياة لكتبَ لأمّه السيّدة باربُران.

- ولكنّ السيّدة باربُران لم تكن وحدها، كان يعيش معها السيّد باربُران وكان هو ربّ المنزل، وقد أثبت ذلك عندما باعني ذات يوم بأربعين فرنكاً إلى موسيقيّ عجوز.

- ينبغي عدم التّحدّث عن هذا يا صغيري ريمي.

- لا أقول ذلك لأشكو ولكن لأشرح لكِ لمَ لمْ أجرؤ على الكتابة إليكِ. كنتُ خائفاً من أن يبيعني مجدّداً إذا ما عُثر عليّ. وأنا لم أشأ أن أُباع. ولهذا السّبب لم أكتبْ لكِ عندما فقدتُ معلّمي العجوز، وقد كان رجلاً طيّباً.

- آه! لقد مات الموسيقيّ العجوز؟

- أجل، وقد بكيتُه كثيراً. فإذا كنتُ أعرفُ شيئاً اليوم، وإذا كنتُ قادراً أن أكسب رزقي، فإليه أدين بذلك. ومن بعده وجدتُ أيضاً أشخاصاً طيّبين آووني تحت سقفهم وعملتُ عندهم. ولكن لو كتبتُ لكِ قائلاً: «أنا أعمل كبستانيّ في غلاسيير»، أفما كان باربُران سيأتي لجلبي من هناك أو ليطلب المال من أولئك النّاس الطّيّبين؟ وأنا لم أكن أريد أيّاً من الأمرين.

- أجل، أفهم هذا.

- ولكنّ ذلك لم يكن يمنعني من التّفكير فيكِ. وقد حصل أحياناً أن أكون تعيساً، وآنئذٍ كانت السيّدة باربُران هي من أناجيها لتأتي لنجدتي. وفي اليوم الذي ألفيتُني فيه حرّاً لعمل ما أشاء، جئتُ لأقبّلها، لا على الفور، فالمرء لا يفعل دوماً ما يريد، كما أنّني كانت تخامرني فكرة صعبة التّنفيذ. كان يجب أن نكسب ثمن بقرتنا قبل أن نقدّمها لكِ، والمال لم يكن يهطل في جيوبنا على شكلِ قطعٍ كبيرة من مائة فلس. فقد توجّب علينا أن نعزف في طريقنا شتّى أنواعَ الألحان، الفرِح منها والحزين، كما توجّب أن نمشي ونعرق ونتعب ونحرم أنفسنا! ولكن بقدر ما كنّا نتعب كان فرحنا يكبر، أليس كذلك يا ماتيا؟

- كنّا كلّ مساء لا نعدّ المال الذي جنيناه في النّهار فحسبُ بل ذلك الذي كان بحوزتنا أيضاً، لنرى ما إذا كان قد تضاعف.

- آه! يا لكما من ولدين طيّبين، طيّبين!

وفيما نتحدّث، كانت السيّدة باربُران تخفق العجين من أجل الفطائر، وماتيا يكسر عيدان الحطب، وأنا أضع الصّحون والشّوكات والكؤوس على الطّاولة، ثمّ ذهبتُ إلى النّبع لأملأ الابريقَ ماءً.

ولّما عدتُ كانت القِدْر مملوءةً بعصيدة صفراء شهيّة، والسيّدة باربُران تفرك بقوّةٍ المقلاة بواسطة حزمةِ قشّ، وفي الموقد تشتعل نارٌ صافية كان ماتيا يلقّمها واضعاً الأغصان شيئاً فشيئاً. أمّا كابي، فكان جالساً عند طرف الموقد ينظر إلى هذه التّحضيرات بعينٍ حانية. ولّما كانت النّار تلذعه من وقتٍ لآخر كان يرفع حيناً إحدى قائمتيه وحيناً قائمة أخرى، مُصدراً في كلّ مرّة أنّةً صغيرة. وكان الضّوء

المُبهر المنبعث من النّار يتسلّل إلى أكثر الزّوايا ظُلمةً، وكنتُ أرى الشّخصيّات المرسومة على السّتائر المحيطة بالسّرير تتراقص، هذه الشّخصيّات التي لطالما أخافتني ليلاً في طفولتي، عندما كان يوقظني ضوء القمر السّاطع.

وضعت السيّدة باربُران المقلاة فوق النّار، وتناولَتْ بطرف سكّينها قطعةً من الزّبدة وأسقطتهُ في المقلاة فذاب فوراً.

فهتف ماتيا الذي كان منحنياً فوق النّار غير خائفٍ من الاحتراق:

- رائحتها شهيّة!

بدأت الزّبدة تُصدر أزيزاً، فصرخ:

- إنّها تغنّي. آه! ينبغي أن أرافقها عزفاً!

ففي نظر ماتيا، كلّ شيء يجب أن يحصل على وقع الموسيقى. فتناول كمنجته وبهدوءٍ ونبرٍ خفيضٍ راح يرافق بإيقاعاته أغنية المقلاة، ممّا جعل السيّدة باربُران تغرق في الضّحك.

ولكن اللّحظة كانت أكثر مهابةً من أن نستسلم لمرحٍ في غير أوانه. غمست السيّدة باربُران المغرفة في القدْر وأخذت قدراً من العجين الذي راح يسيل على شكل خيوط بيضاء طويلة. ثمّ سكبت العجين في المقلاة فما كان من الزّبدة إلاّ أن انسحبت أمام هذا الفيضان الأبيض لتشكّل من حوله دائرةً صهباء.

وبدوري انحنيتُ إلى الأمام: ضربت السيّدة باربُران قبضة المقلاة وبحركةٍ رشيقةٍ جعلت الفطيرة تقفز، ممّا أخاف ماتيا كثيراً. ولكن لا داعي للخوف. فبعدما قامت الفطيرة بنزهةٍ صغيرةٍ في المدفأة، عادت لتقع في المقلاة على الوجه الآخَر، مُبينةً عن وجهها المحمرّ.

وما إن تسنّى لي تناوُل صحنٍ حتّى كانت الفطيرة تنسكبُ فيه.

إنّها لماتيا الذي التهمها حارقاً أصابعه وشفتيه ولسانه وحنجرته، ولكن ما همّ! فهو لم يكن يأبه لحروقه.

- آه! كم هي لذيذة! قال وفمُه ممتلئ.

بعد ذلك حان دوري لأمدّ صحني وأحترق. ولكن على غرار ماتيا لم آبه بالحرْق.

ولمّا احمرّت الفطيرة الثّالثة، مدّ ماتيا يده، ولكنّ كابي أصدر نباحاً قويّاً مُطالِباً بدوره. ولعدالة مطلبه هذا، قدّم له ماتيا الفطيرة مثيراً استنكار السيّدة باربُران التي كانت، على غرار كلّ القرويّين، لا تقيم وزناً للحيوانات ولا تفهم كيفَ نمنح كلباً طعامَ إنسان. ولتهدئتها، وبما أنّها أعلنت أنّها لن تلمس الفطائر قبل أن يهدأ جوعنا العظيم، شرحتُ لها أنّ كابي حيوانٌ مدرَّب، وأنّه أسهم في تحصيل ثمن البقرة، كما أنّه صديقنا، ممّا يعني أنّه يجب أن يأكل مثلنا ومعنا.

لزم وقتٌ طويلٌ حتّى يهدأ جوعنا ونهمنا. غير أنّنا في لحظةٍ ما أعلنّا، في وفاقٍ، أنّنا لن نتناول فطيرةً واحدة قبل أن تكون السيّدة باربُران قد تناولت عدّة فطائر.

حان دورنا لنحضّر الفطائر بأنفسنا: بدأتُ أنا، ثمّ جاء دور ماتيا. كان وضْع الزّبدة ثمّ سكْب العجين عملاً سهلاً، ولكنّ ما لم نكن قادرين عليه هو حركة اليد الرّشيقة لقلب الفطيرة، فكانت النّتيجة أن أوقعتُ واحدة في الرّماد وتلقّى ماتيا أخرى حارقة على يده.

ولمّا أتينا على آخِرِ الفطائرِ أعلن ماتيا، وكان قد انتبه إلى أنّ السيّدة باربُران لا تريد التّحدّث أمامه في موضوعٍ يخصّني، أعلن أنّه يرغب في

الاطمئنان على البقرة في الحوش. ومن دون أن يسمح لنا بالاعتراض، تركنا لوحدنا أنا والسيّدة باربُران.

ولئن تمكّنتُ من الانتظار حتّى تلك اللّحظة، فإنّ ذلك لم يحصل من دون لهفة كبيرة، وقد لزم الاهتمام كلّه الذي كنتُ أوليه لتحضير الفطائر حتّى لا أترك الموضوع يتأكّلني.

كنتُ أعتقد أنّ باربُران قد ذهب إلى باريس ليبحث عن فيتاليس ويطالبه بدفع مستحقّات إيجاره إيّاي له لسنوات. وذلك لا شأن لي به. فبموت فيتاليس، لم يعد قادراً على الدّفع، ولم يكن يمكن أن يُطلب منّي أنا أمرٌ كهذا. ولكن إذا كان باربُران لا يستطيع مطالبتي بالمال، فقد كان بوسعه المطالبة بي أنا. وإذا تمكّن من العثور عليّ فبإمكانه تشغيلي عند أيٍّ كان، وفي أيّ مكان، شرطَ أن يُدفع له مبلغٌ من المال. والأمر الأخير كان يخصّني، يخصّني بشدّة، لأنّني كنتُ مُقرِّراً أن أفعل كلّ شيء قبل أن أرضى بالرّضوخ لسلطة باربُران الشّرير. ولو توجّب الأمر، فسأغادر فرنسا وأذهب إلى إيطاليا مع ماتيا، أو إلى أميركا، لا بل إلى آخِر الدّنيا.

هذا ما كنتُ أفكّر فيه، وقرّرتُ أن أكون حذِراً في ما سأقوله للسيّدة باربُران، لا لأنّني تصوّرتُ أنّه لا يمكن الوثوق بها، هذه المرأة الغالية، فأنا أعرف كم تحبّني وكم كانت مخلصة لي. ولكنّني كنتُ قد رأيتُ أنّها تخشى سطوة زوجها، وإذا ما تكلّمتُ كثيراً فإنّها، ولو لم تشأ ذلك، ستكرّر أمام باربُران ما سأكون قد قلتُه، فتمنحه بذلك الوسيلة للوصول إليّ، أي استعادتي. وأنا لن أرتكب هذا الخطأ، وسألتزم جانب الحذر.

لّما خرج ماتيا، سألتُ السيّدة باربُران:

- الآن وقد بتنا وحدنا، أستقولين لي لماذا تخصّني رحلة باربُران إلى باريس؟

- طبعاً يا بنيّ! سأخبرك ذلك بكلّ سرور!

فأصابتني الدّهشة.

وقبل أن تتابع، نظرت السيّدة باربُران صوب الباب.

ولّما اطمأنّت، اقتربت منّي وقالت بصوتٍ هامس وعلى وجهها ترتسم ابتسامة:

- يبدو أنّ عائلتك تبحث عنك.

- عائلتي!

- أجل عائلتك يا صغيري ريمي.

- وهل لي عائلة أنا؟ لي عائلة يا سيّدة باربُران، أنا الطّفل اللّقيط!

- يبدو أنّ عائلتك لم تتخلَّ عنك بإرادتها، لأنّها الآن تبحث عنك.

- من ذا الذي يبحث عنّي؟ آه يا سيّدة باربُران، تكلّمي، تكلّمي بسرعة أرجوكِ.

ثمّ شعرتُ فجأةً بالجنون يتلبّسني ورحتُ أصرخ:

- ولكنّ هذا مستحيل، إنّ باربُران هو من يبحث عنّي.

- أجل بالتّأكيد، ولكنّه يبحث عنك من أجل عائلتك.

- لا، من أجله هو، لكي يستعبدني ويبيعني من جديدٍ، ولكنّه لن يأخذني مجدّداً.

- آه! يا صغيري ريمي، كيف يمكنك التّفكير في أنّني قد أشارك في أمرٍ كهذا؟

- إنّه يريد خداعكِ يا أمّي باربُران.

- اسمع يا بنيّ، تعقّل واسمع ما لديّ لأقوله لك ولا تخفْ هكذا.

- سأحاول.

- إليكَ ما سمعتُه بنفسي، وستصدّق، أليس كذلك؟ في الاثنين القادم سيكون مرّ شهرٌ على هذه الحادثة: كنتُ أعمل في المخبز عندما دخل إلى البيت رجلٌ، أو سيّد بالأحرى، وكان باربُران موجوداً. فسأله الرّجل الذي كان يتحدّث بلكنة شخصٍ غريب: أأنتَ هو المدعوّ باربُران؟ فأجابه باربُران: أجل، أنا هو.

- أأنتَ من عثر على طفلٍ في باريس في جادّة بروتوي وتكفّل بتربيته؟

- أجل!

- وأين هو هذا الطّفل في الوقت الحاضر؟

فأجاب جيروم:

- وما شأنكَ أنت لو سمحت؟

لو كنتُ شككتُ بصدق السيّدة باربُران، لكان اللّطف الذي وضعه باربُران في جوابه أكّد لي أنّها تنقل لي بأمانةٍ ما سمعته. تابعت هي:

- أنت تعرف أنّه من داخل المخبز يمكن سماع ما يُقال هنا. ثمّ إنّ الأمر كان يتعلّق بك، ممّا جعلني أرغب في الاستماع. وفيما كنتُ أقترب لأسمع بشكلٍ أفضل، دستُ على غصنٍ انكسر تحت قدمي. فقال الرّجل: ألسنا وحدنا هنا؟ فأجاب جيروم: إنّها زوجتي. قال الرّجل: الجوّ حارّ هنا، إذا أردتَ يمكننا الخروج لنتحدّث. فذهبا

معاً، وبعد ثلاث ساعات أو أربع عاد جيروم بمفرده. أنت تتخيّل كم كان فضولي كبيراً لمعرفة ما جرى من كلام بين جيروم وذلك الرّجل الذي ربّما كان والدك، ولكنّ جيروم لم يُجب على أيّ سؤالٍ طرحتُه عليه. واكتفى بالقول إنّ ذلك الرّجل ليس والدك، ولكنّ عائلتك أرسلته ليبحث عنك.



- وأين هي عائلتي؟ ومن هي؟ ألديّ والد؟ ووالدة؟

- هذا ما سألتُ عنه جيروم. فقال لي إنّه لا يعرف شيئاً. ثمّ أضاف أنّه سيذهب إلى باريس بحثاً عن الموسيقيّ الذي أجّرك هو له والذي أعطاه عنوانه في باريس في شارع لورسين عند موسيقيّ آخر يُدعى غاروفولي. لقد حفظتُ جيّداً كلّ الأسماء، فاحفظها أنت أيضاً.

- لا تقلقي فأنا أعرفهم. وهل بعث باربُران بأيّ أخبار منذ رحيله؟

- كلاّ، لا بدّ أنّه مستمرّ في البحث. فالرّجل أعطاه مائة فرنك على شكل خمس لويسيّات ذهبيّة، ولا بدّ أنّه أعطاه المزيد منذ ذلك الوقت. كلّ ذلك، فضلاً عن الأقمطة الجميلة التي كنتَ ملفوفاً بها لمّا عُثر عليك، يؤكّد أنّ والديك ثريّان. وعندما رأيتكَ هنا عند زاوية الموقد خلتُ أنّك قد عثرتَ عليهم، ولهذا السّبب تصوّرتُ أنّ رفيقكَ هو شقيقك الفعليّ.

في تلك اللّحظة، مرّ ماتيا أمام الباب فناديتُه:

- ماتيا، إنّ أهلي يبحثون عنّي. لديّ عائلة، عائلة حقيقيّة!

ولكن الغريب أنّ ماتيا لم يبدُ عليه أنّه يشاركني حماستي.

فرويتُ له القصّة التي كانت السيّدة باربُران أخبرتني بها للتوّ.

الفصل العاشر

العائلتان القديمة والجديدة

لم أنمْ كثيراً تلك اللّيلة. رغم أنّني في الفترة الأخيرة حلمتُ مراراً بالنّوم في سرير طفولتي حيث أمضيتُ في الماضي الكثيرَ من اللّيالي الهانئة. ليالٍ نمتُ فيها ملء جفوني متجمّعاً في زاويتي ومتدثّراً بالأغطية حتّى العنق. وكم من مرّة، عندما كنتُ أضطرّ للنّوم في العراء، فيما يجمّدني برد اللّيل أو يخترقني ندى الصّباح حتّى العظام، كنتُ أتحسّر على هذا الغطاء الدّافئ.

ما إن نمتُ حتّى غفوت لأنّ نهاري كان مُتعِباً وكذلك اللّيلة التي أمضيتُها في السّجن. إلاّ أنّني سرعان ما استيقظتُ منتفضاً ولم أتمكّن من استعادة النّوم، فقد كنتُ مضطرباً وعلى قلق شديد.

عائلتي!

بهذه العائلة حلمتُ عندما غلبني النّوم قبل قليل. وفي الوقت القصير الذي غفوتُ فيه حلمتُ بعائلةٍ وأبٍ وأمٍّ وإخوةٍ وأخوات. وفي دقائق معدودة، عشتُ مع هؤلاء الذين لم أكن أعرفهم بعد والذين رأيتُهم في تلك اللّحظة الحلميّة للمرّة الأولى. والغريب هو أنّ ماتيا وليز والسيّدة باربُران والسيّدة ميليغان وآرثر كانوا من أفراد هذه العائلة، وكان فيتاليس هو أبي وقد عاد إلى الحياة وكان واسع الثّراء. ففيما كنّا مفصولَين أحدنا عن الآخر، تسنّى له أن يستعيد

دزربينو ودولتشي اللّذين لم تلتهمهما الكلاب كما تصوّرنا.

لا أعتقد أن أحداً لم يعرف هذا النّوع من الهلوسات، حيث في وقتٍ قصير من الزّمن نعيش سنوات كاملة ونعبر مسافات هائلة. والجميع يعرفون كيف أنّه عندما نستيقظ تبقى المشاعر التي خامرتنا قويّة وراسخة.

استيقظتُ وأنا لا أزال أرى مَن حلمتُ بهم كما لو أنّني أمضيتُ الأمسية برفقتهم، فكان من الطّبيعيّ أن أعجز عن معاودة النّوم.

ولكنْ شيئاً فشيئاً بدأت حدّة هذه الهلوسات تخفّ، وإذا بالواقع يسيطر على فكري ليُبقيني أكثر صحوةً ممّا كنت.

كانت عائلتي تبحث عنّي، ولكن من أجل العثور عليها كان يجب أن ألجأ إلى باربُران.

كانت هذه الفكرة وحدها قادرة على إفساد فرحي. كنتُ أفضّل ألاّ يكون للسيّد باربُران أيّة علاقة بسعادتي. فأنا لم أنسَ كلماته لفيتاليس عندما باعني له وغالباً ما كنتُ أكرّرها في نفسي: «سيعود الأمر بالمنفعة على من يربّون هذا الطّفل، ولو لم أعوّل على ذلك لما تكفّلتُ به أصلاً». منذ تلك الفترة، أسهمتْ هذه العبارة في تغذية مشاعري السّلبيّة تجاه باربُران.

فهوَ لم يلتقطني من الشّارع رأفةً بي، ولا تكفّل بي بداعي الرّأفة أيضاً، بل فقط لأنّني كنتُ ملفوفاً بقماطٍ جميل، ولأنّ إعادتي إلى عائلتي ذات يوم ستعود عليه بالنّفع. ولأنّ هذا اليوم لم يأتِ في الوقت الذي أرادَه، باعني لفيتاليس والآن سيبيعني لأبي.

ما أكبر الفرق بين الرّجل وزوجته! فالسيّدة باربُران لم تحبّني من

أجل المال. آه! كم أرغب في إيجاد وسيلةٍ تجعل الفائدة تعود إليها هي لا إلى باربُران!

ولكن عبثاً فتّشت وعبثاً تقلّبتُ في سريري مراراً وتكراراً، فلم أكن ألقى شيئاً، وكنتُ أجدني دوماً أمام هذه الفكرة التي تدفع إلى اليأس، وهي أنّ باربُران سيكون هو من يعيدني إلى والديّ، وأنّه هو من سيتلقّى المكافأة والشّكر.

ولكن لا مهرب من ذلك، فليس في الأفق من حلّ آخر. وسيكون عليّ أنا فيما بعد، عندما أصير ثريّاً، أن أوضّح الفرق الذي أقيمه في قلبي بين المرأة وزوجها، فأشكر السيّدة باربُران وأكافئها.

أمّا في الوقت الحاضر فليس أمامي إلاّ الاهتمام بمسألة باربُران، أي البحث عنه والعثور عليه. لأنّه لم يكن من ذلك النّوع من الأزواج الذين لا يخطون خطوة من دون إعلام زوجاتهم عن المكان الذي هم فيه وحيث يمكن الوصول إليهم إذا ما احتاجهم أحد. كلّ ما كانت السيّدة باربُران تعرفه هو أنّ زوجها في باريس. فمنذ ذهابه لم يكتب لها، كما لم يرسل أخباره مع أحد أبناء بلدته من البنّائين العائدين إلى الدّيار، فهو لم يكن معتاداً على هذا النّوع من الالتفاتات الودّية.

أين هو وأين يقيم؟ لم تكن السيّدة باربُران تعرف ذلك بشكل محدّد يسمح لها بالكتابة إليه. ولكن كان يكفي البحث عنه عند ثلاثة أو أربعة من مؤجّري الغرف في شارع موفتار كانت تعرف أسماءهم، لنجده على الأرجح عند أحد منهم.

كان عليّ إذن السّفر إلى باريس والبحث بنفسي عن الرّجل الذي يبحث عنّي.

أن يكون لي عائلة هو بالتّأكيد مصدرُ فرحٍ عظيمٍ وغير متوقّع. ولكن في ظلّ هذه الظّروف، كان هذا الفرح مَشوباً بالمشاكل وحتّى بالحزن.

كنتُ آمل أن نتمكّن أنا وماتيا من إمضاء عدّة أيّام هانئَين وسعيدَين إلى جانب السيّدة باربُران، وأنا ألعب وإيّاه بألعابي القديمة، ولكن ها نحن مضطرّان للرّحيل في اليوم التّالي.

كنتُ أنوي بعد مغادرة منزل السيّدة باربُران أن أذهب إلى شاطئ البحر، على إيناند، لأرى إتيانيت. ولكن بات عليّ العدول عن هذه الرّحلة وعن زيارة إتيانيت التي كانت طيّبةً حيالي وبالغة الحنان.

وكنتُ أنوي أن أذهب بعد رؤية إتيانيت إلى دروزي في منطقة نيافر لأحمل إلى ليز أخبار شقيقيها وشقيقتها. يجب إذن العدول عن زيارة ليز أيضاً.

هكذا أمضيتُ الشطر الأعظم من ليلتي أقلّب هذه الأفكار، قائلاً في نفسي حيناً إنّ عليّ التّخلّي عن إتيانيت وليز، وفي حينٍ آخر إنّ عليّ بالعكس أن أذهب إلى باريس بأسرع ما يمكن لملاقاة عائلتي.

وفي النّهاية غفوتُ دون أن أحسم خياري. وتلك اللّيلة التي كنتُ أتصوّر أنّها ستكون أفضل ليلةٍ في حياتي، كانت هي الأسوأ والأكثر قلقاً التي ما أزال أتذكّر.

في الصّباح، عندما اجتمعنا أنا والسيّدة باربُران وماتيا حول الموقد الذي كان حليب بقرتنا يسْخن فيه، تناقشنا في الأمر.

ما يجب أن أفعل؟

وأخبرتها بقلقي وحيرتي في الليلة الماضية.

فقالت السيّدة باربُران:

- يجب أن تذهب فوراً إلى باريس. إنّ أهلك يبحثون عنك، فلا تؤخّر فرحتهم.

وجعلتْ تُسهب في هذه الفكرة وتدعّمها بالحجج. وكانت كلّما تقدّمت في الشّرح بدت لي حججها أكثر صواباً.

فقلتُ:

- حسناً! سنذهب إلى باريس.

ولكنّ ماتيا لم يبدُ موافقاً على هذا القرار. فقلتُ له:

- أنت ترى أنّنا علينا ألاّ نذهب إلى باريس. فلمَ لا تعطيني أسبابك كما فعلت السيّدة باربُران؟

فهزّ برأسه.

- عليكَ أن تساعدَني، فأنتَ ترى مدى قلقي.

فقال أخيراً:

- أجد أنّ الجُدد ينبغي ألاّ يجعلوك تنسى القدامى. فحتّى هذه اللّحظة كانت عائلتك مكوّنة من ليز وإتيانيت وأليكسي وبنجامان، وقد كانوا لك بمثابة أخواتٍ وإخوة، وأحبّوك. ولكن ها إنّ عائلة جديدة تظهر، عائلة لا تعرفها، عائلة لم تفعل لكَ سوى أن تركتْكَ على قارعة الطّريق، وإذا بك تتخلّى فجأةً عمّن عاملوك بالحسنى لصالح مَن أساءوا معاملتك. أرى في هذا إجحافاً.

فقاطعتْه السيّدة باربُران:

- لا يصحّ أن تقول إنّ أهل ريمي تخلّوا عنه. فربّما كان طفلهم قد سُرِق، وهم ينتظرونه ويبحثون عنه منذ ذلك اليوم.

- لا أعرف هذا، ولكنّ ما أعرفه هو أنّ آكان الأب قد التقط ريمي الذي كان يُحتضر عند بابه، وعالجه كما لو كان ابناً له، وأنّ أليكسي وبنجامان وإتيانيت وليز قد أحبّوه كمثلِ أخٍ لهم. ولذا فما أعنيه هو أنّ من احتضنوه يستحقّون إخلاصه على الأقل بقدر من أضاعوه عمداً أو بلا إرادة. فآكان الأب وأولاده كانت صداقتهم إراديّة، فهم لم يكونوا مدينين لريمي بشيء.

لفظ ماتيا هذه الكلمات كما لو كان غاضباً منّي، دون أن ينظر إليّ أو إلى السيّدة باربُران. فأحزنني ذلك، ولكن لم يمنعني الحزن الذي سبّبه لي لومه من تقدير كلّ رجاحة تفكيره. كما أنّني كنتُ كالمتردّدين الذين ينحازون إلى جانب مَن يتكلّم الأخير.

فقلتُ:

- إنّ ماتيا على صواب. ثمّ إنّني لن أتمكّن من الذّهاب إلى باريس بضميرٍ مرتاحٍ إذا لم أزر إتيانيت وليز.

فأجابت السيّدة باربُران مُصرّةً:

- ولكن أهلك!

كان عليّ أن أحسم أمري، فحاولتُ التّوفيق بين الأمرين وقلتُ:

- لن نذهب لرؤية إتيانيت لأنّ الطّريق طويل جدّاً. كما أنّ إتيانيت تُجيد القراءة والكتابة لذا يمكننا التّواصل معها بالمراسلة. ولكن قبل الذّهاب إلى باريس نعرّج على دروزي لرؤية ليز. وإذا ما أخّرنا ذلك، فلن يكون التّأخير كبيراً. ثمّ إنّ ليز لا تجيد الكتابة والقراءة وأنا أقوم بهذه الرّحلة من أجلها هي على وجه الخصوص. سأحدّثها عن أليكسي، وبعدما أكون قد طلبتُ من إتيانيت أن تكتب لي وترسل

رسالتها إلى دروزي، فسأقرأ الرّسالة لليز أيضاً.

- هذا جيّد، قال ماتيا مبتسماً.

واتّفقنا أن نرحل في الغد، فأمضيتُ جزءاً من النّهار في كتابة رسالة طويلة إلى إتيانيت شارحاً لها الأسباب التي تدعوني إلى عدم زيارتها كما كنتُ أنوي.

وفي اليوم التّالي، كان عليّ أن أحتمل حزن الوداع مرّة أخرى. ولكن على الأقلّ لم أكن أغادر شافانون كما غادرتُها مع فيتاليس. فقد تمكّنتُ من تقبيل السيّدة باربُران ووعدتُها بأن أعود لزيارتها برفقة والديَّ عمّا قريب. وأمضينا عشيّة يوم الرّحيل بكاملها في مناقشة ما سأقدّمه لها، فلا هديّة تليق بمزاياها. أفلن أصبح ثريّاً؟

فقالت:

- لا شيء يساوي عندي البقرة التي أهديتَنيها يا صغيري ريمي. ومع كلّ ثروتك لن تجعلني أكثر سعادةً ممّا فعلتَه وأنت فقير.

كان علينا أن نودّع بقرتنا المسكينة أيضاً. فقبّلها ماتيا على خطمها أكثر من عشر مرّات، الأمر الذي بدا أنّها استحسنتْه، فعندَ كلّ قبلة كان تمدّ لسانها الكبير.

ها نحن في الطّريق من جديد، حقائبنا على ظهرنا وكابي يتقدّمنا. كنّا نمشي بسرعة، أو بالأحرى كنتُ أنا، من وقتٍ لآخر، دونَ أن أعي ما أفعله، أحثّ الخطى مدفوعاً رغماً عنّي بتوقي للوصول إلى باريس.

ولكنّ ماتيا، بعدما مشى على وتيرتي بعض الوقت، قال لي إنّنا إن استمررنا على هذه الشّاكلة، فلن يطول بنا الأمر حتّى نُصاب بالإرهاق. فأبطأتُ سيري، ولكنّني سرعان ما عدتُ أمشي بسرعة.





فقال لي ماتيا بنبرةٍ حزينة:

- كم أنت مستعجل!

- هذا صحيح، وأعتقد أنّك يجب أن تكون مستعجلاً مثلي أنت أيضاً، لأنّ عائلتي ستكون عائلتك.

فهزّ رأسه.

كدّرني وأحزنني أن أرى هذه الإيماءة التي سبق أن لاحظتُها مراراً منذ أن بدأ الحديث عن عائلتي.

- ولكن ألسنا أخوين؟

- أوه! بالطّبع نحن كذلك فيما بيننا، أنا لا أشكّ بك. فأنا أعرف أنّني أخوك اليوم وغداً، أنا أشعر بذلك.

- ما المشكلة إذن؟

- المشكلة هي التالية: ما الذي يؤكّد لك أنّني سأكون أخاً لإخوتك إذا ما كان لديك إخوة، وابناً لوالدك ووالدتك؟

- لو كنّا ذهبنا إلى لوكا، أفلن أكون أخاً لشقيقتك كريستينا؟

- أوه! بلى، بالطّبع.

- فلِمَ لا تكون أخاً لإخوتي وأخواتي إذا ما كان لديّ إخوة وأخوات؟

- لأنّ الأمر مختلف تماماً. تماماً.

- وفيمَ هو مختلف؟

- أنا لم أُلفّ بأقمطة ثمينة.

- وما المشكلة في ذلك؟

- المشكلة كبيرة، فالمسألة بكاملها تكمن هنا. وأنت تعرف هذا

بقدر ما أعرفه. لو جئتَ إلى لوكا، وأنا أرى الآن أنّك لن تأتي أبداً، لاستقبلك أناسٌ فقراء، هم أهلي، لن يجدوا ما يلومونك عليه لأنّهم أكثر فقراً منك. ولكن إذا ما صدقت الأقمطة الثّمينة كما تعتقد السيّدة باربُران عن حقّ، فهذا يعني أنّ أهلك أثرياء. وربّما كانوا كذلك أشخاصاً نافذين في المجتمع! فكيف تريدهم أن يستقبلوا في هذه الحالة بائساً صغيراً ومسكيناً مثلي؟

– ولكن ألستُ بائساً أنا أيضاً؟

– إنّك كذلك اليوم، ولكنْ غداً ستصير ابنهم. أمّا أنا فسأبقى دوماً البائس الذي أنا هو اليوم. سوف يُرسلونك إلى المدرسة ويأتونك بأساتذة، أمّا أنا فلن يكون أمامي إلاّ متابعة طريقي بمفردي، وسأظلّ أتذكّرك مثلما ستظلّ تتذكّرني أيضاً أنت، آمل ذلك.

– أوه! يا عزيزي ماتيا، كيف يمكنك التّحدّث بهذا الشكل؟

– أنا أقول ما أعتقده، *o mio caro* [1]، والسّبب الوحيد الذي يجعلني عاجزاً عن أن أكون فرِحاً لفرحك هو أنّنا سننفصل. وأنا كنتُ قد ظننتُ وتخيّلتُ، لا بل حلمتُ مراراً بأنّنا سوف نظلّ معاً إلى الأبد، كما نحن اليوم. أوه! ليس في الحالة التي نحن عليها اليوم، أي موسيقيَّي شوارع فقيرَين. كنتُ قد تخيّلتُ أنّنا سندرس سويّة وأنّنا سنصير موسيقيّين فعليّين نعزف أمام جمهور فعليّ دون أن نفترق أبداً.

– ولكن هذا ما سيحصل يا صغيري ماتيا. إذا كان أهلي أثرياء، فستُفيد من ذلك مثلي، وإذا ما أرسلوني إلى المدرسة فستكون أنت معي. فنحن لن نفترق أبداً، وسوف ندرس معاً ونبقى معاً دوماً.

---

(1) قالها بالإيطاليّة، وتعني «يا عزيزي» (المترجمة).

سوف نكبر ونعيش معاً كما ترغب أنت وكما أرغب أنا، وبالقوّة ذاتها، أؤكّد لك.

- أعرف تماماً أنّك ترغب في ذلك، ولكنّك لن تبقى بعد اليوم سيّد نفسك كما أنت عليه الآن.

- اسمعْني: إن كان أهلي يبحثون عنّي أفلا يعني هذا أنّهم يهتمّون بأمري، وأنّهم يحبّونني أو سيحبّونني؟ وإذا كانوا يحبّونني فلن يرفضوا لي ما أطلبه. وما سأطلبه منهم هو أن يُسعِدوا مَن كانوا طيّبين حيالي وأحبّوني عندما كنتُ وحيداً في هذا العالم، أي السيّدة بارْبُران وآكان الأب الذي سنعمل على إخراجه من السّجن، وإتيانيت وأليكسي وبنجامان وليز وأنت. وسيأتون بليز لتعيش معهم وسيعلّمونها ويشفونها. أمّا أنت فسيُرسلونك إلى المدرسة معي إذا كان يجب أن أذهب إلى المدرسة. هكذا سوف تحصل الأمور إن كان أهلي أثرياء، وأنت تعرف جيّداً أنّني سأكون سعيداً جدّاً إن كانوا كذلك.

- أمّا أنا، فسأكون سعيداً إن كانوا فقراء.

- أنت غبيّ!

- ربّما.

ومن دون أن يقول ماتيا المزيد، نادى كابي. كان الوقت قد حان لنتوقّف لتناول الغداء، فأخذ الكلب بين ذراعيه وراح يتحدّث إليه كما لو كان يكلّم شخصاً يمكنه أن يفهم ويجيبه:

- ألا تفضّل أنت أيضاً يا كابي أن يكون أهل ريمي فقراء؟

لمّا سمع الكلب اسمي، نبح كالعادة تعبيراً عن رضاه ووضع قائمته اليمنى على صدره.

- لدى أهلٍ فقراء، يمكننا متابعة حياتنا الحرّة نحن الثّلاثة. سوف نذهب أنّى شئنا ولن يكون لنا هموم أخرى باستثناء إرضاء «الحضور الكريم».

- عوّوو، عوّوو.

- أمّا في ظلّ أهلٍ أثرياء، فسيوضع كابي في حوش الدار، في وجارِ كلابٍ، مربوطاً على الأرجح بسلسلة حديديّة جميلة ولكنّها تظلّ سلسلة، لأنّ الكلاب لا يمكنها أن تدخل بيوت الأثرياء.

أغضبني بعض الشّيء أن يتمنّى لي ماتيا أهلاً فقراء، بدل أن يشاركني حلمي الذي أوحت لي به السيّدة باربُران وتبنّيتُه فوراً وبشكلٍ تامّ. ولكن من جهةٍ أخرى كنتُ سعيداً لأن أرى وأفهم أخيراً الشّعور الذي كان سبب حزن ماتيا، أي الصّداقة والخوف من الافتراق لا غير. لذا لم يكن بوسعي أن أغضب ممّا كان في الواقع تعبيراً عن تعلقّه بي وعاطفته نحوي. كان ماتيا يحبّني، وهذه العاطفة هي التي كانت تجعله يخشى أن نفترق.

لو لم نكن مُرغَمين على كسب قوتنا اليوميّ، لكنتُ واصلتُ بالرّغم من ماتيا حثّ خُطاي. ولكن كان يجب تقديم العروض في كبار القُرى على طريقنا. وفي انتظار أن يتقاسم أهلي الأثرياء وإيّانا ثروتهم، كان علينا الاكتفاء بالفلوس القليلة التي نجنيها بصعوبةٍ هنا وهناك على هوى الصّدَف.

لذا لزمَنا وقت أكثر ممّا كنتُ أرغب فيه للانتقال من منطقة كروز إلى منطقة نيافر، أي من شافانون إلى دروزي مروراً بأوبوسّون ومونلوسون ومولان ودوسيز.

أضِفْ أنّنا، إلى قوتنا اليوميّ، كان لدينا سببٌ آخر يرغمنا على جني أكثر ما يمكن من الأرباح. فأنا لم أكن قد نسيتُ ما قالتْه لي السيّدة باربُران عندما أكّدت لي أنّني بثرواتي كلّها لن أقدر أن أجعلها سعيدةً أكثر ممّا فعلتُ في فقري، وأنا كنتُ أريد أن تكون صغيرتي ليز سعيدة بقدر سعادة السيّدة باربُران. بالتّأكيد سوف أتقاسم ثروتي مع ليز، لم يكن في هذا من شكّ، على الأقلّ بالنّسبة إليّ، ولكن قبل أن أصير ثريّاً، كنتُ أريد أن أحمل لليز هديّة أشتريها بالمال الذي سأكسبه: هديّة الفقر.

وكانت الهديّة عبارة عن دمية اشتريناها من دوسيز، وكانت لحسن الحظّ أرخص من بقرة.

ومن دوسيز إلى دروزي لم يعد علينا إلاّ أن نحثّ الخطى، وهذا ما فعلناه. إذ باستثناء شاتيون-أون-بازوا لم نجد في طريقنا إلاّ قرىً فقيرة، لم يكن ساكنوها على استعداد للاقتطاع من القليل الذي يملكونه ليقدّموه لموسيقيّين لا شأن لهم بهم.

وبدءاً من شاتيون، رحنا نتبع أطراف القناة بضفّتيها المشجّرتين ومياهها السّاكنة ومراكبها التي تمخر المياه بهدوءٍ تقْطرها الخيول. مراكبها التي ذكّرتني بالأيّام السّعيدة التي أبحرتُ فيها بهذه الطّريقة في القناة على متن مركب «البجعة» بصحبة السيّدة ميليغان وآرثر. أين هو مركب «البجعة» الآن؟ كم من مرّةٍ عندما كنّا نعبر قناةً أو نمرّ بمحاذاتها سألتُ النّاس ما إذا كانوا شاهدوا مركباً للنّزهة لا يمكن المرء أن يُخطئه بسبب شرفته وفخامةِ ترتيبه. لا بدّ أنّ السيّدة ميليغان قد عادت إلى إنكلترا مع آرثر وقد شُفي. كان هذا هو المرجّح، كان هذا

ما يجب اعتقاده، ومع ذلك فإنّني، أكثر من مرّة، عندما أمرّ بمحاذاة قناة نيفيرنيه، كنتُ أتساءل وأنا أرى من بعيد مركِباً تجرّه الخيول عمّا إذا كان ذلك المركب المتّجه صوبنا هو «البجعة».

ولأنّنا كنّا في فصل الخريف، كانت نهارات سَيرنا أقصر منها في الصّيف. وكنّا نتدبّر أمورنا لكي نصل قبل هبوط الظلام إلى القرى التي ننوي المبيت فيها. ومع ذلك، ورغم أنّنا كنّا نمشي بسرعة، لا سيّما في نهاية الطّريق، فإنّنا لم ندخل دروزي إلاّ تحت جنح الظلام.

للوصول عند عمّة ليز، لم يكن علينا إلاّ السّير بمحاذاة القناة، لأنّ زوج العمّة كاترين كان هوّاساً وكان يعيش في منزل شُيِّد إلى جانب الهويس المسؤول هو عنه. وهذا وفّر علينا الوقت، وسرعان ما وجدنا المنزل الواقع عند أطراف القرية في مرجٍ مزروعٍ بأشجار سامقة تبدو من بعيد كأنّها تسبح في الضّباب.

كان قلبي يخفق بشدّة ونحن نقترب من المنزل الذي كان انعكاس النّار المشتعلة في المدفأة يضيء نافذته، رامياً من حينٍ لآخر سُحُباً من النّور الأحمر تُنير طريقنا.

عندما بتنا قريبين من المنزل، رأيتُ الباب والنّافذة فيه مُغلَقين. ولكن من تلك النّافذة التي لم يكن لها لا مصاريع ولا ستائر، لمحتُ ليز جالسة إلى الطّاولة وإلى جانبها عمّتها، فيما يجلس أمامها رجلٌ يُدير لنا ظهره، كان زوج عمّتها على الأرجح.

فقال ماتيا:

- إنّهم يتعشّون، لقد وصلنا في الوقت المناسب.

ولكن بإيماءةٍ من يدي، ومن دون أن أقول شيئاً، أوقفتُه عن

الكلام، وأشرتُ إلى كابي أن يبقى في الخلف هادئاً.

ثمّ أنزلتُ حمّالة القيثارة عن كتفي وتأهّبتُ للعزف. فقال ماتيا بصوتٍ خفيض:

- آه! أجل، سيرينادا. إنّها فكرة جيّدة.



- لا ليس أنت. سأعزف وحدي.

ورحتُ أعزف النّوطات الأولى من أغنيتي النّابوليتانيّة ولكن من دون أن أغنّي حتّى لا يفضحني صوتي.

وفيما كنتُ أعزف، كنتُ أتأمّل ليز. فرفعتْ رأسها بسرعة ورأيتُ عينيها تطلقان ما يشبه الشّرر.

فبدأتُ أغنّي.

فقفزتْ من على الكرسيّ وركضتْ صوب الباب. وما كاد يتسنّى لي أن أعطي قيثارتي لماتيا حتّى كانت ليز بين ذراعيّ.

أدخلتنا إلى المنزل، وبعدما قبّلتني العمّة كاترين، وضعتْ على الطّاولة صحنين.

فرجوتُها أن تضع صحناً ثالثاً:

- إذا سمحتِ، فنحن قد أحضرنا معنا صديقةً صغيرة.

قلتُ هذا وأخرجتُ الدّمية من حقيبتي وأجلستُها على الكرسيّ الذي كان إلى جانب ليز.

لم أنسَ يوماً النّظرة التي رمقتني بها ليز في تلك اللّحظة، ولا زلتُ أتذكّرها إلى الآن.


Twitter: @ketab_n

بارِبُران

لو لم أكن راغباً في الوصول على عجلٍ إلى باريس لكنتُ أمضيتُ وقتاً طويلاً، طويلاً جدّاً مع ليز. فقد كان لدينا الكثير ليقوله أحدنا للآخر، وعن طريقِ لغةِ الإشارات التي كنّا نستخدمها ما كان يمكننا أن نُعرب إلاّ عن القليل.

كان على ليز أن تخبرني عن حياتها في دروزي وكيف غمرَها عمّها وعمّتها بحنانهما. فهما لم يكن قد بقي لهما أيٌّ من أولادهما الخمسة. وهي مأساةٌ كانت كثيرة الشيوع في منطقة نيافر، حيث تُضطرّ النّساء للتّخلّي عن أولادهنّ للذّهاب إلى باريس والعمل كمربّيات. كان عليها أن تخبرني كيف كانا يعاملانها كابنةٍ لهما، وكيف كانت تعيش في منزلهما وتُمضي أوقاتها، وما كانت ألعابها وهواياتها: الصّيد، والنّزهات في المركب، والرّكض في الغابات الكبيرة. وكانت هذه النّشاطات تأخذ معظم وقتها لأنّه لم يكن بوسعها أن ترتاد المدرسة.

من جهتي، كان عليّ أن أخبرها بكلّ ما حصل لي منذ افتراقنا، وكيف كدتُ أموت في المنجم الذي يعمل فيه أليكسي وكيف عرفتُ، لمّا وصلتُ إلى منزل مربّيتي، أنّ عائلتي كانت تبحث عنّي، ممّا منعني من الذّهاب لرؤية إتيانيت كما كنتُ أرغب.

وبالطّبع، كان الكلام عن عائلتي، عائلتي الثّريّة، هو الذي يشغل

المساحة الأوفر من حديثي. كنتُ أردّد لليز ما سبق أن قلتُه لماتيا، مشدّداً على مسألة الثّروة التي آمل نيلها والتي ستمسح لنا جميعنا بأن نكون سعداء: والدها وإخوتها وهي، وخصوصاً هي.

لم يكن لليز خبرة ماتيا المبكّرة، ولحسن حظّها لم تكن يوماً في مدرسة غاروفولي. لذا كانت على استعداد للقبول بفكرة أنّ الأثرياء لم يكن لديهم إلاّ أن يكونوا سعداء في هذه الدّنيا، وأنّ الثّروة كانت فانوساً سحريّاً يمنحنا على الفور ما نرغب فيه، مثلما يحصل في حكايا الجنيّات. ربّما كان الأمر عائداً لكون والدها فقيراً ولأنّه أُودِع في السّجن ولأنّ عائلتها تفرّقت! وسيّان لديها أن يكون الثّريّ أنا أو هي. على الأقلّ من حيث ما سيترتّب على ذلك من نتيجة: سنكون كلّنا سعداء. وهي لم يكن يشغلها إلاّ هذا الأمر، أن نكون مجتمعين وسعداء.

ما كنّا نُمضي وقتنا بالتّحدّث أمام الهويس على وقع هدير المياه المتدفّقة في السّدود. بل كنّا نذهب للتّنزّه ثلاثتنا، أنا وليز وماتيا، أو بالأحرى خمستنا لأنّ كابي والآنسة الدّمية كانا يرافقاننا في كلّ نزهاتنا.

كانت رحلاتي عبرَ فرنسا مع فيتاليس طوال سنواتٍ ومع ماتيا في هذه الشّهور الأخيرة قد جعلتني أجوب مناطق كثيرة. ولكنّني لم أكن رأيتُ مكاناً أكثر إثارةً للفضول من هذا الذي كنّا موجودين فيه في تلك اللّحظة. غابات شاسعة ومروجٌ جميلة وصخور وهضاب وكهوف وشلاّلات مُزبدة وبِرَك ساكنة، وفي الوادي الضيّق ذي المنحدرين الشّديدي الانحدار كانت القناة تنساب متعرّجة. كان ذلك خلاّباً، فلم نكن نسمع إلاّ خرير المياه وزقزقة العصافير أو أنين

الرّيح النّافخة في الأشجار الكبيرة. صحيحٌ أنّني قبل سنواتٍ كنتُ قد وجدتُ وادي بيافْر جميلاً بدوره. لذا لا أريد أن يؤخذ كلامي في حرْفيّته. فما أعنيه هو أنّ أيّ مكان أتنزّه فيه بصحبة ليز، أو نلعب فيه معاً، كان يمتلك في عينيّ جمالاً وسحراً لا تمتلكهما أماكن أخرى هي مع ذلك أجمل. فقد رأيتُ هذه المنطقة برفقة ليز، وبقيت في ذاكرتي مُضاءة بالفرح الذي شعرتُ به آنئذ.



في المساء، كنّا نجلس أمام المنزل عندما لا يكون الجوّ شديد الرّطوبة. أمّا عندما يكون الضّباب كثيفاً فنجلس أمام المدفأة، وأروح أعزف لليز على القيثارة، وهو ما كان يجعلها في منتهى السّعادة. وكان ماتيا أيضاً يعزف على الكمنجة أو على الشّياع، ولكنّ ليز كانت تفضّل القيثارة، ممّا كان يجعلني فخوراً جدّاً. ولمّا كان يحين وقتُ الإخلاد إلى النّوم، كانت ليز تطلب منّي أن أغنّي لها أغنيتي النّابوليتانيّة، فأفعل.

مع كلّ شيء، كان يجب أن أترك ليز وهذه المنطقة لمتابعة طريقي.

إلاّ أنّني لم أغادر بكثيرٍ من الحزن. فأنا غالباً ما داعبتني أحلام الثّراء، حتّى صرتُ مقتنعاً لا بأنّني سأصبح ذات يومٍ ثريّاً، بل بأنّي أصبحتُ ثريّاً ولم يعد عليّ إلاّ أن أصوغ أمنيةً ما فأتمكّن من تحقيقها في المستقبل القريب، القريب العاجل، وأكاد أقول على الفور.

وكانت كلمتي الأخيرة لليز، بلغة الإشارة طبعاً، تفسّر بأفضلَ من طويل الشّروح كم كنتُ صادقاً في أوهامي.

– سأعود لأجلبَكِ في عربةٍ تجرّها أربعة خيول، قلتُ لها.

فصدّقتني. وبيدها قلّدتْ إيماءة قيادة الخيول. لا شكّ أنّها كانت ترى العربة كما كنت أراها أنا.

إلاّ أنّنا قبل القيام بالرّحلة من باريس إلى دروزي في العربة، كان علينا أن نقطع مشياً الطّريق الفاصلة بين دروزي وباريس. ولو لم يكن ماتيا معي لحرصتُ على اجتياز هذه المسافة على مهلٍ، مكتفياً بكسبِ القليل اللاّزم لكلّ يوم. فما نفع التّعب الآن ونحن لم يعد لنا أن نشتري لا بقرة ولا دمية؟ كان يكفينا أن نحصل على قوتنا اليوميّ، ولم يكن عليّ أن أحمل لأهلي نقوداً.

ولكنّ ماتيا لم تكن تقنعه كلّ الأسباب التي كنتُ أسوقها لتبرير رأيي، وكان يقول لي وهو يرغمني على تناول قيثارتي:

– فلنجنِ ما يمكننا جنيُه، فمن يدري إذا كنّا سنجد باربُران على الفور؟

– إن لم نجده ظُهراً فسنجده في السّاعة الثّانية بعد الظّهر. فشارع موفتار ليس طويلاً جدّاً.

– ماذا لو لم يعد يسكن في شارع موفتار؟

- عندئذٍ نذهب إلى حيث يعيش.

- وإذا كان قد عاد إلى شافانون فسيكون علينا أن نكتب له وأن ننتظر جوابه. وفي الانتظار، كيف نعيش إن لم يكن لدينا شيء في جيوبنا؟ من يسمعك يحسب أنّك لا تعرف باريس على الإطلاق. فهل نسيتَ مقالع الحجارة في جانتيّي؟

- كلاّ.

- ولا أنا نسيت جدار كنيسة سان-ميدار الذي استندتُ إليه كي لا أقع على الأرض عندما كنتُ أتضوّر جوعاً. وأنا لا أريد أن أجوع في باريس.

- عندما نصل عند أهلي ستتعشّى بشكلٍ أفضل.

- إنّ الغداء الجيّد لا يمنع العشاء. ولكن يزعجني ألاّ أتغدّى ولا أتعشّى. فلنعمل إذن كما لو كان علينا شراء بقرة لأهلك.

كانت تلك نصيحة حكيمة. ولكنّني أعترف أنّني لم أعد أغنّي مثلما كنتُ أفعل عندما كان علينا شراء بقرة للسيّدة باربُران أو دمية لليز.

فكان ماتيا يقول:

- كم ستكون كسولاً عندما تصبح ثريّاً!

واعتباراً من مدينة كورباي، بلغنا الطّريق التي كنّا عبرناها قبل ستّة أشهر عندما غادرْنا باريس للذّهاب إلى شافانون. وقبل وصولنا إلى فيلجويف، دخلنا إلى المزرعة التي قدّمنا فيها عرضنا الموسيقيّ الأوّل معاً في حفل زفاف. فتذكّرَنا الزّوجان وأرادا أن نعزف لهما من جديدٍ وقدّما لنا العشاء وبتنا عندهما.

من هناك انطلقنا في صباح اليوم التّالي لندخل إلى باريس التي كنّا

قد غادرناها تحديداً قبلَ ستّة أشهر وأربعة عشر يوماً.

ولكنّ يوم العودة لم يكن شبيهاً بيوم الرّحيل. كان الطّقس بارداً ورماديّاً. لا شمس في السّماء ولا أزهار ولا خضرة على جانبَي الطّريق. كانت شمس الصّيف قد أنهت مهمّتها وحان دور ضباب الخريف. ومن أعلى الحيطان، لم تعد تتساقط على رؤوسنا أزهار المنثور بل أوراق يابسة تقع من الأشجار المصفرّة.

ولكنّ كآبة الطّقس لا تهمّ! فقد كان في داخلنا فرحٌ لا يحتاج إلى محفّز خارجيّ.

وعندما أقول «نحن»، فإنّ ذلك ليس دقيقاً. فقد كان الفرح في داخلي وحدي أنا لا غير.

أمّا ماتيا فقد كان يزداد كآبةً بقدر ما نقترب من باريس، وغالباً ما كان يمشي طوال ساعاتٍ من دون أن يتوجّه لي بكلمة.

لم يقل لي سبب حزنه، وأنا كنتُ أتصوّر أنّه عائد إلى الخوف من افتراقنا، لا غير، ولذا لم أشأ أن أعيد ما سبق أن شرحتُه له مراراً، وهو أنّ أهلي لا يمكن أن تخطر لهم فكرة تفريقنا.

ولم يقل لي ما الذي كان يشغله بهذا القدر إلاّ عندما توقّفنا لتناول الغداء قُبيل وصولنا إلى التّحصينات. كان جالساً على حجرٍ يأكل رغيف خبزه عندما قال:

– أتعرف في مَن أفكّر في اللّحظة التي ندخل فيها إلى باريس؟

– في مَن؟

– أجلْ في مَن؟ في غاروفولي. أتُراه خرج من السّجن؟ فعندما قيل لي إنّه في السّجن لم يخطر لي على بالٍ أن أسأل عن مدّة اعتقاله.

وهذا يعني أنّه يمكن أن يكون قد خرج الآن وعاد إلى منزله في شارع لورسين. ونحن سنبحث عن باربُران في شارع موفتار، أي في الحيّ نفسه الذي كان يعيش فيه غاروفولي وعند بابه. فماذا سيحصل إذا التقينا به صدفة؟ إنّه معلّمي وعمّي. وهذا يعني أنّ بوسعه احتجازي دون أن أتمكّن من الفرار. كنتَ أنتَ خائفاً من الوقوع بين يديّ باربُران، لذا يمكنك أن تفهم مدى خوفي من الوقوع بين يديّ غاروفولي. آه! يا رأسي المسكين! ولكنّ ألمَ الرّأس لن يكون كبيراً بالمقارنة مع ألم افتراقنا أنا وأنت، فلن يتمكّن أحدنا منّا من رؤية الآخر. ولكنّ هذا الافتراق الذي سيتسبّب به واحدٌ من أهلي سيكون أصعب من ذلك الذي سيتسبّب به أهلك. فلا شكّ في أنّ غاروفولي سيرغب في أخذك معه وبتربيتك بالعصا كما يفعل مع تلاميذه. ولكنّني لا أنصحك بالمجيء، كما أنّني لا أريد صحبتك في مثل هذه الظّروف، فأنتَ لم تتعرّض للضرب يوماً!

كان الأمل يسيطر على تفكيري بحيث لم أتذكّر غاروفولي. ولكن كلّ ما قاله ماتيا للتوّ كان ممكناً ولم أكن بحاجةٍ لشرحٍ كبيرٍ لأفهم أيّ خطرٍ يمكن أن يعترضنا. فسألته:

- ماذا تريد؟ أتريد ألاّ تدخل إلى باريس؟

- أعتقد أنّه يكفي ألاّ أذهب إلى شارع موفتار لأنجو من الحظّ العاثر الذي سيتمثّل في ملاقاة غاروفولي.

- حسناً، لا تأتِ إلى شارع موفتار. سأذهب إلى هناك بمفردي. وسنلتقي في مكانٍ محدّد في السّابعة هذا المساء.

واتّفقنا أنا وماتيا أن نلتقي عند طرف جسر الأسقفيّة، من جهة

صدر كنيسة نوتردام. ثمّ عاوَدْنا الانطلاق صوب باريس.

لمّا وصلنا إلى ساحة إيطاليا، ذهب كلّ منّا في طريق، وكنّا شديدي التّأثّر كما لو أنّنا لن نعاود الالتقاء بعد اليوم. وفي حين كان ماتيا وكابي يتّجهان نزولاً صوب حديقة النّبات، كنتُ أنا أتّجه إلى شارع موفتار الذي كان قريباً.

كانت تلك هي المرّة الأولى منذ ستّة أشهر التي أجدني فيها وحيداً من دون ماتيا وكابي إلى جانبي. وفي هذه المدينة الكبيرة التي هي باريس، كان ذلك يخلّف فيّ شعوراً أليماً.

ولكن كان عليّ ألاّ أدَع هذا الشّعور يغلبني: ألم أكن ذاهباً لأجد باربُران، وعن طريقه عائلتي؟

كنتُ قد كتبتُ على ورقةٍ عناوينَ مؤجّري الغرف حيث يمكن أن يكون باربُران مقيماً. ولكنّ هذا التّحوّط لم يكن لازماً، فأنا لم أكن نسيت لا أسماء المؤجّرين هؤلاء ولا عناوينهم، ولم أضطرّ لمراجعة ورقتي: باجو وبارّابو وشوبينيه.

كان باجو هو أوّل من قصدتُه في طريقي نزولاً في شارع موفتار. وبما يكفي من الشّجاعة، دخلتُ إلى ما يشبه المطعم البائس الذي يشغل الطّبقة الأرضيّة من منزلٍ مفروش. ولكنّ صوتي كان يرتجف عندما سألتُ عن باربُران.

- ومن هو باربُران هذا؟

- باربُران من شافانون.

ووصفتُ له باربُران، على الأقلّ كما رأيتُه عندما عاد من باريس: بوجهٍ قاسٍ وملامح خشِنة ورأسٍ مائلٍ صوب كتفه اليمنى.

- لا، ليس لدينا أحدٌ كهذا! لا أعرف أحداً بهذه المواصفات!

فشكرتُه وذهبتُ أبعدَ قليلاً عند بارّابو. وكان هذا الأخير، إلى تأجيره الغرف، يبيع الفاكهة أيضاً.

ومن جديدٍ طرحتُ سؤالي.

في البداية لم أنجح في جعل الزّوجين يسمعانني. فقد كانا منهمكين، الأوّل في إعداد طبخة خضراء اللّون كان يقطعها بما يشبه المسحّة، يقول إنّها من السّبانخ، أمّا الثّانية فكانت في نقاشٍ مع مشترية بشأن فلس لم تردّه لها. وبعدما كرّرتُ سؤالي ثلاث مرّات، حصلتُ أخيراً على جواب:

- آه! أجل باربُران... عرفنا في الماضي شخصاً بهذا الاسم. كان ذلك من أربع سنوات على الأقلّ.

فقالت المرأة:

- خس. حتّى أنّه يدين لنا بأجرة أسبوع. أين هو هذا المحتال؟

كان هذا تحديداً هو سؤالي.

فخرجتُ خائباً وقلقاً إلى حدّ ما. فلم يكن قد بقيَ لي إلاّ شوبينيه لأتوجّه إليه بالسّؤال. وإذا كان هو الآخر لا يعرف مكان باربُران، فأين أبحث عن هذا الأخير؟

وعلى غرار باجو، كان شوبينيه يمتلك مطعماً، وعندما دخلتُ الحجرة التي يحضّر فيها الطّعام ويقدّمه، كان العديد من الأشخاص جالسين.

فتوجّهتُ بالسّؤال إلى شوبينيه نفسه الذي كان يحمل ملعقةً في يده ويسكب الحساء لزبائنه. فأجابني:

- باربُران؟ لم يعد يقيم هنا.

فسألتُه وأنا أرتجف:

- وأين هو؟

- آه! لا أعرف.

فأصابَني دوارٌ وبدا لي أنّ الطّناجر كانت ترقص على النّار.

- أين يمكن أن أبحث عنه؟ قلتُ.

- هو لم يترك عنوانه الجديد.

لا بدّ أنّ وجهي فضح خيبتي بشكلٍ بليغٍ ومؤثّر، لأنّ واحداً من الرّجال كان جالساً إلى طاولةٍ موضوعةٍ قربَ الفرن ناداني سائلاً:

- وماذا تريد من باربُران؟

كان من المستحيل أن أجيبَ على سؤاله بصدق وأن أروي قصّتي، فقلتُ:

- أنا قادمٌ للتوّ من قريته شافانون وأحمل له أخباراً من زوجته. لقد قالت لي إنّني سأجده هنا.

فقال صاحب المكان للرّجل الذي طرح عليّ السّؤال:

- إذا كنتَ تعرف أين هو باربُران، فيمكنك أن تقول لهذا الصّبيّ أين يمكنه أن يجده. فهو بالطبع لا يضمر له شرّاً، أليس كذلك يا صبيّ؟

- أوه! كلاّ يا سيّدي، أنا لا أريد له الأذى إطلاقاً!

فعاودني الأمل.

- من المفترض أنّ باربُران يقيم الآن في فندق كانتال، في زقاق أوسترليتز. لقد كان هناك قبل ثلاثة أسابيع.

فشكرتُه وخرجت. ولكن قبل أن أذهب إلى زقاق أوسترليتز الواقع كما كنتُ أتصوّر في نهاية جسر أوسترليتز، أردتُ أن أعرف أخباراً عن غاروفولي لأحملها إلى ماتيا.

وكنتُ بالقرب من شارع لورسين بالتحديد. فلم يكن عليّ إلاّ أن أخطو بضع خطوات للوصول إلى المنزل الذي أتيتُ إليه في الماضي برفقة فيتاليس. وكما في اليوم الذي تعرّفتُ فيه للمرّة الأولى إلى غاروفولي كان هناك رجلٌ عجوز، الرّجل العجوز ذاته، ينشر خِرَقاً على سياج الباحة المخضرّ. كان كما لو أنّه لم يفعل إلاّ هذا منذ أن رأيته للمرّة الأولى.

فسألتُه:

- هل عاد السيّد غاروفولي؟

فنظر إليّ الرّجل العجوز وراح يسعل دون أن يجيبني. بدا لي أنّ عليّ أن أجعله يظنّ أنّني أعرف مكان غاروفولي وإلاّ فلن أحصل على أيّة معلومةٍ من جامع الخِرَق العجوز هذا.

فاتّخذتُ هيئة ماكرة وقلتُ له:

- ألا يزال هناك؟ لا بدّ أنّه يضجر.

- هذا ممكن، ولكنّ الوقت يمرّ بسرعة مع ذلك.

- ربّما ليس بالسّرعة نفسها بالنّسبة إليه.

أراد الرّجل أن يضحك لنكتتي، ممّا تسبّب له بسعالٍ رهيب. ولمّا هدأ سعاله سألتُه:

- أتعرف متى يعود؟

- بعد ثلاثة أشهر.

كان بوسع ماتيا أن يرتاح، فغاروفولي سيظلّ في السّجن ثلاثة شهور أخرى. وقبل انقضاء الأشهر الثّلاثة سيجد أهلي وسيلة للحيلولة دون أن يتمكّن المعلّم الرّهيب من إلحاق الأذى بابن أخيه.

لئن كنتُ عرفتُ لحظة انفعالٍ قاسية عند شوبينيه، فإنّ الأمل قد عاودني في تلك اللّحظة. فذهبتُ أبحث عن بارْبُران في فندق كانتال.

ومن دون المزيد من التّأخير، توجّهتُ صوب زقاق أوسترليتز وكلّي أمل وفرح. وبتأثير من هذه المشاعر على الأرجح، كنتُ على استعداد لأكون متسامحاً وبارْبُران.

ففي نهاية المطاف، ربّما لم يكن شرّيراً بالقدر الذي يبدو عليه. فلولاه لكنتُ على الأرجح سأموت من البرد والجوع في جادّة بروتوي. صحيح أنّه انتزعني من السيّدة بارْبُران ليبيعني لفيتاليس، ولكنّه لم يكن يعرفني، وبالتّالي ما كان ممكناً أن يشعر بالمودّة تجاه وليدٍ لم يكن رآه من قبل. ثمّ إنّه كان مدفوعاً بالفقر، والفقر يدفع النّاس لفعل أمورٍ سيّئةٍ كثيرة. وهو الآن يبحث عنّي، أي أنّه يهتمّ بأمري، وإذا ما وجدتُ والديّ فسأكون مديناً له بذلك. وهو يستحقّ منّي ما هو أفضل من النّفور الذي كنتُ أغذّيه في نفسي حياله منذ اليوم الذي تركتُ فيه شافانون وفيتاليس يُمسك بي من معصمي. لذا كان عليّ أن أكون ممتنّاً له، إن لم يكن بداعي العاطفة والمحبّة كما هي الحال مع السيّدة بارْبُران، فاستجابةً لنداء ضميري على كلّ حال.

لم تكن المسافة طويلة من شارع لورسين إلى زقاق أوسترليتز مروراً بحديقة النّبات. لذا سرعان ما وصلتُ إلى فندق كانتال الذي لم يكن له من الفنادق إلاّ الاسم، إذ كان في الواقع نزلاً بائساً. كانت تديره

امرأة عجوز مرتجفة الرأس وشبْه صمّاء.

طرحتُ عليها سؤالي المعتاد، فوضعَتْ يدها خلف أذنها على شكلِ بوقٍ ورجتني أن أكرّر سؤالي، وقالت بصوتٍ خفيض:

- إنّ سمعي ضعيف.

- أريد أن أرى باربُران، باربُران من شافانون، إنّه يقيم هنا أليس كذلك؟

ومن دون أن تجيبني، رفعت يديها إلى السّماء بحركة مفاجئة جعلت هرّتها النّائمة في حضنها تقفز إلى الأرض هلعاً.

- للأسف! للأسف!

ثمّ نظرَت إليّ ورأسها يزداد ارتجافاً:

- أتكون أنت هو الصّبيّ؟

- أيّ صبيّ؟

- الصبيّ الذي كان باربُران يبحث عنه.

«كان» يبحث عنه. لّما سمعتُ هذه الكلمة بصيغة الماضي، انقبض قلبي.

فهتفتُ:

- باربُران!

- المرحوم، قلْ المرحوم باربُران.

فاستندتُ إلى قيثارتي.

فقلتُ وأنا أصرخ لتسمعني، ولكن بصوتٍ أجشّ بسبب التّأثّر:

- هذا يعني أنّه مات؟

- منذ ثمانية أيّام، في مستشفى القدّيس أنطوان.

ظللتُ منصعقاً. باربُران ميت! وعائلتي كيف أجدها الآن؟ أين أبحث عنها؟

فتابعَت العجوز:

- أنتَ هو الولد إذن؟ الولد الذي كان باربُران يبحث عنه ليعيده إلى عائلته الثريّة؟

فعاودني الأمل وتمسّكتُ بعبارتها الأخيرة:

- أنتِ تعرفين؟...

- أعرف ما كان يرويه ذلك الرّجل المسكين: أنّه وجد طفلاً ورعاه وأنّ العائلة التي فقدتْه في ما مضى تبحث عنه الآن وتريد استعادته. لذا جاء إلى باريس ليجد الولد.

فسألتُ بصوتٍ لاهث:

- ولكن ماذا عن العائلة؟ عائلتي؟

- هذا يعني أنّك أنتَ هو الصبيّ إذن؟ آه! إنّه أنت، إنّه أنت، هذا أكيد!

وراحت تنظر إليّ متفحّصةً ورأسها لا يكفّ عن الارتجاف.

ولكنّني انتزعتها من تأمّلها وقلتُ لها:

- أرجوكِ يا سيّدتي، أخبريني ما تعرفينه.

- ولكن أنا لا أعرف إلاّ ما أخبرتُك به للتّوّ يا ولدي، لا بل يا سيّدي الشابّ.

- أخبريني ما قاله لكِ باربُران عن عائلتي. ألا ترين انفعالي يا سيّدتي وقلقي واضطرابي؟

ومن دون أن تُجيبني، رفعت من جديدٍ ذراعيها إلى السّماء:

- يا لها من قصّة!

في تلك اللّحظة، دخلَتْ امرأة يبدو عليها أنّها خادمة إلى الغرفة التي كنّا فيها، فتركتني مديرة فندق كانتال وتوجّهتْ إلى هذه المرأة قائلةً:

- يا لها من قصّة! إنّ هذا الصبيّ، هذا الشّاب الذي ترينه، هو من كان باربُران يتحدّث عنه. وها هو يصل فيما باربُران لم يعد في هذا العالم... يا لها من قصّة!

فقلتُ لها:

- ألم يحدّثكِ باربُران إذن عن عائلتي؟

- أكثر من عشرين مرّة، لا بل أكثر من مائة مرّة. إنّها عائلة ثريّة.

- وأين تسكن هذه العائلة؟ وما اسمها؟

- آه! إنّ باربُران لم يحدّثني قطّ عن ذلك. كان يتكتّم على الأمر، أنت تعرف. فهو كان يريد أن تكون المكافأة من نصيبه وحده كما يقتضي العدل. لقد كان محتالاً.

أجل، كنتُ للأسف أعرف ذلك! وكنتُ أفهم تماماً أنّ ما قالته العجوز يعني أنّ باربُران قد حمل معه إلى القبر سرّ ولادتي.

هذا يعني أنّني لم أقترب من الهدف إلاّ لأفقده. آه! أينكِ يا أحلامي الجميلة ويا آمالي!

وسألتُ العجوز:

- ألا تعرفين أحداً يمكن أن يكون باربُران قد أفشى له بأكثر ممّا أخبركِ به؟

- لم يكن باربُران غبيّاً إلى هذه الدّرجة فيبوح بسرّه لأحد. لقد كان

أكثر حذراً بكثير.

- ولم تريْ يوماً أحدَ أفراد عائلتي يأتي لزيارته؟

- كلاّ، إطلاقاً.

- ماذا عن أصدقاء له، يمكن أن يكون حكى لهم عن عائلتي؟

- لم يكن له أصدقاء.

أمسكتُ رأسي بين يديّ، ولكن عبثاً فتّشتُ، لم أجد ما يمكن أن يُدلّني. ثمّ إنّني كنتُ شديد التّأثّر والاضطراب، عاجزاً عن ترتيب أفكاري.

وبعد تفكيرٍ طويلٍ، قالت العجوز:

- ذات مرّة وصلتْه رسالة، رسالة مؤمَّن عليها.

- وما كان مصدرها؟

- لا أعرف، فساعي البريد سلّمه إيّاها باليد ولم أرَ الطّابع.

- ربّما يمكننا العثور على هذه الرّسالة.

- عندما توفّي فتّشنا في أغراضه التي تركها هنا. آه! طبعاً لم نفعل ذلك بداعي الفضول وإنّما لإبلاغ زوجته. ولكنّنا لم نجد شيئاً. في المستشفى أيضاً لم يعثروا في ملابسه على أيّة ورقة، ولو لم يكن قال لنا إنّه من شافانون لما أمكنهم إبلاغ زوجته.

- هذا يعني أنّ السيّدة باربُران وصلها خبر موته؟

- طبعاً!

لدقائق طويلة لم أتمكّن من النطق بكلمة. فماذا أقول؟ وعمَّ أسأل؟ لقد قال لي هؤلاء النّاس كلّ ما يعرفونه. وهم ما كانوا يعرفون شيئاً. ولا بدّ أنّهم فعلوا كلّ شيء ليتمكّنوا من معرفة ما كان باربُران يُخفيه

عنهم.

فشكرتُها واتّجهتُ إلى الباب، فسألتني العجوز:

- إلى أين أنت ذاهب بهذه الشّاكلة؟

- للّحاق بصديقي.

- آه! لديك صديق؟

- طبعاً.

- وهو يعيش في باريس؟

- لقد وصلنا إلى باريس هذا الصّباح.

- حسناً، إن لم تجدا مكاناً في فندق تقيمان فيه، فبإمكانكما أن تنزلا هنا. ستشعران بالرّاحة، أؤكّد لكما ذلك، كما أنّ هذا المكان شريف. أضِف أنّه إذا كانت عائلتك تبحث عنك وقد أتعبها عدم وصول أخبار من باربُران، فإنّها ستأتي لتسأل عنه هنا لا في أيّ مكانٍ آخر. وعندئذٍ ستكون أنت موجوداً، وفي هذا منفعةٌ لك. فأين ستجدك عائلتك إذا لم تكن هنا؟ أقول هذا لمصلحتك. كم عمر صديقك؟

- إنّه أصغر منّي بقليل.

- فكّر إذنْ، يمكن لشابّين صغيرين مثلكما أن يتعرّضا للمخاطر في شوارع باريس. كما أنّ هناك فنادق سيّئة السّمعة. أمّا هنا فستكونان مطمئنّين لأنّ الحيّ هادئ.

لم أكن مقتنعاً تماماً بهدوء الحيّ. وفي كلّ الأحوال، كان فندق كانتال أحد الفنادق الأكثر بؤساً وقذارةً التي أمكنني رؤيتها، أنا الذي عرفتُ في حياة السّفر والمغامرات فنادق شديدة الفقر. إلاّ أنّ عرض السيّدة العجوز كان معقولاً. كما أنّني لم أكن في وضعٍ يسمح

لي بأن أكون متطلّباً، فأنا لم أجد بعدُ عائلتي، عائلتي الثريّة، للذّهاب برفقتها إلى أجمل فنادق باريس، أو إلى منزلها إذا كانت تقيم في هذه المدينة. أضف أنّ كلفة إقامتنا في فندق كانتال لن تكون كبيرة، وقد بات علينا أن نفكّر في نفقاتنا. آه! كم كان ماتيا محقاً عندما أراد أن نكسب المال في رحلتنا من دروزي إلى باريس! فما كنّا سنفعل إن لم يكن في حوزتنا سبعة عشر فرنكاً؟

- بكم يمكنكِ أن تؤجّرينا غرفةً، أنا وصديقي؟
- بعشرة فلوس في اليوم. هل هذا كثير؟
- حسناً، سنعود هذا المساء أنا وصديقي.
- عد في وقتٍ مبكّر، فباريس مخيفة ليلاً.

ولكن قبل العودة، كان يجب أن ألتقي ماتيا وكان لا يزال أمامي بضع ساعات قبل حلول الموعد المحدّد للقائنا. ولجهلي ما يمكن أن أفعل ذهبتُ حزيناً إلى حديقة النّبات وجلستُ على مقعد في زاوية معزولة. كانت ساقاي متعبتَين وفكري مشتّتاً.

فسقوطي كان قاسياً ومفاجئاً وغير متوقّع! والمآسي تنهال عليّ الواحدة تلو الأخرى، وفي كلّ مرّة أمدّ فيها يدي لأرتكز في وضعٍ ثابتٍ، كان الغصن الذي آمل بإمساكه ينكسر تحت أصابعي ويتركني أهوي. كان هذا قدَري على الدّوام.

أليس القدر هو أيضاً ما جعل باربُران يموت في اللّحظة التي أحتاج إليه فيها، وأن يكون همّ الرّبح قد جعله يخفي عن الجميع اسمَ الشّخص - والدي على الأرجح - الذي أوكل له بمهمّة البحث عنّي، وكذلك عنوانه؟

وبينما كنتُ جالساً هكذا في زاويتي أفكّر بحزن، وعيناي ورِمتان من سيل الدّموع، في ظلّ شجرةٍ خضراء كانت تغمرني بفيئها، وصل رجلٌ وسيّدة يتبعهما طفلٌ يجرّ عربةً صغيرة وجلسا على مقعد قبالتي. ثمّ ناديا الطّفل، فتركَ عربته الصّغيرة وركض صوبهما فاتحاً ذراعيه. فاستقبله والده بين ذراعيه وطبع على شعره قبلات قويّة سُمِع لها رنينٌ، ثمّ ناوله للأمّ التي قبّلته بدورها بالطّريقة ذاتها عدّة مرّات فيما الطّفل غارق في الضّحك ويربّت على خدّي والديه بيديه الصّغيرتين البضّتين ذاتَي الغمّازات.

فلمّا رأيتُ سعادة الأهل هذه وفرح الطّفل، سالت دموعي رغماً عنّي. فأنا لم يقبّلني أحدٌ على هذا النحو، وهل ما يزال يحقّ لي أن آمل بأن يحصل هذا ذات يوم؟

فخطرت في بالي فكرة: تناولتُ قيثارتي ورحتُ أعزف بهدوءٍ لحنَ فالس للطّفل الذي راح يرافق الإيقاع بقدميه الصّغيرتين. فاقترب الرّجل منّي وناولني قطعة نقديّة بيضاء صغيرة رفضتُها بتهذيب قائلاً:

- كلاّ، أرجوك يا سيّدي، امنحْني فرحَ إمتاع طفلك الجميل.

فنظر إليّ بتركيز، ولكن في تلك الأثناء ظهر حارس وطلب منّي، رغم اعتراضات الرّجل، أن أخرج على الفور إذا لم أكن أريد أن أوضع في السّجن لأنّني عزفتُ في الحديقة.

فوضعتُ من جديدٍ حمّالة القيثارة على كتفي وغادرتُ المكان متلفّتاً أكثر من مرّة إلى الوراء لأتطلّع إلى الرّجل والمرأة اللّذين كانا ينظران إليّ بعيون حانية.

لم يكن موعد لقائي بماتيا على جسر الأسقفيّة قد حان بعد، فرحتُ أجوب الأرصفة متأمّلاً النّهر في انسيابه.

ثمّ حلّ اللّيل وأُضيئت مصابيح الشّوارع، فتوجّهتُ نحو كنيسة نوتردام التي كان سواد بُرجَيها يتقاطع ولون المغيب الأرجوانيّ. وعند صدر الكنيسة وجدتُ مقعداً جسلتُ عليه، ممّا أشعرني بالرّاحة لأنّ ساقيّ كانتا واهنتين كما لو كنتُ قمتُ بمسيرة طويلة جدّاً. هناك استأنفتُ أفكاري الحزينة. لم أشعر يوماً بالانهيار والتّعب كما في تلك اللحظات. ففي داخلي ومن حولي كان كلّ شيء جنائزيّاً. وفي باريس هذه، الملأى بالأضواء والصّخب والحركة، كنتُ أشعر بأنّني أكثر ضياعاً ممّا لو كنتُ في وسط حقلٍ أو غابة.

كان مَن يعبرون أمامي يلتفتون أحياناً لينظروا إليّ. ما كان يهمّني من فضولهم أو تعاطفهم! ليس اهتمام الغرباء هو ما كنتُ آمل الحصول عليه.

كانت تسليتي الوحيدة هي في عدّ السّاعات التي تدقّ من حولي، فأحسبُ كم من الوقت تبقّى قبل أن يعود ماتيا لأستمدّ من صداقته الشّجاعة والقوّة. كان عزاءً كبيراً لي أن أفكّر في أنّني سأرى بعد قليلٍ عينيه المملوءتين مرحاً وطيبة.

قبل السّابعة بقليلٍ سمعتُ نباحاً مبتهجاً، وسرعان ما لمحتُ في العتمة جسماً أبيض يتجّه نحوي. وقبل أن أتمكّن من التّفكير، كان كابي يقفز على ركبتيّ ويلحس يديّ بقوّة. فضممتُه بين ذراعيّ وطبعتُ على أنفه قبلة.

ثمّ سرعان ما ظهر ماتيا وصرخ من بعيد:

- والنّتيجة؟
- لقد مات باربُران.
راح يركض ليصل إليّ بسرعة. وببضع كلمات مختصرة رويتُ له ما قمتُ به وما عرفتُه.
فأبدى حزناً لطيفَ الوقع على قلبي وشعرتُ بأنّه، وإن كان يخشى على نفسه من كلّ ما له علاقة بعائلتي، إلاّ أنّه كان يودّ بصدقٍ، ومن أجلي، أن أجد والديّ.
وبكلماتٍ ملأى عطفاً حاول مواساتي وإقناعي خصوصاً بأنّني ينبغي ألاّ أفقد الأمل:
- إذا كان أهلك قد تمكّنوا من العثور على باربُران، فسيُقلقهم ألاّ يأتيهم خبرٌ منه وسيفتّشون عنه وطبعاً سيصلون إلى فندق كانتال. فلنذهب إلى هناك، كلّ ما في الأمر أنّ لقاءك بأهلك سيتأخّر بضعة أيّام.
هذا ما سبق أن قالته لي المرأة العجوز ذات الرّأس المرتجف، إلاّ أنّ الكلمات نفسها لمّا قالها ماتيا بدت لي أكثر حسماً: كلّ ما في الأمر أنّ لقائي بأهلي سيتأخّر بضعة أيّام. كم كنتُ صبيانيّاً في استسلامي للحزن واليأس!
ولمّا شعرتُ باستعادتي رباطة جأشي، أخبرتُ ماتيا بما عرفتُه عن غاروفولي. فهتف:
- ثلاثة شهور بعد؟
وراح يرقص في وسط الشّارع وهو يغنّي.
ثمّ فجأةً توقّف وتقدّم صوبي:

- كم تختلف العائلات بعضها عن بعض! كنتَ حزيناً لأنّك لم تعثر على عائلتك، وها أنا أغنّي لأنّني فقدتُ عائلتي.

- ولكنّ عمّاً مثل غاروفولي لا يُعدّ عائلة. لو انّك فقدتَ شقيقتك كريستينا فهل كنتَ سترقص؟

- أوه! لا تقل هذا!

- أترى؟

اجتزنا الأرصفة النّهريّة ووصلنا إلى زقاق أوسترليتز. وبما أنّ عينيّ ما عاد يغشاهما التّأثّر تمكّنتُ من أن أرى مدى جمال نهر السَّين في اللّيل، إذ يُضيئه البدر ناثراً هنا وهناك تباريق فضيّة على مياهه اللاّمعة مثل مرآةٍ ضخمةٍ متحرّكة.

لئن كان فندق كانتال حسن السّمعة فإنّه لم يكن فندقاً جميلاً. وعندما ألفَينا نفسَينا مع شمعةٍ صغيرة مدخّنة في حجرة تحت السّطح، ضيّقة بحيث كان الواحد منّا مجبراً على الجلوس على السّرير عندما يريد الآخر الوقوف، لم يسعني إلاّ التفكير في أنّني لم أكن آمل النّوم في غرفةٍ كتلك. وتلك الشّراشف القطنيّة المصفرّة، كم كانت قليلة الشّبه بالأقمطة الجميلة التي لطالما حدّثتني عنها السيّدة باربُران.

كما لم يكن رغيف الخبز المدهون بالجبن الإيطاليّ، الذي حصلنا عليه بمثابة عشاء، ليشبه الوليمة العامرة التي كنت أحلم بإقامتها لماتيا.

ولكن في خاتمة المطاف، كان ما يزال هناك أمل. لم يكن علينا إلاّ الانتظار.

وعلى هذه الفكرة غفوت.

الفصل الثّاني عشر

البحث

في صباح اليوم التّالي، باشرتُ نهاري بالكتابة للسيّدة باربُران لأُطلعها على ما عرفتُه، ولم تكن هذه مسألة سهلة بالنّسبة إليّ.

فهل يمكن أن أقول لها بجفاء إنّ زوجها مات؟ فهي كانت تحبّ جيروم. لقد عاشا معاً طوال سنوات وسيُحزنها ألاّ أشاركها حزنها.

أخيراً، وبعدما أكّدتُ لها مودّتي أكثر من مرّة تمكّنتُ بصعوبة من إنهاء رسالتي. كلّمتُها طبعاً عن خيبة أملي وعمّا كنت آمله في ذلك الحين. في الواقع، كان هذا أكثر ما حدّثتُها عنه. ورجوتُها أن تُعلمني بسرعة إذا ما كتبَتْ لها عائلتي لمعرفة أخبار باربُران، وخصوصاً أن ترسل لي إلى فندق كانتال في باريس العنوان الذي سيُعطى لها.

بعدما أتممتُ هذا الواجب، كان عليّ القيام بواجب آخَر حيال والد ليز. وكان هو أيضاً صعباً. فقد قلتُ لليز في دروزي إنّ أوّل زيارة سأقوم بها في باريس ستكون لوالدها في السّجن، وشرحتُ لها أنّني، إذا ما كان أهلي أثرياء كما كنت آمل، فسأطلب منهم أن يسدّدوا دَيْن الأب، فلا تكون زيارتي له في السّجن إلاّ لإخراجه من هناك وإحضاره معي. كان هذا المشروع ضمن برنامج الأفراح الذي رسمتُه لنفسي. في البداية آكان الأب، ثمّ السيّدة باربُران ثمّ ليز فإتيانيت فأليكسي فبنجامان. أمّا ماتيا، فسيحصل على كلّ ما

سأحصل عليه وكانت سعادته من سعادتي. فأيّة خيبة أمل في الذّهاب الآن إلى السّجن خالي الوفاض ورؤية الأب من جديدٍ وأنا عاجزٌ عن مساعدته وردّ جميله كما كنتُ عاجزاً عن ذلك عندما ودّعته!

ولكن لحسن الحظّ كان لديّ كلمات جميلة أحملها له وقبلات ليز وأليكسي. ولا بدّ أنّ فرحه الأبوي سيلطّف من أسفي. وسيكون عزاءً لي أن أكون قمتُ بشيء من أجله في انتظار أن أتمكّن من القيام بما هو أكثر.

كان ماتيا راغباً بشدّة في رؤية سجنٍ، فرافقني إلى هناك. ثم إنّني كنتُ أريد أن يتعرّف على الرّجل الذي كان بمثابة والدٍ لي لأكثر من سنتين.

كنتُ أصبحتُ أعرف الطّريقة التي يجب اعتمادها للدّخول إلى سجن كليشي، ولذا لم نبقَ طويلاً أمام بوّابته الضّخمة كما حصل لي عندما جئتُ للمرّة الأولى.

أدخلونا إلى قاعة استقبالٍ، وسرعان ما وصل الأب، ومن الباب مدّ لي ذراعيه، ثمّ قال وهو يقبّلني:

– آه! يا للصّبيّ الطيّب، ريمي الشّجاع!

فحدّثتُه فوراً عن ليز وأليكسي، ولمّا أردتُ أن أخبره عن السّبب الذي منعني من الذّهاب لزيارة إتيانيت، قاطعني قائلاً:

– وماذا عن عائلتك؟

– أنت تعرف إذن؟

فأخبرني أنّه تلقّى قبل خمسة عشر يوماً زيارة من باربُران.

فقلتُ له:

- لقد مات.

- يا للمأساة!

فشرح لي كيف أنّ باربُران جاء إليه ليعرف ماذا حلّ بي. ذلك أنّه لمّا وصل إلى باريس، قصد غاروفولي ولم يجده طبعاً. فذهب ليراه في سجنه البعيد في الرّيف، وأعلَمَه غاروفولي أنّه بعد موت فيتاليس استقبلني بستانيّ يُدعى آكان. فرجع باربُران إلى باريس وذهب إلى غلاسيير وهناك عرف أنّ البستانيّ معتقل في سجن كليشي. فجاء إلى السّجن، وأخبره الأب كيف أنّني كنت أجوب فرنسا بحيث تصعب معرفة مكان وجودي في تلك اللّحظة، ولكنّ الأكيد هو أنّني في إحدى مراحل تجوالي سأمرّ لزيارة ولدٍ من أولاده. فكتب لي بنفسه إلى دروزي وفارْس وإيناند وسان-كانتان. ولئن كنتُ لم أجد رسالته في دروزي فعلى الأرجح لأنّها وصلَت بعد مغادرتي.

فسألتُه:

- وماذا قال لك باربُران عن عائلتي؟

- لا شيء، أو بالأحرى القليل. وهو أنّ أهلك عرفوا من مفوّض شرطة حيّ آنفاليد أنّ الطّفل الذي عُثر عليه في جادّة بروتوي قد آواه بنّاء من شافانون يُدعى باربُران، فذهبوا للبحث عنك عنده. ولمّا لم يجدوك، طلبوا منه مساعدتهم في البحث عنك.

- ألم يقل لك ما اسمهم؟ ومن أيّ منطقة هم؟

- عندما طرحتُ عليه السّؤال، قال لي إنّه سيشرح لي ذلك فيما بعد. فلم أصرّ، إذ أدركتُ أنّه يريد الاحتفاظ لنفسه باسم عائلتك خوفاً من أن تنقص المكافأة التي كان يأمل في الحصول عليها منهم.

وبما أنّني كنتُ لك بمثابة والد، كان باربُران يتصوّر أنّني أريد فائدة مادّية لقاء ذلك. لذا طردتُه ولم أرَه منذ ذلك الحين. لم يخطر لي أنه يمكن أن يكون قد مات. في المحصّلة أنت تعرف الآن أنّ لديك والدين، ولكن بسبب حسابات ذلك الشيخ البخيل لا تعرف من هم ولا أين يعيشون.

شرحتُ له ما كنتُ أعوّل عليه، فأكّد على ذلك مدعّماً رأيه بشتّى أنواع الحجج المنطقيّة:

- طالما أنّ أهلك تمكّنوا من العثور على باربُران في شافانون، وطالما أنّ باربُران تمكّن من العثور على غاروفولي وعليّ أنا هنا، فسيتمكّنون حتماً من العثور عليك في فندق كانتال، فابقَ هناك.

كان وقْع هذه الكلمات لطيفاً عليّ وأعاد لي انشراحي، فأمضينا ما تبقّى من الوقت نتحدّث عن ليز وعن أليكسي وعن حصاري في المنجم.

فقال الأب لمّا أنهيتُ روايتي:

- يا لهذه المهنة الرّهيبة! مهنة ابني المسكين أليكسي! آه، كم كان أكثر سعادةً عندما كان يزرع المنثور!

- هذا اليوم آتٍ لا محالة، قلتُ له.

- فليسمع منك الله يا صغيري ريمي!

كنتُ أتحرّق شوقاً لأقولَ له إنّ أهلي سيُخرجونه قريباً من السّجن، ولكنّني فكّرتُ في اللحظة المناسبة أنّه ينبغي عدم التّباهي مسبقاً بالأفراح التي ننوي تقديمها، واكتفيتُ بالتّأكيد له أنّه سرعان ما سيكون طليقاً مع جميع أولاده من حوله.

ولمّا خرجنا، قال لي ماتيا في الطّريق:

- وفي انتظار هذه اللّحظة الجميلة، أرى ألاّ نضيّع وقتنا وأن نجني شيئاً من المال.

- لو لم ننفق وقتنا في كسب المال في طريقنا من شافانون إلى دروزي ومن دروزي إلى باريس، لكنّا وصلنا إلى باريس بأسرعَ ورأينا باربُران.

- هذا صحيح، وأنا ألوم نفسي بما يكفي لتأخيري إيّاك حتّى لا تلومني أنت.

- هذا ليس لوماً يا صغيري ماتيا، أؤكّد لك. فمن دونك لما تمكّنتُ من تقديم الدّمية لليز، ومن دونك لكنّا في هذه اللّحظة في الشّارع ليس لدينا فلس لنأكل.

- إذن طالما كنتُ محقّاً في رغبتي بجني المال، فلنتصرّف كما لو أنّني محقٌّ الآن أيضاً. ثمّ أنّه لا شيء نعمله أفضل من أن نغنّي ونقدّم رصيدنا الموسيقيّ. أمّا النّزهات، فلنؤجّلها إلى حين حصولك على عربتك، هكذا سيكون الأمر أقلّ إرهاقاً. أضِفْ أنّ باريس مدينتي وأنا أعرف الأماكن الصّالحة فيها لتقديم العُروض.

كان ماتيا يعرف هذه الأماكن بشكلٍ ممتاز، من السّاحات العامّة إلى الباحات الخاصّة فالمقاهي، حتّى أنّنا، في المساء ذاته وقبل أن نخلد للنّوم، أحصينا أربعة عشر فرنكاً كانت حصيلتنا لذلك النّهار.

وعندما خلدتُ للنّوم، رحتُ أعيد لنفسي جملةً كنتُ غالباً ما سمعتُها من فيتاليس وهي أنّ الحظّ لا يبتسم إلاّ لمن لا يحتاجون إليه. ففكّرتُ أنّ ما جنيناه كان علامة أكيدة على أنّ أهلي سيصلون إليّ بين





لحظةٍ وأخرى.

كنتُ من الثّقة بحدسي هذا بحيث كنتُ في صباح اليوم التّالي في أتمّ الاستعداد للبقاء النّهار كلّه في الفندق. ولكنّ ماتيا أرغمني على الخروج، كما أرغمني على الغناء والتّمثيل، فكانت حصيلة يومنا ذاك أحد عشر فرنكاً.

فقال لي ماتيا ضاحكاً:

- إن لم نصبح ثريّين عمّا قريب بفضل عائلتك، فسنثرى بجهدنا الخاصّ، وهذا سيكون أجمل بكثير.

مرّت على هذه الشّاكلة ثلاثة أيّام دون أن يحصل شيء ودون أن تجيب مديرة الفندق على أسئلتي المعتادة إلاّ بلازمتها التي لا تتغيّر: «لم يأتِ أحد يسأل عن باربُران، ولم أستلم رسالةً لكَ أو لباربُران». وفي اليوم الرّابع ناولتني أخيراً رسالة.

كان ذلك جواب السيّدة باربُران، أو بالأحرى الجواب الذي طلبَت السيّدة باربُران أن يُكتب لي، لأنّها لم تكن تجيد القراءة ولا الكتابة.

كانت تقول في الرّسالة إنّها أُبلغت بموت باربُران، وإنّه قبل ذلك بقليل كانت قد تلقّت رسالة منه تُرسلها إليّ إذ تعتقد أنّها يمكن أن تكون ذات فائدةٍ لي، ففيها معلومات عن عائلتي.

فهتف ماتيا:

- بسرعة، بسرعة، فلنقرأ رسالة باربُران.

ففتحتُ الرّسالة بيدٍ مرتجفة وقلبٍ منقبض:

«زوجتي العزيزة،

أنا في المستشفى، وإنّني مريض بشدّة بحيث إخال أنّني لن أُشفى.
لو كان لديّ ما يكفي من القوّة لأخبرتكِ كيف أُصبتُ بالمرض. ولكنّ هذا لن ينفع في شيء، ومن الأفضل أن أخبركِ بما هو أكثر مساساً. إذا لم أخرج من هنا، فعليكِ أن تكتبي على هذا العنوان: «غريثْ أندْ غاليه، غرينْ سكْوير، لينكولنز-إنْ في لندن». إنّه عنوان مُحامين عُهِد إليهم بالبحث عن ريمي. قولي لهم إنّكِ الوحيدة القادرة على تزويدهم بمعلومات عن الصبيّ واحرصي على أن يدفعوا لكِ مبلغاً من المال مقابل هذه المعلومات. يجب أن يكفيكِ هذا المال لتعيشي سعيدة في شيخوختك. وستعرفين ماذا حلّ بريمي إذا ما كتبتِ لشخصٍ يُدعى آكان وهو بستانيّ سابق معتقل اليوم في سجن كليشي بباريس. دعي الكاهن يكتب كلّ هذه الرّسائل باسمكِ إذ يجب ألاّ تثقي في مثل هذه المسائل بأحد. لا تفعلي شيئاً قبل أن يبلغكِ خبر موتي.
أقبّلكِ مرّة أخيرة.

باربُران».

لم أكد أنتهي من قراءة الرّسالة حتّى هبّ ماتيا واقفاً وهتف قائلاً:
- فلنذهبْ إلى لندن.
كنتُ ما زلت متفاجئاً ممّا قرأت فجعلتُ أتفرّس ماتيا لا أفهم ما يقول.
فتابع هوَ:
- بما أنّ رسالة باربُران تقول إنّ مُحامين بريطانيّين هم الذين أوكِلَت إليهم مهمّة البحث عن ريمي، فهذا يعني أنّ أهلك إنجليز،

أليس كذلك؟

- ولكن...

- أيزعجكَ أن تكون إنجليزيّاً؟

- كنتُ أفضّل أن أكون من بلد ليز والأولاد.

- وأنا كنتُ أفضّل أن تكون إيطاليّاً.

- إذا كنتُ إنجليزيّاً، فهذا يعني أنّني من بلاد آرثر والسيّدة ميليغان.

- كيف تقول «إذا»؟ ولكن هذا مؤكّد. فلو كان أهلك فرنسيّين لما عهدوا لمحامين إنجليز بالبحث في فرنسا عن الطّفل الذي فقدوه. وبما أنّك إنجليزيّ فعلينا الذّهاب إلى إنكلترا. إنّها الطّريقة الفضلى لتكون قريباً من أهلك.

- ماذا لو كتبتُ لهؤلاء المُحامين؟

- وما الدّاعي لذلك؟ فالتّفاهم وجهاً لوجه أفضل من الكتابة. عندما وصلنا إلى باريس كان في حوزتنا سبعة عشر فرنكاً. جنينا في أحد الأيّام أربعة عشر فرنكاً، وفي اليوم التالي أحد عشر، وفي الذي يليه تسعة فرنكات، فيصير المجموع واحداً وخمسين أنفقنا منها ثمانية فرنكات، فيكون الباقي ثلاثة وأربعين فرنكاً هي أكثر ممّا نحتاجه للذّهاب إلى لندن. سنستقلّ في بولوني المراكب المتّجهة إلى لندن وهذا لا يكلّف كثيراً.

- أذهبتَ يوماً إلى لندن؟

- تعرف جيّداً أن لا. ولكن في سيرك غاسّو كان هناك مهرّجان إنجليزيّان غالباً ما حدّثاني عن لندن، كما أنّهما علّماني بعض الكلمات

الانكليزيّة لكي نتمكّن من التكلّم دون أن تقدر السيّدة غاسّو، وكانت امرأة شديدة الفضول، أن تفهم ما نقول. كم من السّخافات الانكليزيّة انهمرتْ عليها منّا دون أن تغضب! سأرافقك إلى لندن.

- أنا أيضاً تعلّمتُ الإنجليزيّة مع فيتاليس.

- نعم ولكن لا بدّ أنّك نسيتها الآن فقد مضى على الأمر ثلاث سنوات. أمّا أنا فما زلت أعرفها، سوف ترى. كما أنّني أرغب في الذّهاب معك إلى لندن لا لأنّني يمكن أن أكون مفيداً لك فحسب، بل لأنّني بصراحة لديّ سببٌ آخر.

- وما هو؟

- إذا قدِم أهلك لجلبك من باريس، فقد يرفضون أخذي معك، أمّا إذا ما كنتُ في إنكلترا فلن يقدروا أن يعيدوا إرسالي إلى باريس.

كان هذا الاقتراح يبدو لي جارحاً بالنّسبة لوالديّ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون منطقيّاً. وحتّى إذا كان احتمال حصول ذلك ضئيلاً جدّاً، فقد كان كافياً لأقبل بفكرة الرّحيل إلى لندن فوراً برفقة ماتيا.

فقلتُ له:

- لنرحلْ!

- هيّا!

وفي دقيقتين كانت حقائبنا جاهزة ونزلنا متأهّبَين للرّحيل.

لمّا رأت مديرة الفندق عدّتنا، راحت تصرخ:

- ولكن ألم يكن السيّد الصّغير - أنا هو السيّد الصّغير - ينتظر أهله؟ سيكون هذا حكيماً. ثمّ إنّ الأهل سيرون أنّ السيّد الصّغير قد تمّ الاعتناء به.

ولكن لم يكن لبلاغةٍ كهذه أن تنجح في استبقائي. وبعدما دفعتُ إيجار ليلتنا، توجّهتُ إلى الشّارع حيث كان ينتظرني ماتيا وكابي.

فقالت العجوز:

- ولكن ماذا بشأن عنوانك؟

في الواقع، كان من قبيل الحكمة على الأرجح أن أترك عنواني، فكتبتُه على سجلّها. فهتفتْ:

- لندن؟ شابّان صغيران في لندن؟! عبرَ الطّرُق الكبيرة! وفي البحر!

قبل الانطلاق صوب بولوني، كان يجب أن نذهب لنودّع آكان الأب.

ولكنّ الوداع لم يكن حزيناً. فقد كان الأب سعيداً لمعرفة أنّني سأجد عائلتي قريباً، وأنا قلتُ له وكرّرتُ القول إنّني سرعان ما سأعود برفقة والديّ لنشكره.

- إلى اللّقاء يا بنيّ وحظّاً سعيداً! وإذا لم ترجع بسرعة كما تريد، فاكتبْ لي.

- سوف أعود!

في ذلك اليوم، ذهبنا مباشرةً ومن دون توقّف إلى مواسّيل حيث أمضينا اللّيلة في مزرعة، إذ كان يتعيّن توفير نقودنا من أجل الرّحلة البحريّة. كان ماتيا قد قال إنّ كلفتها قليلة، ولكن كم كانت هذه الكلفة القليلة؟

خلال سيرنا، كان ماتيا يعلّمني كلماتٍ إنجليزيّةً لأنّ مسألةً كانت تشغلني بشدّة وتمنعني من الاستسلام للفرح وهي: هل يفهم

أهلي الفرنسيّة أو الإيطاليّة؟ كيف ستمكّن من التّفاهم إذا كانوا لا يتكلّمون إلاّ الانكليزيّة؟ كم سيكون هذا مزعجاً! ثمّ ماذا سأقول لأشقّائي وشقيقاتي، إذا كان لديّ أشقّاء وشقيقات. ألن أبقى في هذه الحال غريباً بنظرهم طالما لا أستطيع التّخاطب معهم؟ عندما كنتُ أفكّر في عودتي إلى المنزل الأبويّ، وغالباً ما فعلتُ ذلك منذ أن غادرتُ شافانون، كنتُ أرسم لنفسي هذا المشهد، ولم أتخيّل لحظةً أنّ مسألة اللّغة يمكن أن تأتي لتعيق اندفاعي. سوف يلزمني على الأرجح وقت طويل قبل أن أتعلّم الإنجليزيّة التي كانت تبدو لي لغةً صعبة.

لزمَنا ثمانية أيّام من باريس إلى بولوني لأنّنا توقّفنا قليلاً في المدن الرّئيسيّة على طريقنا: بوفي وأبفيل ومونتروي-سور-مير لتقديم بعض العروض وإعادة تكوين رأسمالنا.

وعندما وصلنا إلى بولوني كان لا يزال في جعبتنا اثنان وثلاثون فرنكاً أي أكثر بكثير ممّا يلزمنا لرحلتنا البحريّة.

لم يكن ماتيا رأى البحر من قبل، لذا كانت نزهتنا الأولى على رصيف السّفن. ولدقائق طويلة، بقي تائه النّظرات في أعماق الأفق الضّبابيّة، ثمّ صفَق بلسانه وأعلن أنّ المشهد قبيح وقذر وكئيب.

فنشأ بيننا نقاشٌ، لأنّنا غالباً ما تحدّثنا عن البحر ولطالما قلتُ له إنّه أجمل شيء يمكن رؤيته، وأصررتُ على رأيي.

فقال ماتيا:

- ربّما أنت محقّ عندما يكون البحر أزرق كذلك الذي تقول إنّك رأيتَه في مدينة ساتْ. ولكن عندما يكون كهذا البحر أصفر وأخضر مع سماء رماديّة وغيوم سوداء كبيرة، فهذا بشع، بشع جدّاً ولا يشجّع

على خوض غماره.

غالباً ما كنّا نتّفق أنا وماتيا، فإمّا يقبل رأيي أو أشاطره أنا رأيه، ولكن هذه المرّة أصررتُ على فكرتي. لا بل أعلنت له أنّ هذا البحر الأخضر بأعماقه الضّبابيّة وغيومه الكبيرة التي كان الهواء يدفعها عشوائيّاً كانت أكثر جمالاً بكثيرٍ من بحرٍ أزرقَ تحت سماء زرقاء.

فأجاب ماتيا:

- أنت تقول هذا لأنّك إنجليزيّ، فأنت تحبّ هذا البحر القبيح لأنّه بحر بلادك.

كانت السّفينة المتّجهة إلى لندن تبحر في اليوم التّالي في الرّابعة صباحاً. وفي الثّالثة والنّصف كنّا على متنها، وبصعوبة وجدنا مكاناً نجلس فيه مُحتمين قدرَ الإمكان وراء مجموعة من الصّناديق من رياح الشّمال الرّطبة والباردة.

وعلى ضوء بعض القناديل المدخّنة، رأينا العمّال يشحنون المركب: فالبكرات تصرّ والصّناديق التي تُنزَل إلى عنبر السّفينة تطقطق والبحّارون يرمون من وقتٍ لآخر بضع كلمات بأصواتٍ جشّاء. ولكنّ ما كان يطغى على هذه الجلبة هو هدير البخار المنبعث من الآلة على شكل ندَف بيضاء صغيرة. ثمّ دقّ جرسٌ ورُميت الحبال في المياه وانطلقنا. انطلقنا إلى بلادي.

كنتُ غالباً ما أقول لماتيا أنْ لا شيء أكثر إمتاعاً من نزهةٍ على متن مركب، إذ ننساب على الماء دون أن ننتبه إلى المسافة التي نقطعها، وإنّ ذلك ساحر فعلاً، وأشبه ما يكون بحلم.

كنتُ أقول له ذلك وأنا أفكّر في مركب «البجعة» ورحلتي عبر

قناة الجنوب. ولكنّ البحر لا يشبه القناة. فما إن غادر المركب رصيف السّفن حتّى بدا أنّه يغوص في البحر ثمّ يعلو قبل أن يعاود الغوص في أقصى أعماق المياه، وهكذا لأربع مرّاتٍ أو خمسٍ متالية في حركةٍ قويّة أشبه ما تكون بحركة أرجوحة كبيرة. وخلال تلك الهزّات، كان البخار ينبعث من المدخنة مُصدِراً صوتاً حادّاً، قبل أن يحلّ الصّمت فجأةً فلا نعود نسمع إلاّ صوت العجلات تخبط المياه، من جهةٍ حيناً، ومن الأخرى في حينٍ آخر بحسَبِ الجهة التي يميل إليها المركب.

فقال لي ماتيا ساخراً:

- لَكَم هو جميلٌ الانسياب الذي حدّثتني عنه!

لم أجد ما أجيبه به إذ لم أكن أعرف حينها ظاهرة الأمواج التي تتكسّر على الشطآن.

لكن لم تكن الأمواج المتكسّرة هي وحدها التي تطبع على المركب حركة التّمايد والتّرجّح تلك، بل كذلك البحر نفسه الذي بدأ يصبح مهول الضخامة بقدر ما نتّجه إلى عرْضه.

وفجأةً هبّ ماتيا واقفاً، وكان قد كفّ عن الكلام منذ وقتٍ طويل، فسألتُه:

- ما بك؟

- السفينة كثيرة الترجُّح! إنّني أُحسّ بدوخة!

- إنّه دوار البحر.

- طبعاً! إنّه قويّ جدّاً!

وبعد بضع دقائق ركض يستند إلى حافّة الباخرة.

آه! ماتيا المسكين، لَكَم تضايق في تلك الرّحلة! عبثاً ضممتُه إليّ وأسندتُ رأسه إلى صدري، فإنّ هذا لم يشفِه قطّ. كان يئنّ ومن وقتٍ



لآخر يقوم بسرعة ويهرع للاستناد إلى حافّة الباخرة ولا يعود إلاّ بعد عدّة دقائق ليلوذ بي.

وكلّما كان يرجع، كان يشير إليّ ويقول في مزيج من المزاح والجدّ:

- آه! هؤلاء الإنجليز ليس لهم قلوب!

- لحسن الحظّ!

وعندما طلع النّهار، نهارٌ شاحبٌ وضبابيّ لا شمس فيه، كنّا نطلّ على جروف صخريّة بيضاء عالية، وكنّا نلمح هنا وهناك بواخر جامدة بلا أشرعة. وشيئاً فشيئاً خفّ التّمايد وانسابت باخرتنا على الماء الهادئة بتؤدة كما لو كانت تتقدّم في قناة. لم نعد في البحر، ومن كلّ جهةٍ في البعيد كنّا نرى ضفافاً عامرة بالأشجار، أو بالأحرى نخمّنها خلف ضباب الصّباح: كنّا قد دخلنا نهر التّايمز.

فقلتُ لماتيا:

- ها نحن في إنكلترا.

ولكنّ الخبر لم يعجبه، فتمدّد بطوله على ظهر الباخرة وقال:

- دعني أنام.

وبما أنّني لم أمرض خلال الرّحلة، لم أكن أشعر برغبةٍ في النّوم. فساعدتُ ماتيا ليكون في وضعيّة مريحة، وصعدتُ على الصّناديق وجلستُ على أعلى واحدٍ منها وكابي بين قدمي.

من موقعي ذاك، كنتُ أشرف على النّهر وأرى مجراه من كلّ جهة. على اليمين كان يمتدّ رملٌ أبيض على مساحةٍ واسعة، رملٌ زنّره الزّبد بحبلٍ أبيض، ومن اليسار كان يبدو أنّنا سندخل البحر من جديد.

ولكنّ ذلك لم يكن إلاّ وهماً، فالضّفاف المزرقّة سرعان ما اقتربت

ثمّ راحت تنجلي بشكلٍ أكبر صفراءَ وموحلة.

في النّهر كان يرسو أسطولٌ من البواخر تتزاحم وسطَه القوارب البخاريّة والمراكب القاطرة نافثةً خلفها شرائط طويلة من الدّخان الأسود.

عدد هائل من السّفن! ومن الأشرعة! لم أتصوّر يوماً أنّ نهراً يمكن أن يكون بمثل هذا الاكتظاظ، ولئن كان نهر الغارونّ قد فاجأني، فإنّ التّايمز بَهَرَني. كان العديد من هذه السّفن يستعدّ للإبحار، وعالياً بين الصّواري والأشرعة كان يمكن رؤية البحّارين يهرعون هنا وهناك على سلالم من حبال كانت تبدو من بعيد كخيوط العنكبوت.

أمّا سفينتنا، فكانت تترك خلفها خطّاً مُزبِداً في وسط المياه الصّفراء التي كانت تطفو فوقها بقايا من كلّ نوع: ألواحٌ وقطع خشبيّة وجيَف حيوانات منتفخة وحزَم قشّ وأعشاب. ومن وقتٍ لآخر كان ينقضّ على هذه البقايا طائرٌ كبير الجناحين ثمّ يعود ليرتفع في الفضاء مُصدِراً صرخةً حادّة، حاملاً فريسته في منقاره.

لِمَ كان ماتيا يريد النّوم؟ من الأفضل أن يصحو، فهذا مشهد عجيب يستحقّ أن يُرى.

وكلّما كانت سفينتنا البخاريّة تتقدّم في النّهر، كان المشهد يصير أكثر فأكثر غرابةً، وأكثر فأكثر جمالاً. لم تكن السّفن الشّراعيّة أو البخاريّة هي وحدها المثيرة للاهتمام، أو تلك الكبيرة الثّلاثيّة الصّواري، أو البواخر الضّخمة العائدة من بلادٍ بعيدة، أو ناقلات الفحم المجلّلة بالسّواد، أو قوارب القشّ والشّعير التي كانت شبيهة بأكوامِ علفٍ يجرفها التيّار، أو البراميل الحُمر والبيض والسّود الضّخمة التي

كانت تدوّمها الأمواج. لم يكن كلّ هذا وحده هو المثير للاهتمام، بل ما يجري وما نشاهده على الضّفّتين اللّتين باتتا تُريان بوضوح بكلّ تفاصيلهما ومنازلهما المطليّة بأناقة، ومروجهما الخضراء وأشجارهما التي لم تمسّ المشاذيب أغصانها قطّ، وهنا وهناك جسور صعود الرّكاب تتقدّم فوق الحمأ الأسود، ومؤشّرات المدّ والجزر، قضبان مخضوضرة ولزجة.

بقيتُ هكذا طويلاً، عيناي مفتوحتان على وسعهما لا أفكّر إلاّ في النّظر والتّأمّل.

وفيما كنتُ أتأمّل البيوت على ضفّتي التّايمز ينحشر الواحد منها إلى جانب الآخر في خطوط حمراء طويلة، أعتمَ الجوّ. واختلط الدّخان بالضّباب فلم يعد بالإمكان معرفة أيّ منهما هو الأكثر كثافةً. ثمّ، بدلَ الأشجار والحيوانات في المروج، ظهرت فجأةً غابة من الصّواري: كانت السّفن تجتاح المروج.

فلم أعد أطيقُ انتظاراً، لذا سارعتُ بالنّزول من على مرْقبي وذهبتُ أنادي ماتيا. كان مستيقظاً وقد شُفي من دوار البحر ولم يعد عكر المزاج، فقبلَ بالصّعود معي على الصّناديق. وانبهر بدوره وراح يفرك عينيه: هنا وهناك كانت المروج تنفذ إلى النّهر، ومثله كانت غاصّة بالسّفن.

لكن لسوء الحظّ تكثّف الدّخان والضّباب أكثر من ذي قبل، ولم نعد نرى حولنا إلاّ خَطْفاً، وبقدر ما نتقدّم كانت الرؤية تغيم.

وأخيراً خفّفت السّفينة من سيرها ثمّ توقّفت ورُميت الأمراس إلى اليابسة. نحن في لندن، ننزل من السّفينة بين أناسٍ ينظرون إلينا

ولا يتوجّهون إلينا بالكلام.

- ها قد حان الوقت لتستخدم إنجليزيّتك يا صغيري ماتيا.

فلم يكن من ماتيا إلاّ أنّ اقترب بكامل البساطة من رجلٍ ضخم ذي لحية صهباء ليسأله بتهذيب، وقد نزع قبّعته، عن الطّريق إلى غرينْ سكْوير.

بدا لي أنّ ماتيا أمضى وقتاً طويلاً في التّفاهم مع الرّجل الذي راح يكرّر له عدّة مرّاتٍ الكلمات ذاتها، ولكنّني لم أشأ أن يبدو عليّ أنّني كنت أشكّ بمعرفة صديقي.

ثمّ عاد أخيراً وقال:

- هذا سهلٌ جدّاً، ليس علينا إلاّ أن نسير بمحاذاة التّايمز. سنتبع الرّصيف النّهريّ.

ولكن ليس من أرصفة في لندن، أو بالأحرى لم يكن هناك أرصفة في ذلك الزّمان، وكانت البيوت تصل حتّى النّهر. لذا كنّا مرغمين على اتّباع الشّوارع التي كان يبدو لنا أنّها تحاذي النّهر.

كانت تلك الشّوارع قاتمةً جدّاً وموحلة وملأى بالعربات والصّناديق والرِّزَم والطّرود بمختلف أنواعها. وكان عسيراً علينا أن نتسلّل بين كلّ تلك العوائق التي لم تكن تكفّ عن الظّهور في طريقنا. فربطتُ كابي بحبلٍ وأبقيتُه قربي. كانت السّاعة لا تزال هي الواحدة بعد الظهر، ومع ذلك كانت القناديل مُضاءة في المخازن فيما تُمطِر سخاماً.

من هذا المنظور، لم تولّد فينا لندن الشّعور نفسه الذي ولّده نهر التّايمز.

كنّا نتقدّم، ومن وقتٍ لآخر كان ماتيا يذهب ليسأل عمّا إذا كنّا لا نزال بعيدين عن لينكولن إنْ، ثمّ يرجع ليقول لي إنّ علينا أن نجتاز بوّابة كبيرة سنصادفها في طريقنا. كان هذا يبدو لي غريباً ولكنّني لم أجرؤ أن أقول له إنّه مخطئ.

إلاّ أنّه لم يكن على خطأ، ووصلنا أخيراً إلى قنطرة ترتفع فوق الشّارع ولها بابان جانبيّان صغيران: كانت هذه تامبل-بار. ومن جديدٍ سألنا عن الطّريق فأُجِبنا أنّه علينا الاتّجاه يميناً.

فلم نعد في شارع واسع مليء بالحركة والجلبة، بل بالعكس ألفينا نفسَينا في أزقّة ساكنة متشابكة، وبدا لنا أنّنا كنّا ندور كما لو في متاهة دون أن نتقدّم.

وفجأةً، وفي اللّحظة التي خلنا فيها أنّنا تِهْنا، إذا بنا أمام مقبرةٍ صغيرة ذات أضرحة سوداء كما لو أنّها طُليت بالسّخام أو بالشّمع الأسود: كانت تلك هي غرينْ سكْوير.

وفيما كان ماتيا يسألُ أحد المارّة، توقّفتُ لأحاول منْع قلبي من الخفقان. كنتُ عاجزاً عن التنفّس وأرتجف.

ثمّ لحقتُ بماتيا وتوقّفنا أمام صفيحة نحاسيّة قرأنا عليها: «غريث أند غاليه».

تقدّم ماتيا ليدقّ الجرس ولكنّني أوقفتُه، فسألني:

- ولكن ما بك؟ كم أنت شاحب!

- انتظرْ قليلاً ريثما أستعيد شجاعتي.

ثمّ دقّ ودخلنا.

كنتُ مرتبكاً بشدّة حتّى أنّني لم أكن أرى حولي بوضوح. بدا لي أنّنا

كنّا في مكتب وأنّ شخصين أو ثلاثة ينحنون فوق طاولاتهم ويكتبون على ضوء عدّة قناديل تشتعل وهي تُصدر صفيراً.

توجّه ماتيا بالكلام إلى أحد أولئك الأشخاص، إذ أوكلتُ إليه طبعاً مهمّة التكلّم. فكانت تتكرّر في عباراته كلمات «بوي» و«فاميلي» و«باربُران». ففهمتُ أنّه يشرح أنّني الصّبيّ الذي عهدتْ عائلتي لباربُران بالبحث عنه. فكان لاسم باربُران الأثر المطلوب: راحوا ينظرون إلينا، ثمّ وقف الشّخص الذي كان ماتيا يتوجّه إليه بالكلام وفتح لنا أحد الأبواب.

فدخلنا إلى قاعةٍ مليئة بالكتب والأوراق. كان ثمّة رجلٌ جالسٌ خلف مكتب وآخَر يرتدي ثوباً وشعراً مستعاراً ويحمل في يده أكياساً زرقاء عديدة ويحادثه.

بكلماتٍ قليلة، شرح الرّجل الذي يتقدّمنا مَن نحن، فراح الرّجلان الآخَران يتفرّسانا من أعلى الرّأس حتّى أخمص القدمين.

ثمّ قال الرّجل الجالس خلف المكتب بالفرنسيّة:

– من منكما الولد الذي ربّاه باربُران؟

فلمّا سمعتُه يتكلّم بالفرنسيّة شعرتُ بالثّقة وتقدّمتُ خطوةً وقلتُ:

– أنا هو يا سيّدي.

– وأين باربُران؟

– لقد توفّي.

فتطلّع الرّجلان أحدهما إلى الآخر برهةً من الوقت ثمّ لم يلبث أن خرج الرّجل ذو الشّعر المستعار حاملاً معه أكياسه.

فسألني الرّجل الذي كان قد بدأ باستنطاقي:

- وكيف وصلتما إلى هنا؟

- مشياً إلى بولوني، ومن بولوني إلى لندن في السّفينة. لقد وصلنا للتوّ.

- وهل أعطاكما باربُران مالاً؟

- نحن لم نرَ باربُران.

- كيف عرفتما إذن أنّ عليكما المجيء إلى هنا؟

فأخبرتُه باختصار بما يُريد معرفته.

كنتُ بدوري متحرّقاً لطرح بعض الأسئلة، لا سيّما سؤال محدّد ولكن لم يتسنَّ لي الوقت.

فقد كان عليّ أن أروي له كيف ربّاني باربُران، وكيف باعني إلى فيتاليس، وكيف أنّه لدى موت هذا الأخير احتضنتني عائلة آكان، وأخيراً كيف وُضع آكان في السّجن بسبب الدّيون فاستعدتُ إثرَ ذلك حياتي القديمة كموسيقيّ متجوّل.

وفيما كنتُ أتكلّم، كان الرّجل يدوّن ملاحظات وينظر إليّ بطريقةٍ أزعجتني. فوجهه كان قاسياً وفي ابتسامته شيءٌ من الرّياء.

ثمّ قال وهو يشير إلى ماتيا بطرف قلمه الحديديّ كما لو كان يريد رميه بسهم:

- ومن هذا الصّبي؟

- إنّه صديق، رفيق، أخ.

- حسناً. إنّه مجرّد شخص تعرّفتَ إليه في الطّرق، أليس كذلك؟

- إنّه الأخ الأكثر رقّةً ومحبّة.

- آه! ليس عندي شكّ في هذا.

بدا لي أنّ الوقت قد حان لأطرح أخيراً السّؤال الذي كنتُ أتحرّق لطرحه منذ البداية:

- سيّدي، هل تعيش عائلتي في إنكلترا؟

- طبعاً إنّها تعيش في لندن. على الأقلّ الآن.

- وهل سأراها؟

- ستكون قربَها بعد لحظات. سأقودك إليها.

قال ذلك وقرع جرساً.

- سؤال آخر، أرجوك يا سيّدي: هل لي أب؟

ببالغ العُسر تمكّنت من لفظ هذه الكلمة.

- ليس لديك أب فحسب، بل أمّ أيضاً وأشقّاء وشقيقات.

- آه! سيّدي...

ولكنّ الباب انفتح وقطع دفقي العاطفيّ. فلم أتمكّن إلاّ من النّظر إلى ماتيا وعيناي مغرورقتان بالدّموع.

توجّه الرّجل بالإنجليزيّة إلى الشّخص الذي دخل وبدا لي أنّه يشير إليه بأن يقودنا.

فوقفتُ.

قال الرّجل:

- آه! كدتُ أنسى. إنّ اسم شهرتك هو دريسكول. هو اسم والدك.

ورغم هيئته غير المريحة كنتُ على استعداد لمعانقته لو كان منحني الوقت، ولكنّه أشار بيده إلى الباب، فخرجنا.




Twitter: @ketab_n

الفصل الثّالث عشر

آل دريسكول

كان الموظّف الذي يُفترض به اصطحابي إلى والديّ رجلاً مسنّاً ضئيل الجسم، منقبضاً ومتجعّداً، يرتدي بذلةً سوداء عفا عليها الزّمن وربطة عنق بيضاء. ولمّا أصبحنا خارجاً، راح يفرك يديه بحدّة مطقطقاً أصابعه، ثمّ نفض رجليه كما لو كان يريد أن يقذف بعيداً حذاءه البالي، ثمّ رفع رأسه إلى الأعلى وتنفّس الضّباب عميقاً عدّة مرّاتٍ بغبطةِ رجلٍ كان محبوساً.

فقال لي ماتيا بالإيطاليّة:

– إنّه يجد أنّ رائحة الجوّ عطرة.

فنظر إلينا الرّجل المسنّ، ومن دون أن ينطق بكلمة قال «بسْ، بسْ!» كما لو كان يتحدّث إلى كلاب، قاصداً أنّ علينا أن نسير خلفه وألاّ نضيّعه.

وسرعان ما ألفينا أنفسنا في شارع كبير مليء بالعربات أوقف الرّجل واحدة منها. وبدل أن يكون الحوذيّ جالساً على مقعده خلف حصانه، كان جاثماً في الخلف معتلياً ما يشبه غطاء العربات ذوات العجلتين والحصان الواحد. عرفتُ فيما بعد أنّ هذا النّوع من العربات يُدعى «كاب».

فأصعدَنا دليلُنا في تلك العربة التي لم تكن مُغلقة من الأمام،

ثمّ راح يتحدّث إلى الحوذيّ عبرَ كوّةٍ صغيرة في الغطاء. وأكثر من مرّة خلال الحوار ردّد اسم بثنال-غرين فخُيّل إليّ أنّه اسم الحيّ الذي يعيش فيه والداي. كنتُ أعرف أنّ «غرين» تعني بالإنجليزيّة «أخضر»، فخطر لي أنّ ذلك الحيّ مزروعٌ حتماً بأشجار جميلة ممّا سرّني كثيراً بالطّبع. فذلك لن يشبه أبداً شوارع لندن القبيحة والمعتمة والبالغة الكآبة التي اجتزناها عند وصولنا. إنّ منزلاً محاطاً بالأشجار في مدينة كبيرة لجميلٌ جدّاً.

طال النّقاش بين دليلِنا والحوذيّ. تارةً يقترب أحدهما من الكوّة ليُعطي تعليمات، وطوراً يلتفت الآخَر من مقعده إلى الكوّة ليقول إنّه لا يفهم ما يُطلب منه.

كنّا أنا وماتيا محشورين في زاويةٍ، مع كابي بين ساقيّ، ولمّا سمعتُ ذلك النّقاش قلتُ في نفسي إنّ من المدهش أن يبدو على الحوذيّ أنّه لا يعرف مكاناً بمثل جمال بثنال-غرين المفترض. فهل هذا يعني أنّ في لندن أحياء خضراء؟ كان ذلك مثيراً للاستغراب، فبحسبِ ما رأيناه حتّى تلك اللّحظة كنتُ أتوقّع رؤية السّخام.

كانت العربة تتقدّم بسرعة في شوارع عريضة تليها شوارع ضيّقة، ثمّ تعود إلى شوارع عريضة، ونحن لا نكاد نتمكّن من رؤية شيء حولنا لفرط ما كان الضّباب الذي يلفّنا سميكاً. كان الجوّ قد بدأ يصبح بارداً ومع ذلك كنّا نشعر بالضّيق كما لو كنّا نختنق. وعندما أقول «نحن»، فإنّني أعنينا أنا وماتيا، لأنّ دليلنا كان بالعكس يبدو مرتاحاً. أو على الأقلّ كان يتنفّس عميقاً، فاغرَ الفم شاخراً، كما لو كان يستعجل تخزين مؤونة كبيرة من الهواء في رئتيه. ومن حينٍ

لآخَر كان يعاود طقطقة يديه وتمطيط قدميه. هل مضَتْ عليه يا ترى سنوات من دون أن يتحرّك أو يتنفّس؟

رغم الانفعال الذي كان ينتابني إذ أفكّر في أنّني، بعد لحظات، لا بل ربّما بعد ثوانٍ، سأعانق أفراد عائلتي: أبي وأمّي وأشقّائي وشقيقاتي، فإنّني كنتُ راغباً بشدّة في رؤية المدينة التي كنّا نجتازها: أفليست هي مدينتي وموطني؟

ولكن عبثاً فتحتُ عيني، لم أكد أرى شيئاً خلا الأضواء الحمراء لمصابيح الغاز المشتعلة في الضّباب كما لو في سحابةٍ سميكةٍ من الدّخان. بصعوبةٍ كنّا نلمح أضواء العربات القادمة في اتّجاهنا لكي لا نصطدم بها أو لكي لا نصدم النّاس الذين كانوا يملأون الشّوارع.

كنّا ما نزال نتقدّم. مضى على خروجنا من مكتب غريث أند غاليه وقتٌ طويلٌ ممّا أكّد لي أنّ والديّ يعيشان في الرّيف. لا بدّ أنّنا سنغادر بعد قليلٍ الشّوارع الضيّقة لنجتاز الحقول.



كنّا أنا وماتيا يمسك أحدنا بيد الآخَر، وفكرة لقائي بأهلي جعلتني أشدّ على يديه. بدا لي أنّ من الضّروريّ أن أعبّر له عن صداقتي في تلك اللّحظة بالذّات أكثر من أيّ وقتٍ مضى وإلى الأبد.

ولكن بدل أن نصل إلى الرّيف، ولجْنا شوارع ضيّقة وسمعنا صفّارات القطارات.

فطلبتُ من ماتيا أن يسأل الرّجل إنْ كنّا سنصل قريباً إلى منزل والديّ. فكان جواب ماتيا باعثاً على اليأس، إذ زعَمَ أنّ موظّف غريث أندْ غاليه قال إنّه لم يطأ حيّ اللّصوص هذا يوماً. لا بدّ أنّ ماتيا مُخطِئ وأنّه لم يفهم جواب الرّجل. ولكنّه أصرّ أنّ «ثيفز»، الكلمة الإنجليزيّة التي استخدمها الموظّف، تعني «الصوص» وأنّه واثق من ذلك. فبقيتُ للحظةٍ مبلبلاً، ثمّ قلتُ في نفسي إنّه، إذا كان هذا الموظّف خائفاً من اللّصوص فهذا يعني أنّنا نتأهّب للدّخول إلى الرّيف وأنّ كلمة «غرين» التي تلي كلمة «بثنال» تنطبق تماماً على الأشجار والمروج. فأوضحتُ لماتيا فكرتي هذه وضحكنا كثيراً من خوف الموظّف: ما أغبى الأشخاص الذين لم يخرجوا من المدن يوماً!

إلاّ أنّ أيّ شيء لم يكن يوحي بدخولنا إلى الرّيف. أتكون إنكلترا لا أكثر من مدينة من الوحل والحجارة اسمها لندن؟ كان هذا الوحل يغزونا حتّى في العربة، منهمراً علينا على شكل لطخات سوداء. ومنذ مدّة غير قصيرة كانت رائحة كريهة تلفّنا. كلّ ذلك كان يشير إلى وجودنا في حيّ قبيح، لا بدّ أنّه الأخير قبل وصولنا إلى بثنال-غرين. بدا لي أنّنا ندور حول أنفسنا ومن حينٍ لآخَر كان الحوذيّ يخفّف سير عربته كما لو لم يعد يعرف أين هو. وأخيراً توقّف بشكلٍ

مباغتٍ وفُتِحت الكوّة التي كانت تفصلنا عنه.

فنشأ حديثٌ أو بالأحرى نقاشٌ بين الرّجلين. قال لي ماتيا إنّه فهم أنّ الحوذيّ يرفض الذّهاب أبعد لأنّه لا يعرف الطّريق، وهو يطلب توجيهات من موظّف غريث أند غاليه الذي استمرّ يجيبه بأنّه لم يسبق له أن أتى إلى حيّ اللّصوص هذا. وسمعتُ كلمة «ثيفْز».

لا بدّ أنّنا لم نصل بعد إلى بثنال-غرين.

ما سيحصل الآن؟ كنت أتساءل.

استمرّ النّقاش من خلال الكوّة، وكان الحوذيّ والموظّف يتبادلان العبارات بالغضب ذاته.

وفي النّهاية نقَدَ الموظّفُ الحوذيَّ أُجرَتَه، وكان هذا الأخير يغمغم، ونزل من العربة ومن جديدٍ قال لنا «بسْ، بسْ». ففهِمنا أنّ علينا أن ننزل بدورنا.

ألفينا أنفسنا في شارع موحِل غارق في الضّباب. كان هناك حانوت مضاء بشدّة، وكانت أنوار القناديل التي تعكسها المرايا والمُذهّبات والقناني المنحوتة السّطوح تنتشر في الشّارع وتخترق الضّباب في اتّجاه النّبع. كان ذلك مقهىً أو بالأحرى ما يسمّيه الإنجليز «جنّ بالاس» أي «قصر المشروبات»، وهو مقهى يُباع فيه مشروب العرعر وسواه من المشروبات التي تُستخرج من الشّمندر أو الحبوب.

فقال دليلنا:

– بسْ، بسْ!

ودخلنا برفقته إلى ذلك المقهى. لقد أخطأنا على ما يبدو في اعتقادنا أنّنا كنّا في حيّ بائس، فأنا لم أرَ يوماً مكاناً أكثر فخامةً. كان

ثمّة مرايا ومُذهّبات في كلّ مكان، أمّا منضدة الشّرب فمن الفضّة. إلاّ أنّ الأشخاص الواقفين أمام المنضدة أو المستندين بأكتافهم إلى الجدران أو على البراميل كانوا يرتدون ملابس رثّة، وبعضهم كانوا حفاةً، وأقدامهم التي خاضت في وحول قذرة كانت سوداء كما لو أنّها دُهِنتْ بطلاء أسود لم ينشف بعد.

وعلى تلك المنضدة الفضيّة الجميلة، طلب دليلنا مشروباً أبيض قويّ الرّائحة أفرغه بجرعة واحدة بالنّهم نفسه الذي كان يبتلع فيه الضّباب قبل قليل، ثمّ راح يتحدّث إلى الرّجل المشمّر عن ساعدَيه الذي كان قد قدّم له الشّراب.

لم يكن من الصّعب تخمين أنّه كان يسأل عن الطّريق فلم أحتجْ إلى أن أسأل ماتيا عن الأمر.

وطفقنا نقتفي خطى دليلنا من جديد. كان الشّارع قد بات شديد الضّيق بحيث كنّا رغم الضّباب نرى المنازل التي تحيط به من كلّ جهة. كان هناك حبالٌ معلّقة بين بيتٍ وآخر تتدلّى منها هنا وهناك ثيابٌ وأسمال. بالتّأكيد ما كانت معلّقة هناك لتنشف.

إلى أين كنّا ذاهبين؟ بدأتُ أقلق، ومن وقتٍ لآخَر كان ماتيا ينظر إليّ ولكنْ لا يطرح أيّ سؤال.

من الشّارع ولجنا إلى زقاق، ثمّ إلى ساحة ثمّ إلى زقاق مرّة أخرى. كانت المنازل أكثر بؤساً من أشدّ المنازل بؤساً في فرنسا. والكثير منها مبنيّ بألواح الخشب كما تُبنى السُّقُف والزرائب، ومع ذلك فقد كانت تلك بيوتاً. فعتباتها تزدحم بنساء حاسرات الرّؤوس وأطفال.

ولّما أتاح لنا ضوءٌ خافتٌ أن نرى ما يحيط بنا بشيء من الوضوح،

لاحظتُ أنّ أولئك النّسوة كنّ شاحبات يتدلّى على أكتافهنّ شعرهنّ الشّديد الشّقرة. أمّا الأطفال فكانوا شبه عُراة والملابس القليلة التي كانوا يرتدونها كانت أسمالاً. وفي أحد الأزقّة وجدنا حيوانات تنبش في ساقية راكدة تنبعث منها رائحة نتنة.

لم يطل الوقت حتّى توقّف دليلنا. كان من الواضح أنّه ضلّ الطّريق. ولكن في تلك اللّحظة تقدّم صوبنا رجل يرتدي معطفاً أزرق طويلاً ويعتمر قبّعة مزيّنة بالجلد المصبوغ، وحول معصمه شارة باللّونين الأبيض والأسود، وعلى خصره عُلّقَ قِرابُ مسدّس. كان ذلك «بوليسمان»، أي شرطيّاً.

فتحدّث الرّجلان ثمّ انطلقنا من جديدٍ يسبقنا الشّرطيّ. اجتزنا أزقّةً وباحاتٍ وشوارعَ متعرّجة. ويبدو لي أنّه كانت تتناثر هنا وهناك منازل متهدّمة.

وأخيراً توقّفنا في ساحة تتوسّطها بِرْكة صغيرة.

فقال الشّرطيّ:

- «رِدْ لايونْ كورتْ».

هذه الكلمات التي سبق أن سمعتُها عدّة مرّات تعني، على ما شرَحه لي ماتيا، «ساحة الأسد الأحمر».

لمَ يا ترى توقّفنا؟ مستحيل أن نكون وصلنا إلى بثنال-غرين. أيعيش والداي في هذه السّاحة؟ ولكن؟...

لم يتسنّ لي الوقت للتّوقّف عند هذه الأسئلة التي كانت تراود فكريَ المضطرب. فقد دقّ الشّرطيّ على بابِ ما يشبه سقيفة خشبيّة وشكرَه دليلنا. هذا يعني أنّنا وصلنا.

كان ماتيا لا يزال يمسك بيدي، فشدّ عليها وشددتُ أنا على يده.

لقد فهمنا أحدنا الآخر: فالقلق الذي يغمر قلبي يغمر قلبه هو أيضاً.

كنتُ شديد الاضطراب بحيث لا أعرف كيف فُتح لنا الباب الذي دقّ عليه الشّرطيّ، ولكن ابتداءً من اللّحظة التي دخلنا فيها إلى غرفةٍ واسعة يُضيئها مصباحٌ وفحمٌ يشتعل في موقد، لا زلتُ أذكر كلّ شيء.

أمام النّار، وعلى مُتّكأ من القشّ على شكل مِشكاة، كان يجلس كالتّمثال شيخٌ ذو لحيةٍ بيضاء يعتمر قلنسوة سوداء. فيما كان رجلٌ وامرأة يجلسان متقابلَين تفصل بينهما طاولة. كان الرّجل في الأربعين تقريباً، وكان يرتدي بذلةً من المخمل الرّماديّ. كان يبدو عليه الذّكاء والقسوة. أمّا المرأة فكانت أصغر منه بنحو خمس سنوات أو ستّ، شعرها الأشقر يتدلّى على شالٍ عليه مربّعات بيضاء وسوداء يحيطُ بكتفيها. كانت عيناها فارغتين، وعلى وجهها الذي كان ذات يومٍ جميلاً وعلى حركاتها الخاملة كان يبدو مزيج من البلادة وعدم المبالاة. كان في الغرفة كذلك أربعة أطفال، صبيّان وبنتان، شقرٌ كلّهم كوالدتهم. كان يبدو على الصبيّ البكر أنّه كان في سنّ الحادية عشرة أو الثّانية عشرة، أمّا الصّغرى بين البنتين فكانت لا تكاد تبلغ الثّالثة من العمر، وكانت تدبّ أرضاً.

رأيتُ كلّ ذلك بنظرةٍ واحدة وقبل أن يُنهي دليلنا، موظّف غريث أند غاليه، كلامه.

ماذا كان يقول؟ لم أكد أسمعه ولم أفهم شيئاً على الإطلاق. فقط

رنّ في أذني اسم دريسكول، وهو اسم شهرتي كما قال لي رجل القانون.

كانت كلّ النّظرات موجّهة صوب ماتيا وصوبي، حتّى نظرات العجوز الجامد. وحدها الفتاة الصّغيرة كانت مهتمّة بكابي.

- أيّكما هو ريمي؟ سأل بالفرنسيّة الرّجلُ ذو البذلة المخمليّة الرّماديّة اللّون.

فتقدّمتُ خطوةً وقلتُ:

- أنا!

- قبِّلْ والدك إذن يا بنيّ.

عندما كنتُ أفكّر في هذه اللّحظة، كنتُ أتخيّل أنّ دفقاً عاطفيّاً سيسطر عليّ ويرميني بين ذراعيّ والدي. ولكنّني لم أجد فيّ هذا الدّفق، إلاّ أنّني تقدّمت وقبّلتُ والدي.

فقال لي:

- والآن، أقدّم لك جدّك ووالدتك وشقيقيك وشقيقتيك.

اتّجهتُ في البداية صوب والدتي وقبّلتُها. لم تصدّ عناقي ولكنّها لم تقبّلني بدورها، بل قالت لي كلمتين أو ثلاثاً فحسبُ لم أفهمها.

- صافحْ جدّك، ولكن بهدوء فهو مشلول، قال لي والدي.

صافحتُ كذلك شقيقيّ وشقيقتي البكر. أردتُ أيضاً أن أحمل شقيقتي الصّغرى بين ذراعيّ ولكنّها صدّتني إذ كانت مشغولةً بكابي.

وفيما أتنقّل هكذا بينهم، شعرت بالسّخط على نفسي، لأنّني لم أكُ أشعر بالفرح لوجودي أخيراً وسطَ عائلتي. كان لديّ والدٌ ووالدة وشقيقان وشقيقتان وجَدّ، وكنتُ مجتمعاً بهم، ومع ذلك كانت مشاعري باردة. كنتُ قد انتظرتُ هذه اللّحظة بشوقٍ وتحرّق، كما

كنتُ طائراً من الفرح وأنا أفكّر أنّني بدوري سيكون لي عائلة وأهلٌ أحبّهم ويحبّونني، فإذا بي أبقى مرتبكاً أتفحّصهم جميعاً بفضولٍ دون أن أجد في قلبي ما أقوله لهم، ولا حتّى كلمة حنانٍ واحدة. أيعني هذا أنّني وحشٌ وغير جدير بأن يكون لي عائلة؟

لو كنتُ وجدتُ أهلي في قصرٍ بدلاً من تسقيفة خشبيّة، فهل كنتُ سأشعر حيالهم بالحنان الذي كنتُ أحسّ به في قلبي قبل ساعات قليلة تجاه أب وأمّ لم أكن أعرفهما، حنان بتّ عاجزاً عن التّعبير عنه حيالَ أب وأمّ كنت أراهما أمامي؟

شعرتُ بالخزي من نفسي إزاء هذه الفكرة، فعدتُ صوب أمّي وعانقتُها ثانيةً وقبّلتُها بحرارة. لا بدّ أنّها لم تفهم ما الذي يستدعي منّي هذا الدّفق العاطفيّ، إذ بدل أن تقبّلني بدورها نظرت إليّ بخمول ثمّ توجّهت إلى زوجها، أي أبي، وهي ترفع كتفيها بهدوء وقالت له بضع كلماتٍ لم أفهمها ولكنّها أضحكت هذا الأخير. هذه اللاّمبالاة من جهة، والضّحك من جهةٍ أخرى عصرا قلبي وكادا يخنقانه، فبرأيي ما هكذا كان يجب أن يُقابَل دفق عواطفي.

ولكن لم يُترك لي المجال للاستسلام لأفكاري، إذ سألني والدي وهو يشير إلى ماتيا:

- وهذا؟ مَن يكون؟

فشرحتُ له الرّوابط التي تجمعني بماتيا. فعلتُ ذلك وأنا أحاول أن أضع في كلماتي القليل من المودّة التي أكنّها له وأن أشرح العرفان الذي أشعر به حياله.

- جيّد! لقد أراد أن يتجوّل ويرى بلاداً جديدة إذن.

كنتُ على وشك أن أجيب عندما قاطعني ماتيا:

- تماماً!

- وبارِبْران؟ لِمَ لم يأتِ؟

فشرحتُ له أنّ بارِبْران قد مات، الأمر الذي شكّل لي خيبة كبيرة لدى وصولنا إلى باريس بعدما عرفتُ في شافانون من السيّدة بارِبْران أنّ والديّ يبحثان عنّي.

فترجم والدي لوالدتي ما قلتُه للتوّ وبدا لي أنّها أجابت أنّ ذلك حسن جدّاً. على كلّ حال لفظتُ عدّة مرّات كلمتَي well (حسناً) وgood (جيّد)، اللّتين كنتُ أعرفهما من قبل. يا ترى ما الجيّد والحسن في موت بارِبْران؟ هذا ما كنت أتساءل عنه في نفسي دون أن أحير جواباً.

فسألني والدي:

- ألا تفقه الإنجليزيّة؟

- كلاّ، أعرف فقط الفرنسيّة والإيطاليّة وقد تعلّمتُ هذه الأخيرة مع معلّم أجّرني له بارِبْران.

- فيتاليس؟

- لقد علمتَ بالأمر...

- بارِبْران هو من قال لي اسمه، عندما ذهبتُ إلى فرنسا قبل مدّة بحثاً عنك. ولكن لا بدّ أنّك تتساءل لِمَ لم نبحث عنك طوال السّنوات الثّلاث عشرة الفائتة، وكيف خطر لنا فجأةً أن نذهب للبحث عن بارِبْران.

- أوه! أجل، إنّ الأمر يثير فضولي كثيراً بالفعل.

- تعالَ إذن واجلس قرب النّار لأخبرك بكلّ شيء.

كنتُ لمّا دخلت قد أسندتُ قيثارتي إلى الجدار، فحللتُ عقدة حقيبتي وجلستُ في المكان الذي أُشير عليّ بالجلوس فيه.

وفي اللّحظة التي كنتُ أمدّ فيها ساقيّ المبلّلتين الملوّثتين بالطّين أمام النّار، بصق جدّي إلى النّاحية التي كنتُ جالساً فيها دون أن يقول شيئاً، كمثلِ هرّ عجوز غاضب. ولم أحتج إلى شرحٍ لأفهم أنّني كنتُ أزعجه فأبعدتُ ساقيّ.

فقال أبي:

- لا تُعِرْه اهتماماً، فالشيخ لا يحبّ أن يحولَ أحدٌ بينه وبين النّار. ولكن إن كنتَ تحسّ بالبرد فتدفّأْ، لا حاجة لك لأن تعبأ به.

أذهلني أن أسمعه يتكلّم عن العجوز الأشيَب على هذه الشّاكلة. فإذا كان ثمّة أحد يجب أن يراعوه فهو العجوز تحديداً. فأبقيتُ ساقيّ تحت الكرسيّ.

قال لي والدي:

- أنت ابننا البكر، وقد وُلدتَ قبل سنةٍ من زواجي بوالدتك. وعندما تزوّجتُها، كان هناك شابّة تظنّ أنّني سأتّخذها زوجةً فأوحى لها هذا الزّواج بكرهٍ عظيم حيال مَن كانت تعتبرها غريمةً لها. ولكي تنتقم، سرقتك وأنت في شهرك السّادس وأخذتكَ إلى فرنسا، إلى باريس تحديداً، وتركتك في الشّارع. بحثنا عنك كثيراً ولكن لم يخطر لنا على بالٍ أن نتّجه إلى باريس، إذ لم يكن ممكناً أن نتوقّع أن يكون أحدٌ قد أخذكَ إلى مكانٍ بمثلِ هذا البعد. وكنّا نظنّ أنّنا لن نجدكَ أبداً وأنّك متّ وفقدناك إلى الأبد، إلى أن أخبرتنا تلك المرأة قبل ثلاثة

أشهر. كانت مُصابة بمرضٍ مميتٍ، وأفصحت عن الحقيقة قبل أن تموت. فذهبتُ فوراً إلى فرنسا وقصدتُ مركز الشّرطة في الحيّ الذي كانت قد تركتْكَ فيه. وهناك أخبروني أنّ بنّاءً من منطقة كروز قد وجدكَ وتبنّاك، فذهبتُ للحال إلى شافانون. وهناك قال لي باربُران إنّه أجّركَ إلى فيتاليس وهو موسيقيّ متجوّل وإنّك كنت تجوب فرنسا برفقته. وبما أنّني لم يكن بوسعي البقاء في فرنسا والسّير على خطى فيتاليس، فقد أوكلتُ إلى باربُران بمهمّة البحث عنك وأعطيتُه مالاً ليذهب إلى باريس. وفي الآن ذاته، أوصيتُه بأن يُعلمَ إذا ما وجدك المُحاميَين غريث وغاليه، اللّذين يهتمّان بأعمالي. ولئن لم أُعطِه عنواني هنا فلأنّنا لا نعيش في لندن إلاّ خلال فصل الشّتاء. أمّا عندما يتحسّن الطّقس فنحن نجوب إنكلترا واسكتلندا في سبيل عملِنا كبائعين متجوّلين، مع عرباتنا وعائلتنا. وهكذا عثرنا عليك يا بنيّ، وها أنت تعود بعد ثلاث عشرة سنة لتتّخذ مكانك في كنف هذه العائلة. أفهم أن تكون جفِلاً بعض الشّيء لأنّك لا تعرفنا ولأنّك لا تفهم ما نقول ولا يفهم الآخرون ما تقول. ولكن أرجو أن تعتاد بسرعة على العيش معنا.

أجل، لا بدّ أنّني سأتعوّد بسرعة. ألم يكن هذا طبيعيّاً طالما أنّني كنت في وسط عائلتي وأنّ من سأعيش معهم كانوا أبي وأمّي وإخوتي؟

لم تصْدق الأقمطة الجميلة إذنْ، وكانت هذه مأساة بالنّسبة للسيّدة باربُران وليز والأب آكان وجميع من أنقذوني. فأنا لن أتمكّن أن أقدّم لهم ما حلمتُ به، لأنّ بائعين متجوّلين يعيشون في سقيفة لا يمكنهم أن يكونوا شديدي الثّراء. ولكن بالنّسبة إليّ أنا، لم يكن هذا مهمّاً، ففي

النّهاية لديّ عائلة، والحلم بالثّراء لم يكن إلاّ حلماً طفوليّاً. فالحنان أهمّ من الثّروة بكثير، وأنا لم أكن بحاجةٍ للمال بل للعاطفة.

فيما أستمع بتركيز شديد إلى رواية والدي، كانت المائدة قد جُهّزت. كان على الطّاولة صحونٌ مزيّنة بزهور زرقاء، وفي طبقٍ معدنيّ قطعةٌ كبيرة من لحم البقر المطبوخ في الفرن مع البطاطس.

فسألَنا والدي، أنا وماتيا:

- أأنتما جائعان يا ولديّ؟

فاكتفى ماتيا بابتسامةٍ عريضةٍ كشفت عن أسنانه البيض.

فقال والدي:

- حسناً، فلنجلس إلى المائدة.

ولكن قبل أن يجلس، جرّ مقعد جدّي إلى الطّاولة، ثمّ جلس هو مُديراً ظهره للنّار وبدأ يقطع اللّحم وقدّم لكلّ واحدٍ منّا قطعةً كبيرة مع بطاطس.

رغم أنّ تربيتي لم تتضمّن مبادئ التّهذيب، أو بالأحرى رغم أنّني لم أنل أيّ تربية، فإنّني لاحظتُ أنّ شقيقَيّ وشقيقتي الكبرى كانوا يأكلون غالباً بأصابعهم، يغمسونها في المرق ويلحسونها من دون أن يبدو أنّ أبي أو أمّي كانا يأبهان لذلك. أمّا جدّي فلم يكن يهتمّ إلاّ بصحنه، وكانت يده الوحيدة التي يمكنه استخدامها تنتقل بشكلٍ مستمرّ من الصّحن إلى فمه. وعندما كان يوقع من يده المرتجفة قطعةً كان إخوتي يسخرون منه.

لمّا انتهى العشاء، ظننتُ أنّنا سنُمضي الأمسية إلى جانب النّار، ولكن والدي قال إنّه ينتظر أصدقاء وإنّنا يجب أن نخلد للنّوم. ثمّ

تناول شمعةً وقادنا إلى مستودع مُلحق بالغرفة التي تناولنا الطعام فيها. كان في المستودع عربتان كبيرتان من تلك التي يستخدمها عادةً الباعة المتجوّلون. ففتح إحداها ورأينا فيها سريرين جميلين.

فقال:

- هذان سريراكما. ليلةً سعيدة.

هكذا جرى استقبالي في عائلتي: آل دريسكول.




Twitter: @ketab_n

الفصل الرّابع عشر

أكرم أباك وأمّك

انسحب والدي تاركاً لنا الشّمعة ولكنّه أقفل باب العربة من الخارج، فلم يبقَ لنا إلاّ أن نخلد للنّوم. فنمنا بسرعة دون أن نتحدّث على عادتنا كلّ ليلة، ودون أن نتبادل انطباعاتنا عن ذلك اليوم المليء بالأحداث.

- ليلة سعيدة يا ريمي، قال لي ماتيا.

- ليلة سعيدة يا ماتيا.

مثلي، لم يكن ماتيا راغباً في الكلام، فأفرحني صمته.

ولكنّ انعدام الرغبة في الكلام لا يعني الرغبة في النّوم. ولمّا أطفأنا الشّمعة، عجزتُ عن إغماض عينيّ ورحتُ أفكّر في كلّ ما جرى وأنا لا أكفّ عن التقلّب في سريري الضيّق.

وفيما أفكّر، كنتُ أسمع ماتيا على السّرير العلويّ يتحرّك ويتقلّب، ممّا يعني أنّه كان مثلي عاجزاً عن النّوم.

فقلتُ له بصوتٍ خفيض:

- أنت نائم؟

- لا، ليس بعد.

- أثمّة ما يزعجك؟

- لا، شكراً، بالعكس أنا بخير. أشعر فقط بالدّوار كما لو كنتُ

لا أزال في السّفينة، أحسّ أنّ العربة ترتفع وتنخفض وتنقلب في كلّ الجهات.

هل دوار البحر وحده هو ما كان يمنع ماتيا من النّوم؟ ألم تكن الأفكار التي تُبقيه صاحياً هي نفسها أفكاري؟ كان يُحبّني كثيراً وكنّا متّحدين بالقلب والفكر، ممّا يجعله يشعر بما أشعر به.

لم يأتِ النّوم، ومع مرور الوقت كان الخوف المبهم الذي يخنقني يزداد. في البداية لم أفهم الشّعور الذي كان يسيطر عليّ ويطغى على كلّ المشاعر التي تتناهبني وتختلط في داخلي، ولكنّني فهمتُ في تلك اللّحظة أنّه الخوف. الخوفممّ؟ ما كنت أعرف، ولكنّني كنتُ أشعر بالخوف. لم أكن خائفاً من النّوم في تلك العربة وفي وسط ذلك الحيّ البائس المدعوّ بثنال-غرين. فكم من مرّةٍ في حياتي الجوّالة أمضيتُ ليالي كنتُ أجاور فيها المَخاطر كما كانت الحال في تلك اللّحظة! كنتُ مدركاً أنّني في منجىً من أيّ خطر ومع ذلك كنتُ مرتعباً. وكلّما حاولتُ مجابهة هذا الرّعب ازددتُ عجزاً عن الاطمئنان.

مرّت السّاعات الواحدة تلو الأخرى دون أن أتمكّن من معرفة كم من الوقت كان قد مضى، فلم يكن في الأنحاء ساعات تدقّ. وفجأةً سمعتُ ضجيجاً قويّاً عند باب المستودع الذي يوصل إلى شارع آخر غير ساحة الأسد الأحمر. وبعد عدّة طَرقات، متباعدة ومنتظمة، تسلّل ضوءٌ إلى عربتنا.

نظرتُ حولي متفاجئاً، فيما استيقظ كابي الذي كان نائماً إلى جانبي مزمجراً. فرأيتُ أنّ الضّوء يصلنا من خلال نافذة صغيرة في جدار العربة الذي كان سريرانا مستندين إليه، لم أكن لَحَظْتُها عندما خلدنا

للنّوم لأنّها كانت مغطّاة من الدّاخل بستارة. نصف تلك النّافذة كان في سرير ماتيا ونصفها الآخر في سريري. لم أشأ أن يوقظ كابي كلّ من في المنزل، فوضعتُ يدي على خطمه ثمّ نظرتُ إلى الخارج.

رأيتُ والدي وقد دخل إلى المستودع وفتح بسرعةٍ وبلا ضجيج البابَ المؤدّي إلى الشّارع، ثمّ عاد وأغلقه بالطّريقة نفسها بعد دخولِ رجلين يحملان على أكتافهما حزَماً ثقيلة.

فوضع والدي إصبعاً على شفتيه وبيده الأخرى التي كان يحمل بها قنديلاً، أشار إلى العربة التي كنّا نائمَين فيها. هذا يعني أنّهم كان عليهم ألاّ يُصدروا ضجيجاً حتّى لا يوقظونا.

أثّرَتْ بي التفاتته وخطر لي أن أصرخ له بأن لا داعي أن يزعج نفسه من أجلي فأنا لستُ نائماً، ولكنّني لم أقل شيئاً حتّى لا أوقظ ماتيا الذي ربّما كان نائماً بهدوء.

ساعد والدي الرّجلين على إنزال حملهما، ثمّ اختفى برهة قبل أن يعود مع والدتي. خلال غيابه، كان الرّجلان قد فتحا الحِزَم. كانت إحداها ملأى بقطع القماش، والأخرى بملابس محوكة من كنزات وسراويل وجوارب وقفّازات.

ففهمتُ ما كان قد فاجأني أوّل الأمر: كان هذان الرّجلان بائعَين أتيا يبيعان بضاعتهما لوالديّ.

كان والدي يأخذ كلّ غرضٍ ويتفحصه على ضوء القنديل، ثمّ يمرّره إلى والدتي التي كانت بواسطة مقصّ صغير تنزع بطاقاته وتضعها في جيبها.

بدا لي هذا غريباً، على غرار الوقت المختار لإجراء هذه الصّفقة.

كان والدي، أثناء فحصه الأغراض، يتوجّه إلى الرّجلين اللّذين أحضرا البضاعة ببعض الكلمات بصوتٍ منخفض. لو كنتُ أفهم الإنجليزيّة لكنتُ فهمتُ ربّما ما يُقال، ولكنّ المرء لا يجيد سمْع ما لا يفهمه. ولم أفهم إلاّ كلمة «بوليسمان»، أي شرطيّ، التي تكرّرت أكثر من مرّة.

بعدما تمّ فحص مُحتوى الرّزَم بدقّة، خرج والداي والرّجلان من المستودع ليدخلوا المنزل، ومن جديدٍ حلّت الظّلمة من حولنا. كان واضحاً أنّهم ذهبوا لإجراء الحساب.

أردتُ أن أقولَ في نفسي إنّ ما رأيتُه ولا أكثر طبيعيّة، ولكنّني لم أنجح في إقناع نفسي بذلك رغم كلّ إرادتي الصّادقة. فلمَ لم يدخل الرّجلان عند والديّ من جهة ساحة الأسد الأحمر؟ ولمَ جرى الحديث عن الشّرطة بصوتٍ منخفض كما لو كانوا يخشون أن يسمعهم أحد؟ ولمَ قصّت والدتي البطاقات المعلّقة بالأغراض التي كانت تشتريها؟

لم تكن هذه التّساؤلات لتسمح لي بالنّوم. وبما أنّني لم أكن أحير لها جواباً حاولتُ عبثاً أن أطردها من فكري. وبعد قليلٍ، أبصرتُ الضّوء يغمر عربتنا من جديدٍ، ومن جديدٍ نظرتُ من فتحة ستارتي. كنتُ في المرّة السّابقة قد نهضتُ لأرى وأستطلع بعفويّة، أمّا في هذه المرّة فقد فعلتُ ذلك رغماً عنّي. كنتُ أقول في نفسي إنّه لا يجدر بي أن أنظر ومع ذلك كنتُ أفعل. وكنتُ أقول في نفسي إنّه ربّما كان من الأفضل ألاّ أعرف، ومع ذلك كنت أريد أن أعرف.

كان والداي بمفردهما. وفي الوقت الذي كانت والدتي توضّب فيه الأغراض بسرعة في رزمتين، كان والدي يكنس إحدى زوايا المستودع. وتحت الرّمل النّاشف الذي كان هو يُبعده بضربات المكنسة

سرعان ما ظهرت في الأرض حفرة لها غطاء. رفع والدي الغطاء، ولمّا كانت والدتي قد انتهت من ربط الرّزمتين، قام هو بإنزالهما عبرَ تلك الحفرة إلى قبوٍ لم أتمكّن من رؤية مدى عمقه، فيما كانت هي تُضيء له المكان بالقنديل. ولمّا أنزل الرّزمتين، عاود الصّعود وأغلق الغطاء وبالمكنسة أعاد تغطيتها بالرّمل الذي كان قد أبعده. وعندما انتهى كان من المتعذّر رؤية المكان الذي توجد فيه الفتحة. فعلى الرّمل نثرَ كلاهما عيدانَ قشّ كما كانت الحال في كلّ أرضيّة المستودع.

وخرجا.

وفي اللّحظة التي أغلقا فيها الباب بهدوء، بدا لي أنّ ماتيا تحرّك في فراشه كما لو كان يضع رأسه على وسادته.

هل رأى ما جرى؟

لم أجرؤ أن أسأله. فالرّعب الذي يخنقني لم يعد مُبهماً، وعرفتُ لمَ كنتُ خائفاً. كنتُ أسبح في عرقٍ بارد من أعلى رأسي حتّى أخمص قدمي.

بقيتُ هكذا طوال اللّيلة. ثمّ أعلن لي ديكٌ صاح في الأنحاء عن اقتراب الصّباح، وعندئذٍ فقط غفوت ولكنّه كان نوماً ثقيلاً ومحموماً، مفعماً بالكوابيس القلقة التي كانت تخنقني.

أيقظني صوتُ قفل، وفُتح باب عربتنا. ولكنّني تصوّرتُ أنّ والدي هو الذي أتى يقول لنا إنّ وقت النّهوض قد حان، فأغمضتُ عينيّ حتّى لا أراه.

فقال لي ماتيا:

- إنّه شقيقك، وقد أفرجَ عنّا. لقد ابتعد.

فنهضنا. لم يسألني ماتيا ما إذا كنتُ قد نمتُ جيّداً وأنا بدوري لم أطرح عليه أيّ سؤال. ولمّا نظر إليّ للحظة أدرتُ وجهي.

كان يجب أن ندخل المطبخ، ولكن أيّاً من والدي ووالدتي لم يكن موجوداً. كان جدّي جالساً في كرسيّه أمام الموقد كما لو لم يتحرّك منذ ليلة البارحة، فيما كانت شقيقتي البكر، وتُدعى آنّي، تمسح الطّاولة وشقيقي الكبير آلن يكنس الأرضيّة.

اتّجهتُ صوبهما لأصافحهما لكنّهما استمرّا في عملهما ولم يردّا عليّ.

فاستدرتُ صوب جدّي ولكنّه لم يدَعْني أقترب منه، وعلى غرار ما حصل في الأمس، بصق ناحيتي، ممّا أوقفني في مكاني.

فقلتُ لماتيا:

– اسألْهم في أيّة ساعةٍ سأرى أمّي وأبي هذا الصّباح.

فعل ماتيا ما طلبتُه، ولمّا سمع جدّي كلاماً بالإنجليزيّة صار أكثر رقّة وذهب عن محيّاه بعضُ جموده المخيف ورضيَ بأن يجيب.

فسألتُ:

– ماذا يقول؟

– قال إنّ والدك خرج ولن يعود قبل المساء، وإنّ أمّك نائمة وإنّ بوسعنا أن نخرج للتّنزّه.

– أهذا كلّ ما قاله؟ سألتُ ماتيا وقد بدت لي التّرجمة قصيرة جدّاً.

فبدا ماتيا مرتبكاً وقال:

– لستُ واثقاً من أنّني فهمتُ الباقي.

– قلْ ما فهمتَه.

– يبدو لي أنّه قال إنّنا إذا ما واتتنا فرصة جيّدة في المدينة فيجب

عدم تضيـيعها. وأنا واثق من أنّه أضاف ما يلي: «احفظْ هذا الدّرس: ينبغي أن نعيش على حساب الأغبياء».

لا بدّ أنّ جدّي خمّن ما يشرحه لي ماتيا، لأنّه عند هذه الكلمات الأخيرة قام بيده الصّحيحة بإيماءةٍ تحاكي وضع شيء في جيبه مرافقاً إيماءته بغمزة.

فقال لي ماتيا:

- فلنخرج.

وطوال ساعتين أو ثلاث، تمشّينا في أنحاء ساحة الأسد الأحمر، دون أن نجرؤ على الابتعاد خوفاً من أن نضيع. وقد بدَت لي بثنال-غرين نهاراً أشدّ فظاعةً ممّا بدت عليه ليلاً بالأمس. ففي كلّ مكان، في البيوت وعلى النّاس، كان يرتسم البؤس بشكلٍ حزين.

كنّا أنا وماتيا ننظر ولا نقول شيئاً.

استدرنا على أعقابنا لنجد نفسَينا عند طرف باحتنا فدخلنا المنزل.

كانت والدتي قد غادرت غرفتها. لمحتُها من الباب تسند رأسها إلى الطّاولة، فتخيّلتُ أنّها مريضة وهرعتُ صوبها لأقبّلها بما أنّني لم أكن قادراً على التّكلّم معها.

ضممتُها بين ذراعيّ، فرفعت رأسها مؤرجحةً إيّاه ثمّ نظرت إليّ دون أن تراني. فشممتُ رائحة شراب العرعر التي كانت تصدر عن لهاثها الحارّ. فتراجعت. وعادت هي لتلقي رأسها على ذراعيها على الطّاولة.

- إنّه شراب مُسكِر، قال جدّي ونظر إليّ ساخراً وهو يقول كلمات لم أفهمها.

في البداية بقيتُ جامداً كما لو كنتُ عديم الشّعور، ثمّ بعد ثوانٍ قليلة نظرتُ إلى ماتيا الذي كان بدوره ينظر إليّ وعيناه مبلّلتان بالدّموع.

فأشرتُ له ومن جديدٍ خرجنا.

طويلاً مشينا جنباً إلى جنب، مشبوكي الأيدي، لا نقول شيئاً، سائرَين إلى الأمام لا نقصد وجهة محدّدة.

فسألني ماتيا بقلق واضح:

- إلى أين أنت ذاهب بهذه الشّاكلة؟

- لا أعرف. إلى أيّ مكان يمكننا أن نتحدّث فيه. يجب أن أتكلّم معك ولن أقدر على ذلك هنا، بين كلّ هذا الحشد.

في الواقع، في حياتي المتجوّلة عبر الحقول والغابات، اعتدتُ، كما علّمنيه فيتاليس، ألاّ أقول أبداً الأشياء المهمّة ونحن في وسط شارع في مدينة أو قرية. فلمّا كان المارّة يُزعجونني كنتُ أفقد فوراً تسلسل أفكاري. وفي تلك اللّحظة، كنتُ أريد التّحدّث إلى ماتيا بجدّيّة وأنا مدركٌ تماماً ما سأقوله.

وفي اللّحظة التي كان ماتيا يطرح عليّ فيها هذا السّؤال، وصلنا إلى شارع أعرض من الأزقّة التي كنّا خرجنا منها للتوّ وبدا لي أنّني ألمح أشجاراً في نهاية الشّارع. ربّما كان ذلك هو الرّيف، فاتّجهنا إلى تلك النّاحية. ولكنّه لم يكن الرّيف، بل متنزّه ضخم فيه مساحات شاسعة مغطّاة بالعشب الأخضر ومجموعات من الأشجار الصّغيرة تتوزّع هنا وهناك. هناك كان يمكننا أن نتحدّث بقدر ما نشاء.

كنتُ قد اتّخذتُ قراري وأعرف ما أريد قوله. فقلتُ لرفيقي ما إن

جلسنا في مكانٍ منعزل وبعيد:

- أنت تعرف أنّي أحبّك يا صغيري ماتيا. وتعرف جيّداً أنّ مودّتي هي التي دفعتني لأن أطلب منك مرافقتي عند عائلتي. لذا فأنت لن تشكّ بمودّتي وصداقتي مهما طلبتُ منك، أليس كذلك؟

- كم أنت غبيّ! أجابني وهو يحاول الابتسام.

- أنت تريد أن تضحك حتّى لا أضعف، ولكن لا بأس إذا ما ضعفت. فمع مَن سواك يمكنني أن أبكي؟

ثمّ ارتميتُ بين ذراعيه وغرقتُ في البكاء. لم أشعر يوماً بمثل هذه التّعاسة عندما كنتُ وحدي تائهاً في وسط هذا العالم الشّاسع.

وبعد نوبة البكاء تلك، حاولتُ أن أهدأ. فأنا لم أُحضِر ماتيا إلى تلك الحديقة حتّى أجعله يشفق عليّ. أنا لم أحضره إلى هناك من أجلي بل من أجله هو.

فقلتُ له:

- ماتيا، يجب أن ترحل، أن تعود إلى فرنسا.

- أن أتركك؟ هذا مستحيل.

- كنتُ أعرف مسبقاً أنّ هذا هو ما ستجيبني به، وأنا سعيد، سعيد جدّاً، أؤكّد لك ذلك، إذ أسمعك تقول لي إنّك لن تتركني أبداً. ومع ذلك يجب أن تتركني وأن تعود إلى فرنسا أو إيطاليا، إلى حيث تشاء، لا يهمّ، شرط ألاّ تبقى في إنكلترا.

- وأنت؟ إلى أين ستذهب؟ إلى أين تريدنا أن نذهب؟

- أنا! يجب أن أن أبقى هنا في لندن مع عائلتي. أليس من واجبي أن أبقى قرب والديّ؟ خذ ما بقيَ معنا من نقود وارحل.

- لا تقلْ هذا يا ريمي، إن كان على أحدٍ أن يرحل فهو بالعكس أنت.

- لِمَ؟

- لأنّ...

ولكنّه لم يكمل عبارته وأدار وجهه أمام نظراتي المتسائلة.

- ماتيا، أجِبني بكلّ صراحة، دونَ مراعاةٍ لي وبلا خوف. أنت لم تكن نائماً البارحة، وقد رأيتَ، أليس كذلك؟

فظلّ خافضاً عينيه وقال بصوتٍ مخنوق:

- لم أكن نائماً.

- وماذا رأيت؟

- كلّ شيء.

- وهل فهمت؟

- فهمتُ أنّ مَن كانا يبيعان تلك البضاعة لم يشترياها. والدك وبّخهما لأنّهما قرعا على باب المستودع لا على باب المنزل. فأجاباه بأنّهما كانا مُراقبَين من قبل الشّرطة.

- أترى؟ هذا يعني أنّه يجب أن ترحل، قلتُ له.

- إذا كان عليّ أن أرحل فعليك أن تفعل مثلي أنت أيضاً، فهذا ضروريّ لي بقدر ما هو ضروريّ لك.

- عندما طلبتُ منك مرافقتي كنتُ أظنّ، بحسبِ ما قالته لي السيّدة باربُران، وبحسبِ ما كنتُ أحلم به أنا أيضاً، أنّ عائلتي ستضطلع بتثقيفنا وتعليمنا معاً وأنّنا لن نفترق أبداً. ولكنّ الأمور مختلفة، فالحلم كان... حلماً. ينبغي إذن أن نفترق.

- هذا مستحيل!

- اسمعني جيّداً وافهمني ولا تزد من حزني. لو أنّنا كنّا قد التقينا في باريس بغاروفولي، وقام هو باستعادتك، فأنت ما كنت سترضى بأن أبقى معك، أليس كذلك؟ وما أقوله لك في هذه اللّحظة كنتَ ستقوله لي أنت.

فلم يُجِب.

- أليس هذا صحيحاً؟ قل لي إنّ هذا صحيح.

وبعد لحظةٍ من التّفكير قال:

- اسمعْني أنتَ بدورك. اسمعني جيّداً. عندما حدّثتني في شافانون عن عائلتك التي تبحث عنك، أحزنني الأمر بشدّة. كان يجب أن أفرح لمعرفة أنّك ستجد عائلتك ولكنّني كنتُ بالعكس متضايقاً. وبدل أن أفكّر في فرحك وسعادتك، لم أفكّر إلاّ في نفسي. فقد قلتُ في نفسي إنّه سيكون لك إخوة وأخوات ستحبّهم كما تحبّني وربّما أكثر، إخوة وأخوات أثرياء، حسنو التّربية، متعلّمون، أسياد ذوو وسامةٍ وآنسات جميلات، وقد شعرتُ بالغيرة. هذا ما يجب أن تعرفه، هذه هي الحقيقة التي يجب أن أعترف لك بها لكي تسامحني، إذا كنتَ قادراً على أن تسامحني على مشاعر هي على هذا القدر من السّوء.

- آه! ماتيا!

- قلْ، قلْ لي إنّك تسامحني.

- من كلّ قلبي. كنتُ قد رأيتُ حزنك ولم أنْحُ عليك باللاّئمة أبداً.

- هذا لأنّك غبيّ! أنت غبيّ شديد الطّيبة. يجب أن نلوم مَن يتصرّفون بطريقة شرّيرة، وأنا كنتُ شرّيراً. ولكن إن كنتَ تسامحني لأنّك طيّب فأنا لا أسامح نفسي لأنّي لستُ طيّباً. لم أقلْ لك كلّ شيء بعد؛ كنتُ أقول في نفسي: «سأذهب معه إلى إنكلترا لاستيضاح الأمور. ولكن عندما يصير سعيداً، سعيداً جدّاً، وعندما لا يعود لديه الوقت للتّفكير فيّ سوف أهرب، وأذهب إلى لوكا دون توقّفٍ، وهناك أرى كريستينا». ولكن بدل أن تكون ثريّاً وسعيداً، كما ظنّنا، ها أنت غير ثريّ و...، أعني أنّك لستَ ما كنّا نظنّ أنّك سوف تكون. ولذا يجب ألاّ أرحل، وليست كريستينا، ليست أختي الصّغيرة هي من يجب أن أكون قربه، بل رفيقي وصديقي وأخي ريمي.

قال ذلك ثمّ أخذ يدي وقبّلها. فامتلأت عيناي بالدّموع لكنّها لم تعد مريرة وحارقة كتلك التي ذرفتُها قبل قليل.

ولكن رغم عظيم تأثّري، فإنّني لم أتخلَّ عن فكرتي:

- يجب أن ترحل. يجب أن تعود إلى فرنسا وأن ترى ليز والأب آكان والسيّدة باربُران وكلّ أصدقائي وأن تقول لهم لماذا لا أفعل من أجلهم كلّ ما أردتُ فعله وما حلمتُ به ووعدتُ به. ستشرح لهم أنّ أهلي ليسوا أثرياء كما حسبنا وسيكون هذا عذراً كافياً. أنت تفهم أليس كذلك؟ إنّهم ليسوا أثرياء، وهذا يفسّر كلّ شيء: فليس عيباً ألاّ نكون أثرياء.

- أنت لا تريدني أن أرحل لأنّهم ليسوا أثرياء، ولذا فإنّني لن أرحل.

- أرجوك يا ماتيا، لا تزد من ألمي، فأنت ترى مدى عُظْمه.

- أوه! لا أريد إرغامك على أن تقول لي ما تشعر بالعار من شرحه. فأنا لستُ حاذقاً ولا ذكياً، ولكن إن كنتُ لا أفهم كلّ ما يجب أن يدخل ههنا - قال ذلك وضرب على رأسه - فإنّني أشعر بما يصيبني هنا - ووضع يده على قلبه. أنت لا تريدني أن أرحل لأنّ والديك فقيران، ولأنّهما غير قادرين على إطعامي، لأنّني لن أكون عالةً عليهما وسأعمل من أجلهما، بل لأنّك... لأنّك خائفٌ عليّ بعد ما رأيتَه ليلة أمس، أنت خائف عليّ.

- لا تقلْ هذا يا ماتيا.

- أنت خائفٌ أن يصل بي الأمر إلى حدّ تجريد البضائع غير المشتراة من بطاقاتها.

- أوه! اسكتْ يا ماتيا، اسكتْ يا صغيري ماتيا!

وأخفيتُ وجهي المحمرّ خجلاً بيديّ.

فتابع ماتيا:

- حسناً! إن كنتَ خائفاً عليّ، فأنا خائفٌ عليك أيضاً، ولهذا السّبب أقول لك: فلنرحل معاً، فلنعد إلى فرنسا لنرى من جديدٍ السيّدة باربُران وليز وأصدقاءك.

- هذا مستحيل! فأنت لا يربطك بوالديّ شيء، لذا أنتَ لا تدين لهما بشيء. أمّا أنا، فهما والداي وعليّ البقاء معهما.

- والداك؟! ذلك العجوز المقعد هو جدّك؟! وتلك المرأة النّائمة على الطّاولة هي والدتك؟!

فقمتُ بسرعة، وبنبرةٍ آمرة وغير مترجيّة هذه المرّة صرخت:

- اسكت يا ماتيا، أمنعك من التّحدّث بهذا الشّكل! فأنت

تتحدّث عن جدّي وعن والدتي: عليك أن تحترمهما وأن تحبّهما.

- عليكَ أن تفعل ذلك إذا كانوا فعلاً أهلك. ولكن إذا لم يكونوا لا جدّك ولا والدك ولا والدتك، فهل لزامٌ عليك أن تُكرمهما وتحبّهما؟

- ألم تسمع رواية والدي؟

- وماذا تُثبت تلك الرّواية؟ لقد فقدوا طفلاً بمثل سنّك وبحثوا عنه ووجدوا واحداً في السنّ نفسها للولد الذي أضاعوه. هذا كلّ شيء.

- أنت تنسى أنّ الطّفل الذي سُرق منهما قد تُرك على جادّة بروتوي، وأنا عُثر عليّ في جادّة بروتوي في اليوم ذاته الذي ضاع فيه طفلهما.

- وما الذي يمنع في أن يكون طفلان قد تُركا في جادّة بروتوي في اليوم نفسه؟ ما الذي يمنع أن يكون مفوّض الشّرطة أخطأ بإرساله السيّد دريسكول إلى شافانون؟ هذا ممكن.

- هذا عبثيّ.

- ربّما. يمكن أن يكون ما أقوله وما أشرحه عبثيّاً، لا لشيءٍ إلاّ لأنّني لا أحسن قوله وتفسيره ولأنّ ذكائي محدود. ولو شرح ذلك أيّ شخص سواي بطريقةٍ أفضل ممّا أفعل لبدا ذلك منطقيّاً. كلّ ما في الأمر أنّني أنا العبثيّ.

- ليس هذا كلّ شيء للأسف.

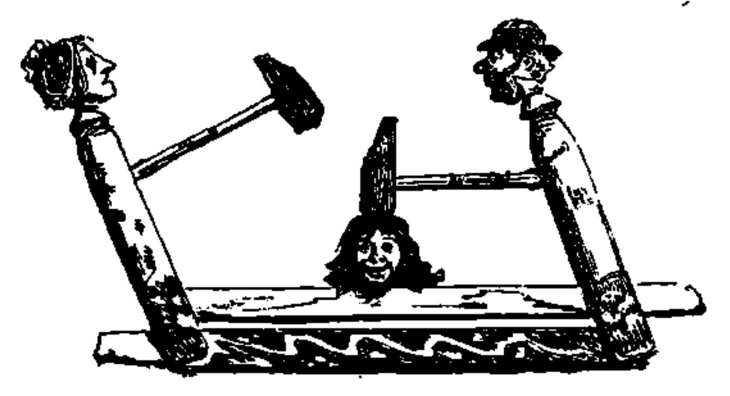
- ثمّ إنّه ينبغي أن تلاحظ أنّك لا تشبه لا والدك ولا والدتك، وأنّك لستَ أشقر الشّعر على غرار أخويك وأختيك. هُم جميعاً، جميعاً، أتسمعني؟ لهم الشقرة ذاتها. فلمَ لستَ شبيهاً بهم؟ من جهة

أخرى، ثمّة أمرٌ غريب: من أين لأناسٍ غير أثرياء أن ينفقوا هذا القدر من المال للعثور على طفل؟ لكلّ هذه الأسباب مجتمعةً، أنا أعتقد أنّك لستَ من آل دريسكول. أعرف جيّداً أنّني لستُ سوى غبيّ، فلطالما قيل لي هذا، ورأسي هو السّبب. ولكنّك لستَ من آل دريسكول ولا يجدر بك البقاء معهم. ولكن إن أردتَ رغم كلّ شيء البقاء معهم، فإنّني باقٍ معك. ولكن اكتبْ للسيّدة باربُران لتسألها أن تصف لنا على وجه التّحديد الأقمطة التي كنتَ ملفوفاً بها. وعندما تصلنا رسالتها، وجّهِ السؤالَ ذاته إلى مَن تدعوه أنتَ والدك وعندئذٍ تتّضح لنا الأمور بشكلٍ أفضل. وحتّى ذلك الوقت، لن أتزحزح من هنا وسأبقى معك رغم كلّ شيء. وإذا ما توجّب العمل، فسنعمل معاً.

- ولكن ماذا لو جاء يومٌ وضُرِب فيه ماتيا على رأسه؟

فابتسم بحزن وأجاب:

- لن يكون هذا هو الأصعب. فهل الضّرب مؤلمٌ عندما نتلقّاه من أجلِ صديق؟





كابي ينحرف عن سواء السّبيل

لم نعد إلى ساحة الأسد الأحمر إلاّ مع هبوط اللّيل. فقد أمضينا كلّ نهارنا بالتّجوّل في ذلك المتنزّه الجميل، ونحن نتحدّث، بعدما تغدّينا برغيفِ خبزٍ اشتريناه.

كان والدي قد عاد إلى المنزل، ووالدتي قامت من النّوم، ولكنّ أيّاً منهما لم يقل لنا شيئاً بخصوص الوقت الطويل الذي استغرقته نزهتنا. وبعد العشاء قال لنا والدي إنّه يريد التّحدّث إلينا، أنا وماتيا، واصطحبَنا أمام المدفأة. فهمهمَ العجوز الذي كان واضح الشراسة في الدّفاع عن حصّته من النّار.

سألَنا والدي:

- أخبراني كيف تكسبان رزقكما في فرنسا؟

فشرحتُ له ما يطلبه.

- ألمْ تخشيا يوماً الموت جوعاً؟

- كلاّ، على الإطلاق. فنحن لم نكسب رزقنا فحسبُ بل كسبنا كذلك ما يكفي لشراء بقرة، قال ماتيا بثقة.

وبدوره روى كيف اشترينا البقرة.

فسألَنا والدي:

- هذا يعني أنّكما موهوبان حقّاً؟ أرِياني قليلاً ما أنتما قادران على

عمله.

تناولتُ قيثارتي وعزفتُ لحناً، ولكنّني لم أعزف أغنيتي النّابوليتانيّة.

فقال والدي:

- حسناً، حسناً. وماتيا، ما الذي يجيد عمله؟

فقام ماتيا بدوره بعزف مقطوعةٍ على الكمنجة وأخرى على البوق.

فنالت الأخيرة تصفيق الأطفال الذين كانوا يستمعون إلينا وهم محيطون بنا دائريّاً.

ثمّ سأل والدي:

- وكابي؟ ما الذي يجيد عمله؟ فأنا لا أعتقد أنّكما تقودان معكما كلباً في سبيل التّرفيه لا غير. لا بدّ أنّه قادر على كسب قُوته على الأقلّ.

كنتُ فخوراً بمواهب كابي، ليس كرمى له فحسب، بل كرمى لفيتاليس أيضاً. فطلبتُ منه أن يؤدّي لنا بعض ألاعيب الخفّة التي يجيدها، ففازَ كالعادة بتصفيق الأطفال.

قال والدي:

- ولكنّ هذا الكلب ثروة!

فأجبتُ على هذا الإطراء بأن امتدحتُ كابي مؤكّداً قدرته على أن يتعلّم في وقتٍ قصير كلّ ما نفعله أمامه، حتّى ما تعجز الكلاب عادةً عن فعله.

ترجم والدي كلامي إلى الإنجليزيّة وبدا لي أنّه يضيف إليه بعض الكلمات التي لم أفهمها والتي أضحكتِ الجميع: والدتي والأطفال وجدّي الذي غمز عدّة مرّاتٍ وهو يهتف: «إنّه كلبٌ مرهف!». ولكنّ كابي لم يأبه بكلّ هذه الإطراءات.

وتابع والدي:

- في ظلّ هذه الظّروف، إليكم ما أقترحه. ولكن قبل كلّ شيء يجب أن يقول ماتيا إن كان يناسبه البقاء في إنكلترا والعيش معنا.

فأجاب ماتيا، وكان أكثر دهاءً ممّا كان يقول وحتّى ممّا كان يظنّ:

- أرغب في البقاء مع ريمي، وسأذهب أينما يذهب هو.

لم يخمّن والدي كلّ ما تضمره هذه الإجابة، وبدا راضياً عنها. فقال:

- طالما أنّ الأمر كذلك، أعود إلى اقتراحي: نحن لسنا أثرياء، وكلّنا نعمل لنعيش. في الصّيف نجول في إنكلترا، ويذهب الأطفال لبيع بضاعتي لمن لا يريدون أن يتكبّدوا عناء المجيء إلينا. ولكن في الشّتاء، ليس لدينا الكثير لنعمله. خلال وجودنا في لندن، يمكن أن يذهب ريمي وماتيا لعزف الموسيقى في الشّوارع، وأنا واثق من أنّهما سيكسبان عمّا قريب مدخولاً جيّداً، خصوصاً عندما يقترب عيد الميلاد وما نسمّيه هنا «سهرات العيد». ولكن بما أنّه ينبغي عدم تبديد الجهود، فإنّ كابي سيرافق آلن ونيد ليقدّم العروض برفقتهما.

لم أكن قادراً على تقبّل فكرة الانفصال عن كابي، فأجبتُ بسرعة:

- ولكنّ كابي لا يعمل جيّداً إلاّ عندما يكون معي.

- لا تقلق، سيتعلّم أن يعمل مع آلن ونيد. فبتفريقكم على هذه الشّاكلة ستكسبون أكثر.

- ولكنّني أؤكّد لك أنّه لن يجيد عمل شيء. كما أنّ دخْلنا أنا وماتيا سينقص بغيابه. فوجوده معنا سيجعلنا نكسب أكثر.

فقال لي والدي:





- كفى نقاشاً! عندما أقول أمراً ما، أنتظر أن يُنفّذ على الفور. كذلك هي القاعدة في هذا المنزل، وأنا أنتظر منك أن تحترمها كما يفعل الجميع.

لم يكن بالإمكان إضافة شيء، فلزمتُ الصّمت. ولكنّني كنتُ في سرّي أفكّر أنّ أمنياتي لكابي بدأت تخيب شأنها شأن أمنياتي لنفسي. سنفترق إذن! يا لتعاستِنا نحن الاثنين!

ذهبنا إلى عربتنا للنّوم ولكن في تلك اللّيلة لم يُقفل والدي علينا.

وفيما كنتُ أستعدّ للنّوم، اقترب ماتيا منّي، وقد لزمه وقتٌ أطول لخلع ملابسه، وهمس في أذني بصوتٍ خفيض:

- أترى أنّ ما تسمّيه والدك لا يصرّ على تشغيل الأولاد فحسب، بل الكلاب أيضاً. ألا يفتح لك هذا عينيك أخيراً؟ غداً نكتبُ للسيّدة باربُران.

ولكن في اليوم التّالي كان علينا أن نشرح لكابي تطوّر الأمور. فحملتُه بين ذراعيّ وشرحتُ له بهدوء وأنا أقبّله على خطمه، ما أنتظره منه. يا للكلب المسكين! لو ترون كيف كان ينظر إليّ ويستمع إلى ما أقول.

وعندما وضعتُ مِقوده في يد آلن، كرّرتُ له شروحي. وقد كان من الذّكاء والطّاعة بحيث لحقَ بشقيقيّ حزيناً ولكن دون أن يبدي مقاومة.

أمّا أنا وماتيا، فقد أراد والدي أن يأخذنا إلى حيّ يمكن أن نكسب فيه مدخولاً جيّداً. فاجتزنا لندن بكاملها قبل أن نصل إلى جزءٍ من المدينة ليس فيه إلاّ منازل جميلة تملأها الأروقة، ترتفع في

شوارع ضخمة تحيط بها الحدائق: في تلك الشّوارع الرّائعة والعريضة الأرصفة لم نرَ فقراء يرتدون الأسمال وعليهم علامات التضوّر جوعاً، بل سيّدات جميلات بملابس زاهية وعربات تلمع نوافذها كالمرايا وخيول رائعة يقودها حوذيّون سمينون وضخام شعورهم مزيّنة بالمساحيق.

لم نرجع إلى ساحة الأسد الأحمر إلاّ في وقتٍ متأخّر لأنّ المسافة بين «ويست-آند» وبثنال-غرين طويلة، فكنتُ سعيداً للقاء كابي الذي وجدتُه ملوّثاً بالطّين ولكن رائق المزاج.

كنتُ سعيداً جدّاً لرؤيته من جديدٍ حتّى أنّني بعدما فركتُه جيّداً بالقشّ اليابس، ألبستُه فروة الخروف الخاصّة بي وأنمْتُه في سريري. من منّا كان أكثر سعادةً، أنا أم هو؟ من الصّعب الإجابة على ذلك.

استمرّت الأمور على هذه الحال عدّة أيّام. كنّا نذهب في الصّباح ولا نعود قبل المساء بعدما نكون عزفْنا رصيدنا الموسيقيّ في هذه الحارة أو تلك، فيما كان كابي يذهب من جهته لتقديم العروض تحت إشراف آلن ونيد. ولكن ذات مساء، قال لي والدي إنّ بوسعي اصطحاب كابي معي في اليوم التّالي إذ سيبقى آلن ونيد في المنزل.

أفرحَنا هذا كثيراً ووعدنا نفسَينا أنا وماتيا بأن ننجح في تحصيل دخلٍ جيّدٍ برفقة كابي علّ والدي يسمح له ببقائه دوماً معنا. وفي سبيل استعادة كابي، لم نألُ أنا وماتيا جهداً.

ولذلك نظّفناه في الصّباح، وبعد الفطور انطلقنا إلى الحيّ الذي بتنا نعرف عن تجربةٍ أنّ «الحضور الكريم» يكافئنا فيه بيُسر. ومن أجل ذلك كان علينا اجتياز لندن بكاملها من الشّرق إلى الغرب مروراً بـ

«أولد ستريت» وهولبورن وأوكسفورد ستريت.

لكنّ الضّباب المسيطر منذ يومين كان يعيق نجاح مشروعنا للأسف. كانت السّماء، أو ما يمكن أن نسمّيه سماءً في لندن، عبارة عن سحابةٍ من الأبخرة البرتقاليّة، أمّا في الشّوارع فيطفو دخانٌ رماديّ يمنع الرّؤية أبعد من بضع خطوات. وفي مثل ذلك الجوّ كان النّاس قليلي الخروج، ومن كان منهم يستمع إلينا من خلف النّوافذ كان يستحيل عليه رؤية كابي. كانت هذه ظروف سيّئة لمدخولنا. لذا راح ماتيا يلعن الضّباب ويسبّه، غير عارفٍ بالخدمة التي سيُسديها لنا بعد لحظات.

كنّا نمشي بسرعة حريصين على أن يبقى كابي في أعقابنا. فكنتُ أكلّمه من حين لآخر لأنبّهه على ذلك، وكانت هذه الطّريقة أفضل من ألف سلسلة. إلى أن وصلنا إلى شارع هولبورن المعروف بكونه الشّارع التّجاريّ الأكثر اكتظاظاً في لندن. فانتبهتُ فجأةً إلى أنّ كابي لم يعد يتبعنا. إلى أين تراه ذهب؟ كان ذلك تصرّفاً غير معهود منه. فتوقّفتُ لأنتظره في مدخل أحد الممرّات، ورحتُ أصفر بهدوء إذ لم يكن بوسعنا أن نرى بعيداً. كان القلق قد تمكّن منّي وكنتُ خائفاً من أن يكون كابي قد سُرق وإذا به يصل راكضاً وهو يحمل في شدقيه زوجاً من الجوارب الصّوفيّة قدّمها إليّ وهو يهزّ ذيله فرحاً. كان يبدو عليه الزّهو الشّديد كما لو أنّه نجح في تقديم أحد أصعب ألعاب الخفّة وأتى يسأل تهنئتي.

حصل ذلك في ثوانٍ قليلة بقيتُ خلالها مصعوقاً. وها إنّ ماتيا يتناول الجورب بيد وباليد الأخرى يقودني إلى داخل الممرّ ويقول:


AND

- فلنمشِ بسرعة ولكن دون أن نركض.

ولم يفسّر لي سبب هروبنا إلاّ بعد دقائق طويلة:

- كنتُ أتساءل مثلك عن مصدر هذين الجوربين وإذا بي أسمع رجلاً يقول: أين السّارق؟ والسّارق كان كابي، تفهم ذلك. لولا الضّباب لقُبض علينا بتهمة السّرقة.

كنتُ أفهم ذلك تماماً، فبقيتُ للحظةٍ أشعر بالاختناق: لقد حوّلوا كابي الطيّب والنّزيه إلى سارق!

فقلتُ لماتيا:

- فلنعد إلى المنزل. أمسكْ بكابي من سلسلته.

لم ينبس ماتيا ببنت شفة، وعُدنا إلى ساحة الأسد الأحمر ونحن نحثّ الخطى. كان الوالد والوالدة والأطفال متجمّعين حول الطّاولة يطوون أقمشةً، فرميتُ زوج الجوارب على الطّاولة، ممّا أضحك آلن ونيد.



فقلتُ:

- هذا زوج جوارب سرقه كابي، لأنّه حُوِّل إلى سارق. أعتقد أنّ هذا كان للّهو.

كنتُ أرتجف وأنا أقول ذلك إلاّ أنّني لم أشعر يوماً بمثل هذا الإصرار.

فسألني والدي:

- وإن لم يكن هذا للّهو، فما ستفعل من فضلك؟

- سأربط كابي بحبلٍ في عنقه، ورغم حبّي الكبير له سأذهب لأغرقَه في نهر التّايمز. فأنا لا أريد أن يتحوّل إلى سارق، كما لن أصير أنا لصّاً. ولو كنتُ أتصوّر أنّ هذا سيحدث يوماً، لذهبتُ فوراً لأُغرقَ نفسي معه.

نظر إليّ والدي مباشرةً وقام بإيماءةٍ غاضبة كما لو كان يريد أن يصرعني بضربة. كانت عيناه تشتعلان ولكنّني لم أخفض عينيّ وشيئاً فشيئاً زال انقباض وجهه وقال:

- كنتَ محقّاً في اعتقادك أنّ ذلك كان للّهو. لذا، وحتّى لا يتكرّر الأمر، فإنّ كابي لن يخرج من اليوم وصاعداً إلاّ برفقتك.


Twitter: @ketab_n

الفصل السّادس عشر

كَذِبت الأقمطة الجميلة

كلّ محاولاتي للتقرّب من شقيقيّ نيد وآلن كانا يقابلانها بنفورٍ جافّ. وكلّ ما حاولتُ تقديمه لهما كانا يسيئان استقباله: كان واضحاً أنّني لم أكن شقيقاً في نظرهما.

وبعد ما حصل مع كابي، ارتسمت الأمور بيننا بوضوح، وجعلتهما يفهمان، ليس بالكلمات فأنا لم أكن أجيد التّعبير عن نفسي بسهولة بالإنجليزيّة، بل بإيماءاتٍ قويّة ومعبّرة لعبتْ فيها قبضتاي دوراً أساسيّاً، أقول جعلتُهما يفهمان أنّهما إن حاولا الإساءة لكابي فسيجدانني هنا للدّفاع عنه والانتقام له.

ولّما وجدتُ أنّه لم يعد لي أشقّاء، أردتُ أن تكون لي شقيقات. ولكنّ كبرى الفتاتين لم تكن تُبدي لي مشاعر أفضل من تلك التي كان يُبديها لي شقيقاها. وعلى غرارهما لم تستسغ هي محاولاتي في التقرّب منها ولم يكن يمرّ يوم دون أن تخضعني إلى واحدة من حيَلها التي يجدر الإقرار بأنّها كانت بارعة فيها.

وبعدما صدّني آلن ونيد وصدّتني آني، لم يبقَ لي إلاّ الصّغيرة كايتْ، التي كانت بسنيّها الثّلاث أصغر من أن تحاكي شقيقيها وشقيقتها في صدّي. لذا قبِلَت بملاطفاتي، في البداية لأنّني كنتُ أجعل كابي يقوم لها ببعض ألعاب الخفّة، وفيما بَعد عندما أُعيد كابي إليّ، لأنّني كنتُ

أحضر لها الملبّس والحلوى والبرتقال، كلّ ما كان الصّغار يقدّمونه لنا خلال عروضنا بكلّ رصانة قائلين: «هذا للكلب». لم تكن فكرةً شديدة الحصافة إعطاء البرتقال للكلب، ولكنّني كنتُ أقبَلُها بامتنان لأنّها ستسمح لي بكسبِ رِضا الآنسة كايت.

وهكذا، فمن بين كلّ أفراد عائلتي، هذه العائلة التي كنتُ أكنّ لها في قلبي قبل وصولي إلى إنكلترا قدراً كبيراً من المحبّة، لم يكن هناك إلاّ الصّغيرة كايت التي كانت تقبل حبّي. أمّا جدّي فقد استمرّ يبصق بغضب ناحيتي كلّما مررتُ قربه. ووالدي لم يكن يُعنى بي إلاّ ليطلب منّي كلّ مساء حصيلة نهارنا. ووالدتي كانت في معظم الوقت في عالمٍ آخر. أمّا آلن ونيد وآني فكانوا يمقتونني، ووحدها كايت كانت تسمح لي بملاطفتها لأنّ جيوبي كانت ملأى.

يا له من سقوط!

لذا ففي غمرة حزني، ومع أنّني رفضتُ في البداية شكوك ماتيا، وصل بي الأمر إلى حدّ القول في نفسي إنّني لو كنتُ فعلاً ابن هذه العائلة لكان أفرادها بادلوني مشاعر مختلفة عن تلك التي كانوا يبدونها لي من دون مُراعاة، لا سيّما وأنّني لم أفعل ما يستحقّ اللاّمبالاة والقسوة هاتين.

وعندما كان يراني ماتيا غارقاً في هذه الأفكار الحزينة، كان يحدس أسبابها ويقول لي كمَن يحدّث نفسه:

– أشعر بالفضول لمعرفة ما سيكون جواب السيّدة باربُران.

وللحصول على تلك الرّسالة التي كان يُفترض أن تصل باسمي إلى مكتب البريد، كنّا نبدّل مسارنا كلّ يوم، وبدل الذّهاب إلى هولبورن

عن طريق ويست-سميث-فيلد كنّا نستمرّ نزولاً إلى مكتب البريد. وظللنا حتّى وقتٍ طويل نقوم بهذه الرّحلة عبثاً، ولكن في النّهاية سلّموني الرّسالة التي كنّا ننتظرها بلهفة.

لم يكن مكتب البريد الرّئيسيّ مكاناً ملائماً للقراءة، لذا قصدنا مسلكاً في زقاق قريب، ممّا منحني الوقت لأُهدّئ من انفعالي. وهناك، تمكّنتُ أخيراً من فضّ رسالة السيّدة باربُران، الرّسالة التي أملتها على كاهن شافانون.

«صغيري ريمي،

إنّني لمتفاجئة ومنزعجة ممّا أعلمَتْني به رسالتك. فبحسبِ ما كرّره على مسامعي زوجي المسكين باربُران، بعدما عثر عليك في شارع بروتوي وكذلك بعدما تحدّث مع الشّخص الذي كان يبحث عنك، كنتُ أعتقد أنّ والديكَ ثريّان، لا بل ثريّان جدّاً.

وقد كانت ملابسك يوم عثر عليك باربُران وأحضرك إلى شافانون قد أكّدت لي ذلك. كانت الملابس تقول بوضوح إنّ ما ترتديه هو جزء من طاقم ملابس وليدٍ عائدٍ إلى أسرة موسرة. أنتَ تسألني أن أصف لكَ الأقمطة التي كانت تلفّك. يمكنني فعل ذلك بسهولة لأنّني احتفظتُ بكلّ هذه الأشياء لكي تساعدَ في التّعرّف إليك يومَ يأتي والداك للمطالبة بكَ، الأمر الذي كنتُ واثقة من حصوله.

ولكن دعني أقول لك أوّلاً إنّك لم تكن مقمّطاً. وإذا كنتُ حدّثتك أحياناً عن «أقمطة» فذلك على سبيل العادة لأنّ الأطفال عندنا يُقمّطون كلّهم. أمّا أنت فلم تكن مُقمّطاً، بل بالعكس كنتَ ترتدي ملابس. وإليك ما كنتَ ترتديه: قلنسوة من الدّانتيل تمتاز

بجمالها وفخامتها، وقميص من الكتّان الرّقيق يزيّن الدّانتيل ياقته وكمّيه، وحفاظ قطنيّ، وجوربان من الصّوف الأبيض، وخُفّان أبيضان حِيكا حياكةً وعليهما شرّابتان حريريّتان، ورداءٌ طويل من القطن الأبيض كذلك، وأخيراً معطفٌ من الكشمير الأبيض مبطّن بالحرير ينتهي بقلنسوة وتزيّنه تطاريز جميلة.

لم يكن حفاظك من الكتّان كباقي ملابسك لأنّهم بدّلوه لك عندما كنتَ في مكتب مفوّض الشّرطة واستبدلوه بفوطةٍ عاديّة.

ينبغي أن أضيفَ أخيراً أنّ أيّاً من هذه الملابس لم يكن يحمل علامة، لكنّ الحفاظ القطنيّ وقميص الكتّان يُفترض أنّهما كان يحملان علامة لأنّ الأطراف التي توضع عليها العلامة عادةً كانت قد قُطعت، ممّا يشير إلى أنّ خاطفك كان حريصاً على تضليل عمليّة البحث عنك.

هذا كلّ ما يمكنني قوله لك يا عزيزي ريمي. إذا كنتَ تظنّ أنّك بحاجة لهذه الملابس، فاكتب لي وسأبعث بها إليك.

ولا تحزن يا ولدي الحبيب لأنّك لا تقدر على منحي كلّ الهدايا الجميلة التي وعدتني بها. فالبقرة التي اشتريتَها وأنتَ توفّر من خبزك اليوميّ تساوي عندي كلّ هدايا العالم. يسرّني أن أقول لك إنّها لا تزال بصحّةٍ جيّدة وإنّ حليبها لا يزال مدراراً وبفضلها أعيش الآن براحة. وكلّما رأيتُها تذكّرتُك وتذكّرتُ رفيقك الصّغير الطيّب ماتيا.

سأكون سعيدة لو أطلعتَني على أخبارك كلّما استطعت، وآمل أن تكون دوماً أخباراً طيّبة. فكيف لا تكون، أنت الرّقيق والمُحبّ، سعيداً في عائلتك، بصحبة أبوَين وأشقّاء وشقيقات سيحبّونك كما تستحقّ؟

وداعاً يا عزيزي ريمي. قبلاتي الحارّة.

أمّكَ المُرضعة

الأرملة باربُران.»

إنّ خاتمة هذه الرّسالة جعلت قلبي ينقبض: مسكينة هي السيّدة باربُران، كم كانت طيّبة معي! حبُّها لي يجعلها تظنّ أنّ على الجميع أن يحبّوني بالقدر نفسه.

فقال ماتيا:

- إنّها امرأة طيّبة، فقد تذكّرتْني. وحتّى لو لم تأتِ على ذكري فإنّ ذلك ما كان سيمنع أن أشكرها على رسالتها. فمع الوصف الدّقيق الذي أعطتْه، يجدر بالسيّد دريسكول ألاّ يُخطئ في تعداد الملابس التي كنتَ ترتديها عندما سُرِقْتَ.

- يمكن أن يكون قد نسي.

- لا تقل هذا. كيف يمكن أن ننسى الملابس التي كان يرتديها الطّفل الذي فقدناه في اليوم الذي فقدناه فيه، فهذه الملابس هي التي ستساعد على العثور عليه.

- ولكن في انتظار جواب والدي، أرجوكَ أن تمتنع عن الافتراض.

- لستُ أنا من يفترض، فأنت من يقول إنّه يمكن أن يكون قد نسي.

- سوف نرى.

لم يكن سهلاً أن أسأل والدي عمّا كنتُ أرتديه في اليوم الذي سُرقتُ فيه منه. فلو كنتُ أطرح عليه السّؤال بسذاجة تامّة ومن دون نيّةٍ مُبيّتة لكان ذلك شديد السّهولة. ولكن الوضع كان مختلفاً، وكانت تلك النيّة المبيّتة هي تحديداً ما يجعلني خجولاً ومتردّداً من

طرح السّؤال.

أخيراً أرغمَنا مطر بارد ذات يوم على العودة إلى المنزل في وقتٍ أبكر من المعتاد، فتشجّعتُ وطرقتُ الموضوع الذي كان يؤرقني بشدّة.

ما إن بدأتُ بطرح السّؤال حتّى نظر إليّ والدي مباشرةً وعيناه تحاولان سبر غور أفكاري، على جاري عادته عندما يجرحه ما أقوله. ولكنّني أبقيتُ عينيّ مثبّتين على عينيه بشجاعةٍ تفوق ما كنتُ أرجوه عندما كنتُ أفكّر في تلك اللّحظة.

خلتُ أنّه سيغضب وألقيتُ نظرة خاطفة وقلقة باتّجاه ماتيا الذي كان يستمع إلينا من دون أن يبدو عليه ذلك، لكي يكون شاهداً على الفعل الأخرق الذي حثّني على القيام به. ولكنّ شيئاً لم يحصل، وبعد حركة الغضب الأولى راح والدي يبتسم. ابتسامة كان فيها شيء قاسٍ وشديد الفظاظة، ولكنّها كانت ابتسامة.

ثمّ قال:

- أكثر ما ساعدني في العثور عليك هو وصف الملابس التي كنتَ ترتديها يومَ سُرقتَ منّا: قلنسوة من الدّانتيل، وقميص من الكتّان المزيّن بالدّانتيل، وحفاظ، وثوب قطنيّ، وجوربان من الصّوف، وخفّان حِيكا حياكةً، ومعطف ينتهي بقلنسوة من الكشمير الأبيض المطرّز. وكثيراً ما كنتُ أعتمد على علامة الملابس التي كانت تحمل الحرفين «ف. د.»، أي فرنسيس دريسكول، وهو اسمك، ولكنّ هذه العلامة كانت قد قطعتها المرأة التي خطفتك والتي كانت تأمل بذلك أن تحول دون أن أعثر عليك يوماً. كان عليّ كذلك أن آتي بنسخة من شهادة عِمادك من الكنيسة التي عُمِّدتَ فيها، وهي ما تزال بحوزتي.

قال ذلك ثمّ، بتلطّفٍ غريبٍ عليه، شرعَ يفتّش في أحد الأدراج، ثمّ سرعان ما عاد حاملاً ورقة كبيرة ممهورة بأختام عديدة، سلّمني إيّاها.

فقمتُ بجهدٍ أخير وقلتُ:

- سيقوم ماتيا، لو سمحتَ، بترجمتها لي.

- بكلّ سرور.

قام ماتيا بالتّرجمة بأفضل ما يمكن، فتبيّن أنّني وُلدتُ ذاتَ يومِ خميسٍ في الثّاني من شهر آب وأنّني كنتُ ابن باتريك دريسكول وزوجته مارغريت غرانج.

ما كان يمكن أن أطلب أكثر؟

إلاّ أنّ ماتيا لم يبدُ عليه الرّضا، وفي المساء عندما خلونا إلى عربتنا، انحنى من جديدٍ على أذني كما يفعل عندما يكون لديه سرّ يقوله لي، وهمس:

- كلّ هذا ممتاز، ولكنّه لا يفسّر كيف أنّ باتريك دريسكول البائع المتجوّل وزوجته مارغريت غرانج كانا من الثّراء بحيث يُلبِسان طفلهما قلنسوة من الدّانتيل وقميصاً مزركشاً ومعطفاً مطرّزاً. فالبائعون المتجوّلون ليسوا بمثل هذا الثّراء.

- ربّما لم تكلّفهما هذه الملابس الكثير لأنّهما تحديداً بائعان.

فهزّ ماتيا رأسه وهو ينفخ ثمّ همس من جديدٍ في أذني:

- أتعرف ما الفكرة التي أعجز عن طردها من رأسي؟ أنّك لستَ طفلَ السيّد دريسكول بل الطّفل الذي سرقه السيّد دريسكول.

أردتُ أن أجيبه ولكنّه كان قد صعد إلى سريره.


Twitter: @ketab_n

عمّ آرثر، السيد جيمس ميليغان

لو كنتُ في مثلِ وضعِ ماتيا فلربّما كانت لي مخيّلةٌ بجموح مخيّلته، ولكنْ في وضعي ذاك لم يكن مسموحاً لي أن أجنح بأفكاري بحريّة كما يفعل هو.

لأنّ الأمر يتعلّق بوالدي.

أمّا بالنّسبة لماتيا، فقد كان ذلك يتعلّق بالـ «ماستر»[1] دريسكول، كما كان هو يسمّيه.

ولمّا كان فكري يندفع خلف أفكار ماتيا، كنتُ أكبح جماحه فوراً بشاكلة أحاول جعلها حازمة.

فماتيا كان بوسعه أن يفكّر في الماستر دريسكول كما يشاء، لأنّ الماستر دريسكول كان بالنّسبة إليه رجلاً غريباً لا يدين هو له بشيء.

أمّا أنا فكنتُ مُلزَماً حيالَ والدي بالاحترام.

ثمّة بالتّأكيد أمور غريبة في وضعي ولكنّني لم أكن أملك الحريّة لتفحّصها من وجهة نظر ماتيا.

كان الشّك مسموحاً لماتيا. أمّا أنا، فقد كان ممنوعاً عليّ.

وعندما كان ماتيا يريد أن يشاركني بشكوكه، كان من واجبي أن

---

(1) واضح أنّ ماتيا يقوم هنا بتحريف المفردة الإنجليزية Mister («سيّد») بتأثير من لسانه الايطاليّ (المترجمة).

أفرض عليه التزام الصّمت.

وهذا ما كنتُ أحاول فعله ولكنّ ماتيا كان عنيداً ولم أكن أنجح دوماً في التّغلّب على عناده.

وكان يقول لي غاضباً:

- اضربني لو أردتَ، ولكن اسمعني.

فما كان يسعني إلاّ الاستماع إلى تساؤلاته:

لماذا آلن ونيد وآني وكايت جميعهم شقرٌ فيما أنا لستُ كذلك؟

ولمَ الجميع في عائلة دريسكول، باستثناء كايت التي لم تكن تعرف ما تفعل، يكنّون لي مشاعر سلبيّة كما لو كنتُ كلباً أجرب؟

أنّى لأناسٍ غير أثرياء أن يُلبسوا أطفالهم الدّانتيل؟

وأمام كلّ هذه التّساؤلات لم يكن عندي إلاّ جوابٌ واحد كان هو نفسه سؤالاً:

- ما الذي كان سيحدو آل دريسكول للبحث عنّي لو لم أكن ابنهم؟ ما الذي يجعلهم مستعدّين لمكافأة باربُران وغريث وغاليه؟

على هذا السّؤال، كان ماتيا مُرغَماً أن يُجيب بأنّه لا يعرف. ولكنّه لم يكن يُعلن الهزيمة وكان يقول:

- إن كنتُ لا أستطيع الإجابة على سؤالك، فهذا لا يعني أنّني مُخطئ في كلّ الأسئلة التي أطرحها عليك والتي لا تحير أنتَ لها جواباً. إنّ أيّ شخصٍ في مكاني كان سيعرف السّبب الذي حدا آل دريسكول للبحث عنك وهدفهم من إنفاق المال على ذلك. ولكن إن كنتُ أنا أعجز عن معرفة ذلك فلأنّني لستُ شديد الذّكاء ولا أفهم شيئاً.

- لا تقل هذا، بل بالعكس أنتَ حادّ الذّكاء.
- لو كنتُ كذلك، لفسّرتُ لك فوراً ما أعجزُ الآن عن تفسيره. ولكنّ ما أشعر به هو التّالي: لا، لستَ من عائلة دريسكول، لستَ منها، لا يمكنك أن تكون منها. سوف ينكشف كلّ هذا فيما بَعد بالتّأكيد. ولكنّك بإصرارك على ألاّ تفتح عينيك تؤخّر هذه اللّحظة. أنا أفهم أن يمنعك من ذلك ما تسمّيه أنت واجب الاحترام حيال عائلتك، ولكنّ هذا الاحترام لا يجدر به أن يشلّك تماماً.
- ولكن ما تريدني أن أفعل؟
- أريد أن نعود إلى فرنسا.
- هذا متعذّر.
- أنتَ تقول ذلك لأنّ الواجب يحتّم عليك البقاء إلى جانب عائلتك. ولكن إن لم تكن هذه العائلة عائلتك فما الذي يمنعك؟
لم يكن لمناقشات من هذا النّوع إلاّ أن تؤدّي إلى نتيجة واحدة وهي جعلي أكثر تعاسةً ممّا كنتُ عليه يوماً.
فليس هناك ما هو أفظع من الشّكّ!
وأنا كنتُ أشكّ رغم أنّني لم أكن لأريد ذلك.
فهل هذا الوالد هو والدي؟ وهذه الوالدة والدتي؟ وهذه العائلة عائلتي؟
كان من الفظيع الاعتراف بذلك، ولكنّني كنتُ أقلّ تشوّشاً وتعاسةً لمّا كنتُ وحيداً.
فمن كان بوسعه أن يقول لي، عندما كنتُ أبكي حزناً لافتقاري إلى عائلة، إنّني سأبكي من اليأس لأنّني سأجد لي عائلة أخيراً؟

من أين سيأتيني النّور؟ من سيضيء لي الطّريق؟ كيف أتوصّل لمعرفة الحقيقة يوماً؟

كنتُ أبقى أمام هذه الأسئلة، يقتلني عجزي، قائلاً في نفسي إنّني سأظلّ أضرب رأسي عبثاً وإلى الأبد في ظلمة اللّيل الدّاكنة إلى جدار لا منفذ فيه.

ومع كلّ ذلك، كان يجب أن أغنّي وأن أعزف ألحاناً راقصة وأن أصطنع الضّحك، في الوقت الذي كان قلبي فيه حزيناً بشدّة.

كانت الآحاد أفضل أيّامي، لأنّه في الأحد لا تُعزف الموسيقى في شوارع لندن، فأتمكّن من الاستسلام بحريّة لحزني وأنا أتمشّى مع ماتيا وكابي. كم كان شبهي آنذاك قليلاً بالصبيّ الذي كنتُه قبل بضعةِ شهور!

وفي أحد أيّام الآحاد تلك، وفيما كنتُ أتأهّب للخروج مع ماتيا، استبقاني والدي في المنزل قائلاً لي إنّه سيحتاج إليّ خلال النّهار، وأرسل ماتيا يتنزّه بمفرده. لم يكن جدّي قد نزل بعد، ووالدتي كانت قد خرجت مع كايت وآني، وشقيقاي كانا يتسكّعان في الشّوارع، ولذا لم يبقَ في المنزل سوانا أنا ووالدي.

كان قد مضى على وجودنا بمفردنا نحو ساعة عندما قُرع الباب. ذهب أبي ليفتحه وعاد برفقة رجلٍ لا يشبه الأصدقاء الذين يستقبلهم في العادة. فقد كان ذلك الرّجل ما يُسمّى في إنكلترا «جنتلمان»، أي سيّداً فعليّاً، يرتدي ملابس أنيقة وله ملامح متعالية ولكنّ فيها شيئاً من التّعب. كان في حوالى الخمسين. أكثر ما لفتني فيه هو ابتسامته، فقد كانت حركةُ شفتيه تفترّ عن كلّ أسنانه البيضاء والمُسنّنة كأسنان

كلبٍ صغير. كان ذلك لافتاً بشدّة، والنّاظر إليه كان يتساءل ما إذا كانت شفتاه تفترّان عن ابتسامة أم عن رغبة في أن يعضّ.

وفيما كان يتحدّث إلى والدي بالإنجليزيّة، كان يلتفت إليّ في كلّ لحظة، ولكن عندما كانت عيناه تلتقيان بعينيّ كان يتوقّف فوراً عن تفحّصي.

وبعد حديثٍ دامَ عدّة دقائق، ترك الإنجليزيّة وانتقل إلى الفرنسيّة التي كان يتكلّمها بطلاقةٍ ودون لكنة تقريباً.

فسأل والدي وهو يشير إليّ بإصبعه:

- أهذا هو الصّبيّ الذي حدّثتَني عنه؟ يبدو بصحّةٍ جيّدة.

فقال لي والدي:

- أجِبْ على السّؤال.

سألني الجنتلمان:

- هل صحّتك جيّدة؟

- أجل يا سيّدي.

- ألم تمرض يوماً؟

- أُصبتُ ذات يومٍ بنزلةٍ صدريّة.

- آه! آه! وكيف حصل ذلك؟

- لأنّني نمتُ في العراء ذات ليلةٍ مُثلّجة وشديدة البرودة. معلّمي الذي كان معي توفّي من البرد أمّا أنا فأُصِبتُ بنزلةٍ صدريّة.

- ومتى حصل ذلك؟

- من ثلاث سنوات.

- ولم يُعاودك المرض مرّة أخرى منذ ذلك الوقت؟

- كلاّ.

- ولم تشعر بأيّ تعب أو وهن أو تعرّق ليليّ؟

- كلاّ، أبداً. عندما أتعب، يكون ذلك لأنّي مشيتُ كثيراً ولكنّ الأمر لا يجعلني أمرض.

- وهل تحتمل التّعب بسهولة؟

- أنا مرغم على ذلك.

فقام ودنا منيّ، ثمّ راح يجسّ ذراعي ووضع يده على قلبي وأخيراً أسند رأسه إلى ظهري وصدري وهو يقول لي أن أتنفّس بقوّة كما لو أنّني ركضتُ للتوّ. قال لي أيضاً أن أسعل.

بعد ذلك نظر إليّ مباشرةً، طويلاً وبإمعان، ففكّرتُ أنّه لا بدّ أن يكون مولعاً بالعضّ لفرط ما كانت ابتسامته تبعث على الرّعب.

ودون أن يقول شيئاً، استعاد حديثه بالانكليزيّة مع والدي. وبعد بضع دقائق خرجا معاً، لا من الباب المُفضي إلى الشّارع، بل من باب المستودع.

لمّا ألفيتُني وحيداً، جعلتُ أفكّر في ما تعنيه أسئلة ذلك «الجنتلمان». أيريد أن أعمل لديه؟ سيكون عليّ آنئذٍ الانفصال عن ماتيا وكابي! ثمّ إنّني كنتُ قرّرتُ ألاّ أكون خادماً لأحد، لا لذلك «الجنتلمان» الذي لم يكن يروقني، ولا لسواه ممّن يمكن أن يروقوني.

بعد برهة، عاد والدي وقال لي إنّه مضطرّ للخروج ولن يحتاجني كما كان ينوي وإنّ بإمكاني أن أذهب للتنزّه إن كنتُ راغباً في ذلك.

لم تكن لي أدنى رغبة في ذلك ولكن ما أعمل في ذلك البيت المُكرب؟ إنّ التنزّه لأفضل من البقاء في المنزل عرضةً للملل.

كانت تمطر، لذا دخلتُ عربتنا لأخذ فروة الخروف وكم كانت دهشتي عظيمة أن أجد ماتيا في العربة. كنتُ على وشك التّكلّم معه عندما وضع يده على فمي وقال لي بصوتٍ منخفض:

- اذهب وافتح باب المستودع وسأخرج بهدوء خلفك، إذ يجب ألاّ يعرف أحد أنّني كنتُ في العربة.

ولم يُقرّر الكلام إلاّ بعدما أصبحنا في الشّارع:

- أتعرف مَن هو الرّجل الذي كان برفقة والدك قبل قليل؟ إنّه جيمس ميليغان، عمّ صديقك آرثر.

بقيتُ جامداً في وسط الشّارع، فأمسكني ماتيا بذراعي وتابع ونحن نمشي:

- كنتُ ضجراً من التنزّه وحدي في تلك الشّوارع الكئيبة في هذا الأحد الكئيب. لذا عدتُ لكي أنام، فتمدّدتُ على السّرير ولكنّني لم أغفُ. فإذا بوالدك يدخل المستودع برفقة جنتلمان وسمعتُ حديثهما صدفةً، كان الجنتلمان يقول: «إنّه صلبٌ كالصّخر؛ أيّ ولدٍ سواه كان سيموت في مثل تلك الظّروف لكنّ أقصى ما أصابه هو نزلة صدريّة!». ففهمتُ أنّهما يتحدّثان عنك، ولذا أصختُ السّمع، ولكنّ الحديث تغيّر فجأةً وإذا بوالدك يسأل: «كيف حال ابن أخيك؟»، فأجاب الرّجل: «أفضل! سينجو هذه المرّة أيضاً. قبل ثلاثة شهور كان كلّ الأطبّاء يقولون إنّه سيموت. ولكن والدته العزيزة أنقذته هذه المرّة أيضاً بعنايتها: آه! لكم هي والدة طيّبة هذه السيّدة ميليغان!». ولمّا سمعتُ هذا الاسم أصختُ السّمع أكثر. وتابع والدك: «إذا كان ابن أخيك بصحّة جيّدة فهذا يعني أنّ كلّ احتياطاتك بلا طائل؟»،

فأجاب الرّجل: «ربّما هي كذلك الآن ولكن لا يسعني أن أستسيغ بقاء آرثر حيّاً، ستكون هذه معجزة وفي هذا العالم لم يعد من مكان للمعجزات. ففي اليوم الذي يموت فيه، يجب أن أكون في مأمنٍ من أيّ عائق وأن أكون أنا، جيمس ميليغان، الوريث الوحيد». فقال والدك: «اطمئنّ، سيكون لك ما تريد، أؤكّد لك ذلك». فأجاب الجنتلمان: «أعتمد عليك». ثمّ أضاف بضع كلمات لم أفهمها تماماً، سأترجمها ترجمة تقريبيّة مع أنّها تبدو بلا معنى: «وعندئذٍ نرى ما سيكون علينا أن نفعل به». قال هذا وخرج.

بعدما استمعتُ إلى هذه الحكاية، أوّل ما خطر لي هو العودة إلى المنزل وسؤال والدي عن عنوان السيّد ميليغان لكي أعرف أخبار آرثر ووالدته. ولكنّني سرعان ما فهمتُ أنّ ذلك سيكون من قبيل الجنون: فلا يمكن أن نطلب من رجلٍ ينتظر بفارغ الصّبر موت ابن أخيه أن يُطلعنا على أحوال ابن الأخ هذا. ثمّ ألن يكون من التّهوّر إفهام السيّد ميليغان بأنّنا سمعناه؟

كان آرثر حيّاً وبصحّة جيّدة. كان هذا الخبر الجيّد مُفرِحاً بما فيه الكفاية في تلك اللّحظة.




Twitter: @ketab_n

الفصل الثّامن عشر

ليالي عيد الميلاد

صارت كلّ أحاديثنا تتمحور حول آرثر والسيّدة ميليغان والسيّد جيمس ميليغان.

يا ترى أين آرثر ووالدته؟ أين عسانا نبحث عنهما؟ أين نجدهما؟

أوحت لنا زيارات السيّد جيمس ميليغان بفكرة بدا لنا نجاحها مؤكّداً: فإذا كان السيّد ميليغان قد أتى مرّةً إلى ساحة الأسد الأحمر، فمن شبه المؤكّد أنّه سيعود مرّةً ثانيةً وثالثة. فثمّة أعمالٌ تجمعه بوالدي. ولذا فعندما يخرج سيلحق به ماتيا، لا سيّما وأنّه لا يعرفه. هكذا نعرف أين يسكن، ونتحدّث إلى الخدم، فلربّما قادونا إلى منزل آرثر.

ولِمَ لا؟ فلمخيّلتَينا نحن الاثنين لم يكن ذلك يبدو مستحيلاً.

وما كان من شأن هذا الخطّة المُحْكمة أن تفيد في العثور على آرثر فحسبُ بل كذلك في أمرٍ آخر كان يُقلقني.

فمنذ ما حصل مع كابي، ومنذ استلامنا رسالة السيّدة باربُران الجوابيّة، لم ينِ ماتيا يكرّر أمامي بشتّى الأساليب أنّنا يجب أن نعود إلى فرنسا. كانت تلك لازمة يُجرّب عليها كلّ يوم تنويعات جديدة. وإزاء هذه اللاّزمة كنتُ أواجهه بأخرى لم تكن هي أيضاً تتغيّر: «يجب ألاّ أترك عائلتي». ولكنّ مسألة الواجب هذه كانت محلّ خلافٍ بيننا،

وتنجم عنها مناقشات لا تُفضي إلى نتيجة. فقد كان كلّ منّا متشبّثاً برأيه: ماتيا يصرّ على أنّه كان «يجب الرّحيل»، وأنا أصرّ على أنّه كان «يجب البقاء».

ولكن عندما صرتُ أضيف إلى عبارة «يجب البقاء» عبارة أخرى هي «من أجل إيجاد آرثر»، لم يعد لدى ماتيا ما يجيبني به. فلم يكن بوسعه اتّخاذ موقف ضدّ آرثر: أفلا يجب إعلام السيّدة ميليغان بنوايا نسيبها؟

لم يكن أمراً ذكيّاً انتظار زيارة السيّد ميليغان ونحن نخرج من الصّباح حتّى المساء كما نفعل منذ وصولنا إلى لندن. ولكن كانت تقترب اللّحظة التي سنخرج فيها لتقديم العروض في الشّوارع ليلاً بدل الذّهاب نهاراً، ذلك أنّ حفلات عيد الميلاد تُقام في لندن في منتصف اللّيل. وببقائنا في المنزل طوال النّهار، سيقوم أحدنا بالمراقبة ونتوصّل على الأرجح إلى مفاجأة عمّ آرثر.

وذات يومٍ قال لي ماتيا:

– آه لو تعرف كم أرغب في أن تعثر على السيّدة ميليغان!

– ولِمَ ذلك؟

تردّد طويلاً ثمّ قال:

– لأنّها كانت طيّبةً جدّاً معك.

ثمّ أضاف:

– ولأنّها ربّما ساعدتك في العثور على عائلتك.

– ماتيا!

– أنت لا تريدني أن أقول ذلك. ولكن أؤكّد لك أنّني، رغماً عنّي،

غير قادر على الاقتناع لدقيقة واحدة بأنّك من آل دريسكول. انظرْ إلى كلّ أفراد هذه العائلة وانظرْ إلى نفسك قليلاً. وأنا لا أتحدّث فقط عن الشّعر الأشقر الباهت. ألكَ حركة يد الجدّ وابتسامته؟ هل خطر لك يوماً أن تتفحّص القماش على ضوء القنديل مثل السيّد دريسكول؟ هل نمتَ يوماً وذراعاك ممدودتان على الطّاولة؟ هل علّمتَ يوماً كابي أن يعود بجوارب صوفيّة لم تكن ضائعة كما فعل آلن ونيد؟ كلاّ وألف كلاّ. فالمرء يشبه عائلته. ولو كنتَ من آل دريسكول لما تردّدتَ في أن تقدّم لنفسك جوارب صوفيّة عندما كنتَ تحتاج إلى ذلك وكانت جيوبك فارغة، الأمر الذي حصل لك مراراً. ولكن ماذا قدّمتَ لنفسكَ عندما كان فيتاليس في السّجن؟ أتظنّ أنّ فرداً من عائلة دريسكول كان سينام بلا عشاء؟ أتظنّ أنّني لو لم أكن ابن والدي كنتُ سأعزف على البوق والمزمار والمتردّدة أو أيّ آلةٍ أخرى دون أن أكون تعلّمتُ ذلك؟ فوالدي كان موسيقيّاً، ولذا أنا موسيقيّ. إنّه لأمرٌ طبيعيّ. أمّا أنت فيبدو طبيعيّاً أنّك «جنتلمان»، وستكون كذلك عندما نعثر على السيّدة ميليغان.

- وكيف ذلك؟
- لديّ فكرة.
- وما هي؟ أيمكن أن تخبرني بها؟
- آه! كلاّ.
- ولِمَ لا؟
- لأنّها إذا ما كانت فكرة غبيّة...
- وماذا إذا كانت كذلك؟

- ستكون فكرة في منتهى الغباء إذا لم تكن صائبة. ينبغي ألاّ نؤمّل النّفس بأفراح قد لا تتحقّق. يجب أن نكون تعلّمنا من تجربتنا بخصوص «خضرة» بثنال-غرين. فالبراري الخضراء الجميلة التي أمّلنا نفسنا بها كانت في الواقع مستنقعاتٍ وَحِلة.

لم أصرّ، لأنّني أنا أيضاً كان لديَّ فكرة.

صحيح أنّها كانت فكرة مُبهمة ومشوّشة وخجولاً وأكثر غباءً ممّا يمكن أن تكون عليه فكرة ماتيا. ولكن لهذا السّبب بالذّات لم أكن أجرؤ على مطالبة ماتيا بأن يقول لي فكرته: فبمَ سأجيب لو كانت فكرته هي نفسها التي تطفو حائرةً مثل حلم في رأسي؟ فكرة لم أكن أجرؤ على قولها بوضوحٍ لنفسي، فمن أين لي الشّجاعة لمناقشتها مع ماتيا؟

لم يكن أمامنا إلاّ الانتظار، فانتظرنا.

وفيما نتتظر، تابعنا جولاتنا في لندن. فنحن لم نكن من أولئك الموسيقيّين المحظوظين الذين يهيمنون على حيّ من الأحياء ويصير لهم جمهورهم فيه. فقد كنّا أصغر سنّاً ووجودنا في المدينة أحدث عهداً من أن نتمكّن من فرض نفسَينا سيّدين على حارةٍ ما. لذا كان علينا أن نترك المكان لمن يُجيدون فرض حقوق ملكيّتهم بحجج لم نكن نحن نملك ما يكفي من القوّة لمجابهتها.

فكم من مرّةٍ كنّا على أهبة جنيِ أرباح جمّة بعدما نكون عزفْنا بأفضل طريقة ممكنة أفضل معزوفاتنا، وإذا بنا نضطرّ إلى الهرب بأسرع ما يمكن أمام بضعة اسكتلنديّين مدهشين بسيقانهم العارية وتنانيرهم ذوات الطيّات وجِراماتهم الصوفيّة وقلنسواتهم المزيّنة

بالرّيش! كان رنين مزمار القِرْبة في جوقتهم وحده يجعلنا نلوذ بأذيال الفرار. كان في مقدور ماتيا أن يغطّي برنين شِياعه[1] على أنغام مزمار القربة، ولكنّنا لم نكن قادرَين على مواجهة عازف المزمار.

كما لم نكن قادرَين على مواجهة فرق أولئك الموسيقيّين الذين كانوا يجوبون الشّوارع والذين كان الإنجليز يدْعونهم ***nigger-melodits*** أي «الموسيقيّين الزّنوج». كان أولئك الزّنج المزعومون المتنكّرون بملابس طويلة الأذيال ولها ياقات ضخمة تختفي فيها رؤوسهم مثل باقاتِ زهرٍ ملفوفةٍ بالورق، يرعبوننا أكثر من الاسكتلنديّين. فما إن نراهم قادمين أو نسمع صوت آلات البانجو التي بحوزتهم حتّى نصمت باحترام ونترك المكان صوب حيّ آخر نأمل ألاّ نجد فيه إحدى فرقهم. أو كنّا ننتظر أن ينتهوا من صخبهم ونحن ننظر إليهم.



(1) سبق التعريف بهذه الآلة، وهي من الأبواق الملتوية ذوات المَكابس (المترجمة).

وذات يوم، فيما نتفرّج عليهم، رأيتُ واحداً منهم، وقد كان الأكثر مُغالاةً في تنكّره، يومئ إلى ماتيا. ظننتُ في البداية أنّه يريد أن يسخر منّا ليسلّي الجمهور بمشهدٍ مُبتذلٍ نكون نحن ضحيّتَيه، ولكنّي فوجئتُ بماتيا يردّ له التحيّة بمودّة.

فسألته:

– أتعرفه؟

– إنّه بوب.

– ومن يكون بوب هذا؟

– صديقي بوب من سيرك غاسّو، أحد البهلوانَين اللّذَين حدّثتك عنهما، وإليه أدين خصوصاً بتعلّم ما أعرفه من اللّغة الإنجليزيّة.

– ألم تعرفه من البداية؟

– كلاّ! ففي السّيرك كان يطلي رأسه بالطّحين وهنا يدهنه بطلاء أسود.

عندما فرغ الزّنوج من عرضهم، قَدِم بوب صوبنا، وجعلتني شاكلته في التكلّم مع ماتيا أرى كم كان صديقي يُجيد اجتذاب محبّة الآخرين: إنّ أخاً حقيقيّاً ما كان سيُبدي في عينيه وفي نبرته فرحاً أكبر من ذلك الذي رأيتُه يرتسم في تلك اللحظة على ذلك المهرّج السّابق، الذي «اضطرّته صعوبة الأحوال إلى أن يصير موسيقيّاً متجوّلاً»، كما أخبرنا. ولكن كان علينا الافتراق بسرعة، هو لكي يلتحق بفرقته ونحن لكي نذهب إلى حيّ لا يذهب هو إليه. وتعاهد الصّديقان على أن يلتقيا في الأحد القادم ليروي كلّ منهما للآخر ما فعل منذ افتراقهما. وبفعلِ صداقته لماتيا على الأرجح، كان بوب لطيفاً معي، وسرعان ما

صار لدينا صديق جعل لنا، بخبرته ونصائحه، الحياةَ في لندن أسهل بكثير ممّا كانت عليه حتّى تلك اللّحظة. كما أنّه أبدى مودّة كبيرة تجاه كابي وغالباً ما كان يقول لنا إنّه لو كان يمتلك كلباً مثله لصار ثريّاً بسرعة. وأكثر من مرّة عرض علينا أن نشكّل فرقة مشتركة نحن الثلاثة، أو بالأحرى نحن الأربعة: أنا وماتيا وكابي وهو. ولكن مثلما لم أكن راغباً في مغادرة عائلتي والعودة إلى فرنسا لرؤية ليز ورفاقي القدماء، لم أكن أريد أن أتبع بوب عبرَ إنكلترا.

وهكذا مضت الأيّام التي تفصلنا عن عيد الميلاد. وبدل مغادرة ساحة الأسد الأحمر صباحاً، صرنا ننطلق كلّ مساء في حوالى الثّامنة أو التّاسعة صوب الأحياء التي نكون اخترناها سلفاً.

كنّا نبدأ بالسّاحات والشّوارع التي تكون فيها حركة العربات قد توقّفت، إذ يلزمنا شيء من الصّمت لكي تخترق موسيقانا الأبواب المغلقة وتوقظ الصّغار في أسرّتهم مُعلنةً اقتراب عيد الميلاد، هذا العيد الغالي على قلوب جميع الإنجليز. ومع تقدّم ساعات اللّيل كنّا ننزل إلى الشّوارع العريضة حيث تمرّ آخر العربات، ناقلةً مُرتادي المسارح ومخلِّفةً نوعاً من السّكينة يحلّ شيئاً فشيئاً محلّ صخب النّهار المدوّي. فنروح نعزف الألحان الأكثر عذوبةً ورقّةً، تلك التي تكتسي طابعاً حزيناً ودينيّاً، فتبكي كمنجة ماتيا وتئنّ قيثارتي. وعندما نتوقّف للاستراحة قليلاً تحمل لنا الرّيح بعض القطع الموسيقيّة التي تعزفها فِرَقٌ أخرى في البعيد، وهنا تكون حفلتنا قد انتهت: «سيّداتي، سادتي، ليلةً سعيدة وميلاداً فَرِحاً!».

ثمّ نذهب إلى مكانٍ أبعد لتقديم عرض موسيقيّ آخر.

لا بدّ أنّ من السّاحر أن يستمع المرء إلى الموسيقى ليلاً وهو في دفء سريره متدثّرٌ بغطاء سميك ولحافٍ دافئ. أمّا نحن فلم يكن لنا في الشّارع لا غطاء ولا لحاف، ومع ذلك كان علينا أن نعزف رغم خدَر أصابعنا شبه المتجمّدة. لم يكن هناك فحسبُ اللّيالي التي تكون فيها السّماء قطنيّةً ويخترق الضّباب فيها أجسامنا برطوبته، بل أيضاً اللّيالي التي تكون فيها السّماء صافيةً ومُشعّةً والتي تجمّدنا فيها ريح الشّمال حتّى العظام. وبين هذه اللّيالي وتلك لم نكن نعرف ليالي دافئة ورحيمة. كان موسم عيد الميلاد قاسياً علينا، ومع ذلك، وطوال ثلاثة أسابيع، لم نتخلّف عن الخروج ليلةً واحدة.

كم مرّة توقّفنا، قبل أن تُغلَق كلّ المحلاّت، أمام بائعي الدّواجن والفاكهة والبقّالين والحلوانيّين: آه! يا للإوزّ الدّسِم الجميل! والدّيك الرّوميّ الضخم! وصدور الدّجاج! وأكوام اللّيمون والتّفّاح، وتلال الكستناء والخوخ المجفّف! لكم هي شهيّة تلك الفواكه المسكّرة!

كم من طفلٍ سيكون سعيداً ويرتمي بين ذراعَي والديه متأثّراً بمرأى كلّ هذه الأطياب!

وأثناء تنقّلنا في الشّوارع، كنّا، نحن البائسَين المسكينَين، نتخيّل تلك الحفلات العائليّة الجميلة التي تدور في القصور الأرستقراطيّة الصّغيرة مثلما في أكواخ الفقراء.

ميلاد سعيد لمن لديهم مَن يحبّهم!

الفصل التّاسع عشر

مخاوف ماتيا

لم يعد السيّد جيمس ميليغان إلى ساحة الأسد الأحمر، أو على الأقلّ لم نره نحن رغم ترصّدنا له.

وبعدما انتهت احتفالات عيد الميلاد، صار علينا الخروج نهاراً، ممّا قلّل من حظوظنا في الوقوع عليه، وما عدنا نأمل رؤيته إلاّ يوم الأحد. لذا غالباً ما كنّا نمكث في المنزل بدل الذّهاب للتنزّه في يوم العطلة المفترض أنّه مخصّص للّهو.

فكنّا ننتظر.

وكان ماتيا قد فاتح صديقه بوب بموضوعنا دون أن يقول له كلّ ما كان يؤرّقنا. واكتفى بسؤاله عمّا إذا كان هناك طريقة للعثور على عنوان سيّدة تُدعى ميليغان لها ابنٌ مُقعَد، أو ببساطة على عنوان السيّد جيمس ميليغان. ولكنّ بوب أجاب بأنّه يجب معرفة من هي السيّدة ميليغان هذه وما يعمل السيّد جيمس ميليغان وإلى أيّ طبقة اجتماعيّة ينتمي، لأنّ اسم ميليغان كان شائعاً نسبيّاً في لندن وأكثر شيوعاً أيضاً في سائر إنكلترا.

لم نكن فكّرنا في ذلك. فبالنّسبة إلينا لم يكن هناك إلاّ سيّدة ميليغان واحدة هي والدة آرثر، وسيّد ميليغان واحد هو عمّ آرثر.

لذا عاد ماتيا يلحّ عليّ بالقول إنّه ينبغي العودة إلى فرنسا، وعادت

نقاشاتنا أكثر احتداماً من ذي قبل.

فكنتُ أقول له:

- تريد إذن أن نتخلّى عن فكرة العثور على السيّدة ميليغان؟

- كلاّ بالتّأكيد، ولكن من غير المؤكّد أنّ السيّدة ميليغان ما تزال في إنكلترا.

- ومن غير المؤكّد كذلك أنّها في فرنسا.

- لا بل هذا ممكن، فبما أنّ آرثر قد اعتلّت صحّته، فلا بدّ أنّ والدته أخذته من جديدٍ إلى بلادٍ يكون المناخ فيها ملائماً ليستعيد عافيته.

- فرنسا ليست البلد الوحيد الذي يمتلك مناخاً ملائماً للصحّة.

- ولكنّ آرثر أُشفِيَ مرّةً في فرنسا، فلا بدّ أن تكون والدته أخذتْه إلى هناك ثانيةً، كما أنّني لا أريد لك أن تبقى في هذا المكان.

كنتُ في حالةٍ تجعلني لا أجرؤ على سؤال ماتيا لماذا كان يريدني أن أرحل من ذلك المكان. فقد كنتُ خائفاً من أن يجيبني تحديداً بما لا رغبة لي في سماعه.

ولكنّ ماتيا كان يتابع بالقول:

- أنا خائف، فلنرحل من هنا. إن بقينا فستحصل لنا مصيبة، سوف ترى. فلنرحل.

ما كانت معاملة عائلتي لي قد تبدّلتْ، فجدّي استمرّ يبصق ناحيتي بغضب، ووالدي لم يكن يوجّه إليّ الكلام إلاّ آمِراً، ووالدتي لا تنظر إليّ البتّة، ومخيّلتا شقيقيّ تواصلان ابتكار المقالب السيّئة ضدّي بثراءٍ لا ينضب، وآني لا تفوّت فرصةً لتعبّر لي عن نفورها منّي، وكايت لا تحبّ إلاّ الحلويات التي كنتُ أحضرها لها. مع هذا كلّه لم أكن قادراً

على العمل بنصيحة ماتيا، كما لم يكن بوسعي تصديقه عندما كان يؤكّد آنّني لستُ «ابن الماستر دريسكول». لم يكن بوسعي إلاّ أن أشكّ، لا بل حتّى أن أمعن في الشكّ، ولكنّني لم أكن قادراً على الاعتقاد اعتقاداً قاطعاً بكوني من آل دريسكول أم لا.

مرّ الوقت ببطء، ببطء شديد، ولكن في النّهاية انضافت الأيّام إلى الأيّام، والأسابيع إلى الأسابيع، وآن الأوان لتغادر العائلة لندن وتذهب لتَجول في إنكلترا.

كان قد أُعيد طلاء العربتين وحُمِّلتا بأقصى ما تتّسعان له من البضائع التي ستُباع خلال الفصل الجميل.

كم من البضائع كان من الرّائع رؤيتها تتكدّس في العربتين! أقمشة وملابس محوكة وقلنسوات ومناديل نسائيّة ومحارم وجوارب وسراويل وصديريّات وأزرار وكُبَب خيوطٍ وصوف للخياطة وللحياكة وإبَر ومقصّات ومَواسي حلاقة وأقراط وخواتِم وصابون ومَراهم وصِباغ وحجارة لكيّ الملابس ومساحيق لأمراض الخيل والكلاب وخُلاصات لإزالة البقع وأدوية لألم الأسنان وعقاقير تساعد الشّعر على استعادة نموّه وأخرى لصبْغه.

وفي أثناء وجودنا في المنزل، كنّا نرى الرّزَم تُخرَج من القبو، تلك الرّزم التي كانت تصل إلى ساحة الأسد الأحمر دون أن تكون آتية من المخازن التي تُباع عادةً فيها تلك البضائع.

وأخيراً امتلأت العربتان واشتُريَت خيولٌ لجرّهما: لكن من أين اشتُريت وكيف؟ ليس لديّ أدنى فكرة، كلّ ما في الأمر أنّنا رأيناها تصل وبات كلّ شيء جاهزاً للانطلاق.

ولكن ما سنفعل أنا وماتيا؟ أنبقى في لندن مع الجدّ الذي لم يكن يغادر ساحة الأسد الأحمر؟ أم نصير بائعَين متجوّلَين على غرار آلن ونيد؟ أم نرافق عربتَي العائلة في الوقت الذي نتابع فيه مهنتنا كموسيقيَّين نعزف رصيدنا الموسيقيّ في القُرى والمدن الواقعة في طريقنا؟

كان أبي قد وجدَ أنّ الكمنجة والقيثارة تدرّان علينا أرباحاً جيّدة، فقرّر أن نتابع العمل كموسيقيّين وأفصح لنا عن رغبته هذه عشيّة الرّحيل.

فقال لي ماتيا:

- فلنعد إلى فرنسا، ولنستغلّ أوّل فرصة نجدها لنهرب.

- ولكن لمَ لا نسافر عبرَ إنكلترا؟

- لأنّني أؤكّد لك أنّ مصيبةً ستنزل بنا.

- ثمّة إمكان للعثور على السيّدة ميليغان في إنكلترا.

- أمّا أنا فأعتقد أنّ فرص العثور عليها في فرنسا أكبر.

- مع ذلك فلنبحث في إنكلترا في البداية ثمّ نرى بعد ذلك.

- أتعرف ما الذي تستحقّه؟

- كلاّ.

- تستحقّ أن أتركك وأن أعود إلى فرنسا بمفردي.

- أنت محقّ، وأنا أحثّك على القيام بذلك. فأنا أعرف أنّني لا يحقّ لي إرغامك على البقاء، كما أعرف أنّ طيبتك الشّديدة هي التي تجعلك تبقى إلى جانبي. فاذهب إذن، هكذا سترى ليز وتقول لها...

- لو تمكّنتُ من رؤيتها فسأقول لها إنّك غبيّ وشرّير لأنّك تعتقد

أنّني سأتخلّى عنك عندما تكون تعيساً، لا بل شديد التّعاسة. ولكن ما فعلتُ لك حتّى تخطر في بالك أفكار كهذه؟ قلْ لي ماذا فعلتُ؟ لا شيء أليس كذلك؟ حسناً، فلننطلق.

وإذا بنا في الطّريق من جديد. بيد أنّني لم أكن في تلك المرّة حرّاً في الذّهاب أنّى شئت ولا في فعْل ما أردت، ومع ذلك غادرتُ لندن شاعراً بالخلاص: فأنا لن أرى من جديدٍ ساحة الأسد الأحمر ولا تلك الحفرة في أرض المستودع التي لم أكن أستطيع الامتناع عن النّظر إليها. فكم من مرّةٍ استيقظتُ في اللّيل مذعوراً لأنّني حلمتُ بضوءٍ أحمرَ يتسرّب من نافذتي الصّغيرة. أكان ذلك وهماً أم حقيقة؟ لا يهمّ! سبقَ أن رأيتُ هذا الضّوء مرّةً، وكان ذلك كافياً لأشعرَ به دوماً وهو يخترق عينيّ مثل لهبٍ حارق.

كنّا نمشي وراء العربتين. وبدل روائح حارة «بثنال-غرين» النّتنة والضّارّة، كنّا نتنشّق في طريقنا نسيم الأرياف العليل. أرياف لا تضمّ أسماؤها كلمة «غْرينْ» (أخضر) ولكنّها توفّر للعينين خُضرة حقيقيّة، وتجود على الآذان بشدوِ الطّيور.

في يوم رحيلنا نفسه رأيتُ كيف تُباع تلك البضاعة التي كلّفت القليل. كنّا وصلنا إلى قرية كبيرة فأوقِفت العربتان في السّاحة الرّئيسيّة وفُتِح في كلّ منهما أحد الجوانب، وكان مؤلّفاً من عدّة ألواحٍ، فبانت المعروضات للمُشتَرين.

كان أبي يصرخ بالمارّة:

- انظروا الأسعار! انظروا الأسعار! لن تجدوا مثيلها في أيّ مكان. أنا لا أسدّد ثمن بضاعتي وهذا يسمح لي ببيعها بسعر زهيد.

أنا لا أبيعها، بل أهديها. انظروا الأسعار! انظروا الأسعار!

وكنتُ أسمع بعضهم ممّن ينظرون إلى الأسعار يقولون مبتعدين:

- لا بدّ أنّها بضاعةٌ مسروقة!

- إنّه يقول ذلك بنفسه.

ولو نظروا ناحيتي، لعرفوا من الحُمرة التي تضرّج بها وجهي كم كانت تخميناتهم صائبة.

ولكن إن لم يروا هذه الحمرة، فإنّ ماتيا رآها وفي المساء حدّثني عنها هو الذي يتلافى في العادة التطرّق بصراحةٍ إلى هذا الموضوع.

فقال لي:

- أستظلّ قادراً على احتمال هذا العار؟

- إن كنتَ لا تريد أن تجعل هذا العار أشدّ وطأة، فلا تكلّمني عنه، أرجوك.

- ليس هذا هدفي. أريد أن نعود إلى فرنسا. لطالما قلتُ لك إنّه ستحصل لنا مصيبة، وها أنا أقول لك هذا من جديد. فأنا أشعر أنّها قريبة جدّاً. إفهمْ أنّه سيأتي يومٌ يرغب فيه رجال الشّرطة في معرفة كيف يتمكّن «الماستر» دريسكول من بيع بضائعه بهذا السّعر الزّهيد. ما الذي سيحصل حينئذٍ؟

- ماتيا، أرجوك...

- بما أنّك لا تريد أن ترى، فعليّ أن أرى بدلاً منك. ما سيحصل هو أنّه سيُلقى القبض علينا جميعاً، وحتّى أنا وأنت، نحن اللّذين لم نفعل شيئاً. فكيف نُثبت أنّنا لم نفعل شيئاً؟ كيف ندافع عن نفسَينا؟ أليس صحيحاً أنّ الخبز الذي نأكله اشتُرِيَ بمالِ هذه البضائع؟

لم أكن فكّرتُ يوماً في هذا الموضوع، لذا كان وقعُ هذه الكلمات عليّ شديد العنف.

فحاولتُ الدّفاع عن نفسي، لا في مواجهة ماتيا بل لصدّ تلك الفكرة وقلت له:

- ولكنّنا، أنا وأنت، نأكل خبزنا بعرق جبينَينا.

- هذا صحيح، ولكن صحيح أيضاً أنّنا مُرتبطان بأشخاص لا يكسبون قوْتهم بعرَق الجبين. وهذا لا سواه ما سيراه الآخرون. وسننال الحُكم نفسه الذي سينالونه. وسيُحزنني كثيراً أن يُحكَم عليّ كسارق، ولكنْ سيُحزنني أكثر أن يُحكم عليك أنتَ كذلك. فأنا لستُ سوى مسكين بائس وسأبقى كذلك دوماً. أمّا أنت، فعندما تعثر على عائلتك، عائلتك الحقيقيّة، فكم سيُؤسيها وكم سيُخجلك أن تكون محكوماً عليك! كما لن نتمكّن في السّجن من البحث عن عائلتك، لا ولن نتمكّن من تحذير السيّدة ميليغان ممّا يحضّره السيّد جيمس ميليغان ضدّ آرثر. فلنهربْ قبل أن يفوت الأوان.

- اهربْ أنت.

- لا زلتَ تتفوّه بالحماقات ذاتها. سنهرب معاً أو يُلقى القبض علينا معاً. وعندما يحصل ذلك قريباً، ستكون أنت المسؤول عن توريطي معك ولن يكون هذا سهلاً عليك. لو كنتَ نافعاً لمن تصرّ على البقاء معهم لفهمتُ عِنادك. ولكنّهم ليسوا بحاجة إليك. قبل مجيئك كانوا يعيشون بارتياح وسيعيشون بارتياح بعد رحيلك. فلنرحل بسرعة.

- حسناً، أمهِلْني بضعة أيّام للتّفكير وبعد ذلك نرى.

- لكَ ذلك! ولكن أسرِعْ في اتّخاذ قرارك. فإذا كان الغول قادراً

على شمّ رائحة اللّحم الطّازج فأنا قادر على استشعار الخطر.

لم تُربِكني كلمات ماتيا وحججه وتوسّلاته بقدر ما فعلتْ تلك المرّة. وعندما كنتُ أستعيدها، كنتُ أقول في نفسي إنّ التّذبذب الذي كنتُ أتخبّط فيه كان دليلَ جبن وإنّني كان يجدر بي أن أتّخذ موقفاً وأقرّر في النّهاية ما الذي كنتُ أريد.

ولكنّ الظّروف قامت بها لم أكن أجرؤ على القيام به.

كانت قد مضت عدّة أسابيع على مغادرتنا لندن، وكنّا وصلنا إلى مدينة ستُقام بالقرب منها سباقات. ولم يكن سباق الخيل في إنكلترا شبيهاً به في فرنسا حيث هو مجرّد تسلية للأثرياء، يأتون بدافعٍ من حبّ الظّهور لمشاهدة أربعة خيولٍ أو خمسةٍ تتسابق، ويجازفون بخسارة بضع لويسيّات في الرّهان. فسباق الخيل في إنكلترا هو احتفالٌ شعبيّ للمنطقة بكاملها، وليست الخيول وحدها هي التي يدور حولها الاستعراض في البريّة وعلى الكثبان التي تُستخدم مضاميرَ للسّباق، بل يصل قبل ذلك بأيّام أحياناً بهلوانات وبوهيميّون وباعة متجوّلون يُقيمون ما يشبه سوقاً شعبيّة. ولذا سارعنا جميعاً لاتّخاذ أماكننا في تلك السّوق، أنا وماتيا كموسيقيّين وآل دريسكول كبائعين.

ولكن بدل أن يأتي والدي إلى المكان الذي فيه كان يُقام السّباق، احتلّ موقعاً في وسط المدينة حيث كان على الأرجح يعتقد أنّه سيحصل على أرباح أوفر.

كنّا أنا وماتيا وصلنا في وقتٍ مبكر، وإذ لم يكن علينا المشاركة في بسْط البضائع ذهبنا نشاهد ميدان السّبق القائم على مسافة غير بعيدة على أرضٍ بَراحٍ نُصبتْ فيها خيام. ومن البعيد كانت تُرى هنا وهناك

عواميد دخان نحيفة تحدّد مكان مضمار السّبق وحدوده. ولم يطلْ بنا الأمر حتّى وصلنا عبرَ طريق مقعّرة إلى البريّة التي كانت في العادة عارية ومُجدبة، ولكن في تلك الأمسية كانت تُرى فيها سقائف خشبيّة أُقيمَت فيها ملاهٍ وفنادق وأكواخ وخيام وعربات، أو حتّى مخيّمات بسيطة يتزاحم حولها أشخاصٌ يرتدون أسمالاً طريفة.

وفيما نحن نمرّ أمام موقدٍ عُلّقت فوقه قدْرٌ رأينا صديقنا بوب. فبدا مسروراً لرؤيتنا. كان أتى إلى السّباق مع اثنين من رفاقه ليقدّموا عروضَ مهارة وقوّة. ولكنّ الموسيقيّين الذين وعدوا بمرافقتهم أخلّوا بوعدهم، فلن يكون محصولهم في الغد مُثمراً كما كانوا يأملون، لا بل قد يكون مخيّباً جدّاً. وإذا ما طاب لنا فسنقدر أن نسدي لهم خدمة كبيرة، بأن نحلّ محلّ أولئك الموسيقيّين ونتقاسم الأرباح نحن الخمسة، وحتّى كابي ستكون له حصّة.

فهمتُ من النّظرة التي وجّهها إليّ ماتيا أنّه سيسعده القبول بعرض بوب. وبما أنّنا كنّا حرَّين في فعل ما نشاء شرط أن نعود بدخلٍ جيّد، قبلتُ العرض.

فاتّفقنا على أن نعود في الغد لنساعد بوب وصديقَيه في عرضهم. ولكن لّما عُدنا إلى المدينة وأطلعتُ أبي على اتّفاقنا لاحت في الأفق مشكلة. إذ قال لي:

– سأحتاج غداً إلى كابي، ولذا لن تقدر أن تصطحبه.

لم أشعر بالاطمئنان لما سمعتُه. فهل سيستخدمون كابي في أمرٍ سيّئ؟ ولكنّ أبي بدّد فوراً مخاوفي، قائلاً:

– إنّ لكابي أذنين رهيفتين، فهو يسمع كلّ شيء ويُجيد الحراسة،

ولذا سأحتاجه لحراسة العربتين. ففي وسط هذه الحشود من النّاس يمكن بسهولة أن نتعرّض للسّرقة. ستذهبان إذن للعزف بمفردكما مع بوب، وإن تأخرتما في الرّجوع، وهذا مُحتمل، فستأتيان لملاقاتنا في نُزُل «السّنديانة الكبيرة» حيث نُمضي اللّيلة، فأنا أنوي أن نغادر هذا المكان عند حلول اللّيل.

كان نُزُل «السّنديانة الكبيرة» الذي أمضينا فيه ليلتنا السّابقة واقعاً على بُعد فرسخٍ من المدينة في وسط الرّيف، في مكانٍ مُقفر وكئيب، وكان يديره زوجان لا يوحيان بالثّقة. وكان سهلاً جدّاً بالنّسبة إلينا الوصول إلى ذلك النّزل ليلاً، لأنّ الطّريق إليه كانت مستقيمة ولن يُزعجنا إلاّ طولها بعد يوم عملٍ مُتعِب.

لم يكن بوسعي قول هذه الملاحظة لأبي فهو لم يكن يحتمل الاعتراض على قراراته، وعندما يتكلّم يجب أن يُطاع بلا نقاش.

وفي صباح اليوم التّالي، وبعدما اصطحبتُ كابي في نزهة وأطعمته وسقيته لكي أكون واثقاً من أنّه لن ينقصه شيء، ربطته بنفسي إلى العربة التي كان عليه حراستها وذهبنا أنا وماتيا إلى ميدان السّبق.

ما إن وصلنا إلى هناك حتّى بدأنا العزف واستمرّ الأمر بلا كلل حتّى المساء. كانت أطراف أصابعي تؤلمني كما لو كانت قد انغرزت فيها آلاف الأشواك، وكان ماتيا قد نفخ في بوقه بشكلٍ متواصلٍ بحيث بات عاجزاً عن التنفّس. ومع ذلك كان يجب الاستمرار بالعزف. فبما أنّ بوب ورفيقيه لم يكلاّ من تقديم ألعاب الخفّة، لم يكن يحقّ لنا نحن أن يصيبنا الكلل. ومع حلول المساء خلتُ أنّنا سنرتاح، ولكنّنا انتقلنا من الخيمة التي كنّا نقدّم فيها العرض إلى ملهىً خشبيّ كبير وعاودنا

العزف وتقديم ألعاب الخفّة. استمرّ الأمر على هذه الحال حتّى بعد منتصف اللّيل. كنتُ لا أزال أُحدِث بقيثارتي صخباً دون أن أعرف ما كنت أعزف تماماً، وكذلك كانت حال ماتيا. عشرين مرّة أعلن بوب أنّ ذلك العرض سيكون العرض الأخير، وعشرين مرّة كنّا نعاود من جديد.

ولئن أصابنا التعب، فإنّ رفاقنا الذين كانوا يبذلون طاقة أكثر ممّا كنّا نبذل كانوا مُرهَقين تماماً، حتّى أنّهم أخطأوا في أكثر من وصلة. وفي لحظة معيّنة وقعت عصا طويلة كانوا يستخدمونها في تمارينهم على طرف قدم ماتيا. كانت الضّربة مؤلمة جدّاً فأطلق ماتيا صرخة. خلتُ أنّ ساقه قد تهشّمت فهُرِعنا إليه أنا وبوب. ولحسن الحظّ لم تكن الإصابة على درجة من الخطورة، فقد حصلت له رضّة وتمزّق في قدمه ولكنّ العظم كان سليماً. بيد أنّ ماتيا بدا عاجزاً عن المشي.

ما العمل؟

تقرّر أن يُمضي اللّيلة في عربة بوب وأن أعود وحدي إلى نُزُل «السّنديانة الكبيرة»، إذ كان يجب أن أعرف الوجهة التي سيتّخذها آل دريسكول في الغد.

لكنّ ماتيا كان يكرّر:

- لا تمضِ إلى هناك. سنذهب غداً معاً.

- وماذا لو لم نجد في نُزُل «السّنديانة الكبيرة» أحداً؟

- هذا أفضل، هكذا نصير حرَّين.

- إذا كنتُ أريد أن أترك آل دريسكول فلن أفعل ذلك على هذه الشّاكلة. ثمّ أتظنّ أنّهم لن يلحقوا بنا بسرعة؟ إلى أين تريد الذّهاب

وقدمك مصابة؟

- حسناً! سنلحق بهم غداً إن أردت. ولكن لا تذهب إلى هناك اللّيلة، فأنا خائف.

- ممّ؟

- لا أعرف، ولكنّني خائف عليك.

- دعني أذهب، وأعدك بأن أعود إلى هنا غداً.

- وماذا لو لم يُسمَح لك بذلك؟

- سأترك معك قيثارتي حتّى لا يتمكّنوا من استبقائي، فهكذا أصير مضطرّاً للعودة إلى هنا لآخذها.

ورغم خوف ماتيا انطلقتُ غير خائف على نفسي إطلاقاً.

فممّن أو ممَّ كنت سأخاف؟ وما يمكن أن يُبيّت الآخرون لشقيّ مسكين مثلي؟

ورغم أنّني لم أكن أشعر بأدنى خوف، فقد كنتُ شديد التّأثّر: كانت تلك هي المرّة الأولى التي أكون فيها وحيداً تماماً، بدون كابي وماتيا، وكانت تلك الوحدة تُثقل عليّ مثلما كانت أصوات اللّيل الغامضة تُقلقني. كما أنّ القمر الذي كان ينظر إليّ بوجهه الشّاحب كان يفعمني حزناً.

مشيتُ بسرعة رغم تعبي، ووصلتُ أخيراً إلى نُزُل «السّنديانة الكبيرة». ولكن عبثاً بحثتُ عن العربتين. كان هناك عربتا سفرٍ أو ثلاثٌ، صغيرة وبائسة ولكلّ منها غطاء من النّسيج، وغرفة خشبيّة واسعة، وعربتا نقلٍ مسقوفتان صدرت منهما لدى اقترابي أصوات حيوانات بريّة، ولكنّني لم أرَ أثراً لعربتَي آل دريسكول الجميلتين

بألوانها الزّاهية.

دُرتُ حول النّزل فلمحتُ ضوءاً يُنير نافذةً زجاجيّةً فقرعتُ الباب معتقداً أنّ ساكنيه ما كانوا بعدُ نياماً. ففتح لي صاحب النّزل ذو الوجه الكدِر الذي لمحته في اليوم السّابق مسلّطاً قنديله إلى وجهي. فرأيتُ أنّه عرفني ولكن بدل أن يُفسح لي في المجال للدّخول، وضع قنديله خلف ظهره ونظر حوله وأصاخ السّمع لبضع ثوانٍ ثمّ قال:

- لقد غادرت العربتان وقد أوصاني والدك بأن أقول لك أن توافيه إلى بلدة لِوِس من دون إبطاء، ماشياً طوال اللّيل. رحلة سعيدة!

ثمّ أغلق الباب في وجهي ولم يقل المزيد.

كنتُ منذ مجيئي إلى إنكلترا قد تقدّمت في تعلُّم الإنجليزيّة ففهمتُ هذه العبارة الوجيزة. ومع ذلك، كان فيها كلمة هي الأهمّ وما كانت تعني لي شيئاً: لقد لفظ صاحب النّزل كلمة «لِوِس»، فأين تقع هذه المنطقة؟ لم تكن لي أدنى فكرة، إذ كنتُ أجهل أنّ «لِوِس» كما لفظها الرّجل على الطّريقة الإنجليزيّة كانت هي نفسها «لُويس»، البلدة التي رأيتُ اسمها مكتوباً على الخارطة.

ولكن حتّى لو عرفتُ أين تقع «لِوِس» تلك، فأنا لم أكن قادراً على الذّهاب إليها فوراً، متخلّياً عن ماتيا. ولذا كان عليّ العودة إلى ميدان السّبق رغم تعبي الكبير.

فعاودتُ الانطلاق، وبعد ساعة ونصف السّاعة كنتُ نائماً على رزمة من القشّ إلى جانب ماتيا في عربة بوب. وبكلمات قليلة رويتُ له ما حصل ثمّ غفوتُ وقد نالني التّعب.

بضع ساعات من النّوم كانت كافية لتُعيد إليّ قواي. فاستيقظتُ

في الصّباح جاهزاً للذّهاب إلى لِوِس شرط أن يكون ماتيا، الذي كان ما يزال نائماً، قادراً على مرافقتي.

فورَ خروجي من العربة، توجّهتُ إلى صديقنا بوب الذي كان قد استيقظ قبلي. كان مشغولاً بإشعال النّار. رحتُ أنظر إليه وهو على أربع ينفخ تحت القدْر بكلّ قواه عندما بدا لي أنّني كنت أرى كابي مُقبِلاً يقوده شرطيّ.

فتجمّدتُ في مكاني ذاهلاً وأنا أتساءل عمّا يمكن أن يعنيه ذلك. ولكنّ كابي كان قد عرفني فشدّ بقوّة على المقود الذي أفلتَ من يد الشّرطيّ، وببضع وثبات هرع إليّ وقفز بين ذراعي.

فاقترب الشّرطيّ وسألني:

- هل هذا كلبك؟

- نعم.

- أنت إذن موقوف.

قال ذلك وأمسك بذراعي بقوّة.

كلمات الشّرطيّ وحركته جعلت بوب يقف ويقترب منّا، ثمّ سأل الشّرطيّ:

- ولمَ توقف هذا الصّبيّ؟

- أأنت شقيقه؟

- كلاّ، أنا صديقه.

- لقد دخل اللّيلة الفائتة رجلٌ وصبيّ إلى كنيسة القدّيس جورج عبر نافذة مرتفعة مستخدمين سلّماً. كان يرافقهما هذا الكلب لينبّههما في حال وصول أحدهم. وهذا ما حدث. ولكن في غمرة المفاجأة لم

يتسنّ لهما اصطحاب الكلب وهما يفرّان من النّافذة. ولمّا لم يستطع الكلب اللّحاق بهما، عُثر عليه في الكنيسة. كنتُ واثقاً أنّه بوجود الكلب سأكتشف السّارقين وها إنّي أقبض على الأوّل، فأين الوالد؟

لم أعرف ما إذا كان هذا السّؤال موجّهاً لبوب أم لي أنا. فلم أُجِب إذ كنتُ أشعر بالانهيار.

ومع ذلك كنتُ أدرك ما الذي حصل. كنتُ قادراً على تخمينه رغماً عنّي: فكابي لم يؤخَذ منّي لحراسة العربتين، بل لأنّه مرهف السّمع وبإمكانه تنبيه مَن يقومون بالسّرقة في الكنيسة. وعليه، فإنّ العربتين لم تغادرا ليلاً عن رغبة في المبيت في نُزُل «السّنديانة الكبيرة» بل لأنّ السّرقة قد افتضحت وكان يجب الهرب بأسرع ما يمكن.

ولكن لم يكن عليّ أن أفكّر في المذنبين بل في نفسي. ومهما كان ما فعلوه فبإمكاني الدّفاع عن نفسي وإثبات براءتي دون أن أتّهمهم. لم يكن عليّ إلاّ إخبار الشّرطيّ بما فعلتُه تلك اللّيلة.

وفيما أفكّر على هذه الشّاكلة، خرج ماتيا من العربة بعدما سمع صوت الشّرطيّ أو الصّياح الذي كان يتعالى، وهرع إليّ وهو يعْرج.

فقلتُ لبوب:

– اشرحْ له أنّني لستُ مُذنباً وأنّني بقيتُ معك حتّى السّاعة الواحدة بعد منتصف اللّيل، ثمّ ذهبتُ إلى نُزُل السّنديانة الكبيرة حيث تحدّثتُ مع صاحب النّزل وبعد ذلك عدتُ إلى هنا فوراً.

ترجم بوب كلماتي للشّرطيّ، ولكن لم يبدُ على هذا الأخير أنّه اقتنع كما كنتُ آمل، بل بالعكس. قال الشّرطيّ:

– لقد دخل السّارقان إلى الكنيسة في الواحدة والرّبع. وهذا

الصّبيّ انطلق من هنا في الواحدة أو قبلها بدقائق كما يدّعي، وهذا يعني أنّه كان في مقدوره أن يكون في الكنيسة إلى جانب اللّصوص في الواحدة والرّبع.

فقال بوب:

- يلزم أكثر من ربع ساعة للوصول من هنا إلى المدينة.

فأجاب الشّرطيّ:

- أوه! يمكن ذلك إن ذهب ركضاً. ثمّ من يُثبت لي أنّه غادر في الواحدة؟

- أنا، وأُقسم بذلك، هتف بوب.

- أوه! أنت، يجب أن نرى ما تساويه شهادتك، قال الشّرطيّ.

فغضب بوب وقال بوقار:

- حذار، فأنا مواطن إنجليزيّ.

فهزّ الشّرطيّ كتفيه.

- إن أهنتَني فسأكتب لجريدة التّايمز، أضاف بوب.

- في تلك الأثناء سأسوق الصّبيّ ليشرح ما حصل أمام القاضي.

فارتمى ماتيا بين ذراعيّ، وخلتُ أنّه يفعل ذلك لمعانقتي، ولكنّ ماتيا كان يقدّم الجوانب العمليّة على العاطفة. إذ همسَ لي قائلاً:

- تشجّعْ. فلن نتخلّى عنك.

وبعد ذلك فحسبُ عانقَني. فقلتُ له بالفرنسيّة:

- فليبقَ كابي معك.

ولكنّ الشّرطيّ فهمَ ما قلته، فعقّب:

- كلاّ، كلاّ، سيبقى الكلب معي. لقد ساعدني في العثور على هذا

الصّبيّ وسيساعدني في العثور على الآخرين.

كانت تلك هي المرّة الثّانية التي توقفني فيها الشّرطة، ولكنّ الشعور بالعار الذي أصابني كان أكبر هذه المرّة. فلم يكن الأمر يتعلّق بتهمة سخيفة كما حصل بخصوص البقرة. وإذا ما ثبتت براءتي من هذه التّهمة، أفلن أشعر بالألم لرؤية مَن يُعتَقد أنّي شريكهم في السّرقة يُحكم عليهم عن استحقاق؟

كان عليّ أن أشقّ طريقي، يقودني الشّرطيّ، بين صفوف المتفرّجين الذين كانوا يتزاحمون لدى مرورنا. ولكن خلافاً لما حصل في فرنسا، فإنّهم لم يُلاحقوني بالهتافات والتّهديدات، لأنّهم لم يكونوا مجرّد قرويّين بل أشخاص يعيش معظمهم في حرب دائمة مع الشّرطة: كانوا بهلوانات وأصحاب حانات وبوهيميّين و«ترامبس» كما يقول الإنجليز أي متشرّدين.

أمّا السّجنُ الذي أودعوني فيه فلم يكن مثيراً للضّحك مثل ذاك الذي وجدناه مليئاً بالبصل. كان سجناً فعليّاً له نافذة مشبّكة بقضبان حديديّة ضخمة، من شأنِ رؤيتها وحدها أن تُجهض في البيضة أدنى نيّة في الهرب. وكان الأثاث يتألّف من مقعد للجلوس وأرجوحة معلّقة للنّوم.

فارتميتُ على المقعد وبقيتُ لوقتٍ طويلٍ منهاراً أفكّر في وضعيَ الحزين، مشتّتَ الذّهن وعاجزاً عن التّفكير بوضوح.

كم كان الحاضر رهيباً والمستقبل مُخيفاً!

كان ماتيا قد قال لي عندما تركتُه: «تشجّعْ، فنحن لن نتخلّى عنك». ولكن ما كان يقدر أن يفعل ولدٌ مثل ماتيا؟ وحتّى رجل مثل بوب ما

كان يقدر أن يفعل إذا ما افترضنا أنّه يقبل بمساعدة ماتيا؟

عندما نكون في السّجن، تلحّ علينا فكرة واحدة، ألا وهي فكرة الخروج.

فكيف كان سيقدر ماتيا وبوب، إذا لم يتخلّيا عنّي وإذا ما فعلا كلّ شيء لمساعدتي، على إخراجي من ذلك الحبس المُظلم؟

اتّجهتُ إلى النّافذة وفتحتها لألمس قضبان الحديد التي تتقاطع لتُغلقها من الخارج. كانت القضبان مثبّتة في الحجارة. تفحّصتُ الأسوار ووجدتُ أنّ سماكتها تبلغ متراً. أمّا الأرض فكانت مبلّطة بأحجار كبيرة والباب مصفّحاً بالحديد.

فعدتُ إلى النّافذة المُشرفة على باحة صغيرة، ضيّقة وطويلة، يسدّ طرفها جدارٌ ضخم بعلوّ أربعة أمتار تقريباً.

كان من الواضح أنّه يتعذّر الفرار من ذلك السّجن حتّى بمساعدة أصدقاء مُتفانين. فما تقدر أن تفعل الصّداقة المتفانية أمام قوّة الأشياء؟ فالتّفاني لا يخترق الأسوار.

كان السّؤال بالنّسبة إليّ في تلك اللّحظة هو معرفة كم من الوقت سأبقى في هذا السّجن قبل أن أمثُلَ أمام القاضي الذي سيقرّر مصيري.

فهل سأتمكّن من أن أُثبت له براءتي رغم وجود كابي في الكنيسة؟

وهل سأكون قادراً على الدّفاع عن نفسي دون أن أرمي بالتّهمة على مَن لم أكن أريد، ولا أقدر، أن أجرؤ على اتّهامهم؟

هنا كان يكمن بالنّسبة إليّ كلّ شيء، وفي هذا فحسبُ كان ماتيا وصديقه بوب قادرين على مساعدتي: كان دورهما يقضي بجمع

الشّهادات التي تُثبت أنّ من غير الممكن أن أكون في الواحدة والرّبع في كنيسة القدّيس جورج. إنْ تمكّنا من إثبات ذلك، فسأُنقَذ رغم شهادة كابي المسكين الصّامتة ضدّي. وكان يبدو لي أنّ جمع هذه الشّهادات لم يكن بالأمر المتعذّر.

آه! لو لم تكن قدم ماتيا جريحة لعرفَ كيف يجتهد ويبحث. لكن هل سيتمكّن في حالته تلك من الخروج من العربة؟ وإن لم يتمكّن من ذلك فهل سيقبل بوب بأن يحلّ محلّه؟

لم تسمح لي هذه المخاوف وسواها بالنّوم رغم تعبي المتراكم في اللّيلة الفائتة. كما لم تسمح لي بأن أمسّ الطّعام الذي كان أُحضِر لي. ولئن كنتُ تركتُ الطّعام جانباً فإنّني أسرعتُ إلى الماء وأنا يتأكّلني عطشٌ رهيب. وطوال النّهار، ظللتُ أذهب إلى الإبريق كلّ ربع ساعة أشرب منه جرعات كبيرة دون أن أشعر بالارتواء ولا في تخفيف طعم المرارة في فمي. وعندما رأيتُ السّجّان يدخل إلى الزّنزانة، شعرتُ بالرّاحة وبما يشبه الأمل، فمنذ أُقفِل عليّ باب السّجن كان سؤالٌ واحد يؤرّقني ويُلهِب مشاعري ولا أحير له جواباً: متى يستجوبني القاضي؟ ومتى أتمكّن من الدّفاع عن نفسي؟

كنتُ سمعتُ أخباراً عن سجناء يمكثون في السّجن شهوراً قبل أن يُصار إلى محاكمتهم أو استجوابهم، وهما سِيّان عندي. ولكنّني كنتُ أجهل أنّه في إنكلترا لا يمرّ أبداً بين التّوقيف والمثول أمام القاضي أكثر من يوم أو يومين.

لذا كان هذا السّؤال الذي لم أكن أحير له جواباً هو أوّل ما طرحتُه على السّجّان الذي لم يكن يبدو عليه أنّه رجلٌ شرّير. فأجاب بأنّني

سأمْثل أمام المحكمة على الأرجح في الغد.

ولكنّ سؤالي أوحى له بأن يسألني بدوره. ولأنّه أجاب على سؤالي أفلم يكن من العدل أن أجيب على سؤاله أنا أيضاً؟

- ولكن كيف تمكّنتَ من الدّخول إلى الكنيسة؟ سألني.

فأجبتُ على سؤاله هذا بتأكيدات جازمة على براءتي، ولكنّه نظر إليّ هازّاً كتفيه. ولمّا رآني مصرّاً على كوني لم أدخل إلى الكنيسة، اتّجه إلى الباب وهو يحدّق بي، ثمّ تمتم قائلاً:

- لَكم هم فاسدون أولاد لندن!

ثمّ خرج.

أثّرَتْ بي كلماته بقسوة. فرغم أنّ هذا الرّجل لم يكن هو القاضي الذي سيحاكمني فإنّني كنتُ أريد أن يقتنع ببراءتي. كان يجب أن يرى من لكنتي ونظراتي أنّني بريء.

إذا كنتُ لم أقنع الحارس ذاك فهل سأتمكّن من إقناع القاضي؟ لحسن حظّي سيكون هناك أشخاصٌ يشهدون لصالحي، وإن لم يصدّق القاضي ما أقول فسيكون مُرغَماً على تصديق الشّهادات التي تبرّئني.

ولكن كان ينبغي أن أحصل على الشّهادات تلك.

فهل سأحصل عليها؟

بين حكايات المساجين التي كنتُ أعرفها، تحكي واحدة عن الأساليب التي تُعتمد للتّواصل والمحبوسين، كأنْ تُخبّأ في الأطعمة المجلوبة من الخارج رسائل صغيرة.

فهل لجأ ماتيا وبوب إلى هذه الحيلة؟ وما إن خطرت لي هذه الفكرة

حتّى رحتُ أفتّت رغيف الخبز الذي أحضروه لي ولكن لم أعثر على شيء في داخله. وإلى جانب رغيف الخبز، كانوا قد أحضروا لي حبّات بطاطس، فهرستُها ولكنّها لم تكن تحوي أيّ ورقة.

كان واضحاً أنّ ماتيا وبوب لم يكن لديهما ما يقولانه لي، أو أنّهما ما كانا على الأرجح قادرَين على قول شيء.

فلم يكن بوسعي إلاّ انتظار اليوم التّالي دون كبيرِ حزنٍ إن كان ذلك ممكناً. ولكن لسوء الحظّ لم أتمكّن من ذلك، وطوال حياتي سأظلّ أتذكّر تلك اللّيلة الرّهيبة كما لو أنّها حصلت بالأمس. آه! كم كنتُ مجنوناً إذ لم أصدّق توجّس ماتيا ومخاوفه!

في صباح اليوم التّالي دخل السّجّان إلى زنزانتي حاملاً إبريقاً وطستاً ودعاني للاغتسال إن كنتُ راغباً في ذلك، لأنّني سأمثل أمام القاضي. ثمّ أضاف أنّ لباساً مرتّباً يكون أحياناً أفضل طريقة للدّفاع يملكها متّهم.

بعدما فرغتُ من الاغتسال، أردتُ الجلوس إلى المقعد ولكنّني عجزتُ عن اللّبث في مكان واحد فجعلتُ أدور في زنزانتي كما تدور الحيوانات في الأقفاص.

كنتُ أريد تهيئة ردودي وما سأقول دفاعاً عن نفسي، ولكنّني كنتُ مرتعباً بشدّة. وبدل التّفكير في اللّحظة الرّاهنة، كنتُ أفكّر في كلّ الأمور السّخيفة التي كانت تخترق فكريَ التّعِب كأخيلة مصباحٍ سحريّ.

عاد السّجّان وقال لي أن أتبعه. فمشيتُ إلى جانبه وبعدما اجتزنا عدّة ممرّاتٍ صرنا أمام باب صغير قام هو بفتحه وقال لي:

- تفضّلْ!

هبّ في وجهي هواء ساخن وسمعتُ لغطاً مُبهماً، فدخلتُ ووجدتُني أمام منبر صغير: كنتُ في صالة المحكمة.

ورغم أنّني كنتُ تحت تأثير الهذيان وأشعر بعروق جبيني تنتفض كما لو كانت على أهبة الانفجار، أدرت نظري حولي وتمكّنتُ من أن أرى بوضوحٍ تامٍّ ما كان يحيط بي: صالة المحكمة والنّاس الذين يملأونها.

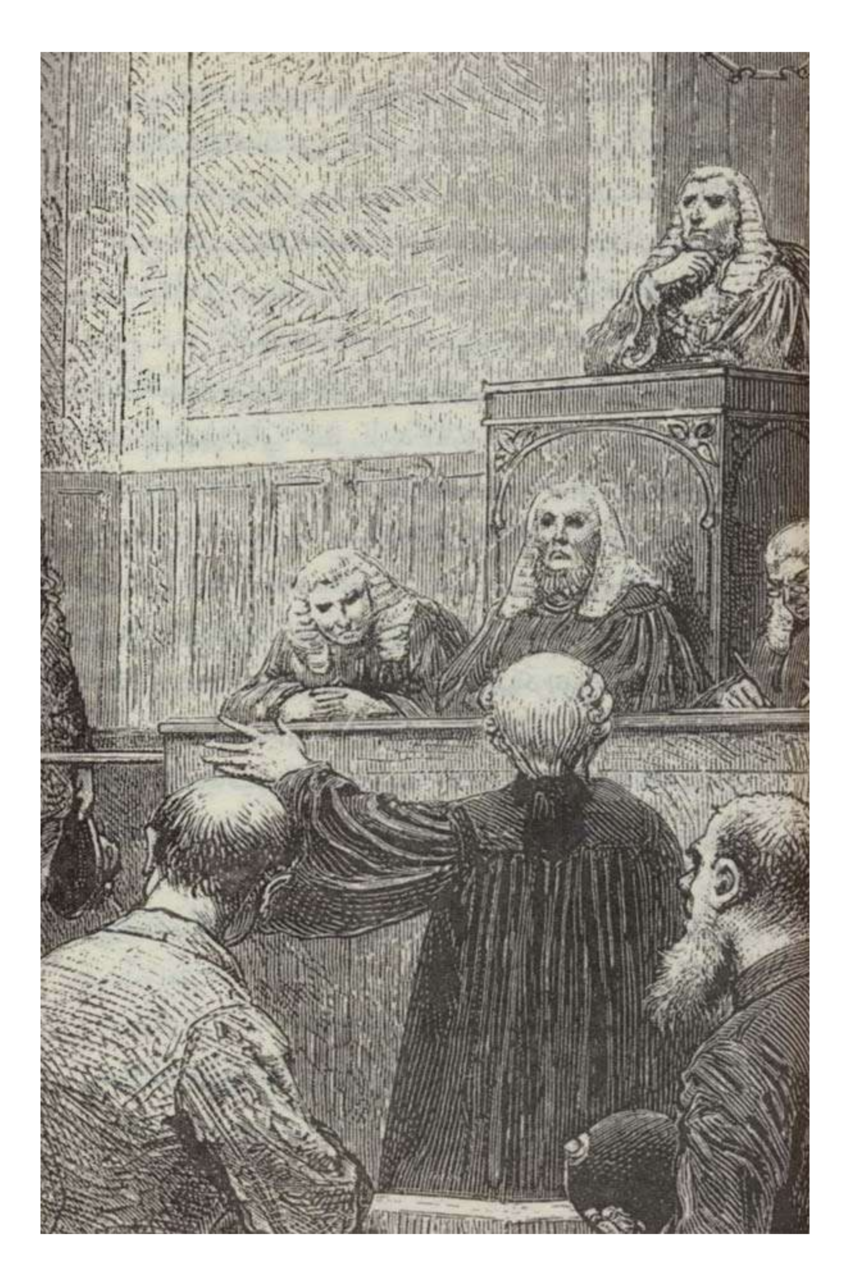
كانت صالة كبيرةً نسبيّاً، سقفها عالٍ ولها نوافذ عريضة، وكانت مقسومة إلى نطاقين: الأوّل مخصّص للمحكمة والثّاني للجمهور.

كان القاضي جالساً على منصّةٍ مرتفعة. وأمامه، عند مستوى أكثر انخفاضاً، كان يجلس ثلاثة أشخاص عرفتُ فيما بعد أنّهم كاتب المحكمة وأمين الصّندوق المسؤول عن الغرامات وقاضٍ آخر يُسمّى في فرنسا النائب العامّ. وأمام منصّتي كان يقف شخص يرتدي ثوباً وشعراً مستعاراً، هو محاميَّ أنا.

كيف عُيّن لي محامٍ؟ ومن أين أتى؟ ومن عيّنه لي؟ أهما ماتيا وبوب؟ لم تكن اللّحظة ملائمة لطرح أسئلة كهذه. كان لديّ محامٍ وكان هذا كافياً.

على منصّةٍ أخرى، لمحتُ بوب وصديقيه ومدير نُزل «السّنديانة الكبيرة» وأشخاصاً لا أعرفهم. وعلى منصّة أخرى مُقابِلة للمنصّة الأولى رأيتُ الشّرطيّ الذي ألقى عليّ القبض، فضلاً عن أشخاص عديدين كانوا معه: ففهمتُ أنّ هاتين المنصّتين هما منصّتا الشّهود.

كان النّطاق المخصّص للجمهور ممتلئاً. رأيتُ ماتيا واقفاً على



درابزون، فتلاقت عيوننا، وعلى الفور شعرتُ بالشّجاعة تسندني: صحيح أنّه كان هناك من سيُحامي عنّي، ولكن كان عليّ ألاّ أستسلم وأن أحامي أنا عن نفسي. لم تعد النّظرات المصوّبة إليّ تسحقني.

افتتح النّائب العام الجلسة، وعرضَ القضيّة بكلمات قليلة إذ كان يبدو عليه أنّه في عجلة من أمره: لقد حصلت سرقة في كنيسة القدّيس جورج. دخل اللّصّان، وهما رجل وصبيّ، إلى الكنيسة بواسطة سُلّم بعدما حطّما إحدى النّوافذ. كان يرافقهما كلب اصطحباه ليحرس المكان وينبّههما لأيّ خطر. أحد المارّة المتأخّرين، الذي صادف مروره في المكان في الواحدة والرّبع، استغرب وجود ضوء خافت في الكنيسة، فأصغى وسمع طقطقة في الدّاخل. فسارع إلى إيقاظ القندلفت وعاد برفقته ومعهما أشخاص عديدون، ولكنّ الكلب نبح في تلك اللّحظة. وفيما كان باب الكنيسة يُفتح فرّ السّارقان من النّافذة مرتعدَين تاركَين الكلب الذي لم يتمكّن من ارتقاء السلّم. ولمّا قام الشّرطيّ جيري، الذي لا يمكن شكره بما فيه الكفاية على ذكائه وحميّته، باقتياد الكلب إلى ميدان السّبق، تعرّف هذا الأخير على صاحبه، وهو المتّهم الجالس هنا. أمّا اللّص الثّاني فما زال البحث عنه مستمرّاً.

وبعد عدّة ملاحظاتٍ تُثبت تورّطي سكت النّائب العام، فصرخ صوتٌ زاعق:

- سكوتاً!

وإذا بالقاضي يسألني، دون أن يستدير صوبي، وكما لو كان يحدّث نفسَه، عن اسمي وسنّي ومهنتي.

فأجبتُ بالإنجليزيّة أنّ اسمي فرنسيس دريسكول وأنّني أعيش مع والديّ في لندن في ساحة الأسد الأحمر في بثنال-غرين. ثمّ طلبتُ الإذن للتّحدّث بالفرنسيّة نظراً لكوني ترعرعتُ في فرنسا ولأنّه لم يكن مضى على وجودي في إنكلترا إلاّ بضعة شهور.

فقال القاضي بقسوة:

- لا تظّن أنّك ستخدعني، فأنا أجيد الفرنسيّة.

فرويتُ بالفرنسيّة ما جرى، وشرحتُ كيف أنّه يستحيل أن أكون في الكنيسة في السّاعة الواحدة لأنّني في ذلك الوقت كنتُ في ميدان السّبق، وفي السّاعة الثّانية والنّصف كنتُ في نُزُل «السّنديانة الكبيرة».

- وأين كنتَ في الواحدة والرّبع؟ سأل القاضي.

- في الطّريق.

- هذا ما يجب إثباته. أنت تقول إنّك كنتَ في طريقك إلى نُزُل «السّنديانة الكبيرة»، في حين يؤكّد الاتّهام أنّك كنتَ في الكنيسة وأنّك انطلقتَ من ميدان السّبق في الواحدة إلاّ بضع دقائق، وأنّك وافيتَ شريكك في الجرم عند جدار الكنيسة حيث كان في انتظارك مع السلّم، وأنّك لم تذهب إلى نُزُل «السّنديانة الكبيرة» إلاّ بعد محاولة السّرقة الفاشلة.

فحاولتُ أن أُثبت أنّ هذا غير ممكن لكنّني رأيتُ أنّ القاضي لم يقتنع. وسألني:

- وكيف تفسّر وجود كلبك في الكنيسة؟

- لستُ قادراً على تفسيره، لا بل لا أفهمه. فكلبي لم يكن معي، كنتُ قد أوثقته صباحاً إلى إحدى عربتينا.

لم يكن يناسبني أن أقول المزيد، لأنّني لم أكن أريد أن أمدّهم بأسلحة يستخدمونها ضدّ أبي. نظرتُ إلى ماتيا، فأشار إليّ بأن أتابع ولكنّني لم أفعل.

ثمّ استُدعيَ شاهدٌ وقُدّمَت له نسخة من الكتاب المقدّس ليُقسم عليها بقول الحقيقة بكلّ تجرّد.

كان رجلاً سميناً وقصير القامة تبدو عليه أمارات المهابة رغم وجهه الأحمر وأنفه المزرقّ. وقبل أن يؤدّي القَسَم، ركع أمام المحكمة ثم عاود الوقوف مختالاً: كان هو قندلفت كنيسة القدّيس جورج.

بدأ حديثه بأن روى مطوّلاً مدى ارتباكه والصّدمة التي أحسّ بها عندما أوقِظَ فجأة وقيل له إنّ في الكنيسة لصوصاً. فكّر في البداية أنّ الأمر مجرّد دعابة، ولكن بما أنّه لا يمكن المزاح مع شخصٍ مثله أدرك أنّ أمراً خطيراً كان يحصل. فارتدى ملابسه بسرعة فائقة حتّى لقد وقع من صديريّته زرّان اثنان، وهُرِع إلى الكنيسة وفتح بابها ووجدَ... من؟ أو بالأحرى ماذا؟ لقد وجدَ كلباً.

لم يكن لديّ ما أجيب به عن هذا الكلام، ولكنّ محاميَّ الذي لم يكن حتّى تلك اللّحظة قد تفوّه بكلامٍ وقف وهزّ لمّة شعره المستعار وسوّى ثوبه على كتفيه وشرع يستنطق القندلفت:

– ومن الذي أقفل باب الكنيسة في مساء اليوم السّابق؟

– أنا، فهذه من مهمّاتي، أجاب القندلفت.

– أأنتَ واثق من ذلك؟

– عندما أقوم بشيء أكون واثقاً من قيامي به.

– وعندما لا تقوم به؟

- أكون واثقاً من عدم قيامي به.

- ممتاز! يمكنك إذن أن تُقسمَ بأنّك لم تُقفل على الكلب داخل الكنيسة؟

- لو كان الكلب في الكنيسة لرأيتُه.

- هل بصرُك جيّد؟

- هو مثل بصر سائر النّاس.

- ألم تصطدم قبل ستّة شهور بعجلٍ مذبوحٍ معلّقٍ أمام دكّان أحد القصّابين؟

- لا أفهم ما أهميّة سؤال كهذا لرجلٍ في منزلتي، هتف القندلفت وازرقّ وجهه وبدا ممتقعاً.

- أرجو أن تتفضّل بالإجابة على سؤالي كما لو كان مهمّاً.

- هذا صحيح، لقد اصطدمتُ بغير انتباهٍ بالعِجل المعروض أمام واجهة دكّان القصّاب.

- ولكن ألمْ ترَه؟

- كنتُ شارِدَ الفكر.

- كنتَ قد تناولتَ عشاءك للتوّ عندما أغلقْتَ باب الكنيسة؟

- طبعاً.

- وعندما اصطدمتَ بذلك العجل، ألم يحصل ذلك بعد تناولك العشاء مباشرةً؟

- ولكن...

- أتقول إنّك لم تتعشَّ؟

- بلى.

- وهل تتناول جعة خفيفة أم قويّة أثناء العشاء؟
- قويّة بالأحرى.
- كم كأساً؟
- اثنتين.
- ألا تشرب أكثر أبداً؟
- أحياناً ثلاث كؤوس.
- ولا تشرب أربع كؤوسٍ أو ستّاً أبداً؟
- هذا نادر الحصول.
- وهل تتناول شيئاً من الـ «غروغ»[1] بعد العشاء؟
- أحياناً.
- وهل تحبّه مركّزاً أم مخفّفاً نوعاً ما؟
- لا أحبّ أن يكون مخفّفاً جدّاً.
- وكم كأساً تشرب منه؟
- حسب...
- أأنت مستعدّ لأن تقسم أنّك لا تشرب منه ثلاث كؤوس أو أربعاً أحياناً؟

لم يُجِب القندلفت وقد راحت بشرته تزرقّ أكثر فأكثر، فقال المحامي وهو يجلس:

- هذا الاستجواب يُبرهن بما فيه الكفاية على أنّ الشّاهد يمكن أن يكون قد أوصد باب الكنيسة والكلب في داخلها. فهو بعد تناوله العشاء يصير عاجزاً عن رؤية عِجلٍ لأنّه يكون شارد الذّهن. هذا كلّ

(1) مشروب مُحلّى مع الماء السّاخن والليمون (المترجمة).

ما أردتُ معرفته.

لو تجرّأتُ لقبّلتُ محاميَّ! لقد نجوتُ.

إذ لمَ لا يكون قد أغلقَ الكنيسة على كابي؟ كان ذلك ممكناً. وإذا ما كان أغلقَ على كابي بهذه الشّاكلة، فلم أكن أنا إذن مَن أدخلتُه إلى هناك، وهذا يعني أنّني لستُ مُذنباً طالما أنّ تلك هي التّهمة الوحيدة التي كانت موجّهة إليّ.

بعد القندلفت، أدلى بشهاداتهم أشخاص كانوا يرافقونه عندما دخل الكنيسة، ولكنّهم لم يروا شيئاً باستثناء النّافذة المفتوحة التي فرّ منها اللّصّان.

ثمّ استمعت المحكمة إلى شهودي أنا: بوب ورفيقيه وصاحب النُّزل، الذين رووا ما فعلتُ تلك اللّيلة. إلاّ أنّ مسألةً واحدة لم توضَّح، وكانت أساسيّة لأنّها تتعلّق بالسّاعة المحدّدة التي كنتُ غادرتُ فيها ميدان السّبق.

بعد انتهاء الاستجوابات، سألني القاضي ما إذا كان لديّ ما أضيفه، ونبّهني إلى أنّني بوسعي أن ألتزم الصّمت إن وجدتُ ذلك أفضل لي.

فأجبتُ بأنّني بريء وأنّني أثق بعدالة المحكمة.

فطلب القاضي قراءة محضر أقوال الشّهود التي كنتُ سمعتُها للتوّ، ثمّ أعلن أنّني سأُنقَل إلى سجن المقاطعة في انتظار أن تقرّر لجنة القضاة ما إذا كانوا سيُحيلونني إلى محكمة الجنايات.

محكمة الجنايات!

فانهرتُ على مقعدي. كم كنت آسفاً لأنّني لم أعمل بنصيحة ماتيا!



بوب

بعدما أعادوني إلى السّجن بوقتٍ طويلٍ، وجدتُ تفسيرَ كونهم لم يُطلقوا سراحي: كان القاضي يريد انتظار توقيف مَن كانوا قد دخلوا الكنيسة ليرى إن لم أكن متواطئاً معهم.

كان النّائب العام قد قال إنّ الشرطة باتت عارفة بمكامنهم، ما يعني أنّني سأمْثل عمّا قريب إلى جانبهم مجلّلاً بالعار والألم في محكمة الجنايات.

متى سيحدث ذلك؟ متى سيتمّ نقلي إلى سجن المقاطعة؟ وكيف هو ذلك السّجن؟ وأين يقع؟ أهو أكثر كآبةً من ذلك الذي كنتُ فيه؟

كان في هذه الأسئلة ما يشغل تفكيري، فمرّ الوقت أسرع ممّا في اليوم السّابق. فأنا لم أعد تحت طائلة التلهّف المحموم، وكنتُ أعرف أنّه ينبغي الانتظار.

فجعلتُ أنتظر، متمشّياً تارةً وجالساً على مقعدي تارةً أخرى.

قبل هبوط اللّيل بقليلٍ سمعتُ عزفَ بوق فعرفتُ من طريقة العزف أنّ ذاك هو ماتيا: يا للصّبيّ الطّيّب! كان يريد أن يقول لي إنّه يفكّر فيّ وإنّه كان ما يزال صاحياً. كان العزف يأتي من خلف الجدار المواجِه لنافذتي: لا بدّ أنّ ماتيا كان من الجهة الأخرى من الجدار، في الشّارع، لا يفصلنا سوى مسافة قصيرة لا تتعدّى بضعة أمتار.

للأسف أنّ الأبصار لا يمكنها اختراق الأسوار. ولكن إن لم يكن النّظر يعبر الجدران فالصّوت يعبرها. وإلى رنين البوق، جاء ينضاف وقع خطوات وضوضاء مبهمة ففهمتُ أنّ ماتيا وبوب كانا يقدّمان هناك على الأرجح عرضاً موسيقيّاً.

لمَ يا ترى اختارا ذلك المكان؟ ألأنّه كان ملائماً للكسب؟ أم كانا يريدان تنبيهي لشيء ما؟

وفجأةً سمعتُ صوتاً جليّاً، كان هو صوت ماتيا يصرخ بالفرنسيّة: «غداً عند طلوع الصّباح!»، ثمّ سرعان ما استأنف العزف على البوق أقوى فأقوى.

لم يكن يلزم إعمال الفهم كثيراً لأدرك أنّ ماتيا لم يكن يتوجّه إلى جمهوره الإنجليزيّ عندما صرخ بهذه الكلمات: «غداً عند طلوع الصباح!»، وإنّما لي أنا. ولكن في المقابل لم يكن سهلاً أن أخمّن ما تعنيه هذه الكلمات، فرُحتُ من جديدٍ أطرح على نفسي أسئلة كان يصعب عليّ إيجاد أجوبةٍ منطقيّة لها.

لكنّ أمراً وحيداً كان واضحاً ودقيقاً وهو أنّني في صباح اليوم التّالي ينبغي أن أستيقظ في وقت باكر جدّاً، وأكون متأهّباً! وحتّى ذلك الحين كان عليّ أن أصبر إنْ أنا استطعتُ ذلك.

وما إن خيّم الظلام حتّى استلقيتُ محاولاً النّوم. سمعتُ الرقّاص يدقّ معلناً عن عدّة ساعاتٍ متواليةٍ قبل أن يغشاني النّوم أخيراً ويحملني على جناحيه.

عندما استيقظت، كان الظلام دامساً والنّجوم تأتلق في سماء حالكة السّواد ولم يكن يُسمع أدنى ضجيج. لا بدّ أنّ النّهار كان ما يزال

بعيداً. فعدتُ لأجلسَ على مقعدي، وأنا لا أجرؤ على المشي خوفاً من أن ألفت الانتباه إن مرّت دوريّة مراقبة، فانتظرت. وسرعان ما دقّت السّاعة معلنةً عن الثالثة فجراً: كنتُ أبكرتُ في الاستيقاظ، إلاّ أنّني لم أجرؤ على العودة إلى النّوم، وحتّى لو أردتُ ذلك فلا أظنّ أنّني كنتُ سأفلح: كنتُ شديد القلق والاضطراب.

مشغلتي الوحيدة كانت هي عدّ دقّات السّاعات. ولكن كم كانت تبدو لي طويلةً الدّقائق الخمس عشرة الفاصلة بين تمام السّاعة ورُبعها، وكذلك بين الرّبع والنّصف. كنتُ أشعرُ بها شديدة الطّول بحيث كنتُ أتخيّل أحياناً أنّ السّاعة دقّت دون أن أسمعها أو أنّها كانت مختلّة.

مستنداً إلى الجدار، كنت أحدّق بالنافذة بثبات. وبَدا لي أنّ النّجم الذي كنت ألاحقه بالنظر راح ألقه يتناقص وأنّ السماء بدأت تبيضّ شيئاً فشيئاً.

كان النّهار يقترب، وفي البعيد سمعتُ صياح ديَكة.

فنهضتُ وتوجّهتُ على رؤوس أصابعي إلى النّافذة لأفتحها. كان فتحُها بحيث لا تُحدث ضجيجاً عمليّة دقيقة، ولكنّني قمت بذلك بتمهّلٍ ورفقٍ حتّى تمكّنتُ منها.

لحسن الحظّ كان ذلك المحبس المظلم قد أقيم في صالة قديمة منخفضة حُوّلت سجناً، وأنّه عُهد إلى القضبان الحديديّة بحراسة المساجين. فلو لم تُفتح نافذتي لما تمكّنتُ من الردّ على نداء ماتيا. ولكنّ فتح النّافذة لم يكن كلّ شيء: فقضبان الحديد كانت ما تزال في مكانها والأسوار السّميكة كذلك، والباب المصفّح بالحديد. كان من الجنون

إذن التّفكير في الحرّيّة ومع ذلك ظللتُ أحلم بها.

رويداً رويداً راح بريق النّجوم يخفت، وبردُ الصّباح جعلني أرتجف ولكنّني لم أبرح النّافذة. بقيتُ واقفاً عندها، مُصغياً ومراقباً دون أن أعرف إلى أيّ شيء أصغي وما أراقب.

ثمّ ارتفع في السّماء حجابٌ كبير أبيض، وعلى الأرض بدأت أشكال الأشياء ترتسم بوضوح. كان ذلك هو الفجر الذي تكلّم عنه ماتيا. فرحتُ أصغي حابساً أنفاسي، ولكنّني لم أسمع إلاّ دقّات قلبي.

وأخيراً، بدا لي أنّني كنت أسمع على الجدار حكّاً، ولكن لأنّني لم أسمع وقع خطوات تسبقه، خلتُني مُخطئاً. بيد أنّني أصختُ السّمع، فإذا بالحكّ يتواصل. وفوراً رأيتُ أنّه لم يكن صادراً عن ماتيا، وبالرّغم من العتمة التي كانت ما تزال مسيطرة عرفتُ بوب.

رآني ملتصقاً بقضبان النّافذة، فقال بصوتٍ خفيض:

- هسّ!

وبإشارةٍ من يديه، أفهمني أنّ عليّ الابتعاد عن النّافذة. فابتعدتُ ولمّا أفهمْ. ثمّ بدا لي أنّه يحمل في يده الأخرى أنبوباً لامعاً طويلاً كما لو كان من زجاجٍ، قرّبه من فمه. ففهمتُ أنّ تلك سبطانة[1]. ثمّ سمعتُ نفخاً وفي الآن عينه شاهدتُ كرة بيضاء صغيرة تجتاز الهواء وتسقط عند قدميّ. وللحال، اختفى رأس بوب وراء الجدار ولم أعد أسمع شيئاً.

فسارعتُ إلى التقاط الكُرة. كانت من ورق رقيق ملفوف حول

---

(1) السّبطانة: يعرّفها لسان العرب بأنّها قناة جوفاء يُصطاد بها الطّير، يُرمى فيها بسهامٍ صغيرة يُنفَخ فيها نفخاً (المترجمة).

خردقة رصاصٍ كبيرة. بدا لي أنّ ثمّة حروفاً مكتوبة عليها ولكن لم يكن هناك ضوء كافٍ بَعد لأتمكّن من قراءتها: عليّ إذن أن أنتظر طلوع النّهار.

فأعدتُ إغلاق النّافذة بحرصٍ وعدتُ سريعاً إلى الأرجوحة التي هي منامي، حاملاً الكرة الورقيّة في يدي.

ببطء، ببطء شديد لا تحتمله لهفتي، اصفرّ الفجر وفي النّهاية انسلّ على الجدران وميضورديّ ففتحتُ الورقة وقرأت:

«سينقلونك غداً مساءً إلى سجن المقاطعة: ستسافر في القطار في واحدة من عربات الدرجة الثانية برفقة شرطيّ. اجلسْ قرب الباب الذي تدخل منه، وبعد انطلاق القطار بخمسٍ وأربعين دقيقة (عُدَّها جيّداً) سيخفّف قطارك من سرعة سيره عند مفترق سكّتين. افتحْ عندئذٍ الباب وارمِ بنفسك إلى الأسفل بدون خوف: مدَّ يديك إلى الأمام واقفز محاولاً أن تقع على قدميك. وما إن تبلغ الأرض اصعدِ المنحدرَ القائم على يسارك، فسنكون نحن هناك بانتظارك ومعنا عربة وحصان سريع لنقلك. لا تخشَ شيئاً. وبعد يومين نكون في فرنسا. تشجّعْ ولا تفقد الأمل، وتذكّر خصوصاً أن ترمي بنفسك بعيداً وأنت تقفز وأن تهبط على قدميك».

لقد نجوتُ! لن أمْثُلَ أمام محكمة الجنايات، ولن أرى ما يحدث خلالها!

آه! ماتيا الشّجاع وبوب الطيّب! أنا واثق أنّ بوب هو من كان يساعد ماتيا بسخاء: «سنكون هناك في انتظارك ومعنا عربة وحصان سريع». لا يقدر ماتيا أن يهيّئ بمفرده خطّة كهذه!

أعدتُ قراءة الورقة: «بعد الانطلاق بخمسٍ وأربعين دقيقة... المنحدر إلى اليسار... ينبغي أن تهبط على قدميك».

أكيد أنّني سأرمي بنفسي بشجاعة حتّى لو قُتلت. فالموت أفضل من أن يُحكم عليّ كلصّ.

يا لها من خطّة مُحكمة:

«بعد يومين نكون في فرنسا»!

ولكن في غمرة فرحي، خطرت لي فكرة حزينة: ماذا عن كابي؟ لكنْ سرعان ما أقصيتُ هذه الفكرة. فمن المستحيل أن يرضى ماتيا بالتخلّي عن كابي، وإذا كان وجد طريقة لتهريبي فهو وجد حتماً طريقة لتهريب كابي كذلك.

أعدتُ قراءة الورقة مرّتين أو ثلاثاً، ثمّ مضغتُها وابتلعتُها. ولم يعد عليّ إلاّ النّوم باطمئنان. فغرقتُ في النّوم ولم أستيقظ إلاّ عندما أحضر لي السّجّان الطّعام.

مرّ الوقت بسرعة، وفي عصر اليوم التّالي دخل زنزانتي شرطيّ لا أعرفه وقال لي أن أتبعه. فارتحتُ لمّا رأيتُ أنّه في حوالى الخمسين من العمر ولا يبدو عليه أنّه شديد الرّشاقة.

سارت الأمور بحسَبِ وصفِ ماتيا. ولمّا انطلق القطار كنتُ إلى جانب الباب الذي دخلتُ منه، أجلس بعكس اتّجاه السّير والشّرطيّ أمامي. كنّا وحدنا في المقصورة.

- أتتكلّم الإنجليزيّة؟ قال لي.

- قليلاً.

- وتفهمها؟

- تقريباً، عندما لا يتكلّم مُخاطبي بسرعة.

- حسناً يا بنيّ، أريد أن أسدي لك نصيحة: لا تتذاكَ على القضاء واعترفْ فبِذا تكسب رِفق الجميع. فليس هناك ما هو أكثر إثارة للاستهجان من التّعامل مع أشخاص يُنكرون ما هو بديهيّ. أمّا من يقرّون بأفعالهم فيكسبون شتّى أنواع الودّ والإحسان. مثلاً إن أخبرتني كيف جرت الأمور بالضّبط فسأعطيكَ ريالاً إنجليزيّاً وسترى كيف أنّ المال سيلطّف من وضعك في السّجن.

كنتُ على وشك أن أجيب بالقول أنْ ليس لديّ ما أعترف به، ولكنّني فهمتُ أنّ من الأفضل لي كسب ودّ الشّرطيّ، بحسبِ تعبيره، فلم أُجِبْ بشيء.

فقال لي متابعاً:

- فكّرْ في الأمر. وعندما تقتنع في السّجن بسلامة نصيحتي، نادِني، إذ يجب عدم الاعتراف أمام أوّل شخصٍ تصادفه، بل يجب أن تختار شخصاً يهتمّ لأمرك. وكما ترى فإنّني جاهزٌ لمساعدتك.

فأومأتُ بالإيجاب.

- اسألْ عن دولفين. احفظ اسمي جيّداً.

- نعم يا سيّدي.

كنتُ مستنداً إلى الباب ونافذته مفتوحة. فسألتُ الشّرطيّ أن يسمح لي بتأمّل المنطقة التي كنّا نجتازها. وبما أنّه كان يريد أن «يخطب ودّي» أجابني بأنّني يمكنني تأمّل المنْظر بقدر ما يحلو لي. فما الذي يخشاه والقطار يسير بسرعة كبيرة؟

وسرعان ما جعله الهواء الذي كان يصْفق في وجهه يحسّ بالبرد،

فابتعد عن الباب ليقف في وسط عربة القطار.

أمّا أنا فلم يكن البرد يزعجني. فدسستُ يدي اليسرى خارجاً وأدرتُ قبضة الباب وباليمنى أمسكتُ به.

مرّ الوقت ثمّ صفرَ القطار وأبطأ سيره. كانت اللّحظة قد حانت، فدفعتُ الباب بسرعة وقفزتُ إلى أبعد ما أقدر عليه، فوجدتُني في خندق. لحسن الحظّ أنّ يديّ اللّتين كنت مددتُهما إلى الأمام هما اللّتان اصطدمتا بأرض المنحدر المعشبة، ولكنّ السّقوط كان عنيفاً بحيث تدحرجت على الأرض مغشياً عليّ.

ولمّا استعدتُ وعيي، خلتُ أنّني كنت ما أزال على متن القطار لأنّني كنتُ أشعر بحركة سريعة وأسمع صوت رجرجة. كنتُ ممدّداً على فراشٍ من القشّ.

الغريب أنّ وجهي كان مبلّلاً وعلى خدّيّ وجبيني تمرّ مداعبة رقيقة ودافئة.

ففتحتُ عينيّ لأجد كلباً، كلباً أصفر قبيحاً، منحنياً عليّ يلحسني. فالتقت عيناي بعينيّ ماتيا الذي كان جالساً القرفصاء إلى جانبي.

فقال لي وهو يُبعد الكلب ويقبّلني:

– لقد نجوت.

– أين نحن؟

– في العربة. يقودها بوب.

– كيف حالك؟ سألني بوب وهو يلتفت إليّ.

– لا أعرف. حسنة على ما أعتقد.

– حرّكْ يديك وساقيك، هتف بوب قائلاً.

كنتُ ممدّداً على القشّ، ففعلتُ ما يقول.

- هذا جيّد، ليس من كسور، قال ماتيا.

- ولكن ما الذي حصل؟

- لقد قفزتَ من القطار كما أوصيتُكَ ولكنّ الخضّة دوّختك فسقطتَ في الخندق. ولمّا لم نرَك تأتي، تدحرج بوب على المنحدر فيما كنتُ أنا أُمسكُ بالحصان وعاد بك وهو يحملك. خلنا أنّك متّ وخفنا كثيراً! وتألّمنا كثيراً أيضاً! ولكن ها قد نجوتَ.

- والشّرطيّ؟

- إنّه يواصل رحلته في القطار. والقطار لم يتوقّف.

بتّ أعرف الأساسيّ، فنظرتُ حولي ورأيتُ الكلب الأصفر الذي كان ينظر إليّ بحنان بعينين تشبهان عينَي كابي. ولكنّه لم يكن كابي، فكابي أبيض اللّون.

فسألتُه:

- وأين كابي؟

وقبل أن يتمكّن ماتيا من الإجابة، قفز الكلب الأصفر عليّ وراح يلحسني وهو يبكي.

- ولكن هذا هو كابي. لقد قمنا بصبغ فروته، قال ماتيا.

فرددتُ على مداعبات كابي الطيّب بأحسن منها وقبّلتُه.

- ولِمَ صبغتَه؟

- إنّها قصّة طويلة. سأخبرك بها.

ولكنّ بوب قاطعه قائلاً:

- قُدِ الحصان وأمسِكْ به جيّداً. وفي هذه الأثناء، سأسوّي العربة



لكي لا يتّعرّفوا عليها عند الحواجز.

كانت تلك عبارة عن عربة نقلٍ صغيرة مغطّاة بنسيج مثبّت إلى أطواق. فقام بتمديد الأطواق في العربة وطوى الغطاء وقال لي أن أتغطّى به. ثمّ اتّخذ مكانه من جديدٍ وأوصى ماتيا بالاختباء تحت الغطاء. بهذه الطّريقة تغيّرَ شكل العربة تماماً، فهي لم تعد مغطّاة، ولم يعد فيها ثلاثة أشخاص بل واحد: وهكذا ففي حال كُنّا مُلاحَقين فإنّ الوصف الذي يقدّمه مَن سَيَرون هذه العربة تمرّ سيضلّل البحث.

ولمّا بات ماتيا ممدّداً قربي سألتُه:

- إلى أين نحن متّجهون؟

- إلى ليتلهامبتون: إنّه مرفأ صغير على البحر يعمل فيه شقيقٌ لِصديقنا بوب قبطانَ سفينة تقوم برحلات إلى فرنسا لاستيراد الزّبدة والبيض من منطقة إيزيني في النّورماندي. فإذا ما أفلحنا في الهرب - وهذا ما سيحصل - فسندين بذلك لبوب، فلقد قام بكلّ شيء. فما الذي كان بوسعي فعله من أجلك أنا المسكين! بوب هو من خطرت له فكرة جعلك تقفز من القطار وأن يوصل إليك ورقتي نفخاً من السبطانة، وهو من أقنع رفاقه بأن يُعيرونا هذا الحصان، وأخيراً إنّه هو من سيؤمّن لنا سفينة توصلنا إلى فرنسا. إذ يجب أن تعرف أنّك لو أردتَ الإبحار على متن باخرة فسيلقون القبض عليك: ألا ترى كم هو رائع أن يكون لنا أصدقاء؟

- وكابي؟ من الذي فكّر في إحضاره؟

- أنا، ولكنّ بوب هو من صبغ فروته بالأصفر حتّى لا يتعرّف إليه أحد عندما سرقناه من الشّرطيّ جيري، جيري الذّكيّ كما كان

يقول القاضي، والذي لم يكن شديد الذّكاء لأنّه ترك كابي يُسرق منه دون أن ينتبه. صحيح أنّ كابي لمّا شمّ رائحتي قام بكلّ شيء بمفرده تقريباً، كما أنّ بوب يعرف كلّ حيل لصوص الكلاب.

- وقَدَمُك؟

- لقد شُفيتُ تقريباً. لم أجد الوقت لأفكّر فيها.

ليست طُرق إنكلترا سالكة كطُرق فرنسا. فمن مكانٍ لآخر هناك حواجز ينبغي دفع مبلغٍ من المال لعبورها. ولمّا كنّا نصل عند أحد هذه الحواجز، كان بوب يقول لنا أن نلزم الصّمت وألاّ نتحرّك، فما كان الحرّاس يرون إلاّ عربة صغيرة يقودها رجل بمفرده، وكان بوب يمازحهم ويمرّ.

كان بوب، بفضل موهبته كبهلوان، قد بدّل من سحنته ليبدو عليه كمثلِ مُزارِع. وحتّى مَن يعرفونه معرفة جيّدة كانوا سيتحدّثون إليه دون أن يعرفوا أنّه هو.

كنّا نتقدّم بسرعة، لأنّ الحصان كان فائق الحيويّة وبوب حوذيّاً ماهراً، لكن كان علينا التّوقّف ليأخذ الحصان قسطاً من الرّاحة ويأكل. ولكنّنا لم نقصد أحد الأنزال، بل توقّف بوب في وسط غابة وفكّ لجام الحصان ومرّر حول عنقه مِخلاةً ملأى بالشّوفان أخذَها من العربة. كان اللّيل دامساً ولم يكن ثمّة خطر في أن يُفاجئنا أحد.

آنذاك تسنّى لي أن أتحدّث مع بوب وأشكره ببعض كلمات العرفان المتأثّرة، ولكنّه لم يترك لي المجال لقول كلّ ما في قلبي وأجاب وهو يصافحني:

- لقد أسديتَ لي معروفاً وها إنّني أردّه لك اليوم، فلكلٍّ دورُه. كما

أنّك أخو ماتيا، وفي سبيل صبيّ طيّب مثله نعمل كلّ ما نقدر عليه.

سألتُه ما إذا كنّا لا نزال بعيدين عن ليتلْهامبتون، فأجابني بأنّه لا تزال تفصلنا عنها أكثر من ساعتين وأنّه يجب أن نُسرِع لأنّ سفينة شقيقه تنطلق كلّ يوم سبت إلى إيزينيي، وأنّه يعتقد أنّ المدّ والجزر يحصلان في ساعة مبكّرة ونحن كنّا في يوم الجمعة.

فاستعدنا مكاننا على القشّ تحت الغطاء وعاود الحصان الانطلاق بسرعة وقد استراح بما فيه الكفاية.

فسألني ماتيا:

- أأنتَ خائف؟

- أجل وكلاّ. أنا خائفٌ جدّاً من أن يُلقى القبض عليّ ثانيةً. ولكنّني أعتقد أنّ ذلك لن يحصل. ولكن ألا يعني الهرب الاعتراف بأنّني مُذنب؟ وما يقلقني خصوصاً هو ماذا أقول دفاعاً عن نفسي؟

- لقد فكّرنا في هذا، ولكنّ بوب رأى أنّه يجب عمل كلّ شيء لكي لا تمثل أمام محكمة الجنايات. فللمثول أمامها عواقب سيّئة حتّى إذا انتهى الأمر بالإقرار ببراءتك. وأنا لم أجرؤ على قول أيّ شيء لأنّني خفتُ أن تكون فكرتي العنيدة في إرجاعِكَ إلى فرنسا فكرة سيّئة.

- نِعمَ ما فعلتَ. ومهما حصل فلن أكون إلاّ ممتنّاً لكما.

- لن يحصل شيء، اطمئنّ. فالشّرطيّ سيكون كتب تقريره عند توقّف القطار، ولكنّ وقتاً قد مرّ قبل أن تُنظَّم عمليّة البحث. كما أنّنا انطلقنا بسرعة. أضِفْ أنّهم لا يمكنهم أن يعرفوا أنّنا سنستقلّ السّفينة من ليتلْهامبتون.

كان أكيداً أنّه إذا لم تكن الشّرطة في أثرنا، فسنُبحر بلا صعوبة.

ولكنْ خلافاً لماتيا لم أكن أنا واثقاً من أنّ الشّرطيّ بعدما توقّفَ القطار قد ضيّع الوقت دون أن يحاول اللّحاق بنا. وهنا كان يكمن الخطر. ويمكن أن يكون خطراً كبيراً.

في تلك الأثناء، كان حصاننا الذي يقوده بوب بحزمٍ يعدو بسرعة على النهج المُقفر. ومن وقتٍ لآخَر فحسبُ كنّا نلتقي ببعض العربات ولكنّ أيّاً منها لم تكن تتخطّانا. كانت القرى التي نجتازها صامتة والنّوافذ المُضاءة نادرة، ووحدها بضعة كلاب كانت تنتبه لمرورنا السّريع وتلاحقنا بنباحها. وكلّما أوقف بوب حصانه ليستريح بعد صعودٍ سريعٍ، كنّا نترجّل من العربة ونلصق آذاننا بالأرض لنُصغي، ولكن حتّى ماتيا الذي كان سمْعه مرهفاً أكثر من سمْع أيٍّ منّا لم يكن يسمع أدنى ضجيج يبعث على الرّيبة: كنّا نسافر تحت جنح اللّيل البهيم الصّامت.

وما عدنا نختبئ تحت الغطاء بهدف الاختباء بل للاحتماء من الرّيح الباردة التي كانت قد بدأت تعصف منذ وقتٍ طويل. وعندما كان الواحد منّا يمرّر لسانه على شفتيه، كنّا نشعر بمذاقٍ مالحٍ، ممّا يعني أنّنا كنّا نقترب من البحر. وسرعان ما لمحنا ضوءاً يختفي ويظهر بانتظام: كانت تلك منارة. لقد وصلنا!

أوقف بوب حصانه وقاده بهدوء عبرَ طريقٍ مختصرة، ثمّ نزل من العربة وطلب منّا البقاء فيها والإمساك بالحصان. أمّا هو فذهب ليرى إن كان شقيقه لم ينطلق بعد وإن كان بوسعنا الإبحار على متن سفينته دون خشية.

أعترف بأنّ الوقت الذي غاب فيه بوب بدا لي طويلاً، طويلاً جدّاً.

فأنا وماتيا كنّا صامتَين نسمع الأمواج تتكسّر على الشّاطئ الرّمليّ غيرَ بعيدٍ عنّا مُصدرةً صوتاً رتيباً كان يُضاعف من انفعالنا. كان كلانا يرتجف.

- إنّه البرد، قال لي ماتيا بصوتٍ خفيض.

هل هذا صحيح؟ الأكيد أنّه، خلال رحلتنا، كان يكفي أن تصطدم بقرة أو شاة في البراري التي نمرّ بها بحجر أو سياج لنصيرَ أكثر تأثّراً بالبرد وعرضةً للارتجاف.

وأخيراً سمعنا وقع خطوات قادماً من الوجهة التي كان قد اتّخذها بوب. لا بدّ أنّه هو. كان مصيري سيتقرّر في تلك اللّحظة.

لم يكن بوب بمفرده. وعندما اقترب منّا رأينا شخصاً آخر يرافقه: كان رجلاً يرتدي سُترةً من القماش المشمّع ويعتمر قلنسوة من الصّوف.

فقال بوب:

- هذا شقيقي، وقد قَبِلَ بأن يصطحبكما على متن سفينته. سيقودكما هو، وأنا أودّعكما هنا، فمن غير الضّروريّ أن يعرف أحد أنّني جئتُ إلى هنا.

أردتُ شكرَ بوب ولكنّه قاطعني مُصافِحاً وقال:

- لا داعي للشّكر، فالتّعاون واجب ولكلٍّ دوره. سوف نتلاقى من جديدٍ ذات يوم. وأنا مسرور لأنّني أسديتُ لماتيا خدمة.

تبعْنا شقيق بوب، وسرعان ما وَلجنا شوارع المدينة الصّامتة. وبعد بضع عطفات ألفَينا أنفسنا على رصيف ميناء، وإذا بالهواء القادم من البحر يلفح وجوهنا.

ودون أن يقول شيئاً، أشار شقيق بوب بيده إلى سفينةٍ مجهّزة بالصّواري، ففهمنا أنّها سفينته. ولمّا أصبحنا على متنها، أنزلَنا إلى قُمرة صغيرة وقال:

- لن أنطلق إلاّ بعد ساعتين. ابقيا هنا ولا تُحدثا جلبةً.

ولمّا أغلق باب القُمرة بالمفتاح، ارتمى ماتيا بين ذراعيّ بصمتٍ وعانقني. كان قد توقّف عن الارتجاف.

البجعة

بعدما غادرَنا شقيق بوب، ظلّت السّفينة ساكنةً بعض الوقت ولم نكن نسمع إلاّ عصف الرّيح التي تخفق في الشّراع واصطفاق المياه على غاطس السّفينة. ولكنْ شيئاً فشيئاً بدأت تتحرّك وسمعنا على متنها خبط أقدامٍ وحِبالاً تُفَكّ وبكراتٍ تَصرّ وجنازير تُلَفّ وتُحَلّ. استُخدِمت رافعة الأثقال الرحويّة، ثمّ رُفع شِراع وبَعثت الدّفّة صريراً، وفجأةً انحنى القارب ذات اليسار وحدثت حركة تموُّر. كنّا قد انطلقنا. لقد نجوتُ!

كانت حركة التموُّر تلك بطيئةً وهادئة في البداية، لكنّها سرعان ما صارت سريعة وحادّة، فكانت السّفينة تميل بانحناء، ثمّ تصْفق الأمواج فجأةً حيزومها أو تأزيرَ جهتها اليمنى.

- يا ماتيا المسكين! قلتُ لصديقي وأنا أمسكُ بيده.

- لا بأس، فقد نجوتَ. ثمّ إنّني كنتُ أخمّن أنّ الأمر سيكون على هذه الشّاكلة. فلمّا كنّا في العربة كنتُ أنظر إلى الأشجار التي تهزّ ذوائبَها الرّيحُ وأقول في نفسي إنّنا سنرقص عندما نصير في البحر: وها نحن نرقص!

وفي تلك اللّحظة انفتح باب القُمرة، وظهر شقيق بوب وقال لنا:

- يمكنكما الصّعود إلى ظهر المركب، لم يعد ثمّة ما تخشيانه.

فسأله ماتيا:

- في أيّ مكانٍ أو وضعيّةٍ يكون المرء أقلّ عرضةً لدوار البحر؟

- عندما يكون ممدّداً.

- أشكرك، سأبقى إذن ممدّداً.

قال ذلك وتمدّد على الأرض.

فقال القبطان:

- سيُحضر لكما الخادم ما يلزم.

- شكراً. سيكون من الجيّد ألاّ يتأخّر، أجاب ماتيا.

- أبدأتَ تشعر بالدّوار من الآن؟

- لقد بدأ ذلك منذ مدّة طويلة.

أمّا أنا فأردتُ البقاء قربه، ولكنّه رجاني أن أصعد إلى ظهر السّفينة وهو يكرّر:

- لا بأس، المهمّ أنّك نجوتَ. لم أكن لأتخيَّل يوماً أنّني سأفرح لإصابتي بدوار البحر.

لمّا بلغتُ سطح المركب، لم أتمكّن من المحافظة على توازني إلاّ بالتّمسّك بقوّةٍ بأحد الحبال. وعلى مدى النّظر، لم يكن يُرى إلاّ بساطٌ أبيضُ من الزّبَد كانت سفينتنا تتقدّم عليه مائلةً كما لو كانت ستنقلب ولكنّها لا تفعل. بل كانت بالعكس تستقيم تدريجيّاً، قافزةً على الأمواج، تحملها وتدفعها ريح الغرب.

فتطلّعتُ صوب اليابسة. لم تعد أضواء المرفأ إلاّ نقاطاً عائمة في عتمة الضباب. وفيما أراها تخفت وتختفي الواحدة تلو الأخرى، قلتُ وداعاً لإنكلترا وشعورٌ بالخلاص رقيقٌ يلفّ كياني.

فقال لي القبطان:

- إنِ استمرّت الرّيح بهذه الوتيرة، فسنصل في مطلع هذا المساء إلى إيزيني. فـ «الكسوف» مركبٌ شراعيّ جيّد.

نهارٌ كامل في البحر، لا بل أكثر من نهار! مسكينٌ هو ماتيا! وإلى هذا يقول إنّه مسرور لإصابته بدوار البحر.

ومع ذلك مرّ النّهار، وأمضيتُ وقتي متنقّلاً بين ظهر المركب والقُمرة. وذاتَ لحظةٍ، فيما أتحدّث إلى القبطان، مدّ هذا الأخير يده باتّجاه الجنوب الغربيّ فرأيتُ عموداً أبيض طويلاً يرتسم على خلفيّة زرقاء:

- إنّها مدينة بارفلور، قال لي.

فأسرعتُ أزفّ البشارة إلى ماتيا: أصبحت فرنسا في مرمى البصر. ولكنّ المسافة من بارفلور إلى إيزيني كانت ما تزال طويلة، إذ يجب العبور بمحاذاة شبه جزيرة كوتانتان قبل الدّخول إلى منطقتَي فير وأور.

ولمّا رست السّفينة على مرفأ إيزيني كان الوقت متأخّراً، فقبلَ القبطان بأن نمضي اللّيلة على متن السّفينة، ولم نودّعه إلاّ في صباح اليوم التّالي بعدما شكرناه كما يتوجّب.

فقال لنا وهو يصافح أيدينا بقوّة:

- عندما ترغبان بالعودة إلى إنكلترا فأنا في خدمتكما. إنّ مركب «الكسوف» ينطلق من هنا كلّ يوم ثلاثاء.

كان ذلك عرضاً كريماً ولكنّنا لم نكن راغبين في قبوله. وكان لكلّ منّا أسبابه في عدم الرّغبة في عبور البحر عمّا قريب.

وصلنا إلى فرنسا ونحن لا نملك إلاّ ثيابنا وآلتَينا الموسيقيّتين. وكان ماتيا قد حرص على إحضار ڤيثارتي التي كنتُ تركتُها في خيمة بوب في اللّيلة التي ذهبتُ فيها إلى نُزُل «السّنديانة الكبيرة». أمّا حقائبنا، فبقيت بمحتوياتها في عربتَي آل دريسكول. وكان هذا الوضع مُربكاً لنا بعض الشّيء، إذ لم يكن بوسعنا استعادة حياتنا الجوّالة بدون قمصان وجوارب، وخصوصاً بلا خارطة. ولكنْ لحسن الحظّ كان ماتيا قد ادّخر اثني عشر فرنْكاً تُضاف إليها حصّتنا من الشّراكة مع بوب ورفيقيه، أي اثنان وعشرون شلنغ تُعادل سبعة وعشرين فرنْكاً ونصف الفرنْك. فيصير المجموع نحو أربعين فرنْكاً، وهو بالنّسبة إلينا مبلغٌ كبير. كان ماتيا يريد إعطاء هذا المال لبوب ليغطّي تكاليف فراري ولكنّ بوب أجاب بأنّ الخدمات التي تُسدى بداعي الصّداقة لا تُكافأ بالمال، ولم يشأ أن يأخذ شيئاً.

لمّا نزلنا من «الكسوف»، كانت مشغلتنا الأولى هي البحث عن حقيبة جنديّ قديمة وشراء قميصين وزوجَي جوارب وقطعة صابون ومشط وخيوط وأزرار وإبَر، وأخيراً ما كان أكثر أهمّيّة لنا من كلّ هذه المستلزمات الضّروريّة ألا وهو خارطة فرنسا.

إلى أين نذهب الآن وقد أصبحنا في فرنسا؟ أيّة طريق نتبع؟ وأيّة وجهة نتّخذ؟ هذا هو السّؤال الذي كان يشغلنا عندما غادرْنا إيزيني عبرَ طريق بايو.

قال ماتيا:

– أنا ليس لي تفضيل، فأنا مستعدّ للذّهاب يميناً أو يساراً ولكنّي لا أطلب إلاّ أمراً واحداً.

- وما هو؟

- أن نتبع مجرى نهرٍ أو قناةٍ، فأنا أفكّر في شيء.

وإذ لم أطلب منه الإفصاح عن فكرته، تابع بالقول:

- أرى أنّني يجب أن أشرح لك. إليك ما أفكّر فيه: عندما كان آرثر مريضاً، كانت السيّدة ميليغان تصطحبه في نزهات في المركب، وبهذه الطّريقة التقيتَ به على متن «البجعة».

- ولكنّه لم يعد مريضاً.

- لقد تحسّن وضعه فحسب. كان بالعكس شديد الاعتلال ولم تشفِه إلاّ عناية أمّه. لذا أعتقد أنّه لكي يُشفى تماماً فإنّ السيّدة ميليغان تجوِّله في المركب عبرَ الأنهار والقنوات. وإذا ما تبعناها فقد نلتقي بـ «البجعة».

- وما الذي يؤكّد لنا أنّ «البجعة» في فرنسا؟

- لا شيء! ولكن بما أنّ مركب «البجعة» لا يمكنه مخور البحر، فأكيدٌ أنّه لم يغادر فرنسا، وبالتّالي ثمّة إمكانٌ في أن نعثر عليه. وحتّى إذا كان نصيب هذا الاحتمال من الصحّة ضئيلاً أفلا تظنّ مثلي أنّه يجب استغلاله؟ فأنا أريد أن نعثر على السيّدة ميليغان، وأرى أنّه ينبغي ألاّ نُهملَ من أجل ذلك شيئاً.

- ولكن ماذا عن ليز وأليكسي وبنجامان وإتيانيت؟

- سوف نزورهم ونحن نبحث عن السيّدة ميليغان. وعليه، يجب أن نصل إلى مجرى نهرٍ أو قناة: فلنبحث على خارطتك عن النّهر الأقرب.

ففرَشنا الخارطة على العشب وبحثنا عن النّهر الأقرب فوجدنا أنه

نهر السّين.

– حسناً! فلنذهب إلى السّين، قال ماتيا.

– ولكنّ السّين يمرّ بباريس.

– وما المشكلة في ذلك؟

– المشكلة كبيرة. فقد سمعتُ يوماً فيتاليس يقول إنّه إذا ما أردتَ إيجادَ شخصٍ فعليك أن تبحث عنه بباريس. وإذا كانت الشّرطة الإنجليزيّة تبحث عنّي بتهمة سرقة كنيسة القدّيس جورج فأنا لا أريدها أن تعثر عليّ، وإلاّ فما فائدة هروبنا من إنكلترا؟

– هذا يعني أنّ الشّرطة الإنجليزيّة يمكن أن تلحق بك إلى فرنسا؟

– لا أعرف. ولكن إن كان الأمر كذلك، فينبغي عدم الذّهاب إلى باريس.

– ألا يمكننا اتّباع مجرى نهر السّين حتّى تخوم باريس وبعد ذلك نتركه ثمّ نستعيده فيما بعد، فأنا لا أريد كذلك رؤية غاروفولي.

– ذلك ممكن على الأرجح.

– حسناً، فليكن ذلك. وسنسأل البحّارة وجرّاري المراكب على امتداد النّهر. وبما أنّ مركب «البجعة» بشرفته المميّزة لا يشبه باقي المراكب فلا بدّ أن يلاحظه النّاس إذا ما مرّ عابراً السّين. وإذا لم نجده في السّين، فسنبحث عنه في اللّوار والغارونّ وكلّ أنهار فرنسا، وفي النّهاية سنعثر عليه.

لم يكن عندي اعتراض على فكرة ماتيا، لذا قرّرنا أن نبلغ مجرى السّين فنسير وإيّاه صعوداً.

وبعدما فكّرنا في نفسَينا، كان يجب الاهتمام بكابي. فبصباغه

الأصفر، لم يكن كابي في نظري هو كابي حقاً. لذا اشترينا صابوناً طريّاً، وعند أوّل نهرٍ صادفناه رحنا نفركه بقوّة متناوبَين أنا وماتيا عندما كان الواحد منّا يتعب.

ولكنّ الصّباغ الذي استخدمه صديقنا بوب كان قويّاً، لذا لزمَ أكثر من حمّام وعمليّات غسلٍ بالصّابون طويلةٍ استمرّت أسابيع وشهوراً ليستعيد كابي لونه الأصليّ. ولحسن الحظّ كانت منطقة النّورماندي غنيّة بالمياه فتمكنّا من غسله كلّ يوم.

وعبرَ بايو وبون-ليفيك وبون-أوديمير بلغنا السّين عند منطقة لابوي.

ومن أعلى هضاب عامرة بالأشجار، عند منعطف طريقٍ ظليلةٍ قطعناها بعد نهارٍ من المشي، رأى ماتيا فجأةً نهر السّين يمتدّ أمامه راسماً خطّاً منحنياً كنّا نحن في وسطه. كان يُنزّه برفقٍ مياهَه الهادئة والجبّارة التي تغطّيها السّفن ذات الأشرعة البيضاء والقوارب البخاريّة التي يصل دخانها إلينا. فأعلن أنّ هذا المشهد يُصالحه والمياهَ وأنّه بات يفهم أنّه يمكن أن يشعر الواحد بالمتعة في الانزلاق على هذا النّهر الهادئ وفي وسط هذه البراري المُنعشة والحقول المزروعة بروعة والغابات القائمة التي تؤطّره بخضرتها.

فقال لي:

- كنْ أكيداً أنّ السيّدة ميليغان تجوّل ابنها على نهر السّين.

- سنعرف ذلك عمّا قريب بعدما نسأل النّاس في القرية القائمة في الأسفل.

ولكنّني كنتُ أجهل أنّ طرح الأسئلة على النّورمانديّين ليس

بالأمر السّهل لأنّهم كانوا نادراً ما يُجيبون إجابة دقيقة، لا بل يروحون بدورهم يطرحون أسئلة على السّائل.

- هل تسأل عن مركب من الهافر أو من روان؟ وهل هو قارب صغير أم زورق أم صنْدل[1] أم نقّالة مائيّة؟

وبعدما أجبنا على كلّ الأسئلة التي طُرحت علينا، بات شبه أكيد أنّ مركب «البجعة» لم يمرّ بلابوي، وإن فعلَ فَلَيْلاً بحيث لم يرَه أحد.

ومن لابوي ذهبنا إلى روان، وهناك فتّشنا من جديدٍ ولكنّ النتيجة كانت ذاتها. وفي إلبوف لم يرَ أحدٌ «البجعة» كذلك. ولا في بوز حيث هناك أهوِسة وبالتّالي يمكن ملاحظة المراكب التي تعبرها.

ولكنّنا ظللنا نتقدّم بإصرار، مواظبين على طرح الأسئلة وإنْ من دون كبيرِ أملٍ. فلم يكن ممكناً أن يكون «البجعة» انطلق من نقطة وسطيّة. إذ يمكن أن نفهم أن يكون آرثر والسيّدة ميليغان قد استقلاّ المركب من كيبوف أو كودبيك أو حتّى من روان. ولكن بما أنّنا لم نكن نجد لمرورهما أثراً، فهذا يعني أنّه يجب الذّهاب إلى باريس أو أبعد منها.

وبما أنّنا لم نكن نمشي بهدف الوصول لا غير، بل كان علينا كذلك أن نكسب قوتنا اليوميّ، لزمَنا خمسة أسابيع للوصول من إيزيني إلى شارنتون.

وهنا كان السّؤال: أنتبع مجرى نهر السّين أم مجرى نهر المارْن؟ كان هذا هو السّؤال الذي طرحتُه على نفسي مراراً وأنا أتفحّص خارطتي، دون أن أجد أسباباً تجعلني أؤْثر طريقاً على أخرى.

---

(1) قارب مسطّح لنقل البضائع (المترجمة).

ولكن لحسن الحظّ أنّنا لم نقع في الحيرة لدى وصولنا إلى شارنتون. فللمرّة الأولى كانت إجابة النّاس على أسئلتنا أنّهم رأوا مركباً يشبه «البجعة». كان مركباً للنّزهة وله شرفة.

كان ماتيا من السّعادة بحيث راح يرقص على رصيف المرفأ. ثمّ فجأةً توقّف عن الرّقص وتناول كمنجته وعزف بحماسةٍ لحنَ مسيرةٍ انتصاريّاً.

في تلك الأثناء، واصلتُ أنا طرح الأسئلة على النوتيّ الذي قَبِلَ بأن يُجيبنا: لم يكن من مكانٍ للشّكّ، كان ذلك هو فعلاً مركب «البجعة». لقد مرّ بشارنتون منذ نحو شهرين ثمّ تابع طريقه صعوداً في نهر السّين.

شهران! هذا يعني أنّه يسبقنا بكثير. ولكن ما همّ! إذا مشينا فسنوافيه في النّهاية، وإن لم يكن لنا إلاّ سيقاننا في حين يملك هو قوائم حصانين قويّين يقْطرانه من على الشّاطئ.

لم تكن مسألة الوقت مهمّة: فالأهمّ والأساسيّ والرّائع هو أنّنا عثرنا على «البجعة».

وكان ماتيا يهتف:

– من الذي تبيّن أنّه على صواب؟

لو تجرّأتُ لاعترفتُ بأنّ أملي أنا أيضاً كان كبيراً، كبيراً جدّاً، ولكنّني لم أجرؤ على الإفصاح، حتّى لنفسي، عن كلّ الأفكار المجنونة التي كانت تجعل مخيّلتي تحلّق بعيداً.

لم نعد بحاجة إلى التوقّف لسؤال النّاس، فالـ «البجعة» أمامنا وليس علينا إلاّ اتّباع مجرى السّين.

ولكن في موريه كان نهر اللّوان يلتقي بنهر السّين وتوجّب أن نسأل النّاس من جديد.

فقيل لنا إنّ «البجعة» أكمل طريقه صعوداً في نهر السّين.

وفي مونترو توجّب الاستعلام كذلك.

وهذه المرّة قيل لنا إنّ مركب «البجعة» تركَ مجرى السّين إلى نهر اليونّ، وإنّه غادر مونترو منذ شهرين ويزيد، وعلى متنه سيّدة إنجليزيّة وصبيّ ممدّد على سرير.

باتّباعنا أثر «البجعة» كنّا في الوقت نفسه نقترب من ليز. ولقد خفق قلبي بشدّة لمّا تفحّصتُ خارطتي وتساءلتُ هل اختارت السيّدة ميليغان بعد جوانيي أن تكمل الرّحلة في قناة بورغونيا أو في قناة نيفيرنيه.

وصلنا إلى ملتقى نهرَي اليونّ وآرمانسون. قيل لنا إنّ مركب «البجعة» أكمل طريقه صعوداً في اليونّ، وهذا يعني أنّنا سنمرّ بدروزي لرؤية ليز وستحكي لنا بنفسها عن السيّدة ميليغان وآرثر.

منذ أن بدأنا نتبع «البجعة» لم نعد نكرّس لعروضنا وقتاً كبيراً. وكابي الذي كان فنّاناً متفانياً لم يكن يفهم استعجالنا ولماذا لم نكن نسمح له بالبقاء جالساً بجديّة والقصعة بين أسنانه أمام «الحضور الكريم» الذي كان يتأخّر في مدّ أيديه إلى جيوبه؟ كان ينبغي أن نُحسِن الانتظار.

ولكنّنا لم نعد ننتظر، ولذا كانت مداخيلنا تقلّ، كما كان يتناقص ما كان تبقّى لنا من الأربعين فرنكاً التي كنّا نملكها لدى عودتنا إلى فرنسا. كنّا نُنفق من رأسمالنا بدلَ أن ندّخر.

كان ماتيا يقول:

- فلنلحقْ بـ «البجعة» بسرعة!

ومثله كنتُ أقول: «بسرعة!»

وفي المساء، لم نكن نشكو من تعبٍ أيّاً كان طول الشوط الذي كنّا قطعناه. بل بالعكس كنّا نتّفق على الانطلاق باكراً في اليوم التّالي.

وماتيا الذي كان يحبّ النّوم كان يوصيني:

- أيقِظني!

وعندما كنتُ أوقظه ما كان يتأخّر في النّهوض البتّة.

ولكي نقتصد كنّا قد قلّلنا من مصاريفنا. فبِما أنّنا كنّا في الصّيف، أعلن ماتيا أنّه لم يعد يريد أكل اللّحم «لأنّ اللّحم في الصّيف مضرّ». فكنّا نكتفي بقطعة من الخبز مع بيضة مسلوقة نتقاسمها، أو القليل من الزّبدة. ورغم وجودنا في بلاد المشروبات لم نكن نشرب سوى الماء.

وما همّنا!

إلاّ أنّ ماتيا كانت تحدوه أحياناً رغبة في أطايب الطّعام وكان يقول:

- أتمنّى أن تكون السيّدة ميليغان احتفظتْ بالطّبّاخة التي كانت تحضّر لك فطائر شهيّة بالمربّى. لا بدّ أنّ الفطائر بالمشمش لذيذة جدّاً.

- ألم تذق منها يوماً؟

- سبق أن أكلتُ فطائر بالتفّاح ولكن لم آكل يوماً فطائر بالمشمش، بل رأيتُها فقط. ما هي تلك الأشياء البيضاء الصّغيرة التي تكون مُلصقة بالمربّى الأصفر؟

- إنّها قطَع لوز.
- آه!

وكان ماتيا يفتح فمه كما لو كان يلتهم فطيرةً كاملة.

كان نهر اليونّ كثير المنعطفات بين جوانيي وأوسير، فتمكّنّا من كسب شيء من الوقت بالقياس إلى مسار «البجعة» لأنّنا كنّا نتبع الطّريق الرّئيسيّة. ولكن بدءاً من أوسير، عدنا وخسرنا وقتاً لأنّ مركب «البجعة» كان قد اتّخذ قناة نيفيرنيه وتقدّم بسرعة شديدة على مياهها السّاكنة.

عند كلّ هويس كنّا نتقصّى أخباره. ففي هذه القناة حيث حركة الملاحة ليست ناشطة جدّاً، كان الجميع قد انتبه إلى ذلك المركب الذي لا يشبه كثيراً المراكب التي يرونها عادةً.

ولم يكن النّاس يحدّثوننا عن المركب فحسب، بل عن السيّدة ميليغان أيضاً، وهي بحسبِ قولهم «سيّدة إنجليزيّة طيّبة جدّاً» وعن آرثر، «صبيّ يافع يمضي معظم وقته ممدّداً على سريرٍ موضوع على متن المركب في ظلّ شرفة تزيّنها الأزهار والنّباتات الخضراء، ولكنّه كان يغادر سريره ذاك أحياناً».

هذا يعني أنّ صحّة آرثر كانت قد تحسّنت.

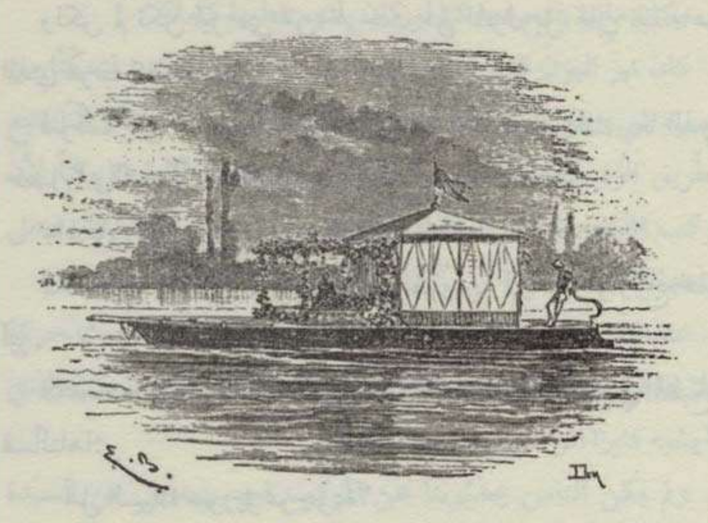
كنّا نقترب من دروزي. لم يبقَ أمامنا سوى يومين، ثمّ يوم واحد، ثمّ بضع ساعات فحسب.

وأخيراً رأينا الغابات التي لعبنا فيها أنا وماتيا مع ليز في الخريف الفائت، كما لمحنا الهويس ومنزل السيّدة كاترين.

ودون أن يقول أحدنا شيئاً للآخر، حثثنا خطانا. ولم نعد أنا وماتيا

نمشي بل كنّا نركض. أمّا كابي الذي عرف المكان فراح يعدو أمامنا.
ذهب يقول لليز إنّنا وصلنا لكي تُوافينا.
ولكن لم تكن ليز هي مَن خرجت من المنزل بل كابي نفسه هو الذي هرب كالمطرود.
فتوقّفنا على الفور متسائلين عمّا يمكن أن يعنيه ذلك. ما الذي حصل؟ ولكنّ أيّاً منّا لم يجهر بهذا السّؤال وتابعنا المسير.
عاد كابي إلينا وراح يسير مرتبكاً في أعقابنا.
كان ثمّة رجلٌ يُدير إحدى روافع الهوَيس. لم يكن هو زوج عمّة ليز.
فتقدّمنا حتّى المنزل، وهناك رأينا امرأة لا نعرفها تشتغل في المطبخ. فسألناها:
- هل السيّدة سوريو موجودة؟
نظرت إلينا لبرهة قبل أن تُجيب كما لو كنّا نطرح عليها سؤالاً عبثيّاً. ثمّ قالت لنا أخيراً:
- هي لم تعد تقيم هنا.
- وأين ذهبت؟
- إلى مصر.
فتبادلنا أنا وماتيا النظرات حائرين. إلى مصر؟! ما كنّا نعرف تماماً أين تقع مصر هذه، ولكنّنا كنّا نخمّن أنّها بلاد نائية، نائية جدّاً، في مكانٍ ما وراء البحار.
- وليز؟ أتعرفين ليز؟
- آه، ليز! لقد ذهبت على متن مركب مع سيّدة إنجليزيّة.

ليز على متن «البجعة»! أهذا حلم؟
فتكفّلت المرأة بأن تُجيبنا بأنّنا ما نزال على أرض الواقع.



- أأنتَ ريمي؟ سألتني.
- أجل.
حسناً، عندما غرق سوريو...، قالت.
- غرق؟!
- لقد غرق في الهويس. آه! ألم تكن تعرف أنّ سوريو وقع في النّهر وعَلِق بمسمارٍ تحت أحد المراكب. إنّه حُكمُ هذه المهنة. ومنذ غرقه، ألْفتْ كاترين نفسها في وضع صعب، على كونها امرأة قويّة. ولكن عندما ينقص المال لا يمكن إيجاده بين ليلةٍ وضُحاها. والمال بات ينقصها. لقد عُرِض على كاترين الذّهاب إلى مصر لتعمل مربّية لأطفال سيّدة كانت هي مُرضعتها ذات يوم، ولكنّ ما كان يُعيقها هو

ابنة أخيها، الصّغيرة ليز. وفيما كانت في غمرة تساؤلاتها حول ما يجب أن تفعله، توقّفت في الهويس ذات ليلة سيّدة إنجليزيّة تتنزّه وابنها المريض. فتجاذبت المرأتان أطراف الحديث. وإذا بالسيّدة الإنجليزيّة التي كانت تبحث عن ولدٍ ليلعب مع ابنها الذي كان يضجر في المركب وحده تطلب أن يُعهَد إليها بالصغيرة ليز، واعدةً بأن تُعنى بها وتعمل على شفائها وتؤمّن مستقبلها. كانت سيّدة طيّبة، لا بل طيّبة جدّاً، ومتعاطفة والفقراء. فقبلت كاترين بالعرض، وفي حين ركبتْ ليز المركب بصحبة السيّدة الإنجليزيّة، غادرت كاترين إلى مصر. وزوجي هو مَن حلّ اليوم محلّ سوريو. وقبل أن ترحل ليز، هي التي تعجز عن الكلام رغم أنّ الأطبّاء يقولون إنّها ستستعيد نطقها ذات يومٍ، أوصت عمّتها بأن تطلب منّي إخبارك بكلّ هذا إن أنتَ جئت لملاقاتها يوماً. وها إنّي فعلت.

كنتُ من الذّهول بحيث لم أجد ما أقوله. ولكنّ ماتيا ظلّ محافظاً على رباطة جأشه وسأل:

- وإلى أين كانت السيّدة الإنجليزيّة متّجهة؟

- إلى الجنوب الفرنسيّ أو إلى سويسرا. كان يُفترض بليز أن تكتب لي لأُعطيكما عنوانها ولكنّني لم أستلم بعدُ أيّة رسالة.


Twitter: @ketab_n

الفصل الثّاني والعشرون

صدَقتِ الأقمطة الجميلة

بقيتُ ذاهلاً، ففعلَ ماتيا ما لم أفكّر أنا في القيام به.

– شكراً جزيلاً سيّدتي، قال.

ثمّ دفعني بلطف وأخرجني من المطبخ وقال لي:

– فلننطلقْ. إلى الأمام! لم يعد علينا أن نوافي آرثر والسيّدة ميليغان فحسب، بل ليز أيضاً. ما أجمل ذلك! كنّا سنضيّع الوقت في دروزي، أمّا الآن فبوسعنا متابعة طريقنا. وهوَ ذا الحظّ يبتسم. لقد عرفنا ما يكفي من الحظوظ العاثرة وها إنّها تصير الآن حسَنة. لقد انقلب الوضع بالنّسبة إلينا، ومن يدري أيّة أمور جميلة ستحدث لنا!

وتابعنا رحلتنا في أثر «البجعة» دون أن نضيّع الوقت، فلم نكن نتوقّف إلاّ ما يكفي لنأكل ونكسب بضعة فلوس.

في دوسيز حيث تصبّ قناة نيفيرنيه في نهر اللّوار سألنا عن مركب «البجعة»، فقيل لنا إنّه اتّخذ القناة الجانبيّة. فتبعنا هذه القناة حتّى ديغوان وهناك انتهجنا قناة السّانْتر حتّى شالون.

أعلمتني خارطتي أنّنا إذا ما اتّجهنا من شارول مباشرةً إلى ماسون فستلاف انعطافة طويلة وأيّاماً من السّير. ولكن بعدما بحثنا في السّلبيّات والإيجابيّات لم يجرؤ أيّ منّا على اتّخاذ قرار بمثل هذه الجسارة. فمركب «البجعة» يمكن أن يتوقّف في الطّريق فنسْبقه

ويكون علينا الارتداد على أعقابنا. وبدل أن نكسب الوقت سنخسره.

فتبعنا نهر السّون نزولاً من شالون إلى ليون.

وهناك واجهتنا معضلةٌ فعليّة: هل تَبِعَ «البجعة» يا ترى نهر الرّون صعوداً أم نزولاً؟ بتعبير آخر: هل اتّجهت السيّدة ميليغان إلى سويسرا أم إلى جنوب فرنسا؟

وفي وسط حركة المراكب الآتية والذّاهبة على نهرَي الرّون والسّون، يمكن ألاّ يكون أحدٌ انتبه إلى «البجعة». فسألْنا البحّارة والملاّحين وكلّ مَن يعيشون على الأرصفة النّهريّة، وفي النّهاية بتنا واثقين من أنّ السيّدة ميليغان ذهبت إلى سويسرا. فتبعنا مجرى الرّون.

فقال لي ماتيا:

– من سويسرا سوف نذهب إلى إيطاليا، يا لحظّنا هنا أيضاً! فكم ستكون كريستينا مسرورة إن نحن وصلنا إلى لوكا ونحن نقتفي أثر السيّدة ميليغان!

مسكين هو العزيز ماتيا! يساعدني في البحث عمّن أحبّهم ولا أقوم أنا بشيء من أجل أن يُعانق شقيقته الصّغيرة.

بدءاً من ليون صرنا نتقدّم بأسرع من حركة «البجعة» لأنّ مياه الرّون السّريعة لا تسمح للمراكب بعبور النّهر بالسّهولة ذاتها التي تسمح بها مياه السّين. وفي كولوز لم يعد «البجعة» متقدّماً علينا إلاّ بستّة أسابيع. ولكن لمّا تفحّصتُ خارطتي، وجدتُ أنّ من الصّعب اللّحاق به قبل سويسرا. فقد كنتُ أجهل أنّ نهر الرّون لا يمكن المخور فيه حتّى بحيرة جينيف، وكنّا نتخيّل أنّ السيّدة ميليغان تريد زيارة سويسرا على متن «البجعة»، ولم نكن نملك خارطة سويسرا.

وصلنا إلى سيسّيل، وهي مدينة يمرّ في وسطها النّهر، وفيها يعلوه جسرٌ مُعلّق، فنزلنا إلى ضفّة النّهر وكم كانت دهشتي عظيمة عندما لمحتُ من بعيد مركباً بدا لي أنّه «البجعة»!

فأخذنا نعدو. إنّ له شكل «البجعة»، ولكن يبدو مهجوراً. كان مربوطاً بمتانة وراسياً خلف ما يشبه المأصر[1] الذي يحميه. وعلى متنه كان كلّ شيء مُقفلاً وشرفته لم تعد تظلّلها الزّهور.

ما الذي جرى؟ ما حصل لآرثر؟

فتوقّفنا وقلبانا يخفقان قلقاً.

ولكنّ البقاء جامدين هكذا لجُبنٌ منّا. ينبغي أن نتقدّم ونستعلم.

فرضِيَ رجلٌ طرحنا عليه السّؤال أن يُجيبنا وكان هو بالذات المسؤول عن حراسة «البجعة».

– إنّ السيّدة الإنجليزيّة التي كانت على المركب مع ولديها، وهما صبيّ مُقعَد وفتاة صغيرة بكماء، هي الآن في سويسرا. لقد تركَتْ مركبها هنا لأنّه لا يمكنه مخور المياه أبعد في نهر الرّون. لقد استقلّت السيّدة والطّفلان عربةً برفقة خادمة. أمّا باقي الخدم فلحقوا بهم مع الحقائب. سوف تعود في الخريف القادم لتأخذ المركب وتعبر الرّون نزولاً على متنه صوب البحر وتُمضي الصّيف في الجنوب الفرنسيّ.

فتنفّسنا الصّعداء. لم تكن أيّ من مخاوفنا في مكانها. كان علينا تخيّل الأفضل بدل التّفكير فوراً في الأسوأ.

فسأل ماتيا:

– وأين هي هذه السيّدة الآن؟

---

(1) حاجز في الماء من أوتاد وغيرها (المترجمة).

– لقد ذهبَت تستأجر منزلاً ريفيّاً على ضفّة بحيرة جينيف في نواحي فيفي. لا أعرف أين بالتّحديد. يُفترض أن تُمضي الصّيف هناك.

إلى فيفي إذن! في جينيف سنشتري خارطة سويسرا ونهتدي إلى هذه المدينة أو القرية. الآن لم يعد «البجعة» يعدو أمامنا، وبما أنّ السيّدة ميليغان ستُمضي الصّيف في المنزل الرّيفيّ فقد بات أكيداً أنّنا سنجدها: لم يبقَ إلاّ البحث عنها.

وبعد مغادرة سيتّيل بأربعة أيّام، رحنا نفتّش في أنحاء فيفي، بين البيوت العديدة التي تنتشر بأناقةٍ بدءاً من البحيرة بمياهها الزّرقاء فوق منحدرات الجبل المعشوشبة والمكسوّة بالشجر، عن المنزل الذي تسكنه السيّدة ميليغان مع آرثر وليز. ووصلنا أخيراً. كان في حوزتنا ثلاثة فلوس وكانت أحذيتنا قد فقدت نِعالها.

ولكنّ فيفي ليست قرية صغيرة كما تصوّرنا في البداية، إنّها مدينة، لا بل أكبر من مدينة عاديّة إذ ترتبط بها وصولاً إلى فيلنوف سلسلة من القرى والضّواحي تشكّل وإيّاها كلاًّ واحداً: بلوني وكورسييه وتور–دو–بيلز وكلارنْس وشيرنيكس ومونترو وفيتو وشيّون. وبسرعة عرفنا أنّ السّؤال عن السيّدة ميليغان أو ببساطة عن سيّدة إنجليزيّة يرافقها ولدٌ مريض وفتاة صغيرة بكماء ليس بالأمر المجدي، إذ يعيش في فيفي وعلى ضفاف النّهر رجالٌ ونساء إنجليز كما لو في مدينةِ استجمام في ضواحي لندن.

الأفضل إذن كان أن نبحث بأنفسنا وأن نزور كلّ المنازل التي يمكن أن يعيش فيها أجانب. وفي الواقع، لم يكن ذلك صعباً إذ لم

يكن علينا إلاّ عزف رصيدنا الموسيقيّ في كلّ الشّوارع.

وفي نهارٍ واحد جُلنا في فيفي بكاملها وحقّقنا مدخولاً جيّداً. وهو أمرٌ كان ليُسعدَنا كثيراً في الماضي، لمّا كنّا نريد تجميع المال لشراء بقرة لنا أو لعبة لليز، ولكن في تلك اللّحظة لم يكن المال هو ما نسعى خلفه. ولم نعثر في أيّ مكانٍ على علامة تقودنا إلى السيّدة ميليغان.

وفي اليوم التّالي تابعنا بحثنا في ضواحي فيفي، متقدّمين على هوى الصُّدَف، نعزف تحت نوافذ المنازل التي تبدو لنا جميلة سواء أكانت تلك النّوافذ مُغلقة أم مفتوحة. وعلى غرار اليوم السّابق، عدنا في المساء بخفّي حنين، رغم أنّنا عبرنا من البحيرة إلى الجبل ومن الجبل إلى البحيرة، متطلّعين حولنا وسائلين النّاس الذين توحي لنا هيئاتهم بأنّهم مستعدّون لسماعنا والإجابة على أسئلتنا.

في ذلك اليوم، عرفنا أملَين كاذبَين. إذ أجابنا بعضهم أنّهم يعرفون السيّدة التي نتحدّث عنها وإن كانوا لا يعرفون اسمها. في المرّة الأولى قيل لنا إنّها تعيش في منزل ريفيّ في الجبل وفي المرّة الثّانية أكّدوا لنا أنّها تعيش على ضفّة البحيرة. كان هناك بالفعل سيّدتان إنجليزيّتان تعيش إحداهما عند البحيرة والثّانية أعلى الجبل ولكنّ أيّاً منهما لم تكن هي السيّدة ميليغان.

وبعدما مشّطنا أنحاء فيفي بكاملها، ابتعدنا عنها قليلاً ناحية كلارنْس ومونترو وقد أثارت النّتيجة السّلبيّة لأبحاثنا استياءنا ولكنّها لم تثبط من عزيمتنا. فما لم ينجح اليوم سينجح غداً.

كنّا نمشي حيناً في طُرُقٍ تحدّها من الجهتين أسوارٌ، وحيناً في طُرُقٍ مشقوقة عبرَ بساتين الكروم والخضار أو تظلّلها أشجار كستناء

ضخمة كانت أغصانها الكثيفة تعترض الضّوء والهواء فلا تسمح بأن ينبت تحتها إلاّ طحلبٌ مخمليّ. وعند كلّ خطوةٍ نخطوها في تلك الطّرقات والدّروب، تنفتح بوّابة حديديّة أو حاجزٌ خشبيّ فنلمح حدائق ذات ممرّات رمليّة مرتّبة تتعرّج حول حشائش تنتصب فيها هنا وهناك أشجار صغيرة وأزهار. وخلف الخضرة يتوارى منزل فخم أو بيت صغير أنيق مزيّن بنباتات معرّشة. وكان معظم هذه البيوت الصّغيرة والمنازل قد بُني بشكل مدروس بحيث تطلّ على البحيرة الباهرة والجبال الدّاكنة المحيطة بها.

كانت تلك الحدائق في الغالب باعثاً ليأسِنا لأنّها تُبقينا بعيدين عن البيوت وتحول دون أن يسمعنا مَن في داخلها إن لم نعزف ونغنّي بكلّ قوانا، الأمر الذي كنّا نفعله من الصّباح حتّى المساء بحيث بات بمرور الوقت مُرهقاً لنا.

وذات أصيلٍ، كنّا نقدّم عرضاً في وسط الشّارع وليس أمامنا إلاّ سياجٌ نغنّي له وخلفنا سورٌ لا نأبه به. كنتُ غنّيتُ بصوتٍ جهوريٍّ المقطعَ الأوّل من أغنيتي النّابوليتانيّة وصرتُ أستعدّ للبدء بالمقطع الثّاني عندما سمعنا فجأةً صوتاً غريباً يرتفع خلفنا من فوق السّور ويغنّي المقطع الثّاني:

Vorria arreventare no piccinotto

Cona lancella oghi vennenno acqua

صوتُ مَن يُمكن أن يكون ذاك؟

- آرثر؟ سألني ماتيا.

كلاّ، لم يكن هو صوت آرثر وإلاّ لكنتُ عرفتُه. ومع ذلك كان كابي يُصدر تنهّدات مكتومة وتبدو عليه كلّ علامات الفرح وهو يتقافز إزاء السّور.

فلم أتمكّن من تمالك نفسي وصرخت:

- مَن ذا الذي يغنّي؟

فأجابني الصّوت:

- ريمي!

بدل الجواب سمعتُ اسمي. فتبادلنا أنا وماتيا النظرات مُحتارَين.

كنّا واقفين وجهاً لوجه مثل غبيَّين، حين لمحتُ عند طرف السّور خلف ماتيا وفوق سياجِ أشجارٍ منخفضٍ منديلاً أبيض يخفق في الهواء، فهرعنا إلى تلك الجهة.

ولم نتمكّن من رؤية الشّخص الذي كان يلوّح بالمنديل إلاّ عند وصولنا إلى سياج الأشجار: كانت تلك هي ليز!

أخيراً عثرنا عليها، ومعها السيّدة ميليغان وآرثر.

ولكن مَن الذي غنّى؟ كان هذا هو السّؤال الذي طرحناه أنا وماتيا في الآن ذاته ما إن تمكّنا من التقاط أنفاسنا.

- أنا، قالت.

ليز كانت تغنّي! ليز كانت تتكلّم!



صحيح أنّني سمعتُ ألف مرّة كلاماً عن أنّ ليز سوف تستعيد نطقها ذات يوم بتأثيرٍ من صدمة عاطفيّة عنيفة على الأرجح، ولكنّني لم أتصوّر يوماً أنّ هذا سيكون ممكناً.

ولكن ها إنّه قد حصلَ، ها إنّها تتكلّم وها إنّ المعجزة تتحقّق. وقد حصل ذلك لأنّها تأثّرت بشدّة عندما سمعتْني أغنّي ورأتني قادماً إليها هي التي كانت تظنّ أنّها أضاعتني إلى الأبد.

هذه الفكرة هزّتني بشدّة أنا أيضاً بحيث كان عليّ أن أستند إلى واحدٍ من فروعْ سياج الأشجار.

ولكن لم يكن ذلك وقت الانقياد للمشاعر، فقلتُ لها:

- أين السيّدة ميليغان؟ وأين آرثر؟

فحرّكت ليز شفتيها لتُجيب ولكن لم يصدر عن فمها إلاّ أصوات غير مترابطة. فعيلَ صبرها وراحت تستخدم لغة اليدين لتشرح لي ولتجعلني أُسرع في الفهم، فلقد كان لسانها وعقلها لا يزالان غير

مؤهّلين لاستخدام الكلام.

وفيما أتابع بعينيّ لغتها التي لم يكن ماتيا يفقهها، لمحتُ في أقصى الحديقة وعند منعطف ممرّ مشجّر عربةً صغيرة وطويلة يجرّها خادم: كان آرثر ممدّداً في تلك العربة تتبعه والدته ويرافقها - انحنيتُ إلى الأمام لأرى بشكلٍ أفضل - يرافقها السيّد جيمس ميليغان. وعلى الفور اختبأتُ خلف السّياج قائلاً لماتيا بسرعة أن يحذو حذوي دون أن أفكّر أنّ السيّد جيمس ميليغان ما كان يعرف ماتيا.

وما إن مرّت لحظة الهلع الأولى حتّى أدركتُ أنّ ليز لا بدّ أن يكون أربكها اختفاؤنا بهذا الشّكل، فقلتُ لها بصوتٍ خفيض:

- ينبغي ألاّ يراني السيّد جيمس ميليغان، وإلاّ فسيُرجعني إلى إنكلترا.

فرفعت ذراعيها خوفاً.

فتابعتُ قائلاً:

- لا تتحرّكي ولا تتحدّثي عنّا. غداً في التّاسعة صباحاً نعود إلى هذا المكان. حاولي أن تكوني بمفردك. والآن اذهبي.

فتردّدَتْ.

- اذهبي، اذهبي وإلاّ فستتسبّبين بافتضاحي.

قلتُ ذلك ثمّ ارتمينا عند الجدار لائذين به، ورحنا نركض حتّى تمكّنّا من الوصول إلى عرائش اختبأنا بين أوراقها. وهناك، بعد لحظة الفرح الأولى، تحدّثنا أنا وماتيا واتّفقنا.

قال لي:

- أتعرف؟ لا رغبة لي البتّة في انتظار الغد لرؤية السيّدة ميليغان.

ففي هذه الأثناء يمكن أن يقتل السيّد جيمس ميليغان الصبيَّ آرثر. لذا سأذهب لرؤية السيّدة ميليغان فوراً وإخبارها بكلّ شيء... بكلّ ما نعرفه. وبما أنّ السيّد جيمس ميليغان لم يرني قبل اليوم فلا خطر في أن يفكّر فيك أو في آل دريسكول. وبعد ذلك تقرّر السيّدة ميليغان ما علينا أن نفعل.

كان واضحاً أنّ فكرة ماتيا لم تكن تجانب الصّواب. لذا تركتُه يذهب واتّفقنا على أن ألتقيه عند مجموعة من أشجار الكستناء غير بعيدة. فهناك، يمكنني الاختباء إذا ما رأيتُ السيّد ميليغان قادماً بالصّدفة.

انتظرتُ طويلاً، متمدّداً على العشب، عودة ماتيا. ولأكثر من عشر مرّات تساءلتُ إنْ لم نكن أخطأنا في اتّخاذ قرارنا ذاك، وإذا بي أرى ماتيا يعود أخيراً ترافقه السيّدة ميليغان.

فركضتُ باتّجاهها وتلقّفتُ يدها التي كانت تمدّها نحوي وقبّلتها. فضمّتني بين ذراعيها وانحنت عليّ وقبّلتني بحنانٍ على جبيني.

كانت تلك هي المرّة الثّانية التي تقبّلني فيها، ولكن بدا لي أنّها في المرّة الأولى لم تضمّني بين ذراعيها على هذه الشّاكلة.

- أيّها الولد العزيز المسكين! قالت.

ثمّ رفعت خصلات شعري بأصابعها البيضاء الجميلة والرّقيقة وراحت تنظر إليّ مطوّلاً وهمست:

- أجل!... أجل!...

كانت هذه الكلمات تنطق على الأرجح بالأفكار التي كانت تعتمل في داخلها. ولكن في غمرة تأثّري كنتُ عاجزاً عن فهم تلك الأفكار.

كنتُ أشعر بحنان السيّدة ميليغان وبنظراتها التي تداعبني ولكنّني كنتُ أكثر سعادةً من أن أفتّش عمّا هو أبعد من اللّحظة الرّاهنة.

ثمّ قالت وهي لا تكفّ عن النّظر إليّ:

- يا بنيّ، لقد أخبرني رفيقك بأمور بالغة الخطورة. هلاّ أخبرتَني بدورك بكلّ ما يتعلّق بوصولك إلى عائلة دريسكول وبزيارة السيّد جيمس ميليغان لهم؟

فرويتُ لها ما طلبَتْه، ولم تقاطعني إلاّ لتطلب منّي تحديد بعض النّقاط المهمّة. لم يُصغِ إليّ أحدٌ يوماً بمثل ذلك التّركيز، فقد كانت عيناها لا تغادران عينيّ.

وعندما أنهيتُ روايتي، ظلّت صامتة لوقتٍ طويلٍ وهي لا تكفّ عن النّظر إليّ، ثمّ قالت لي أخيراً:

- كلّ هذا بالغ الخطورة عليك وعلينا جميعاً. لذا علينا التّصرّف بحذر وبعد استشارة أشخاصٍ يمكنهم أن يرشدونا. ولكن حتّى ذلك الوقت يجب أن تعتبر نفسك رفيق آرثر وصديقه - تردّدتْ قليلاً - وأخاه، وعليك منذ اليوم أن تترك أنت وصديقك حياة البؤس التي تعيشانها. اذهبا بعد ساعتين إلى فندق «الألب» في تيريتيه. سأرسل إلى هناك شخصاً موثوقاً منه يحجز لكما غرفة. وهناك سوف نلتقي لأنّني مرغمة الآن على تركْكما.

ثمّ قبّلتني من جديدٍ وبعدما صافحَتْ يدَ ماتيا، ابتعدت بسرعة.

فسألتُ ماتيا:

- ولكن ماذا أخبرتَ السيّدة ميليغان؟

- أخبرتُها بكلّ ما قالته لك للتوّ فضلاً عن أشياء أخرى كثيرة. آه!



يا للسيّدة الطيّبة! يا للسيّدة الجميلة!

- وهل رأيتَ آرثر؟

- من بعيدٍ فحسب، ولكن بما يكفي لأجد أنّه يبدو ولداً طيّباً.

واصلتُ طرح الأسئلة على ماتيا ولكنّه كان يتفادى أن يجيبني، أو كان يجيب مداورةً. فرحنا نتحدّث عن أمور غير مهمّة حتّى حان موعد ذهابنا إلى فندق «الألب» كما أوصت به السيّدة ميليغان. ورغم ملابس الموسيقيّين المتجوّلين التي كنا نرتديها، استقبلَنا خادم يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق بيضاء وقادنا إلى غرفتنا. كم بدت لنا تلك الغرفة جميلة! كان فيها سريران أبيضان، وكانت النّوافذ تُفضي إلى شرفةٍ تطلّ على البحيرة، والمشهد الذي يمكن رؤيته من هناك كان غاية في الجمال. ولمّا قرّرنا أخيراً مغادرة الشّرفة والعودة إلى الغرفة، كان الخادم لا يزال واقفاً ينتظر تعليماتنا وسألَنا ما نريد للعشاء الذي سيقدّمه لنا على الشّرفة.

فسأله ماتيا:

- أعندكم فطائر؟

- فطائر بالرّاوند وبتوت الأرض وبالكشمش.

- حسناً! آتِنا ببعضٍ منها.

- من الأنواع الثّلاثة؟

- طبعاً.

- وماذا تريدان كطبق أوّل ومَشويّات وخُضار؟

عند كلّ عرض، كان ماتيا يفتح عينيه دهشةً ولكنّه لم يرتبك وقال له:

- كما تشاء!

فخرج الخادم بوقار.

- أعتقد أنّنا سنتعشّى هنا بأفضل ممّا عند آل دريسكول، قال ماتيا.

وفي اليوم التّالي، جاءت السيّدة ميليغان لرؤيتنا وكان يرافقها خيّاط وقيّمة بياضات[1] أخذا مقاساتنا ليخيطا لنا بذلاتٍ وقمصاناً.

وقالت لنا إنّ ليز تتابع محاولاتها في الكلام وإنّ الطّبيب أكّد أنّها شُفيت. وبعدما أمضت معنا ساعةً من الوقت، غادرتنا بعدما قبّلتني بحنان وصافحت يدَ ماتيا.

وظلّت تزورنا على هذه الشّاكلة طوال أربعة أيّام، وفي كلّ مرّة كانت تُعرب حيالي عن المزيد من الحنان والعطف، ولكن مع شيء من الحذر كما لو أنّها لم تكن تريد الاستسلام لتلك العاطفة والسماح لها بأن تظهر للعيان.

وفي اليوم الخامس، أتت بدلاً منها الخادمة التي رأيتُها في ما مضى على متن «البجعة»، وقالت لنا إنّ السيّدة ميليغان تنتظرنا في منزلها وإنّ هناك عربةً في انتظارنا عند مدخل الفندق لتقودنا. كانت تلك عربة مكشوفة استقلّها ماتيا بكلّ مهابة ودون أن تصدر عنه علامة اندهاش كما لو كان معتاداً على التنقّل في مرْكبات فاخرة منذ نعومة أظفاره. وكابي هو الآخر صعد بلا تحرّج واستقرّ على إحدى الوسائد.

كانت الرّحلة قصيرة، أو بالأحرى بدت لي كذلك لأنّني كنتُ أسير في حلم ورأسي يضجّ بالأفكار المجنونة أو التي كنتُ إخالها

---

(1) امرأة يوكَل إليها أمر العناية بالبياضات (الشراشف والأغطية وما إليها) في بيت أو مستشفى أو مدرسة (المترجمة).

كذلك. أُدخِلنا إلى صالة استقبال وجدنا فيها السيّدة ميليغان وآرثر ممدّداً على أريكة وكذلك ليز.

مدّ لي آرثر ذراعيه، فركضتُ إليه لأعانقه، كما قبّلتُ ليز، وكانت السيّدة ميليغان هي التي بادرت إلى تقبيلي وقالت لي:

– أخيراً حانت السّاعة التي يمكنك فيها استعادة المكانة التي هي لك.

نظرتُ إليها لأطلبَ منها توضيح ما تقول، فذهبَتْ وفتحَتْ باباً دخلت منه السيّدة باربُران حاملةً بين يديها ملابسَ طفل: معطفاً من الكشمير الأبيض وقلنسوة من الدّانتيل وزوجَ جوارب صوفيّة.

لم تكد تضع هذه الأغراض على إحدى الطّاولات حتّى ضممتُها إليّ، وفيما كنتُ أقبّلها وجّهت السيّدة ميليغان لأحد الخدم أمراً لم أسمع منه إلاّ اسم السيّد جيمس ميليغان، فشَحُبَ لوني.

فقالت لي برقّة:

– ليس هناك ما تخشاه. بالعكس، ادنُ منّي وأمسِكْ بيدي.

وفي تلك اللّحظة انفتح باب الصّالة وظهر السيّد جيمس ميليغان مبتسماً وكاشفاً عن أسنانه المدبّبة. وما إن لمحني حتّى اختفت تلك الابتسامة فوراً لتحلّ محلّها تكشيرةٌ مرعبة.

فلم تدعْ له السيّدة ميليغان مجالاً للكلام وقالت بصوتٍ بطيء تشوبه رجفةٌ خفيفة:

– لقد طلبتُكَ لأقدّمَ لك ابني البكر الذي سعدتُ أخيراً بالعثور عليه – قالت ذلك وشدّت على يدي – وها هو. ولكنّك سبق أن تعرّفتَ إليه عند الرّجل الذي خطَفه، فقد ذهبتَ إلى هناك لتستعلم

عن صحّته.

- ما يعني هذا؟ قال السيّد جيمس ميليغان وقد امتقع وجهه.

- ... إنّ ذلك الرجل يقيم اليوم في السّجن بسبب سرقته إحدى الكنائس، وقد اعترفَ بكلّ شيء. هاك رسالةٌ تؤكّد ذلك. لقد قال كيف سرق الطّفل الحديث الولادة وكيف تركه في باريس على جادّة بروتويْ وأخيراً كيف قطع احتياطاً علامات ملابس الطّفل حتّى لا يُعثَر عليه. إليكَ كذلك الملابس التي احتفظتْ بها المرأة الرّائعة التي ربّت ابني بسخاء. أتريد رؤية الرّسالة؟ أتريد رؤية الملابس؟

بقيَ السيّد جيمس ميليغان جامداً لبرهة متسائلاً على الأرجح هل يخنقنا كلّنا، ثم توجّه صوب الباب ولكن قبل خروجه التفت صوبنا وقال:

- سوف نرى ماذا تقول المحاكم بشأن هذا الطّفل المزعوم.

فأجابت السيّدة ميليغان - صار بوسعي الآن أن أقول والدتي - من دون ارتباك:

- يمكنك جرّنا إلى المحاكم، أمّا أنا فلن أفعل الشّيء ذاته لشقيقِ زوجي.

وانغلق الباب خلف عمّي فتمكّنتُ من الارتماء بين ذراعَي أمّي الممدودتين باتّجاهي وتقبيلها للمرّة الأولى فيما تقبّلني هي كذلك.

وعندما هدأتْ انفعالاتنا قليلاً، اقترب ماتيا وقال:

- هلاّ أخبرتَ والدتك بأنّني احتفظتُ بسرّها جيّداً؟

- أكنتَ تعرف إذن؟ سألتُه.

فأجابت والدتي بدلاً منه:

- عندما روى لي ماتيا الحكاية، طلبتُ منه التزام الصّمت. فرغم اقتناعي بأنّ الصّغير ريمي المسكين هو ابني، كانت تلزمني براهين تؤكّد أنّ الخطأ لم يكن ممكناً. فلكم كان ألمك سيكون كبيراً يا ولدي العزيز لو أنّني بعد تقبيلك باعتبارك ابناً لي، جئتُ أخبرك بأنّنا كنّا مُخطئين! والآن بتنا نملك هذه البراهين وبات بِوسعنا أن نبقى معاً إلى الأبد. وإلى الأبد ستعيش مع والدتك وشقيقك - ثمّ أشارت إلى ليز وماتيا - ومع مَن أحبّوك عندما كنتَ تعيساً.





الفصل الثّالث والعشرون

في كنف العائلة

مرّت السّنون سريعةً على كثرتها، لأنّها كانت ملأى بأيّام جميلة وهانئة.

أعيش الآن في إنكلترا في ميليغان-بارك، قصرِ أجدادي.

إنّ الطّفل الذي لم يكن له عائلة أو سند، الطّفل المتروك والهائم في الحياة تتقاذفه الأقدار دونها منارة تقوده في وسط البحر الشّاسع الذي يتخبّط فيه، وبلا مرفأ يلوذ به، بات لديه لا أمّ فحسبُ وشقيق يحبّه، بل كذلك أجداد تركوا له اسماً مُحترَماً في بلاده وثروةً كبيرة.

ذلك الصّغير البائس الذي أمضى في طفولته ليالي كثيرة في الأهراء والاسطبلات أو في العراء في طرف غابة، بات اليوم وريث قصر تاريخيّ يزوره مُحبّو الاطّلاع ويوصي بزيارته كلّ دليل سياحيّ.

إنّه قائمٌ على بُعد نحو عشرين فرسخاً غربيّ المكان الذي أبحرتُ منه ذات يومٍ تُلاحقني الشّرطة، مُعلّقٌ في منتصف منحدرِ وادٍ صغيرٍ كثيرِ الأشجار رغم قربه من البحر. هو مبنيّ على ما يشبه ساحة طبيعيّة وله شكل مكعّب، وهو محصّن عند كلّ زاوية ببرج دائريّ كبير. والواجهتان الجنوبيّة والغربيّة مزيّنتان بالبُليعات[1] وأشجار الورد المعرّشة. أمّا واجهتا الشّمال والشّرق فيغطّيهما اللّبلاب الذي

(1) جنس نباتات مدّادة معترشة من فصيلة القرنيّة (المترجمة).

تشهد جذوعه، التي لها ضخامة جسمِ رجلٍ، على قِدَمِه، وتلزم كلّ العناية اليقظة للبساتنة لكي لا تُخفي نباتاته الممتدّة تحت ردائها الأخضر الزّخارف والنّقوش الغصنيّة المحفورة برهافة على الأحجار البيض التي تشكّل أطُر النّوافذ ومربّعاتها الداخليّة. وتُحيط بالقصر حديقة شاسعة، مزروعة أشجاراً مُعمّرة لم يمسّها يوماً فأسٌ أو ساطور، وترويها مياهٌ عذبة تجعل العشب دائم الخضرة. وفي غابة من أشجار الزّان المهيبة، تحطّ في كلّ ليلةٍ طيور الزّاغ لتُعلنَ بنعيبها بداية النّهار ونهايته.

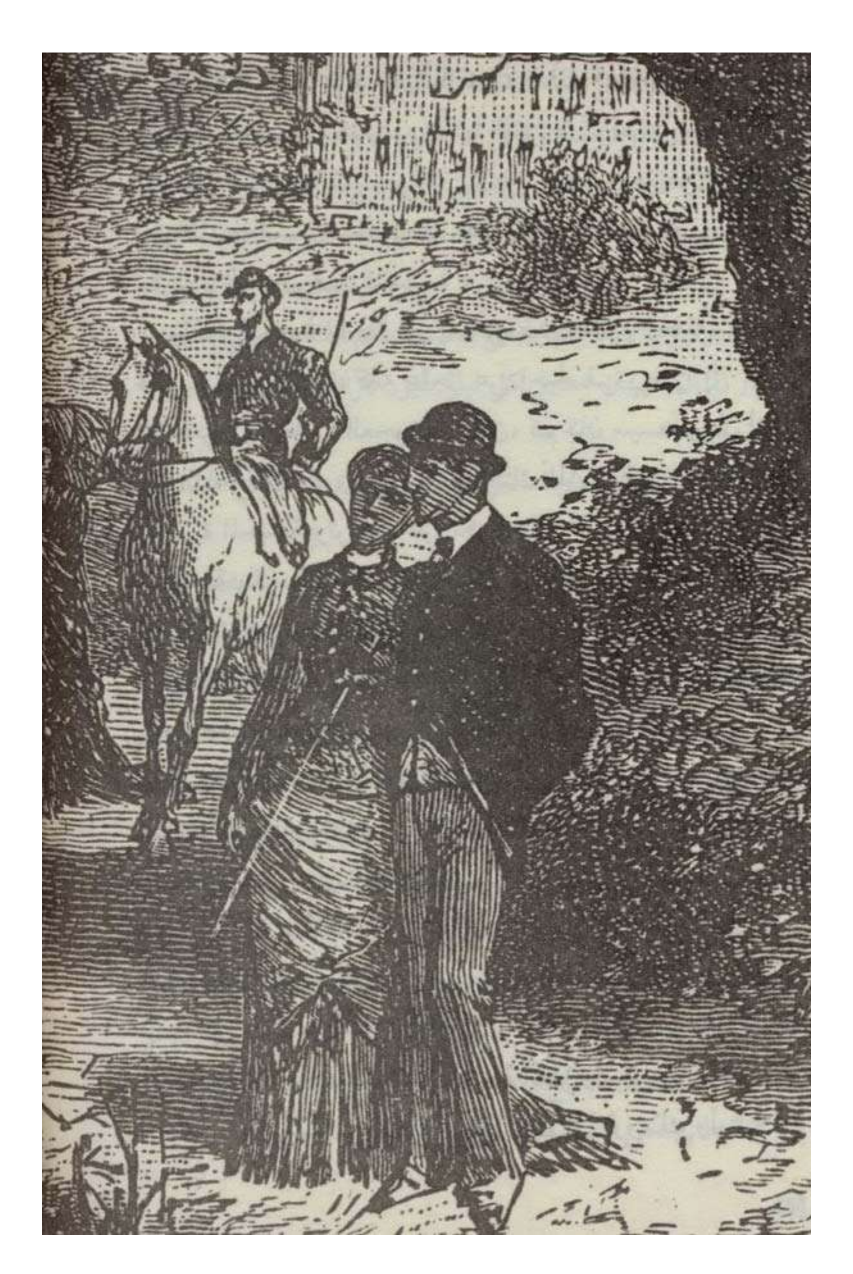
في قصر ميليغان-باركْ العريق هذا، نعيش أنا وأمّي وشقيقي وزوجتي.

ومنذ انتقلنا للعيش هنا قبلَ ستّة شهور، أمضيتُ ساعاتٍ طويلة في المستودع الذي حُفِظتْ فيه الصّكوك ووثائق المُلْكيّة وأوراق العائلة الرّسميّة، منحنياً على طاولةٍ من خشب السّنديان الذي سوّدته السّنون، منشغلاً بالكتابة. إلاّ أنّ ما أنكبّ عليه بكدٍّ ليس هو الصّكوك ولا الوثائق العائليّة، بل كتاب ذكرياتي الذي أتصفّحه وأعنى بترتيبه.

عمّا قريبٍ نعمّد ابننا الأوّل، الصّغير ماتيا. وفي هذه المناسبة سيجتمع في قصر أجدادي كلّ مَن كانوا أصدقائي في الأوقات العصيبة، وسأقدّم لكلّ منهم نسخةً من رواية المغامرات التي كانوا جزءاً منها. وذلك تعبيراً عن امتناني للعون الذي مدّوني به والعطف الذي أحاطوا به ذلك الولد الصّغير الضّائع. كلّما أنهيتُ فصلاً من الكتاب، أرسلته إلى الطّبّاع في دورشستر. واليوم أنتظر النّسَخ الموقّعة من مخطوطتي لكي أقدّم نسخةً لكلّ واحد من المدعوّين.

هذا اللّقاء هو مفاجأة هيّأتها لهم، وكذلك لزوجتي التي سترى والدها وشقيقتها وشقيقيها وعمّتها الذين لا تتوقّع هي حضورهم. وحدهما أمّي وشقيقي يعرفان بالأمر: وإن لم يعترض عائقٌ ما ترتيباتنا، فالجميع سينامون في تلك اللّيلة تحت سقفي وسأفرح لرؤيتهم مجتمعين حول مائدتي.

ولكنّ شخصاً واحداً لن يتمكّن من حضور الحفلة، إذ مهما عظُمَ سلطان الثّروة، فإنّه عاجز عن إحياء مَن رحلوا إلى الأبد. أيّها العزيز يا معلّمي العجوز المسكين، كَم كان سيسعدني أن أؤمّن لك الرّاحة! لكنتَ وضعتَ جانباً آلتك الموسيقيّة وفروة الخروف والسّترة المخمليّة وتوقّفتَ عن تكرار «إلى الأمام يا أطفالي!». فإنّ شيخوخة مكرّمة كانت ستسمح لك برفع رأسك المجلّل بالبياض واستعادة اسمك الحقيقيّ. ولَعاد فيتاليس المتشرّد العجوز ليصير من جديدٍ كارلو بلتساني المغنّي الشّهير. ولكن ما لم يسمح لي الموت الظّالم بتقديمه لك، قمتُ به على الأقلّ لذكراك. ففي باريس، في مقبرة مونبارناس، حُفِرَ اسم كارلو بلتساني على شاهدة قبرٍ قامت والدتي بطلبٍ منّي بإقامتها لك. كما أنّ تمثالاً نصفيّاً لك من البرونز نُحتَ استناداً إلى صورك المنشورة في أيّام شهرتك يذكّر مَن صفّقوا لك يوماً بمجدك. وإنّ نسخةً من هذا التّمثال النّصفيّ نُحتت من أجلي وهي الآن أمامي. وفيما أنا أكتب رواية سنوات المصاعب الأولى من حياتي، فإنّ عينيّ غالباً ما فتّشتا عن عينيك. فأنا لم أنسَكَ يوماً ولن أنساكَ أبداً، كنْ واثقاً من ذلك. فلئن كنتُ لم أتعثّر وأسقط في حياة الطّفل الضّائع الصّعبة تلك، فإليكَ أدين بذلك، إلى دروسك وأمثلتك يا





معلّمي العجوز! وفي كلّ احتفالٍ سيكون مكانك محفوظاً باحترامٍ مفعمٍ بالورَع. وإن كنتَ لا تراني، فإنّني سأراك.

وها هي والدتي تتقدّم في رِواق الصّوَر. السّنّ لم يُضعف جمالها قطّ. أراها اليوم كما بدت لي للمرّة الأولى على شرفة «البجعة»، بإطلالتها النّبيلة المملوءة رقّةً وطيبة. وحده حجاب الكآبة الدّائم الذي كان منسدلاً على وجهها اختفى.

إنّها مُستندة إلى ذراع آرثر. فالآنَ لم تعد الأمّ هي التي تسند ابنها المعتلّ المترنّح. لا بل إنّ الابن أصبح اليوم شابّاً قويّاً ووسيماً، بارعاً في كلّ المهارات الجسديّة، فارساً أنيقاً، ومجذِّفاً صلبَ العود، وصيّاداً جَسوراً، وهو الذي بات اليوم يقدّم ذراعه لتستند إليها أمّه. فخلافاً لتقديرات عمّي جيمس ميليغان، لقد تحقّقت المعجزة وعاش آرثر وسيعيش.

وعلى مسافةٍ قصيرةٍ خلفهما، أرى امرأة عجوزاً في ثياب قرويّة فرنسيّة تتقدّم حاملةً بين ذراعيها طفلاً صغيراً مدّثراً بمعطفٍ أبيض: هذه القرويّة العجوز هي السيّدة باربُران التي كانت لي بمثابة أمّ، والطّفل هو ابني، الصّغير ماتيا.

فبعدما عثرتُ على والدتي، أردتُ أن تبقى السيّدة باربُران لتعيشَ معنا ولكنّها لم تقبل وقالت لي:

– كلاّ يا صغيري ريمي، مكاني الآن ليس عند والدتك. فسيكون عليك أن تدرس وتجتهد لتصير بقوّة العِلم سيّداً حقيقيّاً، مثلما أنت كذلك بالولادة. ما يمكن أن أعمل بالقرب منك؟ مكاني ليس في منزل أمّك الحقيقيّة. دعني أرجع إلى شافانون. ولكنّ انفصالنا قد لا يكون

نهائيّاً. فأنت ستكبر وتتزوّج ويصير لك أطفال. عندئذٍ، إنْ أنتَ شئتَ، وإن كنتُ أنا لا أزال على قيد الحياة، فسوف أعود إليك لأربّي أولادك. لن أتمكّن من أكون مُرضعتهم كما كنتُ مرضعتك لأنّني سأكون قد هرمتُ، ولكنّ الهرم لا يعوق الاهتمام الجيّد بطفلٍ، فالعجوز لها خبرة وليست كثيرة النّوم. أضِف أنّني سأحبّ طفلك، وكن واثقاً أنّني لن أسمحَ بأن يسرقه أحدٌ منّي كما سرقوك أنتَ ذات يوم.

ولقد جرت الأمور بحسبِ مشيئة السيّدة باربُران. فقبلَ ولادة ابننا بفترة وجيزة، أرسلتُ بطلبها إلى شافانون فتركَتْ كلّ شيء، قريتها وعاداتها وأصدقاءها والبقرة التي وضعتْها بقرتُنا أنا وماتيا، لتأتي إلى إنكلترا وتعيش معنا. والصّغير ماتيا تُرضعه أمّه ولكنّ السيّدة باربُران هي من تُعنى به وتحمله وتلاعبه وتُلاطفه وتقول إنّه أجمل طفلٍ رأته يوماً.

يحمل آرثر في يده عدداً من جريدة التّايمز. يضعه على طاولتي ويسألني إن كنتُ قرأتُه، وإذ أجيبُ بالنّفي، يدلّني على مقالةٍ مكتوبة من فيينّا، هذه ترجمتُها:

«قريباً يزور ماتيا لندن. رغم النّجاح الهائل الذي لقيتْه هنا سلسلة حفلاته، ها هو يغادرنا إلى إنكلترا لارتباطه بالتزاماتٍ لا يمكنه تفويتها. سبق أن حدّثتكم عن حفلاته التي أحدثت تأثيراً عارماً بباعثٍ من مهارته العظيمة والأصيلة وموهبته كمؤلّف موسيقيّ. بكلمة واحدة يمكنني القول إنّ ماتيا هو شوبان الكمنجة».

ما أنا بحاجة إلى هذه المقالة لأعرف أنّ الموسيقيّ الجوّال الصّغير، صديقي وتلميذي، قد أصبح فنّاناً كبيراً. فقد رأيتُ ماتيا

يكبر ويتفتّح، وعندما كنّا ندرس نحن الثّلاثة، أنا وآرثر وهو، تحت إشراف معلّمنا، لم يكن يُحرز تقدّماً كبيراً في اللاّتينيّة واليونانيّة، ولكنّ تقدّمه في الموسيقى كان عظيماً حتّى أنّه، بفضل الأساتذة الذين كانت تأتي بهم له والدتي، لم يكن من الصّعب تخمين أنّ نبوءة إيبيناسّو، الحلاّق الموسيقيّ في مدينة مانْد، ستتحقّق. ومع ذلك، ملأتني تلك المقالة المكتوبة من فيينّا بفرحٍ مزهوّ كما لو كانت لي حصّتي من التّهليل الذي تنقل الجريدة أصداءه. ولكن أليس لي حصّة في ذلك فعلاً؟ أليس ماتيا شقيق روحي ورفيقي وصديقي وأخي؟ إنّ نجاحاته هي نجاحاتي وسعادته سعادتي.

في تلك اللّحظة أحضر لي أحد الخدم برقيّة وصلتني للتوّ:

«قد تكون هذه الرّحلة البحريّة هي الأقصر ولكنّها لم تكن الأكثر لطفاً. فهل من رحلات بحريّة لطيفة؟ المهمّ هو أنّني كنتُ مريضاً بشدّة، وفي رذ-هيل فحسبُ أجد القوّة لأبلّغك. لقد مررتُ بباريس وجلبتُ معي كريستينا. سنصل إلى شغفورد في الرّابعة وعشر دقائق. أرسلْ عربةً لموافاتنا.

ماتيا».

وعند ذكْر كريستينا، نظرتُ إلى آرثر ولكنّه كان قد حوّل نظره عنّي ولم يعاود النّظر إليّ إلاّ عند نهاية البرقيّة، قائلاً:

- إنّني أرغب في الذّهاب بنفسي إلى شغفورد. سأذهب لتحضير عربة اللاّندو[1].

---

(1) عربة لها أربع عجلات وتحوي مقعدين متقابلين وغطاءً من قطعتين يمكن فتحهما وإغلاقهما بحسب الرّغبة (المترجمة).

- إنّها فكرة ممتازة، هكذا تكون في طريق العودة جالساً قبالةَ كريستينا.

ودون أن يُجيبني خرج مُسرعاً. فالتفتّ إلى والدتي وقلتُ لها:

- أترين؟ إنّ آرثر لا يُخفي استعجاله. إنّ هذا لَمعبِّر!

- لا بل شديد التّعبير!

بدا لي أنّ في النّبرة التي قيلت بها هاتان الكلمتان شيئاً من عدم الرّضا. فنهضتُ وذهبتُ أجلس إلى جانب والدتي وأخذتُ يديها الاثنتين وقبّلتهما وقلتُ لها بالفرنسيّة - وهي اللّغة التي كنت أستخدمها دوماً معها عندما أكون راغباً في التّحدّث إليها بحنان كطفلٍ صغير:

- أمّي الحبيبة، يجب ألاّ تحزني لأنّ آرثر يحبّ كريستينا. صحيح أنّ هذا الحبّ لن يؤمّن له زواجاً «ناجحاً» بحسبِ معايير المجتمع الذي يعتبر أنّ الزّواج النّاجح هو ذلك الذي يجتمع فيه النّسب الرّفيع بالثّروة. ولكن ألاّ تؤكّد لكِ تجربتي أنّه يمكن للمرء أن يكون سعيداً، سعيداً جدّاً، سعيداً إلى أقصى الحدود، من دون أن يكون للمرأة التي يحبّها نسب رفيع أو ثروة؟ ألا تريدين أن يكون آرثر سعيداً بقدري؟ وكما عجزتِ عن رفضِ شيء للولد الذي بكيتِه طيلة ثلاثة عشر عاماً، أفلن تفعلين الشّيء ذاته لابنك الآخر؟ أم أنّكِ ستكونين أكثر تسامحاً مع ابنٍ دون الآخر؟

فمرّرتْ يدها على جبيني وقبّلتني وقالت:

- أوه! يا لك من ابنٍ طيّب، ومن أخٍ طيّب! كم من المحبّة تحمل في حناياك!

- هذا لأنّني ادّخرتُها في الماضي. ولكنّ الأمر لا يتعلّق الآن بي، بل

بآرثر. قولي لي أين سيجد امرأةً أكثر سحراً من كريستينا؟ أليست آيةً من الجمال الإيطاليّ؟ والتّعليم الذي لقيتْه منذ ذهبنا لملاقاتها في لوكا، ألا يسمح لها بأن يكون لها مكان، مكان مميّز، في أكثر المجتمعات تطلّباً؟

– أنت تنظر إلى كريستينا بوصفها شقيقة صديقك ماتيا.

– هذا صحيح، وأجهرُ بأنّني راغبٌ من كلّ قلبي في زواجٍ يصيّر ماتيا جزءاً من عائلتنا.

– وهل حدّثَك آرثر عن مشاعره ورغباته؟

فأجبتُ مبتسماً:

– أجل يا أمّي الحبيبة. وقد تحدّث إليّ بوصفي ربّ العائلة.

– وماذا قال ربّ العائلة؟...

– ... وعَده بأن يقدّم له الدّعم.

ولكنّ والدتي قاطعتني بالقول:

– ها إنّ زوجتك قادمة. سنتحدّث عن آرثر فيما بعد.

لا داعي لأن أقول لكم مَن هي زوجتي، فلقد خمّنتم، أليس كذلك؟ زوجتي هي الفتاة الصّغيرة ذات العينين المندهشتين دوماً والوجه المعبّر الذي تعرفون. إنّها ليز، الصّغيرة ليز، الرّقيقة والخفيفة والأثيريّة. لم تعد ليز بكماء، ولكنّها لحسن الحظّ احتفظت بالخفّة والرّقة اللّتين تضفيان على جمالها شيئاً ما سماويّاً. بقيتْ ليز مع والدتي التي جعلتْها تُربّى وتُعلَّم تحت ناظريها لتصير فتاةً جميلة، بل أجمل الفتيات. أُنعِمَ عليها بنظري بكلّ المزايا والفضائل، ما دمتُ أحبّها. لقد طلبتُ يدها من والدتي، وبعد ممانعة حادّة تستند إلى الفارق الاجتماعيّ بيننا،

لم تتمكّن والدتي من الرّفض، الأمر الذي أغضب بعض أفراد عائلتنا وأثار استنكارهم. ومن بين أربعة أشخاص استنكروا هذا الزّواج، عاد ثلاثة وقبلوا به بعدما وقعوا تحت سحر ليز، أمّا الشّخص الرّابع فهو على وشك أن يرضى بدوره ولا ينقص ذلك إلاّ زيارة نقوم بها غداً نعتذر له فيها عن سعادتنا.

- حسناً، ما الذي يجري؟ قالت ليز وهي تدخل. أنتم تختبئون عنّي وتتحدّثون سرّاً وها هو آرثر يذهب إلى محطّة شغفورد، أمّا عربة الـ «بريك»[1] فقد أُرسِلَتْ إلى موقف المعدّية، فهلّا قلتم لي ماذا تهيّئون؟

فابتسمنا ولكنّنا لم نُجِبْها.

فمرّرت ذراعها حول عنق والدتي وقبّلتها بحنان وقالت:

- بما أنّكِ ضالعة في المؤامرة يا أمّي الحبيبة فلن أقلق. فأنا واثقة مُسبقاً من أنّك كالعادة تعملين في سبيل سعادتنا، ولكنّ ذلك يضاعف من فضولي.

تقدّم الوقت، وبين لحظةٍ وأخرى كانت ستصل العربة التي أرسلتُها إلى موقف المعدّية، لتجلبَ عائلة ليز. لذا أردتُ مداعبة فضولها هذا، فتناولتُ منظاراً نستخدمه عادةً لمراقبة السّفن العابرة في البحر، ولكن بدلَ توجيهه صوب البحر وجّهتُه صوب الطّريق التي ستصل منها العربة، وقلتُ لها:

- تطلّعي في هذا المنظار لتُشبِعي فضولك.

فتطلّعتْ ولكنّها لم ترَ إلاّ الطّريق الفارغة تماماً، إذ لم تكن العربة قد وصلتْ بعد.

(1) عربة مكشوفة لها أربع عجلات (المترجمة).

فوضعتُ المنظار على عيني وقلتُ مقلّداً نبرة فيتاليس الإرشاديّة:

- كيف لم ترَي شيئاً بهذا المنظار؟ لكم هو رائع! بفضله أعبر فوق البحر وصولاً حتّى فرنسا. وها أنا أرى منزلاً أنيقاً في أنحاء مدينة سو، ورجلاً أبيض الشّعر يستعجل امرأتين تحيطان به قائلاً: «هيّا بسرعة، سيسبقنا القطار ولن أصل إلى إنكلترا لحضور معموديّة حفيدي. أسرعي قليلاً يا كاترين أرجوكِ، فنحن نعيش معاً منذ عشر سنوات وأنت دائمة التّأخّر. ماذا؟ ما تقصدين يا إتيانيت؟ ها هي الآنسة تمارس دور الشرطيّة من جديد! إنّ ملامتي لكاترين وديّة تماماً. فأنا أعرف أنّ كاترين هي أفضل شقيقة مثلما أنّكِ أفضل ابنة. فأين يمكن إيجاد ابنةٍ مثلكِ تأبى الزّواج لكي تُعنى بأبيها الهَرِم، مُستكملةً دور الملاك الحارس الذي لعبتْه منذ كانت صغيرة حيال شقيقيها وشقيقتها؟». ثمّ، قبلَ الانطلاق، يُعطي تعليمات للعناية بالأزهار خلال غيابه، فيقول لخادمه: «لا تنسَ أنّني كنتُ ذات يومٍ بستانيّاً، وأعرف المهنة جيّداً».

ثمّ أزحتُ المنظار كما لو كنتُ أريد التطلّع صوب جهةٍ أخرى وقلتُ:

- أمّا الآن، فأنا أرى باخرةً، باخرة كبيرة قادمة من جزر الأنتيل وهي تقترب من مدينة «هافر». وعلى متنها شابّ يعود من رحلة استكشافٍ نباتيّة في منطقة الأمازون. يُقال إنّه يحمل معه أجناساً من النّبات مجهولة في أوروبا. والقسم الأوّل من رحلته الذي نُشِرَ في الصّحف مشوّق جدّاً. أمّا اسمه، بنجامان آكان، فقد أطبقت شهرته الآفاق. ولكنّ أمراً واحداً يشغله: أن يعرف ما إذا كان سيصل إلى الهافر في الوقت المناسب

ليركب السّفينة المتّجهة إلى ساوثهامبتون ويوافي عائلته في ميليغان-بارك. إنّ منظاري لشديد الرّوعة بحيث لا يَني يتعقّبه. لقد صعد على متن سفينة ساوثهامبتون وبات وصوله قريباً.

ومن جديدٍ وجّهتُ منظاري إلى وجهة مختلفة وتابعتُ:

- أنا لا أرى فحسب، بل أسمع أيضاً. أسمع رجلين في مقصورة قطار، هما شابّ وكهل. يقول الكهل: «كم ستكون هذه الرّحلة شائقةً بالنّسبة إلينا!». فيجيب الشّاب: «شائقةً جدّاً يا معلّم!». ويتابع الكهل: «لن تكون كذلك فحسبُ يا عزيزي أليكسي، فأنتَ ستتمكّن من رؤية عائلتك، ولن نتمكّن فقط من مصافحة يد ريمي الذي لم ينسَنا قطّ، بل ستتمكّن من زيارة مناجم بلاد الغال أيضاً. وهناك سترى أشياء عجيبة. ولدى عودتنا ستكون حاملاً أفكاراً لتطوير منجم ترويّير، ممّا سيزيد من أهميّة موقعكَ الذي عرفتَ كيف تكسبه بالعمل. أمّا أنا، فسأحمل معي عيّنات لأضيفَها إلى مجموعتي التي قبلت مدينة فارس بأن تهتمّ بها. للأسف أنّ غاسبار لم يتمكّن من المجيء!».

كنتُ أستعدّ للمتابعة ولكنّ ليز اقتربتْ منّي وأخذت رأسي بين يديها فمنعتني مداعبتُها من أن أُكملَ. وقالت بصوتٍ يرتجف تأثّراً:

- آه! يا للمفاجأة الجميلة!

- لا تشكريني أنا، بل اشكري ماما التي أرادت جمعَ كلّ من كانوا طيّبين إزاء ابنها المهجور. ولو لم تُقاطِعيني لكنتِ عرفتِ أنّنا سنستقبل كذلك الرّائع بوب وقد بات أشهر رجل استعراضات في إنكلترا، فضلاً عن شقيقه الذي ما يزال قبطان سفينة «الكسوف».

وفي تلك اللّحظة، تناهى إلينا صوتُ عربةٍ تقترب من المنزل وسرعان ما تلتها عربةٌ ثانية. فهرعنا إلى النّافذة ورأينا عربة «البريك» وفيها لمحتْ ليز أباها وعمّتها كاترين وشقيقتها إتيانيت وشقيقيها أليكسي وبنجامان. وإلى جانب أليكسي يجلس عجوزٌ أبيض الشّعر محنيّ الظّهر، إنّه الأستاذ. ومن الجهة المقابلة، وصلت كذلك عربة اللاّندو المكشوفة وفيها ماتيا وكريستينا يلوّحان لنا بيديهما. وخلف اللاّندو تتقدّم «كابريوليه»[1] يقودها بوب بنفسه. تبدو على بوب كلّ سيماء «الجنتلمان» أو الرّجل الشّهم، أمّا شقيقه فلا يزال البحّار الصّلب نفسه الذي قادنا إلى إيزيني على متن سفينته.

فهرعنا لاستقبال ضيوفنا عند أسفل درج المدخل.

واجتمعنا كلّنا حول مائدة العشاء، ودارَ الحديث طبعاً حول الماضي.

قال ماتيا:

- التقيتُ مؤخّراً في باد في صالات القمار بجنتلمان ذي أسنان بيضاء ومسنّنة دائم الابتسام رغم حظّه العاثر. لم يعرفني، وقد شرّفني بطلب قطعة فلورين[2] ليراهِنَ بها على رقمٍ مؤكّد الفوز أشاركه في أرباحه. ولكنّها كانت شراكة خاسرة، فالسيّد جيمس ميليغان لم يكسب الرّهان.

فقالت والدتي:

- ولِمَ تروي هذه الحكاية أمام ريمي يا عزيزي ماتيا؟ فهو سيرسل

(1) عربة بعجلتين وحصان واحد (المترجمة).

(2) وحدة النّقد في هولندا (المترجمة).

العون لعمّه.

- تماماً يا أمّاه الحبيبة.

- وأين يكون التّكفير إذن؟ سألتْ والدتي.

- في أن يكون عمّي الذي ضحّى بكلّ شيء في سبيل الثّروة مديناً برغيف عيشه لمن اضطهدهم هو وسعى لموتهم.

وقال بوب:

- لقد وصلتني أخبار عن شركائه في الجريمة.

- عن دريسكول الرّهيب؟ سأل ماتيا.

- ليس عن دريسكول نفسه، فلا بدّ أنّه ما يزال في منفاه خلف البحار، ولكن عن عائلة دريسكول. فالسيّدة دريسكول ماتت حرقاً بعدما نامت ذات ليلة في ركن المدفأة بدل أن تنام على الطّاولة كما تفعل في العادة. أمّا آلن ونيدْ فقد حُكم عليهما مؤخّراً بالتّرحيل وسيلقيان مصير والدهما.

- وماذا عن كايت؟

- الصّغيرة كايت تُعنى بجدّها الذي لا يزال على قيد الحياة. وهي تعيش معه في ساحة الأسد الأحمر. وهما ليسا تعيسين فالشيخ ثريّ.

فقال ماتيا ضاحكاً:

- إنّني أشفقُ عليها إن كانت شديدة التّأثر بالبرد. فالشيخ لا يحبّ أن يقترب أحد من مدفأته.

في استعادة الماضي تلك، كان لدى كلّ واحد منّا ما يضيفه. أفليس صحيحاً أنّنا جميعاً نملك ذكرياتٍ مشتركةً من الجميل تبادلُها؟ إنّها الرّباط الذي يجمعنا.

وبعد انتهاء العشاء، اقترب ماتيا منّي وأخذني على حِدة قرب إحدى النّوافذ وقال لي:

- أفكّر في شيء. لطالما عزَفنا الموسيقى لأشخاص غرباء، والآن ينبغي أن نعزف لمن نحبّهم.

- أليس لك من متعة بدون موسيقى؟ الموسيقى دائماً وأبداً؟ تذكّر خوفَ بقرتنا.

- أتريد أن تغنّي أغنيتك النّابوليتانيّة؟

- بكلّ سرور، فهذه الأغنية هي التي أعادت لليز قدرتها على النُّطق.

فتناولنا آلتَينا. أخرج ماتيا من صندوق جميل مبطّن بالمخمل كمنجة قديمة لو شئنا بيعها لعادَت علينا بفرنكين اثنين، وأظهرتُ أنا قيثارةً استعادَ خشبها الذي كان قد غسلتْه الأمطار لونه الطّبيعيّ.

وتحلّق حولنا الجميع، ولكن في تلك اللّحظة تقدّم كلبٌ من نوع القلَطيّ[1]، هو كابي. لقد بات كابي الطيّب عجوزاً وفقد سمْعه ولكنّه لا يزال يحتفظ بنظر ثاقب. ومن الوسادة التي يستلقي عليها عرفَ قيثارتي، قيثارته في الحقيقة، فتقدّم يجرّ قوائمه جرّاً ليشارك في «العرْض» حاملاً بأسنانه صحناً صغيراً. أراد أن يدور على «الحضور الكريم» ماشياً على قائمتيه الخلفيّتين ولكنّ قواه خذلته، فجلس محيّياً «الحضور» بوقار واضعاً إحدى قائمتيه على صدره.

وبعدما أنهينا أغنيتنا، وقف كابي بصعوبة «لجمع التبرّعات». فوضع الجميع تقدمةً في الصّحن، ممّا أفرح كابي الذي عاد إليّ

(1) القلَطيّ caniche : كلب صغير كثيف الوبر يُربّى في البيوت (المترجمة).

بالحصيلة. كان ذلك أكبر مبلغٍ حصلنا عليه يوماً، وما كان يضمّ إلاّ قطعَ نقودٍ فضيّة وذهبيّة: مائة وسبعين فرنكاً.

فقبّلتُه على خطمه مثلما كان يحصل في الماضي عندما كان يواسيني. وإذا بذكرى آلام طفولتي هذه توحي لي بفكرةٍ سرعان ما كشفتُ عنها:

- سيكون هذا المبلغ حجر الأساس لإقامة ملجأ لموسيقيّي الشّوارع الصّغار. وأنا وأمّي سنتكفّل بالباقي.

فقال ماتيا مقبّلاً يد والدتي:

- سيّدتي العزيزة، أرجو أن تسمحي لي بأن أشارك بقسط متواضع جدّاً في هذا المشروع. إذا سمحتِ، فستُضاف عائدات حفلي الأوّل في لندن إلى ما جمعه كابي للتوّ.

مخطوطتي هذه تنقصها صفحة. إنّها الصّفحة التي يجب أن تحوي أغنيتي النّابوليتانيّة. وقد قام ماتيا، وهو موسيقيّ أكثر براعةً منّي، بتدوين نوطتها. ها هي كلمات الأغنية[1]:

---

(1) وضع المؤلّف في خاتمة روايته هذه النوطة الموسيقيّة للأغنية النابوليتانية التي اعتاد ريمي أن يُنشدها في عروضه الفنيّة المتجوّلة. وارتأينا أن نمهدّ لها في هذه الترجمة بوضع الأغنية في نصّها الأصليّ وفي ترجمة عربيّة للمترجمة والمحرّر اعتمدا فيها ترجمة فرنسيّة قامت بها آنيس مالفيل:

Agnès Maleville « La Chanson Napolitaine de *Sans Famille* » *Revue Perrine* 1/2010, Association des amis d'Hector Malot.

ويهمّنا التنويه بأنّه يكفي أن يضع القارئ الرّاغب في سماع الأغنية عنوانها النابوليتانيّ: *Fenesta Vascia* في خانة البحث في موقع يوتوب You Tube أو سواه ليعثر عليها مغنّاة من قبل العديد من المغنّين والمغنّيات الطّليان (المترجمة).

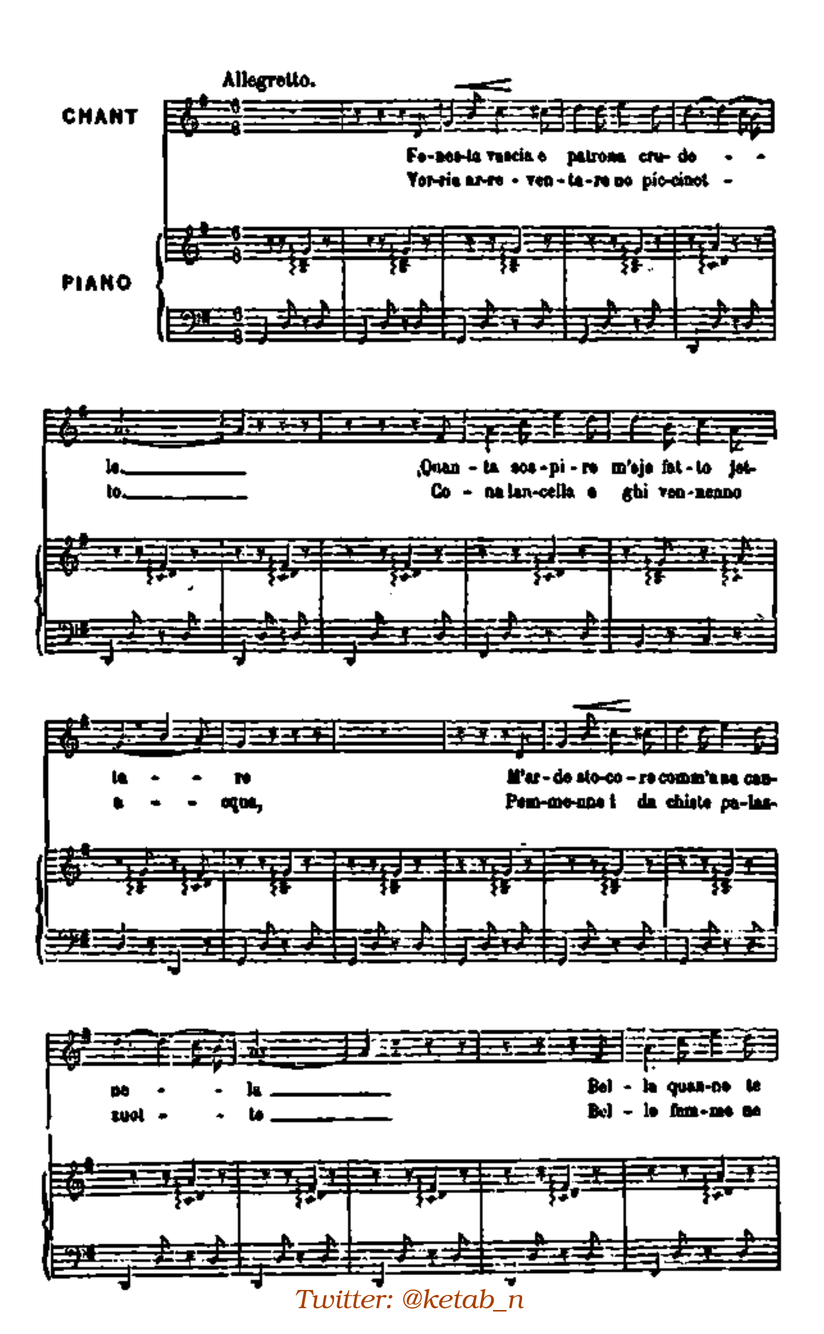
Fenesta vascia ‹e padrona crudele,
quanta suspire mm›haje fatto jettare!...
Mm›arde stu core, comm›a na cannela,
bella, quanno te sento annommenare!
Oje piglia la ‹sperienza de la neve!
La neve è fredda e se fa maniare...
e tu comme si› tanta aspra e crudele?!
Muorto mme vide e nun mme vuó› ajutare!?...

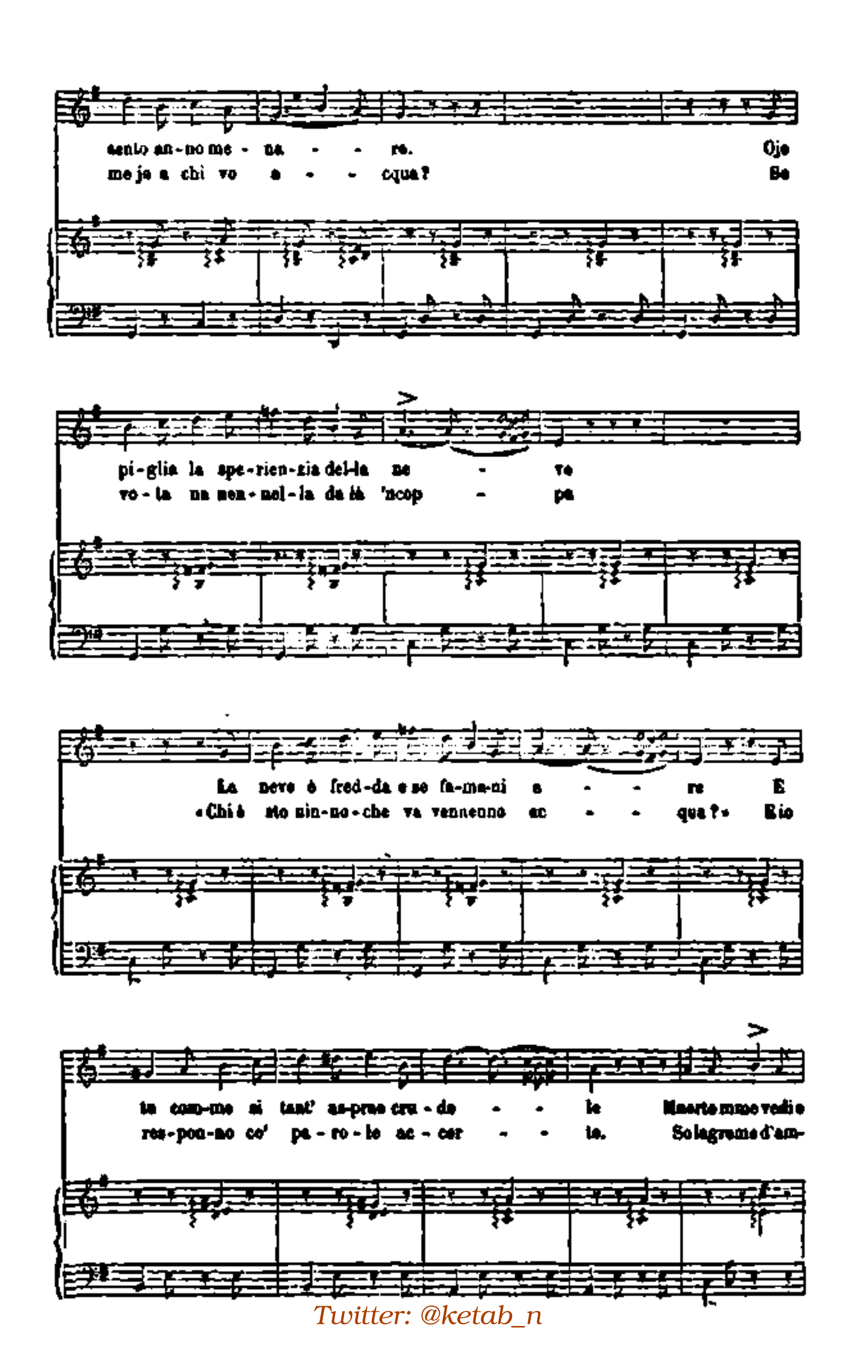
Vorría addeventare no picciuotto,
co na langella a ghire vennenn›acqua,
Pe› mme ne jí da chisti palazzuotte:
Belli ffemmene meje, ah! Chi vó› acqua...
Se vota na nennella da llá ‹ncoppa:
Chi è ‹sto ninno ca va vennenn›acqua?
E io responno, co parole accorte:
Só› lacreme d›ammore e non è acqua!...

أيتها المعشوقة القاسية، يا امرأةً مشؤومةً باطلة!
كم من الحسراتِ جرّعتِني!
قلبي يحترق مثل شمعة
عندما أسمعهم يُطرون عليكِ، يا حسنائي
انظري إلى الثّلج واقتدي به
فالثّلج باردٌ ولكنّه على أهبة الذّوبان
أمّا أنتِ، فكم أنتِ قاسية ورهيبة؟
ترينني أموت ولا تريدين إسعافي!

آه لو رجعتُ ولداً صغيراً
يبيع المياه في جرّة
ويمشي بين تلك المنازل العالية:
«يا جميلات، من منكنّ تريد شراء الماء؟»
فتسأل في الأعلى فتاة:
«من هذا الصبيّ الذي يبيع الماء؟»
فأجيبها بكلماتٍ معبِّرة:
«ما هذا بماء، هي دموعُ حُبّ».

وهي ذي نوطتها الموسيقيّة:


Allegretto.
CHANT
PIANO
Fe-nes-ta vascia e patrona cru-de - -
Vor-ria ar-re - ven - ta - re no pic-cinot -
le.
to.
¡Quan - ta sos-pi-re m'eja fat-to jet-
Co - na lan-cella e ghi ven-nenno
ta - - - re
e - - - aqua,
M'ar - de sto-co - re comm'a na can-
Pem-me-nne i da chiste pa-las-
ne - - la
suol - - te
Bel - la quan-no te
Bel - le fem-me ne



sento an-no me - na - - - re. Oje
me je a chi vo a - - - cqua? Se
pi-glia la spe-rien-zia del-la ne - ve
vo-ta na nen-nel-la da llà 'ncop - pa
La neve è fred-da e se fa-me-ni a - - - re E
«Chi è sto nin-no-che va vennenno ac - - qua?» Bio
tu com-me si tant' as-pra e cru-de - - - le Muorte mme vedi e
res-pon-no co' pa-ro-le ac-cer - - - te. So lagreme d'am-


non mme vuò aju - ta - - re.
mo - re, e nonè ac - - qua.


Twitter: @ketab_n

بلا عائلة

ابتداءً من العنوان، تجعل هذه الرّواية من العائلة قيمةً بحدّ ذاتها والبحث عن الأمّ جزءاً من البحث عن الذّات. وهي تعتمد مساراً مخالفاً لمسار النّضج المعتاد، أي ذاك الذي يبدأ في كنف العائلة وينتهي بالانفصال عنها وقطع حبل السّرّة كدليل على تحقّق النّضج الشّخصيّ. فمسار ريمي يبدأ بالانفصال وينتهي بالاجتماع العائليّ، وبين اللّحظتين مجموعة من الاختبارات المتتالية والمتزامنة تكون فيها استعادة الفردوس العائليّ المفقود ذروة المسار التّلقينيّ. اختبارات هي على غرار لحظة الانفصال الأولى معقودة على الفقدان أساساً. كأنّا بالكاتب يريد القول إنّ بناء الذّات والنّضوج العاطفي والنّفسي لا يتمّان إلاّ بتعلّم الخسارة.








9 789948 171973